مذكرات
كازنتزاكي
١ - ٢

تقرير إلى غريكو



ترجمة : ممدوح عدوان

مذكرات كازنتزاكي

١

تقرير إلى غريكو

مذكرات كازنتزاكي

١

تقرير إلى غريكو

ترجمة: ممدوح عدوان

الجندي
للطباعة والنشر

كتابة « تقرير الى غريكو »

كان نيكوس كازانتزاكي يطلب من ربه ان يمد في عمره عشر سنوات اخرى يكمل بها عمله ـ يقول فيها ما كان عليه ان يقول و « يفرغ نفسه ». وكان يريد ان يأتيه الموت فلا يأخذ منه الا كيسا من العظام . عشر سنوات تكفي . او هذا ما كان يظنه .

الا ان كازانتزاكي لم يكن من النوع الذي يمكن ان « يفرغ » . دون احساس بالشيخوخة او التعب في الرابعة والسبعين من عمره كان يعتبر نفسه متجدد الشبـــاب حتى بعد مغامرتـه الاخيرة ، والحقنـة المفجعة . وتبادر الي ذهنه المتخصصان العظيمان في (فريبرغ) : اختصاصي الـدم هليمير والجراح كراوس .

طوال الشهر الاخير كان البروفسور هيلمير يهتف بعد كل زيارة « اقول لكم ان هذا الرجل معافى . ودمه اصبح سليما مثل دمي » .

وكنت اعنف نيكوس دائما : « لم تركض هكذا ؟ » خشية ان ينزلق على الارضية الحجرية ويكسر عظما من عظامه .

وكان يجيب : « لا تقلقي يا لينوتسكا . ان لدي اجنحة » . وكان في وسع المرء ان يحس بالثقة التي لديه في تكوينه وفي روحه ، تلك الثقة التي كانت ترفض ان تمرغ .

كان ، احيانا ، يتنهد : « آه . لو انني ، فقط ، استطيع ان املـي عليك » ثم يحاول ان يكتب وهو يمسك بالقلم بيده اليسرى .

ـ لم العجلة ؟ من يطاردك ؟ لقد فات الاسوأ ، وخلال ايام قليلة ستكون قادرا على الكتابة بما يرضي قلبك .

وكان يلفت رأسه ويحدق الي طويلا دون ان يتكلم . وبعد ذلك يتنهد

ويقولّ : « لدي الكثير جدا مما يجـب ان اقول • تعذبني مرة اخرى ثلاثة موضوعات ، ثلاث روايات جديدة • ولكن علي ان انهي غريكو أولا •

ـ سننهيه • لا تقلـق •

ـ انني أخطط لتغييره • اتناولينني ورقة وقلما ؟ دعينا نر ان كنـت استطيع التدبر • الا ان عملنا المشترك لم يكن يستغرق اكثر من خمس دقائـق •

« مستحيل ! لا اعرف كيف أملي ، لا استطيع ان افكر الا والقلم في يدي » • الاسلاف ، الابوان ، سنوات الطفولة ••• اثينا ، كريت ، الرحلات ••• سيكيانوس ، فيينا ، برلين ، بريفيلاكيس ، موسكو ••

أتذكر الان لحظة دقيقة اخرى من حياتنا ، في مستشفى اخـرى • وهذه المرة في باريس • كـان نيكوس مريضا ودرجـة حرارتـه ١٠٤ والاطبـاء مضطربون ، لقد فقد الجميع أملهم • نيكوس ، ظل متماسكا •

« أتعطينني قلما يا لينوتسكا ؟ » •

وبصوت متهدج ، وهو غائب في رؤياه ، أملى علي ، الكلمات التـي ينطق بها القديس الفرنسيسكاني : « قلت لشجرة اللوز : حدثيني عـن الله يا أخت ، فأزهرت شجرة اللوز » •

وقبل ان نرحل الى الصين ترك « تقرير الى غريكو » بين يدي رسام شاب هو « قابلته » ـ كما كان يسميه ـ لانه كان يأتي مع الفجر ويصعد الى مكتبة نيكوس مشوشا بمشكلات عظيمة ـ عن الله والناس والفـن ـ ويبدأ اسئلته اللامتناهية عن « متى » و « فيمـا اذا » و « كيـف » بينما نيكوس « مستسلم » وهو يضحك معجبـا بحرارة الشاب وحبـه الجارف لفنه • كان يلقي بأفكاره ويريح نفسه • قال له نيكوس : « قد يحترق البيت ولذا سأترك المخطوطة معك • فلو انها احترقت وهي في هذه المرحلة فانني لن استطيع اعادة كتابتها ابدا ، ان خجلي كبير لانني لم انهها » •

ولكن كيف كان من الممكن ان ينهيها ؟ وما الذي تركه غير منجز فـي تلك الاشهر القليلة السابقة الرحلة ؟

لقد بدأ « التقرير » في خريف ١٩٥٦ ابان عودتنا من فيينا ، وحين كان يحتاج لتغيير الجو كان يتناول « أوديسة » هوميروس التي كان يعمل بهـا بالتعاون مع البروفسور كاكريديس •

« علينا ان ننهيها في الوقت المناسب بحيث لا انزل الى « هيدس (١) » برجل عرجاء»، هي العبارة التي اعتاد ترديدها بشيء من السخرية ، وشيء من الخوف . وخلال تلك الاشهر ذاتها واظبت مقاطع من ترجمته الانكليزية للاوديسة على الوصول في فترات متعددة مصحوبة بصفحات كاملة من الكلمات العصية على الترجمة . كم من الوقت وكم من الجهد استهلكت الاوديسة من جديد . هذا بغض النظر عن الطبعات المتعددة لاعماله الاخرى اليونانية . كانت هناك نصوص يجب ان تصحح او يضاف لها ، و « روسيا » المخطوط الذي ضاع وبيير سيبريو في الاذاعة الفرنسية الذي انهكه بأحاديثه ، والفيلم ، ورحلة الى الهند بدعوة من نهرو تهيأنا لها ولكننا لم نقم بها لاننا خفنا من اللقاحات التي تتطلبها .

لا . انه لم يبتغ انهاء « التقرير الى غريكو » في الوقت المحدد . اذ لم يكن قادرا على كتابة مسودة ثانية ، كما كانت عادته . كان يبتغي ان يعيد كتابة الفصل الاول بكاملة واحد المقاطع الختامية « حين أثمرت بذرة الاوديسة في داخلي » الذي أرسله قبل وفاته لكي ينشر في دورية « نياستيا Neaestia » . بالاضافة الى ذلك كان يبتغي انهاء قراءة مخطوطته واجراء تنقيحات او اضافات بالقلم هنا وهناك .

استعيد وانا وحدي الان فجر الخريف الذي كان يهبط بغاية الهدوء واللطف كطفل صغير مع الفصل الاول .

« اقرئي يا لينوتسكا . اقرئي ودعيني اسمع » .

« اجمع ادواتي : النظر والشم واللمس والذوق والسمع والعقل . خيم الظلام وانتهى عمل النهار . اعود كخلد الى بيتي ، الارض ، ليس لانني تعبت وعجزت عن العمل . انا لم اتعب لكن الشمس قد غربت ... » .

لم استطع المتابعة . برز نتوء في حلقي ، كانت هذه هي المرة الاولى التي يتحدث فيها نيكوس عن الموت .

- لم تكتب وكأنك تستعد للموت ؟

هكذا صرخت بيأس حقيقي ، وقلت لنفسي : « لم قبل الموت اليوم ؟ » .

- « لا تقلقي يا زوجتي فأنا لن اموت » أجاب دون اي تردد « ألم اقل انني سأعيش عشر سنين اخرى ؟ » اصبح صوته الان اخفت . ثم مد يده ليلمس ركبتي « هيا بنا الان . اقرئي ، دعينا نر ما كتبت » .

---

(١) هيدس : مثوى الاموات في الميثولوجيا اليونانية .

لقد انكر امامي ولكن ربما كان يعرف به في اعماقه · لانه في تلك الليلة ذاتها وضع الفصل في مغلف رسالـــة لصديقه بانتديليس بريفيلاكيس : « هيليني لم تستطع ان تقرأه ، فقد اخذت تبكي ، الا ان من الخير لهـــا ـ ولي أيضا ـ ان تتعود ··· » ·

ويبدو ان شيطانه الداخلي قد حثه على ترك (فاوست : الجزء الثالث) الذي كان يرغب في كتابته وان يطلق بدلا منه سيرته الذاتية ·

« التقرير » مزيج من الواقع والخيال : كمية كبيرة من الحقيقة والحـد الادنى من التخيل · لقد تم تغيير عدة تواريخ ، وحين يتحدث عن الاخريـن فانها الحقيقة دون تغيـير : مـا رآه تماما وما سمعـه وحين يتحدث عـن مغامراته الشخصية فان هناك بعض التعديلات ·

الا ان هناك شيئا واحدا مؤكدا وهو انه لو استطاع اعادة كتابة هـذا « التقرير » لغيـّره · اما كيف ؟ فهذا لا نعرفه · كان سيغنيه ، ذلك انـه كل يوم كان يتذكر احداثا جديدة كان قد نسيها · كما انه ، ايضا ، كـان سيسكبه ، كما اعتقد ، في قالب الحقيقة ، فقد كانت حياته الفعلية مليئة بالمادة والالم والفرح والعذاب ، وبكلمة واحدة كانت حياته مليئة بالعزة · لم كان سيغير حياته ؟ ليس بسبب اللحظات الصعبة من الضعف والانطـلاق والالم · بل على العكس من ذلك ان هذه اللحظات الصعبة ذاتها هـي التي كانت تتحول لدى كازنتزاكي الى درجات جديدة تساعـده على الصعود أعلى فاعلى ـ الصعود حتى الوصول الى القمة التي وعد نفسه بالتسلق اليهـا قبل هجر ادوات العمل بسبب هبوط الليل · لقـد توسل الي مكافح اخـر قائلا : « لا تحكموا علي بأعمالي ولا تحكموا علي من وجهة نظر الانسان بل احكموا علي من وجهة نظر الله ـ ومن الهدف المختصر وراء أعمالي » ·

هكذا كان يجب ان نحكم على كازانتزاكي · ليس بما فعله وبما اذا كان ما فعله ذا قيمة سامية أم لا ، بل علينا ان نحكم عليه بما أراد ان يقوم به ، وبما اذا كان لما أراد ان يقوم به قيمة سامية له ولنا ايضا ·

بالنسبة لي اعتقد انه كانت لـه هـذه القيمـة ، وفي السنوات الثلاث والثلاثين التي قضيتها الى جانبه لا اذكر انني خجلت من تصرف واحد من جانبه ، كان نقيا ودون مكر وبريئا وعذبا ، بلا حدود ، مع الاخرين ، وقاسيا مع نفسه فقط · وحين ينسحب الى عزلته فانه كان يفعل ذلك لاحساسه أن الاعمال المطلوبة منه قاسية وان ساعاته محدودة ·

لقد اعتاد ان يقول لي وعينـــاه الفاحمتـــان المدورتان ، المدورتان ،

غارقتان في الظلمة ومليئتان بالدموع « أحس كأنني سأفعل ما يتحدث عنه برغسون ـ الذهاب الى ناصية الشارع ومد يدي للتسول من العابرين : زكاة يا اخوان ، ربع ساعة من كل منكم ٠ آه على بعض الوقت ٠ ما يكفي فقط لانهاء عملي ، وبعدها فليأت شيرون (٢) ٠

وجاء كيرون ـ عليه اللعنة ! ـ وحصد نيكوس في زهرة شبابه ٠ نعم ايها القارىء العزيز ، لا تضحك ٠ فقد كان ذلك هو الوقت المناسب للازدهار والاثمار بالنسبة لكل ما بدأه ذلك الرجل الذي احببته والذي احبك ، صديقك نيكوس كازانتزاكي ٠

جنيف ، ١٥ حزيران ١٩٦١
هيلين٠ ن٠ كازانتزاكي

---

(٢) شيرون اوكيرون ناقل ارواح الموتى الى هيدس ٠

تقديم

« تقريري الى غريكو » ليس سيرة ذاتية • فحياتي الشخصية لها بعض القيمة ، وبشكل نسبي تماما ، وبالنسبة لي وليس بالنسبة لاي شخص اخر • والقيمة الوحيدة التي اعرفها فيها كانت في الجهود من اجل الصعود من درجة الى اخرى للوصول الى اعلى نقطة يمكن ان توصلها اليها قوتها وعنادها ، القمة التي سميتها تسمية اعتباطية بـ « الاطلالة الكريتية » •

ولذلك فانك ، ايها القارئ ، ستجد في هذه الصفحات الاثر الاحمر الذي خلفته قطرات من دمي ، الاثر الذي يشير الى رحلتي بين الناس والعواطف والافكار • كل انسان ، يستحق ان يدعى بابن الانسان ، عليه ان يحمل صليبه ويصعد جلجلته • كثيرون ، والحقيقة معظمهم ، يصلون الى الدرجة الاولى او الثانية ثم ينهارون لاهثين في منتصف الرحلة ولا يصلون الى ذروة الجلجلة ، بمعنى اخر ذروة واجبهم • ان يصلبوا ، وان يبعثوا ، وان يخلصوا ارواحهم • تضعف قلوبهم لخوفهم من الصلب ، وهم لا يدرون ان الصليب هو الطريق الوحيد للبعث ، ولا طريق غيره •

كانت هناك اربع درجات حاسمة في صعودي وتحمل كل منها اسما مقدسا : المسيح ، بوذا ، لينين ، أوليس • ورحلتي الدامية بين كل من هذه الارواح العظيمة والاخرى هي ما سوف أحاول جاهدا ان ابين معالمه في هذه « اليوميات » بعد ان اوشكت الشمس على المغيب ـ انها رحلة انسان يحمل قلبه في فمه وهو يصعد جبل مصيره الوعر والقاسي • ان روحي كلها صرخة وأعمالي كلها تعقيب على هذه الصرخة •

طوال حياتي كانت هناك كلمة تعذبني وتجددني وهي كلمة

« الصعود » . وسأقدم هذا الصعود ، وانا امزج هنا الواقع بالخيال ، مع آثار الخطى الحمراء التي خلفتها ورائي وانا اصعد . وانني حريص علـى الانتهاء بسرعة قبل ان اعتمر « خوذتي السوداء » واعود غلى التراب ، لان هذاالاثر الدامي هو العلامة الوحيدة التي ستتبقى من عبوري الى الارض . فكل ما كتبته او فعلته كان مكتوبا او محققا على الماء ، وقد تلاشى .

انني اوقظ ذاكرتي لاتذكر ، أحشد حياتي منالهواء ، واضع نفسي كجندي امام جنراله . لكي اكتب تقريري الى غريكو.ذلك ان غريكو معجون في التربة الكريتية ذاتها التي عجنت ، انا ، منها . وهو قادر علـى فهمي أكثر من مكافحي الماضي والحاضر كلهم . ألم يخلف الآثار الحمراء نفسها علـى الصخـور ؟.

□

ثلاثة انواع من الارواح ، ثلاث صلوات :

١ ـ انا قوس بين يديك يا الهي فشدني لئلا اتفسخ .

٢ ـ لا تشدني كثيرا يا الهي لئلا اتحطم .

٣ ـ شدني كثيرا يا الهي فمن سيهتم لتحطمي ؟!.

تمهيـــد

اجمع ادواتي : النظر والشم واللمس والذوق والسمع والعقل . خيـم الظلام وقد انتهى عمل النهار · اعــــود ، كالخلد ، الى بيتي ، الارض · ليس لانني تعبت وعجزت عن العمل ، فانا لم اتعب ، لكن الشمس قد غربــت ·

لقد غربت الشمس والتلال اصبحت معتمة · وما تزال حواف جبــــال عقلي تحتفظ بالقليل من الضوء على قممها · لكن الليل المقدس يهبط · انه ينهض من الارض وينزل من السماء وقد اقسم الضوء ان لا يستسلم غير انه يدرك ان لا خلاص · لن يستسلم لكنه سيخمد ·

ألقي نظرة اخيرة حولي· لمن سأقول وداعا ؟ والى اي الاشياء ؟ الجبال؟ البحر ؟ العريشة المحملة بالعناقيد على شرفتي ؟ للفضيلة أم للخطيئة ؟ سماء العذب ؟·· عبثا ، عبثا · فكلها ستنزل معي الى القبر

لمن أبث افراحي واحزاني ـ اشواق الشباب السرية والوهمية ؟ الصدام العنيف مع الله والناس ؟ واخيرا الكبرياء الوحشية في الشيخوخة ، التـي تحترق وترفض ، حتى الموت ، ان تتحول الى رماد ؟ ولمن احكي المــرات العديدة التي فيها انزلقت وسقطت وانا اتسلق اربعات (١) في صعـودي الوعر الشاق الى الله ، المرات التي نهضت فيها مضرجا بالدم وعدت مرة اخرى الى الصعود ؟ اين استطيع ان اجد روحا عنيدة بآلاف الجراح مثـل روحي ، لكي تستمع لاعترافي ؟ بهدوء واشفاق اعتصر كمشة من التراب الكريتي في راحتي · كنت احتفظ بهذه التربة معي دائما ، خلال تجوالي ،

---

(١) يقصد كل اربع درجات في قفزة واحدة .

وانا اضغطها في كفي لحظات الالم العظيم فاستمد منها القوة ، القوة العظيمة ، كأنني استمدها من الضغط على يد صديق حبيب وغال ، اما الان وقد غربت الشمس وانجز العمل فما الذي استطيع ان افعله بالقوة ؟ لم أعد بحاجة اليها . انني امسك بهذه التربة الكريتية واعتصرها بفرح جليل وبرقة وامتنان وكأنني اعتصر في كفي نهد امرأة احببتها لاودعها . هذه التربة التي هي ما كنته دائما وأبدا . وهذه التربة هي ما سأكونه دائما وابدا . آه يا طين كريت القاسي !! لقد انزلقت كومضة فريدة تلك اللحظة التي اعتصرت بها وتشكلت في هيئة انسان مكافح .

أي كفاح كان في هذه القبضة من الطين ؟ واي الم ؟ واية مطاردة لهذا الوحش آكل البشر غير المرئي ؟ واية قوى قدسية وشيطانية معا ؟ لقد جبلت بالدم والعرق والدموع ، اصبحت وحلا ، اصبحت انسانا وابتدأت صعودها .

ـ لتصل ماذا ؟ لقد تسلقت لاهثة نحو عظمة الله القاتمة ومدت ذراعيها وتلمست . تلمست بجهد جهيد علها تجد وجهه .

وحينما يدرك هذا الانسان في سنواته الاخيرة ، وبيأس ، ان هذه العظمة القاتمة ليس لها وجه ، اي كفاح جديد بكل صفاقة ورعب ، يعاني ليشق طريقه الى تلك القمة الشائكة ويعطيهاوجها ! وجهه هو !.

ولكن الان وقد انجز عمل النهار فانني اجمع ادواتي ، فلتأت كمشات اخرى من التراب ولتتابع الكفاح . فنحن ، الفانين ، جماعة عمل الخالدين . دمنا مرجان احمر ، ونحن نبني جزيرة فوق الهاوية .

لقد أنجز الله . وأنا ايضا قد اسهمت بحصاتي الحمراء الصغيرة ، قطرة الدم ، لكي اجعله صلبا ولكي لا يتلاشى ـ اعله يمنحني الصلابة فلا اتلاشى . لقد اديت واجبي .

وداعا !

أمد يدي وامسك مزلاج الارض لافتح الباب وامضي . غير انني اتردد لحظة صغيرة على العتبة النيرة . عيناي وأذناي واحشائي تجد انه من الصعب ، وانه لمن اقسى الاشياء ، ان تسلخ نفسها عن حجارة العالم وعشبه . يستطيع المرء ان يقول لنفسه انه مكتف وانه ينعم بالهدوء والسلام . ويستطيع القول انه لم يغد يحتاج اشيء وانه قد أدى واجبه وانه مستعد للرحيل . لكن القلب يقاوم . يتمسك بالعشب والحجارة ويتوسل « ابق قليلا ! » .

وأجاهد لنعزية قلبي وجعله ينسجم مع اعلان الموافقة بحرية • يجب ان نغادر الارض ليس كعبيد ممزقين ومجلودين ، بلْ كملوك ينهضون عن المائدة وهم ليسوا في حاجة لشيء بعد ان أكلوا وشربوا حتى الامتلاء • ولكن القلب ما يزال يخفق داخل الصدر ويقاوم صارخا : « ابق قليلا ! » •

أبقى ، والقي نظرة على الضوء • ،هو الاخر يقاوم ويصارع كقلب الانسان • الغيوم قد غطت السماء ورذاذ دافيء يتساقط على شفتي ورائحة الارض تعبق • ويصدر عن التراب صوت حلو مغو : « تعال ••• تعال ••• تعــال ••• »

الرذاذ يغزر ، ويتنهد طائر الليل الاول ، ويتساقط أمله مــع الهواء المبلل ، بحلاوة رائعة عن الخضرة الملفعة بالليل • سلام وحلاوة هائلة • لا أحد في البيت.وفي الخارج كانت المروج الظمأى تتشرب أول زخات الخريف بامتنان وسعادة صامتة ، لقد رفعت الارض نفسها كالرضيع نحو السماء لتــرضع •

أغمض عيني وانام ممسكا بكمشة التراب الكريتي ، كالعادة ، في كفي • لقد نمت وحلمت حلما ، كان يبدو وكأن النهار قد بزغ • وكان نجم الصباح يتأرجح فوقي • وانا ، الواثق من انه كان على وشك السقوط على رأسي ، ارتجفت وركضت • ركضت وحيدا عبر الجبال الموحشة المجدبة ، ومن أقصى الشرق ظهرت الشمس • لم تكن الشمس بل صحنا برونزيا مقمرا مليئا بالفحم المشتعل • بدأ الهواء يضطرب وبين الحين والحين كان حجل يندفع من الريف الصخري يضرب بجناحيــه ويقوقي ساخرا منــي بقهقهة • وطار غراب ، في اللحظة التي رآني ، من انحدار في الجبل ، لا شك انه كان ينتظر ظهوري • وطار ورائــي يتابعني وهو يتفجر بالضحك انحنيت غاضبا وانتقطت حجرا لارميه به ، لكن الغراب حول جسده وصار رجلا عجوزا صغير الجسم ينظر الي باسما •

ملجوما بالرعب بدأت اركض من جديد ، كانت الجبال تتزوبع وانــا اتزوبع معها في دوائر تضيق باستمرار • غلبني الدوار • كانـت الجبــال تتواثب حولي ، وبغتة احسست انها ليست جبالا ، بل بقايا مستحاثات لدماغ حيوان مما قبل الطوفان ، وفوقي ، على يميني ، كـان هناك صليب مطوق بالصخور الهائلة وثعبان برونزي هائل مصلوب عليه • وعبرت ذهني ومضة مضيئة أضاءت الجبال من حولي فرأيت • لقد دخلت الوادي المتعرج الرهيب الذي عبره العبرانيون بقيادة يهوه منذ آلاف السنين عند هربهم من ارض فرعون السعيدة ، هذا الوادي قد اسس الخدادة النارية التي تطرق بها بنو اسرائيل عبر الجوع والعطش والكفر •

تملكني الخوف · خوف ممزوج بفرح عظيم ، انحنيت على صخرة لكي اهدىء جيشان افكاري واغمضت عيني · وبغتة تلاشى كل شيء من حولي وامتد امامي خط ساحلي يوناني : بحر نيلي الزرقة معتم وصخور حمراء · بين الصخور ممر منخفض يؤدي الى كهف مظلم · وامتدت يد من الهواء وأوقدت مشعلا في يدي ، فهمت الامر · انحنيت وانزلقت في الكهف · تجولت وتجولت في مياه سوداء متجمدة · نوازل زرقاء مدلاة فوق رأسي وصواعد صخرية هائلة تبرز من الارض متلاحقة ومتضاحكة تحت ضوء المشعل · هذا الكهف كان مجرى نهر كبير غير مجراه عبر العصور فهجره وتركه فارغـا ·

هسهس الثعبان البرونزي غاضبا · فتحت عيني فرأيت الجبال والوادي والمنحدرات الصخرية مـن جديد · توقف الدوار · ثبت كل شيء وامتلأ بالضوء ·فهمت : بالطريقة ذاتها استطاع يهوه ان يشق طريقه بين الصخور الهائلة المحيطة بي · لقد دخلت المجرى الرهيب وكنت اتبع ـ اخطو ـ على آثاره ·

صرخت في حلمي : « هذا هو الطريق · هذا طريق الانسان · وهو الطريق الوحيد ! » وما ان خرجت هذه الكلمات الجريئة من فمي حتى لفتني زوبعة ورفعتني أجنحة · وبغتة وجدت نفسي على قمة سيناء · كانت رائحة الكبريت تملأ الهواء · وكانت شفتاي تؤلمانني وكأن شرارات لا حصر لها تخترقهما · فتحت جفني · لم يسبق لعيني ولم يسبق لاحشائي ان استمتعت بمنظر لا انساني بهذه الحدة ومتوافق مع قلبي بهذا المقدار · بلا ماء ، ولا اشجار ولا كائن بشري ولا امل ، هنا تستطيع نفس الانسان الفخور او اليائس ان تجد السعادة المطلقة ·

نظرت الى الصخرة التي اقف عليها · كان هناك تجويفان عميقان محفوران في الغرانيت لا بد انهما آثار قدمي النبي ذي البوق الذي كان ينتظر ظهور الاسد الجائع · الم يامر (أي الله) النبي ان ينتظر على قمة جبل سيناء ؟ لقد انتظر ·

وانتظرت انا ايضا · انحنيت فوق حافة الجرف واصغيت بانتباه · وبغتة سمعت الرعد الهادر لخطوات بعيدة · بعيدة جدا · شخص ما كان يقترب · واهتزت الجبال وابتدأ منخراي يرتعشان · صار للهواء من حولي رائحة كرائحة الفحل الذي يقود القطيع « انه قادم ، انه قادم » تمتمت بهذه الكلمات وانا استعد · كنت اهيء نفسي للقتال · اه ، كم تقت للحظة التي ساجابه بها هذا الوحش الضاري القادم من الغابة الكبرى ، اجابهه وجها لوجه دون ان يتدخل العالم المرئي الصفيق ويضللني ! متى ساجابه

ذلك (الاب) اللامرئي النهم الطيب القلب الذي يلتهم ابناءه والذي تقطر شفتاه ولحيته واظافره دما ؟

سأتحدث اليه بجرأة ، ساحكي له عن معاناة الانسان ومعاناة الطير والشجر والصخر . كنا جميعا مصممين ، برغبة ، على الموت وأمسكت بيدي استرحاما وقعت عليه الاشجار والطيور والوحوش والبشر : « يا أبانا ، لا نريدك ان تأكلنا ! » ساعطيه هذا الاسترحام ولن اخاف .

تحدثت وتوسلت بهذه الطريقة وانا استعد وارتعد .

وفيما انا منتظر كان يبدو ان الحجارة تتحرك . وسمعت انفاسا عظيمة .

همست : « انظروا اليه ! لقد أتى » .

التفت مرتعشا لكنه لم يكن يهوه . لم يكن يهوه بل كنت انت ايها الجد القادم من تربة كريت الحبيبة . كنت تقف امامي نبيلا صارما بلحيتك الصغيرة البيضاء كالثلج ، وبشفتيك الجافتين المضمومتين ونظرتك المنتشية المليئة باللهب والاجنحة وجذور الصعتر متشابكة مع شعرك .

نظرت الي ، وحين نظرت الي احسست ان هذا العالم كان غيمة ملفعة بالريح والصواعق وان روح الانسان غيمة ملفعة بالريح والصواعق وان الخلاص غير موجود .

رفعت عيني لانظر اليك . وكنت على وشك ان اسالك يا جدي ، أن كان صحيحا ان الخلاص غير موجود ؟ لكن لساني التصق بحلقي . كنت على وشك الاقتراب منك ولكن ركبتي ارتختا تحتي

عندها مددت يدك وكأنني اغرق وكأنك تريد ان تنقذني .

تمسكت بها ملهوفا . كانت مزينة برسوم متعددة الالوان . يبدو انك ما تزال ترسم . كانت الكف تحترق . اكتسبت قوة وزخما من لمسي لها وصرت قادرا على الكلام .

- مرني ايها الجد الحبيب .
وانت تبتسم وضعت كفك على رأسي . لم تكن كفا بل نارا ملونة ، واخترق اللهيب دماغي حتى الجذور .

- توصل الى ما تستطيعه يا بني .
كان صوتك حزينا وقاتما وكأنه خارج من حنجرة الارض العميقة .

وصل الصوت الى اعماق عقلي لكن قلبي لم يهتز ، وصرخت بصوت أعلـــى : .

ـ اعطني امرا اكثر صعوبة، اكثر كريتيـــة •

ولم أكد انهي كلامي حتى فلع الهواء لهب «مهسهس » • وتلاشى السلف العصي ذو الجـذور الصعترية المشتبكـة بخصـلاته عن ناظري • وتبقّت صرخة على قمة جبـــل سيناء • صرخـــة علوية مترعة بالامر ؛ وارتعش الهواء : « توصل الى ما لا تستطيع » •

□

استيقظت مرعوبا ، كان النهـــار قد طلع • نهضت واتجهت الـى الابواب الفرنسية وخرجت الى الشرفة ذات العريشة المثقلة بالعناقيد ؛ كان المطر قد توقف الان وكانت الحجارة تتلامع وتتضاحك والاوراق علـى الاشجار مثقلة بالدموع • « توصل الى ما لا تستطيعه » •

كان صوتك • ولم يكن في وسع احد في العالم غيرك ان ينطق بهذا الامر الرجولي . ألست القائد اليائس ، الذي لا يستسلم ، لعرقي المكافح ؟ ألسنا الجرحى والمتضورين والحمقى والعنيدين الذين خلفنا الضيق والثقة وراءنا من أجل ان نهاجم الحدود ، تحت امرتك ، لسحقهم ؟•

الله هو الوجه الاكثر ألقا لليأس والوجه الأكثر ألقا للامل • وانت يا جدي تدفعني الى ما وراء الامل واليأس والى ما وراء حدود الشيخوخة • فالى اين ؟ انني احدق فيما حولي واحدق في داخلي • لقد جنت الفضيلة • وكذلك جنت الهندسة والمادة • ويجب ان يعـود من جديد العقل المانـــح للقوانين لتأسيس نظام جديد ووضع قوانين جديدة ، يجب ان يتحول العالم الى هارموني اغنـــى •

هذا ما تريده • وهذا ما تدفعني اليه وما كنت تدفعني اليه دائما • وكنت اسمع امرك ليلا نهارا • لقد كافحت بأقصى ما استطيع للوصول الى ما لم استطعه • وجعلت هذا واجبي • والامر متوقف عليك لكي تخبرني ما اذا كنت قد نجحت او فشلت • وها انا اقف منتصبا امامك وانتظر !

□

يا سيدي الجنرال • ان المعركة تقترب من نهايتها وها انذا اعـــد تقريري • وفيه اين كافحت وكيف • لقد سقطـت جريحا ووقعت في الحب

ولم اهرب · ورغم ان اسناني كانت تصطك من الخوف ، فانني عصبت جبيني بمنديل احمر واندفعت مهاجما ·

وقبل ان انتزع الريش الثمين من روحي الغرابية ، ريشة بعد اخرى الى ان تبقى كتلة صغيرة من الطين مضمخة بالدم والعرق والدموع ، سأحكي لك كفاحي ـ لاخفف عن نفسي · سألقـي بالفضيلـة والخجل والحقيقة ـ لاخفف عن نفسي · ان روحي تشبه خلقك « توليدو في العاصفة » الملفع بالصواعق الصفراء والغيوم السوداء الكثيفة والمكافح بيأس في معركة لا تراجع فيها ضد كل من الضوء والظلمـة · سترى روحي ، وستزنها بين حاجبيك الرمحيين وستحكم · أتذكر القول الكريتي الحزين « عد الى حيث فشلت ، وغادر من حيث نجحت » ؟ فان فشلت ساعاود الهجوم حتـى لو لم يبق الا ساعة واحدة من العمر · وان كنت قد نجحت فسأفتح الارض لكي اتي واضطجع الى جانبك · فاصغ ، اذن ، لتقريري ، يا سيدي الجنـرال · اصغ الى حياتي ، فان كنت قد كافحت معك ، وان كنت قد سقطت جريحا ولم اسمح لاحد ان يعرف بآلامي ومعاناتي وانكنت لم أدر ظهري للعدو :

فامنحنـي بركتـك !

١ ـ الأسـلاف

اتطلع الى نفسي وارتعد . فالى جانب والدي كان أسلافي قراصنة متعطشين للدماء على الماء ، او عصابات على اليابسة ، لا يخافون الله ولا الانسان . والى جانب امي كانوا فلاحين طيبين وقذرين ينحنون بثقة على الارض طوال النهار : يبذرون وينتظرون واثقين المطر والشمس، ويحصدون، وفي المساء يجلسون على المقاعد الصخرية امام بيوتهم يعقدون أذرعهم ويضعون أملهم في الله .

النار والتراب . كيف اوفق بين هذين السلفين المتناقضين في داخلي ؟ أحسست ان هذا واجبي : ان اصالح بين المتعادين ، ان اسحب الظلمة السلفية من جنبي واحولها ، بأقصى ما يمكنني ، الى ضوء .

أليس اسلوب الله هكذا ؟ أوليس واجبنا ان نطبق هذا الاسلوب مقتفين آثاره ؟ حياتنا ومضة سريعة لكنها كافية .

الكون كله يتبع هذا الاسلوب وهو لايدري . وكل كائن حي مشغل يقوم فيه الاله سرا ، بعمله وتحويله للطين . لهذا تزهر الاشجار وتثمر ، ولهذا تتكاثر الحيوانات ، ولهذا تجاوز القرد قدره ووقف منتصبا على قدميه . والان وللمرة الاولى منذ ان خلق العالم تمكن الانسان من دخول المشغل الالهي والعمل الى جانبه (الى جانب الله) . وكلما استطاع ان يحول اللحم الى حب وبسالة وحرية اصبح بحق ابنا لله .

انه واجب عات لا يشبع . ولقد كافحت عبر حياتي وما ازال اكافح . الا ان ذرة من الظلمة تظل موجودة في قلبي . وباستمرار يتجدد الصراع . ان الاسلاف العجائز الابويين مغروسون في اعماقي ويظلون في تموجهم.ومن

الصعب علي ان اتميز وجوههم في الظلمة الحالكة . وكلما توغلت أكثر في بحثي عن أول سلف رهيب في اعماقي وانا اتغلغل في ركام روحي ـ الفرد ، القومية ، والاجناس البشرية ، كلما قهرني رعب مقدس . في البدء تبدو الوجوه كوجه أخ او وجه اب ، ثم ، ما ان اتعمق نحو الجذور حتى يبرز بين جنبي سلف كثيف الشعر كبير الفكين يجوع ويظمأ ويخور وعيناه مليئتان بالدم . هذا السلف هو الوحش الضخم الاشعث الذي اعطي لي لكي احوله الى انسان ـ ولارفعه الى ما يسمو على الانسان ان استطعت في الوقت المخصص لي . فأي صعود مخيف من قرد الى انسان ومن انسان الى اله !

ذات ليلة كنت اتمشى مع صديق على جبل عال مغطى بالثلوج . تهنا وخيم علينا الظلام . لم تكن هناك غيمة واحدة في السماء ، وكان القمر اخرس مكتملا معلقا فوقنا . تلامع الثلج أزرق شاحبا طوال الطريق من قمة الجبل ، حيث وجدنا انفسنا ، الى السهول تحتنا . كان الصمت متحجرا ومقلقا ـ وغير محتمل . لا شك ان الليالي المغسولة بالقمر كانت مشابهة لهذه الليلة منذ آلاف الدهور . وذلك قبل ان يكون هذا الصمت غير محتمل فأخذ الخالق الطين وصنع منه انسانا .

كنت اتقدم صديقي بخطوات قليلة ، وكان عقلي يلفه دوار غريب ، تعثرت كسكران.وانا امشي بدا لي كأنني امشي على القمر او انني قبل مجيء الانسان موجود على ارض مغرقة في القدم وغير مأهولة ـ ولكنها مألوفة جدا . وبغتة وعند احد المنعطفات لمحت اضواء خافتة تشع بشحوب من بعيد قرب قاع المسيل . لا بد انها قرية صغيرة ما يزال اهلها مستيقظين . عندها حدث لي شيء غريب مازال ارتعد حين اتذكره . توقفت وأشرت بقبضتي المشدودة الى القرية وصرخت غاضبا : « سأذبحكم جميعا ! » .

صوت أجش ليس صوتي ! بدأ جسدي كله يرتعش خوفا حالما سمعت هذا الصوت . وركض صديقي الي وقبض على ذراعي بقلق . سألني « ما بك ؟ ومن ستذبح ؟ » تراخت ركبتاي واحسست بتعب لا يوصف ولكنني استعدت وعيي حين رأيت صديقي امامي . « ليس انا لم يكن انا ، كان شخصا اخر » قلت له هامسا .

كان فعلا شخصا اخر . ولكن من ؟ لم يسبق لاعضائي الحيوية ان تفتحت بهذا العمق وهذا الكشف . فمنذ تلك الليلة صرت متأكدا مما تكهنت به منذ سنوات : في اعماقنا طبقة فوق طبقة من الظلمة : اصوات خشنة ووحوش جائعة كثيفة الشعر . الا يموت اي شيء اذن ؟ الا يستطيع شيء ان يموت في هذا العالم ؟ الجوع والعطش والبلاء البدائي وكل الليالي

والاقمار ، ما قبل مجيء الانسان ستستمر في الحياة والجوع في اعماقنا ،- وستظمأ معنا ـ طالما نحن نعيش . لقد لجمني الرعب وانا اسمع الحمل المخيف الذي احمله في اعماقي ، وقد ابتدأ يجأر . ألـن اتخلص ابدا ؟ ألن تنظف اعماقي ابـدا ؟

بين حين واخر ، وبشكل متقطـــع ، كان هناك صوت حلو يصدر من اعماق القلب ، « لا تخف ، سأسن القوانين وارسي النظام . انا الله . فليكن لديـك ايمــان » ولكن بغتــة تصدر دمدمة من بين جنبي ، ويصمت الصوت العذب : « كفاك تباهيا ، ساقوض قوانينك وادمر نظامك وافنيك . انا الهيولـــي ! » .

يقولون ان الشمس تتوقف ، احيانا ، في مجراها لكي تستمع لغنــاء فتاة شابة . لو ان هذا صحيح ! لو ان الضرورة ، تسحرها مغنية عن هذه الارض ، تجبرها على تغيير مجراهـــا ! لو اننا ، نحــن بالبكاء والضحك والغناء نستطيع خلق قانون قادر على اقامة النظام فوق الفوضى ! لو ان الصوت العذب في اعماقنا يستطيع ان يطغى على الهدير والدمدمة .

حين اكون سكران او غاضبا او حين ألمس المـرأة التـــي احب او حين يخيفني الظلم وارفع يدي احتجاجا امام الشيطان على الأرض اسمع هذه العفاريت تجأر في اعماقي وتغير على باب المصيدة لكي تحطمه وتخـــرج مرة اخرى الى النور وتتسلح مرة اخـــرى . انا اخر الاحفـــاد واجبهم في النهاية . وغيري ليس لهم أمل او ملاذ . وكــــل ما يتبقى لهم للانتقام او الاستمتاع او المعاناة لا يستطيعون فعله الا من خلالي . فان فنيت فنــوا معي . وحين انقلب في القبر فان جيشا من الوحوش ذوات الشعــر الكثيــف والبشر المحزونين سينقلبون معي . ربما كان هذا ما يجعلهم يعذبوننـــي بهذا الشكل وهذا سر عجلتهم . وربما كان هذا سبب كون شبابي قلقـا ورافضا وتعيسا .

لقد قتلوا وقتلوا دون احترام للروح ، سيان روحهم أم ارواح الاخرين . كانوا يحبون الحياة ويحتقرون الموت بالازدراء المتطرف ذاته . كانـــوا ياكلون كالغيلان ويشربون كالثيران وما كانوا يفرغون انفسهم مـع النساء حين يكون الامر متعلقا بالذهاب الى الحرب . كانت جذوعهم عارية صيفا وملفعة بجلود الاغنام شتاء . وفي الصيف والشتاء كانت روائحهم تفـوح كحيوانـات تنـزو .

أحس ان جدي الاكبر ما زال يعيش في دمي . وأعتقد انــه الوحيـد بينهم الذي يعيش بحيوية اعنف في شراييني . كان رأسه حليقا فوق الجبهة

وله جديلة طويلة من الخلف · وكان رفيقا للقراصنة الجزائريين ومعهم طاف البحـار القصيـة ·

لقد بنوا مخابئهم في جزر غرابوسا Grabousa المهجورة في الطرف الغربي من كريت · ومن هناك كانوا يحزمون اشرعتهم السوداء ويصادمون السفن العابرة · بعضها كان يبحر الى مكة بحمولة من الحجاج المسلمين ؛ وبعضها الى الديار المقدسة بحمولة من المسيحيين الذين كانوا سيصبحون حجاجا ، وكان القراصنة يزعقون وهـم يلقون كلاباتهـم ويقفزون علـى السفينة وبلطاتهم في ايديهم · ودون إي احتـرام للمسيح او محمد كانوا يذبحون الشيوخ ويأخذون الشبان كأرقاء وينقلبون على النساء ثم يعودون للاختباء في غرابوسا وشواربهم مبللة بالدماء وانفاس النساء · وكانوا ، في احيان اخرى ينقضون على الزوارق الغنية المحملة بالتوابل التي كانت تظهر من الشرق · وما يزال العجائز يتذكرون ما يقال من ان جزيرة كريت بأسرها كانت تفوح منها روائح القرفة وجوز الطيب لان سلفي ، الرجل ذا الجديلة قد نهب سفينة محملة بالتوابل · ولما لم يجد وسيلة لتوزيعها فقـد أرسلها الى كافة قرى كريت كهدايا لابنائه وبناته بالمعمودية ·

وكم اثارني ان اسمع من عجوز كريتي تجاوز المئة عن هذا الحادث منذ سنوات قلية · ذلك انني ، دون ان اعرف السبب ، كنت دائما احب ان احتفظ بأنبوب من القرفة وبعض بذور الطيب معي في رحلاتي ، وامامي على طاولة الكتابة.وبالاستماع الـى الاصوات الخبيئـة في اعماقي كلمـا نجحت في متابعة الدم بدلا من العقل (الـذي سرعان ما يلهث ويتوقف) كنت أصل بيقين صوفي الى أقصى بداياتي السلفية · ومـع الزمن تعزز هذا اليقين الغامض باشارات ملموسة من الحياة اليومية ، وعلى الرغم من أنني ظننت في البداية أن هذه العلامات عرضية ، ولم ألق لها اهتماما ، الا أنني اخيرا ، بالائتلاف مع صوت العالم المـرئي ومزجه مع اصواتي الداخلية الخفية استطعت أن أخترق الظلمة البدائية الكامنة تحت عقلـي وأن أرفع باب المصيدة وأن أرى ·

ومنذ اللحظة التي رايت فيها بدأت روحي تتماسك وتزداد صلابة ، ولم تعد تخفق وتضطرب كالمياه · لقد بـدأ وجـه يسمـك ويتكاثف حـول القلب المضيء ، وهو وجه روحي ، وبدلا من التقـدم شمالا ثـم يمينا فـي الدروب دائمة التغيير لكي أكتشف أي وحش انحدرت منه ، فانني تقدمت بثقة كأنني أعرف وجهي الحقيقي وواجبي الوحيـد : وهـو أن أعمل هذا الوجه بأكثر ما أستطيع من صبر وحب ومهارة · أن أعمله ؟ ما معنى هذا ؟ يعني أن أحوله الى لهب ، وان كان لدي الوقت ، قبل مجيء الموت ، أن

أحول هذا اللهب الى ضوء وبحيث أن شيرون لن يجد شيئا في لأخذه وكان طموحي الاعظم هو ألا أترك للموت شيئا يأخذه - لا شيء الا القليل من العظـــام •

وما ساعدني على الوصول الى هذه الثقة أكثر من أي شيء آخر كان التراب الذي ولد عليه أسلافي وكبروا • لقد انحدر أهل والدي من قرية تدعى « بارباري » ، على بعد ساعتـين من ميغالوكاسترو • وحينما استعـاد الامبراطور الروماني تيسوفوروسر فوكاس « كريت » من العرب في القرن العاشر وزع العرب الذين سلموا من الذبح في عدة قرى وقد سميت هـذه القرى « بارباري » وفي قرية كهذه مد ابائي جذورهم • ان فيهم جميعـا اثارا عربية • فهم فخورون وعنيدون ومشدودو الشفاه معتدلون في طعامهم ومعادون للجميع ، كانوا يخزنون حبهم أو غضبهم سنـــوات عديدة في صدورهم دون أن ينبســوا بكلمــة ، ثـم بغتة يفرشخ الشيطـان فيهم فينفجرون في سعار • والفائدة القصوى بالنسـبة لهم ليست الحياة بـل العاطفة • وهم ليسوا طيبين ولا مجاملين ، حضورهم جائر دون عناء ، ليس بسبب الاخرين بل بسببهم • هناك شيطان داخلي يخنقهم • وبينما هم على وشك الاختناق يتحولون الى قراصنة أو يطعنـــون أذرعهم. وهم في انشداه سكران لكي يسفحوا دما ويجدوا متنفسا ، والا فانهم يقتلون المرأة التي يحبون خشية أن يصبحوا عبيدا لها • أو يفعلون مثلي ، أنا حفيدهم الخالي من النقي ، يجهدون لتحويل الثقل القاتم الى روح • وماذا يعنـي ذلك : تحويل أسلافي الهمج الى روح ؟ هذا يعني أن أطمسهم باخضاعهم لامتحان علوي •

وما تزال أصوات أخرى تشير سرا الى الطريق المؤدي الى أسلافي • قلبي يخفق فرحا حينما أصـادف نخلة ، تظن كأنهـــا تعود الى مسقط رأسها ، الى القرية البدوية المليئة بالغبار والمجدبة التي فيها الزينـة الثمينة هي النخلة •

• حينما دخلت مرة الى الصحراء العربية على ظهر جمـل وتصفحت بنظري أمواج الرمال اللامحدودة واليائسة أمامي - صفراء وزهرية ، وفي المساء تصبح بنفسجية دون أثر لانسان - انتقلت بثمل غريب بعيدا جدا وزعق قلبي كأنثى الصقر العائدة الى العش الذي هجرته منذ سنوات ، آلاف السنوات وقبل ذلك •

ثم حدث هذا : كنت أعيش مرة وحيدا في كوخ مهجور قرب قرية يونانية « أرعى الرياح » كما اعتاد أحد النساك البيزنطيين أن يسميها ، كنت ، بمعنى آخر ، أكتب الشعر : وكان هذا الكوخ الصغير مدفونا بين أشجـار

الزيتون والصنوبر • وكان بحر أيجه الازرق المترامي الاطراف يبدو لي من بين الاغصان أمامي • لم يكن احد يمر بي الا فلوروس وهو راع بسيط مغطى بالشحوم وله لحية شقراء . كان يأتي بأغنامه كل صباح ويجلب لي زجاجة من الحليب وثماني بيضات مسلوقة وبعض الخبز ثم يغادرني• وكان دائما حين يراني منكبا على أوراقي وأنا اكتب ، يهز برأسه ويدعو: « فليحفظنا القديسون • ما الذي تريده من كتابة هذه الرسائل كلها يا سيدي ؟ ألا تتعب ؟ » ثم يتبعها بضحكة مجلجلة • وذات يوم مر بي بسرعة كبيرة • كان مشغولا ومقطبا الى درجة أنه لم يلق تحية الصباح • « ماذا جرى يا فلوروس ؟ » ندهته • فلوح بقبضته الضخمة وقال : « اللعنة يا سيدي • دعني وشأني ، لم يغمض لي جفن ليلة أمس • ولكن ألم تسمع بذلك الراعي في الجبل هناك ، فليأخذه الشيطان ! لقد نسي أن يناغم أجراس قطيعه ! كيف استطيع النوم ••• أنا ذاهب • »

– الى أين يا فلوروس ؟

– لتنغيمها طبعا بحيث أستطيع أن أرتاح •

وكما قلت ، ذات يوم عند الغداء ذهبت الى الخزانة لجلب المملحة من أجل البيض فسقط قليل من الملح على الارض القذرة • توقف قلبي • طأطأت بسرعة وبدأت أجمع الملح حبة حبة ، وبغتة أدركت ما أفعله فخفت • فيم هذا الكدر كله من أجل قليل من الملح سقط على الارض ؟ وأية قيمة له ؟ لا شيء •

وبعد ذلك استخلصت من الرمال علامة اخرى سوف تمكنني من الوصول الى أسلافي اذا تبعتهم • وكانت نارا وماء •

ان اهتمامي يقفز دائما حين أستطلع نارا تحترق دون جدوى • ذلك أنني لا أريد أن أراها تتلاشى • وأنا أسرع دائما لاغلاق صنبور حين أرى ماءه يجري ولا جرة تملأ منه أو شخصا يشرب أو حديقة تسقى •

ولقد جربت هذه الاشياء الغريبة كلها دون أن أجمعها بوضوح في ذهني لكي أكتشف وحدتها السرية • ان قلبي لا يستطيع أن يحتمل رؤية الماء والنار والملح وهي تبدد • وأبتهج كلما رأيت شجرة نخيل ، وحين دخلت الصحراء لم أكن أريد أن أغادرها ، لكن ذهني لم يتقدم اكثر • لقد دام ذلك سنوات كثيرة • وفي المشغل المعتم في داخلي ظل الاهتمام يشتغل سرا • وهذه الاحداث الغامضة كلها قد اتصل واحدها بالآخر في أعماقي • وحينما أتى واحدها ليقف الى جانب الآخر بدأت بالتدريج تأخذ معنى . وذات يوم ، بغتة ، وبينما كنت أسير متمهلا دون عمل في مدينة واسعة

وكون تفكير بهذا المعنى على الاطلاق اكتشفته ، فالملح والنار والماء كانت ثلاث ملكيات ثمينة من ملكيات الصحراء · لا شك اذن أن سلفا ما في داخلي ـ بدويا ـ قد قفز على قدميه واندفع الى الانقاذ حين رأى الملح أو النار أو الماء وهي تبدد ·

يومها كان هناك مطر خفيف في تلك المدينة الواسعة · وأتذكر أنني رأيت فتاة صغيرة التجأت تحت ظلة باب دار · كانت تبيع باقات صغيرة من البنفسج المبلل · توقفت ونظرت اليها ولكن فكري ـ الذي كان الآن بعيدا ومرتاحا وسعيدا جدا ـ كان يتشرد في الصحراء ·

ربما كان هذا كله خيالا وافتراضات ذاتية ، أو توقا رومانسيا للبعيد والغريب · والحوادث الغريبة التي ذكرتها يمكن أن لا تكون غريبة أبدا وربما لم يكن لها المعنى الذي أعطيتها اياه · نعم · هذا ممكن · ومع ذلك فان تأثير هذه الخدعة المنظمة والمرتبة ، أو هذا الوهم (فيما اذا كان وهما) : هذا التيار المزدوج من الدم ، اليوناني من جهة أمي والعربي من جهة أبي كان يجري في عروقي ، كان ايجابيا ومثمرا وقد منحني القوة والغبطة والغنى ·

وجهودي لصنع فرضية من هذين الدافعين المتنافرين هي التي منحت حياتي هدفها ووحدتها · وفي اللحظة التي أصبح فيها هذا الحدس الغامض مؤكدا فان العالم المرئي من حولي تساوى في انتظام ، وحياتي الداخلية والخارجية ، بعد ايجاد الجذر السلفي المزدوج ، تلاءمت كل منهما مع الاخرى · وهكذا ، بعد سنوات كثيرة فان الكراهية الغامضة التي كنت أحس بها نحو أبي استطعت أن أحولها ، بعد موته ، الى حب ·

٢ ـ الأب

لم يكن أبي يتحدث الا نادرا ولم يكن يضحك ولم يشترك أبـدا في
نجار · كان ، ببساطة ، يصر على أسنانه أو يشد قبضته في أوقـات
حددة · واذا صدف أن كان يمسك بلوزة قاسـية فركها بين أصابعه
طحنها · وقد رأى مرة آغا يضع سرج التحميل على ظهر مسيحي ويحمله
ثل حمار ، غلب عليه الغضب تماما حتى أنـه هجم على التركي · كان
ريد أن يوجه اليه اهانة لكن شفتيه كانتا مزمومتين بحدة · ولما عجز عن
نطق بأية كلمة بشرية بدأ يصهل كالجواد · كنت ما أزال طفلا · وقفت
رحت أراقب وأنا أرتعد خوفا · وذات يوم بينما كان يمر عند الظهيرة في
قاق ضيق عائدا الى بيته سمع امرأة تصرخ وأبوابا تصفق · كان هناك
ركي سكران قد امتشق يطقانه (١) وراح يطارد المسيحيين · واندفع نحو
بي في اللحظة التي رآه فيها · كان الحرلاهبا وكان أبي متعبا من العمل ·
م يكن راغبا في التشاجر · وخطر له بغتة أن يتحول الى زقاق آخر وأن
هرب ـ لم يكن أحد يراه · لكن هذا سيكون مخجلا · فك المئزر الذي كان
رتديه ولفه على قبضته ، وفي اللحظة التي بدأ فيها التركي الجبار يرفع
يطقان فوق رأسه وجه اليه ضربة عنيفة في بطنه وألقى به الى الارض ·
م انحنى وخلص اليطقان من قبضة التركي وسار الى البيت · جلبت له
ي قميصا نظيفا لكي يرتديه ··· فقد كان مبللا بالعرق وأنا (الذي كنت
الثالثة تقريبا) كنت أجلس على الاريكة وأحدق اليه · كان صدره مغطى
لشعر ويتبخر · وما أن غير قميصه واستبرد حتـى ألقى باليطقان على
ريكة بجانبي ثم التفت الى زوجته وقال :

ـ حين يكبر ابنك ويذهب الى المدرسة أعطيه هذا مبراة لاقلامه ·

---

(١) اليطقان : سيف تركي محدب .

لا أستطيع أن أتذكر أنني سمعت منه كلمة الطف ـ باستثناء مرة واحدة حين كان في ناكسوس أيام الثورة ٠ كنت أداوم في المدرسة الفرنسية التي يديرها الكهان الكاثوليك وكنت قد حزت على جوائز عديدة في الامتحانات : كتب كبيرة بربطات مذهبة ٠ وبما أنني لم استطع حملها بنفسي فقد حمل والدي نصفها ٠ ولم يتكلم طوال الطريق الى البيت ٠ فقد كان يحاول اخفاء الغبطة التي أحسها لأنه لم يخجل بأبنه ٠ ولم يفتح فمه حتى دخلنا الدار ٠ قال بشيء شبيه باللطف ، ودون أن ينظر الي « انك لم تخز كريت » ٠

ولكنه غضب من نفسه فورا ، فقد كان اظهاره للعواطف خيانة للنفس وظل مقطبا بقية المساء وهو يتجنب عيني ٠

كان كالحا لا يحتمل ٠ وحين كان الاقارب والجيران الذين يصدف أن يزوروا البيت يبدأون بالضحك وتبادل الاحاديث الصغيرة ، ويفتح الباب بغتة ويدخل كانت الاحاديث والضحكات تتوقف دائما ويخيم ظل ثقيل على الغرفة ٠ كان يلقي التحية بفتور ويجلس في مكانه المعتاد في زاوية الاريكة قرب النافذة المطلة على ساحة الدار ثم يخفض عينيه ويفتح كيس تبغه ويدرج لفافة دون أن ينبس بكلمة ٠ ويتنحنح الزوار نحنحات جافة ويتبادلون نظرات سرية قلقة وبعد فترة من الهدوء ينهضون ويتجهون الى باب الدار على رؤوس أصابعهم ٠

وكان يكره القسس ٠ كلما صادف أحدهم في الشارع كان يصلب نفسه ليتطهر من هذه المصادفة التعيسة ٠ واذا ما حياه القس الخائف بعبارة « نهارا طيبا يا كابتن ميخائيل » كان يجيب : « امنحني لعنتك » ٠ ولم يؤد في حياته صلاة القربان المقدس ـ لكي يتجنب رؤية القسس ٠ ولكنه في كل أحد حين تنتهي الصلاة ويغادر الجميع كان يدخل الى الكنيسة ويشعل شمعة أمام ايقونة القديس ميناس المتقنة الصنع ٠ كان يتعبد للقديس ميناس أكثر من أي مسيح أو مريم عذراء لأن القديس ميناس كان كابتن ميغالوكاسترو ٠

كان صدره منقبضا وقلبه ثقيلا ٠ لماذا ؟ صحته جيدة وأموره تسير على ما يرام وليس لديه ما يشكو منه فيما يتعلق بزوجته واطفاله ٠ وكان الناس يحترمونه ٠ والبعض ، الادنون ، ينهضون وينحنون له حين يمر بهم ٠ يضعون أكفهم على صدورهم ويخاطبونه بالكابتن ميخائيل ، وفي عيد الفصح كان المطران يدعوه الى قصر الاسقف بعد « القيامة » مع أعيان المدينة ويقدم له القهوة وكعكة الفصح مع بيضة حمراء ٠ وفي عيد القديس

ميناس في الحادي عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) كان يقف أمام بيته ويتلو صلاة حينما يمر به الموكب ٠

ولكن قلبه لم يكن يبتهج ٠ ذات يوم تجــرأ الكابتن الياس ، من ميسارا ، أن يسأله : « لم لا توجد أبدا بسمــة على شفتيك يا كابتن ميخائيل ؟ » فأجاب والدي : « لم الغراب أسود يا كابتن الياس ؟ » وهو يبصق عقب اللفافة الذي كان يمضغه ٠ وسمعته في يوم اخر يقول لقندلفت القديس ميناس « كان عليك أن تنظر الى أبي ، ليس الي بل الى أبي ٠ لقد كان غولا حقيقيا ٠ ما أنا بالنسبة له ؟ قنديل بحر ! » فعلى الرغم من تقدمه في السن واقترابه من العمى فان جدي قد عاد الى السلاح وشارك في ثورة ١٨٧٨ ٠ وذهب الى الجبال لكي يقاتل لكن الاتراك حاصروه وأمسكوا به بالقاء الانشوطات ثم ذبحوه خارج دير سافاتيانا ٠ واحتفظ الكهــان بجمجمته في الحرم ، ذات يوم تطلعت من النافذة الصغيرة ورأيتها لامعة مزيتة بالزيت المقدس من المصباح مشقوقة شقوقا عميقة بضربات سيف ٠

سالت أمي : كيف كان جــدي ؟

ـ مثل أبيك ٠ واشد قتامة ٠

ـ وما كانت صنعته ؟

ـ القتــال ٠

ـ وماذا كان يفعل أيام الســلم ؟

ـ كان يدخن الشبق (١) ويحدق الــى الجبال ٠

ولأنني كنت تقيا في شبابي سألت سؤالا اخر : « أكان يذهب الى الكنيســة ؟ » ٠

ـ لا ٠ لكنه كان في مطلع كل شهر يجلب معه الى البيت قسا ويجعله يصلي أن تثور كريت مرة أخرى ٠ كان جدك يغتاظ طبعا حين لا يجــد ما يفعله ٠ مرة حين كان يتسلح من جديد سألته : الا تخاف أن تموت يــا أبي ؟ الا أنه لم يجب ولم يلتفت الي » ٠

وعندما كبرت كنت أود أن أسأل أمي : « هل سبق له أن أحب امرأة ؟ » لكني خجلت من طرحه ، ولم أجد أبدا جوابا عليه ٠ الا أنه لا بد قد أحب نساء كثيرات ، لأنه حين قتل وفتحت العائلة خزنته وجدت وسادة محشوة بضفائر سوداء ورمادية ٠

---

(١) الشبق : بيبة للتدخين طولها اربعة اقدام ٠

٣ ـ الأم

كانت أمي قديسة . كيف استطاعت ان تحس الى جانبها شهيق الاسد وتنهداته خمسين عاما دون أن يتحطم قلبها ؟ كان لها صبر الارض واحتمالها وعذوبتها ، كان أجدادي من جهة أمي فلاحين ـ ينحنون على التراب .. يلتصقون بالتراب وأيديهم وأقدامهم وعقولهم مليئة بالتراب . كانوا يحبون الارض ويضعون آمالهم كلها فيها . وخلال أجيال صاروا هم والارض واحدا . في أيام الجفاف كانوا يسودّون مرضا من العطش مثلها . وحين تحتدم أولى أمطار الخريف كانت عظامهم تطقطق وتنتفخ كالقصب. وحين كانــــوا يحرثون أخاديد عميقة في رحمهـــا بمشاركة من صدورهم وأفخاذهم كانوا يستعيدون ذكرى الليلة الاولى التي ناموا فيها مع زوجاتهم.

مرتين في العام ، في عيد الفصح وفي عيد الميلاد ، كان جدي ينطلق من قريته البعيــدة ويأتي الى ميغالوكاسترو لكــــي يرى ابنته وأحفــاده . وبحسابات دقيقة دائما كان يأتي ويقرع الباب في الساعة التي يكون فيها متأكدا أن صهره ـ الوحش البري ـ ليس في البيت . كان عجوزا قويا مفعما بالحيوية بشعر أبيض مشعث وعينين زرقاوين ضاحكتين وكفين ضخمتين ثقيلتين مغطاتين بالندوب . وكان جلدي يقشعر حين يأتي للتربيت علي . كان يلبس دائما حذائين أسودين وسروال الاحد Foufoùla الــذي كان نبلي اللون ومنديلا أبيض ذا بقع زرقاء . وكان يحمل في يده دائما الهدية ذاتها حلوفا محمّرا في التنور وملفوفا بأوراق الليمون . وحين كان يكشف عنــه ضاحكا كان البيت كله يعبق بالرائحة . وهكذا توحد جدي نهائيا بالخنزير المحمر وأوراق الليمون بحيث أنني منذ ذلك الحين لم أستطع أن أشم خنزيرا محمرا أو أدخل في حديقة ليمون دون أن يبرز في ذهني مرحا وخالدا والحلوف المحمر في يديه . وأنا سعيد لأنه سيعيش في أعماقي طالما أنا حي على

٣

الرغم من أن أحدا غيري في العالم لم يعد يتذكره . سنموت معا • كان هذا الجد أول من جعلني أتمنى أن لا أموت ـ لكي لا يموت الميت الذي أحمله في أعماقي ، ومنذ ذلك الحين غرق أعزاء راحلون كثـيرون ، ولكن ليس في القبر ، بل في ذاكرتي وأنا الان أعرف أنهم سيعيشون طالما أنا حي •

وكلما تذكرته يتدعم قلبي بادراك أنه يستطيع أن يقهر الموت • اذ انني لم ألتق في حياتي كلها بانسان له هذا الوجه المحاط بهذا الألق الهادىء الودود وكأنه يشع من مصباح • لقد صرخت حين رأيته يدخل البيت أول مرة ، ففي سرواله العريض Vrakes وحزامه الاحمر ووجهه القمري المضيء وطباعه المرحة بدا لي مثل جني الماء أو كروح أرضية ظهـرت للتو في البساتين وما تزال روائح العشب الندي عالقة بها • كان يخرج كيس التبغ الجلدي من تحت قميصه ويدرج لفافة ويتناول الصوان والزناد ويشعـل لفافته ثم يدخنها وهو يحدق راضيا الى ابنته وأحفاده والبيت • قليـلا ما كان يفتح فمه ويتحدث عن فرسه التي ولدت مهرا وعن المطر والبرد والارانب الولود التي تدمر له حديقة الخضراوات • وكنت وأنا جالس على ركبتيه أمد ذراعي وأطوق عنقه وأنا أصغي • كان عالم مجهول يتفتح في ذهني ـ حقول وأمطار وأرانب ـ وأنا نفسي كنت أتحول الى أرنب أتسلل الى دار جدي والتهم ملفوفاته •

كانت أمي تسأل عن هذا الشخص أو ذاك من القرية ـ كيف كانت أحوالهم ؟ أما زالوا أحياء ؟ ـ وكان جدي يجيب أحيانا أنهم ما يزالون أحياء وأن لديهم أطفالا وأن أحوالهم تتحسن ، واحيـانا أنهم ماتوا ـ « واحد اخر مات • العمر لك ! » كان يتحدث عن الموت كما يتحدث عن الولادة ـ بهدوء وبالصـوت ذاتـه تماما كما يتحـدث عن الخضراوات والارانب • كان يقول : « لقد رحل يا ابنتي • دفناه • واعطينـاه برتقالة يضعها في يده من أجل شارون وبعض الرسائل ايضا لاقربائنا في هيدس ، كل شيء حسب المألوف الحمد لله • » ثم كان يمج لفافته ويخـرج بعض الدخان من منخريه ويبتسم • كانت زوجته بين الراحلين • لقد ماتت قبل سنوات عديدة • وكلما جاء جدي الى البيت كان يتذكرها وعيناه مليئتان بالدموع • كان يحبها أكثر من حقوله واكثر من فرسه • وكان يحترمهـا أيضا • ورغم أنه كان فقيرا حين تزوج فقد تماسك • واعتاد أن يقول : « الفقر والعري لا شيء حين تكون لك زوجة طيبة » • في تلك الايام كانت العادة العريقة في القرى الكريتية تقضي أن تحضر الزوجة ماء ساخنا للزوج حين يعود من الحقول وأن تقوم هي بغسل رجليه •

وذات مساء عاد جدي من العمل منهكا • فجلس في باحة الدار وجـاءت زوجته بسطل الماء الساخن وركعت أمامه ومدت يديها لتغسـل قدميه

المغبرتين • نظر اليها بمحبة ورأى كفيها المتآكلتين بالعمل المنزلي وشعرها الذي بدأ يشيب • لقد أصبحت الآن عجوزا مسكينة • هكذا فكر بينه وبين نفسه • فرفع قدمه ورفس سطل الماء وقلبه وقال : « ابتداء من اليـــوم يا زوجتي لن تغسلي قدمي • أنت لست عبدتي على أية حال • أنت زوجتي وأنت سيدة » •

وذات يوم سمعته يقول : « لم تخيبني في شيء أبدا ••• الا مـرة واحدة • فلتحل على روحها رحمة الله • »

وتنهد وغرق في الصمت • ولكن بعد لحظة قال : « كانت تقف طبعا كل مساء بباب الدار تنتظر عودتي من الحقول • وكانت تركض وتريحني بأخذ الادوات عن كتفي ثم ندخل البيت معا • ولكنها ذات مساء نسيت • لم تركض الي فحطمت فؤادي » •

صلب نفسه وهمس : « الله كبير • انني اضع امالي فيه ، سوف يسامحها » والتمعت عيناه من جديد ثم نظر الى أمي وابتسم •

وفي مناسبة أخرى سألته : « ألا تكره أن تقتل الخنازير الصغيرة يا جدي ؟ ألا تحس بالاسف حين تأكلها ؟ » •

وأجابني وهو ينفجر بالضحك « صحيح يا ولدي • الله يعلم أن هذا صحيح • لكنها لذيذة تلك الانذال الصغيرة » •

وكلما تذكرت هذا الفلاح العجوز ذا الوجنتين الموردتين يتزايد ايماني بالانسان وبعمله في التراب • كان واحدا من الاعمدة التي يقف العالم على أكتافها فتحفظه من السقوط •

كان أبي هو الوحيد الذي لا يريده • وكان ينزعج حين يدخل (الجد) بيته ويتحدث الى ابنه ، وكأنه كان يخشى ان دمي سيتلوث • وحين كانت توضع المائدة في عيد الميلاد او عيد الفصح لم يكـن يمـد يده الى الحلوف المقمر • وكان يترك المائدة اشمئزازا من رائحته بأسرع ما يستطيع ثـم يبدأ بالتدخين لكي يطرد رائحة النتن • ولم يكن يقول شيئا • الا مـرة واحدة حين غادرنا جدي قطب حاجبيه وتمتم باحتقار « أف• يا للعيـون الـزرقاء » •

وعلمت ، فيما بعد أن والدي كان يحتقر العيون الزرقاء اكثر من اي شيء اخر في العالم وقد اعتاد ان يقول : « للشيطان عينان زرقاوان وشعر أحمر » • أي سلام كنا نحس به وابي ليس في البيت ! وكم كـان الوقـت

يمر بسرعة وسعادة في الحديقة الصغيرة في باحة دارنا المسورة ، العريشة على الجدار ، والاكاسيا الفواحة الطويلة في الزاوية ، واصص الحبق ، والقطيفة ، والياسمين العربي حول الاطراف ... كانت أمي تجلس امام النافذة ترفو الجوارب أو تنظف الخضراوات أو تمشط شعر أختي الصغيرة أو تساعدها على أن تخطو خطوتها الاولى . وفيما كنت أصغي الى العابرين خارج الباب المغلق واستنشق عبير الياسمين والتربة الرطبة ، كانت عظام رأسي تطقطق وتنفتح لتحتوي العالم الذي يدخل جسدي .

كانت الساعات التي أقضيها مع امي مليئة بالغموض لقد تعودنا أن نجلس متواجهين - هي على الكرسي قرب النافذة وأنا على مقعدي - وكنت احس بصدري ممتلئا حتى الكفاية وسط هذا الصمت وكأن الهواء بيننا قد تحول الى حليب وأنا كنت أرضع .

كانت الاكاسيا تمتد فوق رؤوسنا ، وحين كانت تزهر كانت الدار تمتلىء بالاريج . كم كنت احب براعمها الصفراء ذات الروائح العذبة! كانت أمي تضعها في صناديقنا وفي ملابسنا الداخلية وقمصاننا . كانت طفولتي كلها تعبق بالاكاسيا .

وكنا نتحدث . كانت بيننا احاديث هادئة عديدة . أمي احيانا تحكي لي عن ابيها وعن القرية التي ولدت فيها . وانا احيانا احكي لها عن حياة القديسين الذين قرأت عنهم وكنت أزين بخيالي حياتهم . لم تكن محن الشهداء تكفيني . كنت اضيف لهم محنا جديدة من عندي حتى تنتحب أمي . ثم اشفق عليها واجلس على ركبتيها وابدأ بالمسح على شعرها ومواساتها .

« لقد ذهبوا الى الجنة يا امي . لا تحزني . انهم يتمشون الان تحت اشجار مزهرة ويتحدثون مع الملائكة وقد نسوا عذاباتهم كلها ، وهم يلبسون كل أحد ملابس ذهبية وقبعات حمراء مزينة بالريش ثم يذهبون لزيارة الله » . وتعودت أمي ان تمسح دموعها ثم تنظر الي مبتسمة وكأنها ستسأل : أهذا صحيح فعلا ؟ وقد اعتاد الكناري في قفصه أن يسمعنا وأن يمد رقبته ليزقزق بنشوة ثملة وكأنه قد نزل من الجنة مغادرا القديسين لحظات قليلة وجاء الى الارض ليبهج قلوب البشر .

لقد امتزجت في ذاكرتي أمي بالاكاسيا بالكناري وبشكل خالد ولا يقبل الانفصام ، وانا لا استطيع ان اشم رائحة الاكاسيا أو اسمع صوت الكناري دون أن أحس امي تنهض من قبرها - في أعماقي - وتتحد بالاريج وزقزقة الكناري .

لم ار امي تضحك ابدا كانت تبتسم ببساطة وتنظر الى اي شخص بعينين عميقتين ممتلئتين بالصبر واللطف • كانت تروح وتجيء في البيت كشبح لطيف تؤدي لنا حاجاتنا دون ضجة او جهد وكأنما يداها تمتلكان قوة سحرية خيرة وتمارسان تحكما خيرا بحاجاتنا اليومية • وبينما كنت اجلس بصمت أرقبها كان يخطر لي أنها ربما كانت « نيريد » (١) المذكورة في قصص الجنيات ، وكان خيالي يعمل حسب عقلية الطفولة : لقد راها ابي ترقص على ضوء القمر ذات ليلة بينما كان يعبر النهر • فهجم وأمسك بمنديلها وهذا ما كان حين جلبها الى البيت وتزوجها • وأمي الان تروح وتجيء في البيت طوال النهار تبحث عن منديلها لتضعه على شعرها وتتحول من جديد الى نيريد وترحل • وتعودت أن أراقبها وهي تروح وتجيء وتفتح الخزن والصناديق وتكشف عن الجرار وتنحني لتنظر تحت الاسرة وكنت أرتعد لفكرة أنها قد تجد صدفة منديلها السحري وتختفي • وقد لازمني هذا الخوف سنوات عديدة وكان يجرح روحي الوليدة بعمق • وظل معي حتى هذا اليوم • وما يزال اشد غموضا • انني اراقب الناس او الافكار التي احبها بألم لانني اعرف انهم يبحثون عن مناديلهم لكي يرحلوا •

ولا اذكر الا مناسبة واحدة التمعت فيها عينا أمي بضوء غريب وضحكت واستمتعت كما في ايام خطبتها او كما في ايام حريتها وعزوبتها • كان ذلك في أول ايار وكنا قد ذهبنا الى فودهيل Phodhele ، وهي قرية مليئة بالمياه وبيارات البرتقال ، لكي يكفل ابي طفلا في معموديته • حينما انهمر المطر عنيفا ومفاجئا • تحولت السماء الى ماء ينسكب على الارض التي كانت تتفتح ضاحكة وتتلقى المياه المذكرة في اعماق صدرها • كان اعيان القرية قد اجتمعوا مع زوجاتهم وبناتهم في غرفة كبيرة في بيت الطفل المعمد • المطر والبرق يتسربان من النوافذ وعبر شقوق الباب وكان الهواء مشبعا بروائح البرتقال والتراب • وكانت الهدايا والخمر والراكي والميتريد (٢) تدخل وتخرج • وبدأ الظلام يحل فأشعلت الاضواء وتزايد مرح الرجال وتخلصت النساء من نظراتهن المنخفضة التي تعودن عليها وبدأن يقوقين كالحجال • كان الله ما يزال يزأر خارج البيت • وتزايد الرعد وتحولت أزقة القرية الضيقة الى انهار. كانت الحجارة تنهار فيها وهي تضحك بوحشية لقد تحول الغيث الى سيل جارف ، كان يعانق الارض ويسقيها ويخصبها •

---

(١) نوع من الحوريات . تقول الاسطورة اليونانية ان نيريوس الذي ولد من زواج بونتوس ، البحر ، وغايا الارض ، قد تزوج من دوريس ، ابنة المحيط ورزقا بخمسين ابنة هن النيريدات .

(٢) مقبلات يونانية .

التفت ابي الى امي ٠ كانت المرة الاولى في حياتي التي أراه فيها ينظر اليها بود والمرة الاولى التي أسمع فيها العذوبة في صوته ٠ وقال لها : « غني يا مارغي » ٠ كان يمنحها الاذن بالغناء امام جميع الرجال . غضبت رغم انني لا اعرف السبب ٠ نهضت مهتاجا لاركض نحو امي وكأنني اريد ان احميها لكن ابي لمس كتفي بأصبعه وأجلسني ٠ كانت أمي تبدو وكأنها تتلاشى ٠ توهج وجهها وكأن المطر كلـه والبـرق كله يعانقانها ٠ رمـت برأسها الى الوراء ٠ أتذكر ان شعرها الطويل الاسود قد تحلل بغتة وترامى على كتفيها ووصل الى ردفها ٠ بدأت ٠٠٠ اي صوت كان ذلك : عميقا وعذبا وحلقيا ومشبعا بالعاطفة ٠ وبدأت ، وهي تحول عينيها نصف المغمضتين نحو ابي ، تغني مانتينادا mantinadha التي لن انساها ما حييت ٠ لم افهم في ذلك الحين لماذا غنتها او لمن ٠ ولكنني فيما بعد ، حين كبرت فهمت ٠ كان صوتها العذب مشبعا بالعاطفة وهي تنظر الى ابـي وتغنـي :

(يدهشني ان الشوارع لا تزهر حين تسير عليها

وانك لا تتحول الى نسر بجناحين من ذهب)

حولت نظري لاتجنب رؤية أبي ولاتجنب رؤية امي ٠ ذهبت الى النافذة وضغطت جبيني على الزجاج أراقب المطر وهو ينهمر وينهش التراب ٠

استمر الطوفان طوال اليوم ٠ هبط الليل علينا وصار العالم في الخارج مظلما وامتزجت السماء بالارض وتحولت الاثنتان الى وحل ٠ اشعلـت مصابيح اخرى وتحرك الجميع نحو الجدران وازيحـت الطاولات والمقاعـد لافساح المجال ٠ كان الشباب والكبار يتهيأون للرقص ٠ وجلس عـازف الربابة على مقعد عام وسط الغرفة وامسك بقوسه وكأنه سيف ، ثـم همهم بمقطع من تحت شاربيه وبدأ يعزف ٠ راحت الاقدام توقع والاجساد تصفق بأجنحتها ٠ وراح الرجال والنساء يتبادلون النظرات ويقفزون على اقدامهم ٠ وكان أول من تقدم امرأة شاحبة ممشوقة في الاربعين من عمرها وكانت شفتاها برتقاليتين لانها فركتهما بأوراق الجوز ، وكان شعـرها الاسود مزيتا بزيت الغار ومصقولا ولامعا ٠ لقد خفت حين التفت ورأيتها ، ذلك لان عينيها محاطتان بدائرتين زرقاوين قاتمتين ولان بؤبؤيها الحالكين يلتمعان بعمق ٠ لا ، ما كانا يلتمعان بل كانا يحترقان ٠ خيل لي للحظـة انها كانت تنظر الي فتمسكت بثوب امي وانا احس ان هذه المرأة تريد أن تقبض على ذراعي وتأخذني معها ٠

« برافو يا سور ميلينا » هتف عجوز قوي ذو لحية صغيرة ٠ وازاح منديله

الاسود وهو يقفز أمامها وقدم احد طرفيه للمرأة وابقى الاخر في يده ، ثم سلم الاثنان نفسيهما للرقص ورأساهما شامخان وجسداهما منتصبان وممشوقان كشمعتين ٠

كانت المرأة تلبس في قدميها قبقابا خشبيا ٠ وراحت تضربه على الارض بقوة فيهتز البيت كله معها ٠ وانحل خمارها الابيض فكشف عن القطع الذهبية (فلورين) التي تزين عنقها ٠ وتوسع منخراها وراحا يستنشقان الهواء وكانت انفاس الذكور من حولها عابقة ٠ لوت ركبتيها وراحت تدور فأوشكت على السقوط على الرجل الذي أمامها ولكنها بغتة وبهزة من ردفيها تلاشت من أمامه ٠ وراح هاوي الرقص العجوز يصهل كالحصان وأمسك بها من وسطها وشدها بقوة لكنها أفلتت منه ٠ كانا يلعبان ويطارد كل منهما الاخر وغاب الرعد والمطر وغرق العالم ولم يبق فوق الهوة الا هذه المرأة ، سورميلينا ، التي كانت ترقص ٠ ولما لم يعد عازف الربابة قادرا على البقاء فوق مقعده قفز على قدميه ٠ وتوحش القوس ولم يعد تحت السيطرة بل راح يتابع قدمي سورميلينا وهو يتنهد ويجأر ككائن بشري ٠

وتوحش وجه العجوز ٠ ورمق المرأة وهو محمر وارتعشت شفتاه وشعرت أنه على وشك أن ينقض عليها ويمزقها اربا ٠ ولا شك أن عازف الربابة قد تملكه الشعور ذاته فتوقف قوسه بشكل مفاجىء ٠ وتوقف الرقص ٠ وتوقف الراقصان دون حراك ، قدم في الهواء والعرق يتصبب منهما ٠ وركض الرجال الى الراقص العجوز وانتحوا به جانبا وراحوا يدلكونه بالراكي (٣) ٠ وأحاطت النسوة بسورميلينا ليمنعن الرجال من رؤيتها ٠ وشققت طريقي بينهن ٠ لم أكن رجلا بعد ولذا لم يمنعني فتحن صدارها ورششن ماء الورد البرتقالي على رقبتها وتحت ابطيها وصدغيها وكانت المرأة تغمض عينيها وهي تبتسم ٠

في تلك اللحظة اتحدت في داخلي الرقصة وسورميلينا والخوف ـ الرقص والمرأة والموت ـ وصارت شيئا واحدا ٠ بعد أربعين سنة نهضت امرأة هندية للرقص في شرفة فندق أوريانت العالية في تيفليس ٠ كانت النجوم تلتمع فوقها وكان السقف معتما ٠ وكان يقف حولها قرابة اثني عشر رجلا وأنت لا ترى الا الاضواء الحمراء من لفافاتهم ٠ وراحت المرأة ترقص ببطء وهي مدججة بالاساور والجواهر والاقراط والخلاخيل الذهبية ، وكان يهيمن عليها خوف غامض وكأنها ترقص على حافة هاوية ، كانت تقترب وتبتعد بينما

---

(٣) مشروب يوناني شعبي شبيه بالعرق ٠

هي ترتعد من رأسها حتى قدميها خشية السقوط • كانت أحيانا تجعل جسدها ثابتا بينما ذراعاها يدور كل منهما حول الاخر كحيتين تزدوجان بشهوانية في الهواء • خمدت الاضواء الحمراء الصغيرة ولم يبق شـيء في الليل الفسيح الا المرأة الراقصة والنجوم من فوقها ؛ وبثبات راحت النجوم ترقص أيضا • حبسنا أنفاسنا جميعا • بغتة تملكني الرعب • أكانت هذه المرأة ترقص على حافة الهاوية ؟ لا • بل أن أرواحنا نفسها كانت تداعب الموت وتلاعبه •

□

٤ ـ الابن

كل ما ترسب في عقل طفولتي قد تجذر فيه بعمق كبير وكنت قد تلقيته بقدسية الى درجة انني وانا في هذا العمر المتقدم لا اتعب ، ابدا ، من تذكره واعادة احيائه . بدقة متناهية اتذكر لقائي الاول بالبحر والنار والمرأة وبروائح العالم .

ان اقدم ذكرى في حياتي هي هذه : كنت لم ازل غير قادر على الوقوف ، وقد حبوت على اربع نحو العتبة خائفا وتواقا ، ومددت رأسي الواهية في هواء الدار الطلق . حتى الان لم اكن قد نظرت عبر زجاج النافذة ولم اكن قد رايت شيئا . اما الان فانني لم اتطلع فقط ، رأيت العالم للمرة الاولى . ويا له من منظر مدهش ! كانت حديقة الدار تبدو بلا حدود . وكان هناك طنين من آلاف النحلات غير المرئية ، وشذى مسكر ، وشمس دافئة بكثافة العسل . وكان الهواء يلسع وكأنه مسلح بسيوف ، وكانت هناك حشرات ملائكية متحفزة بجوانح ملونة ثابتة تتقدم نحوي مباشرة . زعقت خائفا وعيناي مليئتان بالدموع ثم تلاشى العالم .

واذكر في يوم آخر ، ان رجلا بلحية شائكة اخذني بين ذراعيه وأنزلني الى الميناء . وحين اقتربنا سمعت وحشا بريا يتنهد ويزأر وكأنه جريح أو كأنه يتوعد . ولخوفي انتصبت قافزا بين ذراعي الرجل ورحت ارتعش كالعصفور ، كنت ارغب في الابتعاد . وبغتة ـ الرائحة اللاذعة لحبات الخروب والقار والكباد المتعفن . وتفتحت اعضائي ، التي تصر ، لاستقبالها . وظللت اقفز واتأرجح بين الذراعين المكسوتين بالشعر اللتين كانتا تمسكان بي ، الى ان ، في عطفة شارع ـ نيلي قاتم ، وهائج ، وكل الروائح والصرخات (أي وحش كان هذا ! أية عذوبة ! وأية نهدة لا حدود

لهـا !) ـ انصب البحر كله في داخلي مزبدا • وتداعى صدغاي الواهنان ، وامتلأ رأسي بالضحك والملح والخوف •

بعد هذا أذكر ، امرأة ، اسمها أنيكا ، جارة لنا متزوجة حديثا وهي أم منذ زمن قريب ، ممتلئة وجميلة ذات شعر طويل أشقر وعينين واسعتين • في ذلك المساء كنت ألعب في الدار ولا بد أنني كنت في حوالي الثالثـة من العمر • كانت الحديقة الصغيرة تفوح بروائح الصيف • وانحنت علي المرأة ووضعتني في حضنها • واغمضت عيني لاسقط على صدرها البارز وأتشمم جسدها : الاريج الحار الكثيف والرائحة اللاذعة للحليب والعرق • كان البخار يتصاعد من الجسد حديث الزواج • وكنت أستنشق العبير بنشوة متهيجة وأنا أتدلى عن صدرها النافر • وبغتة أحسست بالدوار وغبت عن وعيي • ووضعتني الجارة المذعورة ، أرضا وهي محمرة رعبا وتركتني بين أصين من الحبق • ولم تضعني بعد ذلك اليوم في حضنها أبدا • بل صارت تكتفي بالنظر الي بمودة فائقة من خلال عينيها الواسعتين وهي تبتسم •

وفي احدى ليالي الصيف كنت ، مرة اخرى ، جالسا في دارنا على كرسي الصغير • وأتذكر انني رفعت عيني وأبصرت النجوم لاول مرة • صرخت ، وأنا أقفز على قدمي ، خائفا : « شرر ، شرر » وبدت لي السماء حريقـا هائلا ، وبدا لي ان النار قد وصلت الى جسدي الصغير •

كانت هذه اتصالاتي الاولى بالارض والبحر والمرأة والسمـاء المليئة بالنجوم • وحتى الان ، وفي اعمق لحظات حياتي ، فانني أواجه هذه العناصر الرهيبة تماما بالحماس ذاته الذي واجهتها به في طفولتي • وعندها فقط ، عندما نجحت في اعادة مواجهتها بالدهشة ذاتها ، والخوف ذاته والغبطـة ذاتها التي منحتني اياها حين كنت طفلا ، أستطيع أن أشعر ـ وحتـى اليوم ـ أنني أواجه هذه العناصر الاربعة المخيفة بعمق ، وبالعمق الـذي يستطيع جسدي وروحي أن يغوصا اليه • وطالما أن هذه قد كانت القوى الاولى التي أحسست ، بوعي ، أنها تواكب روحي ، فان هـذه العناصر الاربعة قد اتحدت في اعماقي اتحادا لا انفصام له وصارت واحدا • وهـي تشبه وجها مفردا يظل يغير أقنعته • وحين أنظر الى السماء المليئة بالنجوم فانني ، أحيانا ، أتخيل أنها حديقة مزهرة ، وأحيانا أنها بحر قاتم خطير ، وأحيانا أنها وجه صامت تنسكب عليه الدموع •

ان كل عاطفة من عواطفي ، وأكثر من ذلك ، ان كل فكرة من أفكاري ، وحتى أكثرها تجريدا ، انما تتشكل من هذه المقومات الاربع الاولية • وفي أعماقي حتى أكثر المشكلات ميتافيزيقية تتخذ هيئة فيزيقية (مادية) حارة لها رائحة البحر والتراب والعرق الانساني • والكلمة ، لكي تمسني ،

يجب أن تصبح لحما حارا • وعندها فقط أفهم ـ عندما استطيع أن اشمها وأراها وألمسها •

واضافة الى هذه اللقاءات الاربعة الاولى كانت روحي متأثرة ، ايضا ، ويعمق بحادث عرضي • عرضي ؟ هذه هي الضبابيات الجبانة الخدرة التي يصف بها العقل الرعديد ، الذي يرتعد خشية التفوه بأية ترهات أو يجرح كرامته ، كل ما يعجز عن شرحه • لا بد انني كنت في الرابعة من عمري • وفي رأس السنة أعطاني والدي كناريا وكرة دوارة كهدية ، « يد طيبة » كما نقول في كريت • وقد اعتدت ، بعد اغلاق الابواب والنوافذ ، أن أفتح القفص وأطلق الكناري • وهذا ما نمى لديه ـ عادة الوقوف على قبة الكرة والغناء ساعات متوالية بينما أنا أحبس أنفاسي وأصغي •

اعتقد أن هذا الحادث المغرق في بساطته قد أثر في حياتي أكثر من كافة الكتب وكافة الناس الذين عرفتهم فيما بعد • فبتجوالي الدائم في الارض سنوات عديدة محييا ومفارقا كل شيء شعرت أن رأسي كانت هي الكرة وان الكناري كان يقف في عليائه على قبة عقلي ويغني •

□

انني أتذكر سنوات طفولتي بالتفصيل ، ليس لان للذكريات الاولى هذا السحر العظيم ، بل ، لأن حدثا يبدو غير هام ، في تلك الفترة وكما في الاحلام ، يكشف عن وجه الروح الحقيقي غير المصبوغ أكثر مما يستطيع أن يفعله التحليل النفسي فيما بعد • وبما أن وسائل التعبير في الطفولة أو في الاحلام بسيطة ، فان أعقد ما في الغنى الداخلي يتخلص من الشوائب كلها وبحيث لا يبقى الا الجوهر •

عقل الطفل هش ولحمه غض • ولذلك فان الشمس والقمر والمطر والريح والصمت كلها تهبط عليه • انه لين العريكة ، وهي تدعكه • الطفل يتجرع العالم بشراهة ، ويتلقاه بمنخريه ويتمثله ، ويحوله الى طفل •

أتذكر انني كنت أجلس غالبا على درجات العتبة في بيتنا بينما الشمس تتوهج والهواء يشتعلّ والعناقيد تهرس في بيت كبير في الجوار والعالم يعبق بالضباب • وتعودت أن أمسك راحتي وأنتظر وأنا مغمض عيني بسرور • كان الله يأتي دائما ـ طالما بقيت طفلا ولم يخذلني ابدا ـ كان يأتي دائما ، طفلا مثلي تماما بودع العابه في كفي : الشمس والقمر والريح • وكان يقول : « انها هدايا • العب بها • عندي الكثير غيرها • » وكنت أفتح عيني • ويغيب الله ولكن العابه تظلّ في كفي •

ورغم انني لم اكن اعرف ذلك (لم اكن اعرفة لانني كنت أمارسه)

فانني كنت امتلك قدرة الله الكلية : كنت اخلق العالم كما كنت أريده • كنت عجينة لينة وهكذا كان العالم • واذكر انني كنت احب الكرز اكثر مـن اية فاكهة اخرى في صغري • وتعودت أن امـلأ جعبتي قـرب النبع وان القيها فيها ـ حمراء أو سوداء وقاسية عند المضغ ـ وانحني فوقها واندهش كيف كانت تنتفخ بمجرد ان تدخل الماء • ولكن حين استرددتها لاحظت بخيبـة كبيرة انها تقلصت • ولذلك فانني اغمضت عيني ، لتجنب رؤيتها وهـي تتقلص ، وانا ألقيها ـ وظللت اتصورها هائلة الحجم ـ في فمي •

هذا التفصيل العادي يبين ، في كليته ، الطريقة التي أواجه بها الواقع حتى الان في شيخوختي • انني اعيد خلقه ـ ابهى وافضـل واكثـر ملاءمة لغايتي • ان العقل يصرخ ويشرح ويبرهن ويحتج ، ولكن في اعماقي يبـرز صوت ويصرخ بـه « اهدأ أيها العقل ! ودعنا نسمع القلب • » أي قلب ؟ انه الجنون ، جوهر الحياة • ويبدأ القلب بالشدو •

كان واحد من المتصوفين الارثوذكس المفضلين لدي يقول دائما : « طالما أننا لا نستطيع أن نغير الواقع ، فلنغير العيُون التي ترى الواقع » • وكنت أفعل ذلك في طفولتي ، وانني افعل ذلك الان ايضا في اكثر لحظات حياتي ابـداعا وخلقا •

الحقيقة ان عقل الطفل وعينيه واذنيه معجزات • واية معجزات !! وبأي نهم تلتهم هذا العالم وتملأ نفسها • ان العالم عصفور بريش احمر واخضر واصفر • فكيف يقوم الطفل باصطياد هذا العصفور وكيف يحاول الامساك بـه •

والحقيقة انه ما من شيء يشابه عيني الله الا عينا الطفل • انهمـا تريان العالم لاول مرة وتخلقانـه • وقبـل ذلـك يكـون العالم هيولى • ان المخلوقات كلها ـ الحيوانات والاشجار والبشر والحجارة ، كل شيء : الاشكال والالوان والاصوات والروائح والومضات البراقة ـ تتدفق أمام عينيه غامضة (لا ، ليس أمام عينيه بل فيهما) وهو لا يستطيع تثبيتها ولا يستطيع أن ينظمها •ان عالم الطفل ليس مصنوعا من الطين ، لكي يبقى ، بل مـن الغيوم • نسمة باردة تهب عبر صدغيه وينكشف العالم ثم يرق ويتلاشى • لا بد أن الهيولى قد مرت أمام عيني الله بالطريقة ذاتها قبل الخلق •

حين كنت طفلا توحدت بالسماء والحشرات والبحر والريح ـ بكل ما كنت أراه والمسه • في ذلك الحين كان للريح صدر وكان لها كفان وكانـت تداعبني • كانت ، أحيانا ، تغضب وتعاندني ولا تسمح لي بالمسير ، واذكر انها كانت تلقيني ارضا • وكانت تنتزع الاوراق عن الدالية • وتعبث بشعري

الذي سرحته امي بعناية ، وتنتزع الوشاح عن رأس جارنا ديمترو ، وترفع تنورة زوجته بينيلوب ٠

ولم نفترق ، بعد ، أنا والعالم ٠ الا انني بدأت اسحب نفسي ، شيئا فشيئا من عناقه ٠ ،وقفت انا في جانب ، وهو في جانب وبدأت المعركة ٠

وبينما كان الطفل جالسا على عتبة المنزل يتلقى طوفان العالم الكثيف والعكر بغتة صار يرى ذات يوم وقويت حواسه الخمس ٠ وكل منها حفرت طريقها واخذت نصيبها من مملكة العالم ٠ واذكر ان اول حاسة قويت في داخلي وتماسكت هي حاسة الشم وهي الاولى التي بدأت باقامة النظام على الهيولي المشوشة ٠

كان لكل شخص ، بالنسبة لي ، أريجه الخاص ومنذ ان كان عمري سنتين او ثلاث سنوات ٠ وقبل ان ارفع عيني لرؤيته كنت اعرفه بالرائحة التي تصدر عنه ٠ كانت لامي رائحة خاصة ولابي رائحة غيرها ٠ وكان لكل عم او خال رائحته الخاصة وكذلك لكل امرأة في الجوار ٠ وحينما كان يأخذني بين ذراعيه أو ذراعيها ، كنت دائما وبسبب الرائحة اما أن احبه أو ابدأ برفسه ورفضه ٠ ولقد تلاشت هذه القدرة مع الزمن ٠ واختلطت الروائح المختلفة ٠وغرق الجميع في نتن العرق والتبغ والبنزين ٠

كنت أميز ، كل شيء ، بين روائح المسيحيين والاتراك ٠ كانت هناك عائلة تركية لطيفة تعيش في الشارع المقابل لنا ٠ وحين كانت الزوجة تزور بيتنا كانت الرائحة التي تصدر عنها تصيبني بالقرف وكنت اكسر عودا من الحبق واشمه أو اضع في كل من منخري زهرة من الاكاسيا ٠ لكن كان لهذه السيدة ، فطوم ، طفلة في الرابعة من عمرها (لا بد انني كنت في الثالثة) كانت تفوح منها رائحة غريبة ليست بالتركية ولا باليونانية ، كنت أراها رائحة طيبة ٠ كانت أمينة بيضاء وريانة براحتين وقدمين مدهونة بالكينا ، وشعر مجدول بجدائل صغيرة جدا وبكل جديلة تعلقت صدفة أو حصاة زرقاء صغيرة لاتقاء العين الشريرة ٠ كانت رائحتها مثل جوزة الطيب ٠

كنت أعرف الساعات التي تغيب فيها أمها عن البيت ٠ وتعودت أن أذهب الى باب دارنا في هذه الاوقات واراقب امينة وهي جالسة على عتبة بيتها وهي تمضغ اللبان ٠ كنت اشير لها انني قادم ٠ لكن لبابها ثلاث درجات ولذلك كان يبدو عاليا جدا بالنسبة لي ٠ كيف يمكنني التغلب عليها ؟ كنت اعرق واجهد نفسي وكنت بعد جهد اصعد الدرجة الاولى ٠ وبعد ذلك يبدأ كفاح اخر لتسلق الثانية ٠ واتوقف قليلا لالتقط انفاسي ثم ارفع عيني لاتطلع اليها ٠ كانت تجلس على العتبة لا مبالية على الاطلاق ٠ وبدل أن تمد يدها لمساعدتي كانت تكتفي بالنظر الي والانتظار دون أن تتزحزح ٠

وكان يبدو انها تقول : ان استطعت قهر العقبات فسيكون كل شيء على ما يرام • ستصل الي وسنلعب معا ، وان لم تستطع فعد ! لكنني استطعت قهر العقبات، أخيرا وبعد كفاح عظيم وصلت الى العتبة حيث كانت تجلس • عندئذ نهضت وامسكت بيدي وادخلتني • كانت امها غائبة طوال ذلك الصباح تعمل في تنظيف البيوت • ودون أن نضيع لحظة خلعنا أحذيتنا واستلقينا على ظهرينا ولاصقنا اقدامنا العارية • لم نكن ننبس بكلمة • كنت اغمض عيني واحس بدفء أمينة يمر من قدمها الى قدمي ثم يصعد شيئا فشيئا الى ركبتي وبطني وصدري الى أن يملأني كليا • وكانت الغبطة التي أحس بها عميقة حتى خيل الي انني سوف يغمى علي • ولم يحدث في حياتي كلها ان اعطتني امرأة اخرى غبطة اكبر ومتعة اشمل • ولم يحدث ان شعرت بلغز حرارة جسد الانثى بهذا العمق • وحتى الان ، وبعد سبعين عاما ، فانني اغمض عيني واحس بدفء امينة يصعد من قدمي ثم ينتشر عبر جسدي كله وروحي كلها •

وبالتدريج تخليت عن خوفي من المشي والتسلق وصرت ادخل البيوت القريبة لالعب مع اطفال الجيران • وصار العالم يتوسع •

وحين صرت في الخامسة اتخذت من احدى النساء معلمة لتعلمني كيف أرسم حروف (ا) وكولوريا (١) على اللوح • وكان المفروض ان هذا سيمرن يدي بحيث استطيع كتابة الابجدية حين اكبر • كانت ذات طابع فلاحي بسيط ، قصيرة وبدينة ومحدبة قليلا وعلى الجانب الايمن من ذقنها ثؤلول • كان اسمها مدام أريتي • وراحت ترشد يدي (ورائحتها قهوة) وتشرح لي كيف يجب ان امسك بالحكك واسيطر على اصابعي •

ولم تكن تعني لي شيئا في البدء • ولم اكن احب نفسها ولا حدبتها • ولكن بعد ذلك ، ورغم انني لا اعرف كيف ، بدأت تتحول شيئا فشيئا امام عيني • اختفى الثؤلول واستقام ظهرها وامتشق جسدها المكتنز وصار جميلا ، واخيرا وبعد أسابيع قليلة تحولت الى ملاك اهيف يرتدي ثوبا ابيض كالثلج ويمسك ببوق نحاسي هائل • لا بد أنني رأيت هذا الملاك على أيقونة ما في كنيسة القديس ميناس • ومرة اخرى حققت عينا الطفولة معجزتهما : الملاك والمدام المعلمة صارا واحدا •

مرت السنوات وارتحلت خارجا ثم عدت مرة اخرى الى كريت • وقمت بزيارة الى بيت معلمتي ، كانت سيدة ضئيلة عجوز تجلس على درجات

---

(١) كرات عجينة مرشوشة بالسمسم . اكلة يونانية تباع في الشوارع • `

الباب لتتشمس • وعرفتها من التؤلول في ذقنها • وحين اقتربت وعرفتها بنفسي بكت فرحا • كنت قد جلبت لها بعض الهدايا : قهوة وسكر وعلبة من Loukousns • ترددت قليلا خجلا من ان اسألها لكن صورة الملاك مع البوق كانت قد أصبحت عميقة في النفس بحيث انني لم استطع ان اضبط نفسي •

– مدام اريتي • هل سبق لك أن ارتديت ثوبا ابيض وامسكت ببوق نحاسي كبير بين يديك ؟

وشهقت السيدة العجوز المسكينة « فليحفظنا القديسون » ثم رسمت الصليب على نفسها وقالت « أنا بثوب ابيض ومع بوق ؟ لا سمح الله • أنا مغنيـة ! »

وبدات عيناها تدفقان •

لقد أعيد عجن كافة الاشياء سحريا في عقلي الطفولي الفج ، ولقـد استحضرت الى ما وراء العقل واقتربت من حافة الجنون • الا ان هـذا الجنين هو ذرة الملح التي تحفظ الوعي من التعفن • كنت اعيش واتكلم واتحرك في حكاية للجنيات كنت اخلقها بنفسي في كل لحظة شاقا الطريق فيها لكي افسح لنفسي ممرا • لم أر شيئا واحدا مرتين ابدا لانني كنت أمنحه وجها جديدا في كل مرة واجعله غير معروف • وهكذا فان عذرية العالم كانت تجدد نفسها في كل لحظة •

كان لبعض الفاكهة ، بشكل خاص ، نوع من السحر الغامض بالنسبة لي كالكرز والتين بشكل خاص • ليس التين نفسه كفاكهة بهذه البساطة بل الاوراق ونكهتها • ولقد تعودت أن أغمض عيني واتنشقها حتى يشحب لوني من الحبور الجسدي المفعم • لا ، ليس الحبور – بل الاثارة والخـوف والرعشة وكأنني كنت ادخل غابة خطرة معتمة •

اخذتني أمي معها ذات يوم وسافرنا الى شاطىء مهجور خارج ميغالو كاسترو حيث كانت النساء يذهبن للسباحة ، وكـان ذهنـي مليئا بالبحر الواسع المضطرم • كانت الاجساد تبرز من هذا النيلي الناري شاحبة وضعيفة وغريبة ، مثلما كانت تبدو لي ، وكأنها مريضة • كن يطلقن صيحات حادة ويتقاذفن بحفنات من الماء • ولم اكـن ، استطيـع ان ارى منهن الا حتى الخصر • أما ما تحت الخصر فكان في البحر • وقررت انهن لا بد ان يكن تحت الخصر اسماكا • لا بد انهن حوريات البحر التي كان الناس يتحدثون عنها • واتذكر الحكاية الخرافية التي حكتها لي جدتي عن حورية البحر التي كانت أخت الاسكندر الكبير • كانت ، وهي تجوب البحار بحثا عن اخيها ، تسأل

كلّ السفن التي تمر بها : « هل الملك الاسكندر حي ؟ » وينحني الربان على حافة المركب ويصرخ : « انه حي يا سيدتي · حي ونراه » · ويا لسوء الحظ ان اجابها بأن الملك ميت ، لانها عندئذ ستضرب البحر بذنبها وتثير عاصفة وتمزق السفن ·

نهضت احدى هذه الحوريات اللواتي يسبحن أمامي من البحر واشارت · هتفت لي بشيء ما الا ان ضجة البحر كانت عالية فلم افهمها · كنت قد دخلت لتوي عالم الجنيات وخطر لي انها تسأل عن اخيها ، فصرخت خائفا « انه حي · حي ونراه » فتمايلت الحوريات بغتة وهن يضحكن · ولخجلي هربت غاضبا · ورحت اتمتم : « عليهن اللعنة · انهن نساء ولسن حوريات » ثم جلست على صخرة صغيرة واحساس بالخزي يغمرني وانا ادير ظهري للبحر ·

وانني لاحمد الله ان هذه الرؤيا الطفولية العذبة ما تزال حية في داخلي بكل امتلائها باللون والصوت · وهذا ما يبقي عقلي بعيدا عن الضياع ويحفظه من الذبول والجفاف · انها القطرة المقدسة من الماء الخالد التي تمنعني من الموت · وحين تكون لدي الرغبة في الحديث عن البحر والمرأة أو الله في كتاباتي فانني اغوص في صدري محملقا ثم اصغي بعناية لما يقوله الطفل في داخلي · انه يملي علي واذا حدث أن اقتربت من هذه القوى العظيمه ، البحر والمرأة والله واستطعت ان اتعامل معها بالكلمات وان اصفها فانني مدين بذلك للطفل الذي ما يزال يعيش في داخلي · انني اعود من جديد طفلا لكي امكن نفسي من رؤية العالم لمرة الاولى دائما وبعينين عذراوين ·

ان كلا من ابوي يتجول في دمي · الاول قاس وصلب ومناكد والاخر ودود ولطيف وقدسي · لقد حملتهما طوال عمري ولم يمت اي منهما · وطالما انا اعيش سيظلان يعيشان في داخلي وسيظلان يتصارعان بهذا التضاد من أجل السيطرة على افكاري واعمالي · ولقد انصرف جهدي طوال عمري لمصالحتهما · لعل الاول يعطيني قوته والثاني لطفه · ولكي احول النزاع القائم بينهما ، والذي يتفجر دون توقف في داخلي ، الى توافق وانسجام في قلب ابنهما ·

وهذه واقعة اخرى لا تصدق · ان حضور والدي متجسد بوضوح في ساعدي · فساعدي الايمن قوي جدا وخال من الحساسية ورجولي بشكل مطلق أما ساعدي الايسر فيتمتع بحساسية مفرطة ومرضية · وكلما تذكرت صدر امرأة احببتها احسست بالالم وبوخز بسيط في راحة يدي اليسرى · حتى انها تصبح على وشك التحول الى زرقاء وسوداء من الالم ، وعلى وشك ان يظهر فيها جرح حقيقي · وكلما كنت وحيدا أراقب عصفورا يحلق في

الجو احس بحرارة بطنه في راحتي اليسرى • ففي يدي فقط ، وفي يـدي وحدهما ، هجر كل من والدي الاخر واستقل كل منهما بملكيته : ابي في يـدي اليمنى وامي في يدي اليسرى •

ويجب ان اضيف هنا حادثا كان له اثر عميق في حياتي • وهو أول جرح نفسي تلقيته وعلى الرغم من انني قد شخت الان الا أن هذا الجرح لم يشف بعـد •

ربما كنت في الرابعة من عمري • اخذني احـد اعمامي بين ذراعيه • وكان من الواضح اننا سنذهب لزيارة جار قرب مقبرة القديس ماتيو الواقعة داخل اسوار المدينة •

الربيع : كان البابونج يعطي القبور وكانت شجيرة زهر في الزاوية مليئة بأزهار نيسانية • لا بد ان الوقت كان ظهرا • الشمس قد سخنت الارض والعشب فواح • وكان باب الكنيسة مفتوحا والكاهن قد وضع بخورا فـي المبخرة وارتدى بطرشيله (١) • اجتاز العتبة واتجه نحو القبور •

وسألت عمي وانا استنشق ، بعمق ، أريج البخور والتراب : « لـم يلـوح بالمبخـرة ؟ » •

كان أريجا حارا وبدا لي،أنه مقزز الى حد ما وذكرني برائحة الحمام التركي الذي زرته مع امي في السبت الماضي •

« لمـاذا يلوح بالمبخرة ؟ » سألت مرة اخرى عمي الذي كان ما يزال يتقدم بين القبور بصمت •

ـ اهدأ • ستعرف بعد قليل • اتبعنـــي •

وحين درنا وراء الكنيسة سمعنا حديثا • كانت هناك خمس او ست نسوة متشحات بالسواد وهن واقفات حول قبر • رفع رجلان بلاطة الضريح ثم نزل احدهما في القبر وبدأ يحفر • اقتربنا ووقفنا الى جانب الحفرة •

سألت : ماذا يفعلون ؟

ـ ينبشون العظـام

ـ أية عظـام ؟

ـ سترى بعد قليل •

---

(١) البطرشيل : نسيجة طويلة يجعلها الكاهن في عنقه وعلى صـــدره عند الخــدمــة •

كان الكاهن واقفا على رأس الضريح وهو يلوح بالمبخرة ويتمتم بالصلوات هامسا • انحنيت على التربة المحفورة مجددا • عفن ونتن : وضغطت منخري • ورغم انني قرفت حتى القيء فانني لم ابتعد • انتظرت • عظام ؟ اية عظام ؟ رحت اسأل نفسي وانتظر •

وبغتة استقام الرجل الذي كان يحفر منحنيا • وظهر جذعه خارج الحفرة • كان يمسك بين يديه جمجمة • مسح عنها الاقذار وهو يمد اصبعه ليدفع الوحل من حفرتي العينين ثم وضعها على حافة القبر وانحنى من جديد وتابع حفره •

سألت عمي وانا ارتعد خوفا : ما هذا ؟

ـ الا ترى ؟ انها رأس انسان ميت • جمجمة •

ـ جمجمة من ؟ •

ـ ألا تتذكرها ؟ جمجمة جارتنا أنيكا •

ـ انيكا ؟

وانفجرت في البكاء وبدأت أولول : « انيكا ! انيكا ! » والقيت بنفسي على الارض وجمعت ما استطعت ان اجده من الحجارة وبدأت اقذف بها حفار القبور •

وفيما انا ابكي واندب رحت اصرخ ! كم كانت جميلة وكم كانت رائحتها جميلة ! وانها اعتادت ان تأتي الى بيتنا وتضعني على ركبتيها وتسرح خصلات شعري بالمشط الذي تنتزعه من شعرها • واعتادت ان تدغدغني تحت ذراعي وانا اقهقه وازقزق كالعصفور •

اخذني عمي بين ذراعيه وابعدني قليلا ثم راح يكلمني غاضبا : « لماذا تبكي ، ماذا كنت تتوقع ؟ لقد ماتت • ونحن جميعا سنموت • »

لكنني كنت أفكر بشعرها الاشقر وعينيها الواسعتين وشفتيها الحمراوين اللتين اعتادتا ان تقبلاني • والان ••••

وزعقت : « وشعرها ، وشفتاها وعيناها ؟ »

ـ ذهبت • ذهبت • اكلتها الارض •

هز عمي كتفيه وقال : « حينما تكبر ستعرف لماذا • »

ـ لماذا ؟ لماذا ؟ أنا لا اريد ان يموت الناس !

ولم اعرف أبدا • لقد كبرت وصرت عجوزا ولم اعرف ابدا •

٥ ـ المدرسة الابتدائية

بعيني السحرية أبدا ، وبذهني المليء بطنين النحل والعسل وبقبعة خشبية حمراء على رأسي وحذاء موشى بكرتين حمراوين في قدمي ، انطلقت ذات صباح نصف مسرور ونصف منزعج • كان أبي يمسك بيدي • وقد اعطتني امي قطفة من الحبق (كان من المفروض ان استمد الشجاعة من تشممها) وعلقت حول رقبتي صليب معموديتي الذهبي • وقد تمتمت وهي تنظر الي بفخر « عليك بركات الله ، وبركاتي أيضا » •

كنت مثل أضحية صغيرة مثقلة بالزينات • وكنت أحس في أعماقي بالفخر والخوف معا ولكن كفي كانت مثبتة بعمق داخل قبضة والدي وأنا أثقل نفسي بشجاعة الرجال . وظللنا نسير ونسير في الازقة الضيقة حتى وصلنا الى كنيسة القديسميناس ثم انعطفنا ودخلنا بناء قديما ذا باحة واسعة • كانت هنا أربع غرف كبيرة في الزوايا وفي الوسط شجرة الدلب المغطاة بالغبار. وقفت مترددا وقد فقدت شجاعتي وبدأت كفي ترتعش داخل الراحة الدافئة الكبيرة •

انحنى والدي ليلمس شعري ويربت عليه • ارتعشت ، لأنني ، على ما أذكر ، كانت المرة الاولى التي يربت فيها علي • رفعت عيني ونظرت اليه خائفا • وحين رأى خوفي سحب يده وقال : « سوف تتعلم القراءة والكتابة هنا وبهذا ستصبح رجلا • »

وظهر المعلم في الباب • كان يمسك بقضيب طويل وقد بدا لي متوحشا ، متوحشا بأنياب طويلة واسترقت النظر الى قمة رأسه لارى ما

اذا كان له قرون لكنني لم أستطع أن أرى لانه كان يضع على رأسه قبعة . قال والدي : « هذا ابني » وحولني الى المعلم وهو يفلت كفي من كفه .

ـ « عظامه لنا واللحم لك . لا تشفق عليه . اجلده واصنع منه رجلا . » فأجاب المعلم وهو يشير الى عصاه : « لا تقلق يا كابتن ميخائيل.هذه هي الاداة التي تصنع الرجال » .

تظل من أيام الدراسة الابتدائية هـذه كومة من الرؤوس ثابتة في ذاكرتي ، كومة من الرؤوس الملتصقة احداها بالاخرى كالجماجم . ولا بد أن معظمها قد تحول الان الى جماجم . الا ان ما يبقى فيّ متجاوزا هـذه الرؤوس وخالدا هو المعلمون الاربعة .

باتيروبولوس في الصف الاول : عجوز صغير وقصير جـدا ذو عينين حادتين وشاربين متدليين والعصا في يده دائما . كان يبحث عنا دائما ويجمعنا ثم يرتبنا في رتل كما لو كنا بطا وكان يأخذنا الى السوق لبيعنا . وكان كل أب يقول له وهو يقدم له ابنه ـ العنزة البرية : « العظام لي واللحم لـك يا معلم.. فاجلده ، اجلده الى أن يصبح رجلا » . وكان يجلدنا بلا شفقة . وكنا جميعا ، معلما وتلاميذ ، ننتظر اليوم الذي ستحولنا فيه هذه الضربات العديدة الى رجال ، وبعد أن كبرت وراحت النظريات الخيرة تضلل عقـلي بدأت أصنف هذا الاسلوب على أنه همجي . ولكن بعد أن عرفت الطبيـعة البشرية بشكل أفضل رحت أبارك ، وما زلت ، عصا باتيروبولوس المقدسة. فهي التي علمتنا ان المعاناة هي المرشد الاعظم في ذلك الصعود الذي يقود من الحيوان الى الانسان .

وكان تيتايروس ـ « اية جبنة » ـ يتحكم بالصف الثاني . كان ، ذلك المسكين يتحكم ولكنه لا يحكم . كان شاحبا يضع نظارتين ويرتدي قبـعة منشاة وقميصا وحذائين جلديين مفتوحين ومحدبين عند الكعب . وله انـف ضخم مشعر واصابع نحيلة مصفرة مـن التبغ . ولم يكـن اسمه الحقيقي « اية جبنة » بل كان باباداكيس . الا ان والده الذي كان قسا لقرية نائيـة جاء ذات يوم الى المدينة وجلب له قرصا كبيرا من الجبن كهدية « اية جبنة هذه يا ابي ؟ » صاح الابن (مستخدمـا صيغة تايروس بدلا مـن تايري ليتباهى بمعرفته الكاتاريفوسا (١)) . وصدف ان كانت في البيـت احدى الجارات سمعت الحديث ونشرت الكلمة فتم قلي المعلم المسكين على الفحم واعطاؤه هذا اللقب . ولم يكن « اية جبنة » يجلد بل كان يتودد . لقد اعتاد

---

(١) اللغة اليونانية الاصلية وهي لغة محذلقة ومتقعرة .

ان يقرأ علينا « روبنسن كروزو » وهو يشرح لنا كل كلمة • ثم كان ينظر الينا بعطف وألم وكأنه يتوسل الينا ان نفهم ، بينما كنا ندل بأصابعنا ونحدق منتشين الى الصور السيئة الطبع للغابات المدارية ، والاشجار ذات الاوراق الكبيرة والسميكة وروبنسون بقبعته القشية ذات الاطار الواسع وامتداد المحيط الخاوي من كافة الجهات • وكان « اية جبنة » المسكين يخرج كيس تبغه ويدرج لفافة ليدخنها اثناء الفرصة وهو ينظر الينا متوسلا وينتظر •

وذات يوم بينما كنا في درس (التاريخ المقدس) وصلنا الى ايساو Esau الذي باع حق ميلاده ليعقوب Jacob لقاء حساء العدس • وحين ذهبت الى البيت للغداء سألت والدي عما يعنيه « حق ميلاده » فأجابني وهو يهرش رأسه ويسعل : « اذهب واسأل الخال نيكولاكي » •

كان هذا الخال قد أنهى دراسته الابتدائية الامر الذي جعله العنصر الاكثر ثقافة في الاسرة • كان اخا لامي • نوع من (توم ثومب) قصير وصغير واصلع ذو عينين مذعورتين واسعتين ويدين كبيرتين مغطاتين بالشعر • لقد تزوج من فوق مستواه • وزوجته العدائية ذات الانف الحاقد لم تكن تحس نحوه الا بالاحتقار • واضافة الى ذلك كانت غيورة ولذلك فانها كانت في كل ليلة تقوم بربط قدمه الى عمود السرير بحبل لكي تمنعه من النهوض ليلا والذهاب لزيارة الخادم الممتلئة ذات الصدر الكبير التي كانت تنام في الطابق السفلي • وفي الصباح كانت تطلق سراحه • وقد تحمل خالي المسكين هذا الاستشهاد خمس سنوات ثم شاء الله ان تموت ذات الانف الحاقد (من اجل هذا نصف الله بالخير المطلق) فتزوج خالي هذه المرة فتاة ريفية قوية وطيبة القلب وبذيئة اللسان لم تكن تقيده • واعتاد ان يأتي الى بيتنا متباهيا لزيارة والدتي •

وكانت تسأله : « كيف تسير امورك الان مع زوجتك الجديدة يا نيكولاكي ؟ » •

ـ لا حاجة لان تسأليني عن مقدار سعادتي يا مارغي ، انها لا تقيدني •

ولخوفه من والدي لم يكن يرفع عينيه للنظر الى وجهه بل كان يحدق دائما الى باب الدار وهو يفرك كفيه المكسوتين بالشعر • وفي ذلك اليوم ما ان سمع ان الكابتن ميخائيل يطلبه حتى نهض عن المائدة وفمه مليء بالطعام وتوجه الى بيتنا •

ما الذي يمكن ان يريده مني الغول ؟ سأل نفسه مغتاظا وهو يبتلع اخر لقمة • كيف تتحمله اختي المسكينة ؟ وحين تذكر زوجته الاولى ابتسم بارتياح وتمتم « اما انا فقد نجوت على الاقل • الحمد لله » •

وما ان رآه والدي حتى ناداه : « تعال ، انت قد ذهبت الى المدرسة ، فاشرح هذه » .

وشكل الاثنان مجلسا وهما منكبان على الكتاب ، وبعد تأمل طويل قال والدي « حق الميلاد يعني بذلة الصيد » وهز خالي رأسه معترضا وقال : « اظن انه يعني المسكيت (١) » ولكن صوته كان يرتجف ، وزأر والدي « بذلة صيد » وهو يعقد حاجبيه بينما كان خالي يرتجف .

وفي اليوم التالي سألنا المعلم : « ماذا يعني حق الميلاد » فقفزت صائحا : « بذلة صيد » .

– يا للسخافة ، اي احمق جاهل قال لك ذلك ؟

– والــــدي .

وجبن المعلم ، وبما انه كغيره يخاف من والدي فكيف يمكن له ان يحلم بمخالفته ؟ ابتلع ريقه بصعوبة وقال : « نعم بالتأكيد ، ولكن هذا نادر جدا ، انها يمكن ان تعني بذلة صيد ، ولكــــن هنا ... » كان التاريــــخ المقدس موضوعي المفضل ، فقد كان حكاية خرافية غريبة ومعقدة فيها ثعابين تتكلم وفياضانات واقواس قزح وسرقات وجرائم قتل ، الاخ يقتل اخاه والاب يريد ذبح ابنه الوحيد والله يتدخل مرة كل دقيقتين ويقوم بدوره في القتل،والناس يعبرون البحر دون ان تبتل اقدامهم .

لم نكن نفهم ، وكنا نسأل المعلم وهو يسعل ويرفع عصاه غاضبا وهو يصرخ : « اوقفوا هذه الوقاحة ! كم مرة قلت لكم ان لا تتكلموا » .

وكنا نجيب بصوت كالانين : « لكننا لا نفهم يا سيدي » وهو يجيب : « هذه افعال الله ، وليس من المفترض بكم ان تفهموا ، انها خطيئة » .

خطيئة ! كنا نسمع هذه الكلمة المخيفة وننكمش مرعوبين ، لم تكن كلمة بل ثعبانا ، الثعبان نفسه الذي اغوى حواء كان يأتي من منصة المعلـم وهو يفتح فمه لالتهامنا ، كنا ننكمش في مقاعدنا ولا ننبس .

والكلمة الاخرى التي ارعبتني حين سمعتها لاول مرة هي كلمة «ابراهام» كان حرفا الالف يرتعشان في داخلي وكان يبدو انهما يأتيان من مكان بعيد ، من بئر عميقة مظلمة مخيفة ، وكنت اهمس لنفسي « ابراهام ، ابراهام » بسرية تامة واسمع الخطوات واللهاث ورائي – كان هناك شخص ما يتبعني بقدمين جبارتين عاريتين ، وحين عرفت انه اخذ ابنه ذات يوم لذبحه جمدني

---

(١) بندقية قديمة الطراز .

الرعب • لا شك انه هو الذي يذبح الاطفال • وصرت اختبىء وراء مقعدي لكي لا يكتشفني وياخذني • وحين قال لنا المعلم ان من يتبع وصايا الله يذهب الى بطن ابراهام اقسمت بيني وبين نفسي ان اخالف الوصايا كلها لكي انقذ نفسي من ذلك البطن •

ولقد احسست بالاثارة ذاتها حين سمعت للمرة الاولى ، في موضوع التاريخ المقدس ذاته ، بكلمة هاباكوك Habakkuk • فقد بدت لي هي الاخرى غامضة • فالهاباكوك هو البعبع الذي يتسلل الى الدار كلما هبط الظلام (كنت اعرف المكان الذي يجثم فيه : وراء البئر) وذات مرة حين تجرأت على المغامرة بالخروج وحيدا الى الدار ليلا قفز من وراء البئر ومد يده وصرخ بي : « هاباكوك ! » وبمعنى اخر « قف • سآكلك ! » •

كان صوت بعض الكلمات يثيرني بشكل رهيب ـ وعلى الغالب كنت احس بالخوف وليس بالغبطة • وبشكل خاص الكلما تالعبرية • فقد علمت من جدتي ان اليهود في (الجمعة الحزينة) كانوا يأخذون الاطفال المسيحيين ثم يلقونهم في قناة مفروشة بالمساميرويشربون دماءهم • وكثيرا ما كانت تبدو لي كلمة عبرية ما من (العهد القديم) ـ وخاصة كلمة يهوه ـ كقناة مفروشة بالمسامير وكأن شخصا ما يريد ان يلقيني فيها •

وفي الصف الثالث كان هناك برياندر كراساكيس • اي عراب عديم الرحمة اعطى اسم طاغية كورنت المتوحش لهذا القزم المريض بياقته المرتفعة لكي تخفي الغدة في رقبته وساقيه الجندبيتين الهزيلتين ومحرمته الصغيرة دائما في فمه لكي يتمكن من البصاق والبصاق والبصاق وكأنه يلفظ اخر انفاسه ؟ كان هذا الرجل مهووسا بالنظافة ولذا كان يتفقد اكفنا كل يوم وآذاننا وانوفنا واسناننا واظافرنا • ولم يكن يضرب او يتوسل بل كان يهز رأسه الضخمة التي كانت مغطاة بالبثور ويصرخ بنا : « وحوش ! خنازير ! ان لم تغتسلوا كل يوم بالصابون فلن تصيروا بشرا ابدا • اتعرفون ماذا يعني ان يصير المرء انسانا ؟ يعني ان يغتسل بالصابون • العقل ليس كافيا ، ايها الشياطين المساكين ، لا بد من الصابون ايضا • كيف ستظهرون امام الله بأيد كهذه ؟ هيا اذهبوا الى الباحة واغسلوا ! » •

وفي النهاية كان يجعلنا نصاب بالخجل ساعات عديدة ـ اي الحروف الصوتية طويل وايها قصير وهل نستخدم عليها علامة حادة ام منحنية (١) بينما نحن ننصت الى الاصوات في الشارع ـ باعة الخضار ، والصبيان الذين

(١) العلامات التي توضع على الحروف الصوتية لتؤثر في طريقة نطقها • وهذا معروف في اللغة الفرنسية مثلا •

يبيعون الكولوري ، ونهيق الحمير وضحكات النساء ـ وننتظر ان يقرع الجرس لكي نفر . وكنا نراقب المعلم وهو يتعرق في مقعده بينما هو يعيد نقاط القواعد مرة بعد اخرى بغاية تثبيتها في اذهاننا لكن افكارنا كانت هناك خارجا في الشمس وفي حرب الحجارة . فقد كنا نعبد هذه اللعبة وكثيرا ما اتينا الى المدرسة برؤوس مجروحة .

وذات يوم ربيعي مقدس فتحت النوافذ . كانت شجرة المندرين مزدهرة في الجانب الاخر من الشارع ودخلت رائحتها الصف . وتحول كل عقل من عقولنا الى شجرة مندرين مزدهرة ولم نعد نقوى على احتمال سماع اي شيء اخر حول الحركات والعلامات الحادة والمنحنية . وفي اللحظة ذاتها جاء عصفور وحط على شجرة الدلب في باحة المدرسة وبدأ يزقزق . عند هذا الحد كان تلميذ شاحب احمر الرأس ، وصل هذا العام من قريته واسمه نيكولويس ، قد فقد القدرة على السيطرة على نفسه ، فرفع اصبعه وقال : « اهدأ يا استاذ . اهدأ قليلا ودعنا نسمع العصفور » .

يا لبيرياندر كراساكيس المسكين ! لقد قمنا بدفنه ذات يوم . كان قد ارخى رأسه بهدوء على مقعده وارتجف قليلا مثل سمكة ثم أسلم الروح . مصعوقين خوفامن رؤية الموت امامنا مباشرة اندفعنا الى الباحة نزعق . وفي اليوم الثاني جئنا بملابس الاحد وقد غسلنا ايدينا بعناية (لكي لا ننكر عليه شيئا في هذه المسألة) واخذناه الى المقبرة القديمة قرب البحر . كان الطقس ربيعا وكانت السماء تضحك ورائحة البابونج تنبعث من الارض . وضع التابوت مكشوفا ، وكان وجه الميت مليئا بالبثور المتقيحة التي بدأت تتحول الى خضراء وصفراء . وحين راح تلامذته ينحنون عليه واحدا بعد الاخر لاخذ قبلة الوداع لم تعد للربيع رائحة البابونج بل رائحة اللحم المتعفن .

وفي الصف الرابع كان هناك مدير المدرسة . الذي كان يحكم ويتحكم معا . كان قصيرا وبدينا مثل جرة المؤونة وله لحية صغيرة مدببة وعينان رماديتان غاضبتان دائما وساقان مقوستان . وكنا نتهامس فيما بيننا بحيث لا يسمعنا « يا الله ، انظر الى ساقيه . انظر كيف تلتف كل منهما حول الاخرى . واسمعه وهو يسعل . انه ليس كريتيا » . لقد جاء الينا من اثينا حديث الثقافة جالبا معه بشكل واضح بيداغوجيا (١) جديدة . وخيل الينا ان هذا يعني امرأة شابة اسمها بيداغوجيا (فكلمة جديدة في اليونانية تعني ايضا امرأة شابة) غير اننا حين تقابلنا معه لاول مرة كان وحيدا .

(١) علم اصول التدريس .

ولم تكن بيداغوجيا هناك · لا بد انها ظلت في البيت ، كان يمسك بسوط مجدول من جلد البقر · رتبنا على رتل وبدأ يحاضر فينا · قال لنا ان علينا ان نرى ونلمس كل ما نتعلمه او ان نرسمه على ورق مغطى بالنقاط · وان علينا ان نمعن النظر فهو لن يتوقف من اجل اي هراء ولا حتى من اجل الضحك او الصراخ اثناء الفرصة · كان علينا ان نبقي اذرعنا مكتفة وكلما رأينا قسا في الشارع علينا ان نقبل يده « أمعنوا النظر ايها الشياطين والا ـ اترون هـذا ؟ » واشار الى سوطه « انا لا احكي فقط · سترون انني اعني الفعل ! » وقد رأينا فعلا · فحين كانت تدب الفوضى بيننا او حين كان يحس انه في مزاج سيء كان يفك ازرار ملابسنا وينزل سراويلنـــا القصيرة ثم يسوط جلدنا العاري بسوطه · وحين كان يتكاسل عن فك ازرارنا كان يسوطنا على آذاننا حتى يتدفق الدم ·

مرة قويت قلبني ورفعت اصبعي وسألته : « استاذ ! ما هي البيداغوجيا الجديدة ؟ ولماذا لا تأتي الى المدرسة ؟ » ·

فوثب عن كرسيه وتناول السوط من علاقته على الجدار وصاح : « تعالـب هنا ايها المشاغب الوقح · فك سروالك » كان أكسل من ان يفعل ذلك بنفسه « هنا ! هنا ! هنا ! »وهو ينزل بضرباته · وحين تصبب منه العرق توقف : « هنا البيداغوجيا ، مرة ثانية اخرس » ·

غير انه كان بدوره ، شيطانا صغيرا ماكرا زوج البيداغوجيا الجديدة هذا · ذات يوم قال لنا « غدا سأحدثكم عن كريستوف كولومبس وكيــف اكتشف امريكا · ولكن لكي تفهموا افضل اريد من كل منكم ان يكون ممسكا ببيضة في يده ومن ليس لديه بيضة في البيت فليجلب بعض الزبدة » ·

كانت لديه ابنة في سن الزواج اسمها تيربسيكور : قصيرة ومبتهجة · وعلى الرغم من وجود العديد من الخاطبين الا انه لم يكن يريدها ان تتزوج : « لن اسمح لشيء بغيض كهذا ان يحدث في بيتي » كما اعتاد ان يقول · وحين جاءت القطط في كانون الثاني وبدأت تموء على القرميد جلب سلمـا وصعد الى السطح وهو يطاردها متمتما « اللعنة على الطبيعة · ليس لديها اخـــلاق » ·

وفي (الجمعة الحزينة) اخذنا الـــى الكنيسة لكي نقدم احترامنـــا للمصلوب · وبعد ذلك عاد بنا الى المدرسة لكي نشرح ما رأيناه وما يعنيه الصلب · انهددنا في مقاعدنا متعبين ومشمئزين لاننا لم نكن قد أكلنا شيئا ذلك اليوم الا الليمون الحامض ولم نكن قد شربنا شيئا الا الخل لكي نتحسس معاناة المسيح · بينما بدأ زوج البيداغوجيا بصوت عميق ووقور يشرح كيف نزل الله على الارض وكيف اصبح المسيح وعانى ثم صلب لكي يخلصنا

من الخطيئة ٠ ولم نفهم بوضوح ما كانت تعنيه تلك الخطيئة غير اننا فهمنا بوضوح انه كان لديه اثنا عشر تلميذا احدهم (يهوذا) قد خانه ٠

- « ويهوذا كان مثل ٠٠ مثل من ؟ » ٠

ترك المعلم منصته وبدأ يتقدم ببطء مهددا من مقعد الى مقعد وهو ينظر الينا الواحد بعد الاخر ٠ « يهوذا ٠ كان مثل ٠٠٠ مثل ٠٠٠ » كانت سبابته ممدودة وهو ينقلها من تلميذ الى اخر لكي يرى ايا منا كان يشبه يهوذا ٠ وجمنا جميعا ونحن نرتجف خشية ان تستقر علينا الاصبع الرهيبة٠ وبغتة اطلق المعلم صرخة وتوقفت اصبعه على صبي شاحب ملابسه رديئة وله شعر جميل اشقر مائل للاحمرار٠ كان هذا نيكوليوس الصبي نفسه الذي هتف في العام الماضي ، في الصف الثالث ، « أهدأ يا استاذ ودعنا نسمع العصفــور » ٠

« ها هو ٠ مثل نيكوليوس » صرخ المعلم « مطابق تماما ٠ الشحـوب نفسه والملابس ذاتها ٠ ويهوذا ايضا كان له شعر احمر ٠ احمر غامق كلهيب الجحيــم » ٠

وحين سمع نيكوليوس المسكين ذلك انفجر بالبكاء ٠ والبقية ، وقد زال عنها الخطر ، توجهت اليه بنظرات حاقدة ضارية وبدأت الكلمة تنتقل سرا من مقعد الى مقعد بحيث انه ما ان انتهى الدوام حتى كنا قد قررنا ان نضربه ضربا مبرحا لانه خان المسيح ٠

وبعد ان اقتنع باتباعه البيداغوجيا الحديثة وبتقديم شبيه ليهوذا صرف المعلم الصف ٠ وطوقنا نيكوليوس حالما وصلنا الى الشارع وبدأنا نبصق عليه ونضربه ٠ ركض وهو يبكي لكننا طاردناه بالحجارة ساخرين « يهوذا يهوذا » الى ان وصل بيته ودخله ٠

ولم يظهر نيكوليوس مرة اخرى في الصف ولم يأت الى المدرسة مطلقا ٠ وبعد ثلاثين عاما كنت عائدا الى كريت بعد اقامتي في اوروبا قرع بابي ٠ كان سبت النور ٠ وكان والدي قد طلب لنا جميعا احذية جديدة من اجـل الفصح ٠ ووقف بالعتبة رجل شاحب ضعيف بشعر احمر ولحية حمراء ٠ كان يقدم لنا الاحذية التي لفت بعناية بقماش ملون ٠ كان يقف بخجل علـى الباب وهو ينظر الي ويهز رأسه : « ألم تعرفني ؟ الا تتذكرني ؟ » عرفته حين قال ذلك ٠ فصرخت وانا احتضنه بين ذراعي « نيكوليوس » فأجـاب وهو يبتسم بمرارة « يهوذا ! » ٠

اني كثيرا ما اتذكر جيراننا مـن الرجال والنساء ودائمـا اتذكرهم برعب ٠ فقد كان معظمهم انصاف مجانين وذوي نزوات غريبة ٠ ان عقولهم

تنهار ، ربما لانهم ينعزلون طوال العام داخل الجدران الاربعة لبيوتهم ، وهم يغلون في طاقاتهم ، وربما لخوفهم من الاتراك وحرصهم على حياتهم فقد سمعوا العجائز وهم يحكون الحكايات عن المجازر والحروب وعن تعذيب المسيحيين حتى يقف شعر رؤوسهم . فاذا جاء احد ووقف امام ابواب بيوتهم فانهم يقفزون واقفين وقد صعقهم الخوف . فكيف ينامون ليلا ؟ عيونهم مفتوحة وآذانهم متربصة . انهم ينتظرون ساعة الشر التي لا بد ان تأتي .

برعب ، فعلا ، اتذكر رجال جيراني ونساءهم . مدام فكتوريا ، تحت بيتنا مباشرة ، تحييك احيانا بعذوبة مع وابل من الاحاديث اللطيفة من المستحيل ايقافه ، واحيانا تصفق الباب في وجهك وتلعنك من ورائه .

بمواجهتها كانت هناك مدام بنلوب . بدينة مترهلة متقدمة في السن ، دائما تمضغ القرنفل لتحسن من رائحة انفاسها . كانت تضحك دائما كأن هناك من يدغدغها . وكان زوجها ، السيد ديميتروس ، من النوع الصموت والمصاب بوسواس من المرض يحمل مظلته معه دائما ويذهب الى الجبال . وبعد شهرين او ثلاثة اشهر يعود بثياب ممزقة ويكاد ان يموت جوعا وبنطاله معلق ومتدل حوله . وحين كانت مدام بنلوب تراه يظهر من بعيد وهو يمسك بمظلته المفتوحة فوقه كانت تنفجر بالضحك « ها قد عاد ليملأ سراويله » هكذا تصرخ منادية الجيران الذين يسندون خواصرهم من الضحك .

وعلى مبعدة في اسفل الشارع كان يعيش السيد مانووسوس وهو تاجر مرموق ممسوس قليلا وكلما ترك منزله صباحا كان يرسم بقطعة من الحكك صليبا على مدخل منزله . وعند عودته ظهرا لكي يأكل كان يجلد اخته - بانتظام ودائما في الساعة ذاتها تماما ، وحين كنا نسمع صرخاتها كنا نعرف انه قد حان وقت الغداء ولذا كنا نتوجه الى المائدة . ولم يكن السيد مانووسوس يفتح شفتيه ليلقي تحية الصباح بل كان يكتفي بالنظر اليك بمزيج من الوحشية والخوف .

وكان السيد اندرياس (الطليعي) يقطن بيتا فوق بيتنا بقليل في رأس الشارع . كان غنيا مليئا بالبثور وكان له أنف ضخم بمنخرين واسعين يجعله يبدو شبيها بالعجل . وكلما اغلق بابه كان يقف ويتحسسه ساعة من الزمان ليتأكد من انه لم يتركه مفتوحا وهو يردد طوال الوقت التعاويذ لكي يطرد عنه اللصوص والنار والمرض . واخيرا كان يرسم الصليب على نفسه ثلاث مرات ثم يتابع طريقه وهو يتلفت وراءه . وقد لاحظ اطفال الجوار انه كان يدوس دائما على الحجارة ذاتها فاعتادوا ان يكوموا الوحل او روث الخيول على الحجارة لاستفزازه . الا انه كان يزيح الاوساخ بعصاه جانبا ثم يخطو كما اعتاد .

وكان لدينا جار اخر هو الدكتور بيركليس الرائع مفخرة الشارع • كان طبيبا جديدا قد عاد مؤخرا من دراسته في باريس • اشقر وانيق يحمل نظارتين من الذهب ويرتدي قبعة رسمية • وهو بالتأكيد اول طبيب يقطن في ميغالوكاسترو ويزور المرضى بالخفين لان قدميه (كما قال) كانتا متورمتين • وكان هذان الخفان مطرزين بيدي اخته العانس التي استهلكت مهرها لكي تنفق على تعليمه • كان طبيب عائلتنا • ولقد اعتدت ان انحني على الخفين وابدي اعجابي بالتطريز الذين كان عبارة عن ورود حريرية محاطة بأوراق خضراء • وذات مرة كنت مصابا بالحمى وجاء ليراني فقلت له متوسلا انه ان كان يريدني ان اشفى فليمنحني الخفين • فقام بجدية تامة ـ لم يكن يتنازل بالضحك ابدا ـ بوضعهما على قدمي ليرى ان كانا ملائمين • الا انهما كانا كبيرين جدا • ولكي اعزي نفسي حككت انفي بالزهرات المطرزة لارى ان كانت لها رائحة : كانت لها رائحة ولكنها لم تكن رائحة زهور •

لا استطيع تذكر جيراني دون ان انفجر بالضحك الممزوج بالدموع • في ذلك الحين لم يكن الناس بالدزينات على نمط واحد • كان كل منهم عالما مستقلا • كان يضحك ويتحدث بشكل مختلف عن جيرانه ، وكان يغلق على نفسه باب بيته ليحتفظ برغباته السرية مخبوءة بدافع الخجل او الخوف وكانت هذه الرغبات تتوالد في داخله حتى تخنقه • غير انه لم يكن يفوه بشيء وكانت حياته تأخذ طابع الجدية المأساوية • واضافة الى ذلك كان هناك الفقر • وكأن ذلك لم يكن كافيا فقد كانت هناك الكبرياء التي تطالب بأن لا يكتشف احد هذا الفقر • كان الناس يعيشون على الخبز والزيتون وجذوع الخردل لتجنب الخروج بملابسهم المرقعة • وقد سمعت احد الجيران يقول ذات مرة : « الفقير هو ذلك الذي يخاف من الفقر • وانا لا اخاف منه » •

٦ ـ موت جـدي

كنت ما ازال في المدرسة الابتدائية حين جاء راع يعدو من القرية ليأخذني الى جدي الذي كان من الواضح انه يلفظ انفاسه الاخيرة ٠ لقد طالب بي لكي يمنحني بركاته ٠ كان ذلك في آب على ما اذكر والحر كان شديدا ٠ ركبت على حمار بينما كان الراعي يسير ورائي وهو يمسك بعصا مشعبـة وقد ثبت مسمارا في طرفها ٠ وكان يهمز الحيوان بين حين واخر فيفجر منه الدم فيرفس الحمار المتألم ثم يبدأ الركض ٠ ورحت التفت الى السائق وارجوه : «لتكن لديك الشفقة ٠ الا تعطف على هذا الحيوان ؟ انك تؤذيه » ٠ فأجابني : « البشر وحدهم يحسون بالالم ٠ الحمير حمير » الا انني نسيت آلام الحمار حالما وصلنا الى الكروم وغابات الزيتون ٠ كانت النساء ما زلن يقطفن العنب وينشرن العناقيد على أماكن جافة مغطاة بالقماش لتتحول الى زبيب ٠ كان العالم يعج بالروائـح والجنادب تصم الآذان ٠ وقد رأتنا احدى القاطفات وضحكت فسألت سائق الحمار : « لماذا تضحك هذه المرأة يا كيرياكوس ؟ » (كنت قد عرفت اسمه الان) ٠

● « هناك ما يدغدغها ولذلك فهي تضحك » ٠ ثم بصق ٠

ـ دغدغة ؟ من الذي يدغدغها يا كيرياكوس ؟٠

ـ الشياطـــين ٠

ولم افهم غير انني خفت ٠ اغمضت عيني لكي اتحاشى رؤية الشياطين ولكمت الحمار بقبضتي لكي أجعله يبتعد بنا بسرعة ٠

عمالقة مكسوون بالشعر كانوا يسحقون عناقيد العنب بأقدامهم في احدى القرى التي مررنا بها ٠ كانوا عراة حتى الخصر وهم يرقصون لعصر الخمر ويحكون النكات التي كانت تجعلهم يتلوون من الضحك ٠ كانت رائحة

التخمر تفوح من الارض • وكانت النسوة يخرجن الارغفة الطرية من التنانير وكانت الكلاب تنبح والنحل والدبابير تطن والشمس الغارقة تنحدر بوجه ضارب الى الحمرة وكأنها تدوس العناقيد مع الاخرين وهي ثملة تماما • انا الاخر بدأت اضحك • وبصفرة اخذت العصا المشعبة من الراعي وبدأت اهمز الحمار غارزا المسمار عميقا في ردفه •

حين وصلنا الى بيت جدي كنت قد دخت من التعب والشمس والجنادب• حين وصلنا ورأيته مستلقيا وسط الدار ومحاطا بأبنائه واحفاده احسست بالراحة • فالظلام كان قد حل والحرارة كانت قد خفت وجدي كان يستلقي بعينين مغمضتين غير مدرك لوجودي • وبهذا تجنبت الكف الضخمة التي كانت تجعل جلدي يحمر كلما لامستني •

قلت للمرأة التي اخذتني بين ذراعيها وانزلتني عن الحمار : « انني تعب » • فأجابت : « عليك ان تصبر • فجدك قد يسلم الروح في اية لحظة • الافضل ان تبقى الى جانبه لعلك تكون اول من ينال بركاته » •

لقد بدت لي هذه البركات التي قطعت هذه المسافة الطويلة لنيلها كمنحة اعجازية او لعبة غالية الثمن • شعرةالغول المذكور في قصص الجنيات ـ هذه هي البركات ! انك تحتفظ بهذه الشعرة كتعويذة ثم تحرقها في اوقات الحاجة الماسة فيأتي الغول لانقاذك • وهكذا بدأت انتظر ان يفتح جدي عينيه ويمنحني شعرة الغول •

وفي اللحظة ذاتها اطلق صرخة وراح يتقلب كالكرة على جلد الخروف الممدود تحته • قالت عجوز : « لقد رأى ملاكه • انه سيسلم الروح في اية لحظة » ثم صلبت نفسهاوتناولت قطعة من الشمع راحت تدفئها بأنفاسها وتعجنها بين اصابعها وحولتها الى صليب لتختم به شفتي الميت •

نهض أحد ابنائه • كانت له لحية سوداء شائكة • دخل المنزل واخرج منه رمانة وضعها في كف والده ليأخذها معه الى (هيدس) •

اقتربنا منه جميعا ورحنا نحدق اليه • وابتدأت احدى النساء تغني الترنيمة الجنائزية الا ان الابن ذا اللحية الشائكة وضع يده على فمها •

ـ اهدئي !

في هذه اللحظة فتح جدي عينيه واشار بهما • اقترب الجميع منه وكان ابناؤه في الدائرة الاولى والاقرب منه ثم احفاده الذكور بعدهم ووراء الجميع بناته وكناته • ومد المحتضر يديه ووضعت احدى العجائز وسادة خلف رقبته • وهنا سمعنا صوته ، قال :

ـ « وداعا ايها الفتيان لقد اكلت نصيبي من الخبز وانا راحل الان . لقد ملأت داري بالاولاد والاحفاد وعبأت جراري بالزيت والعسل وبراميلي بالخمر ـ ليس لدي ما اشكو منه . وداعا ! » .

حرك يديه مودعا . ثم استدار ببطء ونظر الى كل منا واحدا بعد الاخر . نسيت كل ما له صلة بالبركات .. كنت اختبىء وراء اثنين او ثلاثة من ابناء عمومتي فلم يرني . لم يتكلم احد .. وفتح العجوز شفتيه مرة اخرى :

« اسمعوا يا فتيان .. وانتبهوا لتعليماتي الاخيرة . اعتنوا بالحيوانات ـ الثيران والاغنام والحمير . لا تخدعوا انفسكم . ان لها ارواحا مثلنا تماما . انها بشر لكنها تلبس جلود الحيوانات ولا تعرف كيف تتكلم . انها بشر بطريقة معكوسة فامنحوها كفايتها ... الطعام . واعتنوا باشجار الزيتون والكرمة . واحرصوا على تسميدها وسقايتها وتشذيبها ان كنتم تريدون لها ان تحمل ثمرا . انها بشر ايضا بطريقة معكوسة . لكنها معكوسة منذ زمن بعيد ولم تعد تتذكر . لكن الانسان يتذكر .. ولهذا انتم بشر . هل تسمعون ؟ أم انني اتحدث الى قطيع من الصم البكم ؟ » .

ـ اننا نسمع . اننا نسمع .

اجابت اصوات متعددة . فمد العجوز كفه الضخمة وطلب ابنه الاكبر « انت .. يا كوستانديس » . وتقدم كوستانديس العملاق ذو الشعر الاجعد واللحية المبيضة والعينين البقريتين ولمس يد والده .

ـ ها انا يا سيدي . قل لي ما تشاء .

ـ لدي قمح منتقى في الجرة الصغيرة . انني احتفظ به منذ زمن طويل من اجل (التقدمة في ذكراي (١)) اسلقوه في اليوم التاسع واحرصوا على وضع كمية كبيرة من اللوز (لدينا منه ما يكفي والحمد لله) ولا تقتروا بالسكر كما تفعلون عادة . اتسمع ؟ انك بخيل وانا لا اثق فيك .

ـ « انني احترم رغباتك » . قال الابن الاكبر وهو يهز رأسه . « نعم . انني احترم رغباتك . ولكن دع الاخرين يشاركوا في النفقات . الكل يعملون على ان يشارك كل منهم في النفقات . اننا نتعامل مع (تقدمة الذكرى) وهذا يعني المال . ليست مزحة . ثم هناك الشموع والقس الذي يجب ان يدفع له ثم حفار القبور ، لا تنس ذلك ثم فطائر الجنازة والمازة والخمر

---

(١) انفاق خاص عن روح الميت او في ذكراه .

وأدام الذكرى وهذا غير القهوة التي ستشربها النسوة ، هذا يعني المال • قلت لك انها ليست مزحة • نحن جميعا سنشارك في النفقات » •

والتفت الى اخوته على جانبيه : « هل تسمعون ؟ كلنا • لكل نصيبه • فليكن هذا واضحا » •

وغمغم الاخوة من بين اسنانهم • ثم رفع احدهم صوته « حسن • يا كوستانديس • حسن • لن نتشاجر من اجل ذلك » •

كنت قد انزلقت الى الدائرة الاولى • وكما كنت قد اشرت منذ قليل ، كان الموت دائما لغزا غريبا يغويني • اقتربت لكي القي نظرة عن قرب على والد أمي وهو يموت •

ووقعت عينه علي •

« ايه • اهلا • اهلا بصديقي الصغير من كاسترو • انحن لكي امنحك بركاتي » •

وأمسكت السيدة العجوز التي كانت تعجن الشمع بيدي وخفضتها • واحسست بكف جدي الضخمة والثقيلة تحيط بفروة رأسي كلها : « بوركت يا حفيدي من كاسترو • وان شاء الله ستصبح رجلا ذات يوم » • وحرك شفتيه ليقول شيئا اخر الا انه كان قد انهك فأغمض عينيه •

وسألهم بصوت واهن :

ـ « من اية جهة تغرب الشمس ؟ اديروني نحوها » •

وأمسك به اثنان من ابنائه وأداراه نحو الغرب • فهمس « وداعا • انا ذاهب » •

وأطلق تنهيدة عميقة ثم توترت ساقاه • وسقط رأسه على الوسادة فاصطدم بحجارة الدار • وسألت واحدا من ابناء عمومتي : هل مات ؟!

فأجاب : اف • هذه نهايته • فلنذهب للطعام •

٧ ـ كريت تواجه تركيا

الا ان ما اثر في حياتي الى أبعد الحدود ـ واكثر بكثير من المدارس والمعلمين واكثر من المتع والمخاوف الاولى التي انتابتني من رؤيتي للعالم ، والذي هزني بطريقة فريدة : الصراع بين كريت وتركيا ٠

فلولا هذا الصراع لاتخذت حياتي مجرى مختلفا ولاتخذ الله وجها مختلفا ٠

فمنذ يوم ميلادي كنت استنشق هذه المعركة المرئية او المتخفية حتى في الهواء الذي اتنفسه ٠ كنت ارى المسيحيين والاتراك ينظر كل منهم الى الاخر شذرا بنظراته القاسية ثم يفتل كل منهما شاربيه بغضب ٠ وكنت ارى المسيحيين يدعمون ابوابهم بالمتاريس واللعنات بينما تعبر الشوارع قوات الاحتلال المسلحة بالمسكيت ٠٠ وكنت اسمع العجائز وهم يحكون عن الحروب والمذابح والاعمال البطولية وعن الحرية وعن اليونان ٠ وكنت اعيش ذلك كله بعمق وبصمت وانا انتظر ان اكبر وافهم ما يعنيه ذلك كله بحيث انني ، انا ايضا ، استطيع ان اشمر عن ذراعي واذهب الى الحرب ٠

ومع الايام صرت ارى بوضوح ٠ كان المتخاصمان هما كريت وتركيا ٠ وكانت كريت تقاتل لكي تنال حريتها وكان الاخرون يربضون على صدرها ويمنعونها ٠ وبعد ذلك صار لكل ما حولي وجهه : وجه كريت أو وجه تركيا ٠٠ في خيالي ـ ليس فقط بل وفي لحمي ايضا ـ صار كل شيء رمزا يذكرني بالقتال ٠ وذات صيف جلبت ايقونة ارتقاء (١) السيدة العذراء الى الكنيسة في الخامس عشر من آب ووضعت على منصة الركوع ٠ وكانت أم المسيح

(١) رفع السيدة العذراء الى السماء بعد موتها ، مناسبة يحتفل بها في ١٥ اب من كل عام ٠

٥

ممددة بذراعين متصالبتين . وكان ملاك قد تقدم الى يمينها بينما الشيطان الى يسارها والاثنان يطمحان الى نيل روحها . وقد استل الملاك سيفه وقطع كفي الشيطان من الرسغ ـ وكانتا ممدودتين في الهواء وهما تنزفان . وحين حدقت الى الايقونة امتلأ قلبي بالسعادة . ان العذراء هي كريت ، كما قلت لنفسي ، والشيطان الاسود هو تركيا والملاك الابيض كالثلج هو الملك اليوناني . ذات يوم سوف يقوم الملك اليوناني بقطع كفي تركيا . متى ؟ حالما اصبح كبيرا . هكذا فكرت مع نفسي ، وامتلأ من جديد قلبي الطفل .

ابتدأ قلبي الطفولي الناعم هذا يمتلىء بالمحبة والكراهية ، وانا الاخر بدأت أشد قبضتي متحمسا للدخول في الصراع . وكنت اعرف تماما اين هو واجبي . ومع من من الطرفين المتصارعين ، وكنت اتعجل ان اكبر لكي أسير في الطريق التي سار فيها جدي وأبي واحارب .

كانت هذه هي البذرة . ومنها راحت شجرة حياتي كلها تنمو وتبرعم وتزهر وتثمر . وما اثار نفسي في البدء لم يكن الخوف او الالم ولا المتعة او الالعاب بل كان التوق للحرية . كان علي ان انال الحرية ـ ولكن الحرية ممن ؟ وممَّ ؟ وبالتدريج ، ومع مرور الايام ، تسلقت قمة الحرية الصعبة الشاقة ـ الحصول على الحرية ، اولا ، من الاتراك . هذه هي الخطوة الاولى . وبعد ذلك بدأ هذا الصراع الجديد : الحصول على الحرية من الاتراك الداخليين ـ من الجهل والحقد والحسد من الخوف والكسل ومن الافكار الخادعة المضللة ، واخيرا من الاصنام ، كلها ، حتى اكثرها محبة واحتراما .

ومع الايام ، وبعد ان كبرت وتوسعت مداركي توسع الصراع ايضا . فاض عن حدود كريت واليونان وتفجر في الازمنة والامكنة كلها ـ غزا تاريخ البشر . والصراع الان لم يعد دائرا بين كريت وتركيا بل بين الخير والشر ، وبين الضوء والظلمة ، بين الله والشيطان . لقد كانت دائما المعركة ذاتها ، المعركة الابدية ، ووراء الخير وراء الضوء والله كانت تقف كريت بينما وراء الشر ووراء الظلمة والشيطان تركيا . وبهذا فان ولادتي ككريتي في لحظة حاسمة ، حين كانت كريت تقاتل من اجل حريتها جعلتني ادرك منذ طفولتي المبكرة ان هذا العالم يحتوي على خير اعز على النفس من الحياة وأحلى من السعادة ـ هو الحرية .

كان لوالدي صديق ، كابتن أشيب معروف باسم بوليماتيلياس ـ « عدة مناديل » ـ لانه كان دائما يحمل العديد منها . واحد يغطي شعره وآخر تحت ابطه الايسر واثنان متدليان من حزامه وواحد يمسك به في كفه يمسح جبينه الذي كان يتعرق دائما . كان يتردد دائما لزيارة متجر والدي . وكان والدي يطلب له فنجان قهوة ونرجيلة وبعد ان يتحلق الاحداث

هوله كان يفتح كيس تبغه ويحشو منخريه بالتبغ ثم يعطس ويبدأ الكلام ·
كنت انتحي جانبا وانصت · الحروب ، الهجمات ، المذابح ، وكانـت ميغالو كاسترو تتلاشى وتتسامى امامـي جبال كريت · الهـواء ملـيء بالصرخات : صرخات المسيحيين وصرخات الاتراك · وتلتمع امام عينـي المسدسات ذوات القبضات الفضية · كريت وتركيا تتقاتلان · تصرخ الاولى « الحرية ! » فتجيبهاالاخرى « الموت ! » ويمتلىء ذهني بالدم ·

وذات يوم حول عينيه نحوي وبدأ يزينني بنظرته · ثم قال : « الغربان لا تفقس حماما · اتفهم ايها القبضاي الصغير ؟ » ·
احمر وجهي واجبت : « كلا يا كابتن » ·
ـ والدك قبضاي ، وان شئت أم ابيت فستكون قبضاي ·

شئت أم أبيت ! بدأت هذه الكلمات تطرق في رأسي كالمطارق · كانت كريت تتحدث من فم الكابتن العجوز · ولم افهم كلماته في حينها ولم ادرك الا بعد مرور زمن طويل انني احمل قوة علوية في اعماقي ، قوة ليست قوتي وان هذه القوة تتحكم بي ، وعلى الرغم من انني كنت على وشك الاستسلام مرات عديدة الا ان هذه القوة كانت تمنعني · واية قوة ؟ انها كريت !!

والحقيقة انني كنت اتغلب على الخوف منذ الطفولة ـ انطلاقا مـن احترام النفس : وفكرة انني كريتي · ولانني ، ايضا ، كنت اخاف مـن ابي · في البدء لم أكن اجرؤ على الخروج الى الدار ليلا · كان هناك شيطان صغير ذو عين براقة يتلصص علي في كل زاوية ووراء كل أصيص وعند حافة البئر · لكن والدي اعتاد انْ يوبخني ويدفعني الى الدار ويوصد الباب خلفي ·

الخوف الوحيد الذي لم استطع التغلب عليه في تلك المرحلة كان الخوف من الهزات الارضية · فكثيرا ما كانت ميغالو كاسترو تهتز من جذورها · وكانت القعقعة تسمع من اعماق العالم وقشرة الارض تتشقق ويفقد الناس الذين فوقها عقولهم · وكلما هدأت الريح بشكل مفاجىء وسكنت الاوراق على الاشجار وخيم على كل شيء صمت رهيب ، يقف له الشعر ، كـان سكان ميغالو كاسترو يندفعون من بيوتهم وحوانيتهم ويلقون النظـرة الاولى على السماء ثم ينظرون الى الارض · ولم يكونوا ينطقون بأية كلمة لئلا يسمع الشر ويأتي · الا انهم ، بينهم وبين انفسهم ، كانوا يهجسون بأن هزة ارضية ستحدث ، ويرسمون علامة الصليب ·

وذات يوم حاول معلمنا ، باتيروبولوس العجوز ، ان يهدئنا · وشرح لنا قائلا : « لا ينجم شيء عن الهزة الارضية · لا تخافوا منها · انها مجرد ثور تحت الارض · انه يخور وينطح الارض بقرنيه فتهتز · كان الكريتيون

القدامى يسمونه مينوتور Minotaur • ليس هناك مـــا يدعو للخوف اطلاقـــا » •

الا اننا بعد ان تلقينا هذا العزاء من معلمنا اكتشفنا ان خوفنا قد تزايد كثيرا • لقد اصبحت الهزة الارضية كائنا حيا ، وحشا ذا قرنين ، يخـور ويهتز تحت اقدامنا وكان يأكل البشر •

وسأل ستراتيس الصغير البدين ابن القندلفت : « ولماذا لا يقتله القديس ميناس ؟ » ولكن المعلم غضب وصاح « كفاك هراء » وغادر مقعده ليشد اذن سترايتس ويسكته •

وذات يوم كنت مندفعا بأقصى سرعتي في الحي التركي ، لان الرائحة التي تفوح من الاتراك كانت تثير قرفي ، بدأت الارض تهتز واصطفقت النوافذ والابواب وسمعت قعقعة عظيمة كأنما هي صادرة عن بيوت تتهدم • وقفت وقد جمدني الرعب وسط الزقاق الضيق وعيناي مسمرتان على الارض• كنت انتظر ان تتشقق وان يظهر الثور منها ويأكلني ، حينمـا ، بغتـة ، انفتح باب ذو سرداب ليكشف عن حديقة ، واندفعت منه ثلاث فتيـــات تركيات حافيات مشعثات الشعور وحاسرات • وتفرقن في اتجاهات متعددة وهن يرتعدن من الخوف ويطلقن زعقات حادة كأصوات السنونو • وتضمخ الزقاق كله برائحة المسك • ومنذ تلك اللحظة صار للهزة الارضية وجه مختلف بالنسبة لي دام معي طوال حياتي • ولم يعد وجها قاسيا لثور • وقفن يصرخن ويزقزقن كالعصافـير • اتحـدت الهـــزات الارضيـــة والتركيات الصغيرات • وكانت هذه هي المرة الاولى التي أرى فيها قوة قاتمة تظهر للضـوء وتصبح وضاءة •

مرات عديدة خلال حياتـي ، احيانا باختياري واحيانا مجبرا ، كنت اضع قناعا ملائما على مخاوفي بالطريقة ذاتها ـ على الحب والفضيلـــة والمرض ـ وبهذا جعلت الحياة محتملة •

٨ ـ أساطير القديسين

كانت الحرية اول رغباتي الكبيرة . اما الثانية ، والتي تظل خبيئة في اعماقي حتى اليوم وهي تعذبني ، فكانت الرغبة في الطهارة . البطل مع القديس هذا هو النموذج الامثل للانسان . وحتى في طفولتي كنت اثبت هذا النموذج فوقي في السماء الزرقاء .

في تلك الايام كان لكل شخص في ميغالو كاسترو جذور عميقة في كل من الارض والسماء . ولهذا ، منذ ان تعلمت قراءة المقاطع وتركيب الكلمات ، كان اول شيء طلبت من امي ان تشتريه لي هو اسطورة : « الرسالة الانجيلية المقدسة » . « ظهور الله معجزة مدهشة ! حجر سقط من السماء...» وانكسر هذا الحجر ووجد مكتوبا في داخله : « ويل لمن يستخدم الزيت أو يشرب الخمر ايام الاربعاء والجمعة » . كنت أمسك بالرسالة الانجيلية مشرعة فوق رأسي كالعلم وأقرع ابواب الجيران كل اربعاء وجمعة ـ باب مدام بنلوب ومدام فكتوريا والعجوز كاترينا ديليفا سيلينا . وكنت اجول في البيت متقدا بالحماس ثم اشق طريقي مباشرة الى المطبخ واتشمم ما يطبخونه . ويا لسوء اليوم الذي أشم فيه رائحة لحم او سمك . كنت اهز الرسالة مهددا وأصرخ : « الويل لكم ! الويل لكم ! » بينما الجيران المذعورون يربتون على كتفي ويحاولون تهدئتي . وذات يوم عندما سألت والدتي وعلمت انني كنت ارضع ايام الاربعاء والجمعة حين كنت رضيعا ، وهذا يعني انني كنت اشرب الحليب في تلك الايام المقدسة ، عندها انفجرت في البكاء متألما .

بعت العابي كلها لاصدقائي واشتريت حياة القديسين في طبعة شعبية ، نسخا بحجم الكراس . وكنت في كل مساء أجلس على كرسي الصغير بين الحبق والقطيفة في دارنا وانا اقرأ بصوت مرتفع العذابات

المختلفة التي قاساها القديسون لكي ينقذوا ارواحهم • وكانت الجارات يتجمعن حولي ومعهن خياطتهن او اعمالهن الاخرى ـ بعضهن يرفين الجوارب وبعضهن يطحن القهوة او ينظفن سويقات الخردل • كن يصغين : وشيئا فشيئا يبدأ دارنا يرن بالعويل لعذابات القديسين وآلامهم • وحين كان الكناري ، المعلق تحت الاكاسيا ، يسمع القراءة والعويل ، كان يلقي برأسه الى الوراء ثملا ويبدأ بالشدو • وكانت الحديقة الصغيرة بطيبها وعرائشها فوقنا ـ بعزلتها وحرارتها وشذاها ـ تبدو كشاهدة قبر محاطة بنساء يندبن : كضريح المسيح المحاط بالزهور • وكان العابرون يتلكأون ويقولون لانفسهم ان شخصا ما قد مات هنا وكانوا يذهبون الى والدي يحملون له هذه الانباء السيئة لكنه كان يهز رأسه ويقول لهم : « لا شيء • ليس هناك الا ابني يحاول ان يعظ الجارات » •

كانت البحار تنكشف في خيالي الطفولي ، والقوارب تندفع خلسة ، والاديرة تتلامع بين الصخور الشاهقة والاسود تنقل الماء الى النساك • وكان عقلي يطفح بأشجار النخيل والابل وبغايا يقتحمن طريقهن الى الكنيسة ، ومركبات نارية ترقى الى السماء ، وصحارى تتلفع بطرقعات قباقيب النساء وضحكاتهن وشيطان يأتي بهيئة سانتاكلوز (١) ومعه هبات الطعام والذهب والنساء للنساك • لكن اعينهم متعلقة بالله ، والشيطان يتلاشى •

كن صلبا ، كن صبورا ، احتقر السعادة ، لا تخشى الموت ، تطلع عبر هذا العالم الى الخير الاسمى • هكذا كان الصوت الذي لا يقمع ينطلق من تلك الطبقات الشعبية ويلعن قلبي الطفل • ومعها يبرز ظمأ عنيف للسفر المفاجيء والرحلات البعيدة والتيه المعبىء بالشهادة •

كنت اقرأ اساطير القديسين واستمع الى حكايا الجنيات واسترق السمع الى الاحاديث وكان هذا كله يتحول في اعماقي ـ او يتشوه ـ الى كذبات مدوخة • وكنت اجمع زملاء المدرسة وأطفال الجيران وأمرر هذه الكذبات على انها مغامراتي الشخصية • وكنت اقول لهم انني عائد لتوي من الصحراء • وان لدي اسدا هناك حملت على ظهره جرتين وذهبت معه الى النبع لجلب الماء ، او انني منذ ايام رأيت عند باب دارنا ملاكا انتزع ريشة من ريشاته واعطاني اياها • واحيانا تكون الريشة معي لاريها لهم (كنا قد ذبحنا ديكا في بيتنا منذ ايام واحتفظت بريشته البيضاء الطويلة) • وكنت اضيف انني اخطط لتحويل الريشة الى قلم للكتابة •

---

(١) بابا نويل •

● تكتب ؟ ما الذي ستكتبه ؟
ـ حياة القديسين ٠ وحياة جدي ٠
ـ وهل كان جدك قديسا ؟ ألم تقل لنا أنه كان يحارب الاتراك ؟
-اليس هذا الشيء نفسه ؟ أجيب وانا ابري طـرف الريشة بسكيني الصغيرة لتحويلها الى قلم ٠

وذات يوم قرأنا في المدرسة في الكتاب التمهيدي أن طفلا سقط في بئـر فوجد نفسه في مدينة خرافية ذات كنائس لامعة وحدائق غناء وحوانيـت ملأى بالكعك والحلويات وبنادق الالعاب.والتهب عقلي ٠ ركضت الى المنزل والقيت بحقيبتي في الدار والقيت بنفسي على حافة البئر لكي اسقط فيها واصل الى المدينة الخرافية ٠ وكانت أمي جالسة قرب النافذة المطلة علـى الدار تسرح شعر اختي الصغيرة وحين رأتني اطلقت صرخة وركضت وامسكت بي من مريلتي بينما كنت اضرب قدمي بالارض لالقاء نفسي على رأسي في البئـر ٠

وفي كل احد حين كنت اذهب الى الكنيسة كنت ارى ايقونة (معلقة في مكان منخفض من حامل الايقونات) يبدو فيها المسيح وهو يصعد مـن القبر يرفرف في الهواء وبيده راية بيضاء وفي الاسفل كان حراسه واقعين على اقفيتهم وهم يحدقون اليه برعب ٠ لقد سمعت الكثير من القصص عن الانتفاضات الكريتية وعن الحروب كما سمعت ان جدي (لابي) كان قائدا عسكـريا عظيما ٠ وفيما كنت احدق الى الايقونة كنت اقنع نفسي بالتدريج ان المسيح لم يكن الا جدي ٠ ولذا جمعت زملائي حول الايقونة وقلت لهم : « انظروا الى جدي ٠ انه يرفع الراية ذاهبا الى الحرب ٠ اترون هناك فـي الاسفل انهم الاتراك ممددون على الارض » ٠

وما كنت أقوله لم يكن صحيحا ولا كذبا ٠ انه شيء قد تجاوز المنطق والاخلاق ليخلق في جو ألطف وأكثر حرية ٠ ولو أن أحدا اتهمني بأنني ألفق حكايات كاذبة لبكيت خجلا ٠ لم تعد الريشة في يدي ريشة ديك بل هي الريشة التي أعطانيها الملاك ٠ لم أكن أكذب ٠ كان لدي ايمان لا يتزعزع بأن المسيح ذا الراية هو جدي وان الحراس الذين يصعقهم الرعب تحته هم الاتـراك ٠

بعد ذلك بزمن طويل بدأت أكتب قصائد وروايات وبدأت أفهم بأن هذه الاستفاضة السرية هي ما يسمى بـ « الابداع » ٠
وذات يوم كنت أقرأ قصة القديس يوحنا Saint John of the Hut قفـزت على قدمي وقد قررت : « سأذهب الى جبل أثوس لاصبح قديسا ٠ » ودون ان التفت لالقي نظرة على أمي (القديس يوحنا لـم يلتفت ليلقي نظـرة

على أمه) تجاوزت العتبة وانطلقت الى الشارع · اتبعت أكثر الازقة بعدا ورحت أركض طوال الطريق لئلا يراني احـد اخـوالي ويعيدني الى البيت · وصلت الى الميناء حيث اقتربت من أحد الزوارق ، الزورق الذي كان على وشك رفع مرساته · كان هناك بحار قمّرته الشمس منحن على المربط الحديدي وهو يحاول ان يفك الكابل · اتجهت اليه وأنا أرتعش من الانفعـال ·

ـ أ تستطيع أن تأخذني معك يا كابتن ؟
ـ الى اين تريد الذهاب ؟
ـ الى جبـل آثـوس ؟
ـ الى اين ؟ الى جبل آثوس ، وما الذي ستفعله هناك ؟
ـ سأصبح قديسا ·

وانفجر البحار ضاحكا ثم صفق بيديه وكأنه يطرد دجاجة وهو يصرخ : « الى البيت ! الى البيت ! »

ركضت عائدا الى البيت مخزيا وتجمعت تحت الاريكة دون ان انبس بكلمة لاحد · اليوم أعترف بالامر للمرة الاولى : لقد أُجهضت محاولتي الاولى لأن اصبح قديسا ·

دام حزني اعواما عديدة وربما الى اليوم · انني من مواليد يوم الجمعة الثامن عشر من شباط وهو يوم الارواح ، يوم مقدس فعلا ، امسكت بـي القابلة العجوز بين يديها وقربتني من الصنوبر ونظرت الي بحرص شديد · كان يبدو أنها ترى نوعا من العلامات السرية في · ثم رفعتني عاليا وقالت : « علموا على كلامي · هذا الطفل سيصبح ذات يوم مطرانا » ·

وحين علمت ، مع الايام ، بنبوءة القابلة امنت بها وهي التي اججت رغباتي السرية ووجهتها · ورحت احس بمسؤولية كبيرة فلم اعـد اقوم بأي عمل ما كان المطران يقوم به · وبعد ذلك بزمن طويل ، حين رأيت ما يفعله المطارنة فعلا ، غيرت رأيي . ومنذ ذلك الحين ، ولكي استحق القداسة التي كنت ابحث عنها ، لم اعد اقوم بأي عمل يقوم به المطارنة ·

٩ ـ التوق الى الطيران

كانت الايام ، في ذلك الحين ، بطيئة ورتيبة ، لم يكن الناس يقرأون الصحف • وكانت الراديو والتلفون والسينما لم تولد بعد • وكانت الحياة تكر بهدوء ـ جادة وقليلة الكلام • كان كل انسان عالما مغلقا • وكان كل بيت مغلقا ومرتجا معا • والطيبون داخل البيوت كانوا يشيخون يوما بعد يوم • وكانوا يحتفلون ويسكرون همسا لئلا يسمعهم احد . ويتشاجرون سرا او يمرضون ويموتون صامتين • عندها يفتح الباب وتظهر البقايا وتكشف الجدران الاربعة مؤقتا عن اسرارها لكن الباب يوصد فورا من جديد وتعود الحياة مرة اخرى الى حركتها الثقيلة دون صوت •

في العطل السنوية ـ عيد ميلاد المسيح وموته وقيامته كان الناس جميعا يرتدون ملابسهم ويتزينون بمجوهراتهم ويغادرون منازلهم ويتدفقون في الازقة • ثم يتوجهون نحو الكاتدرائية التي كانت تنتظرهم بأبواب مفتوحة • وكانت شمعداناتها وثرياتها مضاءة ، وكان فارس البيت وسيده ، القديس ميناس واقفا على العتبة لاستقبال اصدقائه الاعزاء سكان ميغالو كاسترو • وتنفتح القلوب ، وتنسى التعاسات والاسماء ويصبح الجميع كلا واحد • لا بعودون ، بهذا ، عبيدا ، والنزاعات والاتراك لا يعود لهم وجود ، وحتى الموت لايعود له وجود • وكان كل واحد ، في الكنيسة ، بقيادة الفارس الكابتن ميناس ، يحس بانفصاله عن الحشد الفاني •

كانت الحياة في تلك السنوات عميقة وساكنة • والضحكات اقلّ ما تكون في تلك الايام في ميغالو كاسترو • والدموع وافرة . كما كانت غصات القلوب المكنومة اكثر وفرة • كان الاهالي القساة جديين مهتمين دائما بشؤونهم الخاصة : حشدا من الغوغاء المطواعين : كلما مر بهم غني وقفوا

له احتراما ، الا انهم جميعا كانوا متحدين بعاطفة مشتركة واحدة تجعلهم ينسون اهتماماتهم وخصوصياتهم وتجعلهم يتقاربون بروح اخوية . ولم يكونوا يكشفون عن هذه العاطفة لانهم كانوا يخافون الاتراك .

ولكن ا ذات يوم بدأت المياه الراكدة تتحرك . فقد شوهدت سفينة تجارية مدججة بالاعلام وهي تدخل المرفأ ذات صباح . ووقف اهالي كاسترو الذين كانوا قريبين من الشط فاغري الافواه . اذ ما هذا القارب ذو الالوان المتعددة والزينات المتعددة الذي انسل بين البرجين الفنيسيين (١) في مدخل المرفأ ؟ وكان القارب يقترب . ليحفظنا القديسون . قال الاول انه رف من الطيور وقال اخر انه مجموعة من المتنكرين وقال ثالث انها حديقة عائمة وقال احدهم انه السندباد البحري قد ظهر من البحار الحارة البعيدة . وفي هذه الاثناء انطلق صوت هائل متوحش من مقهى الميناء « مرحبا بالبلدين (٢) ! » . وتنفس المتفرجون جميعا الصعداء : لقد فهموا اخيرا . واقتربت السفينة اكثر فأكثر وظهرت حمولتها للعيان : نساء بملابس مبهرجة وقد اعتمرن القبعات المريشة وتوشحن البلدين ،وخدودهن ممسوحة بمكياج احمر اللون . وعند رؤيتهن رسم الكريتيون العجائز علامة الصليب وتمتموا : « قف ورائي يا شيطان ! » وهم يبصقون في اعبابهم . ما الذي تفعله المومسات هنا ؟ هذه ميغالو كاسترو الشهيرة . وهي لن تسكت على اهانات كهذه .

وبعد ساعة وضعت برامج قرمزية على كافة جدران المدينة وعلمت المدينة أن هؤلاء ليسوا الا فرقة من الممثلين والممثلات . يبدو انهم جاؤوا لتسلية الكريتيين ...

وحتى اليوم لم استطع ان افهم كيف تمت المعجزة غير أن ابي اخذني بيدي وهو يقول : « دعنا نذهب الى المسرح ونر ما هذا الامر ! » كان الظلام قد حل . أمسكني من يدي وذهبنا باتجاه المرفأ نحو حي فقير لم اكن اعرفه من قبل . كانت هناك حظائر كبيرة وقليل من البيوت . وكانت احدى الحظائر متلألئة الاضواء وصوت كلارينيت وطبلة ينطلق من داخلها وكان شراع سفينة معلقا على مدخلها بحيث تحتاج الى رفعة لكي تدخل . ووجدنا بدخولنا ، مقاعد وكراسي وعليها جلس رجال ونساء يحدقون الى ستارة أمامهم وينتظرون ان تفتح . كانت هناك نسمة لطيفة تهب من جهة البحر. وكان الهواء منعشا والرجال والنساء يتحدثون ويضحكون ويطقطقون الفول السوداني أو بذور اليقطين .

---

(١) نسبة الى البندقية .
(٢) وشاح نسوي طويل الاطراف .

« أين هو المسرح ؟ » سال والدي (فهو ايضا كان يذهب الى مهرجان كهذا للمرة الاولى في حياته) • واشير له نحو الستارة • كان مكتوبا على القماش بحروف كبيرة « اللصوص لشيلر تمثيلية مسلية جدا » وتحتها مباشرة « لا اهمية لما تراه • لا تنزعج • فهو خيالي • »

وسألت والدي : ما معنى خيالي ؟
فأجاب : هَواء ساخن •

كانت لوالدي مشكلاته الخاصة • فقد التفت ليسأل جاره عمن يكون هؤلاء اللصوص ولكن بعد فوات الاوان • سمعت ثلاث دقات وفتحت الستارة• وحدقت مدهوشا جاحظ العينين • وانفتحت امامي جنة • ملائكة ذكور واناث ياتون ويذهبون يرتدون الملابس الزاهية مع الريش والذهب وخدودهم ملونة بالابيض والبرتقالي • كانوا يرفعون اصواتهم ويصرخون بشكل مفاجيء • كان يبدو انهما اخوان وبدآ يتجادلان ويتبادلان الاهانات ويلاحق كل منهما الاخر بغية قتله •

ارهف والدي اذنيه وراح يستمع مغمغما بانزعاج • ثم راح يتململ على كرسيه وكأنه جالس على الحجر • واخرج منديله ومسح العرق الذي كان قد بدأ يتصبب على حاجبيه غير انه حين عرف في النهاية ان سويقتي الفاصولياء المتشابكتين اخوان متخاصمان قفز على قدميه هائجا • وصرخ بصوت مرتفع : « أي تهريج هذا ؟ فلنذهب الى بيوتنا » ثم قبض على يدي وخرجنا قالبين بضعة كراسي في عجلتنا •

ثم هزني واضعا يده على كتفي وقال : « اياك ان تخطو داخل مسرح بعد الان ايها الشقي • اتسمع ؟ لانك ان فعلت فسوف اسلخ جلدك » •
وكان هذا أول لقاء لي بالمسرح •

□

هبت نسمة دافئة فأنبت ذهني الزرع وامتلأ منخراي بشقائق النعمان • جاء (ت) الربيع (١) مع خطيبها القديس جورج ممتطيا جواده المطهم الابيض ، ثم رحلت وجاء الصيف فاضطجعت العذراء المقدسة على الارض الخصبة لكي ترتاح هي الاخرى بعد ان حبلت بابن كهذا (٢) ووصل القديس ديمتريس ممتطيا جوادا اسمر محمرا وسط الامطار وهو يسحب وراءه الخريف المكلل بالللبلاب واوراق الدوالي الذابلة • وكبس علينا الشتاء • كنا في البيت

---

(١) يعامل الكاتب الربيع معاملة المؤنث .
(٢) يقصد المسيح .

(حين يغيب والدي) انا واختي وامي نشعل الكانون ونجلس حوله لنشوي الكستناء او الحمص على الجمر · كنا ننتظر أن يولد المسيح لعل جـدي ذا الوجنتين المتوردتين يأتي ومعه الحلوف المحمر الملفوف بأوراق الليمون · هكذا كنا نتخيل الشتاء : مثل جدي له حذاءان ثقيلان وشاربان أبيضان ويحمل حلوفا محمرا بين يديه ·

ومرت الايام وكبرت · وصغرت في الدار اصص الحبق والقطيفة وصرت اصعد درجات امينة بخطوة واحدة الان دون حاجة اليها لان تمد يدها · كبرت وكبرت في داخلي رغباتي القديمة في الوقت الذي راحت تنمو فيه رغبـات اخرى جديدة الى جانبها · اما اساطير القديسين فقد كانت معيقة لانها كانت تكبحني · وليست المسألة انني لم اعد أؤمن بها · كنت أؤمن بها : الا ان القديسين صاروا الان اكثر اذعانا · انهم يحنون رؤوسهم دائما امام اللـه ويقولون نعم · لقد استيقظ في اعماقي الدم الكريتي · ومن قبل ان تتوضح تلك الفكرة في رأسي مبكرا فقد كان لدي حدس بأن الرجل الحقيقي هو ذلك الذي يقاوم ويكافح ولا يخاف عندما يقتضي الامر ان يقول « لا » حتى لله ·

ولم استطع ان اعبر عن اي من هذه الهواجس الجديدة بكلمات ولكن في تلك المرحلة من حياتي لم تكن بي حاجة الى الكلمات · كنت افهم دون لبس ودون حاجـة للعقـول او الكلمات · كـان يخيم علـي الاسى حين أرى القديسين جالسين بأذرع ممدودة امام الفردوس يدعون ويتوسلون وينتظرون ان يفتح الباب · كانوا يذكرونـني بالمجذومين المنبوذين الذين كنت أراهم كلما ذهبت الى كرمنا · كانوا يجلسون ازاء باب المدينةبأنوفهم المتآكلة وأصابعهم الضائعة وشفاهم المتيبسة وهم يمدون اذرعهم المبتورة للعابرين طالبـين الصدقات · لم اكن احس بأي اسف تجاههم بل كانوا يثيرون قرفي وكنـت دائما احول وجهي عنهم واسرع في تجاوزهم قدر ما استطيع · هذه هي الحالة التي بدأ القديسون ينحدرون اليها في عقلي الطفولي · الم تكن هناك طريقة اخرى لدخول الفردوس ؟ وبعد ان هجرت الجنيات واميرات الحكايات ودخلت صحراء طيبة مع القديسينالمتسولين كان علي الان ان اهرب منهم ايضا ·

كانت امـي تعـد الحلويات في كـل عطلـة هامـة · احيانا كورابيدس Kourabiédhes واحيانا لوكومس Loukoums وفي عيد الفصح فطيرة خاصة · ولقد تعودت ان ارتدي افضل بذلاتي وان اذهب لتوزيع تلك الحلويات لاخوالي وخالاتي كطريقة للتعبير عن تحياتنا · وهم ، بدورهم ، كانوا يرحبون بي بحرارة ويقدمون لي قطعا فضية مفترضين انني سأشتري سكاكر · الا انني في اليوم التالي كنت اسرع الى مكتبة السيد لـوكاس واشتري مخطوطات عن الاراضي البعيدة والمستكشفين العظماء · لقد نزلت في قلبي بذرة روبنسن كروزو بشكل واضح · وها هي تثمر الان ·

لم أكن افهم الا جزءا يسيرا من « خرافات القديسين » لكن جوهرها ترسب في اعماق روحي · ابتدأ عقلي يتفتح الان ويمتلىء بأبراج العصور الوسطى والمناطق الغريبة والجزر الغامضة التي تفوح منها روائح القرفة والقرنفل · وكان متوحشون بريش أحمر يتخطون عتبة نفسي ويشعلون النار ليشووا عليها بشرا.وللجزر المحيطة بهم روائح اطفال حديثي الولادة · هؤلاء القديسون الجدد لم يكونوا يتسولون الصدقات لانهم كانوا يأخذون كل ما يرغبون فيه بالسيف · وفكرت لنفسي : آه لو ان شخصا واحدا فقط يستطيع دخول الجنة بهذه الطريقة ، على ظهر جواده مثل هؤلاء الفرسان ! البطل ممتزج بالقديس : ذاك هو الانسان الكامل ·

بدأ بيت أهلي يضيق ، وبدأت ميغالو كاسترو تضيق وصارت الارض الان تبدو كغابة استوائية مليئة بالعصافير الملونة والوحوش وفاكهة ناضجة حلوة كالشهد.وكنت أريد (هكذا خيل لي) ان اجتاز هذه الغابة الاستوائية كلها لكي أقدم الحماية لآنسة شاحبة واقعة في مأزق · وذات يوم بينما كنت أمر قرب مقهى رأيتها · كان اسمها جنيفييف ·

لقد اندمج القديسون في خيالي الان بالفرسان الاقوياء الذين انطلقوا لتخليص العالم او المذبح المقدس او فتاة ما كما امتزجوا بالمستكشفين العظماء ، وسفن كولومبوس التي انطلقت من ميناء اسباني صغير ـ تملأ الريح ذاتها اشرعتها ـ مثل السفن التي حتى هذه اللحظة تنطلق في اعماقي نحو الصحراء محملة بالقديسين ·

حين قرأت سرفانتس ، وحتى بعد ذلك ، كان بطله دون كيشوت يبدو لي قديسا عظيما وشهيدا انطلق محاطا بالضحكات والسخرية ليكتشف ، وراء حياتنا اليومية المتواضعة الجوهر،الذي يختفي خلف المظاهر · اي جوهر ؟ لم أكن اعرف في ذلك الحين لكنني عرفت فيما بعد · هناك جوهر واحد فقط وهو نفسه دائما · فطالما ان الانسان لم يجد وسيلة اخرى ليسمو بنفسه ، لم يجد الا اخضاع المادة واخضاع الذات لغاية تتجاوز الفرد حتى لو كانت هذه الغاية وهمية · حين يؤمن القلب ويحب لا يظل هناك شيء وهمي.لا يبقى الا الشجاعة والثقة والعمل المثمر ·

مرت سنوات ، وحاولت ان انظم فوضى خيالي.الا ان هذا الجوهر ، الجوهر ذاته الذي كان يقدم نفسه لي بشكل غامض حين كنت طفلا ، كان يفاجئني دائما على انه قلب الحقيقة · ان من واجبنا ان نحدد لانفسنا هدفا ابعد من اهتماماتنا الفردية وابعد من عاداتنا المريحة والمقبولة واسمى من نفوسنا ومن الضحك الساخر والجوع وحتى الموت ، وان نجد ليلا ونهارا لتحقيق هذا الهدف · لا ، ليس لتحقيقه · ان النفس التي تحترم ذاتها ؛

حالما تصل الى غايتها ، تضع هذا الهدف ابعد مرة اخرى ، ليس تحقيقه بل عدم التوقف في الصعود • بهـــذه الطريقـــة فقط تنجز الحيـــاة نبلها ووحدانيتهـــا •

هذا هو اللهب الذي قضيت فيه طفولتي • وأدركت ان التقلبات العديدة للقديسين والابطال هي أبسط طريق للانسان وأكثرها واقعية • لكن هذا اللهب انضم للهب اخر اعظم منه وهو ما كان يحرق ميغالو كاسترو وكريت في تلك المرحلة من عبوديتهما •

في تلـك الازمنة البطولية القديمة لم تكن ميغالو كاستـرو مجمـوعة صغيرة من البيوت والحوانيت والازقة متجمعة بمحاذاة شاطيء كريتـي وبمواجهة بحر لا يهدأ غضبـه • ولم يكـن سكانها مجموعـة من البشر الفوضويين دون قيادة (او بقيادات متعددة) رجالا ونساء واطفالا يصرفون جهودهم كلها في الاهتمامات اليومية : الطعام والاطفال والنساء • كـان هناك نظام صارم وغير مكتوب يحكمهم • ما من احد يرفع يده متمردا على القانون القاسي فوقهم • فهناك شخص ما فوق رأسه يصدر أوامره.لقد كانت المدينة بأكملها موقعا عسكريا . وكل قاطن فيها كان هو نفسه موقعا عسكريا محاصرا الى الابد ، والكابتن بالنسبة له قديسا ، القديس ميناس ، حامي ميغالو كاسترو • ممتطيـا جـوادا أصهب مشرعا رمحـا احمر نحو السماء ، كان القديس يظل دون حراك طوال النهار في كنيسته الصغيرة على ايقونته ـ بعينين قاسيتين ووجه لوحته الشمس ولحية قصيرة مجعدة • طوال النهار وهو يزين بالنذر الفضية ـ بالايدي والاقدام والعيون والقلوب ـ التي كان أهالي ميغالو كاسترو يقدمونها له لعل بركته تشفيهم ، كـان يظل دون حراك متظاهرا انه ليس أكثر من صورة مرسومة على قطعة من الخشب • ولكن ما ان يحل الليل ويتجمع المسيحيون في بيوتهم وتبدأ الاضواء بالانطفاء واحدا بعد الاخر حتى يدفع عنه الرسوم ونذور الفضة بحركة من يده ويهمز جواده وينطلق في جولة عبر الاحياء اليونانية ، ينطلق في دورية حراسة • كان يغلق اي باب نسيه المسيحيون مفتوحا ، وكان يصفر لبـوم الليل لكي تعود الى بيوتها وكان يقف قرب باب الدار ويستمع بعناية ورضى كلما سمع غناء • وكان يهمس لنفسه لا بد ان هناك عرسا • فلتحل البركة على الزوجين السعيدين ولينجبا اطفالا يعلون من شأن المسيحية • وبعـد ذلك يقوم بجولة على الاستحكامات التي تحيط بميغالو كاسترو وعند صياح الديك وقبل بزوغ الفجر كان يهمز جواده ويدخل الكنيسة بقفزة واحدة ثم يتسلق الايقونة • ومرة اخرى يعود الى مظهر اللامبالي • الا ان جواده قد عرق وغطت فمه وجانبيه طبقة من الزبد • وحين كان السيد هارا لامبيس ، يأتي قبل الجميع صباحا ليزيل الغبار عن الشمعدانات ويلمعها كان يرى

جواد القديس ميناس مبللا بالعرق • ولم يكن هذا ليفاجئه لانه كان يعرف (كما يعرفه الجميع) ان القديس قد طاف الشوارع طوال الليل • وكلما شحذ الاتراك خناجرهم وتهيأوا للانقضاض على المسيحيين كان القديس ميناس يقفز من ايقونته من جديد ليحمي لسكان ميغالو كاسترو • ولم يكن الاتراك يرونه لكنهم كانوا يسمعون جواده وهو يصهل ويميزون الصوت ويرون الشرر الذي تطلقه حوافر الجواد وهي تضرب الحصى فيتقوقعون في بيوتهم وقد جمدهم الرعب •

غير انهم ، منذ سنوات قليلة ، راوه بأمهات عيونهم • كانوا يهيئون مذبحة اخرى الا ان القديس ميناس انطلق نحو الحي التركي على جواده • وبينما كان ينعطف عند زاوية احد الشوارع لحظه الحاج مصطفى الذي كان نصف مجنون ، فانطلق هاربا وهو يصرخ « الله ، الله ، لقد نزل علينا القديس ميناس » • وفتح الاتراك ابوابهم قليلا وتلصصوا منها • وبينما كانوا يتطلعون الى القديس ميناس بدرعه الذهبي • ولحيته الصهباء المجعدة ورمحه الاحمر ارتخت مفاصلهم تحتهم وأعادوا خناجرهم الى اغمادها •

لم يكن القديس ميناس ، بالنسبة للكاستريين (١) ، مقدسا فقط • بل كان قائدهم • وكانوا ينادونه « كابتن ميناس » ويجلبون أسلحتهم اليه سرا لكي يباركها • وحتى والدي كان يشعل له الشموع والله وحده يعلم ما الذي كان يقوله له واي لوم كان يلقيه عليه لتأخره الى هذا المدى في تحرير كريت •

كان كابتن المسيحية • وكان حسن بك ، العدو اللدود للمسيحيين والمتعطش لدمائهم ، جاره • وكان حرمه متاخما للكنيسة • وذات يوم سمع قرعا على الجدار فوق سريره تماما • وفهم • كان هذا القديس ميناس يهدده لانه في اليوم ذاته ضرب احد المسيحيين ضربا مبرحا • ولقد غضب الكابتن ميناس لهذا الحادث وهو الان يدق جداره • ورفع حسن بك قبضته وراح يدق الجدار من جهته ويصرخ « هيه • انت هناك يا جار • معك حق • نعم • وحق ايماني معك حق• ولكن توقف عن قرع جداري وسأجلب لك جلدي ماعز مليئين بالزيت لمصابيحك وعشرين أقة من الشمع كل سنة لمراضاتك • نحن جيران • ولا داعي للمشاجرة » • ومنذ ذلك الحين كان حسن بك (الكلب !) يرسل خادمه كل سنة في عيد القديس ميناس ، في ١١ تشرين الثاني لينزل جلدي ماعز مليئين بالزيت وعشرين أقة من الشمع في باحة الكنيسة • ولم يعد القديس ميناس لدق جداره مرة اخرى •

---

(١) نسبة الى ميغالو كاسترو .

هناك نوع من اللهب في كريت ـ ولنسمه « الروح » ـ شيء ما أقوى بكثير من الحياة او الموت · هناك كبرياء وعناد وبسالة ومعها جميعا شيء ما يجعلك تفرح لكونك انسانا وفي الوقت ذاته يجعلك ترتعش ·

حينما كنت طفلا كان الهواء الكريني مشبعا بزفير الاتراك ، رائحة وحش بري · كان هناك يطفان تركي مشرع فوق رأسي · وبعد سنوات عديدة رأيت « توليدو في العاصفة » فعرفت أي نوع من الهواء كنت استنشق حينما كنت طفلا واية ملائكة تحوم حول كريت كالشهب ·

كان آب أحب الشهور الى نفسي في طفولتي وما زال احبها الي حتى الان · فهو الذي يجلب لنا العنب والتين والقاوون والبطيخ الاحمر · وقد اطلقت عليه اسما مسيحيا هو القديس اوغست · ها هو ذا حامي" ، كما كنت اقول لنفسي ، وله سوف اقدم صلواتي · وحينما ارغب في اي شيء سأطلبه من القديس اوغست وهو ، بدوره ، سوف يطلب من الله ، والله سوف يعطيني ما اريد · ومرة اخذت بعض الالوان المائية ورسمته وتبين انه قريب الشبه جدا من جدي الفلاح ـ الخدان المتوردان نفسهما والبسمة العريضة ذاتها ـ لكنه كان حافيا في معصرة الخمر يدوس العنب · شمر عن ساقيه حتى الركبتين او قريبا من الفخذين وقد رسمتهما حمراوين من عصير العنب وتوجت رأسه بتاج من اوراق الدوالي · وظل ينقص الصورة شيء ما · ما هو ؟ نظرت اليه بامعان ثم وضعت قرنين على رأسه بين أوراق الدوالي ، لان المنديل الذي يضعه جدي على رأسه كانت له عقدتان شبيهتان بالقرون ، واحدة الى اليمين والاخرى الى اليسار ·

في اللحظة التي رسمت فيها اوغست وثبتت ملامحه في داخلي تثبتت ثقتي به ورحت انتظر كل سنة ان ياتي ويقطف كروم كريت ثم يعصر القطاف ثم يكمل معجزته باستخلاص الخمر من العناقيد · لانني اذكر كم كان هذا اللغز يعذبني · كيف يصبح العنب خمرا ؟ القديس اوغست وحده ، لديه القدرة على صنع معجزة كهذه-آه لو انني استطيع الالتقاء به صدفة ذات يوم في كرمنا الواقع خارج ميغالو كاسترو وأطلب منه ان يخبرني بالسر فأنا لم استطع ان افهم هذه المعجزة · الثمر غير الناضج يتحول الى عنب والعنب الى خمر والناس يشربون الخمر ويسكرون لماذا ؟ لماذا يسكرون ؟ هذه الامور كانت تبدو لي ألغازا مخيفة · وذات مرة حين سألت والدي عنها قطب حاجبيه وأجابني « انتبه لشؤونك ! » ·

وفي آب ايضا كانت العناقيد تسطح على ارض مغطاة بالقماش لكي تجف تحت الشمس وتتحول الى زبيب · وفي احدى السنوات ذهبنا الى كرمنا وجلسنا في كوخنا الريفي الصغير · كان الهواء لطيفا وكانت الارض لاهبة

والجنادب تحترق هي الاخرى • كان يبدو انها جالسة على فحم مشتعل •

كان ذلك في الخامس عشر من آب ، عيد ارتقاء السيدة العذراء ، وكان العمال في عطلة • وجلس والدي عند جذع شجرة زيتون يدخن ، وجلس الى جانبه جيراننا يدخنون ، وكانوا قد سطحوا عنبهم ايضا ، كان القلق باديا عليهم • كل منهم قد سمر عينيه على غيمة صغيرة سوداء مشؤومة ظهرت صامتة على الافق وبدأت تتقدم • كنت جالسا قرب والدي مثل الاخرين وكنت اراقب الغيمة ايضا ، وأحسست انني احبها • رقيقة ، ملونة بهذا اللون الرصاصي الخفيف ، وهي تكبر باستمرار وتغير وجهها وجسدها • مرة تشبه جلد ماعز مليء ، ومرة تشبه عقابا أسود الريش ، ومرة تشبه الفيل الذي رأيته في الصورة • وكانت تهز جذعها جيئة وذهابا وهي تحاول ان تجد الارض تحتها وتلامسها • وهبت نسمة دافئة • وارتعشت اوراق شجرة الزيتون فقفز واحد من الجيران واقفا ومد ذراعيه نحو الغيمة المتقدمة : « ليأخذها الشيطان • قولوا عني انني كذاب ان لم تجلب لنا زخة مطر » •

فأجابه عجوز ورع : « الافضل لك ان تأكل كلماتك • العذراء لن تسمح بذلك • هذا عيدها » ونخر والدي دون ان ينبس بكلمة • لقد كان مؤمنا بالعذراء الا انه كانت لديه شكوك حول قدرتها على التحكم في الغيوم •

وبينما هم يتحدثون صارت السماء كالحة تماما وبدأت القطرات الكبيرة الاولى الحارة بالتساقط • واقتربت الغيوم من الارض ، وبدأت ومضات البرق الصفراء تشق السماء بصمت • وصرخ الجيران : « ايتها العذراء المقدسة • ساعدينا » •

فقفزوا جميعا وتفرقوا في كل اتجاه كل نحو كرمه حيث مؤونة العام كلها من الزبيب مسطوحة ، وصار الجو أشد قتامة وهم يركضون • وتهدلت خصلات سوداء من الغيوم واندفعت الريح مجنونة • وفاضت السواقي وبدأت المياه تجري في الدروب كالانهار • وانطلقت اصوات نادبة من كل كرم • بعضها كان يلعن وبعضها يسترحم العذراء ان تأخذها بهم الرأفة وان تتدخل • واخيرا ، ومن كل كرم ، ومن وراء أشجار الزيتون ، انطلق البكاء •

انسللت من كوخنا ورحت أركض تحت المطر وقد تماكتني غبطة كالسكر • كانت المرة الاولى التي اكتشفت بها الاكتشاف الرهيب بأنه ما ان تحدث المصائب الكبرى حتى تتملكني غبطة لا انسانية غامضة • حين رأيت النار أول مرة ، وذلك عندما احترق بيت عمتي كاليوب ، قفزت ورقصت امام اللهيب حتى أمسك بي احدهم من نقرتي ودفعني بعيدا • وحين مات معلمنا كراساكيس كان علي ان امنع نفسي قسرا من الضحك • كان الامر

كما لو ان معلمي وبيت عمتي كانا ثقيلين قد ازيحا عن كاهلي وتحررت منهما • فالنار والطوفان والموت كلها كانت بالنسبة لي أرواحا صديقة وودودة • وأحسست انني روح من العائلة ذاتها • كنا شياطين متوحدين نجاهد لتخليص الارض من بيوتها وسكانها •

وصلت الى الطريق لكنها كانت سيلا جارفا لم استطع عبوره • فوقفت جانبا ورحت اتفرج بينما العناقيد نصف الجافة - جهد العام كله - تعوم على السيل الذي يجرفها بسرعة نحو البحر • وتصاعد البكاء • وغاصت عدة نساء حتى الركب في الماء وهن يجاهدن لانقاذ بعض الزبيب • واخريات، تساقطت المناديل عن رؤوسهن ، كن واقفات على جانب الطريق يشددن شعورهـــن •

كنت مبللا حتى العظم وانا اجاهد لاخفاء غبطتي • ركضت عائدا نحو البيت شغوفا برؤيـة رد فعل والـــدي • هل سيبكـــي ؟ هـل سيلعـن أم سيصرخ ؟ وحين عبرت المنطقة الجافة رأيت ان عنبنا كله قد راح •

وجدته واقفا بلا حراك على العتبة وهو يعض شفته • وكانت امي واقفة وراءه وهي تبكي •

وصرخت : أبي • لقد راح عنبنا •

فأجاب : نحن لم نرح • اخرس •

لم أنس هذه اللحظة طوال حياتي • واعتقد انهـــا نفعتني كدرس عظيم في ازمات حياتي • كنت دائما اتذكر ابي وهو واقف بهدوء ، دون حراك على العتبة ، دون ان يلعن او يتوسل او يبكي • بلا حراك كان يقـف يرقب الخراب و - وحده بين الجيران كلهـــم - ظل محافظا علـى كرامتـه البشريـــة •

١٠ ـ معجزة

نقول في كريت : مرحبا بالمصيبة حين تأتي وحدها . ذلك انها نادرا ما تجيء وحدها . ففي اليوم التالي كانت السماء صافية تماما . بالامس كانت غاضبة وقد اهلكت معظم الناس . اما اليوم فتضحك . وطاف المالكون بكرومهم . العنب كله قد تلف . وهنا وهناك ما تزال تظهر كمشات منه غارقة في الطين . وعند الظهر تماما عاد والدي مسرعا من كاسترو . لقد جاءه احد اصدقائه في الصباح الباكر وهمس شيئا ما في اذنه ثم رحل . وانتقل الكلام بأن المسيحيين قد قتلوا احد الاغوات البارزين في احدى القرى . كان الاتراك ثائرين والمسيحيون يسلحون أنفسهم . كنا على أبواب ثورة اخرى . وراح الاتراك يتسابقون الى ميغالو كاسترو بحثا عن الامان وراء الجدران الفينيسية .

كنت أمشي في كرمنا مع أمي واختي نجمع اخر العناقيد التي كانت ما تزال على الدوالي وكان الحر في عزه والهواء يلفح . وبغتة سمعنا صرخات واصوات نباح من الطريق . كان هناك حشد هائل يعبر . الحمير محملة بقصع العجين والاباريق والنساء التركيات . ووراءها كان الرجال المعممون يخبون مسرعين في الاوحال بعضهم حفاة وبعضهم بأحذية دون نعال وهم يخورون دون كلام في سيرهم الحثيث نحو كاسترو .

وغمغمت امي : « الكلاب التركية ! » وحملتنا تحت ابطيها وادخلتنا .

وتشبثت بركبتها وسألتها : « لم يركضون يا أمي ؟ ماذا يريدون ؟ ولم ترتجفين ؟ » .

فربتت على شعري : « يا الهي . فلتشمل ابني بنظرتك . ما ارهب ان يولد المرء كريتيا » .

فتحنا النافذة قليلا ورحنا نتطلع • كان الحشد يسرع من بعيد ثم اختفى وراء أشجار الزيتون • وعاد الطريق الى هدوئه •

« فلنذهب » قال والدي « بسرعة • علينا ان نصل قبل المغيب » •

أمسكت أمي بأيدينا • واخرج والدي مسدسه من تحت الوسادة • تفحصه • كان محشوا • القاه في جيبه ثم سار وراءنا •

كانت الشمس على وشك ان تغرب حين مررنا من البوابة الحصينة • ولكن في الازقة كان يبدو كأن الظلام قد حل • كان الناس يركضون مسرعين والابواب توصد والامهات يظهرن لينادين اطفالهن من الشوارع • ورأتنا جارتنا فطوم ولم تلق علينا تحية المساء •

جلس والدي في مكانه المعهود على الاريكة في الزاوية قرب النافذة المطلة على الدار ووقفت امي امامه تنتظر • كانت تعلم انه سيصدر الاوامر • اخرج كيس تبغه ودرج لفافته ببطء وتكاسل • ثم ، ودون ان يرفع عينيه ، قال : « لا يخرجن احد من البيت » •

والتفت الـي عابسا : « أأنت خائف ؟ » •

فأجبتـه : لا •

ـ وماذا لو حطم الاتراك الباب ؟ ماذا لو اقتحموا البيت وذبحوك ؟

ارتعشت ، واستطعت ان احس بالشفرة على حلقي • كنت اريد ان اصرخ ان نعم انا خائف لكن عيني والدي كانتا مثبتتين علي فخجلت • وبغتة انتفخ صدري • واحسست ان قلبي يمتلىء ببسالة الرجال • فقلت : « حتى لو ذبحوني لن اخاف » •

« عظيم » قال والدي واشعل لفافته •

في الصيف الماضي حين ذهبت الى قريتنا لرؤية جدي وهو يموت ، نمت مع احد اخوالي في حقل بطيخ • وبغتة قبل ان اغفو بقليل سمعت صوت « كررر • كررر • كررر » من حولي صوت تكسر اشياء غريبة • التصقت بخالي خائفا وسألته : « ما الذي يصدر هذا الصوت المتكسر ؟ انا خائف • » فأدار خالي ظهره لي حانقا لانني ايقظته وقال : « نم يا ابن المدينة ! أهي المرة الاولى التي تسمع فيها صوتا كهذا ؟ انه البطيخ وهو يكبر » وبشكل مشابه في هذا اليوم حين تركزت عينا والدي علي أحسست بقلبي يكبر ويطقطـــق •

لميفالو كاسترو اربع بوابات حصينة • كان الاتراك يغلقونها كل يوم

عند الغروب ويفتحونها مع الشروق • وما من احد كان يستطيع الدخول او الخروج من المدينة طوال الليل • وبهذا وقع المسيحيون الذين فيها في المصيدة • كان في وسع الاتراك ان يقوموا بمجزرة خلال الليل طالما ان البوابات مغلقة ومرتجة • ذلك انهم الاكثرية في المدينة ولديهم ايضا الحامية التركية •

كانت هذه خبرتي مع أول مجزرة • فبعد ايام قليلة ، وللمرة الاولى ، رأى عقلي الطفولي وجه الحياة الحقيقي وراء القناع الجميل للبحر وللحقول الخضراء والدوالي المثقلة بالعناقيد ، وخبز القمح وابتسامة الام • وجه الحياة الحقيقي : الجمجمة •

وفي هذا الوقت ايضا سقطت سرا بذرة في احشائي ، بذرة قدر لها فيما بعد ان تزهر وتثمر عيني الثالثة : العين الداخلية : عين صافية مفتوحة ليلا نهارا لا تعرف خوفا او أملا •

جلست وامي واختي متلاصقين ومتمترسين داخل بيتنا • وكنا نسمع الاتراك الهائجين في الشارع يشتمون ويهددون ويحطمون الابواب ويذبحون المسيحيين • سمعنا نباح الكلاب وصرخات الجرحى وحشرجات الموت وهديرا في السماء كما لو ان الهزة الارضية تتقدم • وقف والدي وراء الباب ينتظر والمسكيت معه محشو • واذكر انه كان يمسك بيده حجرا مستطيلا كان يسميه « المسن » او المشحذ • كان يشحذ عليه سكينا طويلة ذات قبضة سوداء • ورحنا ننتظر • قال لنا : « اذا حطم الاتراك الباب ودخلوا فان في نيتي ان اذبحكم بنفسي قبل ان تقعوا في ايديهم » • امي واختي وانا : جميعنا ، وافقنا • ونحن الان ننتظر •

اعتقد انني كنت سأرى روحي وهي تنضج خلال تلك الساعات لو ان اللامرئي صار مرئيا • وأدركت انني في غضون ساعات قليلة بدأت اتحول مباغتة من طفل الى رجل •

وهكذا مر الليل • وجاء الصباح • وهدأ الهدير وانسحب الموت مبتعدا • فتحنا بابنا بهدوء ومددنا رؤوسنا خارجا • عدد من نساء البيوت المجاورة فتحن نوافذهن بهدوء وتلصصن • كن يتفحصن الشارع • وفي تلك اللحظة مر بائع الكولوري التركي ، ذلك الذي له صوت صغير وحاد ولا شعر في وجهه • كان ينادي بنغمه الرتيب على كعكاته المرشوشة بالسمسم والقرفة التي يحملها على صينية تنكية واسعة فوق رأسه • اية فرحة تلك !! بدا كأن كل شيء يولد من جديد : وبدا ، اننا نرى للمرة الاولى ، السماء والغيوم والصينية التنكية المحملة بالكولوري الشهية • اشترت لي أمي واحدة ومضغتها بمتعة لا توصف •

وسألت امي : هل ذهبت المجزرة ؟
واخافها سؤالي فقالت : « اهدأ • اهدأ يا بني • لا تذكر اسمها • فقد تسمعك وترجـع » •

انني اكتب الان كلمة « مجزرة » ويقف لها شعر رأسي لانني حين كنت طفلا لم تكن هذه الكلمة عبارة عن عدد من الاحرف الابجدية المتجاورة بـل كانت هديرا هائلا واقداما ترفس ابوابا ووجوها كالحة تحمل السكاكين بين اسنانها ونساء يرتجفن في كل مكان.من الجوار ، ورجالا يحشون الاسلحـة وهم راكعون وراء الابواب • بالنسبة لنا نحن الذين كنا اطفالا في كريت في ذلك الحين هناك كلمات اخرى عديدة تمتزج ايضا بالدم والدموع ، كلمات صلب عليها شعب بأكمله : الحرية ، القديس ميناس ، المسيح ، الثورة •

مصير الانسان الذي يكتب مصير قسري وتعيس وذلك عائد لطبيعـة عمله التي تجبره على استخدام الكلمات • وهذا يعنـي ان يحول جيشانه الداخلي الى سكون • فكل كلمة صدفة صلبة تحتوي علـى قوة انفجارية عظيمة • ولكي تكتشف معناها يجب ان تدعها تنفجر في داخلك كقنبلة لكي تحرر الروح التي تحتجزها •

مرة كان هناك حاخام يدلي بوصيته ويودع زوجته واطفاله بالدموع كلما ذهب الى الكنيس ليصلي لانه لم يكن يعرف ما اذا كان سيخرج مـن الصلاة حيا • وقد اعتاد ان يقول : « حين الفظ كلمة ما ، ولتكن يا رب ، فان هذه الكلمة تمزق قلبي • يجمدني الرعب فلا اعرف ما اذا كنت سأستطيع القفز الى الكلمات التالية : ارحمني » •

آه مـن يستطيع قـراءة قصيدة بهـذه الطـريقة ، او قـراءة كلمـة « مذبحة » او حرف من اسم المرأة التي يحب ـ او هذا (التقرير) الذي كتبه انسان كافح طويلا في حياته ولم يستطع ان ينجز الا القليل •

□

في الصباح الباكر من اليوم التالي اخذنـــي والدي من يدي • قال : « تعال » • وخافت امي • « الى اين تأخذ الصبي ؟ لم يغادر مسيحي بيته بعـــد » •

وكرر والدي امره : « تعال » وفتح الباب وخرج
وسألته : « الى اين نذهب ؟ » وكانت يدي ترتجف في راحته الضخمة • تطلعت الى الشارع طولا وعرضا • كان خاليا الا من امرأتين قرب الزاوية تغسلان على (الفيجة) • كان الماء قد صار احمر •

- هل انـت خائـف ؟
- نعـــم ٠
- ليس هذا هاما ٠ ستتعود ٠

درنا عند المنعطف وتوجهنا نحو بوابة الميناء ٠ ومررنا ببيت كـان الدخان ما يزال يتصاعد منه وبيوت اخرى كانت ابوابها محطمة والدمـاء ماتزال على العتباتوحين وصلنا الى الساحة الرئيسية ذات النبع المنحـوت في هيئة أسد وشجرة الدلب الضخمة على حافته ، وقف والدي وقال : « انظر » وأشار بيـده ٠

نظرت الى شجرة الدلب واطلقـــت صرخة ٠ كان هنـاك ثلاثة رجال مشنوقين ما زالوا معلقين عليها يتارجحون واحدا قرب الاخر ٠ كانوا حفاة ولا لباس عليهم الا مناماتهم والسنة خضراء قاتمة كانت تتدلى من افواههم ٠ ولعجزي عن تحمل المنظر حولت راسي وتشبثت بركبة والدي ٠ الا انــه امسك راسي بيده وحوله نحو شجرة الدلب ٠

« انظر » قال آمرا مـن جديد ٠
وامتلأت عينـاي بالمشنوقـين ٠
- طالما انت حي - اتسمع ؟ - لا تجعل هؤلاء المشنـوقين يغيبون عـن نظـــرك ٠
- مـن قتلهـم ؟
- الحرية ، فليباركها اللـه ٠

لم أفهم ٠ وبعينين جاحظتين حملقت وحملقت الى الاجساد الثلاثة التي كانت تتارجح ببطء بين الاوراق الصفراء على شجرة الدلب ٠
القى والدي نظرة حوله وأنصت ٠ كانت الشوارع خالية ٠ فالتفت الي :
- أتستطيع ان تلمسهم ؟
- لا ٠ صحـت خائفـا ٠
- تستطيع !٠٠ تعـال !٠

اقتربنا ٠ ورسم والدي شارة الصليب بسرعة اكثر من مرة ٠ ثم قال لي آمرا « المس أقدامهم » ٠ ولمست برؤوس أصابعـــي جلودهم الباردة القاسية ٠ كان ندى الليل ما يزال عالقا عليها ٠

وجاءني امر والدي من جديد : « قبلهم ٠ قدم احترامك » ٠ وحين رأى محاولتي للافلات والهرب حملني تحت ذراعيه ورفعني ثـم احنى رأسي وقسرني على الالتصاق بالقدم الصلبة ٠

أنزلني ٠ ولم تقو ركبتاي على حملي فانحنى ونظر الي قائلا : « كان

هذا لمساعدتك على التعود » .
ثم اخذني ، من جديد ، بيدي وعدنا الى البيت . كانت امي واقفة وراء الباب تنتظر بقلق .
« اين ذهبتما بحق الله ؟ » سألت وهي تمسك بي بشغف وتقبلني .
فأجاب والدي : « ذهبنا لنقدم فروض الاحترام » والقى علي نظرة واثقة .

□

ظلت البوابات الحصينة مغلقة ثلاثة ايام ثم فتحت في اليوم الرابع . غير ان الاتراك كانوا يجوبون الشوارع ويملأون المقاهي ويتجمعون في المساجد . لم يكن الهياج قد هدأ بعد في اعماقهم وكانت عيونهم ما تزال مليئة بالقتل . كانت كريت مهيأة لان تشتعل ، ولم يكن يلزم الا شرارة واحدة . وركب جميع المسيحيين الذين لديهم اطفال في السفن التجارية والقوارب للرحيل الى اليونان الحرة . وكل من ليس لديهم اطفال هجروا ميغالو كاسترو واتجهوا الى الجبال .

كنا بين من ذهبوا الى المرفأ من اجل الرحيل . والدي يتقدمنا ووراءه امي واختي ، وانا في المؤخرة .

لقد قال لي والدي – ولم اكن قد اكملت الثامنة بعد – « يجب ان نحمي النساء . سأسير انا في المقدمة وانت تظل في الخلف . وانتبه جيدا ! » .

مررنا بالجوار الذي كان محترقا . بعض الضحايا لم تكن قد ازيحت بعد . والجثث بدأت تتعفن . وانحنى والدي على أحد الابواب والتقط حجرا مضمخة بالدم . قال لي : « احتفظ بها » .

فهمت اخيرا لم كان والدي يتصرف بهذه الطريقة الضارية . لم يكن يطبق اساليب البيداغوجيا الحديثة بل كان يتبع الاسلوب القديم الشرس الذي كان وحده قادرا على الحفاظ على الجنس . هكذا يدرب الذئب دغفله (١) المفضل ، الابن الاول – يعلمه الصيد والقتل ، ويعلمه بالحيلة او البسالة كيف ينجو من الافخاخ . ولبيداغوجيا والدي الضارية أدين باحتمالي وعنادي اللذين لازماني في الاوقات العصيبة . ولهذه الضراوة ادين بكافة الافكار العصية التي تتحكم بي الان في نهاية حياتي والتي لم تكن ترضى بقبول الرعاية من الله او من الشيطان .

« دعنا نصعد الى غرفتك لنقرر أمرنا » قال لي والدي قبل ان نغادر

---

(١) الدغفل : ابن الذئب .

البيـــت .

وقف في وسط الغرفة وأشار الى خارطة اليونان الكبيرة التي كانـت معلقة على الجـدار .

● لا اريد ايا من بيرايوس Piraeus أو اثينا . هناك سيحتشد الجميع . ثم سيبدأون بالتسول وطلب المعونة . ليس هذا العمل المقرف من شأني . اختر جزيرة ما !.

ـ اية جزيرة اشاء ؟

● نعم . اية جزيرة تشاء .

صعدت على كرسي والقيت نظرة على كل الجزر الايجية (٢) : كانت نقاطا خضراء في البحر الازرق . ثم بدأت بسانتوريني ورحت انقل اصبعي الى مليوس وسيفنوس وميكونوس وباروس . وتوقفت عند ناكسوس .

قلت : « ناكسوس ! » . أحببت شكلها واسمها . كيف كان لي ان اتنبأ في تلك اللحظة بالاثر الحاسم الذي سيكون لهذا الاختيار العرضي المصيري على حياتـي بأكملها .

« ناكسوس » كررت قولي وانا انظر الى ابي .

فأجاب : « جميل . فلنذهب الى ناكسوس » .

---

(٢) نسبة الـــى بحر ايجة .

١١ ـ ناكسوس

كان لهذه الجزيرة حلاوة وهدوء عظيمان · اينما توجهت تشاهد اكوام البطيخ والخوخ والتين يحيط بها البحر الساكن · رحت اتطلع الى الاهالي · كانت وجوههم ودودة ، لم يتعودوا على الخـــوف من الاتراك او الهزات الارضية ولم تكن عيونهم تشتعل · لقد اطفأت الحرية التوق الى الحرية ، وتمددت الحياة كالماء الهادىء المسترخي الذي ، رغم انه يضطرب احيانا ، الا انه لم يتسبب ابدا في اثارة اعصار · وحينما كنت اتجول في ناكسوس كانت الطمأنينة هبتها الاولى التي وعيتها · الطمأنينـــة ، وبعد ايام السأم · تعارفنا مع شخص اسمه السيد لازاروس ، وهو ناكسوسي ثــري يملك بستانا رائعا في انغاريس ، على بعد ساعة عن البلدة الرئيسية · دعانا فمكثنا اسبوعين هناك · اية وفرة ، اية اشجار مثقلة بالفاكهة واية غبطة · لقد تحولت كريت الى خرافة ، الى غيمة متوعدة موغلة في البعد دون انذار بخطر ولا سفك لدم ولا كفاح لحرية · هذا كله ذاب وتلاشى في الرفاه الناكسوسي الوسنان ·

وجدت كومة من الكتب في احدى خزائن قصر العزبة · كانت مصفــرة لقدمها فأخذتها وصرت اجلس كل يوم تحت شجرة زيتون وأقلبها بشراهة · وكنت احدق بشغف الى الرسومات الباهتة القديمة للمحاربين والسيــدات والوحوش وغابات الموز · وفي كتاب اخر بحار متجمــدة ، وسفن محاصرة بالجليد ، ودياسم (١) تتدحرج على الثلج ككرات من القطن · وفي غيره مدن بعيدة ذات مداخن عالية وعمال ونيران متاججة ·

---

(١) صغــار الدببة .

توسع عقلي وتوسع العالم معه · وامتلأ خيالي بأشجار عملاقة وحيوانات غريبة وبشر سود وصفر · وكثير من الاشعار التي كنت اقرأها كانت تهيج قلبي · وفي احد هذه الكتب المصفرة صادفت هذه الكلمات : « سعيد هو الانسان الذي يرى اكثر البحار واكثر القارات » وفي اخر « عجل ليوم افضل من ثور لسنة » ولم أفهم هذه العبارة جيدا لكنني عرفت شيئا واحدا هو انني لا اريد ان اكون ثورا · اغلقت الكتاب وعببت الهواء العذب وتركزت عيناي على الاشجار المثقلة بالمشمش والخوخ · كنت حشرة بأجنحة لم تنم بعد تخبط على الارض بأقدامها الصغيرة في محاولة منها للطيران رغم ان قلبها يخفق · هل ستنجح ام تفشل ؟ يفضل الصبر ؛ فترة قصيرة اخرى ·

كنت صبورا · ودون ادنى شك كنت ، سرا ، انتظر في اعماقي اليوم الذي سوف تكبر فيه اجنحتي وعندها سأرحل ·

لكن بنت اخ السيد لازاروس ، غلامية (١) في الثانية عشرة من العمر اسمها ستيلا ، كانت قد علقت ارجوحة على شجرة الزيتون المجاورة لشجرتي · كانت تتأرجح في الهواء وتغني · وكانت الحركة ترفع ثوبها فتتلامع ركبتاها البيضاوان كالثلج والمدورتان بشكل مذهل تحت الشمس · لم استطع البقاء لسماع اغنيتها او للنظر الى ركبتيها · وذات يوم القيت بكتبي غاضبا الى الارض · ولم تفعل اكثر من النظر الي ثم الانفجار بالضحك وهي تمضغ لبانها · وكثيرا ما كانت تثيرني بأغنياتها الساخرة · لقد نسيتها كلها الا واحدة :

اخفض هاتين العينين السوداوين اللتين تنظران الي ·
اخفضهما ، يا جوهرتي ، انهما تجلدانني ·

« ستيلا ! » صرخت غاضبا وانا اقفز على قدمي « اما ان تنصرفي من هنا او انصرف » · فقلبت ارجوحتها · « فلننصرف معا ! » قالت ولم تعد تضحك · ثم خفضت صوتها وقالت « فلننصرف معا ، يا صديقي المسكين ، لانك ستسجن نهار الاثنين في المدرسة الكاثوليكية · لقد سمعت أباك يتحدث مع عمي » ·

في برج ناكسوس الرئيسي ، الذي كان يقيم فيها لقرون خلت الفاتحون الفرنكيون Frankish ، كانت الان المدرسة الفرنسية الشهيرة التي كان يديرها قسس كاثوليكيون · لقد صعدت اليها ذات يوم مع والدي · فنظر اليها بامعان لبعض الوقت ثم هز رأسه « هنا يستطيع الولد ان يتلقى

---

(١) فتاة تتشبه بالصبيان وتلعب العابهم .

علوما • لكن المعلمين قسس كاثوليكيون • ليأخذهم الشيطان ! ربما تحولت الـى كاثوليكـي ! » •

وعلى الرغم من انه لم يعد الى ذكر المدرسة بعد ذلك فقد كنت اعرف ان الفكرة كانت تنخر في رأسه وانه لا يعرف كيف يتخذ قراره • وبعـد العشاء في اليوم ذاته الذي نبهتني فيه ستيلا ، اخذني والدي معه في نزهة في البستان • كان القمر قد بزغ وكل شيء كان هادئا وعطرا •

مر وقت دون ان يتكلم ، واخيرا حين حانت عودتنا الى البيت توقف وقال « ستطول الثورة في كريت • سأعود الى هناك • لا استطيع ان اترك رفاقي المسيحيين يقاتلون هناك بينما انا اتنزه في البساتين • انني ارى جدك في نومي كل يوم ، وهو يوبخني يجب علي ان اذهب • ولكن في الوقت نفسه يجب ان لا تضيع وقتك • اريدك ان تصبح رجلا » • عاد الى صمته من جديد ومشى بضع خطوات ثم توقف مرة ثانية وسألني : « هل فهمت ؟ رجل – هذا يعني ان تكون مفيدا لوطنك • من المؤسف انك ولدت للدراسة وليس للسلاح • ولكن لسوء الحظ ليس في اليد حيلة • هذا طريقك فاسلكه • اتفهم ؟ ثقف نفسك لكي تساعد كريت في الحصول على حريتها • فليكن هذا هدفك • والا فلتذهب الثقافة الى الشيطان • انا لا اريدك ان تصبح معلما او راهبا او سليمان الحكيم • فليكن هذا واضحا • لقد اتخذت قراري والان عليك ان تتخذ قرارك • ان لم تستطـع مساعدة كريت بالسلاح او بالحروف فالافضل ان تضطجع وتموت •

قلت : انا خائف من الآباء الكاثوليكيين •

– وانا ايضا • الرجل الحقيقي يخاف لكنه يتغلب على خوفه • انني اثق بك ، فكر قليلا ثم اصلح قوله : « لا • انا اثق بك • انني اثق بالدم الذي يجري في عروقك – دم كريت • كن جاهزا الان ، وارسم شارة الصليـب على نفسك ، وضم قبضتيك • ونهار الاثنين ، ان شاء الله ، سوف نذهـب لتسجيلك عند الكاثوليكيين •

كانت تمطر يوم بدأت ، ووالدي ، نصعد نحو البرج – زخة خريفية خفيفة اعتمت الشارع • كان البحر يتنهد وراءنا • وما تزال نسمـة لطيفة تسقط الاوراق عن الاشجار : كانت تسقط واحدة بعد الاخرى صفراء ورمادية تزين المرتفع المبتل • وكانت الغيوم تتسابق فوق رؤوسنا تطاردها ريـح قوية لا بد انها كانت تهب في الاعالي • رفعت رأسي وحدقت نحوها بنهم وهي تركض وتتلاصق وتتفرق وبعضها يرخي حواشيه مجاهدا أن يلمس الارض • منذ طفولتي وأنا أحب أن استلقي على ظهري في دارنا لمراقبـة الغيوم • وكلما مر عصفور طائر أو غراب أو سنونو أو حمامة ، أتوحد معه

حتى اني احس حرارة صدره في راحتي المفتوحة · « مارغي · أظن أن ابنك سيصبح حالما أو ذا رؤيا » قالت جارتنا مدام بنلوب ذات يوم لأمي « انـه ينظر الى الغيوم دائما · »

وأجابتها أمي : « اطمئني يا بنلوب · ستأتيه الحياة وتجعلـه يخفض نظـره » ·

لكن الايام لم تات بعد ، وفي ذلك اليوم كنت ما أزال معجبا بالغيـوم وانا اصعد نحو البرج · وبغتة تعثرت وانزلقت · وامسك والدي بكتفي وكأنه يريد ان يثبتنـي :

« انس الغيوم وابق عينيك على الحجارة تحتـك ان كنت لا تريد ان تسقط وتقتل نفسك » وظهرت فتاة شابة ذات نظرات ذابلة من الباب ذي القنطرة المفضي الى البيت الكبيرنصف المتهدم · نظرت هي الاخرى الـى السماء · كانت شديدة الشحوب والنحول ولها وجه يتميز بنبل عظيم وكانت ملفعة بازار رث وهي ترتعش ·· علمت فيما بعد انها تنحدر مـن احـدى العائلات الكاثوليكية المعروفة ذات العز الغابر ، وكل افرادها اما دوق او دوقة ، فتحت ناكسوس منذ قرون وبنت هذا البرج لاقامتها ـ بنته علـى أعلى موقع في المدينة بحيث ان افرادها يستطيعون ان يطلوا ويراقبوا عامة الارثوذكس وهم يشتغلون لمصلحتهم في الميناء او في السهول · الا ان هـذه الاسرة قد فقدت امجادها واصبحت فقيرة جدا وقد تحولت قصورها الـى دمار حتى صارت حفيدات احفادها جائعات وشاحبات ولم تكن هذه الفتيـات قادرات على العثور على ازواج لان الرجال الذين من طبقتهن قد فقدوا نفوذهم، وهم اما انهم فقدوا الرغبة في الزواج أو اصبحوا عاجزين عن اعالة زوجة واطفال · اما الزواج من العامة الارثوذكسية المتواضعة ، من جهة اخرى ، فهو امر لم تكن تلك السيدات النبيلات تتنازلن لفعله · ان لديهن كبرياءهـن الشامخة ابدا ذلك ان الكبرياء هي كل ما بقي لهن ·· نظرت الفتاة الـى السماء قليلا ثم هزت رأسها وعادت الى الداخل ·

انني اتذكر كل شيء · كل شيء تماما مما حدث وانا اصعد الى البرج في ذلك اليوم لدخول المدرسة الكاثوليكية · وما ازال قادرا على رؤية القطة الجالسة على العتبة تحت المطر · كانت بيضاء ببقع برتقالية · وفتاة صغيرة حافية تحمل مجمرة مليئة بالفحم المشتعل وهي تركض ووجهها أحمر مشرق مـن الوهـج ··

« ها قد وصلنا » قال والدي · ورفع يده وقرع الباب الضخم · كانـت هذه اول قفزة ، واكثرها اهمية ، في حياتي الثقافية · وانفتح مدخل سحري

داخل عقلي وقادني الى عالم مدهش • حتى الان كانت كريت واليونان هما الحلبة المحدودة التي تحتجز روحي المكافحة في داخلها • أما الان فقد اتسع العالم • وتعددت تقسيمات البشر ،وطقطق صدري اليافع مجاهدا لاحتوائها كلها • قبل تلك اللحظة كنت قد تكهنت لكنني لم اكن اعرف بهذا الشكل الملموس ان العالم واسع جدا وان المعاناة والتعب هما الملازمان ورفيقا السلاح ، ليس فقط للكريتيين ، بل لكل انسان • وفوق كل شيء ، الان فقط بدأت احدس بالسر العظيم : انه عن طريق الشعر يمكن تحويل هذه المعاناة كلها وهذا الجهد كله الى حلم • ولا اهمية لكمية الاستياء الزائلة الموجودة ، فان الشعر يستطيع ان يخلدها بتحويلها الى اغنية • عاطفتان او ثلاث عواطف ، فقط ، كانت تتحكم في حتى ذلك الحين : الخوف ، الكفاح التغلب على الخوف • والتوق الى الحرية • أما الان فقد اضيئت في داخلي رغبتان جديدتان هما الجمال والتعطش للعلم • صرت أريد أن اقرأ وان اتعلم• ان ارى اراضي بعيدة وان تكون لي تجارب شخصية من المعاناة والغبطة • كان العالم اكبر من اليونان ، وآلام العالم اكبر من الامنا • والتوجه الى الحرية لم يكن امتيازا مقصورا على الكريتيين ، بل هو النضال الابدي للبشر • ولم تتلاش كريت من ذهني رغم ذلك • بل ان العالم كله قد انتشر في اعماقي ليصبح كريتا واحدة جبارة يضطهدها كافة أنواع الاتراك لكنها دائما تقفز واقفة على قدميها وتبحث عن الحرية • وبهذه الطريقة ، بتحويل العالم كله الى كريت ، استطعت منذ السنوات الاولى لنضجي ان احس بعذابات البشر كلهم والامهم •

في هذه المدرسة الفرنسية طلاب جمعوا من كافة انحاء اليونان • وبما انني كنت كريتيا ، وكريت كانت في ذلك الحين تقاتل الاتراك ، اعتبرت ان من واجبي الا اشوه سمعة بلدي • كانت لدي مسؤولية أن أكون الاول في صفي • وهذه القناعة ، التي اعتقد انها لم تنبع من الكبرياء الفردية بل من الاحساس بالالتزام الوطني ، زادت من قواي •• وفي وقت بسيط استطعت ان ابز زملائي كلهم _ لا • ليس أنا ، بل كريت • وهكذا مرت الايام بنشوة لم تكن معروفة لدي من قبل • رغبة ثملة في ان اتعلم واتقدم وأن اطارد الطائر الازرق الذي (اكتشفت فيما بعد) يدعى الروح •

هكذا اكتسب عقلي الجرأة حتى انني اتخذت ذات يوم قرارا طائشا بأن اكتب مقابل كل كلمة فرنسية مرادفتها اليونانية • اخذ مني هذا العمل شهورا وقد احتجت الى معونة قواميس عديدة اخرى ، وحين انتهيت اخيرا . وتمت ترجمة القاموس الفرنسي كله ، اخذته فخورا لاريه للاب لوران ، مدير المدرسة • كان قسا كاثوليكيا متعلما قليل الكلام ذا عينين رماديتين وابتسامة صفراء ولحية كبيرة نصفها ابيض ونصفها اشقر • اخذ مني القاموس وقلب

اوراقه ثم نظر الي باعجاب ووضع يده على رأسي ، كأنه يريد ان يباركني • وقال : « ما فعلته ، ايها الكريتي الصغير ، يدل على انك ستصبح ذات يوم انسانا هاما • انك محظوظ لانك اكتشفت طريقك بهذه السن المبكرة العلم والبحث ـ هذا هو طريقك • بارك الله فيك • »

ركضت ، وانا مترع بالفخر ، الى مساعد المدير الاب ليليفر ، وهو راهب حسن التغذية محب للنكتة ذو عينين مرحتين ، تعود ان يضحك وان يحكي النكات الريفية • ويلعب معنا • وفي كل عطلة اسبوعية كان يأخذنا في نزهة الى أحد بساتين المدرسة في الريف • وهناك ، بتحررنا من الاب لوران ، كنا نتصارع ونضحك ونأكل الفاكهة ونتدحرج على العشب ونريح انفسنا من عناء الاسبوع •

لذلك ركضت ابحث عن الاب ليليفر لاريه انجازي • ووجدته في الباحة يسقي صفا من ازهار الليلك • اخذ القاموس وقلب صفحاته ببطء شديد جدا وتصفحها • وكلما امعن النظر التهبت قسماته اكثر • وبغتة رفع القاموس وقذف به في وجهي • وصرخ :

« عيب عليك • هل أنت ولد ؟ أم عجوز خرف اشيب اللحية ؟ ما عمل العجائز هذا الذي ضيعت وقتك من أجله ؟ بدل ان تضحك وتلعب وتتلصص على الفتيات العابرات تجلس كالاهبل وتترجم قواميس !! هيا انصرف من هنا ، واغرب عن وجهي • خذها عني • انك ان اتبعت هذا الطريق فلن ترتقي الى اي شيء ـ ابدا !! وستنتهي الى معلم صغير كادح بائس بنظارتين • ان كنت كريتيا فعلا احرق هذا القاموس اللعين واجلب لي الرماد وعندها سأمنحك بركتي • فكر في الامر وتصرف • هيا من هنا !! »

ابتعدت مبلبلا • من منهما كان على حق ؟ وماذا علي أن أفعل ، واي الطريقين هو الصحيح ؟ عذبني هذا السؤال سنوات وحين اكتشفت ، أخيرا ، أي الطريقين هو الصحيح كان شعري قد شاب • ومثل حمار بوريدان ، كانت روحي تتأرجح مترددة بين الاب لوران والاب ليليفر • كنت انظر الى القاموس والكلمات اللاتينية المكتوبة بخط صغير جدا على الهامش بالحبر الاحمر وحين اتذكر نصيحة الاب ليليفر كان قلبي يتمزق • لا ، لم تكن لدي الشجاعة لاحراقه وجلب الرماد له • بعد سنوات عديدة ، حين بدأت افهم اخيرا ، القيت به الى النار غير انني لم اجمع الرماد لان الاب ليليفر كان قد مات منذ زمن طويل •

بعد ان وضعني والدي في المدرسة ، مباشرة ، ورآني وقد استقر مقامي ركب قاربا ورحل سريا الى كريت لكي يقاتل • وذات يوم ارسل لي ملحوظة موجزة على ورقة ملوثة بالبارود :

« انني أؤدي واجبي بقتال الاتراك ٠ وانت تقاتل ايضا ٠ قف بصمود ولا تدع هؤلاء الكاثوليكيين يسربوا افكارا في رأسك ٠ انهم كلاب ، مثل الاتراك تماما ٠ انت من كريت ٠ لا تنس ذلك ٠ ان عقلك ليس ملكك بل هو لكريت ٠ فاجعله متيقظا قدر ما تستطيع بحيث انك ، ذات يوم ، تستطيع ان تستخدمه لتحرير كريت ٠ وطالما انك لا تستطيع ان تعين بالسلاح فلم لا تعين بعقلك ؟ فهو ، ايضا ، سلاح (١) ، هل تفهم ما اطلبه منك ؟ اجب بالايجاب ٠ وهذا كل شيء لليوم وللغد والى الابد ٠ لا تخجلني ! »

احسست بكريت كلها على كتفي ٠ فان فشلت في تعلم دروسي جيدا ، او في فهم مسألة في الحساب ، او في ان اكون الاول في الامتحانات ، فان كريت ستخزى ٠ لقد فقدت عبث الطفولة وعذوبتها وطيشها ٠ وحين كنت أرى زملائي يضحكون ويلعبون كنت اعجب بهم ٠ لا بد انني كنت أود لو اضحك والعب ايضا لكن كريت كانت تحارب وكانت في خطر ٠ والاخطر من هذا كله ان المعلمين والطلاب لم يعودوا ينادونني باسمي بل كانوا يدعونني بـ « الكريتي » وكان هذا تذكيرا دائما واكثر الحاحا بالتزامي ٠

لم يكن هناك خوف من تحولي الى كاثوليكي ٠ ليس لانني كنت اعي اي الاديان هو الاصح بل بسبب عامل اخر ورغم انه يبدو ان لا اهمية له فانه كان مؤثرا في روحي الشابة بعمق اكبر من اي مبدأ لاهوتي ٠ كان لدينا كل صباح قداس الزامي في المصلى الكاثوليكي ، وهو عبارة عن غرفة صغيرة عارية الجدران وسط بناء المدرسة ، شديدة الحر صيفا ، شديدة البرد شتاء وفيها تمثالان ملونان من الجص احدهما للمسيح والاخر للعذراء وكانت كميات كبيرة من ازهار الليلك توضع على المذبح في المياه ذاتها فتصبح قذرة الى درجة انني حين ادخل المصلى كل صباح كانت رائحتها تكاد تجعلني اتقيأ ٠ واذكر انه قد اغمي علي في احدى المرات ٠ وهكذا فان هذه الزهور الليلكية المتعفنة والكنيسة الكاثوليكية قد اتحدت في اعماقي اتحادا لا ينفصم ٠ ومنذ ذلك الحين فان فكرة التحول الى كاثوليكي كانت تجعلني اقرف ٠

غير ان اللحظة جاءت (وحتى اليوم اتذكرها بخجل) حين كنت على وشك ان اخون معتقدي ٠ لماذا ؟ اي شيطان دفعني ؟ كم في هذا الشيطان الداخلي من الدهاء بحيث انه يكمن منتظرا وراء فضائلنا ، لابسا لبوس الفضيلة هو نفسه ؟ وهو واثق أن ساعته ستجيء ، عاجلا أم اجلا ، ودون شك ٠

---

(١) في الاصل موسكيت ٠

وبالفعل فان ساعته قد جاءت ذات يوم • وصل الكاردينال الذي يفتش على المدارس الكاثوليكية في المشرق ذات صباح قادما من روما • كان يرتدي بذلة حريرية سوداء ذات بطانة قرمزية وقلنسوة قرمزية ذات حواف عريضة، وجوارب قرمزية شفافة وفي اصبعه خاتم كبير وعليه حجر قرمزي • كان الجو من حوله مشعا ومليئا بالعبير • وفي اللحظة التي ظهر فيها ووقف امامنا ، كنا على ثقة تامة من انه وردة هائلة غريبة خرجت لتوها من الفردوس • ورفع يده النقية البيضاء البضة ، اليد التي تحمل الخاتم الذهبي ، وباركنا • واحسسنا جميعا بقوة غامضة تتغلغل فينا من قمة الرأس حتى الكعب كأننا احتسينا خمرة معتقة وصارت عقولنا ملونة بالقرمزي الغامق •

لا بد ان الاب لوران قد اخبره عني لانه فيما هو يغادرنا أشار لي أن اتبعه • ذهبنا الى غرفته وجلس على كرسي صغير •

« هل تحب ان تأتي معي ؟ » سألني بصوت بدا لي حلوا كالعسل •

ـ الى اين ؟ سألته مندهشا : انا كريتي •

ضحك الكاردينال ، وفتح صندوقا اخرج منه حبة سكاكر وضعها في فمي • كان فمه صغيرا ومدورا ومحلوقا بعناية،له شفتان سميكتان براقتان حمراوان • وكلما حرك يده فاحت في الجو رائحة الخزامى • قال :

ـ اعرف • اعرف • اعرف عنك كل شيء • انت كريتي وهذا يعني انك ماعز بري • ولكن اصبر واستمع الي • سنذهب الى روما ، المدينة المقدسة • وستدخل مدرسة كبيرة لتتابع تعليمك بحيث تصبح عظيما وهاما • من يدري ـ ربما لبست ذات يوم قلنسوة الكاردينال ذاتها التي البسها انا ولا تنس ان واحدا من جزيرتكم ، كريتيا ، قد اصبح ذات يوم بابا ـ قائد المسيحية اي انه كان اكبر من امبراطور ! عندها سيكون في وسعك ان تعمل وان تحرر كريت •• هل تسمع ما اقول ؟

تمتمت : « نعم • نعم » • كنت ارفع رأسي واصغي بشغف •

ـ في هذه اللحظة ، يا بني ، حياتك على مفترق طرق • ان قلت « نعم » نجوت • وان قلت « لا » ضعت • ما الذي ستصير اليه ان بقيت هنا ؟ ماذا يعمل ابوك ؟

ـ انه تاجر •

ـ طيب • ستصبح تاجرا انت الاخر وفي الحد الاقصى ستكون محاميا أو طبيبا • اي لا شيء • اليونان مقاطعة صغيرة • اخرج من المقاطعات يا بني • لقد حكوا لي الكثير عنك وانني اكره ان اراك تضيع •

كان قلبي يخفق بصوت مرتفع • مرة اخرى ينفتح امامي طريقان • فايهما اختار ؟ ولمن الجأ طلبا للمساعدة • سيدفعني الاب لوران في طريق وسيدفعني الاب ليليفر في الاخر • ايهما الصحيح ؟ وماذا لو انني سألت والدي ؟

حين تذكرت والدي ارتعبت • كان قد عاد لتوه من كريت ملوثا بالبارود وفي ذراعه جرح بليغ • لقد سكتت البنادق الان • بعد هذه القرون العديدة وهذه الدماء الغزيرة وضعت الحرية قدمها المضرجة في الارض الكريتية • سيصل الامير جورج اليوناني ويقدم خاتم الخطبة عربونا للوقت الذي ستتوحد فيه كريت واليونان الى الابد •

لقد جاء والدي لرؤيتي فور عودته من كريت • ولم اعرفه في البدء • كانت بشرته اشد سوادا من قبل • وكانت ابتسامة (أراها لاول مرة) تشع على شفتيه « كيف تسير الامور ؟ هل حولوك؟» سألني وهو يضحك • صار لوني أحمر قانيا • فوضع كفه الضخمة على رأسي « أنا امزح فقط • انني اثق بك »

حين تذكرت والدي الان في حضرة الكاردينال لا بد ان لوني قد شحب لان الاسقف وضع يده الممتلئة بلطف على شعري وسألني : « بم تفكر ؟ »

فتمتمت : « ماذا سيقول والدي ؟ »

ـ ليس من الضروري ان يعرف • لا احد يجب ان يعرف • سنرحل سرا خلال الليل • »

ـ« من ينكر اباه وامه لا يستطيع ان يتبعني » • هذه كلمات المسيح •

ظللت صامتا • كان وجه المسيح يذهلني بشكل لا يوصف منذ طفولتي • كنت اتبعه في الايقونات حيث ولد ثم بلغ عامه الثاني عشر وحيث وقف في القارب ورفع يده ليهدىء البحر، ثم حين جلد وصلب وحين هتف على الصليب: « الهي • الهي ، لم تخليت عني ؟ » وبعد ذلك حين قام ذات صباح من قبره وصعد الى السماء وهو يمسك الراية البيضاء بيده • برؤيته كنت أجلد ايضا واصلب وابعث • وحين كنت اقرأ الانجيل كانت الحياة تدب في الحكايات القديمة : كانت روح الانسان تبدو همجية : وحش وسنان يشخر في نومه • وبغتة تنفتح السماء وينزل المسيح • يقبل هذا الوحش فيتنفس الوحش عذوبة ويستيقظ ويصبح ما كانه دائما : أميرة سامية جميلة •

« طيب » قلت للكاردينال وأنا اقبل يده « سأهجر أبي وأمي • »

ـ « في هذه اللحظة ، يا ابني ، رأيت الروح القدس ينزل على رأسك • قد نجوت • » قال ذلك ومد الخاتم الكريم الذي كان يلبسه لكي اقبله •

كان علينا أن نرحل بعد ثلاثة أيام ٠ وكنت أريد أن أرى والديّ لأودعهما ضمنيا دون ان ابوح لهما بالسر ٠ لكن الكاردينال رفض ٠ وقال : « الانسان الحقيقي هو الذي يغادر احباءه دون وداع » ٠ ولرغبتي في ان أكون انسانا حقيقيا جعلت قلبي يقسو وظللت صامتا ٠ ألم أقرأ في الاساطير مرارا ان الزاهدين كانوا يفعلون ذلك حين يرحلون الى الصحراء ؟ لم يكونوا ينظرون الى الوراء لرؤية امهاتهم او يلوحون تلويحة وداع ٠ وانا سأفعل مثلهم ٠

أعطيت العديد من الكتب الثقيلة المغلفة بالذهب ٠ قرأت عن روما الخالدة وعن الاب المقدس ، البابا ٠ سكرت وانا اتفرج على الصور : القديس بطرس والفاتيكان والرسوم والتماثيل ٠

كان كل شيء يسير على ما يرام ٠ وكنت ، في خيالي ، قد رحلت وعبرت البحر ووصلت الى المدينة المقدسة وانهيت دراستي ، كنت ارتدي قلنسوة قرمزية كبيرة ذات اطار حريري وحين نظرت الى الاصبع الوسطى في كفي اليمنى رأيت الخاتم الكريم الغامض يلمع في الظلام ٠٠٠ عند هذا الحد تحرك القدر فجأة ومد يده فسد طريقي ٠ همس احدهم في اذن والدي : « الكاثوليك يأخذون ابنك » حدث هذا ليلا ٠ وقفز الكريتي الضاري من سريره وأيقظ عددا من البحارة والصيادين الذين كان يعرفهم ٠ اشعلوا المشاعل واخذوا معهم صفيحة من الكازولين بالاضافة الى المخول والمعاول واستلموا الطريق صعودا الى البرج ، وهناك راحوا يدقون باب المدرسة وهم يصرخون بأنهم سيحرقون المكان ٠ ذعر الرهبان ٠ واخرج الاب لوران رأسه من النافذة ، وهو يضع قلنسوة النوم ، وصرخ وهدد بنصف فرنسية ونصف يونانيـة ٠

وصرخ والدي وهو يلوح بالمشعل : « ابنـي ٠ ابني ٠ ايتهـا الكلاب البابوية ٠ والا فالنار والفأس ! » ٠

أيقظوني ٠ ولبست بأسرع ما استطعت ثم انزلوني من النافـذة فـي سلة فسقطت بين ذراعي والدي ٠ أمسكني من ياقتي ودقنـي بالارض ثلاث مرات ثم التفت الى مرافقيه : « اطفئوا المشاعل ٠ ولنذهب » ٠

مرت ثلاثة ايام قبل ان يكلمني والدي لكنه اهتم بأن أستحم وأرتدي ملابس نظيفة وان يزيت شعري بزيت من قنديل العذراء ٠ وجلب القس ليرش علي الماء المقدس ويقرأ علي تعويذة ليخلصني من الدنس الكاثوليكي ٠ وبعدها التفت الي وغمغم بين اسنانه « يهـوذا ! » ثم بصق ثلاث مرات في الهـواء ٠

لكن الله تلطف فجاءت الاخبار الطيبة بعد اسابيع قليلة : الامير جورج الهيليني في طريقه الى كريت لاستلامها • قفز والدي ثم استلقى على الارض ثلاث مرات لكي يلمس التراب ورسم الصليب على نفسه وتوجه من فوره الى الحلاق • لم يسبق له ان وضع آلة حلاقة على خده بل كان قد ترك لحيته تطول وتنزل على صدره لانه كان في حداد ، حداد على كريت ، المستعبدة • وكان هذا سببا في انه لم يكن يضحك وانه كان يغضب كلما رأى مسيحيا يضحك • لقد انحدر الضحك في ذهنه الى حيث اصبح تصرفا غير وطني • اما الان ، ولله الحمد ، فقد تحررت كريت • ولذلك توجه الى الحلاق مباشرة وحين عاد الى البيت كان وجهه الحليق متجدد الشباب مضيئا وامتلأ البيت برائحة العطر الذي سكبه الحلاق على شعره •

التفت الى أمي واشار الي وهو يضحك • « كريت قد تحررت • وسننسى الماضي • فدعينا نسامح يهوذا ! » •

بعد ايام رحلنا الى كريت • اية رحلة نشوى بالنصر وكيف اخترقت الشمس في ذلك اليوم الخريفي اعماق قلوبنا • ولكن • آه • كم طال الوقت والسفينة تعبر بحر ايجة • وجاء الفجر ليجد والدي منحنيا على مقدم السفينة وهو ينظر الى الجنوب • ولو ان عيون الناس تستطيع ان تزيح الجبال لرأينا كريت مثل حراقة (١) تنحدر علينا •

---

(١) سفينة حربية شراعية .

١٢ ـ الحرية

ما تزال عيناي ، حتى بعد مرور سنوات كثيرة ، تفيضان بالدموع حين اتذكر ذلك اليوم : اليوم الذي خطا فيه الامير جورج الهليني ، اي الحرية ، على ارض كريت • ان نضال الجنس البشري ، فعلا ، سر مقدس متواصل • اذ ما هذه القشرة الارضية ـ الزائفة القلقة المتصدعة ـ التي يدب فوقها البشر ، اولئك المشاغبون المتلفعون بالوحل والدم المتخثر ، بحثا عن حريتهم ؟ وكم هو مؤثر ان ترى اليونانيين في الطليعة ـ اليونانيين ! ـ يتسلقون ذلك المرتقى اللامتناهي ويشقون الطريق اما بالكلامس (١) والرمح ، او بسترات الافزون والموسكيت ـ (٢ ، او بسراويلهم الكريتية •

أتذكر الكابتن الكريتي ، ذلك الراعي الذي يعبق بروث الماعز والفحول • كان قد عاد لتوه من الحرب حيث قاتل كالاسود • صدف ان كنت في حظيرته ، عصر احد الايام ، حين تلقى ثناء مطبوعا على رق بحروف كبيرة حمراء وسوداء ، من « الاخوة الكريتية » في اثينا • كانت تهنئة على أعماله الباسلة تصفه بالبطل •

فسأل المراسل محتدا : « ما هذه الورقة ؟ هل تطاول ماعزي على حقل احدهم من جديد ؟ هل علي ان ادفع تعويضا عن الاضرار ؟ » •

وفتح المراسل الثناء بفرح وقرأه بصوت مرتفع •

ـ قله بلغة عادية لكي أفهم • ماذا يعني ؟

● يعني انك بطل • ان وطنك يرسل لك هذا الثناء وتستطيع ان تحفظه لاولادك ومد الكابتن يده الضخمة : « هاته » • وأمسك بالرق ومزقه •

---

(١) معطف قصير يطرح على الكتف كان يرتديه جنود الاغريق وفرسانهم •

اربا ثم ألقاه في النار تحت وعاء الحليب · « رح وقل لهم انني لـم احارب لكي أتلقى قطعة من الورق · لقد قاتلت لكي اصنع تاريخا » ·

صنع التاريخ ! لقد أحس الراعي الجاهل بدقة بما كان يريد ان يقوله · لكنه لم يعرف كيف يقوله · او ربما انه قاله بأفضل طريقة ممكنة ؟·

حزن المراسل لرؤية الرق الممزق في النار · ونهض الكابتن · ملأ وعاء صغيرا بالحليب وقسم نصف قرص من الجبن وجلب رغيفين من الشعير ثم التفت الى الاخر وقال : « تعال يا اخـــي لا تغضب · كل واشرب وليأخذ الشيطان الثناءات · قل لهم ـ أتسمع ؟ ـ قل لهم انني لا اريد اي جزاء · لقد حاربت لانني كنت اريد ذلك · قل لهم ذلك ·· افعل ما اقوله لك : كل ! » ·

كان في حياتي يومان ساميان · اولهما يوم وطىء الامير جورج ارض كريت والثاني في موسكو بعد ذلك بسنوات عديدة ـ الاحتفال بالذكـــرى العاشرة للثورة الروسية · في هذين اليومـــين احسست ان اجزاء البشر ـ الاجساد والعقول والارواح ـ قابلة للدمار وان الانسانية يمكن ان تعود من جديد ، بعد تجوال دموي رهيب ، الى وحدتها البدائية المقدسة · في حالــة كهذه لا يكون هناك اشياء مثل « انا » و « وانت » و « هو » · كل شيء متحد ، وهذا الاتحاد نشوة صوفية عميقة يفقد الموت فيها منجله ولا يعود موجودا · نحن نموت ، فرادى ، واحدا بعد الاخر لكننا ، مجتمعين ، خالدون · كالابناء المسرفين ، بعد الكثير من الجوع والظمأ والعصيان ، نمد أذرعنا ونعانق ابوينا : الارض والسماء ·

بدموع فائضة حفرت طريقها بين لحاهم الحربية ، قـذف القباطنـة الكريتيون بمناديلهم في الهواء ، ورفعت الامهات ابناءهن عاليا لكي يتمكنوا من رؤية العملاق الاشقر ، هذا الامير الاسطوري الذي سمع آلام كريت منذ قرون ، فامتطى جواده الابيض مثل القديس جـورج ، وانطلق ليحـــرر الجزيرة . كانت العيون الكريتية بيضاء زجاجية بعد ترقبها قرونــا على البحر · هذا هو ! لا · لم يظهر بعد لكنه قد يظهر في اية لحظة ··· احيانا يكون ما يرونه غيمة ربيعية او شراعا ابيض خدعهم ، واحيانا في منتصف الليل يكون حلما · لكن الغيمة تتبعثر والشراع يغيب · ويتبخر الحلم.ومرة اخرى يثبت الكريتيون عيونهم شمالا على اليونان على موسكوفي علــى الاله القاسي بطيء الحركة ·

والان ، انظروا · زلزلت كريت بأكملها ، وانفتحت قبورها وانـدفع الصوت من قمة بسيلوريتي « انه آت ، لقد وصل ، تطلعوا اليه » · وتدحرج العجائز بجراحهم العميقة ومسدساتهم الفضية من الجبال ، وجاء الشبان

بخناجرهم ذات القبضات السوداء وربباتهم الرنانة ، وقرعت الاجراس من الابراج المرتعشة • وزينت المدينة في كـل مكان بسعف النخيل واغصان الريحان ، ووقف القديس جورج بشعره الجميل على محفة مكللة والبحر الكريتي كله يتلألأ وراء كتفيه •

رقص الكريتيون وغنوا في الحانات : شربوا وعزفوا علـى الربابات لكنهم لم يرتاحوا • ولعجزهم عن التواؤم اكثر من ذلك داخل اجسادهم أمسكوا بالسكاكين وراحوا يطعنون انفسهم في الاذرع والافخاذ لكي يتدفق الدم ويرتاحوا • وفي الكنيسة وقف المطران بيدين مرفوعتين تحت القبـة وحدق الى البانتوكريتر Pantocrator كـان يريد ان يعظ لكن حنجرته تحشرجت • فتح شفتيه وصاح : « المسيح قام يا ابنائي » ، ولم يستطع ان يقول شيئا اخر • « حقا قام ! » وتردد الصوت من كل صدر واهتزت الشمعدانات العظيمة في الكاتدرائية كأنما بتأثير هزة أرضية •

كنت صغيرا وساذجا في ذلك الحين : ولم تتلاش النشوة المقدسة في داخلي حتى مرور وقت طويل – وربما لم تتناقص الى اليوم • فحتى الان ، في اعمق لحظات سعادتي – حين ارى البحر او السمـاء المليئة بالنجوم او شجرة لوز مزهرة او حين استعيد تجربتي الاولى مع الحب – فان التاسع من كانون اول ١٨٩٨ ، اليوم الذي وطىء فيه امير اليونان ، الذي وضعت كريت ثقتها به ، التراب الكريتي ، يسطع في اعماقي دون توقف ، وتتزين اعماق القلب بالغار والرياحين مثل كريت كلها في ذلك اليوم •

اخذني والدي من يدي بعد الظهر بقليل بينما كانت ميغالو كاسترو ما تزال تزأر مغتبطة • ونحن ندوس الرياحين والغار اجتزنا الشارع الرئيسي بطوله ثم مررنا بالبوابة الحصينة وانطلقنا الى الحقول • كان الفصل شتاء ، لكن النهار كان لطيفا ودافئا وكانت شجرة لوز وراء السياج قد تفتحت عن اولى زهورها • وبدأت الحقول تخضر ، مخدوعة بحلاوة الطقس ، بينما من بعيد على يسارنا كانت جبال سيلينا تتلامع بذرى مغطاة بالثلج • وعلى الرغم من ان الدوالي كانت ما تزال اغصانا مشذبة فان زهرة اللوز ، المتفتحة ببهاء في الطليعة ، كانت قد بدأت تعلن قدوم الربيع ، وان الاغصان المشذبة سوف تتفتح مرة ثانية لتحرر العناقيد البيضاء والسوداء من داخلها •

مر بنا رجل ضخم محمل بأغصان الغار • وحين رأى والدي توقف وهتف : « المسيح قام يا كابتن ميخائيل ! » •

فأجاب والدي وهو يضع يده على قلبه « كريت قامت ! » •

وتابعنـا طريقنا • كـان والـدي علـى عجـل وكان علـي ان اركض للحـاق بـه •

سألته وانا ألتقط أنفاسي : « الى اين نذهب يا أبي ؟! » ٠

ـ لنرى جـدك ٠ امش ٠

وصلنا الى المقبرة ٠ دفع والدي البوابة وفتحها٠ فوق البوابة رسمت جمجمة فوق عظمين متقاطعين يشكلان حرف x الحرف الاول مــن الكلمة اليونانية ـ المسيح ـ الذي قام من الموت ٠ تقدمنا يمينا تحت اشجار السرو ، ونحن ندوس القبور الواطئة ذات الصلبان المكسورة والتي لا قناديل عليها ٠ كنت خائفا من الموتى فتمسكت بسترة والدي ولحقت به وانا اتعثر ٠

وقف والدي قرب احد القبور الواطئة ـ كومة صغيرة من التراب وعليها صليب خشبي كان الاسم ممحوا بفعل الزمن ٠ ازاح منديله ونزل بوجهه على الارض ٠ نبش التراب بأظافره وفتح كوة صغيرة على هيئة بوق ٠ ادخل فمه فيها الى اعمق ما استطاع وصرخ ثلاث مرات : « ابي ٠ لقد جاء ! ابي لقد جاء ! أبي لقد جاء ! » ٠

وارتفع صوته اكثر فأكثر حتى تحول الى خوار ٠ ثم تناول زجاجة خمر صغيرة من جيبه وسكبها قطرة بعد قطرة في الفتحة وهو ينتظر كل قطرة ان تنزل وان تشربها الارض ثم قفز واقفا ورسم شارة الصليب علــى نفسه ونظر الي ٠ كانت عيناه تلتمعان ٠ سألني : « هل سمعت ؟ » ٠ كان صوته أجش من الانفعال : « هل سمعت ؟ » ٠

ظللت صامتا اذ انني لم أسمع شيئا ٠

وقال والدي غاضبا : « ألم تسمع ؟ لقد طقطقت عظامه » ٠

□

كلما تذكرت ذلك اليوم أشكر الله على انه سمح بولادتي ٠ واشكـره على انه سمح بولادتي كريتيا وفي وقت استطعت فيه ان أرى ، بعيني ، الحرية وهي تسير فوق الغار وتصعد من بوابة الميناء الى مذبح القــديس ميناس ٠ كم هو مخجل ان عيني الانسان من طين فلا تستطيعان اكتنــاه اللامرئي ٠ في ذلك اليوم كنت سأرى القديس ميناس وهو يقفز من ايقونته ويقف بباب الكنيسة ثم يمتطي جواده ، والدموع تنهمر على خديه اللذين لوحتهما الشمس ولحيته البيضاء وهو ينتظر امير اليونان ٠

بعد أن تم كبح جماح الغبطة ، وبعد ان جاءت ريح جنوبية قوية بعد ايام قلائل وكنست ، كما اذكر ، أوراق الغار من الشوارع ، وبعد ان هطل المطر المنعش وغسل الخمر المهدور عن الارصفة ، عادت الحياة الى تعقلها من جديد ، وانكمشت عقولنا عائدة داخل حدودها : أزال الحلاقون اللحى عن اراضي حوانيتهم وصارت وجوه المسيحيين الحليقة ملساء ولامعة ٠ وبين

الحين والحين ظلت بعض الصرخات المتأخرة تصعد بخشونة من الحانات ·
اما انا فكنت اجوب الازقة مبللا بالمطر وكلما رأيت الشوارع امامي خالية صرخت وزعقت لكي ارتاح · وكانت آلاف من الاجيال في داخلي تصرخ وتزعق لترتاح ·

لم يسبق لي ان احسست بهذا العمق ان اسلافنا الراحلين لم يموتوا ، وانهم في اللحظات الحاسمة يصرخون ويقفزون على أقدامهم ويستولون على عيوننا وأيدينا وعقولنا · وخلال تلك الايام كان كل أجدادي الذين قتلهم الاتراك وكل جداتي اللواتي عذبهن الاتراك بتمزيق صدورهن ، يصرخون مغتبطين كلما خلا الشارع وحيث لا يراني احد · كنت سعيدا لانه كان لدي حدس ، لم اكن استطيع التعبير عنه بوضوح كما انا الان ، بأنني ، انا ايضا ، سوف اعيش وسوف استطيع ان افكر وان ارى حتى بعد أن اموت · كل ما كان مطلوبا هو الوجود المستمر لقلوب تتذكرني ·

□

من خلال ذلك المدخل ، تلك البوابة المزينة بالغار وبعظام الاسلاف دخلت سنوات نضجي · ولم أعد طفلا ·

١٣ ـ متاعب النضوج

قضيت سنوات نضجي تكتنفني المتاعب المألوفة للشباب • استيقظ في داخلي وحشان هائلان : ذلك النمر الذي اسمه اللحم ، وذلك النسر النهم الذي يلتهم احشاء الانسان وكلما اكل ازداد جوعه ـ العقل •

حين كنت ما ازال صغيرا جدا ، لم اتجاوز الثالثة او الرابعة من العمر ، كان يهيمن علي فضول عنيف لحل لغز الولادة • سألت امي وخالاتي : « كيف يولد الاطفال ؟ وكيف يدخلون البيوت بغتة ؟ من اين يأتون ؟ » وخمنت انه لا بد من وجود بلد اخضر ، ربما الفردوس ، حيث ينتشر الاطفال مثل الخشخاش (١) • وبين حين واخر يدخل اب الى الفردوس ويلتقط واحدا ويجلبه الى البيت • قلبت هذه الفكرة في راسي مرارا وتكرارا دون ان اثق بها كثيرا • اما امي وخالاتي فاما انهن لم يعرفن كيف يجبنني واما ان يحكين لي خرافات • لكنني كنت افهم اكثر مما ظنن ، واكثر مما ظننت انا نفسي ، ولم أصدق حكاياتهن •

وذات يوم ، في تلك الفترة ذاتها ، ماتت جارتنا مدام كاتينا رغم انها كانت ما تزال شابة • وحين رأيتها تخرج من بيتها ممددة على ظهرها ووراءها مجموعة كبيرة من الناس تحولوا بسرعة الى زقاق واختفوا ، تملكني الرعب • « لماذا يأخذونها ؟ » سألت « الى أين يجلبونها ؟ » وقيل لي : « لقد ماتت » • « ماتت ؟ ما معنى هذا ؟ » لكن احدا لم يقدم لي تفسيرا • جثمت في الزاوية وراء الاريكة وغطيت وجهي بوسادة ثم رحت ابكي ، لا حزنا او خوفا ، بل لانني لم افهم • وحين مات معلمنا كراساكيس بعد

---

(١) نبات مخدر يصنع منه الافيون او يزرع للزينة .

سنوات لم يكن الموت يدهشني في ذلك الحين . أحسست انني فهمت ما هو؛ ولـم اسـأل .

هذان الامران : الولادة والموت ، كانا اول الالغاز التي اقلقت روحـي . وظللت اضرب بقبضتي الصغيرة على هذين البابين المغلقـين لافتحهما . ورأيت انني لا استطيع ان اتوقع العون من احد . كلهم اما ان يظلوا صامتين واما ان يضحكوا مني . كل ما كان علي ان اتعلمه يجب ان اتعلمه بنفسي .

بالتدريج بدأ اللحم يستيقظ ايضا . ومملكتي ، التي كانـت مؤلفة من الغيوم والهواجس ، بدأت تتصلب . كنت التقط حديث الشارع . ورغم انني لم أكن افهم ، بوضوح ، ما كانت تعنيه هذه التعابير التي ألتقطها ، فان بعضها كان يبدو مليئا بالسر وبالمادة المحرمة . وهكذا كنت ابعثرهـا واثبتها في عقلي واعيدها مرة بعد اخرى ـ لنفسي دائما ـ لكي لا انساها . ولكن احدها ، ذات يوم ، افلت مني ، تلفظت به بصوت مرتفع امام والدتي ، فأجفلت خائفة . وصرخت :

● من علمك هذه الكلمة البذيئة ؟ لا تقلها بعد الان .

ثم ذهبت الى المطبخ وجلبت بعض الفلفل المطحون وفركت فمي به . بدأت ازعق . التهب فمي ولكن بين لحظة واخرى ، نكاية بها ، كنت اقسم سرا انني سوف اتابع التلفظ بهذه الكلمات ولو بيني وبين نفسي ذلك انني احسست بمتعة كبيرة من لفظها .

ومنذ ذلك الحين صارت كل كلمة ممنوعة تحرق شفتي وتفوح منها رائحة الفلفل ـ وحتى الان بعد سنوات كثيرة وخطايا كثيرة .

□

تلك الايام الموغلة في القدم في كريت كان البلوغ يتأخر كثيرا . فللاحمرار خجلا في الاعماق كان البلوغ يجهد ان يتخفى وراء مختلف انواع الاقنعة . واول هذه الاقنعة ، بالنسبة لي ، كان الصداقة ، عاطفة نحو زميل مدرسة غير متميز ، والحقيقة انه كان اقل زملائي تميزا . ولد صغير وبدين ومقوس الساقين بجسد قوي وثقيل دون اية ذرة من الفضول العقلي . كنا نتبادل يوميا رسائل لاهبة . وان مر يوم واحد دون ان أتلقى منه رسالة كنت احس بالتأنيب واحيانا ابكي . وتعودت ان اتسكع حول بيته واختلس النظر اليه ويخفق قلبي كلما رأيته يظهر . لقد استيقظ لحمي الا انه لم يعـرف بعد الملامح التي سيعطيها لرغباته ولم يكن يعرف بعد بشكل جيد ما يميـز الذكر من الانثى . اضافة الى ان الترافق مع ولد كان اقل خطورة بكثير مـن

الترافق مع فتاة وأكثر منطقية • وكلما واجهت امـرأة كنـت احس بنفور غريب ممزوج بالخوف • واذا هبت الريح ورفعت طرف ثوبها قليلا كنت احول وجهي عنها فورا وانا احمر من الخجل والسخط •

وذات يوم ـ لا بد ان الوقت كان ظهرا لان الشمس كانـت لاهبـة ـ كنت اسير في زقاق ضيـق ومظلل متجها الـى البيت • وبغتة ظهرت امرأة تركية في الجانب الاخر من الشارع • وحين مرت امامي فتحت قميصها قليلا واظهرت نهديها العاريين • وخارت ركبتاي تحتي • وفيما انا اجر خطواتي نحو البيت اتكأت على الحوض وتقيأت •

بعد سنوات عديدة عثرت على رسائل صديقي في درج مهمل فخفت • يا الهي ! اية حماسة وأي هراء • دون ارادة مني ودون وعي للمسألة كـان هذا الزميل الإليف المتشكل بجلافة قد اصبح قناعا يخفي النساء عني عددا من السنوات • ولا شك انني كنت الشيء ذاته بالنسبة له مؤخراً ، قليلا ، اللحظة الحاسمة التي سيسقط فيها في فخ رهيب لامرأة • وعلمت انـه قـد سقط صدفة ـ سقط وتلاشى •

وذات صيف خلال العطلة ، شكلت وهذا الصديق بالاضافة الى زميل آخر : فتى مزموم الشفتين بعينين خضراوين مزرقتين وأطراف دقيقة ، « جماعة صداقة » جديدة • كنا نعقد اجتماعات سرية ، ونتبادل الأيمـان ونوقع على قائمة من القوانين ، وننذر حياتنا لهذا الهدف : ان نشن حربـا عنيدة ضد الزيف والعبودية والظلم لا ينتهي الا بالموت • كان العالم يبدو لنا زائفا وظالما ومضللا • والتزمنا بانقاذه ـ نحن الثلاثة • عزلنا أنفسنا عن زملائنا الاخرين ورحنا نتجول معا • رسمنا خططا لتحقيق هدفنا وتوزعنـا قطاعات الحرب • كان المفروض انني سأكتب تمثيليات ، وصديقي سيعمل ممثلا ويقدمها اما الثالث ، الذي كان موبـوءا بالرياضيـات ، فسيدرس الهندسة ويخترع اختراعا عظيما ليزيد من ثروة « الجماعة » ويمكّننا مـن مساعدة الفقراء والمضطهدين •

وفي الوقت ذاته ، والى ان تحين تلك اللحظة العظيمة ، كنا نبذل ما في وسعنا للبقاء ملتزمين بأيماننا • لم نكن نكذب وكنـا نضرب كل الاولاد الاتراك الذين نصادفهم في الازقة النائية • واستبدلنـا ياقاتنا وربطاتنا بقمصان داخلية مخططة بالازرق والابيض ، ألوان العلم اليوناني •

في الميناء ، مساء احد ايام الشتاء ، لمحنا عامل تحميل تركيا عجـوزا منزويا في زاوية وهو يرتجف • كان الظلام قد هبط ولم يكن احد يرانا • خلع احدنا قميصه الداخلي ، والاخـر قميصه الخارجـي والثالث صدارتـه •

واعطيناها للرجل · كما اننا كنا نريد ان نعانقه غير اننا لم نجرؤ · ثم مضينا مزعوجين وخجلين لاننا لم نؤد واجبنا كاملا ·

اقترح صديقي : « فلنرجع لنجده » ·

ـ عظيم · فلنذهـب ·

رجعنا راكضين وبحثنا عن الحمال العجوز بغية معانقته لكنه كان قد ذهــب ·

وفي يوم اخر سمعنا ان محاميا كاستريا شهيرا قد خطب صبية ثرية ، وكان الزواج سيتم يوم الاحد · وفي الوقت ذاته وصلت سيدة اخرى مــن اثينا · كانت فقيرة لكنها جميلة جدا · وكانت حبيبة المحامي ايام دراسته في الجامعة وقد وعدها بالزواج · ما ان سمعت بهذه الفضيحة حتــى دعوت اعضاء « جماعة الصداقة » الى اجتماع · اجتمعنا ، نحن الثلاثة ، في غرفتي ونحن نغلي غضبا · وبناء على قوانين جمعيتنا وجدنا انه من المستحيل ان نتساهل مع ظلم من هذا النوع · وبعد نقاش ساعات حول الاجراءات التي سنتخذها وصلنا اخيرا الى قرار : ثلاثتنا سنقدم أنفسنا امــام المطــران وسنشجب مقترف هذا الاثم · وبالاضافة الى ذلك وجهنا رسالة الى المحامي بتوقيع « جماعة الصداقة » نهدده فيها انه ان لم يتزوج دوروثي (كان هذا هو اسم الاثينية) فسيدفع ثمن ذلك امام الله وأمامنا ·

مرتدين أجمل ملابس الاحد قدمنا انفسنا للمطران ، كان عجوزا ضعيفا مصدوراالكنه كان كتوما كما يليق به · وعلى الرغم من ان جهد الكلام كـان يجعله يشهق كي يتنفس فان عينيه توهجتا كالجمر · كانت الايقونة المعلقة فوق مقعده تحمل صورة مسيح متورد الوجنتــين حسن التغذيــة ذا شعر مفروق · وكانت صورة منقوشة في الحجر كبيرة تمثل القديسة صوفيا معلقة على الجــدار المقابل ·

سألنا : « ما الذي يدور في رؤوسكم يا أولاد؟ » وهو يتطلع الينا مدهوشا·

« ظلم كبير يا محترم » ثلاثتنا رحنا نصرخ لاهثين بصوت واحد لكي نتشجع « ظلم كبير يحدث » ·

سعل المطران وبصق في منديله وقال بلهجة ساخرة : « ظلم كبير ؟ وهل هذا من شأنكم ؟ انتم تلاميذ · أليس كذلك ؟ يجب ان تنتبهوا لدروسكم » ·

« يا محترم ··· » بدأ صديقي الذي كان افضل خطيب في المجموعة ، ثم حكى الفضيحة المعروفة بأكملها · وختم كلامه بقوله : « لن نستطيع النوم ولن نستطيع الانتباه لدروسنا يا محترم ما لم تتم ازالة هذا الظلم · المحامي يجب ان يتزوج دوروثي » ·

سعل المطران ثانية ولبس نظارتيه وتأملنا طويلا • بدا لنا ان حزنا غريبا قد ارتسم على وجهه • وانتظرنا ، نحن الثلاثة ، بألم • واخيرا فتح شفتيه وقال : « انتم صغار • ما تزالون اطفالا ولا ادري ما اذا كان الله سيمد في عمري لأرى كيف ستنظرون الى الظالم بعد خمسة عشر او عشرين عاما » •

ثم صمت قليلا وبعدها تمتم وكأنه يحدث نفسه « بهذه الطريقة بدأنا كلنا » •

وعلقت على هذه النقطة وقد رأيت انه يغير الموضوع : « يا محترم • ما الذي علينا ان نفعله لنحول دون وقوع هذا الظلم ؟ قدنا • حتى لو طلبت الينا ان نلقي انفسنا في فرن مضطرم فانني وصديقي سنفعل ذلك طالما ان هذا ينصر العدل » •

نهض المطران • وقال وهو يناولنا يده لنقبلها : « اذهبوا الان ومعكم بركاتي • لقد أديتم واجبكم • وهذا يكفي • الباقي علي » •

انصرفنا كأسعد ما نكون • وهتف صديقي : « انجاز عظيم يا جماعة الصداقة » • وهو يلف بذراعيه العضو الثالث وانا ، وكنا نسير على جانبيه •

ذلك الاحد تزوج المحامي الصبية الثرية • وعلمنا فيما بعد ان المطران قد حكى عن زيارتنا وسخطنا لاصدقائه كلهم بحديث ممزوج بالضحك •

□

قرأنا الروايات التي وقعت بين ايدينا كلها • والتهبت عقولنا • وتلاشت الحدود بين الواقع والخيال وبين الحقيقة والشعر • وبدا لنا ان روح الانسان قادرة على الالتزام بكل شيء وانجاز كل شيء •

ولكن كلما احسست ان عقلي يتفتح ويزيح حدود الحقيقة ، أحسست ان قلبي يمتلىء ويفيض بالالم • كانت الحياة تبدو لي ضاغطة بشدة • ولعجزي عن التلاؤم معها صرت اتوق للموت • هذا هو الشيء الوحيد الذي بدا لي بلا حدود وبالتالي فهو قادر على احتوائي • وذات يوم ، اذكر انه كان يوما مشمسا واحسست ان جسدي معافى ومرتاح اقترحت على صديقي ان نقتل انفسنا • كنت قد كتبت رسالة مليئة باليأس ، نوعا من الوصية ودعت فيها العالم • لكن صديقي رفض ولم تكن لدي الرغبة في الرحيل بمفردي •

هيمن علي هذا الالم غير المحدد وغير المفهوم حتى جاء يوم أصبح فيه

صديقي لا يحتمل بالنسبة لي · صرت اخرج وحيدا في المساء الباكر للتمشي قرب الجدران الفينسية المطلة على الامواج ·

كم الطقس رائع ! ويا له من نسيم يجري منعش ! والصبايا اللواتي يتمشين باشرطتهن الحريرية المتدلية من شعورهن المنسابة ، والتركيات الصغيرات الحفايا ينادين لبيع الياسمين والبزر المحمص Passatempo باصوات فتيات لطيفات ، وباربالاريس يرتب الموائد والكراسي في المقهى فوق البحر حيث يستطيع الرجال المحترمون ان يجيئوا مع زوجاتهم ؛ والمخطوبون مع خطيباتهم ، لطلب القهوة وشراب اللوز (١) Orgeat وملعقة من المربى ، وهم في اتم راحة وهناء يرقبون مغيب الشمس ·

لكنني لم أكن ارى شيئا ـ لا البحر الواسع الهادىء ولا القمة البهية لجبل اغيا بيلاغيا البعيد ولا سترومبولاس ، الجبل الهرمي الذي فيه (كنيسة المصلوب) ، كالبيضة البيضاء الصغيرة في قمته · ولا الشبان مع خطيباتهم ، كانت عيناي غائمتين بالدمع ، دمع لا علاقة له بأي حزن شخصي ، لان روحي كانت مهتاجة بالسرين الذين افصح لنا عنهما معلم الفيزياء ذلك العام ، واظن ان الجروح التي اوقعها قد قرحت منذ ذلك الحين ·

كان السر الاول ، السر الرهيب بحق ، هو ان الارض ، على عكس ما كنا نعتقد ، ليست مركز الكون ، فالشمس والسموات المليئة بالنجوم لا تدور مذعنة حول الارض · فكوكبنا ليس شيئا · انه مجرد نجم صغير تافه ملقى دون اكتراث في المجرة ، وهو يدور حول الشمس بعبودية · ان التاج الملكي قد سقط عن رأس الارض ، أمنا ·

هيمن علي الخزي والمرارة · فنحن ، مع امنا ، قد سقطنا من مكاننا المتصدر في السماء · بمعنى اخر ان ارضنا لا تقف كسيدة ثابتة وسط السموات ، والنجوم تحوم حولها باجلال · بل هي التي تجول وسط اللهب العظيم في الهيولى وضيعة ومطاردة الى الابد · فالى اين تذهب ؟ الى حيث تقاد ، مشدودة الى سيدها ، الشمس (٢) ، وتتبعه · ونحن ايضا مشدودون· نحن ، ايضا ، عبيد · ونحن ايضا نتبع · كذلك الشمس : هو الاخر مشدود ويتبع · يتبع من ؟·

باختصار ، اية خرافة كان معلمونا ، دون حياء ، يهذرون بها حتى

---

(١) شراب غير مسكر ·
(٢) الشمس مذكر ·

الان ـ ان الله قد خلق الشمس والقمر زينة للارض وانه علق السماء ذات النجوم فوقنا كمشكل يمنحنا الضوء ٠

كان هذا الجرح الاول ٠ اما الثاني فهو ان الانسان ليس الاثير عند الله ، وليس مخلوقه المفضل ٠ فالله لم ينفخ في منخريه نفس الحياة ، ولم يعطه الروح الخالدة ٠ انه ، مثل بقية المخلوقات،حلقة في السلسلة اللامتناهية من الحيوانات ، هو حفيد او حفيد احفاد القرد ٠ فان انت قشطت قناعنا قليلا ، ان قشطت روحنا قليلا ، ستجد تحتها جدتنا القردة ٠

كان سخطي ومرارتي لا يحتملان وبدأت اقوم بمشاوير وحدي على الشاطيء او عبر الحقول ، أسير فيها بسرعة لكي اتعب نفسي واحاول ان انسى ٠ ولكن كيف لي ان انسى ؟ كنت اسير واسير حاسر الرأس وقميصي مفتوح الصدر ذلك انني كنت اختنق ٠ لم خدعنا طوال تلك السنوات ؟ كنت اسأل نفسي وانا اسير ٠ ولم اقيمت العروش الملكية للبشر ولامنا الارض ثم لتسحب من تحتنا بعد ذلك ؟ أكان هذا يعني ان الارض لا قيمة لها واننا نحن البشر لا قيمة لنا وان يوما سيأتي سوف نتلاشى فيه كلنا ؟ لا ٠ لا ٠ كنت اصرخ لنفسي ، انا ارفض قبول هذه الفكرة ٠ يجب ان ندق باب مصيرنا وندقه الى ان يفتح ٠ وتتم نجاتنا ٠

ولعجزي عن تحمل الامر اكثر من ذلك بحثت ذات مساء عن استاذ الفيزياء الذي أفضى لنا بهذه الاسرار ٠ ذهبت الى بيته ٠ كان ذا ملامح مشمئزة ولا يتحدث الا بقدر ، ولكن بطريقة جارحة ولاذعة دائما ٠ كان فطنا دائما وحاقدا دائما بعينين باردتين وشفتين مطبقتين مليئتين بالسخرية ٠ وكان بجبهته الضيقة وشعره الذي يكاد انيصل الى حاجبيه شبيها ، فعلا ، بالقرد ـ بقرد مريض ٠ وجدته متمددا في كرسي مخلع وهو يقرأ ٠ نظر الي وبدا أنه قد فهم مشكلتي ذلك انه قابلني بابتسامة ساخرة ٠ وسأل :

« فيم هذه الزيارة ؟ لا بد ان لديك امرا هاما في رأسك ؟ » ٠

فقلت لاهثا : « اعذرني لازعاجك لكنني اريد ان اعرف الحقيقة » ٠

ـ « الحقيقة ! » أجاب المعلم ساخرا ٠ « أهذا كل شيء ! انك تطلب الكثير ايها الشاب ٠ اية حقيقة؟» ٠

ـ انه اخذ التراب ونفخ ٠٠٠

● من ؟

ـ الله ٠

وامتشقت نفسها من بين شفتيه الضيقتين الرقيقتين ضحكة حاقدة جافة وعاجلة . ورحت انتظر . لكن المعلم فتح صندوقا صغيرا واخرج منه قطعة من الحلوى ثم راح يمضغها . وخاطرت بسؤاله : « ألن تجيبني يا سيدي ؟ » .

- نعم . سأجيبك . رد علي وهو ينقل الحلوى من حنك الى حنك .

ومر وقت . ثم غامرت من جديد : « متى ؟ » .

- بعد عشر سنوات وربما عشرين سنة . بعد ان يكون عقلك القزم قد اصبح دماغا حقيقيا . اما الان فما يزال الوقت باكرا جدا .هيا الى بيتك !

وودت لو اصرخ ان اشفق عليّ يا سيدي وقل لي الحقيقة ، الحقيقة كلها . لكن حلقي كان مسدودا .

وأعاد المعلم كلامه « هيا الى بيتك » وأشار الى الباب .

في طريق عودتي قابلت عند منعطف الشارع الارشمندريت الذي كان معلمنا في الديانة . وهو رجل ساذج ومقوس بدين وثقيل السمع . وكان منغمسا في حب امه العجوز التي كانت تعيش في قرية صغيرة بعيدة عن كاسترو . وكان يحكي لنا دائما بعينين دامعتين انه قد رآها في حلمه . لم يكن لديه الكثير من العقل المتزن وبسبب براءته العظيمة فقد قل هذا القليل الذي لديه فكان كلما قرع الجرس معلنا نهاية الحصة يتردد عند المخرج قليلا ثم يستدير ويطلب منا راجيا بصوت عذب « قبل كل شيء ، يا ابنائي ، اجهدوا ان تخلدوا جنسكم » وكنا ، ونحن نتقلب من الضحك ، نرفع أصواتنا عاليا لكي يسمع « لا تقلق يا سيدي لا تقلق » . لم أكن احب هذا المعلم ابدا . كان أبله كالنعجة.وكان عقله يثغو مبتعدا وغير قادر على تهدئة خواطرنا المبلبلة . وذات يوم كان يشرح لنا قانون الايمان المسيحي فرفع اصبعه واعلن بلهجة منتصرة : « هناك اله واحد - واا احد - ذلك ان العقيدة تقول : « أؤمن باله واحد » ولو كان هناك اثنان لقالت العقيدة « أؤمن بالهين اثنين » . حزنا من اجله ولم يكن لدى احدنا من الشراسة ما يدفعه للاعتراض .

وفي يوم اخر وجدت انه من المستحيل ان اكبح نفسي . كان يعلمنا عن قدرة الله الكلية . فرفعت قلمي وسألت : « استاذ . هل الله قادر على افناء حقيقة ان هذا القلم كان موجودا ؟ »

وتحول وجه الارشمنديت المسكين الى احمر قان . فكر قليلا مجاهدا للوصول الى جواب . واخيرا ، وقد عجز ، امسك بصندوق القرعة وقذف به في وجهي . فقفزت واقفا وقلت له بجدية متغطرسة : «هذا ليس جوابا .»

طردني من الصف ثلاثة ايام وفي المساء ذاته ذهب لرؤية والدي . قال

له : ابنك وقح ومتحلل · ستكون لهذا الولد نهاية وخيمة · يفضل ان تشد رسنــه ·

– وماذا فعــل ؟

كذا وكذا · وحكى الارشمندريت القصة بكاملها · فهز ابي كتفيه · « انا لا هتم الا اذا كذب او اكل قتلة · اما ما تبقى فهو الان رجل · فليفعل مــا يحــب » ·

كان هذا ، اذن ، الارشمندريت الذي التقيت به في الشارع · وحالما رأيتهَ التفت برأسي الى الاتجاه الاخر لكي لا اضطر لتحيته · ففي تلك اللحظــة كنت ثائر الاعصاب · لقد عرفت الان اخيرا انه هو واشباهه كانوا يسخرون منا منذ سنوات ، يسخرون منا في هذا الجانب من المسعى الانساني والذي كان اكثرها قداسة ·

يا لتلك الايام التي مزقت هاتان اللمعتان الخاطفتان عقلي – ويا لها من ليال ! لعجزي عن النوم كنت أقفز من فراشي في منتصف الليل وانزل السلم ببطء شديد لئلا تطقطق درجاته وتفضحني وافتح باب الدار ثم اندفع الى الشارع · لا احد على مرمى النظر والابواب مغلقة والاضواء تخفت · كنت اتجول عبر ازقة كاسترو الضيقة مصغيا باهتمام الى الانفاس الهادئة للمدينة النائمة · وكنت احيانا ارى بعض العشاق وهم يغنون السيرانــدا على الغيتار والمزمار تحت النوافذ المغلقــة ، اغانــي الحرمان المتــرعة ، بالشكوى والابتهال وهي تنحدر من الأسطحة · وتسمع الغناء كلاب الجيران وتستيقظ وتبدأ بالنباح · لكنني كنت احتقر الحب والنساء ، وكنت اظل اسأل نفسي ، كيف يستطيع الناس ان يغنوا وكيف يتأتى لهم ان لا تكون قلوبهم منشغلة بما هي طبيعة الله ، ومن اين اتينا ، والى اين نحــن ذاهبون ؟ اعبرهم باسرع ما استطيع حتى اصل الى المكمن حيث اعود الى التنفس بحرية · البحر الفاحم السواد يرعد تحتي غاضبا ويندفع بوحشية الى الاستحكامات ويلتهمها · كان الرذاذ يعلو الجدار ويرش جبيني وشفتي ويدي وينعشني · كنت اقف فوق المياه ساعات وانا احس انها ، هي وليست الارض ، أمي·وان البحر وحده يمكن ان يفهم قلقي لانه يشاركني القلق ذاته فهو الاخر عاجز عن النوم · يضرب البحر صدره ويصدم الشــواطىء فيصدم بالمقابل · وفي بحثه عن الحرية يجاهد لتقويض الحواجز التي تبدو أمامه بغية تجاوزها · اما الارض الجافــة فهادئــة وامنة ، طيبة القلب ومكافحة · انها تزهر وتحمل الفاكهة ثم تذوي لكنها لا تخاف فهي امنة في معرفتها ان الربيع ، شاء ام ابى ، سوف ينهض من التراب · أمي البحر

ليست (١) ، بأية حال ، امنة . انها لا تزهر ولا تحمل فاكهة بل تتنهد وتناضل ليلا ونهارا .

كنت أسمعها وكانت تسمعني وكان كل منا يطيب خاطر الاخر ويشجعه حتى يقترب الفجر . وعندها ، وخشية ان يرانا الناس المستيقظون ، كنت أعود الى البيت مسرعا وأستلقي في سريري . وكانت غبطة مالحة ومرة تطوّف في جسدي كله . فرحت لانني لم أكن مصنوعا من التراب بل من مياه البحر .

كان لدى احدى جاراتنا قردة : مخلوق وقح بمؤخرة حمراء وعينين انسانيتين . كانت هذه الجارة قد رافقت أحد البكوات في الاسكندرية وقد أعطاها هذه القردة للذكرى . كنت أراها جاثمة على كرسي قرب باب دارها كلما مررت وكانت دائما تقشر الفول وتهرش جسدها لتتخلص من القمل . في الماضي كنت أقف لاتفرج عليها وأضحك . كانت تبدو لي كاريكاتيرا عن الانسان ، ومخلوقا وقحا ومرحا وخاليا من الاسرار - وربما كان الناس ينظرون اليها دون اهتمام ثم يضحكون . أما الان فقد ارتعبت. صرت أغير طريقي لكي لا تقع عيني على هذا المخلوق . أكانت هذه جدتي ؟ انها تهين الانسان . وبخجل وغضب أحسست أن مملكة في أعماقي تتقوض وتصبح حطاما .

هذه جدتي الاولى ؟ هذه جذوري ؟ بمعنى إخر : أصحيح أن الله لم يحملني ولم يصغني بيديه وينفخ من أنفاسه في منخري ؟ وهل ولدت من قرد فنما سائله المنوي من قردة الى قردة ؟ بمعنى اخر : أأنا لست ابن الله بل ابن قردة ؟

دام خزيي وتحرري من وهمي شهورا . ومن يدري ؟ ربما داما حتى الان . فعلى الطرف الاول من الهوة كان يقف القرد وعلى الطرف الثاني الارشمندريت وكان هناك خيط ممدود بينهما فوق الهاوية وأنا أسير على هذا الخيط خائفا محاولا أن أتوازن . كان ذلك وقتا صعبا بالنسبة لي . جاءت العطلة واعتزلت داخل البيت مع كمية كبيرة من الكتب المستعارة عن الحيوانات والنباتات والنجوم وظللت منكبا عليها ليلا ونهارا مثل انسان يقتله الظمأ ثم ينكب على ينبوع لكي يشرب . لم أكن أخرج من البيت . وبشكل مقصود كنت قد حلقت نصف شعر راسي حين جاء أصدقائي يدعونني لنزهة معهم فأخرجت راسي من النافذة وأشرت الى نصف الراس المحلوق وقلت : « ألا ترونني ؟ كيف أستطيع الخروج بهذه الحالة ؟ » ثم عدت

---

(١) رأيت ان اعامل البحر كمؤنث في هذين المقطعين لانه يتحدث عنه هنا كأم

الى دراستي من جديد وانا أصغي بفرح لضحكات أصدقائي الساخرة وهم يبتعـــدون ·

كلما كنت أملأ نفسي بالعلم كان قلبي يفيض بالمرارة · وكنت أرفع رأسي لاصغي لقردة جارتنا وهي تزعق · وذات يوم أفلتت من حبلها وجاءت الى دارنا ثم تسلقت الاكاسيا · وحين رفعت عيني رأيتها بشكل مفاجىء وهي تتلصص علي من بين الاغصان · ارتعدت · لم يسبق لي في حيـاتي كلها أن رأيت عيونا آدمية مثلها · كانت عيناها مزروعتين فوقي ، مليئتين بالدهاء والمرح ـ مدورتين وسوداوين وثابتتين ·

أبعدت كتبي وأنا أنهض · صرخت « ليست هذه هي الطريقة · انني أعاكس الطبيعة البشرية · انني أتـرك اللحـم مـن أجل الظل · الحيـاة تحتوي على اللحم الحي واللحم الميت · وأنا جائع ! » انحنيت من النافذة وقذفت للقردة بجوزة · فأمسكت بها وهي في الهواء وكسرتها بين أسنانها والقت بالقشر ثم راحت تمضغها بنهم · وهي تتطلع الي بسخرية وتهمهم · لقد تدربت على شرب الخمر · فأسرعت الى المخـــزن وجلبت ملء كأس ووضعت الكأس على حافة النافذة · وارتعش منخر القردة بحيوية ثم قفزت وجلست على الحافة ومدت بجيزومها في الكأس ثم راحت تشرب وتشرب وهي تمصمص بلسانها راضية ثم ألقت بذراعيها حول كتفي وعانقتني وكأنها لم تكن تريد الانفصال عني · كانت تفوح منها رائحة الخمر واللحم المتسخ · وأحسست بحرارة جسدها في حلقي · ودخلت شعرات من شاربيها في منخري فدغدغتني وجعلتني أضحك · كان جســـدها كله يضغط على جسدي بينما راحت تتنهد كأنها انسان · امتزجت حـرارة جسدينا وراح شهيق القردة يلحق بشهيقي : صرنا صديقين · وفي تلك الليلة حين غادرتني عائدة الى حبلها ، بدت لي تلك المعانقة فألا سيئا · لقد غادر نافذتي ملاك قاتم ، رسول من اله ما ، مكسو بالشعر وله أربعة أقدام ·

في اليوم الثاني نزلت الى الميناء قرابة وقت العشاء رغم ان خطة كهذه لم تكن في رأسي من قبل · وقفت عند حانة يتردد عليها الصيادون وطلبت خمرا مع صحن من الحسحاس (١) المقلي كمازة · ورحت أشرب · لم أكن أعرف ما اذا كنت حزينا أم غاضبا أم سعيدا · كل شيء ـ القردة ، والله ، والسموات المشعة بالنجوم ، والكرامة الانسانية ـ كان مختلطا في أعماقي ، كما لو انني قد أوقفت آمالي على الكحول لكي يقوم بفرزها كلهـــا من أجـلي ·

---

(١) سمك صغير فضي الحراشف .

كان هناك عدد من الصيادين والحمالين يرتشفون خمرتهم بتكاسل في احدى الزوايا وكلهم سكيرون مشهورون ضحكوا حين رأوني ·

قال أحدهم : « ما يزال حليب أمه عالقا على شفتيه ومع ذلك فهو يمثل دور الرجل في البـلدة » ·

قال آخر : « انه يقلد أباه · لكن طريقه طويلة » ·

حين سمعت هذا الكلام اضطرمت غضبا · فصرخت « هيه · يا اصدقاء · تعالوا هنا لاسكركم » ·

اقتربوا وهم يقهقهون · وتابعت املاء الكؤوس حتى الحافة ثم ابتلاعها دفعة واحدة واحدا بعد الاخر ودون طعام الان · نظر الي الرجال مغتاظين · لم نكن نتحدث أو نغني بل اكتفينا بشرب الكؤوس المترعة والتحديق كل منا بالاخرين · منتظرين أن يخضع واحد منا الاخرين · لقد التهب اعتزازهم الكريتي · خجل هؤلاء المدمنون ذوو الشوارب ان يهزمهم شاب لم تنبت لحيته بعد · ومع ذلك فقد تهاووا الى الارض واحدا بعد الاخر بينما أنـا وحدي بقيت صاحيا · من الواضح أن ألمي كان شديدا حتـى استطاع أن يتغلب على الخمر ·

وحدث الامر ذاته في اليوم التالي والذي بعده · وصرت معروفا في كاسترو كلها كسكير يصاحب في كل ليلة الصيادين العاطلين وحمالي الشاطىء ·

فرح أصدقائي وهم يرونني أنزل الهضبة راكضا · فقد عجزوا منذ فترة بعيدة عن هضم فكرة ان لا رغبة لي في مرافقتهم وعزلي لنفسي في البيت للقراءة ـ أو انني فيما بعد أخرج للمشاوير وحيدا وفي جيبي كتاب · لم أكن ألعب معهم أو أثرثر أو أخرج للغزل · وكانوا يقولون وهم ينظرون الي بكراهية « سيرفع رأسه حتى النجوم ثم يحطمه ألف قطعة » أما وقد رأوني الان أشرب وأمرغ نفسي مع رعاع كاسترو الحفاة فانهم سروا لذلك · اقتربوا مني ، وربما بدأوا يحبونني ، وفي احدى ليالي السبت أخذوني بخدعة ماكرة الى أحسن كباريه في البلدة ، يحمل اسما جريئا « مقاتلو الـ (؟) » · وقد وصلت اليه منذ وقت قريب نمرة جديـدة ، فرقة من الحسنـاوات الفرنسيات والرومانيات اللواتي كن يجنن المواطنين المحترمين · كان أصحاب البيوت المحترمون هؤلاء يتسللون سرا مساء كل سبت الى هذا الفردوس المحرم خافت الاضواء ويجلسون بهدوء على الموائد المنتحية وهم يتلفتون في كل أتجاه ليتأكدوا من أن احدا من معارفهم لم يرهم ، ثم يصفقون ليطلبوا عغنية معطرة ومتبرجة تجلس على ركبهم · بهـذه الطريقة كان هؤلاء المواطنون الشرفاء ، المساكين ، يستطيبون للحظات ، ان ينسوا المشاحنات والتعييبات التي تواكب حياة الفضيلة ·

جلبني أصدقائي الى الوسط تماما وطلبوا شرابا . وجاءت رومانية بدينة متموجة فاض ثدياها المتعرقان عن صدارها الحريري غير المزرر ، امرأة في سن معينة تعرف كل شاردة وواردة في حرفتها . وتابع اصدقائي تعبئة قدحي ، ورحت اشرب واحسست بسعادة مريحة . وباستنشاقي عبير الانثى اللاذع احسست بالقرذ ـ الذكر ـ في اعماقي يستيقظ . امسكت بخف المغنية ورحت اعبئه بالشمبانيا مرة بعد اخرى ثم اشربه .

في اليوم التالي كانت كاسترو باسرها تطن بالفضيحة : القديس ، سليمان الحكيم ذو الانف الشامخ ـ يا لحظه ! يا للاسف ـ قد قضى الليل يسكر في كباريه وهو يشرب من خف مغنية . نهاية العالم ! وأسرع احد اخوالي ، مخزيا بفعلة ابن اخته الشائنة ، الى والدي ونقل النبأ له . لكن والدي اكتفى بهز كتفيه وأجاب : « هذا يعني انه رجل الان ، لقد ابتدأ يصبح رجلا . كل ما عليه ان يفعله الان هو ان يشتري للمغنية خفين جديدين » .

اما انا فقد فرحت في اعماقي لانني تخطيت القانون ، لقد حررت نفسي من الارشمندريت ومن فراغات الوصايا العشر لانني كنت اتبع خطا سلفي ذي الشعر الكثيف ، الخطا الواثقة الثابتة .

لقد بدأت خطواتي على المنحدر ولقد احببته . كانت تلك سنتي الاخيرة في الجمنازيوم (١) وكنت انظر الى الارشمندريت بكراهية بينما يبتسم لي بوقار وهو غائص في فضيلته . كان هذا « الغنمة » الواثق من هذه الحياة والحياة الاخرى ، ينظر الينا ، نحن الذئاب ، بعطف . وهذا ما لم استطع احتماله . كان علي ان ادمر سلاحه وان اثير عاصفة في دمه ، وان امحو تلك البسمة البلهاء التي تغمر وجهه ولذلك فانني ذات صباح قمت بعمل شرير . أرسلت له مذكرة صغيرة « أمك مريضة جدا . انها تموت . اسرع اليها لعلها تمنحك بركتها » . دفعت بها وذهبت الى المدرسة لا مباليا ورحت انتظر . ولم يظهر الارشمندريت ذلك اليوم في الصف . ولا في اليوم التالي ولا اليوم الثالث . عاد بعد خمسة ايام وانت لا تكاد تعرفه . كان وجهه منتفخا ومشوها بأكزيما وصلت الى حلقه وابطيه . يهرش نفسه باستمرار ويتحول الى احمر قان . وكان يعجز عن الكلام ويترك الدرس قبل ان يقرع الجرس . ثم ظل طوال ثلاثة اشهر طريح الفراش . وعاد الينا ذات صباح متخلصا من انتفاخه لكنه كان منهارا او ما تزال اثار الجرب تغطي وجهه . راح ينظر الينا بعطف وعادت البسمة تغطي وجهه من جديد . وقد كانت كلماته الاولى

---

(١) مدرسة ثانوية لتعليم الرياضة .

: « حمدا لله يا اطفالي · لقد حفظ الله اليد التي كتبت لي المذكرة التي تقول ان امي مريضة جدا وبهذا منحني الفرصة لان ادفع ضريبة البشر بدوري ـ ان اقاسي » ·

جعلتني كلماته هذه اجفل · أكان ، اذن ، من الصعوبة بمكان التغلب على الفضيلة ؟ للحظة شعرت انني اريد ان اقف واصرخ ان اغفر لي لقد اخطأت · لكن صوتا اخر برز فورا في اعماقي ، صوتا مليئا بالسخرية والحقد : انت كلب · كلب ـ ارشمندريت · انك تساط ثم تلعق اليد التي تسوطك ··· لا · ان مافعلته صحيح · ويجب ان لا اندم ·

في اليوم التالي دعوت اعضاء « جمعية الصداقة » · قلت لهم طالما ان عقولنا الان مستنيرة فان من واجبنا ان ننير عقل كل انسان اخر · ويجب ان تكون هذه الرسالة العظيمة لجمعية الصداقة · حيثما ارتحلنا واينما توقفنا ، فان كل كلمة من كلامنا وكل اعمالنا يجب ان يكون لها هدف وحيد ـ هو التنوير ·

وهكذا بدأ التنوير · لقد انهينا الجمنازيوم ونحن الان احرار · وارسلني والدي ، الذي كان يريدني ان ادرس السياسة ، الى احدى القرى لكي اكفل طفلا في المعمودية ، اخذت صديقي معي : ها هي الفرصة السانحة لنا لتنوير قرية بأكملها · وحينما جلسنا على مائدة بعد التعميد مباشرة وبدأ الحفل ، راح صديقي الحميم يتحدث بتوتر واعظا القرويين وينورهم · قبل كل شيء تحدث اليهم عن اصل الانسان معلنا لهم ان سلفنا الاول قردة واننا يجب ان لا نكون مخدوعين الى درجة الايمان بمرتبتنا الحالية ككائنات متميزة خلقها الله ·

وطوال الفترة التي قضاها صديقي وهو يلقي بخطابه كان القس القروي يحدق اليه بعينين جاحظتين وحين اقترب التنوير من نهايته هز رأسه بأسى وقال : « اعذرني يا بني لتحديقي اليك طوال حديثك · من المحتمل ، كما تقول ، ان البشر قد تحدروا من القرود · ولكن بالنسبة لك اعذرني لقول ذلك فانك خلف ووريث مباشر للحمار » ·

عبرت جسدي رعشة · تطلعت الى صديقي : وكأنني كنت أراه لاول مرة · فبفكه الكبير المتدلي واذنيه الكبيرتين كالقرنبيط وبعينيه الهادئتين المخمليتين كان ، فعلا ، يشبه حمارا · كيف لم الحظ ذلك من قبل ؟ لقد انقطع خيط في اعماقي · بعد ذلك اليوم لم ارسل له اية رسالة اخرى ولم اعد احسده ·

لقد تحملنا الكثير في محاولتنا لتنوير البشرية في الايام التالية ونحن

نطوف في ميغالوكاسترو او ونحن نتجول في القرى • وقد سمونا بالملحدين والماسونيين والمرتزقة • وبالتدريج بدأنا نقاطع باستهجان ونُرمى بقشور الليمون اينما ذهبنا لكننا تماسكنا بكبرياء واصررنا على طريقنا رغم الاهانات والقشور مقتنعين بمعرفة اننا نشهد ونعاني الشهادة من اجل الحقيقة • ولتعزية انفسنا كنا نقول لبعضنا : ألم يكن هذا يحدث دائما ؟ ما أمتع الموت من اجل فكرة عظيمة !

وفي مناسبة اخرى ذهبنا ، نحن الثلاثة ، في نزهة الى بلدة السوق التي تبعد ساعتين عن ميغالوكاسترو • وكانت هذه القرية ، الشهيرة بكرومها ، ممتدة على سفح جبل يوشتاس ، الجبل المقدس الذي يقال ان زيوس ، أب الآلهة والبشر ، قد دفن فيه • ولكن تحت الحجارة حيث يستلقي ما يزال لدى هذا الاله الميت القوة لاعادة تشكيل الجبل فوقه • ولقد قام بتغيير مواقع الصخور فاعطاها شكل رأس هائل مقلوب • ولقد كان في وسع المرء ان يميز بوضوح الحاجب والانف واللحية الكبيرة التي ، وهي مؤلفة من البلوط والخرنوب والزيتون ، كانت تمتد بوضوح حتى السهل •

« حتى الآلهة تموت » قال صديقي الثالث الذي كان يأمل ان يصبح مخترعا لكي يمول جمعية الصداقة ويغنيها •

قلت : « الآلهة تموت لكن الالوهة خالدة » •

وسأل الاخران : « ماذا تعني ؟ اننا لا نفهم » •

واجبت ضاحكا : « انا نفسي لا افهم جيدا » •

وعلى الرغم من انني كنت احس انني على حق الا انني عجزت عن توضيح فكرتي • وعدت الى الضحك الذي كان دائما بمثابة باب النجاة في لحظات الخطر •

وصلنا الى القرية • كان الهواء عابقا برائحة الراكي والتخمر • كان القرويون قد انهوا القطاف وعبأوا الخميرة في البراميل واستخلصوا الراكي من تفل القرب • ولذلك فانهم يجلسون الان في المقهى او خارجا على مصاطبهم الحجرية او تحت اشجار الحور يشربون الراكي ويلعبون الورق ويسترخون •

نهض عدد منهم لتحيتنا • وأجلسونا الى مائدتهم ثم قدموا لنا ثلاثة اكواب من عصير الكرز • وبدأنا الحديث • لقد فهمنا من قبل • بالتدريج بدأنا نجر الحديث الى المعجزات التي يحققها العلم • وسألناهم : « هل تستطيع عقولكم ان تستوعب كيفية صنع الورق او طبع الصحف ؟ يا لها من معجزة عظيمة • غابة تقوض • والجذوع تنقل الى آلات تسحقها وتحولها الى عجينة ثم تتحول العجينة الى ورق يدخل الى المطبعة من باب ويخرج صحيفة من الباب الاخر •

انصت القرويون باهتمام وانضمالى مائدتنا جلساء الموائد القريبة ، لقد نجحنا معهم • لقد تنوروا •• هكذا قلنا لانفسنا • ولكن عند هذه المرحلة وصل رجل ضخم يستحق الشنق ومعه حمولة حمار من الخشب ووقف يستمع لمـــا يقـــال •

وسأله احدهم : « هيا يا ديميتروس • الى اين تنقل هذا الخشب ؟ » •

ـ لأصنـــع جرايـــد •

وبغتة انفجر بالضحك اولئك القرويون الذين كانوا حتى الان يتمالكون انفسهم ادبا • وارتجت القرية كلها بقهقهاتهم •

وهمست لصديقي « اظن انه من الافضل ان ننصرف • انني أحس بقشور الليمون آتية » •

وهتف القرويون : « اين تذهبون يا شباب ؟ » وهم يسندون خواصرهم • « ابقوا ايضا واخبرونا بالمزيد ـ فنحن نريد ان نضحك » ثم تبعونـــا وهم يصيحـــــون :

ـ قولوا لنا ايهما جاء قبل الاخر الدجاجة ام البيضة ؟

ـ وكيف يجعل الله الاذناب تقف دون مسامير ؟

ـ وهل كان سليمان الحكيم رجلا ام امرأة ؟ دعونا نرى بضاعتكم •

ـ ولماذا تضحك العنزة المبرقعة ـ أتستطيعون الاجابة على هذا ؟

لكننا كنا قد انطلقنا هاربين •

في ذلك الحين كنا قد تعبنا من تنوير الناس بكلمات الفم • فقررنا ذات يوم ان نطبع بيانا للجماهير ، وثيقـــة نقـــول فيها هدفنا بوضوح وموضوعية ونحلل طبيعة الواجب الانساني • وجلب كل منا مدخراته وذهبنا الى ماركوليس عامل المطبعة الذي كان يعرف باسم « البروليتاري » لانه كان هو الاخر يصدر بيانات تهدف الى اثارة الفقراء وتوحيدهم ـ بهـدف جعلهم قوة كبيرة تنتخبه وتوصله الى المجلس النيابي • لذلك ذهبنـــا اليه ووجدناه • كان متوسط السن ذا شعر شائب مجعد ونظارتين وجذع واسع الصدر كالبرميل وساقين دقيقتين منحنيتين قليـــلا • وكان منديل ملوث بالشحم ملفوف على رقبته • اخذ مخطوطنا وبـــدأ يقرأه بصوت مرتفع وبمبالغة انفجارية • وكلما استغرق في القراءة كلما ازداد حماسنا • كم كان مكتوبا بفخامة وببساطة وبقوة ! ورفعنا ، نحن الثلاثة ، رقابنا بنشوة مثل ديوك تتهيأ للصياح •

« جميل يا اولاد » اعلن ماركوليس وهو يطوي المخطوط • « انتبهوا لكلامي • ذات يوم ستنتخبون الى المجلس النيابي وسوف تنقذون شعبنا • لم لا نوحد قوانا اذن ؟ انا ايضا اطبع بيانات • فلنتعاهد » •

لكنني رفضت ، قلت له : « انك لا تهتـــم الا بالفقراء ، نحن نهتم بالجميع ، هدفنا اكبر » ،

فقال المطبعي مستاء : « ولكن عقولكم اصغر ، تظنون انكم سترشدون الاغنياء ايضا اتعتقدون ذلك ؟ ان غسيل الزنجي ليس الا هدرا للصابون ، اصغوا الي : الغني مستقر ومرتاح ، وهو لا يريد ان يغير شيئا ، لا الله ولا الوطن ولا الحياة المترفة ، فاقرعوا قدر ما تريدون على باب الاصم ، عليكم ان تبدأوا بالفقراء ، يا ديوكـي الصغـيرة ، ابدأوا بأولئـك الـذين ليسوا مستقرين ومرتاحين ، ابدأوا بالمضطهدين والا فاذهبوا للبحث عن طابـع غيري لانني معروف بالبروليتاري » ،

انسحبنا ، نحن الثلاثة ، الى الباب لكي نتشاور ، وبسرعة توصلنـا الى رأي جماعي ، والتفت صديقي الى الطابع : « لا ، اننا نرفض قبـول اقتراحك ، لن نقدم اي تنازل ، فعلى خلافك نحـــن لا نميز بين الاغنياء والفقراء ، الجميع يجب ان يتنوروا » ،

وزأر ماركوليس « في هذه الحالة اذهبوا الى الشيطان » وقذف بالمخطوط في وجوهنـا ،

١٤ ـ الصبية الايرلندية

لم أكن قد توصلت الى القناعة بعد • كنت احب الطريق الذي سرت فيه لكنني كنت اريد الوصول الى حدوده القصوى • وصلت تلك السنة صبية ايرلندية الى كاسترو لتعطي دروسا انكليزية • وكان الظمأ للعلم ملتهبا في اعماقي كما هو دائما • وطلبت منها ان تعطيني دروسا • كنت اريد ان اتعلم اللغة وان اكتب بيانات بالانكليزية لتنوير اولئك الذين يعيشون خارج اليونان • لم نتركهم يعيشون في الظلام ؟ وهكذا انكببت بكل اهتمام على تعلم الانكليزية وغرقت في ذلك العالم السحري الغريب • وكم كان ممتعا ان اخطو خطواتي الاولى بين الشعر الانكليزي الغنائي مع تلك الفتاة الايرلندية ! اللغة بحروفها الصوتية وسواكنها تحولت كلها الى عصافير مغردة • كنت اظل في بيتها حتى ساعة متأخرة من الليل • وكنا نتحدث عن الموسيقى ونقرأ الشعر فراح الجو بيننا يشتعل • وحينما كنت انحني فوق كتفها لأتتبع ابيات كيتس وبايرون كنت استنشق رائحة ابطيها الدافئة اللاذعة • وكان عقلي يتشوش • يختفي كيتس وبايرون ويظل في الغرفة الصغيرة حيوانان قلقان احدهما يلبس البنطلون والاخر فستانا •

وبما انني كنت قد انهيت الجمنازيوم فقد كنت اتهيأ للذهاب ، الى اثينا للتسجيل في الجامعة • ومن يستطيع ان يخمن ما اذا كنت سأراها مرة ثانية ، ذات العينين الزرقاوين ، المنحنية قليلا والممتلئة الزغباء ابنة القس الايرلندي تلك • وحينما اقترب موعد افتراقنا تزايد قلقي • وتماما كما يحدث حين نرى تينة ناضجة يسيل العصير الحلو منها ، ونحن جائعون وظامئون فاننا نمد يدنا لنقشرها وبينما نحن نقشرها نتحلب ريقنا ، كذلك فانني كنت القي ، بالطريقة ذاتها ، نظرات ملتهبة على تلك الفتاة الايرلندية الناضجة ، واقشرها في خيالي ـ كالتينة •

وذات يوم من ايلول اتخذت قراري •

سألتها : « أتحبين ان تتسلقي بسيلوريتي معي ؟ ان كريت بأسرها تظهر من قمته • وهناك كنيسة صغيرة في القمة نستطيع ان نقضي فيهـا الليـل وأودعـك » •

احمرت اذناها لكنها قبلت • اي سر عميق اشتملت عليه تلك الرحلة • واية حلاوة واي توقع قلق ـ كشهر العسل تماما ! انطلقنا ليلا • كان القمـر فوقنا فعلا ينقط عسلا • لم أر في حياتي بعد ذلك قمرا شبيها به • ذلـك الوجه ، الذي كان يبدو لي حزينا ، كان الان يضحك وينظر الينا بخبث بينما هو يتقدم معنا من الشرق الى الغرب وينزل من فتحات قمصاننا الى حلقينا ثم الى صدرينا وبطنينا •

ظللنا صامتين، خوفا من ان تدمر الكلمات التفاهم الكامل الصامت الذي حققه جسدانا وهما يسيران احدهما الى جانب الاخر • احيانا كان فخذانـا يتلامسان حين كنا نجتاز ممرا ضيقا ولكن كلا منا كان يبتعد عن الاخر فجأة وفورا • كان يبدو اننا لا نريد ان نبدد رغبتنا المرهقة في متع صغيرة • كنا نحتفظ بها بكرا بانتظار اللحظة العظيمة • فرحنا نسير مسرعين وبأنفاس متقطعة لا كصديقين ، كما كان يبدو ، بل كعدوين حاقدين • كنا نتسابق نحو الحلبة حيث سنتماسك صدرا لصدر •

ورغم اننا لم نفه بأية كلمة حب قبل ذلك الحين ، ورغم اننـا الان ، في الرحلة ، لم نتفق على شيء فان كلا منا كان يعرف تماما الـى اين نحن ذاهبان ولماذا • كنا متعطشين للوصول ـ وهي ، كما كنت اشعر ، اكثـر تعطشا منـي •

باغتنا الفجر في قرية على سفح بسيلوريتي • كنا متعبين فذهبنـا لنأوي في بيت كاهن القرية • اخبرته ان رفيقتي ابنة قس يقيم في جزيرة بعيدة خضراء وانها ترغب في رؤية كريـت كلها من قمة الجبل • وجاءت الباباديا زوجة الكاهن ، الى المائدة • اكلنا • ثم جلسنا علـى الاريكـة وغرقنا في حديث صغير • ناقشنا في البدء القوى العظمى ـ انكلترا ، وفرنسا وامريكا وروسيا • ثم تحدثنا عن العنب والزيتون وبعد ذلك تحدث الكاهن عن المسيح الذي قال عنه انه كان ارثوذكسيا وانه صمم على عدم التحول الى البروتستانت مهما فعلوا به • وراهن انه لو كان والد الفتاة معنا فانه كان سيحوله الى الارثوذكسية في ليلة واحدة • لكن العينين الزرقاوين كانتـا قد نعستا وأشار الكاهن لزوجته •

« رتبي لها السرير لكي تنام قليلا • انها ، اخيرا ، امرأة وهي تعبة »

وتابع متجها صوبي « اما بالنسبة لك فانك رجل ، كريتي قوي وان من المعيب ان ينام الكريتي في النهار ٠ تعال معي ودعني أرك الكروم ٠ ما تزال هناك بعض العناقيد غير المقطوفة يمكننا ان نأكلها » ٠

كنت على وشك التهاوي من التعب والنعاس ولكن ماذا استطيع ان افعل ؟ لقد كنت كريتيا ولا استطيع ان اعيب كريت ٠ ذهبنا الى الكروم وأكلنا العناقيد غير المقطوفة ثم تمشينا في القرية ٠ كانت الكركة (١) تغلي والسائل يستخلص ٠ شربنا اكثر من اللازم من الراكي ، الساخن وعدنا وقد شبكنا ذراعينا ونحن نترنح ٠ كان المساء قد حل وكانت الفتاة الايرلندية قد استيقظت والباباديا قد ذبحت دجاجة فأكلنا ثانية ٠

وأعلن الكاهن « لا حديث الليلة ٠ ناموا ٠ في منتصف الليل سأوقظكما واعطيكما الراعي الصغير دليلا لئلا تضيعا » ٠

وخرج الى الفناء فتفحص السماء كفلكي ثم عاد الى الداخل راضيا ٠ قال : « انتما محظوظان ٠ سيكون الغد رائعا ٠ سلما كل شيء لله ٠ تصبحون علــى خــير » ٠

عند منتصف الليل امسكني الكاهن من ساقــي وأيقظني كما ايقظ الفتاة بالقرع على مقلاة نحاسية فوق رأسها ٠ كان ينتظرنا في باحة الدار راع فتي ذو شعر اجعد واذنين مؤنفتين ونظرة حادة ٠ وكانت تفوح منه رائحة الفحل والزوفــا ٠

« جاهزان ! » قال الراعي وهو يرفع عصاه « اسرعوا الخطا ! نريد ان نصل الى القمة لحظة بزوغ الشمس » ٠

القمر في كماله ، ما يزال سعيدا وما يزال مليئا بالحلاوة ٠ كان الطقس باردا في الخارج فتلفعنا بمعاطفنا ٠ وابيض انف الفتاة الايرلندية الدقيق الا ان شفتيها كانتا ما تزالان حمراوين ومكتنزتين ٠ فحولت نظري لئلا انظر اليهمـــا ٠

جبل وعر ٠ فبعد ان خلفنا وراءنا الكروم وبساتين الزيتون ثم السنديان والسرو وصلنا الى الصخور العارية ٠ كانت احذيتنا تنقصها الرزات فصرنا نزلق ٠ وسقطت الفتاة الايرلندية مرتين او ثلاث مرات لكنها نهضت دون مساعدة ٠ لم نعد بردانين بل تصبب العرق من اجسادنا ٠ اطبقنا شفاهنا

---

(١) اداة بدائية تغلى بها خميرة العناقيد ثم تقطر لتصبح خمرا او عرقا .

لكي لا نلهث وتقدمنا بصمت : الـراعي الصغـــير يقـودنا والايرلندية في الوسط وانا احفظ المؤخرة ·

بدأت السماء تتحول الى بيضاء مزرقة وصارت الحروف واضحة · وحامت أول الصقور في الجو الاسود المزرق بحثا عن فريسة · لكننا حين وطئنا القمة اخيرا كان الشرق قد توهج احمر زهريا · غير انى لم استطع ان ارى شيئا من بعيد · هناك ضباب كثيف حولنا يغطي الارض والبحر · كان جسد كريت كله مغلفا وكنا نرتجف من البرد المخيف ففتحنا بوابة الكنيسة ودخلنا· وبدأ الراعي ، خلال ذلك ، يبحث فيما حولنا عن عيدان جافة لاشعار النار ·

كانت الكنيسة مبنية بحجارة شيدت دون اسمنت · بقينا وحيدين في الداخل : الصبية الايرلندية وانا · وكان المسيح والعذراء يحدقان الينا من ايقونتيهما المتواضعتين لكننا لم ننظر اليهما · تصدى للمسيح وللعذراء شيطانان مضادان للمسيح ومضادان للعذراء برزا في اعماقنا · مددت يدي وأمسكت بالصبية الايرلندية من قذالها فاستجابت مذعنة ـ كان هـذا مـا تنتظره ـ وتدحرجنا ، على الحجارة ·

انفتح باب مصيدة مظلمة ليبتلعني وتلاشيت فيها · وحين رفعـت عيني رأيت ان المسيح يحدق الينا غاضبا من الايقونة وكان الصولجان الذي يمسك به في يده اليمنى يتأرجح وكأنه سيقذفه علي · خفت ، لكن ذراعي المرأة احاطتا بي وانغمرت مجددا في الهيولى ·

كانت ركبتاي ترتجفان حين فتحنا الباب للخروج وارتجفت يدي وانـا ارتج المزلاج · لقد هيمن علي بغتة خوف عريق : سينزل الله علينا صاعقة تمحقنا ، انا والفتاة الايرلندية ـ آدم وحواء ـ وتحيلنا رمادا · فالحقيقة ان لا حصانة لمن يدنس بيت‌الله امام عينـــي العذراء · دفعـــت بالباب وخرجت · قلت لنفسي مهما كان ؛ ما سيحـــدث فليحدث بسرعة ولننته منه · ولكن حين خرجت ورأيت : آه · اية غبطة هائلة واية معجزة تتمدد امامي ! كانت الشمس قد ظهرت وانقشع الضباب وجزيرة كريت بأسرها من اقصاها الى اقصاها تتلامع بيضاء وخضراء ووردية ـ عارية تماما ـ محاطة ببحارها الاربعة ، وبقممها الثلاثة الشاهقة الجبال البيضاء وبسيلوريتـي وديكتي كانت كريت سكّونة (١) مثلثة الصواري تبحر في الزبد · كانـت غولا بحريا ، غرغونة (٢) بآلاف الاثداء ، مسترخية وممددة على الامـواج

---

(١) قارب شراعي متعدد الاشرعة .
(١) الغرغونة Gorgon : احدى اخوات ثلاث في الميثولوجيا اليونانية رؤوسهن مكسوة بالافاعي بدلا من الشعر وكان كل من ينظر اليهن يتحول الى حجر .

تتشمس · تحت الشمس الصباحية رأيت بوضوح وجهها ويديها وقدميها وذنبها واثداءها المتوثبة ··· لقد هبطت علي افراح كثيرة العدد خلال حياتي ولا داعي لدي للشكوى · ولكن هـذا ، منظـر جزيرة كريـت بأسرهـا على الامواج ، كان واحدا من اهم الافراح واعظمها · التفت لانظر الـى الفتـاة الايرلندية · كانت تستند الى الكنيسة الصغيرة تمضغ قطعة من الشوكولاته بهدوء ولا مبالاة وهي تلحس شفتيها اللتين كانتا مغطاتين بعضّاتي ·

كانت العودة الى كاسترو كئيبة · واخيرا اقتربنا · هناك تقوم الاسوار الفينسية الشهيرة بأسودها الحجرية المجنحة · واقتربت الفتاة الايرلندية لتستند على ذراعي لكنني لم استطع حمل رائحتها او عينيها الرصاصيتين - التفاحة التي اطعمتني اياها قد غطت شفتي واسناني بالرماد · رفضت ان اسمح لها بالاقتراب فتراجعت خطوة الى الخلف دون كلام · وسمعت نشيجها · كنت اريد ان التفت وانا احتضنها بين ذراعي وان اقول لها كلمة لطيفة ولكنني ، بدلا من ذلك ، اسرعت الخطا واحتفظت بصمتي · واقتربنا اخيرا من بيتها · سحبت المفتاح من جيبها وفتحت الباب · ثم وقفت تنتظر بالعتبة · وقفت تنتظر وهي مطرقة · هل سأدخل ام لا ؟ وهب في اعماقي حنو لا يقاوم وكمية هائلة من الكلمات المفرحة والمحزنة وصلت حتى حلقي · لكنني زممت شفتي ولم اتكلم · مددت لها يدي ، وافترقنا · في اليوم التالي رحلت الى اثينا ولم تكن لدي قردة اعطيها اياها للذكرى ، ولكن مع احـد تلاميذها ارسلت اليها كلبا صغيرا كان يحب ان يعض ، وكنت احبه · كان اسمـه كارمـن ·

١٥ ـ اثينـا

الشباب وحش متناقض واعمى • يلتمس الطعام ولا يأكل • اجبن من ان يأكل • يريد ان يومىء بالقبول للسعادة ، التي تتدحرج في الشارع والتي تريد ان تتوقف راغبة ، لكنه لا يومىء • يتحول الى الصنبور سامحا للزمن ان يتبدد هباء ويضيع وكأن الزمن ماء • الوحش الذي لا يعرف انه وحش ـ ذلـك هـــو الشبـــاب •

يتحطم قلبي حين اتذكر تلك السنوات التي قضيتها كطالب جامعي في اثينا • فعلى الرغم من انني كنت انظر فانني لم اكن ارى شيئا • لقد كان العالم ، المغطى بضباب كثيف من الاخلاق ، والتصورات الخيالية ، والطيش، محجوبا عن عيني • الشباب مرير ، مرير ومزدرى، انه لا يفقه • وحين يبدأ المرء بالفهم يكون الشباب قد ولى ، من كان ذلك الحكيم الصيني الـذي ولد عجوزا بشعر أشيب ولحية بيضاء وعيناه مليئتـــان بالدموع ؟ ومع مرور السنوات تحول شعره الى أسود وبدأت عيناه تضحكان وتخلص قلبه من اعبائه ، وحين شارف على الموت في النهاية صارت وجنتاه كوجنتي العذراء يغطيمها الزغب الطفولي الناعم ••• هكذا يجب ان تصبر حياتنا ، هكذا يجب ان تصير لو أراد الله ان يشفق على البشر •

لقد ثرت على قدري في كريت • وللحظة اسلمت نفسي للخمـر وفـي لحظة اخرى لمست الفتاة الايرلندية • ولكن لم يكن هذا طريقي • احسست انني اخطأت • ولخجلي وندمي عدت الى عزلتي وكتبي •

منذ الشباب وحتى الشيخوخة كنت اعتبر كل كلمة او عمل يبعدني عن قدري معصية.فما هو قدري هذا ؟ والى اين كان يقودني ؟ ما يزال عقلـي عاجزا عن حل اللغز • فسمحت لقلبي ان يقرر « افعل هذا ـ ولا تفعل ذلك •

امش . لا تقف ولا تصرخ . عليك واجب واحد ـ ان تصل الى الطرف » .
« اي طرف ؟ » كنت اسأل . « لا تسأل اية اسئلة . تقدم ! » .

وبينما انا اصغي ، في عزلتي ، لنصيحة قلبي الحمقاء والمدعية نمت رغباتي وصارت غاية في الترف ولم يعد اي شيء من كل ما أراه او اسمعه حولي في اثينا ، المدينة الشهيرة ، قادرا على سد جوعي وحاجتي . وفشلت المواد في مدرسة الحقوق ان تلبي حاجات روحي الى اقل حد ممكن كما انها لم تشبع فضولي العقلي . ولم اعد اشعر بالمتعة في الحفلات التي يقيمها زملائي مع الطالبات او مع الخياطات الصغيرات الساذجات.كان الرماد ما يزال عالقا على اسناني من التفاحة التي اطعمتني اياها الصبية الايرنلدية . بين حين وآخر كنت اذهب الى المسرح او الى حفل موسيقي لأستمتع . لكن المتعة كانت سطحية لم تتمكن من تغيير الانسان الداخلي . كنت انسى حالما اصل الى الشارع . وتابعت دراستي للغات الاجنبية . وادراكي لمسألة ان ذهني يتوسع كان يسرني . ولكن كانت رياح الشباب السرية الحامية تهب مباشرة دائما وكانت تلك المتع تذوي ووراء فم الفتاة السعيدة الضاحك كنت أرى فكي جمجمتها العارية . كان العالم يأخذ امام عيني ايقاعا عنيفا وسريعا ثم يتحول الى دمار . الشباب يبحث عن الخلود ولا يجده ولا يقبل الحلول الوسطى . وهكذا يرفض الكون بأسره ـ من قبيل الكبرياء . وهذا لا ينطبق على حالات الشباب كلها بل ، فقط ، على ما تجرحه الحقيقة .

كنت احب ، ايام الآحاد ، ان اخرج الى النزهات في الضواحي وحيدا . احس ان رفقة الاصدقاء ـ احاديثهم ونكاتهم وضحكاتهم ـ تحط من قيمة الصمت المقدس . كانت الجبال متأججة بالصنوبر والعسل . وكنت ادخل الى غابات الزيتون فأحس بعيني تنتعشان . كنت اتبادل كلمة او كلمتين مع اي فلاح يصدف ان يمر ـ ألباني ، مثلا ، بجبهة ضيقة وقبعة سوداء قذرة تفوح منه رائحة الحليب والثوم . كلماته مبتذلة ومشوشة ومليئة بالفضول القاتم . كان هؤلاء الفلاحون ينظرون الي من زوايا عيونهم الخبيثة الصغيرة مجهدين عقولهم الصغيرة لمعرفة من اكون ولم اجوب الجبال . جاسوس ؟ مجذوب ؟ بائع جوال ؟ ويلقون بنظراتهم المفترسة على الحقيبة التي احملها على ظهري .

وكانوا يسألونني : « ماذا تبيع يا صديقي ؟ اناجيل ؟ اأنت ماسوني ؟ هل الامر كذلك ؟ » .

وذات يوم سمعت زقزقة ورأيت عصفورا أزرق فولاذيا يطير فوقي فأوقفت فلاحا كان يمر قربي وسألت بلهفة « اي نوع من العصافير هذا يا صديقي ؟ ماذا يسمى ؟ » فأجاب بهزة من كتفه « المسكين . من يهتم له . انه لا يؤكل » .

تعودت ان انهض عند الفجر . نجمة الصبح تقطر على الارض وضباب خفيف يحوم على « هيميتوس » ونسمة باردة تلفح وجهي والقبرات تغط مفردة في الهواء ثم تغيب في الضوء . وذات احد في الربيع اذكر انني رأيت شجرتين او ثلاث اشجار من الكرز المزهـر في حقل احمر محروث حديثا . ملأت السعادة قلبي . في تلك اللحظة بزغت الشمس وهي تتلامع كما كانت يوم ان خرجت اول مرة من يدي الله . وتلألأ خليج سارونيك ، في بحر ايجه البعيد ، معبأ بالزهور في ضوء الصباح . وطار غرابان عن يميني واجنحتهما تهتز كأوتار القوس ـ بشارة طيبة .

الى جانبي كانت الامواج البيضاء كالخيول الهومرية بقفزاتها العريضة وأشعار هوميروس المنعشة والى الجانب الاخر زيتون اثينا الزيتي والمليء بالضوء ، وغار ابولو وعنب ديونيزوس صانع العجائب المليء بالخمر والغناء . والارض الجافة البخسة ، وحجارتها المحمرة من الشمس والجبال التي تخفق زرقاء في الجو ، والبخار يتصاعد منها في الضوء وهي تتشمس براحة وسلام وكلها عارية كالرياضيين .

رحت امشي . وبينما انا امشي كنت احس ان الارض كلها والسماء كلها تسيران معي . المعجزات المحيطة بي كلها اخترقتني . ازدهرت وضحكت وارتعشت بدوري كوتر القوس . آه . كيف تلاشت روحي ذلك الاحد وغابت وهي تغني في ضوء الصباح تماما كالقبرة !

تسلقت قمة هضبة ورحت اجيل النظر في الشواطىء الضيقة الوردية والبحر والجزر الصغيرة . اية متعة كانت تلك ! اليونان بجسدها العذري تسبح بين الامواج وترفع بنفسها فوقها والشمس تسقط عليها كعروس ! كيف كانت تروض الحجارة والماء وتخلص نفسها من اساس المادة وقساوتها وتحتفظ بالجوهر وحده .

كنت اتجول بغية التآلف مع اتيكا ، او هكذا كنت اظن . لكنني ، في الحقيقة ، كنت اتجول بغية التآلف مع روحي . كنت اتمنى ان اجدها وان اتعرف عليها في الاشجار والجبال والعزلة ـ ولكن دون جدوى ، لم يقفز قلبي فرحا . تلك العلاقة الاكيدة التي بينت لي انني لم اجد ما كنت ابحث عنه .

مرة واحدة فقط ، وكان الوقت ظهرا ، اعتقدت انني وجدتها . كنت قد تجولت وحيدا الى سونيون . وكان الصيف قد حل والراتينج يسيل من شقوق اشجار الصنوبر مالئا الهواء بالعطر . وحط جندب على كتفي ومكث عليه . وسرنا معا لفترة . كانت لجسدي كله رائحة الصنوبر . لقد مرت صنوبرة . ثم حين خرجت من غابة الصنوبر رأيت الاعمدة البيضاء لمعبد

جوزيفون ومن بينها بدا البحر الاقدس بزرقته العميقة المتلألئة . تراخت ركبتاي تحتي وتوقفت . رحت اقول لنفسي ان هذا هو الجمال وهذا هو النصر بلا اجنحة ، قمة الغبطة ، حيث لا يستطيع الانسان ان يسمو الى أعلى منها . هذه هي اليونـــان .

كانت فرحتي عظيمة الى درجة ان خيل الي للحظة ، وانا اتطلع الى جمال اليونان ، انني قد شفيت من جرحي وان هذا العالم ، على الرغم من انه زائل - وربما لانه زائل - فان له قيمة . واعتقدت انني كنت مخطئا حين كنت احاول ان ارى حيزبون المستقبل وراء وجه الفتاة الشابة ، بل ان علي ان اعيد في وجه الحيزبون خلق وتجديد عذوبة الفتاة وشبابها وهي التـــي لم تعـــد موجودة .

ان المشهد الاثيني خلاب بطريقة اخاذة لا يمكن التعبير عنها . هنا في اليونان يحس المرء ان كل شيء قائم على ايقاع بسيط وقوي ومتوازن . ولكل شيء هنا بهاؤه الارستقراطي وتلقائيته : الارض الجافة المقتصدة ، والانحناءات البهية لهيميتوس وبنتيليكوس ، واشجار الزيتون ذات الاوراق الفضية ، والسرو المشوق الزاهد ولمعان الصخور اللعوب تحت الشمس وقبل كل شيء الضوء اللعوب الشفاف والروحي الذي يكسو الاشياء كلها ويعريها .

المشهد الاثيني يحذد قسمات الرجل المثالي : بنيته القوية المشوقة ، صموت ، متحرر من الثروة السطحية ، قوي الا انه من جهة اخرى قادر على السيطرة على قوته وفرض حدود على خياله . ويصل المشهد الاثيني احيانا الى حدود الصرامة . غير انه لا يتجاوزها بل يتوقف عن الجدية المرحة الطيبة . ولا ينحدر بهاؤه الى الرومانسية ولا تنحدر قوته ، بالتميز ذاته ، الـــى الخشونة . كل شيء متوازن ومحسوب بشكل جميل . حتى الفضائل لا تصل الى المبالغة والافراط ولا تحطم المعنى الانساني بل تتوقف عند النقطة التي اذا تجاوزوها ، يصبحون بعدها اما أشرارا لا انسانيين واما إلهيين . والمشهد الاثيني لا يتباهى ولا يغرق في البلاغة ولا ينحدر الـــى خطـــرات النشوة الميلودرامية . انه يقول ما عليه ان يقوله بقوة هادئـــة ورجولة . وبأبسط الوسائل الممكنة يقوم بتشكيل الجوهري .

ولكن بين حين واخر ، وفي وسط هذه الجدية هناك بسمة - شجرتـــا زيتون فضيتا الاغصان او ثـــلاث شجرات علـــى منحدر قاحـــل ، بعض الصنوبرات ذوات الخضرة المنعشة ، او شجيرات دفلى على حافة مجـــرى نهر جاف ناصع البياض ، باقة من البنفسج البري بين الحجارة السوداء المزرقة اللاهبة . المتضادات كلها تتجاور وتمتزج وتتصالح هنا خالقة ذلك التوافق المعجـــز السامي .

كيف حدثت هذه المعجزة ؟ واين وجد البهاء هذا القدر من الجدية ، والجدية هذا القدر من البهاء ؟ وكيف استطاعت القوة ان تتجنب تحقير القوة ؟ ان هذا كله لا بد ان يؤسس المعجزة اليونانية •

كانت تاتي لحظات ، وانا اجوب اتيكا ، يبرز فيها لدي هاجس بأن هذه الارض كان في وسعها ان تصبح اسمى درس في التحضر والنبل والقوة •

بعد كل جولة من جولاتي عبر الريف الاثيني كنت ، دون ان اعرف السبب في البداية ، اتسلق اكروبوليس للتطلع واعادة النظر الى بارتينون • هذا المعبد لغز بالنسبة لي • لم استطع ابدا ان أراه مرتين بالطريقة ذاتها • كان يبدو انه يتغير دائما ، ويحيا ، ويتموج وهو ثابت ويلعب مع الضوء ويتلاعب بالعين البشرية • ولكن ، بعد الشوق لرؤيته سنوات عديدة ، حين واجهته للمرة الاولى بدا لي ساكنا ، هيكلا عظميا لوحش بدائي ولم يقفز قلبي عندها مثل العجل الصغير • (كانت هذه بالنسبة لي دلالة لا تخطىء عبر حياتي • حين اقابل شروق الشمس او لوحة او امرأة او فكرة تجعل قلبي يقفز كعجل صغير اعرف عندها انني اقف امام السعادة) • واول مرة وقفت فيها امام بارتينون لم يقفز قلبي • بدا لي البناء مأثرة من فعال العقل – من الارقام والهندسة – تفكير مصيب ورخامي ، وانجاز سام للعقل ، فيه كل فضيلة – كل فضيلة باستثناء واحدة وهي اكثرها قيمة ومحبة : كان عاجزا عن لمس القلب البشري •

كنت احس ان بارتينون كان رقما زوجيا مثل الاثنين والاربعة • الارقام الزوجية تجري معاكسة لقلبي : لا شأن لي بها • وحياتها مرتبة بشكل مريح جدا • انها تقف على اقدامها بثبات كبير وليس لديها اية رغبة في تغيير مكانها • قانعة ومحافظة ومستقرة • لقد حلت كل مشكلة وحولت كل رغبة الى واقع وهدأت • والرقم الفردي هو الذي يتلاءم مع ايقاع قلبي فحياة الرقم الفردي ليست مرتبة بشكل مريح ابدا • والرقم الفردي لا يحب العالم بالشكل الذي يراه عليه بل يرغب في تغييره والاضافة اليه ودفعه الى الامام • يقف على قدم واحدة والاخرى جاهزة في الهواء وهو راغب في الرحيل • الى اين ؟ الى الرقم الزوجي التالي من اجل ان يتوقف قليلا يلتقط انفاسه ويستحضر زخما جديدا •

اما هذه العقلانية الرخامية الواعية فقد كانت مزعجة لقلب الشاب الرافض الذي يريد ان يسحق كل شيء قديم ويعيد تجديد العالم • لقد كان خرفا محترسا جدا يرغب من مستشاريه ان يقدموا لجاما قصيرا جدا لاندفاع القلب • ادرت ظهري لبارتينون واغرقت نفسي في المنظر الرائع الذي يمتد حتى البحر • كانت الشمس في قبة السماء وكان الوقت ظهرا : ساعة

النضج ، خالية من الظلال آو من اية لعبة للضوء • كمال وسمو وصراحه تطلعت الى المدينة البيضاء الناصعة والمشعة والبحر المقدس المشعشع حول سلاميس والجبال المحيطة التي تتمشى عارية وسعيدة ، غرقت في هذه الرؤيا ونسيت البارتينون الذي كان يقوم ورائي •

ولكن بعد كل عودة جديدة من غابات الزيتون الاثينية وخليج ساورنيك ؛ كان التوافق المخبوء يلقي عنه بحجبه الواحد بعد الاخر ثم يكشف عن نفسه لعقلي ببطء وانتظام • وفي كل مرة اعود بها الى تسلق اكروبوليس كان البارتينون يبدو وكأنه يتأرجح قليلا ، كما لو انه في رقصة ثابتة ـ يتأرجح ويتنفس •

دام هذا الاستهلال شهورا وربما سنوات • ولا اذكر بدقة اليوم الذي وقفت فيه امام البارتينون مؤهلا تماما وقلبي يقفز كعجل صغير • هذا المعبد الشامخ امامي ، أي نصب تذكاري كان ! واي مزيج من القلب والعقل واية ثمرة سامية للجهد الانساني ! لقد تم قهر الفضاء • والفروق بين الصغير والكبير قد تلاشت • ودخلت اللانهاية الى هذا المتوازي الاضلاع السحري الضيق الذي حفره الانسان • دخلت بيسر واسترحت فيه • كما ان الزمن ايضا قد تم قهره وتحولت اللحظة اللطيفة اى أبدية •

سمحت لنظرتي ان تزحف على الرخام الدافىء المشبع بالشمس • فلامست الحجارة ونقبت بينها كي تكشف الاسرار الخبيئة والتصقت بها رافضة تركها • ورأيت الاعمدة المتوازية ظاهريا تميل تيجانها بحركة غير مرئية واحدها نحو الاخر بحيث انها وبتصميم مسبق وبقوة ولطف تسند الحفريات المقدسة المؤتمنة عليها • لم يسبق ابدا للتموجات ان ابدعت خطوطا بهذه الاستقامة الكاملة ولم يسبق ابدا للارقام والموسيقى ان تزاوجت بهذا التفاهم وهذا الحب •

اعتقد ان هذه التجربة هي اكبر متعة قابلتها في سنواتي الدراسية الاربعة في اثينا • ولم تأت اية نشوة انثوية واحدة لتعكر الهواء الذي كنت اتنفسه • لكن كان لدي عدة اصدقاء وكنت احبهم كثيرا • كنت اذهب لتسلق الجبال معهم • وفي الصيف كنا نسبح معا في البحر • وكنا نتحدث عن عرضية الاشياء اليومية ثم اقمنا حفلات كان بعضهم يجلبون صديقاتهم اليها • كنا نضحك دون سبب لاننا شبان ، وكنا نحزن دون سبب لاننا شبان ايضا • كنا كعجول قوية تتنهد لان قوتها تخنقها •

كم من الفرص كانت امام كلّ منا ! كنت انظر الى عيون اصدقائي واحدا بعد الاخر محاولا ان اخمن الاتجاه الذي فيه سوف تندلع طاقاتهم

فاتحة ممرا . كان احدهم يلتهب فورا حينما يفتح شفتيه للنطق بأية فكرة او للتحدث عن حماقة مجنونة تستهويه . ولقد كان من الممتع جدا سماع القوة المحكمة العظيمة التي كان بها يعدد أفكاره دون تلعثم . وحين استمع اليه كنت احس بالحسد لانني كلما فتحت فمي للكلام ندمت فورا . الكلمات تأتيني بصعوبة . واذا حدث ان قدمت حجـة لدعم رأي لي فان الحجـة المناقضة ، والصحيحة بالمقدار ذاته ، كانت هي التي تقفز الى ذهني . ولخجلي من الكذب كنت اصمت فورا ... هناك صديق اخر متحفظ . كـان متطرفا في الاقلال من كلماته . فلم يكن يفتح فمه الا عند استظهـار درس القانون . وعندها كان المدرس وكنا نحن جميعا نصغي اليه باعجاب وهو يعقد عامدا مشكلات العدالة ثم يحللها بمهارة فائقة . واخر كان منظما بارعا في تنظيم الجماهير . انخرط في العمل السياسي وصار ينظم المظاهرات ويلقي الخطابات ويذهب الى السجون ويخرج منها ليعاود كفاحه . وقد قلنا عنه جميعا انه ذات يوم سوف يصبح رجل دولة عظيما . واخر كان نباتيا شاحبا ناعم الحديث بعينين زرقاوين واهنتين ويدين اشبه بأيدي النساء . استطاع بعد جهد كبير ان يؤسس ناديا شعاره زهرة ليلك و « الاقدام انظف من الايدي » . كان يحب القمر . وقد اعتاد ان يقول : « القمر هـو المرأة الوحيدة التي احب » . وكان هناكاخر كليلكة لم تمس ـ كان شاحبا متشائما له عينان زرقاوان واسعتان ويدان بأصابع طويلة . كان يكتب الشعر . ولم أستطع ان احفظ الا القليل من شعره . ولكن ما أن أردد هذه الابيات وحدي حتى تمتلىء عيناي بالدموع . ذلك ان هذا الشاب قد وجد ذات ليلة خارج دير كنسارياني مشنوقا على غصن شجرة زيتون .

هناك أصدقاء اخرون عديدون . لكم منهم روحه المتميزة المليئة بالبراعم المغلقة . وكنت أسأل نفسي : متى ستتفتح هذه البراعم ؟ ومتى ستثمر ؟ وكنت ادعو : يا الهي دعني اعش حتى اراها . ودعني أعش حتى أرى اية براعم ستتفتح في داخلي انـا وايـة ثمار ستعطي ! كنـت انظـر الى اصدقائي بقلق وحزن صامت وكأنني اودعهم . فقد كنت اخاف ان يكون الزمن هو العاصفة التي ستهب حينما تتبرعم الطبيعة واخاف ان تهب بقسوة وان تعري هذه الارواح .

حين غادرت اثينا خلفت ورائي تاجين غاريين هما الوحيـدان اللذان كوفئت بهما طوال حياتي . اخذت الاول من اجل المبارزة . كان اكليلا ثقيلا محاكا من اشرطة بيضاء وزرقاء ومؤلفا من الغار الذي يفترض ان يكـون مجلوبا من دلفي . وكانت كذبة . كنت اعرف انها كذبة مثلما كان يعـرف الجميع الا ان هذه الكذبة كانت تجعل الاوراق بهية . اما الثاني فاخذته في مسابقة لكتابة المسرحية . لا اعرف كيف ولكن ذات يوم احسست بدمي يلتهب

فكتبت مسرحية حماسية مليئة بالعواطف والتشاؤم • كانت حول الحب • وسميتها « بزوغ النهار » ولقد كنت واثقا من انني أقدم للعالم اخلاقية اسمى وحرية اعظم ونورا جديدا • الاستاذ ، الذي كان الحكم ، وهو رجل حليق جاد يضع قبعة عالية ، حكم ان مسرحيتي هي افضل المسرحيات المقدمة • ولكنه من قبيل الحرص ، وصمها (بكاتاريفوزية (١) بليغة) بأن فيها عبارات جريئة واثارة جنسية جامحة • وقد قال في النهاية « اننا نمنح الشاعر التاج الغاري الا اننا نطرده من هذه الرياض المقدسة » • كنت في المدرج الكبير في الجامعة ، تلميذا غرا غير ملتح ، وسمعت ما قاله فتضرجت ووقفت ثم اندفعت خارجا وقد تركت اكليل الغار على طاولة الحكم •

كان لي صديق يعمل ملحقا في وزارة الخارجية • وكنا قد خططنا للسفر معا الى أوربا الغربية • فقال لي ذات يوم « يفضل ان تأخذ اكليل المبارزة • اذ اننا لن نستطيع الحصول على اوراق الغار شمالا وسنحتاج اليها من اجل الحمّام » •

علقت الاكليل على الجدار واحتفظت به • ومرت السنوات • وحين تحقق حلمنا اخيرا وانطلقت ، وصديقي ، الى المانيا ، اخذت الاكليل معي وخلال عامين كنا قد استهلكنا اوراقه كلها في الحمام •

---

(١) اللغة الافريقية الكلاسيكية .

١٦ ـ العودة الى كريت

كنـوسوس

عدتالى كريت في الصيف الاخير من سنواتي الدراسية · وجدت امي جالسة في مكانها المعتاد قرب النافذة المطلـة علـى الـدار · كانـت ترفو الجوارب · وكـان الوقـت مساء وقـد بدأت اختـي تسقـي اصص الحبـق والسمسق · وكانت العريشة فوق البئر مثقلة بالعناقيد الكبيرة غير الناضجة بعـد ·

لم يتغير شيء في البيـت · كان كـل شيء في مكانـه · الاريكة والمرآة والمصابيح وعلى الجدران ابطال عام ٢١ بشواربهم الكثيفة وصدورهم المشعرة والمسدسات على خصورهم : كانـوا الارواح العنيفـة المحكومـة بعواطفها والقادرة على فعل ـ وقد فعلت ـ الخير والشر حسبما كانت تدفعهم كآباتهم الداخلية · لقد كتب كاريسكاكيس للكاتب ستورناراس « ايها الاخ الباسل الكابتن نيكولاس · تلقيت رسالتك ورأيت كل ما كتبته · ان لمنخسي ابواقا وله ايضا توبوليكا ·وانني اعزف على ما اريد » والتوبوليكا الة موسيقية تركية بينما البوق يوناني · وهؤلاء الابطال لم يكونوا ارواحا نقيـة بـل كانوا أرواحا عظيمة · والارواح العظيمة خطرة دائما ·

انني لاتساءل غالبا عن السر الذي يجعل زهرة الحرية الزرقاء تجد غذاءها في مزبلة كهذه وتطلق جذورها فيها : مزيج من الكراهية والخيانات والمنازعات والمآثـر البطوليـة والحـب الوهـاج للوطـن الام والرقص على زالونغـون (١) ·

---

(١) ريف صخري شيد في التاريخ اليوناني . وعلى هذا الريف فضلت (٥٧) امراة يونانية عام ١٨٠٣ (١٨ ديسمبر) الموت على الاستسلام للاتراك فادين رقصة القين خلالها باطفالهن من اعلى الريف ثم تقفزن واحدة تلو الاخرى .

في الصباح التالي نهضت باكرا ومتنشطا وذهبت للبحث عن رفيقي اللذين لم اكن قد رأيتهما منذ أربع سنوات · لكن عضوي جمعية الصداقة السابقين لم يعد من الممكن التعرف عليهما · لقد مرت الحياة عليهما وسطحتهما · صارا ينفجران بالضحك حين يتحدثان عن جمعية الصداقة · كان لاحدهما صوت جميل وقد صار يدعى الى حفلات الزواج والتعميد واحتفالات العطل المدرسية · صار يأكل ويشرب ويغني · وصار الناس يعجبون بصوته الجميل وهو ، ايضا ، كان يشاركهم الاعجاب · لقد بدأ السير على المنحدر وصارت يداه ترتجفان من الافراط في الشرب · أما الاخر فقد درس الغيتار وصار يعزف مقطوعات عاطفية واغنيات راقصة برفقة صديقه · وجدت كلا منهما حسن التغذية ومرتاحا وأنفه محمر · لقد وجدا عملا في مشغل الصابون : انهما يكسبان عيشهما ويتمتعان بالحياة ويرعيان زوجتيهما ·

كنت أراقبهما وانا اصغي لكلماتهما دون ان اتكلم · لقد سدت حنجرتي· أكان من الممكن ، اذن ، ان يتحول اللهب الى رماد بهذه السرعة ؟ وهل كانت الروح متلاحمة مع اللحم ؟ كانا يعرفان مهر كل فتاة واين تستطيع ان تأكل اظرف المأكولات Loukoum واية حانة تقدم افضل الخمور ·

غادرتهما وانا طعين كما لو انني كنت في جنازة · وخطر لي ان الفضائل الثانوية اخطر بكثير من الرذائل الثانوية · لولا ان هذين الاثنين يغنيان ويعزفان جيدا لما دعيا الى الحفلات ولما سكرا ولما هدرا وقتيهما ولأمكن انقاذهما · ولكن بما انهما يغنيان جيدا ويعزفان على الغيتار جيدا فقد بدأ الانحدار ·

وفي اليوم التالي حين لمحتهما عن بعد غيرت طريقي · لقد خجلت لان صداقات واشواقا عديدة قد تلاشت من اعماقي بهذه السرعة وتلاشت معها خطط عظيمة عديدة لانقاذ العالم · لقد هبت الرياح وتعرت نهائيا شجرة الشباب المزدهرة · وتساءلت أما كان من الممكن ان تحمل شجرة الشباب هذه اية ثمرة ؟ أكانت هذه هي الطريقة التي انطلق فيها الاسطول الصغير ليمخر المحيط ولا ينتهي الا الى الغرق في هذا الحوض العائلي ·

رحت أفكر وحدي عبر الازقة وانا اعود مرة بعد الاخرى الى المرفأ لاستنشق من جديد رائحة الخروب والكباد المتعفن · كنت احمل دائما في يدي كتابا · دانتي احيانا واحيانا اخرى هوميروس وبينما أنا اقرأ الاشعار الخالدة كنت اشعر ان في وسع الانسان ان يكون خالدا وان السطح الغريب للعالم المؤلف من البيوت والناس والمتع والاهانات، تلك الفوضى غير المنسجمة التي ندعوها بالحياة ـ تستطيع ان تتوحد في صيغة منسجمة ·

ذهبت ذات يوم الى بيت الفتاة الايرلندية · لكنها كانت قد رحلت · ومررت بالمنزل مرة ثانية وانا احس بمرارة واسى غريبين لما فعلته ولما فشلت في فعله · كان يبدو كما لو انني قد اقترفت جريمة وهاانذا اعود مرة بعد اخرى للدوران حول الضحية · لم استطع النوم · وذات ليلة بينما كنت اعبر الحي التركي سمعت امرأة تغني موالا (١) شرقيا بصوت مليء بعاطفة حزينة متشنجة · كان الصوت عميقا واجش وكئيبا ينطلق من حنايا المرأة ويملأ الليل باليأس والسوداوية الحزينة · وحين أحسست انه من المستحيل علي ان اتابع السير وقفت انصت ورأسي مائل الى الجدار · لم استطع ان التقط انفاسي · ولما لم تعد روحي المختنقة قادرة على التلاؤم مع قفصها الطيني تدلت من قمة رأسي وراحت تتردد في ان تطير ام لا · لا · لم يكن الصدر الانثوي للمرأة التي تغني مترعا بالحب ، ليس ذلك السر الكلي الذي يزاوج المرأة والرجل ، ولا بالغبطة ولا بالامل بابن · بل كان مترعا بصرخة ، بامر موجه الينا لكي نحطم قضبان سجوننا المؤلفة من الاخلاق والخجل والامل وان نسلم انفسنا أو نهدر انفسنا او نتوحد مع (العاشق) الرهيب المغوي الذي يكمن منتظرا في الظلام والذي نسميه الله · وانا اصغي الى اغنية المرأة المرتعشة الحزينة في تلك الليلة شعرت ان الحب والموت والله متوحدون او انهم شيء واحد · ومع مرور السنوات صرت اكثر وعيا بهذا الثالوث الرهيب الذي يكمن في لجة الهيولي ـ في اللجة وفي قلوبنا · لم يكن ثالوثا بل ما كان يسميه احد المتصوفين الارثوذكسيين « الجوهر المحارب » ·

صمتت المغنية فابتعدت عن الجدار · لقد تخلص العالم من عدميته · وثبتت البيوت وانداحت الشوارع امامي بنعومة مرة اخرى وصرت قادرا على السير · رحت اتجول طوال الليل لكن عقلي ظل اخرس ولم تأتني اية فكرة تخفف من اضطرابي أو تغير من شكله · تركت جسدي يقودني وتنزهت على الجدران الفينيسية فوق البحر · كانت السماء مشعة وكل شيء يتلألأ · اتزاحت مجموعات النجوم منحدرة نحو الغرب ثم راحت تغيب وروحي تغيب معها · وهبت نسمة باردة جدا من الجبال ودخلت البيوت من خلل الشقوق المحيطة بالنوافذ فبرّدت النيام المتعرقين · وكنت استطيع ان اسمع المدينة وهي تتنفس في الصمت العميق ·

مررت ، تلك الليلة ، ببيت الفتاة الايرلندية مرة اخرى · كنت قد مشيت ساعات ودون أن أقصد ذلك أو اعيه وجدت نفسي أدور في دوائر متعارضة

---

(١) Amané : هي الاغنية التركية التي تتردد فيها كلمة « أمان ... أمان »

قربتني شيئا فشيئا من المركز ، بيتها . كأن هناك صرخة قد بقيت في ذلك البيت ، صرخة رهيبة مؤنبة كانت تدعوني ولم اكن استطيع مقاومتها . وقرابة الفجر وبينما كنت على وشك الوصول مرة اخرى امام نوافذها وابوابها الموصدة عبرت ذهني ومضة مشعة وانارته . لم تكن تلك صرخة بل هي اغنية المرأة الخشنة الكئيبة التي سمعتها ذلك المساء بينما كنت اعبر الحي التركي . لقد شوهت الاغنية في داخلها وتحولت الى زعيق حيوان وحيد لا رفيق له وقد ترك مهجورا .

الاغنية والزعقة الوحشية والصرخة اليائسة من الفتاة الايرلندية ـ كلها تحولت الى انشوطة حول عنقي وراحت تخنقني . تذكرت قولا مأثورا سبق لي ان سمعته من شفتي مسلم عجوز : « ان دعتك امرأة للنوم معها ولم تفعل حلت عليك اللعنة . الله لا يغفر ذلك وستوضع مع يهوذا في قاع الجحيم » ارعبني ذلك . وتوجهت مسرعا الى البيت وانا اتصبب عرقا باردا واترنح كحيوان جريح .

نزلت الدرجات على رؤوس اصابعي لئلا تطقطق وتوقظ والدي ثم ارتميت على فراشي . كنت ارتعش . في لحظة احس ان جسدي صار كالنار وفي اللحظة التالية ارتعش بردا . كان من الواضح ان حمى قد اصابتني . وجاءني النوم مثل عنكبوت سام ينسج شبكته من حولي . وحين استيقظت عند ظهر اليوم التالي كنت ما ازال ارتعش .

استمر هذا الالم ثلاثة ايام . لم يكن الما بل كان جسما ثقيلا في اعماق قلبي وكان في فمي طعم المرارة ، مرارة سامة . وبينما انا اتطلع من النافذة الى شجرة الاكاسيا في وسط الدار والى العريشة المثقلة بالعناقيد واختي تطرز وامي تروح وتغدو بصمت مقيدة الى نير خدمتها المنزلية المقدسة قفزت الكتلة الثقيلة من قلبي الى حلقي . كنت اختنق . احسست كأنني مطرود من الجنة . لا . لست مطرودا بل كان الامر كما لو انني بمحض اختياري قد قفزت من الشرفة السماوية وهربت ، تلك الفعلة التي اندم عليها الان وانا اجول دون عزاء خارج البوابات الموصدة .

قفزت من فراشي في اليوم الرابع منذ الصباح الباكر دون هدف واضح في رأسي ودون ان اعرف ما سأفعله ، فأخذت قلمي وبدأت اكتب .

وتحولت تلك اللحظة الى منعطف خطير في حياتي . ربما ان المي الداخلي في لحظة كهذه في صباح كهذا ، كان سيفتح لنفسه بابا ويهرب ومن يدري (لا بد انني فكرت بذلك ولكن دون ان اصوغه بوضوح) ربما لو ان الالم قد تجسد ولو ان الكلمات جسدته لرأيت وجهه وبرؤيته اتخلص من خوفي

منه • لقد اقترفت معصية كبرى • وربما انني اجد العزاء حين اعترف بهذه المعصية •

لهذا بدات احشد الكلمات واقذف بالقصائد وحكايات القديسين والروايات التي قرأتها • وبالنهب ، دون خيار ، من هذه وتلك بدأت اكتب • ولكن الكلمات الاولى التي سطرتها على الورق ادهشتني • لم يكن لدي شيء كهذا في ذهني • كنت ارفض ان اكتب شيئا كهذا فلم كتبته ؟ كأني لم اتحرر ابدا من اتصالي الجنسي الاول (رغم انني كنت متأكدا من تخلصي منه) وقد بدأت أبلور حكاية عن الفتاة الايرلندية ، حكاية مليئة بالعاطفة والتصورات الخيالية • لم يسبق لي ان تحدثت اليها بكلمات لطيفة كهذه ، ولم يسبق لي ان احسست بنشوة كهذه حينما لمستها مثلما اجد الان على الورق • كذب ، كذبات غير انني وانا اعدد هذه الكذبات ، أمامي على الورق بدأت أفهم لدهشتي ، انني كنت اجد بالفعل متعة كبيرة فيها ، أكانت حقيقية فعلا هذه الكذبات كلها ؟ ولم لم اكن اعرف بهذه المتعة خلال ممارستي لها ؟ ولم وانا أكتبها اعيها لاول مرة ؟

صرت احس بالزهو وانا اكتب • الم اكن إلها افعل ما اشاء معيدا صياغة الحقيقة ومشكلها كما احب ان تكون ـ كما كان يجب أن تكون ؟ كنت اجمع بين الكذب والحقيقة جمعا لا انفصام له • كان كل شيء عجينة اجبلها وادعكها بحرية حسب ما تمليه الرغبة ودون انتظار الاذن من احد • من الواضح ان هناك تشككا اكثر يقينا من اليقين ذاته • واحد جوانبه ايجاد قصة كاملة ارفع مستوى من ذلك البناء الواقعي الذي تعمل به الانسانية باسم الحقيقة •

تلك الفتاة الايرلندية التافهة المحنية قليلا صارت شخصية اخرى غير معروفة في كتابتي وبالنسبة لي ، انا الديك المنتوف ، فقد الصقت بنفسي ريشا هائلا متعدد الالوان لم يكن لي بالاصل •

انتهيت خلال ايام قليلة • جمعت المخطوطات وكتبت عليها « الافعى والليلك » بحروف حمراء بيزنطية ثم نهضت وتوجهت الى النافذة لاستنشاق الهواء • لم تعد الفتاة الايرلندية تعذبني الان • غادرتني لكي تستلقي على الورق ولم يعد في وسعها الانفصال عنه مرة اخرى • لقد نجوت !

كانت الغيوم تغطي السماء واصبح الجو معتما وكانت السماء تمطر • وتلاصقت الاوراق العريضة على الدالية وصارت العناقيد المكتنزة تتلامع كالزجاج • استنشقت عبير التراب المبلل ذلك العبير الذي يذكرني دائما بقبر محفور مجددا • لكن رائحة الموت قد تطهرت وامتلأ عقلي بشذى عذب •

وجاءت سنونوة مبللة بالمطر والتجأت تحت النافذة ٠ وكان الماء على السطح فوقي يهدل وينقر كرف من الحمام ٠

كنت ما ازال امسك بالمخطوطة في يدي وكأنها مخلوق حي صغير لم اكن اريد له أن يهرب مني ٠ وكأنني في قبضتي كنت أمسك بالسنونوة المبللة ـ أو كأنني قد تصالحت مع الفتاة الايرلندية ٠ لقد عاد الرماد من جديد الى تفاحة وها انذا امسك بالتفاحة في يدي ٠

خرجت الى الدار ورحت اتمشى جيئة وذهابا تحت المطر بين اصص الزهور متذوقا ٠ ها هو حقي ، المتعة التي تحسها شجرة ظمأى مغبرة حينما تشفق عليها السماء ويبدأ المطر بالهطول عليها ٠ كان المطر ، دائما ، يمنحني تلك الغبطة التي لا يعبر عنها ـ ولولا انني اخجل لقلت انها غبطة جنسية ٠ كنت احس كما لو انني الارض ، الارض العطشى ، والعنصر الانثوي في اعماقي ، المرأة المختبئة في اعماق احشائي تستيقظ وتتلقى السماء كما تتلقى رجلا ٠٠٠ رحت اتمشى جذلا تحت المطر ، لقد تخفف قلبي ٠ ولم اعد افكر بالصبية الايرلندية الا وانا اعيد تشكيلها وتجسيدها بالكلمات ٠ لقد بدأت الان تضطجع لتستلقي على الورق ٠ والحقيقة التي كانت تختزن الالم في قلبي طوال ذلك الوقت لم تكن الحقيقة الواقعية هي تلك المخلوقة المولودة حديثا من الخيال ٠ فبواسطة الخيال قمت بطمس الحقيقة واحسست بالخلاص ٠

هذا الصراع بين الحقيقة والخيال ، بين الله الخالق وبين الانسان الخالق، قد اسكر قلبي للحظة ٠ « ها هو طريقي وهذا هو واجبي » صرخت بذلك في الدار وانا اروح واجيء تحت المطر ٠ ان كل انسان يكتسب مكانة العدو الذي يصارعه ٠ وقد سرني ان اتصارع مع الله حتى لو كان في هذا دماري ٠ لقد أخذ طينا وخلق منه العالم وانا اخذ كلمات ٠ لقد صنع البشر كما نراهم (يزحفون على الارض) أما انا ، فبالهواء والخيال ، المادة التي تقوم عليها الاحلام ، فسأشكل بشرا اخرين بأرواح اقوى ، بشرا قادرين على مقاومة بلى الزمن ٠ وبينما بشر الله يموتون فان بشري سوف يعيشون !

انني اخجل الان وانا استعيد هذه الغطرسة الشيطانية ٠ ولكن في ذلك الحين كنت شابا ٠ وان تكون شابا يعني ان تتعهد باخفاء العالم وان تكون لديك وقاحة الرغبة في اقامة عالم جديد وافضل مكانه ٠

كان صدري مثقلا بالالم ٠ وعلى الرغم من ان التساؤلات القديمة قد تكورت بصمت في زاوية فان تساؤلات جديدة بدأت تبرز ٠ والطريق الذي اضيء امامي بغتة كان طريقا خطرا وشديد الانحدار ٠ كيف ظهر بهذه

الفجائية ذلك الطريق الذي لم يكن يخطر لي على بال ؟ ومن الذي فتح هذا الباب الداخلي واشار لي نحوه على انه البوابة المفترضة للخلاص ؟ هل فعل ذلك ألم الجب الذي لم يتحقق ؟ ام ان من الممكن ان يكون القديسون قد فتحوا الباب من الاساطير التي قرأتها وانا طفل ؟ أم فتحته كريت التي حين رأت انني لا استطيع مساعدتها بالقتال وضعت اسلحة اخرى بين يدي ؟

ولكي احول توجه افكاري فانني في الصباح التالي وبينما كانت اجراس الاحد تقرع والمسيحيون يتوجهون الى كنيسة القديس ميناس للصلاة توجهت الى معبد اخر . ذهبت اقدم احترامي الى القديسة كريت التي قامت من تراب كفوسوس العتيق .

ان سر كريت عميق جدا . وكل من يطأ هذه الجزيرة يحس بقوة سرية تتشعب بحرارة واحسان في اعصابه او يحس ان روحه تبدأ في النمو لكن هذا السر صار اعمق واغنى منذ اكتشاف هذه الحضارة المتعددة الفوائد بشكل هائل والمتعددة الالوان والتي كانت حتى ذلك الحين مدفونة تحت التراب ، هذه الحضارة المليئة بهذا النبل العظيم والغبطة الفتية .

غادرت المدينة سالكا الطريق الساحر الذي يؤدي الى المقبرة الجديدة . سمعت ندبا ونواحا فأسرعت الخطا . كان هناك تاجر اصيل من جيراننا وواحد من وجهاء ميغالو كاسترو قد مات منذ يومين وكانوا يدفنونه في المقبرة المحدثة مجددا . لقد مات شابا . وبينما كان اصدقاؤه ينقلونه تشبثت زوجته بالتابوت ورفضت ان تتركه . كنت امر في تلك اللحظة . فحولت وجهي لكي اتجنب رؤية الجثة ذلك انني منذ ذلك اليوم الذي كنت فيه في الرابعة من عمري حينما ، كما تذكرون ، رأيت عظام جارتنا انيكاتزال من قبرها صرت عاجزا عن رؤية جسد ميت . ان الخوف يهيمن علي . فأنيكا بلا شعر او عينين او شفتين تقفز امامي وتندفع للامساك بي بغية اجلاسي من جديد على ركبتيها . انا اعرف ، طبعا ، ان هذا ليس حقيقيا لكنني اعرف ايضا ان هناك اشياء اكثر حقيقية من الحقيقة نفسها ولهذا السبب اخاف واسرع خطاي كلما رأيت جثة .

كنت محاطا بالكروم وغابات الزيتون . لم يكن القطاف قد بدأ بعد ، العناقيد تتدلى مثقلة وتلامس الارض ، والجو تملأه رائحة أوراق التين . جاءت سيدة عجوز وتوقفت . رفعت أوراق التين التي تغطي السلة التي تحملها على ذراعها وأمسكت حبتي تين وقدمتهما لي .

سألتها : هل تعرفينني يا جدتي ؟

نظرت الي بدهشة وقالت : « لا . يا بني . أعلي أن أعرفك لكي

أعطيك شيئا ما ؟ أنت انسان . أليس كذلك ؟ وكذلك أنا . ألا يكفي هذا ؟ »

وضحكت ضحكة شابة عذبة ثم بدأت تعرج متجهة الى كاسترو .

كانت التينتان تنقطان عسلا . أظن أنهما أطيب ما ذقته في حياتي . لقد أنعشتني كلمات العجوز وأنا آكل . أنت انسان وكذلك أنا . وهذا يكفي .

وسقط قرب ظلي ظل . التفت فرأيت قسا كاثوليكيا . نظر اليّ وابتسم . قال :

« الاب مونيير » وهو يمسك بيده « ألديك ما يمنع من مرافقتي ؟ أنا لا أعرف اليونانية الحديثة ، أعرف القديمة فقط . »

فاكملت :

ضحكنا وتابعنا ترجيع الاشعار الخالدة ونحن نسير . وعرفت فيما بعد ان هذا الاب الذي يضحك ويستظهر ، وخصلة من الشعر الاشيب تتأرجح على جبهته ، كان مشهورا بورعه وذكائه . فقد نجح في اعادة عدد من الملحدين المشهورين في باريس الى الرعية . بعقله النير كان يجوب العالم وهو يتحدث ويمازح السيدات ، ولكن خلف هذا المظهر الخارجي اللاهي والديناميكي كان المسيح يتدلى مصلوبا كصخرة ثابتة حصينة . لا . ليس المسيح مصلوبا بل المسيح مبعوثا .

أسرع الحارس لتحيتنا وليشرح لنا عن الموقع . كان كريتيا بسيطا وفرحا يرتدي سروالا ويحمل عصا ضخمة وكان اسمه داوود . لقد تعلم الكثير خلال سنوات خدمته كحارس ودليل في كنوسوس . ولذا صار يتحدث عن القصر كما لو انه يتحدث عن بيته وقد استقبلنا كما لو أنه رب البيت .

وصار يمشي أمامنا وهو يشير بعصاه ليدل على المواقع : « أمامكم البلاط الملكي العظيم طوله ستون مترا وعرضه تسعة وعشرون مترا . هذه هي المخازن بجرارها الهائلة المزينة . فيها كان الملك يخزن منتوجاته ليطعم شعبه . لقد وجدنا رسوبات الخمر وزيت الزيتون في الجرار وبذور الزيتون والفاصولياء والحمص والقمح والشعير والعدس . لقد تفحّم كل شيء بسبب النيران الهائلة » .

صعدنا الى المخزن العلوي . من كافة الجهات كانت هناك أعمدة قصيرة وثخينة وملونة بالاسود والارجواني . رأينا في الممرات رسوما جدارية من الزهور والتروس والثيران . ووصلنا الى الشرفة العالية . وامتد من حولنا المشهد المنزلي السعيد . وفي مركز الافق يوكتاس ، رأس زيوس المسترخي ،

وكان القصر ، نصف القائم ونصف المتهدم ، يتلامع ببهـــاء بعد آلاف السنوات مستمتعا من جديد بشمس كريت المذكّرة • في هذا القصر لا يرى المرء توازن فن العمارة اليوناني • بل هنا يرى الخيال والعظمة واللعب الحر لطاقة الانسان الخلاقة • لقد نما هذا القصر وتوالد مع مرور الزمن ، ببطء وكعضوية حية ، كشجرة • لم يبن نهائيا حسب مخطط ثابت مسبق التصميم بل نما بالاضافات المتلاعبة والمنسجمة مع الحاجات المتجددة دائما مـع الايام • لم يقم المنطق الجامد والصارم ، هنا ، بتوجيه الانسان • هنا كان العقل مفيدا ولكن كخادم لا لسيد • كان السيد شيئا آخرا وشخصا آخر • أي اسم نستطيع أن نطلقه عليه ؟

التفت الى الاب وبحت له بأفكاري ثم سألته رأيه • فأجابني بابتسامة: « تريد أن تعرف من كان السيد ؟ من تتوقع أن يقول لك عنه قس الا الله ؟ الاله الكريتي هو السيد • كان يسيّر أيديهم وعقولهم وهم كانوا يبدعون • الله هو السيد الباني • وهذا الاله الكريتي كان نبيها وعابثا مثل البحر الذي يعانق الجزيرة • ولهذا ففي المشهد وفي القصر وفي الرسوم والبحر التوحد والانسجام الصحيحان » •

نزلنا السلم الحجري ورحنا نتطلع بصمت الى الرسوم على الجدران : عجول وزهور ليلك وأسماك في البحر الازرق ، والاسماك الطائرة التي تفتح زعانفها لكي تقفز فوق الامواج كما لو أن الماء ، عنصر الامومة لها ، يقيدها وهي تتوق لاستنشاق هواء أكثر نقاء • توقفنا على المسرح وهنا التهـــب الدليل حماسا • قال ووجهه يتوهج فخرا « هنا كانت تحدث مصارعة الثيران• لكن مصارعة الثيران الكريتية لم تكن مثل المصارعات الوحشية في أسبانيا• هناك ، كما قيل لي ، يتم قتل الثور وتنزع أحشاء الخيول • أما هنا فقـد كانت المصارعة لعبة دون دماء • كان الثور والانسان يلعبان معا • مصارع الثيران يمسك الثور من قرنيه ، ويغضب الحيوان فيرفع رأسه في الهواء عاليا مما يعطي المصارع قوة دفع فيقفز بحركة بهلوانية بارعة الى ظهر الثور ثم يقوم بحركة بهلوانية أخرى لينزل وراء ذنب الثور حيث تنتظره صبية لتأخذه بين ذراعيها • »

كان الاب يركز نظرته على الصفوف الحجرية للمسرح ، وكأنه يجاهد لسحب اللعبة المقدسة مجددا الى الضوء • شرحت له كلمات الحارس • فأخذني من ذراعي وتابعنا السير • وتمتم لي : « من الصعب ان تلعب مع الاله لعبة غير دموية • »

توقفنا قرب عمود مربع من الجص المصقول كانت على قمته العلامة المقدسة منقوشة : الفأس ذات الحدين • ضم الاب كفيه وحنى ركبتيه لحظة ثم حرك شفتيه وكأنه يصلي. •

استغربت وسألته : « ماذا ـ أتصلي ؟ »

ـ طبعا أصلي يا صديقي الشاب • كل شعب وكل عصر يمنحه الله قناعه الخاص به ، ولكن وراء الاقنعة كلها في كل عصر وفي كل عرق يبقى هو ذاته الله الدائم الذي لا يتغير •

صمت قليلا ثم أضاف : « ان لدينا الصليب شارة مقدسة لنا • وأجدادك الاقدمون كانت لهم الفأس ذات الحدين • لكنني أنحي جانبا هذه الرموز الفانية وأتحسس الله وراء الصليب ووراء الفأس ذات الحدين ، أتحسسه وأنحني له احتراما • »

كنت فتيا جدا في ذلك الحين • لم أفهم في ذلك اليوم ولكن عقلي استطاع ، بعد سنوات ، أن يحتوي هذه الكلمات وان يجعلها تثمر • وعندها رحت أنا أيضا أتحسس الوجه الخالد والابدي لله وراء الرموز الدينية • وبعد ذلك ، أيضا ، حين توسع عقلي أكثر وقوي قلبي ، بدأت أتحسس شيئا وراء وجه الله الهيولي ، الظلمة الرهيبة غير المسكونة • ودون ان يقصد ذلك قام ذلك الاب بفتح طريق أمامي في ذلك اليوم في كنوسوس • وسلكت ذلك الطريق غير انني لم أتوقف حيث كان يشاء لي أن أتوقف • فقد توغلت أكثر ، مدفوعا بفضولي الشيطاني • واكتشفت الهوة •

جلسنا بين عمودين • كانت السماء النارية تتوهج كالفولاذ • وكانت الجنادب على اشجار الزيتون المحيطة بالقصر تصم الاذان • وانحنى الدليل على العمود وأخرج كيس التبغ من تحت حزامه وراح يدرج لفافة • لم ينبس أي منا بكلمة • أحسسنا بقداسة اللحظة والمكان وعرفنا أن الصمت هو الشيء الملائم الوحيد • وحلقت حمامتان فوق رؤوسنا وحطتا على أحد العمودين • هذان هما الطائران المقدسان للربة العظيمة التي يعبدها الكريتيون • تريان أحيانا على عمود وأحيانا أخرى تضمهما الربة بين ثدييها الممتلئتين بالحليب •

قلت بهدوء : « حمامتان ••• » وكأنني خفت أن تخافا من صوتي وتغادرا العمود • فوضع الاب اصبعه على شفتيه وهمس « اهدأ » •

وعلى الرغم من أن عقلي كان طافحا بالاسئلة فانني لم أتكلم • لقد مرت الصور الجدارية الغريبة امام ناظري : عينان واسعتان لوزيتان ، شلالات من الضفائر السوداء ، وصيفات جليلات بنهود عارية وشفاه مليئة شهوانية وطيور ـ درج وحجل ـ وقرود زرقاء وأمراء مزينون بريش الطواويس في شعورهم ، وثيران هائجة مقدسة وكاهنات واهنات لفغن الافاعي المقدسة على أذرعهن ، وصبيان زرق في حدائق مزدهرة • الغبطة

والقوة والثروة : عالم مليء بالغموض ، برزت اطلنتس (١) من اعماق التربة الكريتية • وراح هذا العالم يحدق الينا بعينين كبيرتين سوداوين ، لكن شفتيه ظلتا مطبقتين •

أي عالم هذا ؟ سألت نفسي • ومتى سيفتح شفتيه ويتكلم ؟ وأية أعمال بطولية قام بها هؤلاء الاسلاف على الارض ذاتها التي نمشي عليها ؟

كانت كريت هي الجسر الاول بين أوربا وآسيا وأفريقيا • وكانت كريت اول مكان مستنير في أوربا المظلمة في تلك الايام • وهنا أيضا أنجزت الروح اليونانية رسالتها المقدرة لها : لقد أنزلت الله الى مرتبة الانسان • وهنا في كريت ايضا أصبحت النصب الهائلة الراسخة في مصر واشور صغيرة ومجيدة ، بأجساد تتحرك وأفواه تبتسم : وتطابقت ملامح الله ومنزلته على ملامح الانسان ومنزلته • انسانية جديدة وأصيلة مليئة بالرشاقة والبهاء والترف الشرقي راحت تعيش وتلعب على الارض الكريتية ، انسانية مختلفة عن اليونانيين الذين جاؤوا فيما بعد •

وفيما أنا اتطلع الى الهضاب الصغيرة الاليفة ، وأشجار الزيتون ذات الاوراق المبعثرة والسرو الممشوق المتأرجح ببطء والنافر من بين الصخور ، وفيما أنا أصغي الى الرنين الخفيف المنغم الصادر عن قطيع غير مرئي من الماعز وأستنشق نسيم البحر العذب الذي ينتشر على الهضبة ، تغلغل في أعماقي السر اليوناني القديم وتوغل وأصبح ، على ما أعتقد ، أقل غموضا • لم يكن هذا السر معنيا بالمشكلات العلوية بل بالمشكلات اليومية بكل تفاصيلها الحارة وبالمشكلات المستجدة دائما في حياة الانسان هنا على الارض •

سألني الاب : « فيم تفكر ؟ »
فاجبته : في كريت •

فقال مرافقي : « أنا أيضا كنت افكر في كريت • كريت وروحي ••• ولو انني تمكنت من الولادة من جديد فانني كنت سأتمنى رؤية الضوء هنا مرة أخرى ، على هذه الارض • هنا يكمن شيء من السحر غير المرئي •• هيا بنا نذهب • »
نهضنا وألقينا نظرة أخيرة بطيئة الحركة على المشهد الرائع • كنت

(١) جزيرة خرافية في المحيط الاطلسي ، غربي جبل طارق ، زعموا انها غارقة في اعماق المحيط .

أرغب أن أراه ثانية ، ولكن الاب همس متنهدا : « وداعا ·· وداعا للمرة الاخـيرة » ·

ولوح بيده للاعمدة وللباحات وللوحات الجدارية · « وداعا · من أطراف الارض جاء راهب كاثوليكي ليؤدي فروض الاحترام لك ولقد أداهـــا · فالوداع » ·

توجهنا عائدين · ولكن الطريق الحار والمغبر أنهك الاب · فتوقفنا عند دير صغير ينزل فيه دراويش يرقصون كل جمعة · كان الباب ذو القنطرة اخضر وله كف مفتوحة من البرونز ـ الرمز المقدس لمحمـد ـ فوق البـاب · وخافه الباحة النظيفة كانت مفروشة بحجارة بيضاء وكانت هناك أصص الزهور والعرائش على الاطراف وفي الوسط شجرة غار كبيرة مثقلة بالثمر · وقفنا في ظلها لنلتقط أنفاسنا · ورآنا أحد الدراويش من حجرته · فحيانا وهو يقترب منا واضعا يده على صدره وشفتيه وجبهته · كان يرتدي ثوبا أزرق طويلا وطربوشا طويلا من الصدف الابيض · وكانت لحيتــه سوداء مؤنقة وقرط فضي يتدلى من أذنه اليمنى · صفق بيديه فجاء صبي بدين حافي القدمين وجلب لنا مقاعد · جلسنا وتحدث الدرويش عن الزهور التي كنا نراها حولنا ثم عن البحر الذي كنا نراه يشع من بين أوراق الغــار الدقيقة · ثم بدأ يتحدث عن الرقص ·

● لولا أن الانسان يستطيع الرقص لما استطاع الصلاة · الملائكة لها أفواه ولكن تنقصها القدرة على الكلام ولذا فانها تحدث الله رقصا ·

وسأل الاب : أي اسم تطلقه على الله يا أبتي ؟

فأجاب الدرويش : ليس لله اسم · انه أكبر من أن تحتويه الاسماء · الاسم سجن والله حر ·

وأصر الاب : ولكن اذا شئت ان تناديه ، حين تكون هناك حاجة فأي اسم تستخـدم ؟

أطرق الدرويش مفكرا ثم افترقت شفتاه : « آه ! ـ هكذا أناديه · ليس الله · بل آه ·

وأربك هذا الكلام الاب فتمتم : انه على حق ·

وظهر غلام الدرويش البدين مرة اخرى ومعه ، هذه المرة ، صينية فيها قهوة وماء بارد وعنقودان كبيران من العنب · بدأت حمامتــان تتناجيــان وتهدلان على السطح فوقنا · أكانتا الحمامتين اللتين رأيناهما في كنوسوس؟ وحين صمتنا قليلا امتلأ الجو الديري بنهدات الحب · التفتُّ الى الاب · كان يحدق الى الحمامتين والسماء التي وراءهما وعيناه مترعتان بالدموع ·

وأحس أنني أراقبه فقال مبتسما : « العالم جميل ٠ نعم ٠ انه جميل في بلاد الشمس ـ حيثما تجد سماء زرقاء وحماما وعنبا ٠ وغارا فوق رأسك » ٠

كان يأكل العنب حبة حبة برضى تام ٠ وتستطيع أن تخمن أنه كان يأمل ان هذه اللحظة لن تنتهي ٠ وقال : « حتى لو تأكدت من انني ذاهب الى الجنة فانني سأدعو الله بأن يجعلني اذهب من أبعد الطرق اليها » ٠

احسسنا في باحة ذلك الدير الاسلامي بسعادة جعلتنا لا نحتمل الانصراف ٠

وظهر دارويش آخرون من الحجرات المحيطة ٠ كان للاصغر بينهم وجوه صفراء وعيون متقدة ٠ كانوا يبدون في سعي يائس نحو الله ٠ أما الكبار ، الذين لا بد أنهم وجدوا الله ، فقد كانت وجناتهم محمرة وعيونهم مليئة بالنور ٠٠ قرفصوا من حولنا ٠ وأخرج بعضهم السبحات من تحت الاحزمة الجلدية وبدأوا يسبحون بهدوء وهم يحدقون بفضول الى الراهب المسيحي ٠ بينما أخرج آخرون الشبق (١) الطويل وبدأوا يدخنون بعيون نصف مغمضة وبصمت وارتياح ٠

وهمس الاب : « أية سعادة هذه ! وبأي بهاء يشع وجه الله هنا أيضا من وراء هذه الوجوه كلها ٠ » ولمس كتفي متوسلا : « رجاء ٠ ان للدراويش نظاما دينيا فاسألهم عن قواعدهم ٠ »

ووضع اكبرهم سنا الشبق على ركبته ، وهو عجوز بلحية طويلة بيضاء ، وقال : « الفقر ٠ الفقر : ان لا تملك شيئا وان لا تثقل نفسك بشيء وان تسير الى الله عبر ممر مزهر ٠ الضحك والرقص والغبطة هي ملائكة الهداية التي تأخذ بأيدينا وتقود خطانا » ٠

والتفت الاب الي من جديد : « اسألهم كيف يستعدون للظهور أمام الله ؟ ابالصيام ؟ » ٠

ـ « لا ٠ لا ٠ » أجاب درويش وهو يضحك ٠ « نحن نأكل ونشرب ونشكر الله على ان منح الانسان الطعام والشراب ٠ »

وأصر الاب : « كيف اذن ؟ »

وأجاب الدرويش العجوز ذو اللحية الطويلة البيضاء : « بالرقص » ٠

ـ بالرقص ؟ قال الاب ٠ لماذا ؟

ـ لان الرقص يقتل الذات ٠ وبمجرد ان تقتل الذات لا يبقى اي عائق يمنعك من الاتصال بالله ٠

---

(١) بيبة تدخين تركية طويلة ـ قد تكون النرجيلة ٠

وأبرقت عينا الاب ، وهتف وهويشد على يد الدرويش : « انه نظام القديس فرانسيس • هذا بالضبط ما كان يفعله القديس فرانسيس • كان يرقص في طريقه عبر الارض وهو يصعد الى السماء • وقد اعتاد ان يقول : (وما نحن الا مهرجين لله • ولدنا لنلطف قلوب الناس ونزرع فيها السرور) وهكذا فانك ترى يا صديقي الشاب ، مرة أخرى ـ ودائما دائما وجه الله الـذي لا يتغـير •

وتجرأت على الاحتجاج : « ولكن في هذه الحالة لماذا تذهب البعثات الى أرجاء الارض كلها وتحاول ان تجعل سكانها ينكرون قناع الله الذي يناسبهم من اجل ان يضعوا قناعا اجنبيا ـ قناعا ـ مكانه ؟

ونهض الاب وقال : اجد الاجابة على هذا السؤال صعبة • ان شاء الله ستأتي الى باريس لاكمال دراستك فزرني الى بيتي • ثم ابتسم بدهاء •
ـ ربما حتى ذلك الحين اكون قد وجدت الجواب •
ودعنا الدراويش • ورافقونا الى الباب الخارجي بالبسمات والانحناءات وهم يلمسون مرة اخرى الصدر والفم والجبين •
وعلى العتبة قال لي الاب : قل لهم ، ارجوك ، اننا جميعا نعبد الله ذاته • قل لهم انني درويش في ثوب اسود •

١٧ ـ الحج عبر اليونان

وعدني والدي بسنة من الترحال الى حيث اريد اذا تخرجت بمرتبة الشرف العليا • كانت المكافأة عظيمة فانهمكت بكياني كله ، قلبا وروحا ، في الدراسة • وكان احد اصدقائي ، وهو كريتي بارع وشيطاني ، سيقدم امتحاناته معي • وجاء اليوم الحاسم فذهبنا معا الى الجامعة وكل منا في غاية القلق والتوتر • كنت اعرف كل شيء كما كنت قد نسيت كل شيء • كانت ذاكرتي خاوية وكنت خائفا • وسألني صديقي : هل تذكر شيئا ؟

ولا شيء •

ـ ولا انا • دعنا نذهب الى حانة البيرة ونشرب حتى نسكر ونحل لسانينا • هكذا كان والدي يذهب الى الحرب ـ سكرانا •

هيا بنا •

شربنا ، ثم شربنا اكثر وبدأنا نشعر بالسعادة • وسألني صديقي :

ـ كيف يبدو العالم لك ؟

مزدوجا ••

ـ وأنا ايضا • اتستطيع المشي ؟

نهضت وسرت عدة خطوات ثم اجبته : نعم •

فلنذهب اذن • القانون الروماني ـ ارتجف !

انطلقنا متشابكي الذراعين في البداية ثم استمد كل منا شجاعته وسار وحده وعلى قدميه • وصرخت : « هيه • يا باخوس يا سندي • امسك جوستينيان ورواياته المسكة المطرقية (١) القديمة والقه على الارض »

---

(١) باب من ابواب المصارعة تلوى فيه ذراع الخصم خلف ظهره .

وسألني صديقي : لم تدعو باخوس ؟ لقد شربنا البيرة ولم نشرب خمرا٠
ـ متأكـــد ؟
ـ الا تصدقني ؟ فلنرجع ونسأل ٠
ورجعنا ٠ فأكد لنا صاحب الحانة : « بيرة ٠ بيرة » وهو يسند خاصرتيه من الضحك :« الى اين تتجهان ايها السيدان ؟ »
ـلتقديم الفحص في مادة القانون ٠
ـ انتظرا سأتي معكما لكي اضحك ٠

نزع عنه صدريته وتبعنا ٠ كان الاساتذة ينتظروننا وهم متوجون في صف واحد فبدوا اشبه باسراب البعوض ٠ كان دماغانا يتوهجان ٠ وبحيوية هائلة أجبنا على اسئلتهم ٠ اجبنا عليها بلا مبالاة فيها شيء من الوقاحة مازجين فيها الابيات اللاتينية بترديد عال ٠ كان لسانانا يتحركان دون توقف وخرج كل منا بأعلى درجات الشرف ٠

سررنا جدا ٠ وخطط صديقي ان يفتح مكتبا للمحاماة في كريت وان يدخل قسم السياسة ٠ بينما أنا كنت مبتهجا لان هناك بابا للنجاة قد فتح لي ٠ لقد كانت احدى اهم رغباتي ، طوال عمري ، هي السفر ـ ان ارى والامس البلدان المجهولة وان اسبح في البحار المجهولة وان ادور حول العالم متفرجا على اراض وبحار وشعوب وافكار جديدة بشهية لا تعرف الاكتفاء ، وأن ارى كل شيء لاول مرة ولآخر مرة ، ملقيا نظرة بطيئة وطويلة ثم اغمض عيني واحس بالغنى يترسب في داخلي بهدوء او بشكل عاصف حسبما يشاء الى ان يبدد الزمن اخيرا عبر منخله الجميل مصفيا الجوهـر وحده من كـل المسرات والاحزان ٠ ان كيمياء القلب ، كما أعتقد ، هي الغبطة العظيمة التي يستحقها الناس كلهم ٠

الكناري الذي قدمه لي والدي كهدية في رأس السنة حين كنت طفلا ، كان قد صار جثة منذ سنوات ، لا ٠ لم « يصر جثة » ـ انني اخجل لان هـذا التعبير قد افلت مني ـ بل « رحل » ٠ هذا ما عنيت ان اقوله : رحل مثـل انسان ٠ بل الافضل القول انه « قد اسلم اغنيته الى الله » ٠ لقد دفناه في حديقة دارنا وبكت اختي لكنني ظللت هادئا لانني كنت اعرف انني ، طالما أنا حي ، لن اسمح له بالفناء « لن اسمح لك ان تفنى » همست له وانا اغطيه بالتراب « سنعيش ونسافر معا » ٠

وحين كبرت وغادرت كريت وتجولت في الارض كنت احس دائما ان هذا الكناري متعلق برأسي وهو يزقزق ـ مرددا في زقزقتـه اللازمـة المتميزة ٠ « فلتنهض ولترحل ٠ لم نحن هنا ؟ نحن عصفوران ولسنا محارتين ٠ فلننهض

ولنرحل » . لقد تحول رأسي الى كرة ارضية والكناري متمسك بقطبها رافعا عقيرته الحارة بالغناء نحو السماء .

كنت قد سمعت انه في الزمن القديم كانت المحظيات في الحريم يقفن كل مساء في صف واحد في الحديقة مستحمات و ... نهودهن مكشوفة وان السلطان كان ينزل اليهن ليختار . ولكن يمسك في يده منديلا يضعه تحت ابط كل منهن ثم يشمه . وكان يختار تلك التي كانت رائحتها تسره لذلك المساء .

وكانالامر شبيها بذلك معي حين كنت ارى البلدان المختلفة مصفوفة امامي كالمحظيات .

جلت بنظري على الخريطة بسرعة وحيوية . الى اين أذهب ؟ أية قارة واي محيط سأرى اولا ؟ كانت البلدان كلها تمد أذرعها الي وتدعوني اليها . كان العالم واسعا والحمد لله و - وليقل الكسالى ما شاؤوا - حياة الانسان واسعة ايضا . سيكون لدينا الوقت لرؤية البلدان كلها والتمتع بها .

فلم لا نبدأ باليونان !

□

دام حجي في اليونان ثلاثة اشهر . وحتى الان ، بعد هذه السنوات العديدة ، يخفق قلبي سعيدا ومضطربا كلما تذكرت الجبال والجزر والقرى والاديرة والشواطىء . انها لمتعة كبيرة ان تجوب اليونان وان تراها . متعة كبيرة وحزن .

جبت اليونان وبدأت ، بالتدريج ، ارى بعيني والمس بيدي ذلك الشيء الذي لا يستطيع الفكر المجرد ان يراه أو يلمسه : الوسيلة التي يتحد بها البهاء والقوة . وانني اشك ان عنصري الكمال ، آريز وافروديت (١) ، قد سبق لهما ان اتحدا بهذه الاصالة في اي جزء اخر من العالم ، اتحدا بهذه الاصالة كما هما متحدان في أرض اليونان القاحلة الباسمة ابدا . بعض مناطقها قاسية ومتغطرسة ومناطق اخرى مليئة باللطف الانثوي واخرى جادة وفي الوقت ذاته مرحة وبهية . لكن الروح مرت عليها كلها ومن خلال معبد أو اسطورة او بطل منحت لكل منها نفسا خاصة وملائمة . ولهذا فان أي امرىء يتجول في اليونان ، وتكون لديه عينان يرى بهما وعقل يفكر به ، فانه يتجول في توحد سحري لا ينفصم من نصر روحي الى اخر . في اليونان

---

(١) اريز : اله الحرب عند الاغريق وافروديت الهة الحرب والجمال ومن زواجهما ولدت هارمونيا .

يتأكد المرء من حقيقة ان الروح هي الاستمرار وهي زهرة المادة والاسطورة وهي التعبير البسيط والمركب عن الواقع الحقيقي . لقد سارت الروح على حجارة اليونان سنوات وسنوات وأينما ذهبت فانك تكتشف آثار خطاها الالهيــة .

للعديد من المناطق في اليونان طبيعة مزدوجة . وللانتقال الذي ينبع منها طبيعة مزدوجة ايضا . القسوة واللطف يقفان جنبا الى جنب يكمل كل منهما الاخر ويتزاوجان كرجل وامرأة . اسبارطة هي النموذج للقسوة واللطف . ينتصب امامك تايمجيتوس المشرع القاسي والمحتقر ، المليء بالمنحدرات الصخرية والجروف بينما يمتد تحتك السهل المغوي والمثمر كامرأة في حالة حب . من الجهة الاولى تايجيتوس ، جبل سيناء اليوناني ، حيث الالــه القاسي للشعب يملي الوصايا شديدة الصرامة : الحياة حرب ، والعــالم ساحة قتال وواجبك الوحيد هو الانتصار ، لا تنم ، لا تتزين ، لا تضحك ، لا تتكلم ، هدفك الوحيد في الحياة هو القتال ، ولهذا قاتل ! ومن جهة أخرى وعلى سفح تايجيتوس ـ هيلين . وما أن تبدأ بالتوحش وبازدراء متع الارض حتى يأتي نفس هيلين بغتة ، كشــجرة ليمون مزهرة ، ويجعل عقلــك مضطربــا .

كنت أتســاءل :

هل هذا السهل الاسبارطي فعلا لطيف وشهواني الى هذا الحد ؟ وهل شذا الدفلى فيه فعلا مدوخ بهذا القدر ـ أم أن هذا السحر يبرز ، ربما ، من جسد هيلين الجوّاب والمغطى بالقبل ؟ لا شك أن ايوروتاس لم يكــن ليمتلك بهاءه المغوي الحالي لو لم يجر كرافد في اسطورة هيلين الخالدة . فالارض والبحار والانهار ، كما نعرف جيدا ، ترتبط بأسماء عظيمة ومحببة، وتلازمها هذه الاسماء أبديا دون انفصام ، ثم تجري في قلوبنا . سر على ضفاف اليوروتاس المنخفضة وستشعر أن يديك وشعرك وأفكارك قــد تشابكت في عبير امرأة خيالية لكنها أكثر حقيقية وواقعية من المرأة التي تحبها وتلمسها . ان العالم اليوم يغرق في الدم ، والعــواطف تضطرم في جحيمنا الفوضوي الحالي ، لكن هيلين ، خالدة ونظيفة ، تقف راسخة في جو أشعارها المتميزة بينما الزمن يمر من أمامها .

كانت الارض عبقة ، وقطرات الندى متعلقة على أزهار الليمون وهي تتماوج تحت أشعة الشمس . وبغتة يهب نسيم لطيف وتسقط على جبيني زهرة ترشني بالندى . وتمر بي رعشة كما لو أن يدا خفية قد مستني . كانت الارض كلها تبدو مثلّ هيلين المستحمة الضاحكة الباكية . كانت تزيح حجبها المزدانة بزهور الليمون ، ويدها على فمها ، وعذريتها متجددة دائما

وهي تلحق برجل ، أقوى رجل يمكن ان يوجد • وحينما رفعت ساقيها بكاحلين أبيضين كالثلج ، التمع باطن قدميها بالدم •

ما الذي كانت هـــذه الهيلين ستؤول اليـــه لو لم يمر عليها نفس هوميروس ؟ مجرد امرأة جميلة مثل أخريات لا يحصى عددهن مررن على هذه الارض ثم فنين • وكانت ستختطف مثلما تختطف الفتيات الجميلات في قرانا الجبلية حتى الان • وحتى لو أدى هذا الاختطاف الى اشعال حرب فان أي شيء ـ الحرب والمرأة والمـــذبحة ـ كان سيتلاشى ويفنى لو ان الشاعر لم يمد يده لانقاذه • ان هيلين مدينة بخلاصها للشاعر • وهذا المجرى النهري الصغير ، يوروتاس ، يدين بخلوده الى هوميروس • وابتســـامة هيلين تلون الجو الاسبارطي كله • ولكن حتى ما هو أبعد من ذلك • انها قد تغلغلت الى مجرى الدماء فينا • وكل انسان قد شارك فيها بالتوارد ، والى يومنا هذا ما تزال كل امرأة تعكس فتنتها • لقد أصبحت هيلين صرخة حب • انها تتجاوز البلدان وتوقظ في كل رجل التوق الى القبل والقتل • وتحول كل امرأة نضمها الى صدورنا ، حتى أكثرهن ابتذالا ، الى هيلين •

وبفضل هذه الملكة الاسبارطية فان الرغبة الجنسية تتخذ لنفسهـــا أسماء رفيعة من النبل • والنوستالجيا السرية لعناق ما مفقود يحلي ويلطف الجانب الوحشي فينا • وحين نبكي أو نصرخ فان هيلين تلقي قيثـــارة سحرية في الجرعة المرة التي نتجرعها فننسى ألمنا نهائيا • وبيدها تمسك زهرة يطرد عبيرها الثعابين • بلمستها يستحيل الاطفال البشعون الى أطفال جميلين • وهي تفسخ عنزة الطقوس الباخوسية العريقة وتهز قدمها ذات الحذاء المربوط فيستحيل العالم كله الى كرم • ذات يوم حين تلفظ الشاعر القديم ستيزيكوروس Stesichorus بكلمة غير لائقة في حقها في أحد أناشيده أصيب بالعمى على الفور • فأمسك الشاعر بقيثارته ووقف أمام الاغريق في حقل كبير وهو يرتجف نادما وغنى قصيدته التراجعية (١) الشهيرة :

ما قلته عنك ليس صحيحا يا هيلين ،
فأنت لم تعتلي السفن السريعة
ولم تصلي الى أسوار طروادة

ثم بكى وهو يرفع يده وبغتة نزل النور ، ممتـــزجا بالدموع ، الى عينيـــه •

---

(١) القصيدة التراجعية هي القصيدة الاعتذارية Palinode التـي يعلن فيها الشاعر تراجعه من موقف سابق معروف عنه .

كان أسلافنا يعقدون مباريات الجمال على شرفها « هيلينيا Heleneia » ٠ لا شك أن الارض حلبة صراع وهيلين هي الانجاز الذي لا يمكن تحقيقه ، انجاز ما بعد الحياة وربما كان غير موجود ربما كان مجرد خيال ٠ في أحد المذاهب السرية يتقلص التراث الى تلقين أن الآكيين لم يحاربوا عند طروادة من أجل هيلين الحقيقية ، بل أن صورتها فقط اكتشـفت في طروادة وان هيلين الحقيقية قد التجأت الى مصر واختبأت في معبد مقدس وبقيت هناك دون أن يمسها نفس بشري ٠ ومن يدري - ربما كنا نحارب نحن أيضـا ويبكي كل منا الاخر هنا على الارض من أجل صورة هيلين فقط ٠ ولكن من جهة أخرى من يدري (ان الظلال في هيدز قد عادت الى الحياة حينما شربت دم انسان حي) - بكل هذه الدماء التي شربها ظل هيلين عبر آلاف السنين ربما صارت عاجزة عن العودة الى الحياة ؟

هذا ما أسأل نفسي عنه ٠ وأتساءل ان لم يكن الظل سوف يندمج بلحمه على نحو مفاجيء فيساعدنا بذلك على أن نعانق ذات يوم الجسد الحقيقي الحار لهيلين الحقيقية ؟!

تايجيتوس هو المحارب القاسي وهيلين زوجته ٠ وحين استنشقت عبير هيلين من بين دفلى ايوروتاس نسيت نفسي ٠ احسست بالخجل ٠ ومن اجل استنشاق هواء أكثر رجولة انطلقت ذات صباح لتسلق تايجيتوس ٠

بهجة الجبل وعبق الصنوبر والصخور النارية والصقور المحلقة فوقي والعزلة المنيعة - هذه الامور كلها أعادت القوة الى قلبي ٠ ظللـت اتسلق سعيدا ساعات عديدة ٠ وقبيل الظهر تجمعت غيوم سوداء فوقي ٠ وجـاء هزيم كتيم من الرعد فعدت راكضا وأنا أشعر بالعاصفة تتبعني ٠ رحت اقفز من حجر الى حجر وأنا أسابقها وأنافسها لكي لا تلحق بي ٠ ولكن بغتة اهتزت أشجار الصنوبر وأظلمت الدنيا وحوصرت بومضات البرق ٠ لقـد لحقت بي العاصفة ٠ غمرت وجهي بالارض لكي لا أسقط وأغمضت عيني ورحت انتظر ٠ راح الجبل كله يهتز والى جواري انقصفت شجرتا صنوبر وتهاوتا ترعدان في انحدارهما ٠ صرت أشم رائحة الكبريت في الهواء ٠ وبغتة هجم السيل ٠ هدأت الريح وراحت عقود هائلة من الماء تنسكب من السماء ٠ بدأ الصعتر والندغ والقصعين والنعناع باطلاق الروائح تحت وقع المطر ٠ وبدأ الجبل كله يطلق بخـارا ٠

نهضت واستأنفت نزولي مسـروا بالماء الذي ينهمر على وجهي وشعري ويدي٠كان زيوس الهابطZeus The Descender يسقط بكل قوته على الارض ، زوجته المختنقة التي تفتحت بضحكة مجلجلة لتتلقى الميـاه الذكريـة ٠

وسرعان ما انجلت السماء • لقد كانت العاصفة هبوطا عنيفا للروح القدس ، والان انتهى هذا الهبوط كما بدأ الكوكو بالاعلان • وفي اللحظة ذاتها غابت الشمس • وفي الوادي البعيد تحتي لمحت الخرائب المستحمة للقلعة الفرانكية فيليهاردوينز على قمة هضبتها فوق ميسترا • وتحولت السماء كلها الى ذهبية وخضراء •

وفي اليوم الثاني ذهبت كحاج عبر البساتين وغابات السرو الى ميسترا، بومباي الاغريق . تمتلك هذه الهضبة المقـــدسة ، مسقط رأس اليونان الحديثة ، كل المفاتن الظاهرة والسرية التي تلزم لاغواء أقوى الارواح ، أشجار الليمون والبرتقال ، والازقة الضيقة الملتوية ، الاطفال أنصاف عراة يلعبون في الشوارع ، والنساء الذاهبات لجلب الماء ، والفتيات الجالسات تحت الاشجار المزهرة وهن يطرزن • لقد عادت الحياة للتشبث بهذه التربة من جديد وهي تجهد للعودة الى تسلق الهضبة العريقة كلها • هذه أول منطقة في ميسترا ، المنطقة الخضراء والمسكونة • بعد قليل يبدأ الصعود المغبر والقاحل ، وبالمسير بين البيوت المتقوضة تصل الى الكنـــائس البيزنطية الفاتنة المقمرة بالشمس ـ بيريفليبتوس • ميتروبولي ، آغيوي تيودوروي، أفينديكو وبانداناسا • هذه هي المنطقة الثانية في ميسترا وهي مكتظـــة بالكنائس •

عطشت فدخلت دير باندانـاسا لاطلب من الراهبات كأس ماء • كانت الباحة مضاءة والغرف مبيضة ونظيفة والارائك مغطـــاة بأستار صوفية ملونة • أسرعت الراهبـــات لاستقبالي • كان بعضهن شابات وأخـريات متيبسات بالروماتيزم وكلهن شديدات الشحوب لان عليهن العمل بجـدية وقسوة لكي يعشن • انهن يسهرن ويصلين ولا يحصلن على طعام يكفي لتهدئة جوعهن • وحين تكون لديهن ساعة فراغ فانهن ينكببن فيهـا على عملهن اليدوي لتطريز رسوم تقليدية ـ زهور حمراء بخيطان حريرية حمراء ، وصلبان وأديرة وأصص مليئة بالقرنفل واشجار سرو صغيرة • وحين يقمن بفرش هذه المطرزات أمامك بفخر يستولي عليك الحزن وكأنهن يعرضن أمامك مهورهن • يبتسمن ولا يقلن شيئا ولكنك تعرف ان العريس غـير موجـود •

كانت باندانـاسا تلتمع في الشفق الاخضر العسلي مثل جن بيزنطي من العاج مشغول بالاناة والحب لتعبئته بأنفاس العذراء الحلوة والدافئة • اية وحدة واي تركيز واي بهاء تمتلك هذه الكنيسة ابتداء من حجر الزاوية في الاساس الى الانحناءات الشهوانية في القبة • كان المعبد الساحر كله يحيا ويتنفس بسلام مثل كائن حار وحيواني • الحجارة كلها والنقوش والرسوم

والراهبات تتواجد مثل قوائم عضوية لهذا الدير وكأنها كلها ذات ظهيرة قد ولدت في وقت واحد ومن الرعشة التناسلية ذاتها ٠

لم اتوقع ابدا ان اجد نعومة كهذه وفهما انسانيا دافئا كهذا في الرسوم البيزنطية ٠ قبل ذلك لم اكن ارى سوى الاشكال القاسية والمتقشفة ممسكة برقوق مغطاة بحروف حمراء تدعونا لاحتقار الطبيعة والهرب الى الصحراء ، والى الموت من اجل الخلاص ٠ ولكن هنا ارى الوانا زاهية ووجوها فيها الحد الاقصى من الحلاوة ٠ المسيح يدخل القدس على حيوانه المتواضع لطيفا ومبتسما والتلاميذ يتبعونه بسعف النخيل والناس يحدقون اليهم بأعين مغتبطة كما يحدقون الى غيمة عابرة تمر وتتلاشى ٠٠ كان الملاك الذي رأيته في افنديكو ، ذلك القوي الجميل بلونه الاخضر المستمد من النحاس المتأكسد وبشعره الاجعد المربوط بشريطة كبيرة ، وبخطوته النابضة وركبتيه القويتين المدورتين يشبه عريسا يتقدم ـ ولكن الى اين يتقدم بهذه السرعة وهذه الغبطة ؟٠

في هذه اللحظة بدأت الاجراس تدق بنعومة وحلاوة معلنة عشية الجمعة الحزينة ٠ دخلت الى مدخل الكنيسة الدافىء والمقبى (١) ٠ في الوسط كان هناك الابيتافيوس (٢) مغطى بأزهار الليمون والظلة الضريحية ، وعلى ازهار الليمون كان يستقي ميتا ، (هو) ذلك الذي يموت دائما ويبعث دائما٠ سمي مرة ادونيس والان يسمى المسيح ٠ كانت النساء الشاحبات المتشحات بالسواد راكعات من حوله منحنيات عليه يندبنه ٠ وكانت رائحة الشمع تملأ الكنيسة وتجعلها اشبه بخلية النحل ٠ فكرت بالراهبات الاخريات ، « الميليسيات » (٣) في معبد افيزيان ارثميس (٤) وفي معبد ابولو في دلفي المبني من الشمع والريش ٠

وبغتة انفجر نحيب النساء في ترنيمة لا تحتمل وبقوة كبيرة ٠ كنت اعرف ان المعاناة الانسانية هي القوة التي ستبعث الله ، اما هنا ، في مملكة هيلين ، فان قلبي لم يكن متهيئا ابدا للنحيب ٠ لم تكن الظلمة قد حلت بعد ٠ فنهضت واستأنفت صعود الهضبة ببيوتها الخربة وابراجها الممددة على الارض ، وكما لو انها تاج حجري على القمة كانت قلعة فليهار

(١) مسقوف بقبة .
(٢) نطعة من الازهار تمثل المسيح ممددا في القبر . توضع في الكنيسة يوم الجمعة الحزينة .
(٣) نسبة الى بنتي ميليسيوس ادراستيا وادا ، اللتين ربتا زيوس عند تخفيه في طفولته .
(٤) ارتميس ربة خصب لها معبد في افيزيوس .

دوينز الشهيرة • البوابة الكبيرة المحصنة مفتوحة والباحات خالية • صعدت الدرج المكسر ووصلت الى الشرفة فجعلت مجموعة من الغربان تطير وقد فوجئت بي • نظرت الى السهل الخصب الممتد تحتي والى الدخان الذي يتصاعد من الاكواخ الواطئة • كنت استطيع سماع قرقعة عربة واغنية مليئة بالعاطفة واطلق الجو المحيط بي تنهيدة • كانت الاشباح تملأ الهواء • نهضت بنات السادة الفرنكيين الشقراوات من القبر ونهض معهن الفرسان المدججون بالسلاح الذين جاؤوا الى بيلوبونيسوس بهيئة فاتحين وتزوجوا فتيات اغريقيات فتمازجوا مع الدم الاغريقي ونسوا مسقط رأسهم • وبفضل نسائنا ذوات البشرات السوداء وشعورهن السوداء الغامقة وعيونهن الواسعة تم التغلب على المنتصرين •

بعد ايام قليلة استمتعت بمنظر اخر • تعبر مجرى نهر جاف مظلل بأشجار الدلب ومطرز بالصفصاف ، وتتسلق جبلا اجرد تفوح منه روائح الصعتر والندغ خاليا من القرى والناس والماعز والغنم ـ مهجورا تماما • وبغتة ، وراء عطفة في التضاريس يلوح لك مفاجئا معبد ابولو الشهير في باساي في قلب بيلوبونيسوس • انه مبني من الحجارة الرمادية ذاتها التي تشكل الجبل • وما ان تواجهه حتى تحس بالتواصل العميق القائم بين المعبد والموقع • يبدو كأنه قطعة من الجبل ، صخرة من صخوره ، محشور دون تمييز بين منحدراته ـ هو نفسه جرف ، لكنه الجرف الذي مرت فوقه الروح • واعمدة هذا المعبد ، بنقوشها وموقعها تعبر عن الجوهر الفعلي لهذه القسوة وهذه الوحشة • كان يبدو كما لو ان المعبد هو جمجمة المشهد المحيط به ، او دائرة الاستحكام المقدسة التي يحتمي داخلها الفناء ويقوم العقل بدور الحارس اليقظ • هنا تبرز فنية الاقدمين مستمرة ومعبرة عن المشهد بكماله ولا تجعلك تشهق دهشة بل ترفعك الى القمة في طريق بشري بلطف وبراعة بحيث لا يضيق نفسك ، انما يمكنك القول ان الجبل كله كان يتوق ، منذ دهور ، في اعماق جسده القائم لأن يجد التعبير عن نفسه و في اللحظة التي حصل فيها على معبد ابولو ارتاح • ارتاح ـ او بمعنى اخر توصل الى معنى ، معنى خاص به وفرح •

كل يوم وانا اسير على الارض اليونانية ، كنت ازداد ادراكا ان الحضارة الاغريقية القديمة لم تكن زهرة (فوق طبيعية) معلقة في الفراغ ، بل كانت شجرة مدت جذورها عميقة في الارض ، وامتصت الطين ثم حولت هذا الطين الى ازهار • وكلما اكثرت من امتصاص الطين كلما كان ازدهارها اكثر غنى واتقانا • ان بساطة الاقدمين الغنية وموازنتهم للامور وصفاءهم لم تكن فضائل طبيعية تم التوصل اليها بسهولة ويسر من قبل شعب متزن وبسيط • بل هي مآثر صعبة ونتائج سعي مؤلم وخطر • الصفاء اليوناني هو صفاء

سحري ومعقد • وهو الموازنة بين القوى المتناقضة بشدة ، بعد تعب شديد وكفاح طويل تم التوصل الى السلام والوئام فيما بينها ووصلت الى النقطة التي وصفها صوفي بيزنطي بالتلقائية Effortlessness وبمعنى اخر انها قمة الجهد •

والعامل الذي جعل جبال اليونان وقراها وتربتها ألقة بهذا المقدار هو الضوء • الضوء في ايطاليا ناعم وانثوي وفي ايونيا لطيف جدا ومليء بالتوق الشرقي ، وفي مصر كثيف وحسي اما في اليونان فالضوء روحاني خالص • لقد نجح الانسان ، بقدرته على الرؤية الواضحة في هذا الضوء ، في فرض النظام على الفوضى وفي اقامة « كون منظم » Cosmos - والكون يعني التناغم •

ظهرت سيدة صغيرة الجسم وطاعنة في السن من كوخ الحارس القريب من المعبد • كانت تمسك بتينتين وعنقود من العنب في يدها • كانت اول ما نضج في هذا السهل المرتفع وهي راغبة في تقديمهما الي كهدية • كانت عجوزا نحيلة وعذبة ولا شك انها كانت تشع بهاء في شبابها • سألتها :

- ما اسمك ؟•

● ماريا •

ولكنها حين رأتني امسك قلمي لاسجل اسمها مدت يدها المجعدة لتوقفني ، وقالت بدلع فتي « ماريتسا » •• فطالما ان اسمها سيخلد بالكتابة فقد كانت تبدو راغبة في انقاذ اسمها الاخر : اسم الدلع • انه سيوقظ احلى اللحظات في ذاكرتها • « ماريتسا » كررت الاسم وكأنها خافت ان لا اكون قد سمعته •

كنت سعيدا ان ارى الانوثة الابدية عميقة الجذور حتى في اكثر الاجساد تداعيا • وسألتها :

● ما هذا الذي حولنا ؟

- الا ترى ؟ حجارة •

● ولم يأت الناس من اطراف الارض لرؤيتها ؟

ترددت العجوز لحظة ثم سألتني وهي تخفض صوتها : « اأنت اجنبي ؟ » •

- لا • يوناني •

فهزت كتفيها متشجعة وهتفت «الاجانب بلهاء» ثم انفجرت بالضحك•

لم تكن هذه المرة الاولى التي ارى فيها هؤلاء العجائز ، اللواتي يرعين المعابد القديمة والكنائس الشهيرة التي تحتوي على الايقونات المتقنة

الصنع ، وهن يضحكن ساخرات من القديسين او مـن القديسين الرخاميـين القدامي الذين يحرسنهم • انهن يعاشرنهم يوميا والالفة لا بد ان تولد الاستهتـــار •

كانت ماريتسا العجوز تراقبني بارتياح وانا آكـل من العنب الحـامض اللذيذ الذي اعطتني اياه • وسألتها وانا احاول اثارتها :

● وما هـو رأيك في السياسة ؟•

ـ ايه يا ولدي • اجابتني بكبرياء مفاجئة • « نحن هنا علـــى علو كبير ، مفصولون عن العالم ولا نسمع عربدته » •

« نحن » ـ وكانت تعني « انا والمعبد » • وقد لفظت كلمة « مفصولون » بلهجة متعالية تحمل معنى « أسمى » • سررت • فاشارة هذه العجوز قـد افعمت قلبي بالسرور اكثر مما فعل المعبد •

رحت اتمشى جيئة وذهابا تحت الاعمدة ، كان المطر قد هطل منذ يومين وما تزال برك الماء هادئة وصافية في تجاويف الرخام المكسور • انحنيـــت فوقها فرأيت الغيوم البيضاء الخفيفة تعبر كالاشباح سطح الماء • لقـــد قرأت مرة ان الاله كان يعبد بهذه الطريقة في الشرق الاقصى : في تجاويـف مليئة بالماء تمر فوقها الغيوم •

وبينما كنت عائدا الى السهل رأيت رجلا عجوزاً راكعا على الحجارة • كان منحنيا على قناة يراقب الماء يجري فيها ووجهه مغسول بغبطة معجزة • كان يبدو وكما لو ان انفه وفمه وخديه قد تلاشت ولم يبق شيء الا العينان اللتان تتابعان الماء في جريانه بين الصخور • صعدت اليه • وسألته : •

ـ ماذا ترى هناك ايها العجوز ؟•

واجابني دون ان يرفع رأسه او يزيح عينيه عن الماء « حياتي •• حياتي تجـــري » •

□

في اليونان تتأنسن الاشياء كلها ـ الجبال والانهار والبحار والوديان ـ انها تتحدث الى الانسان بلغة هي على الاغلب بشرية • انها لا تعذبه ولا تهيمن عليه بشكل ساحق ، بل تصادقه وتزامله في العمل • وصرخة الشرف القلقة المشوشة تصبح صافية حالما تمر عبر ضوء اليونان : تؤنسن • تتحول الى لوغوس Logos : عقل • فاليونان هي المصفاة التي تنقي ، بجهـد كبير ، الوحش وتصفيه انسانا • والعبودية الشرقية تجعلها حرية والنشوة الهمجية عقلانية « حكيمة » • ان اصباغ الملامح على ما لا ملامح له والبعد

الى ما لا ابعاد له والموازنة بين القوى المتصارعة العمياء ·· تلك هي رسالة البحر المكافح والارض المعروفة باليونان ·

الترحال عبر اليونان فرح حقيقي واغتناء عظيم · لقد كانت الارض اليونانية المشبعة بالدم والعرق والدموع ، والجبال اليونانيـة ترى الكثير من الكفاح البشري الى درجة انك ترتجف جين تفكر في انه ، هنا ، وعلى هذه الجبال والشواطىء تقرر مصير العرق الابيض ـ والبشرية كلها ، ولا بد انه على واحد من هذه الشواطىء المليئة بالبهاء والمرح قد حدث التحول المعجز من الوحش الى الانسان · ولا بد انه على شط يوناني كهذا القت عشتروت ذات الاثداء الخنزيرية المتعددة مرساتها من آسيا الوسطى · واليونانيون الذين استلموا التمثال الخشبي المحفـور دون اتقان قاموا بتخليصه من وحشيته ولم يبقوا عليه الا الثديين البشريين ومنحوه جسدا بشريا مليئا بالنبل · من آسيا الوسطى اخذ اليونانيون الغريزة البدائية والنشوة العربيدية والصرخة الوحشية ـ عشتروت ، وقاموا بتحويل الغريزة الى حب والعض الى قبل والعربدة الى عبادة دينية والصرخة الى هدهدة عاشق · حولوا عشتروت الى افروديت ·

ان موقع اليونان الروحي والجغرافي يحمل معه احساسا غامضا بالرسالة والمسؤولية : ذلك ان تيارين دائمي النشاط يتصادمان على ارضها وبحارها · لقد كانت المكان المعرض دائما ، جغرافيا وروحيـا ، لدوامات عاصفة لا تتوقف · وهذا الموقع المقدور قد اثر تأثيرا عميقا على مصير اليونان وعلى مصير العالـم بأسره ·

لقد رأيت اليونان وشممتها ولمستها وانا اسير على قدمي حاملا قضيبا من الزيتون في يدي وخرجا على كتفي · وفيما كانت اليونان تتغلغل اعمق فأعمق في داخلي كنت احس من اعماقي ان الجوهر السري لارضها وبحرها موسيقي · وفي كل لحظة يتغير المشهد اليوناني قليلا لكنه يبقى ذاته · تموج جمالها وتجدد نفسها · ان فيها وحدة عميقة وفيها في الوقت ذاته تنوعا دائم التجدد · وانني لاتساءل ما اذا لم يكن الايقاع ذاته هو الذي يحكم فن اليونانيين القدامى ، ذلك الفن الذي ولد من التأمل والحب والفهم واعطاء التعبير المحدد للعالم المرئي من حوله · انظر الى عمل من الفتـرة الكلاسيكية العظيمة · انه ليس جامدا بل ان رعشة غير ظاهرة تعبره تماما كالصقر الذي يتردد في أعلى تحليقه ، جناحاه يصفقان لكنه يبدو لنا ثابتا وهكذا بالطريقة ذاتها يتحرك التمثال القديم بشكل غير مرئي ويحيا · وفي لحظة خالدة واحدة يستمر فيها التراث الفني ويجهز المضمار لمستقبل الغن ، تمسك المجرى الثلاثي للزمن في توازن كامل ·

بكفاحهم طهر اليونانيون كل منطقة واخضعوا كلا منها للمعنى السامي لذي يشكل جوهرها المحدد • وبالجمال والعواطف المنظمة حولوا الطبيعة لمادية لكل منطقة الى ميتافيزيق • ازالوا العشب والتراب والحجارة واكتشفوا الروح الباردة في اعماق المنطقة وتحت ارضها • كانوا يجسدون هذه الروح احيانا في هيئة معبد فخم واحيانا في اسطورة واحيانا اخرى في لـه طبيعي •

ساعات وانا احدق الى فسحة اولمبيا المقدسة ، نبلها وهدوءها المتأمل والوادي المبهج المرحب بين سفوح التلال الاليفة التي تحميه من الريح لشمالية القاسية والريح الجنوبية الحارقة وتتركه معرضا في جانبه الغربي فقط للماء حيث يصل نسيم البحر البارد هابطا اليه من ألفيوس • ليس هناك من مكان اخرى في اليونان يثير فيك هذا الشعور بالسلام والانسجام وبهذا اللطف وبهذه القوة • بعيونهم التي لا تخطىء حدد اليونانيون القدامى هذا الموقع لالتقاء سلالاتهم بأخوّة مرة كل اربع سنوات وبتحديد هذه لوظيفة له ملأوه بالمعاني وزادوا في هدوئه وقوته لكي يوحي بالتصالح والوئام •

لقد تمزقت اليونان بالغيرة والكراهية والحروب الاهلية • وتتالت لديموقراطيات والارستقراطيات والاستبداديات يفني كل منها الاخرى • لحصون المغلقة والجزر المعزولة والشواطىء المهجورة والمدن ـ الدول الصغيرة لمستقلة خلقت ، كلها ، عضوية واحدة متعددة الرؤوس محكومة بالكراهية لمتبادلة وبالعواطف الجياشة في كل صدر • وبغتة في كل اربع سنوات مرة كان الرسل المكللون Spondophoroi ينطلقون من هذا الوادي المقدس صيفا في عدو متواصل حتى اخر اطراف العالماليوناني • فيعلنون الشهر المقدس Hibromenia للالعاب ويعلنون هدنة عامة ويدعون الاصدقاء والاعداء لمجيء الى اولمبيا للتنافس • من بيلو بونيسوس كلها ومن اليونان القارية ومن مكدونيا وتسلى وابيروس وتريس ومن شواطىء البحر الاسود وآسيا لوسطى ومصر وسيرين ومن ماغنا غراشيا وصقلية كان الرياضيون والزوار يسارعون الى المهد الهليني المقدس للرياضة • ولم يكونوا يسمحون للعبيد ن يطأوا الارض هنا ولا المجرمين او الاجانب او النساء • اليونانيون الاحرار فقط •

لم يسبق لشعب اخر ان ادرك القيمة الواضحة والخبيئة للرياضة بهذا الكمال • حين تنجح الحياة بقوة الجهد اليومي في قهر الاعداء المحيطين بها ـ القوى الطبيعية والوحوش والجوع والعطش والمرض ـ فانه من حسن الحظ ان تكون هناك قوة متبقية فائضة • هذه القوة تحاول ان تبدد نفسها في الرياضة • الحضارة تبدأ في اللحظة التي تبدأ فيها الرياضة • وطالما ان

الحياة تناضل من اجل البقاء ـ حماية نفسها من الاعداء وتمكين نفسها من البقاء على وجه الارض ـ فان الحضارة لا يمكن ان تولد ٠ انها تولد في اللحظة التي تشبع فيها الحياة حاجاتها الاولية وتبدأ في التمتع بقليل من الفـــراغ ٠

كيف يمكن استخدام هذا الفراغ ؟ وكيف يوزع بين الطبقات الاجتماعية المختلفة ؟ وكيف يزداد ويصفو حتى اقصى الحدود ؟ طبقا للكيفية التي يحل بها كل عرق وكل عصر هذه المشكلات يمكن الحكم على قيمة حضارتــه ونوعيتهـــا ؟٠

كنت أتمشى بين خرائب الالتيس Altis متمتعا برؤية الحجارة ذات القشور المجهزة لبناء المعابد ٠ هذه الحجارة حطمها المسيحيون وبعثرتهـا الهزات الارضية ٠ الامطار والفيضانات الالفية (١) ازالت تقرحاتها اللونية المذهلة ٠ كما ان التماثيل احرقت من اجل الكلس ولم يبق لنا الا القليل ولكن هذا القليل كاف لتعزية عقولنا ٠ التقطت قطفتين او ثلاث قطفات من النعناع المتبرعم من الفتحة التي قيل ان تمثال فيدياس الذهبي والعاجي كان واقفا فيها وملأت كفي الرائحة الخالدة ٠

لقد صارع الانسان في هذا المكان الغامض غير ان الآلهة صارعت قبله ٠ قام زيوس (٢) بقتال كرونوس ، والده ، لكي يأخذ منه مملكته ٠ وابولو ، اله الضوء ، هزم هيريس (٣) في العدو وهزم آريس (٤) في الملاكمة ـ العقل هو الذي هزم الزمن ، والضوء هزم القوى المظلمة للخداع والعنف ٠ كان على الابطال ان يتنافسوا هنا بعد الالهة ٠ لقد جاء بيلوبس مـن آسيا وهـزم اونيوماوس (٥) المتوحش المتعطش للدماء واخذ ابنته ، مروضة الخيـول ، هيبوداميا ٠ ان الحضارة الايونية المتقدمة ، المليئة بالبهاء والصفاء ، قـد هزمت المواطنين الهمج في المنطقة ٠ هم اخضعوا الحصان وروضوه كما زادوا في قدرة الانسان ٠ وبطل اخر ، هو هيراكليس (٦) ، بعـد ان قـام باخلاء

---

(١) نسبة الى نهـر الفي ٠
(٢) كبـير الالهـة ٠
(٣) هورسـولي زيوس في الاودية وهو اله العاصفة واله الفجر كما يشتقون اسمه من كلمات يونانية تعني الحجر او الصخر او الحماية ٠
(٤) اله الحرب والشجاعة الوحشية العمياء والغضب الدموي والمذابح ٠
(٥) ابن اديس من زواجه بربة النهر اسبوس منحه والده جوادا مجنحا وترر ان لا يزوج ابنته هيبوداميا الا لمن يسبقه لان النبوة قالت له ان صهره سيقتله وقد نجح بيلوبس بن تانتالوس ملك فريجيا في ذلك ٠
(٦) هرقـل ٠

الاسطبلات الاوجية جاء الى هنا ليقدم القرابين العظيمة الى زيوس ، الاله الجديد · ومن الرماد المتبقي من الضحايا التي قام باحراقها اقام مذبحا ودعا الى الالعاب الاولمبية الاولى · وراح هذا المذبح المقدس يزداد علوا بالرماد المتبقي من الاضحيات الجديدة وصارت اولمبيا المصنع العظيم المتزايد باستمرار الذي كانت السلالات اليونانية المختلفة تقوم فيه بتطريق اجسادها البرونزية ·

ولم يكونوا يقومون بذلك لمجرد جعل اجسادهم جميلة · اذ لم يسبق لليونانيين ان خدموا الفن للفن · ان للجمال ، دائما ، هدفا : ان يكون في خدمة الحياة · كان القدماء يريدون ان تكون اجسادهم قوية وجميلة لكي تكون هذه الاجساد أوعية لعقول متزنة وصحيحة · واكثر من ذلك ـ فان الهدف الاسمى هو ان يستطيعوا الدفاع عن Polis الدولة ـ المدنية ·

كانت الرياضة الجمنازية ، بالنسبة لليونانيين ، مطلوبة لتهيئة حياة كل مواطن كعضو في المجتمع · فالمواطن الكامل كان هو الرجل الذي ، بممارسة الجمنازيوم والمصارعة ، يستطيع ان ينمي جسدا قويا ومتناسقا في آن وبمعنى اخر جسدا جميلا وجسدا مستعدا للدفاع عن الشعب · انظر الى تمثال من العصر الكلاسيكي تعرف على الفور ما اذا كان الانسان المصور حرا أم عبدا · ان جسده يوضح حالته · العاطفة الصافية بمعنى الشكل الرياضي الجميل المتناسق : هذا ما يميز الرجل الحر · اما العبد فيصور دائما بملامح فظة وغير منضبطة وجسد ، اما ان يكون نحيلا او بدينا ، ان ديونيزوس ، اله النشوة ، يقف بهدوء بينما حوله الساتير وشياطين الغابات السكارى ، وعبيده ومن هم اقل منه مرتبة يتصرفون بشكل غير لائق ويقومون برقصاتهم الداعرة ·

الانسجام بين العقل والجسم ـ هو المثل الاعلى لليونان · وكانوا يعتبرون تضخم احدهما لالحاق الاذى بالاخر امرا وحشيا · وحين بدأت اليونان بالانحطاط بدأ جسم الرياضي في الوقت نفسه يتضخم ويقتل عقله · وكان يوريبيديس (١) من اوائل المحتجين وقد نبه الى الاخطار التي تواجهها الروح على ايدي الرياضة · وقد اضاف غالن فيما بعد استنكاره : « انهم ياكلون ويشربون وينامون ثم يفرغون بطونهم ويتمرغون بالتراب والطين ـ انظر اية حياة يعيشها الرياضي » كما ان هيراكليس ، الشهيد العظيم الذي كان في سنوات المجد ينتقل من مأثرة الى مأثرة موازنا بين العقل والجسد ، بدأ ينحدر تدريجيا الى « آكل ثيران ومدمن خمرة » ذي جسد ضخم وثقافة

---

(١) الشاعر الكاتب المسرحي ·

ضحلة ٠وراح الفنانون ، الذين كانوا في فترات الازدهار قد خلقوا النمـوذج الامثل للشكل الشاب ، يتجهون الان الى تقديـم الاجساد الرياضية التـي صاروا يرونها حولهم بواقعية فجة وصارت الاجساد وحشية وثقيلة ٠

في اليونان ، كما في اي مكان اخر ، ما ان تبدأ الواقعية بالسيطرة حتى تبدأ الحضارة بالانحدار ٠ وهكذا نصل الى المرحلة الهيلنية الواقعية الفخمة وعديمة الهدف والتي كانت خالية من المثل فوق الشخصية ٠ مـن الفوضى الى البارثينون (١) ثم من بارثينون الى الفوضى ـ الايقاع العظيم القاسي ٠ توحشت العواطف والانفعالات ٠ وبدأ الفرد يفقد قوى مبادئه ، فاللجام الذي كان يتحكم بالغريزة ويوازنها بصرامة أفلت من يديه ٠ الانفعال والعاطفية والواقعية ٠٠٠ بدأ توق غامض سوداوي يشوب الوجوه ٠ وصارت الـرؤى الميثولوجية المخيفة تتحول الى ديكور مجرد ٠ وراحت افروديت تعري نفسها كامرأة عادية وصار زيوس يطلب الخبث والاناقة وهيراكليس ينحدر الـى نذل ٠ وبعد الحرب البيلوبونية بدأت اليونان تتفسخ ٠ وفقد الايمان بأرض الآباء وانتصرت الكفاية الفردية ٠ ولم يعد البطل الايجابي على المسرح هو الاله الشاب المثالي بل صار مواطنا ثريا بمتعه وعواطفه الداعرة ـ مواطنا ماديا متشككا ومتحللا ٠ لقد حلت الموهبة محل العبقرية ثم حل الذوق محل الموهبة ٠ وامتلأ الفن بالاطفال والنساء المتبرجات والمشاهد الواقعية ورجال اما انهم مثقفون او وحشيون ٠

تسلقت الهضبة متجها الى المتحـف ومسرعا لرؤيـة هرميـز رسول براكسيتيل ومآثر هيراكليس والشرفتين المدهشتين اللتين بقيتا ـ كنت اسرع الخطا وكأنني اخشى ان الارض سوف تبتلع هذه البقايا قبل ان أصل ٠ لماذا ؟ ربما لان عمل الانسان يتخطى القوانين اللاانسانية للخلود (ولهذا فان حياتنا وانجازاتنا تحتاج الى قوة سحرية وبطولية ٠ ليس تحت تصرفنا الا دقيقة واحدة فلنحول هذه الدقيقة الى ابدية ٠ اذ لا وجود لاي نوع اخر من الخلود) ٠

اطمأن قلبي حين واجهت القاعة الكبرى في المتحف٠كان ابولو وهيراكليس ونيكه (النصر) والقنطور (٢) واللبيتون (٣) كلهم يتلامعون بهدوء في ضوء الصباح وكلهم ما زالوا احياء ٠ سررت ٠ عالمنا هذا يسير على قوانين انسانية متميزة ٠ نحن نحس ، في ايامنا الحاسمة التي قدر لنا ان نعيشها ، ان هناك قنبلة قد تسقط في اية لحظة وتحيل اغنى الآثار الانسانيـة الـى

---

(١) هيكل الربة اثينا في اثينا .
(٢) ٠ Centaur كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس .
(٣) الشعب الذي حارب بقيادة بيريثوس لاستعادة هيبوداميا من زعيم القنطور يوريتيون (انظر ص ١٧٣) .

رماد . وحين نحتفي الان بعمل فني فان متعتنا تمتزج بخطر الفراق الابدي الذي يحوم فوق هذا العمل .

وانك اذ تنظر الى هاتين الشرفتين العظيمتين هنا تدرك بأية دقة صاغ الحكيم الشرق اقصى غاية للفن حين قال : « ليس الفن تمثالا للجسد بل للقوى التي خلقت الجسد » وهذه القوى الخلاقة تضطرم بشكل واضح تحت السطح الشفاف هنا وخاصة في الشرفة الغربية . لقد انتهت المأدبة لتوها . والقنطورون النشوانون قد اندفعوا للامساك بالنساء الليبينيات . احدهم يسرع ويعانق امرأة وفي الوقت ذاته يعتصر صدرها بكفه الضخمة وتبدو المرأة وقد اغمي عليها من الالم ، وايضا ، من متعة غامضة لا توصف . في مكان اخر يطعن المتصارعون واحدهم الاخر ويعضه . لقد انطلق الوحش في انفجارة ضارية للعواطف العنيفة ! مشاهد مغرقة في القدم تعود الى ما بين الانسان والقرد تنبعث امام أعيننا . الا ان هناك مسحة من الهدوء تمتد على هذه العواطف البدائية المدهشة كلها . لانه في وسط هؤلاء المسعورين يقف ابولو ببنيته المتكاملة ،غير مرئي من قبل المتصارعين وذراعه اليمنى ، وحدها ، ممدودة افقيا .

وعلى الرغم من ان النحات الذي ابدع هذا المشهد العظيم قبل البارتينون بسنوات قليلة ، قد تجاوز الغرابة العذرية للفنان القديم ، الا انه لم يصل ، بعد ، الى الكمال الفني للحظة الكلاسيكية . كان ما يزالُ في حمى الهجوم ولم يلمس الذروة بعد وهو ما يزال يتحرق برغبة انفعالية متأججة لتحقيق النصر . لقد حطم التوازن الاول الا انه لم يصل الى الثاني . انه بامتلائه بهذا الاندفاع اللاهث يسرع الى الغاية النهائية . فان كانت الشرفة تؤثر فينا بهذا العمق فمرد ذلك الى انها لم تصل الى الذروة الانسانية العليا ، ذروة الكمال . والمرء ما يزالُ قادرا على تبين البطل المتألم المكافح .

وهنا متعة اخرى . فعلى هذه الشرفة تميز المراتب كلها : الله ، الاحرار ، النساء والعبيد والوحوش . ان الله يقف في الوسط متنصبا وهادئا وواثقا من قوته . ورغم انه يرى الرعب من حوله الا انه ليس قلقا . انه يسيطر على غضبه وعواطفه دون ان يكون ، من جهة اخرى ، لا مباليا ، ذلك انه ، بهدوء ، يمد ذراعه ويمنح النصر الى الفريق الذي يشاء . اما الاحرار - الليبيتون - فان لديهم الطابع الانساني على وجوههم ويحتفظون به بقدر ما يستطيعون من ثبات . انهم لا يصرخون ولا يقعون فريسة الالم. فهم ، اخيرا ، بشر وليسوا آلهة . وان ارتعاشة خفيفة على شفاههم ، بالاضافة الى تجعيدة على الحاجب تبين انهم يتألمون. والنساء يتألمن أكثر لكن ألمهن يمتزج بصمت مع رغبة غامضة، ورغما عنهن يبدون سعيدات بأن تمتلكهن الشهوات الذكورية الوحشية ، وسعيدات بأن تسفح الدماء

لاجلهن • والعبيد ، من جهة اخرى ، يسترخون بنوع من الالفة الجريئة وهم يتطلعون الى الاخرين • ان ما ينقصهم هو الكبح الصارم • ففي فترة خلق هذه الشرفة لم تكن هذه الاشكال المحنية على الحواف تستطيع ان تمثل آلهة • ان الآلهة ما كانت لتتمرغ بهذه الطريقة ، وما كانت لتنسى قداستها الالهية • واخيرا لدينا القنطورات ، الوحوش الفاسقة السكيرة تنقض على النساء والاطفال وهي تزعق وتعض • العقل غائب ولذا فانه ليست هناك قوة تستطيع ان تفرض النظام على قوتها او تفرض النبل على عواطفها •

انها لحظة نادرة • تلك اللحظة التي تحتفظ فيها كل مراتب الحياة المتغيرة بملامحها بكرا • في تلك اللحظة الرخامية تتعايش العناصر كلها ، رباطة جأش الالوهة ومبدأ الانسان الحر وتفجر الوحش والتمثل الواقعي عند العبد • بعد اجيال قليلة سيتمكن هذان الاخيران ، احط العناصر ، من ان يحكما • ستنتشر العاطفة الواقعية وتهشم كلا من الانسان الحر والآلهة • سيفلت الزمام وسينحط الفن وينسكن • ومن فاجعية هذه الشرفة الاولمبية والهدوء الالهي في البارتينون سنصل الى لفظية بيرغاموم (١) التي لا تحدها حدود •

عن هذه الشرفة نستمتع برؤية بذور الذروة والأثروية وما بعدها تتعايش في ومضة متوحدة • فالكمال توافق خاطف يبرق فوق الفوضى ، وهو توازن عصي وخطر • ما ان تلقي اقل وزن على احد طرفيه حتى يسقط •

وتمنحنا تلك الشرفة ايضا متعة اخرى . حين ننظر اليها تبرز عدة اسئلة • لقد ظهرت فور ان هزمت القوات اليونانية الفرس واندفعت موجة سعيدة من الراحة والفخر والقوة على الارض كلها • احست اليونان بعظمتها • كان العالم من حولها وفيها يتجدد وكان الآلهة والبشر يشعون بضوء جديد • ولا بد ان يتجدد كل شيء بالمقدار ذاته : المعابد والتماثيل والرسوم والقصائد • لا بد من تخليد ابدي للانتصارات اليونانية على البرارة • فأي شكل نحتي سيأخذه هذا التخليد •

ينظر الفنان تحت مجرى الواقع اليومي ويرى الرموز الخالدة اللامتغيرة • ووراء النشاطات التشنجية المتناقضة دائما للانسان الحي يميز « الفنان » التيارات العظيمة التي تدفع الروح البشرية • يأخذ الاحداث العرضية ويعيد وضعها في مناخ لا يموت • ان الفنان العظيم يتطلع الى التمثل الواقعي والى كاريكاتير (الخطوط العريضة) للخلود •

---

(١) رمز للقوة ومكان فينيقي •

ولهذا ليس فقط النحاتون بل وجميع الفنانيين العظماء في اليونان القديمة ، لرغبتهم في ضمان الديمومة لكل نصب معاصر لانتصار ، كانوا يعيدون وضع التاريخ في مناخ الاسطورة السامي والرمزي • وبدلا من تقديم اليونانيين المعاصرين وهم يحاربون الفرس قدموا لنا اللابيث والقنطورات (١) • ووراء اللابيث والقنطور نستطيع ان نرى الخصمين الكبيرين الابديين : العقل والوحش ، الحضارة والهمجية • وهكذا فان حدثا تاريخيا يحدث في زمن محدد يتخلص من الزمن وينتمي الى الشعب كله والى رؤى هذا الشعب القديمة • وفي النهاية يتخلص من الشعب ويصبح ذكرى خالدة للبشرية • وبفضل التسامي الرمزي تسامت الانتصارات اليونانية لتصبح انتصارات للبشر كلهم •

وهذا كله ينطبق ايضا على الميتوبات (٢) الاثني عشر التي تزين معبد زيوس • انها تمثل مآثر هرقل الاثني عشر • وحتى في حالتها الخربة المبعثرة التي بقيت لنا وتعلقت على جدران المتحف فبكم من العمق تؤثر بنا! والى اي علاء فخور تسمو بالعقل ؟ انظر كيف أن أثينا ، الفطنة البشرية ، فتية لكنها مليئة بالقوة ، تقف الى جانب البطل الرياضي وتعاونه • بطريقة مشابهة ، وقبل ذلك بوقت قصير ، لا بد انها قد قفزت من أكروبوليس الى ماراثون وسالاميز لمساعدة اليونانيين • وعلى الميتوبات فيما بعد تجلس على صخرة ، متعبة قليلا للجهود التي بذلتها ، غير انها فخورة • انظر كيف تحدق الى البطل وهو عائد منتصرا يقدم لها طيور ستيمفالوس (٣) كغنائم • وبعد ذلك بقليل ، انظر كيف ترفع يديها بحنو وهي تقف وراءه لتساعده على حمل عبء العالم •

وعلى الرغم من ان الفنان كان يرغب ، بالتأكيد ، في تمجيد يونانيي عصره الا انه حول المديح الى هرقل السلف العظيم وكبير جنسه • وتبدو ترنيمة المديح وكأنها تقول اننا نحن ابناء هذا الجيل لم نحقق هذا النصر بل حققته عبقرية شعبنا • لقد حققه سلفنا البطل المصمم والعنيد • وبهذا فان الترنيمة ، المصاغة رمزيا ، تتسع اكثر فأكثر لتشمل جميع شعوب الانسان الحر • نحن اليونانيين لم نحقق النصر ولم يحققه عرقنا وحده بل ،

---

(١) اللابيث شعب خرافي من تيسالي . في عرس ملكهم بيريثوس على هيبوداميا دعي القنطور يوريتون الذي حاول ، بعد سكره ، ان يختطف العروس . وحين فشل في ذلك عاد مع شعب القنطور في هجوم كبير ولكن اللابيث استطاعوا تهرهم ودحرهم الى حدود ابيروس حيث التجأوا الى جبل بندوس .

(٢) الميتوب : الفسحة الفاصلة بين واجهتين في افريز .

(٣) ستيمفالوس بحيرة تحميها طيور مرعبة قامت اثينا باعطاء صنوج نحاسية لهرقل لاخافة هذه الطيور ثم قتلها بالسهام . وهي طيور تأكل لحم البشر ولها مناقير واجنحة ومخالب من حديد .

كما تقول الاغنية ، حققه كل انسان يتقدم من ماثرة الى مأثرة وهو يكافح ليقهر الوحوش والهمج والموت .

عبرت باب المتحف وتمشيت في الفناء المظلل بالصنوبر . وهنا تملكتني كآبة مفاجئة . تساءلت عما اذا كنا نحن المحدثين ، سنستطيع بدورنا ان ننجز الرؤيا البطولية المتوازنة والمفعمة بالتناغم التي انجزها اليونانيون القدامى ؟ ان كل حاج بعد ان يخلص نفسه من الحلم الاولمبي وبعد ان يخرج من باب المتحف ويواجه شمس ايامنا لا بد انه ، بأسى ، سوف يطرح هذا السؤال على نفسه . ان الكابة بالنسبة لنا نحن اليونانيين ، مزدوجة : ذلك لاننا نعتبر انفسنا احفادا لقدماء . ولذلك فاننا ، شئنا ام ابينا ، نتعهد بواجب ان نتساوى مع اسلافنا - وحتى أن نتجاوزهم . ان واجب كل ابن ان يتخطى والديه .

كم هو ممتع ان يتمشى اليوناني في بلده ولا يسمع اصواتا غاضبة قاسية تحت الارض ! فالرحلة عبر اليونان تتحول ، بالنسبة لليوناني الى عذاب منهك وأسر . انك تقف على نقطة من ارض اليونان وتجد نفسك وقد غلبك الاسى . انها قبر عميق يضم طبقات متتالية من الجثث التي ترفع اصواتها وتناديك ، ذلك ان الصوت هو الجزء الوحيد من الجثة الذي يظل خالدا ، فأي من هذه الاصوات ستختار ؟ كل منها روح . وكل روح تتلهف على جسد يخصها . وقلبك يصغي وهو مضطرب ايما اضطراب . انه يتردد في اتخاذ قرار لان اعز الارواح ليست على الاغلب هي الارواح التي تستحق اكثر من غيرها .

اتذكر انني شعرت بهذا الصراع الرهيب والعريق بين القلب والعقل ظهيرة ذات يوم حين وقفت تحت شجرة دفلى مزهرة على طريق يوروتاس بين اسبارطة وميسترا اندفع قلبي الجامح ليبعث الجثة الشاحبة والمختومة بالموت لامبراطورنا البيزنطي كونستانتين باليولوغوس وليعيد عجلة الزمن الى ٦ كانون الثاني ١٤٤٩ حيث قبل هنا ، وعلى مرتفعات ميسترا ، العرش البيزنطي قصير العمر والمضمخ بالدم . ومضات لا تحصى من التوق السلفي ومن التوق العرقي تحثنا لاتباع رغبات القلب غير ان العقل يقاوم بعناد . يحول العقل وجهه صوب اسبارطة غاضبا . انه يرغب في ان يرمي بالامبراطور الشاحب الى غياهب الزمن وان يرى انسجامه مع الشباب الاسبارطيين الشجعان - ذلك ان رغبة العقل هي بالضبط ما تتطلبه منا هذه اللحظة الرهيبة ، اللحظة الرهيبة التي قدر لنا ان نولد فيها ، فان أردنا لحياتنا ان تثمر علينا ان نتخذ القرار الذي ينسجم مع الايقاع المخيف لعصرنا .

حين يرتحل اليوناني في اليونان تتحول رحلته بهذه الطريقة المصيرية الى بحث مضن عن واجبه • كيف سيصبح مستحقا لاسلافه ؟ كيف يستطيع ان يتابع تراثه الوطني دون ان يشينه ؟ ان مسؤولية قاسية لا تعرف السكوت تجثم على كاهله وعلى كاهل كل يوناني حي • ان للاسم ذاته قوة سحرية لا تقهر • وعلى كل انسان ولد في اليونان واجب متابعة الاسطورة اليونانية الخالدة •

وليست هناك منطقة في الوطن تدعو اليوناني المعاصر الى رعشة لا مبالية من التقدير الجمالي • ان للمنطقة اسما • واسمها ماراثون او سالاميز او اوليمبيا او تير موبيلاي او ميسترا وهي مرتبطة بذاكرة • هنا أهنا وهناك حققنا مجدا • بغتة تتحول المنطقة الى تاريخ فبكي عليه وشابك • وتقع روح الحاج اليوناني في بلبلة • كل منطقة يونانية مشبعة بالنجاحات والاحباطات التي كان لها اصداء ملء العالم ، كل منطقة مليئة بالكفاح الانساني بحيث انها تسمو الى درس صارم لا نستطيع الهروب منه • انها تصبح صرخة وواجبنا هو ان نسمع هذه الصرخة •

موقع اليونان مأساوي فعلا • وعلى كاهل كل يوناني معاصر تلقي بواجب خطر وصعب التنفيذ في آن • اننا نحمل مسؤولية ثقيلة • قوى جديدة تظهر في الشرق وقوى جديدة تظهر في الغرب • واليونان ، الواقعة ابدا بين الدافعين والمتعارضين ، تقع مرة اخرى في دوامة • الغرب يتقدم لقهر العالم متتبعا تراث العقل والبحث الامبراطوري • والشرق ، تحثه قوى مخفية غير مدركة ، يندفع هو الاخر لقهر العالم • واليونان في الوسط • انها نقطة تقاطع العالم جغرافيا وروحيا • ومرة اخرى عليها ان تصالح بين هذين الدافعين الوحشيين بايجاد تركيبة جامعة • فهل ستنجح ؟

انه مصير مقدس ومرير • في نهاية رحلتي عبر اليونان امتلأت بأسئلة مأساوية ومفاجئة • بدأنا بالجمال وانتهينا بآلام عصرنا وبالواجب المعاصر الملقى على كل يوناني • ولم يعد الان في وسع الانسان الذي يحيا ـ الذي يفكر ويحب ويكافح ـ ان يتمشى في طريق بهيج وهو يستمتع بالجمال • ان الكفاح يتوسع ، في ايامنا ، كالحريق ، ليست هناك اية فرقة اطفاء يمكن ان تضمن سلامتنا ، كل انسان يكافح ويحترق مع الانسانية كلها • والامة اليونانية تكافح وتحترق اكثر من البقية • وهذا قدرها •

أغلقت الدائرة • امتلأت عيناي باليونان • يبدو لي ان عقلي قد نضج في هذه الاشهر الثلاثة ، ما هي اثمن الغنائم في حملتي العقلية هذه ؟ اعتقد انها : لقد رأيت بوضوح اشد الرسالة التاريخية لليونان وهي الواقعة بين الشرق والغرب ، وادركت ان مأثرتها الاسمى ليست الجمال بل الكفاح

من اجل الحرية : وشعرت بقدر اليونان المأساوي بعمق اكبر كما شعرت بالواجب الثقيل الملقى على كاهل كل يوناني ·

أعتقد انني بعد رحلتي عبر اليونان فورا اصبحت ناضجا بما فيه الكفاية للبدء بسنوات النضوج · ولم يكن الجمال هو الذي دلني على الطريق وادخلني في الرجولة بل المسؤولية ·

تلك هي الثمرة المرة التي كنت امسك بها في يدي وانا ادخل بيت ابي بعد عودتي من رحلة الاشهر الثلاثة ·

١٨ ـ ايطـاليــا

عدت الى بيت ابي . وهناك ، وسط الصمت المؤثر الذي تغرق فيـه امي وتحت نظرة ابي القاسية ساعيش رحلتـي مـن جديد مرتبـا بعض الشيء افراحها واحزانها . لن اتهرب من مسؤوليتي بعد الان . لقد كسبت صوتا في داخلي ، تكلمت الارض ونهض الموتى وانكشفت اليونان امامـي كريتا هائلة ـ هي الاخرى تقاتل من اجل حريتها (وهذا قدرها) منذ بدء الزمن . فما هو واجبي اذن ؟ واجبي ان اعملْ معها ، ان القي بحياتي وبروحي في الكفاح الى جانبها .

ولكن ممن ؟ ومم ابحث عن الحرية ؟ كانت هذه اسئلة صعبة ولم أستطع الاجابة عليها . الشيء الوحيد الذي شعرت به هو ان دوري لا يكمن فـي الذهاب الى الجبال والبندقية في يديللقتال ضد الاتراك . كانت اسلحتي مختلفة . اضافة الى انني لم استطع بعد ان احدد هوية اعدائي . الشيء الوحيد الذي كنت اراه بوضوح هو انني مهما كان القرار الذي سأتخذه فانعلي ان أؤدي واجبي بأشرف ما يمكنني . ولقد كنت واثقا من ذلـك ـ من وفائي وشرفي . كنت واثقا من ذلك ، ولا شيء غيره .

اتذكر حين جاء الارشمندريت الى والدي واشتكى له انني لا اسمـع كلام اساتذتي ؟ لقد أجابه والدي « وكنت هناك وسمعت » : « انا لا اهتم الا اذا كان يكذب او يأكل قتلة . هذان هما الشيئان الهامان . أما بشأن أي امر اخر فليفعل ما يشاء ! » لقد تغلغلت هذه الكلمات في اعماق عقلي . واعتقد ان حياتي ما كانت لتصبح ما هي عليه لو انني لم اسمع هذه الكلمات . كان يبدو ان هناك غريزة غامضة لا تخطىء تسير والدي في تربيته لابنه ، غريزة الذئب وهو يربي دغفله الاول .

لم ابرح البيت اذ ليس لدي الان اصدقاء • كانت جمعية الصداقة طائرة ورقية ولادية ولقد تبعثرت اجزاؤها مع الرياح الاربعة • نحيت جانبا الاهتمامات الجديدة التي كانت تعذبني منذ حجي عبر اليونان وحولت افكاري لدراسة النهضة الايطالية والارواح العظيمة التي ولدتها • فلقد صممت على القيام برحلة الى ايطاليا مستهلكا ما تبقى من منحة والدي لعام الترحال •

وهكذا اخرجت نفسي ذات صباح من بيت اسرتي مرة اخرى وسألتني امي المنتحبة : « الى متى ستظل ترحل ؟ الى متى ؟ » وأردت ان اجيب (كم الشباب عديمو الشعور !) : « طالما انا حي يا أمي • طالما أنا حي » • لكنني تمالكت نفسي وقبلت يدها • ثم حملني البحر بعيدا! •

ان تكون شابامعافى وعمرك خمسة وعشرون عاما ، وان لا تحب اي شخص محدد ذكرا ام انثى (هذا أمر يضيق قلبك ويبعدك عن حب كل الاشياء بالاهتمام ذاته وبالحماسة ذاتها) وان ترحل على قدميك وحيدا من طرف ايطاليا الى طرفها الاخر وحقيبة جلدية على كتفك ، وان يكون الطقس ربيعيا ثم ان يأتي الصيف وبعده الخريف فالشتاء محملا بالفاكهة والمطر – اية وقاحة يتمتع بها الانسان ليطمع في سعادة اعظم !!

كنت اعتقد انه لا ينقصني شيء • تهللت الوحوش الثلاثة بالمقدار ذاته : الجسد والعقل والروح • وكان الثلاثة راضين • فلقد اشبع جوعها تماما • وللحد الاقصى من شهر العسل هذا مع روحي كنت اشعر ، اكثر من اي وقت اخر في حياتي ، ان الجسد والعقل والروح قد صنعت من طينة واحدة • حين يهرم المرء أو يسقط بين براثن المرض او التعاسة يحدث عندها فقط ان تفترق او تتعارض فيما بينها • وقد يرغب الجسد احيانا ان يتولى القيادة وقد ترفع الروح راية عصيانها وتتمنى الفرار • ويقف العقل عاجزا وهو يراقب ويدون التحلل • ولكن حين يكون المرء شابا وقويا كم يكون هذا الثلاثي متحدا بأخوة حبيبة وكيف يعيش الثلاثة على الحليب ذاته !

أغمض عيني • يعود الشباب ، ويعود التوافق في داخلي • تمر الشواطىء والجبال طازجة امام عيني ، والقرى بأجراسها الهزيلة وساحاتها الصغيرة المظللة – شجرة الدلب ، الينبوع المتدفق والمقاعد الحجرية على الاطراف والعجائز الذين يجلسون ، في المساء ، منحنين على عكازاتهم وهم يتحادثون بهدوء ، الاشياء ذاتها منذ سنوات عديدة • ومنذ قرون عديدة • وحتى الهواء من حولهم ومن فوقهم قديم قدم الزمن ، كم ارتعش قلبي حين رأيت اللوحات الشهيرة لاول مرة • وقفت بالعتبة وركبتاي مثنيتان ،

لمدة طويلة ، الى ان هدأ قلبي المضطرب اخيرا واستطعت ان اتحمل هـذا الجمال كله • فالجمال ، كما تنبأت وكان صحيحا ، لا يرحم • انك لا تنظر الى الجمال بل هو الذي ينظر اليك ولا يسامحك •

انطلقت من مدينة الى مدينة • رسوم وتماثيل وكنائس وقصور • اي شره واي توق ! لم يكن من الممكن ارواء ظمئي وجوعي • ظل نسيم فاتن يهب بين حناياي • لم تتكرر ابدا تلك الغبطة الجسدية الصافية في حياتي لا من النساء ولا من الافكار ولا من الاتصال بالله • وبما انـه لـم يسبق ان سيطر علي اهتمام خالص كهذا فقد كنت اجد المتعة في الرؤية والسمـع واللمس • لقد اتحد العالم الداخلي بالعالم الخارجي • لمسته وكان دافئا وله عبير كعبير جسدي • ولو قيض لي في تلك الفترة ان اخلق ربي لصنعته بجسد مراهق ، مثل كوروس القديم بزغب كثيف على خديه وركبتين قويتين وخصر اهيف وهو يحمل العالم على كتفيه كما لو انه ثور •

هنا في ايطاليا كانت تفاحة الحياة متينة ومتناسقة • أما اليونان فمختلفة تماما • لقد كانت رحلتي عبر اليونان مؤلمة لان تلك التربة كانت قريبة جدا مني وكانت لي • ولمعرفتي الجيدة بمعاناة اليونان كنت ارى معاناتها بوضوح وراء وجهها الجميل وكنت اعاني معها • لكـن ايطاليـا كانت تربة غريبة • ان لها ، ايضا ، الامها لكنني لا اعرفها ولو انني عرفتها لما استطاعت ان تقلقني الى ذلك الحد • هنا لم يكن لوجه الجمال بالنسبة لي اي جرح ، أو هكذا خيل لي •

كنت ريفيا غير معقد ما يزال مغطى بزغب المراهقة ، يمشي للمـرة الاولى وحده وبحريته في بلد اجنبي • ولقد كانت فرحتي عظيمة الى درجة انني احيانا كنت احس بالرعب يتملكني • ذلك انني اعرف تماما ان الالهة مخلوقات حسودة وانه من الخطر (والخطيئة) ان تكون سعيـدا وان تعرف انك سعيد • ولكي ابعد اذى عينها الشريرة التجأت الى خطط مضحكة للتقليل من سعادتي • واذكر انني كنت تياها في فلورنسه لدرجة انني ادركت ان الحقوق الممنوحة لبني البشر قد تم تجاوزها • كان علي أن أجد طريقة ما لكي أتألم وهكذا اشتريت حذاء ضيقا جدا • لبسته في الصبـاح والمني جدا حتى انني لم استطع المشي - كنت اعرج كغراب • طوال ذلـك الصباح وحتى الظهر كنت في حالة بائسة ، ولكنني حين غيرت حـذائي وخرجت في نزهة عصر ذلك اليوم احسست بمتعة كبيرة ، كنت اسير كأنني بلاوزن • كنت اطير • عاد العالم واصبح فردوسا تنزهت على صفة أرنود عبرت الجسور وصعدت الى سان مينياتو • هب نسيم بارد حين اقتـرب المساء وكان الناس يرتدون ملابس من الذهب وهم يسيرون تحت اخـر اشعة الشمس • ولكنني في الصباح التالي لبست الحذاء الضيق وابتأست

من جديد ٠ غير ان الالهة لم تعد لديها حجة للتدخل الآن.لقد دفعت الجـزية التي فرضوها على البشر ٠

كان كل شيء بسيطا بشكل طفولي ٠ لم تزعجني اية مشكلة ولـم يكن في تفاحة الحياة اية دودة ؟ كانت المظاهر كافية ٠ ولم اكن ابحـث لاكتشاف ما اذا كان هناك اي شيء وراءها ٠ ذات يوم قام رسام يوناني برسم ستارة ودعا رساما ينافسه ليراها ويحكم على عمله ٠ « طيب ٠ ازح الستارة ودعني ار اللوحة » وكان جواب الفنان : « الستارة هي اللوحة » ٠ ستارة الجبال والاشجار والمحيطات والبشر التي كنت اراها امامي الان ، تلك هي اللوحة وكنت استمتع بها بغبطة اصيلة وشرهة ٠

لقد قام العصيان الداخلي لسنوات المراهقة بتصريف طاقته ٠ هضمت الافكار المخزية حول ان الارض ليست مركز الكون وان الانسان متحدر من الوحوش ، وانه ، نفسه ، وحش اكثر ذكاء واكثر بعدا عن الاخلاق مـن اسلافه ٠ أما بالنسبة للانثى التي جاءت واثارت دمي لوهلة ، فانها لـم تعد لافساد سعادتي المتناغمة منذ ان وضعتها على الورق ٠ ودون اهتمام بما يمكن ان يمليه العقل ليثبت ان للنساء قيمة الرجال وأرواحهم ، فـان قلبي العجوز في اعماقي ، القلب الافريقي الذي يحتقر العقل المتأورب (١) ولا يهتم له ، هذا القلب يستنكر النساء ويرفض ان يثق بهن او ان يسمح لهن بالتغلغل في اعماقي بغية التملك ٠ النساء ببساطة ، زينة للرجال وفي اغلب الاحيان هن مرض وضرورة ٠

أفكر في كوستانديس حارس الحقول الضاري في كريت الذي كان يعيش كناسك ولا يسمح لانثى ان تقترب منه ٠ وبغتة انتشـر الكـلام حول ان كوستانديس سيتزوج ٠ قلت له : « كوستانديس يا الهي ٠ ما هذا الـذي اسمعه ؟ هل ستتزوج حقا ؟ » فأجابني : « طيب وما الذي استطيع ان افعله يا معلم ؟ لقد فكرت ، افترض انني اصبـت بالزكام فمـن سيجلب لي كؤوس الهواء (٢) » ٠ وقال لي شخص اخر يبرر زواجه في الخمسين : « وما الذي افعله يا بني ؟ انت ترى ٠ لقد قررت انني اريد جدائل جميلة علـى وسادتي مثل غيري » ٠

كما قلنا : احيانا ضرورة واحيانا اخرى زينة ٠

طوال شهر العسل ذاك في ايطاليا كنت حرا دون مشاكل ميتافيزيقية

---

(١) النزعة الاوربيـة ٠

(٢) كؤوس يفرغ الهواء من داخلها باحراق ورقة وهي موضوعة علـى جلد المريض . علاج شعبي .

ودون قلق حول الحب . افراحي لم تكن تشوبها شائبة .

وحين احاول ان استرجع هذه الافراح بعد مرور سنوات طويلة اندهش بعظم الافكار التي دخلت في واتحدث معي ولم يعد من الممكن تحديدها كذكريات لقد تسربت من ذاكرتي الى دورتي الدموية حيث تعيش وتعمل كغرائز طبيعية . وحين اقرر امرا ما اتذكر فيما بعد انه لم يكن انا من اتخذ القرار بل الاثر الذي احدثته بي اللوحة الفلانية ، او البرج الفلاني من عصر النهضة او البيت الفلاني عند دانتي الذي رأيته محفورا في احد الشوارع الضيقة في القسم القديم من فلورنسة .

ليست المتع الذهنية ، بل متع اكثر مادية واقرب الى الحرارة الانسانية ، تلك التي تبقى ثابتة في ذاكرتي وتحدق الي بمحبة وحزن . والنتيجة النهائية هي انني من مغامرة الشباب تلك كلها لم أعد الا مع غنيمة هزيلة : غنيمة هزيلة ومتواضعة جدا بالفعل : زهرة رأيتها ذابلة على سياج في باليرمو ، وفتاة صغيرة حافية تبكي في احد حواري نابولي القذرة وقطة سوداء مرقطة ببقع بيضاء جالسة على النافذة القوطية (١) في فيرونا . انه لسر عجيب . ما الذي تختاره الذاكرة البشرية للاحتفاظ به من كل ما يقدم لها . من كان ذلك الفاتح العظيم الذي تنهد على فراش الموت : « طوال حياتي وانا اتوق إلى ثلاثة اشياء لم اجد الفرصة للاستمتاع بها : بيت صغير على شاطيء البحر ، وكناري في قفص ، وحق من الحبق » ؟ فمن مجمل رحلتي في ايطاليا استقرت في ذاكرتي حادثتان مريرتان اكثر من كل ما مربي ، وستظلان تطاردانني بالتأنيب حتى الموت رغم انني بريء تماما تجاههما .

تلك هي الاولى :

الوقت قبيل حلول الظلام . كان النهار بطوله مطرا وعواصف مطرية . وصلت الى قرية كالابرية صغيرة وأنا مبلل حتى العظام . كان علي أن أجد موقدا أجفف نفسي عليه وزاوية أنام فيها . الشوارع مهجورة والابواب موصدة . والكلاب وحدها التي تشم رائحة الغريب بدأت بالنباح من الدور . الفلاحون في تلك المنطقة أجلاف وانعزاليون ومتشككون بالغرباء . توقفت مترددا عند كل باب ومددت يدي ولم أجرؤ على الدق .

آه . يا لجدي المرحوم في كريت الذي كان يأخذ قنديله كل مساء ويتجول في القرية ليرى ان كان قد جاءها غريب . كان يأخذه الى البيت ويطعمه ويمد له فراشا للنوم ثم يودعه في الصباح بكأس من الخمر وقطعة من الخبز . هنا في القرى الكالابرية لا يوجد اجداد مثله .

---

(١) المصممة على الطراز القوطي .

وبغتة رأيت بابا مفتوحا في طرف القرية • مددت رأسي وتطلعت فرأيت ممرا معتما ونارا مشتعلة في الطرف الاقصى وامرأة عجوزا تنحني فوقها • كان يبدو انها تطبخ • لا صوت • لا شيء إلا احتراق الخشب • كان ذا رائحة • لا بد انه خشب صنوبر • اجتزت العتبة ودخلت فاصطدمت بطاولة طويلة في وسط الغرفة • ووصلت أخيرا الى النار وجلست على كرسي وجدته قرب الموقد • كانت العجوز قابعة على كرسي اخر وهي تحرك الطبخة بملعقة خشبية أحسست أنها نظرت الي بسرعة ودون أن تلتفت • لكنها لم تقل شيئا • خلعت سترتي وبدأت أجففها وأحسست بالسعادة تتصاعد في كالحرارة من قدمي الى ساقي الى فخذي فصدري ؛ وبجوع وشره رحت استنشق رائحة البخار المتصاعد من القدر • لا بد ان الطبخة فاصولياء مقلية • وكانت الرائحة مهيمنة على كل شيء • ومرة اخرى أدركت كم أن السعادة الارضية مصنوعة على مقاس الانسان ليست السعادة طائرا نادرا علينا أن نطارده في لحظة محددة في السماء وفي اللحظة التالية في عقولنا • السعادة طائر أليف موجود في باحة دارنا •

نهضت العجوز وتناولت صحنين للحساء عن رف قريب منها • ملأتهما فامتلأ العالم برائحة الفاصولياء • أشعلت مصباحا ووضعته على المائدة الطويلة ثم جلبت ملعقتين خشبيتين ورغيفا من الخبز الاسود • جلسنا متقابلين • رسمت علامة الصليب ثم نظرت الي بسرعة ففهمت • صلّبت نفسي وبدأنا نأكل • كان كل منا جائعا • فلم ننبس بكلمة • قررت أن لا أتكلم لارى ما سيحدث • أيمكن أن تكون خرساء ؟ هكذا سألت نفسي – أم لعلها مجنونة ، واحدة من أولئك المجاذيب الهادئين اللطفاء الشبيهين بالقديسين •

وحالما انتهينا هيأت لي فراشا على مقعد طويل قرب الطاولة استلقيت واستلقت على المقعد الاخر المواجه لي • في الخارج كان المطر ينهمر بغزارة • وبعد مدة سمعت الماء يبقبق على السطح ممتزجا مع تنفس العجوز اللطيف والهادئ • لا بد انها متعبة لانها نامت بمجرد أن أراحت رأسها • وشيئا فشيئا مع المطر وتنفس العجوز المنتظم رحت بدوري في نوم عميق • وحين استيقظت رأيت ضوء النهار يتسرب من شقوق الباب •

كانت العجوز قد نهضت ووضعت على النار قدرا لتهيئة حليب الصباح • تطلعت اليها الان في ضوء النهار الخفيف • متغضنة ومحدودبة تستطيع ان تحملها في راحة يدك • قدماها منتفختان بحيث انها تضطر للتوقف عند كل خطوة والتقاط أنفاسها • ولكن عينيها ، عينيها الواسعتين السوداوين فقط ، كانتا تشعان ببريق فتي لم يعجز • كم كانت جملية

في صباها . رحت افكر بيني وبين نفسي وأنا أقدر مصير الانسان وهرمه القدري . جلسنا كل في مواجهة الاخر مرة أخرى وشربنا الحليب . ثم نهضت وألقيت بحقيبتي الجلدية على كتفي . أخرجت محفظتي ولكن العجوز تلونت وتمتمت وهي تمد يدها : « لا . لا . » وحين نظرت اليها مندهشا أضاء وجهها المجعد كله بغتة وقالت : « مع السلامة . وليباركك الله . وليكافئك الله على الجميل الذي أسديته الي . منذ أن مات زوجي لم أنم بهذا العمق » .

— وها هي الذكرى الثانية والاكثر مرارة بينهما :

قرابة بدء الربيع وصلت الى أسيسي ، أكثر المدن الايطالية قداسة . حدائق وسقوف وباحات والهواء ذاته ـ كل شيء كان مليئا بالحضور اللامرئي لفقير الله الصغير (١) . كان يوم أحد . وكانت الاجراس الهائلة في كنيسته تقرع والاجراس الفضية ذات الصوت العذب في دير سانت كلير وسانت فرانسيس ، يلتحمان في الهواء ، يتحدان بلا انفصام الى الابد والاصوات الخالدة التي تمنحهما اياها القداسة مع الموت : « يا أبانا فرانسيس ، متى ، أخيرا ، ستأتي لترانا نحن الاخوات المسكينات في ديرنا ؟ » . « حين تزهر الاشواك بأزهار بيضاء ... » وبغتة ! تزهر الاشواك الى الابد . وحمامتا الله الاليفتان ، المتحدتان الى الابد ، تصفقان أجنحتهما الى الابد فوق أسيسي .

صعدت الشوارع الضيقة . أبواب تظل تفتح ونساء يظهرن . حديثات الاستحمام ، معطرات بالخزامى وشعورهن مسرحة بعناية ينطلقن مسرعات مرحات نحو الكنيسة ـ يرين ويرين . في الربيع ، في بلاد الشمس ، تصبح الكنيسة غرفة الجلوس الخاصة بالله . اصدقاؤه ، من رجال ونساء ، يذهبون اليها ويجلسون على صفوف الكراسي ثم ينهمكون في أحاديث قصيرة مع الله للحظة ومع جيرانهم للحظة أخرى . وخادم الله يروح ويجيء مشدودا بهشد أبيض وثوب أسود أو أحمر . يقرع الجرس الصغير ويغني بصوت عذب مدائحه للقديس فرانسيس ، سيد المنزل . ثم ينهض الضيوف ويودعون وهم يتجهون الى الباب . لقد قاموا بزيارتهم للقديس ، والان انتهت الزيارة ، وتضحك السماء راضية . أما تحت على الارض فتفتح الخمارات أبوابها .

كانت لدي رسالة تعريف الى الكونتيسه ايريشيتا سوف تمكنني من المكوث في قصرها . وكانت قد وصفت لي بأنها ارستقراطية عجوز تعيش

---

(١) القديس فرنسيس .

وحيدة مع خادم موثوقة اسمها ايرميلاندا وانها ستكون سعيدة برفقتي . كانت فيما مضى الحسناء الاولى في أسيسي ثم ترملت في السادسة والعشرين ومنذ ذلك الحين لم تعرف رجلا . أنها تملك غابات شاسعة من الزيتون والكروم . وكانت فيما مضى تمتطي مهرتها كل صباح وتنطلق لمراقبة أملاكها أما وقد أصبحت الان عجوزا ، وتحس دائما بالبرد ، فانها تكتفي بالجلوس أمام موقدها صامتة وحزينة وكانها تاسف على حياة الطهارة التي قضتها . وقيل لي تحدث اليها وانظر اليها وكانها ما تزال في السادسة والعشرين وامنحها بعض المتعة حتى ولو كانت متاخرة كثيرا .

كان يوما ربيعيا لطيفا . السنونو قد عاد والحقول مليئة بزهور المارغريت البيضاء الصغيرة والنسيم دافىء وعابق . لكن النار كانت مشتعلة في البيت الكبير والكونتيسة العجوز جالسة على كرسي واطىء أمام النار وعلى شعرها الابيض منديل من الحرير الازرق . وضعت رسالتي على ركبتيها والتفت لتتطلع الي . كنت محمرا وعرقانا من الصعود وقميصي مفتوح الصدر . وركبتاي ـ كنت أرتدي سروالا قصيرا ـ تلتمعان في ضوء النار . كنت في الخامسة والعشرين من عمري .

قالت العجوز وهي تبتسم لي : « طيب ؟ اليونان كلها قد دخلت بيتي بغتة . أهلا وسهلا » .

جاءت ايرميلاندا ـ « البنت المنتقاة » الفتية التي ستاخذ مهرا من سيدتها . جلبت صينية وهيأت مجلسا على المائدة المنخفضة ثم رتبت الحليب والزبدة والخبز المقمر وعليه فاكهة .

قالت الكونتيسة : « أنا سعيدة جدا . لم أعد وحيدة الان » .

فاجبت : « ولا أنا . وبينما أنا جالس هنا أستطيع أن أفهم معنى النبل والجمال واللطف » .

وتوهجت وجنتا الكونتيسة الشاحبتان لكنها لم تقل شيئا . ورأيت ومضة تلتمع في عينيها . لا بد أنها قالت لنفسها بغضب وضيق : فليأخذ الشيطان النبل والجمال واللطف ، ما يهم الشباب ، الشباب ولا شيء سواه .

فرزت لي غرفة واسعة تحتوي على سرير كبير وعليه ظلة مخملية . نافذتان واسعتان تطلان على الشارع كنت أستطيع رؤية باحة دير سانت كلير أمامي والراهبات يرحن ويجئن بصمت وعلى جانبي الرأس لكل منهما يتدلى طرفا القبعة البيضاء . كان البرج والسطح والباحة مليئة بالحمام . والدير كله يتنهد بمودة كهديل حمامة هائلة ، « ماذا تفعل الراهبات بهذا الحمام كله ؟ » هكذا سألتني الكونتيسة ذات يوم . « يا للخجل ! الا يرينه

ويسمعنه ؟ الا يعرفن كم هو مخز ! يجب ان يطردنه او لعله من الافضل أن يذبحنه وياكلنه ـ فليتخلصن منه ! لكي نتخلص نحن منه » .

بقيت في أسيسي ثلاثة أشهر . القديس فرانسيس والكونتيسة ايريشيتا هما اللذان أبقياني ولم يسمحا لي بالرحيل . وأين سأذهب ؟ ان كانت السعادة هي غاية الحياة فلم ارحل ؟ واين سأستطيع ان اجد رفيقا أعز وأوثق من القديس فرانسيس الذي كنت أذهب لزيارته في بيته كل يوم ؟ أو رفقة أجمل من الكونتيسة تلك القديسة كلير الحية ؟ طوال النهار كنت أظل أتمشى في اوجريا البهية مقتفيا آثار القديس عبر غابات الزيتون والكروم . ورأيت الربيع كله موكبا فرانسيكانيا من الفيوريتي الحمراء والصفراء والبيضاء الناصعة : القديس فرانسيس مع حاشية من الورود ينهض مرة ثانية من أرض أسيسي ليحيي أخاه الشمس (١) . والاخ الريح والاخت النار وأخانا المرح الصغير الماء ... والفتى الكريتي السعيد الى جانبهما .

كنت أعود كل مساء الى البيت متعبا وسعيدا . ستكون النار مشتعله والكونتيسة منتظرة بذراعين مفتوحتين على كرسيها الواطىء مرتدية ملابسها ومزينة شعرها وعلى وجهها بعض المساحيق . كانت تجلس ، حزينة وصامتة كعادتها ، وعيناها مغمضتان ولكنها ما ان تسمع الباب وتحس بخطواتي حتى تفتح عينيها . تشير الى الكرسي المجاور لها وتلمس ركبتي بيدها الممدودة .

« تحدث . تحدث . افتح فمك ولا تتوقف . هذه هي متعتي الوحيدة » .

وافتح فمي واحدثها عن كريت وعن والدي ونساء جيراننا وعن الحروب الكريتية من اجل الاستقلال والامير جورج حين خطا على الارض الكريتية .. الجزيرة كلها مزينة بالريحان والغار والمحاربون القدماء ـ بلحاهم البيضاء الطويلة واجسادهم المندوبة بضربات السيوف ـ ينحنون ليقبلوا يد الامير . كانوا يدوس احدهم فوق الاخر لانهم لم يكونوا يستطيعون ان يروا فقد كانت عيونهم مليئة بالدموع ... وفي مناسبات اخرى حكيت لها عن الصبية الايرلندية وعن صعودنا الى بسيلوريتي وما فعلناه هناك حين كنا وحيدين في الكنيسة الصغيرة وفراقنا الذي تبع ذلك .

وسألت الكونتيسة المدهوشة : « ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ ألم تسعدك تلك العزيزة المسكينة ؟ » .

● نعم كنت سعيدا جدا .

---

(١) تعامل الشمس معاملة المذكر .

ـ الذن ؟
● من اجل ذلك بالتحديد يا كونتيسة •
ـ لـم افهــم •
● سعادة اكثر مما يحتاج اليها شاب • كنت في خطر •
ـ خطر مــن مــاذا ؟

● من احد الاحتمالين التاليين : اما ان اتعود على هذه السعادة بحيث انها تفقد جدتها وبهاءها واما ان لا اتعود عليها واعتبرها دائما بالعظمــة نفسها • وفي هذه الحالة سأضيع نهائيا • لقد رأيت ذات مرة نحلة تغرق في عسلها وتعلمــت درسا •

وغرقت الكونتيسة في تأمل طويل ثم قالت اخيرا : « انت رجل•انك لا تحمل هذا وحده في عقلك • لديك امــــور اخــرى • اما بالنسبة لنا نحن النســـاء ••• » •
ذلك المساء لم نقل شيئا اخر ، راح كل منا يحدق الى النار بصمت حتى منتصف الليــل •

كانت ، احيانا ، ترسل لي ايرميلاندا لتسألنــــي : « هــل تستطيــع الكونتيسة ان تأتي لزيارتك عصر اليوم ؟ » فأخرج فورا لشراء الحلويات والزهور وأعود لانتظارها • وفي الساعة المحددة كانت تقرع الباب بلطــف وتردد • واهرع لفتحه لها فتدخل وهي مضرجة بحمرة الخجل وكأنها فتاة في الخامسة عشرة خارجة للمرة الاولى مع فتى • كانت تظل فترة طويلــة وهي مشوشة وعاجزة عن الكلام ، ثم تبدأ في التجاوب معي بكلمات موجزة وعيناها مطرقتان وصوتها متردد • وكان قلبي ينفطر الى نصفين • يكفي ان ترى كيف يعود الخجل والعذرية من جديد وكيف ينتعشان وينبعثان فــي المرأة الحقيقية • لا يموتان بل يمنحانها القا يائسا ومريرا في أرذل العمر •

وفي اليوم الذي كان علي فيه ان ارحل القت الكونتيسة بذراعيها على عنقي وجعلتني اقسم ان اعود لزيارة اسيسي لرؤيتها •

« وبأسرع ما تستطيع » وحاولت ان تضحــــك فلم تستطع واندفعت الدموع من عينيها • « بسرعة لانني ربما كنت رحلت في ذلك الحين » لم تكن تقوت « مت » بل كانت تقول « رحلت » •

وحافظت على وعدي • وبعد عدة سنوات استلمت رسالة من متلقــي اعترافها دون ديونيجي : « تعال • الكونتيسة ترحل » •
كنت في اسبانيا : أرسلت برقية وسافرت فورا •
قرعت باب مقرها بيد مرتعشة وانا احمل باقة من الزهور البيضاء •

هل هي حية أم ميتة ؟ فتحت ارميلاندا الباب ولكنني لم اجرؤ على سؤالها فقدمت لهـا الزهور .

قالت : « الكونتيسة تنتظرك . انها في سريرها . لا تستطيع ان تمشي الان » .

رأيتها جالسة في سريرها شعرها مسرح ومجوهراتها عليها وقليل من المساحيق الحمراء على وجنتيها الشاحبتين وشريطة قرمزية مربوطة حول رقبتها لاخفاء التجاعيد . وكانت قد لمعت اظافرها . وكانت هذه اول مـرة اراها تفعل ذلك . مدت ذراعيها وارتميت بينهما . ثم جلست على جانب السرير ورحت انظر اليها . كم كانت محافظة على جمالها وهي في الثمانين واية حلاوة وأسى في عينيها ..

قالت بصوت هامس : « انني راحلة . راحلة » .

وكنت على وشك ان افتح فمي لكي اعترض واريحها لكنها أمسكـت بيدي وكأنها تستأذنني . وتمتمت من جديد : « انني راحلة ... » .

حل الليل . ودخلت ارميلاندا لتشعل المصباح لكن الكونتيسة لم تسمح لهـا .

كنت استطيع رؤية الومضة الباهتة على وجهها في الغسق : صارت عيناها حفرتين واسعتين مليئتين بالليل وحين تكاثف السواد ادركت ان الكونتيسة قد رحلت بصمت ويأس .

بعد بضع ساعات وقرابة منتصف الليل كانت قد رحلت .

١٩ ـ صديقي الشاعر
جبـل آتوس

كم يصعب على الروح ، وكم يشق عليها ان تفصل نفسها عن جسدها ، العالم : عن الجبال والبحار والمدن والنـاس • ان الـروح اخطبـوط وهذه الموجودات كلهـا أذرعة •

لقد هيمنت ايطاليا على روحي كما هيمنت روحي على ايطاليا • اتحدنا الان اتحادا لا انفصام بعده • ليست هناك قوة على الارض أكثر استعمارية من الروح البشرية • انها تحتل وتتعرض بدورها للاحتلال غير انها دائما ترى امبراطوريتها ضعيفة • ولانهاتحس بالاختناق فانها ترغب في ان تفتح العالم لكي تتنفس بحرية •

هكذا كانت رحلتي الاولى ، البكر ، الى اوروبا الغربية • وعلى الرغم من انني لم ادرك ذلك في حينه ، الا ان الحدود الاقليمية في داخلي بدأت تتلاشى • رأيت ان العالم اغنى واوسع من اليونان • وان الجمال والمعاناة والقوة يمكن ان تظهر بملامح اخرى الى جانب تلك الملامح التي اعطتهـا اياها كريت واليونان • وكم من المرات ، بينما كنـت احدق الى الاجسام الجميلة في رسومات عصر النهضة ، الاجسام المتألقة بخلود ظاهري ، كان يهيمن علي حزن لا يحتمل ونقمة عارمة لان الاشكال الالهية التي كانت ستار تلك الرسوم قد تفسخت واستحالت الى تراب ، لان الجمال والبهاء البشريين لا يستطيعان ان يعرضا نفسيهما تحت الشمس لاكثر من وهلة • وانفتـح الجرحان العظيمان في داخلي • ومنذ تلك الرحلة الاولى صار الجمال يتـرك على شفتي مذاق الموت • وكانت النتيجة ان روحي ازدادت غنى ، لقد وجدت مصدرا اخر للعصيان • ذلك ان روح الشباب البسيطة لا تستطيع ان تتسامح

مع منظر الجمال وهو يتناقص الى لا شيء بينما يقف الاله جانبا ولا يرفع يده ليجعل الجمال خالدا · لو كنت الها ، هكذا يفكر الشاب ، لوزعت الخلود بلا حساب دون ان اسمح ولو مرة واحدة لجسد جميل او لروح شجاعة ان تموت · اي نوع من الآلهة ذلك الذي يقذف بالجميل والقبيح ، بالشجاع والجبان في الحمأة ذاتها ويدوس عليها بقدمه دون تمييز ويحولها كلها الى وحل ؟ اما انه ليس عادلا واما انه القادر على كل شيء ـ والا فانه ، ببساطة، لا يفهم · ودون ان يعرف الشاب يكون ، على الاغلب ، قد بدأ سرا في صنع اله في داخله ، اله لا يخجل قلبه ·

حين سئل إرنست رينان ذات مرة عما اذا كان يؤمن بخلود الروح ، اجاب ذلك المشعوذ العجوز الداهية : « لا ارى سببا لجعل بقالنا خالدا او لجعلي انا · لكنني ارى سببا لضرورة عدم موت الارواح العظيمة حين تغادر اجسادها » ·

هكذا عدت الى اليونان ـ مجروحا · كنت مضطرما بثورة ذهنية واضطراب روحي ، وكل شيء في داخلي متضارب ومتردد · لم أكن اعرف ما الذي سأفعله بحياتي · قبل كل شيء كنت اريد ان اجد جوابا ، جوابي ، على الاسئلة الابدية وبعد ذلك اقرر ما الذي سأصير اليه · قلت لنفسي ان لم ابدأ باكتشاف الهدف الاسمى للحياة عى الارض فكيف سأتمكن من وضع هدف لحياتي القصيرة الفانية ! وكيف سأنهمك في العمل ؟ لم أكن منشغلا في اكتشاف الهدف من الحياة موضوعيا ـ لقد تكهنت بأن هذا مستحيل ولا طائل تحته ـ بل ببساطة في اكتشاف الهدف الذي استطيع انا ؛ وبارادتي الحرة ، ان امنحه للحياة وبما يتلاءم مع حاجاتي الروحية والعقلية · وفي ذلك الحين لم يكن يعنيني كثيرا ما اذا كان هذا الهدف هو الهدف الحقيقي أم لا ، كان الامر الهام بالنسبة لي ، انني يجب ان اجد (او أخلق) هدفا منسجما مع نفسي ذاتها ، وباتباعه استطيع اثارة امكانياتي ورغباتي الخاصة الى اقصى حد ممكن · وعندها اخيرا سأكون متعاونا بانسجام تام مع كلية الكون ·

وان كان الانشغال بهذه الاهتمامات الميتافيزيقية في الشباب مرضا فقد كنت ، في ذلك الوقت ، مريضا جدا ·

لم يكن هناك احد في اثينا · اما اصدقائي فقد استطاعت اهتمامات الحياة اليومية ان ترجح عقولهم وتهدئ قلوبهم ·

قال لي احدهم : « ليس لدينا الوقت للتفكير » ·

واعلن اخر : « ليس لدينا الوقت للحب » ·

وقال لي ثالث وهو يضحك : « انت منشغل اذن بالهدف من الحياة أليس كذلك ؟ يا لك من مسكين ! لم تنشغل بذلك ؟ » ·

تذكرت الجواب الذي قدمه لي الفلاح حين حلق طائر فوق رؤوسنا وانشغلت بالسؤال عن اسمه • نظر الي ساخرا وقال : « يا لك من مسكين • لم تنشغل بذلك ؟ انه لا يؤكل » •

وتقدم صديق من المدينة فألقى علي نظرة ساخرة ثم غنى :

« سأغني لك اغنية ، من اجمل ما استطيع :

ان تتبرز وتأكل وان تتبول وتشرب •

تلك هي حياة الانسان » •

بالنسبة للمفكرين : غيرات صغيرة، وخصومات صغيرة ، وثرثرة وعجرفة • بدأت اكتب لكي احول صرختي الداخلية ، وامنع نفسي من الانفجار • تعودت ان اصعد الى عش الدبابير الادبي الخطير والعظيم في ساحة ديكساميني اجلس في زاوية واصغي • لم أكن اثرثر ولا اتردد على الحانات ولا العب الورق • كنت شخصا لا يطاق • وكانت مآسي الثلاث قد بدأت تكتسي اللحم بألم في اعماقي • واشعار المستقبل لم تكن ، بعد ، الا موسيقى تكافح لكي تتجاوز كونها مجرد اصوات وان تصبح كلاما •

كانت هناك ثلاث شخصيات ـ اوليس ونيسيفوروس فوكاس والمسيح ـ تجاهد في اعماقي لكي يصبح لها وجوه ولكي تنتزع انفسها من احشائي وتتحرر لأستطيع ، بدوري ، ان اتحرر • طوال حياتي وانا واقع تحت سيطرة الشخصيات البطولية العظيمة • ربما لانني قرأت حياة القديسين بكثير من التأثر في طفولتي وكنت اتوق لان اصبح قديسا بدوري • ثم بعد ذلك كرست نفسي ، بالانفعال ذاته ، للكتب التي تتحدث عن الابطال : الفاتحين والمكتشفين والدون كيشوتيين • وحالما يصدف ان تجمع شخصية ما بين البطولة والطهارة احوز على نموذجي من الكائن البشري • وبما انني لم استطع ان اكون قديسا او بطلا فلقد حاولت ، عن طريق الكتابة ، ان اجد بعض العزاء عن عجزي •

وكنت غالبا ما اقول لنفسي : انت معزاة • وانا احاول ان اضحك لئلا انفجر بالبكاء • نعم ، معزاة • روح عجوز مسكينة • انت تحس بالجوع ولكن بدلا من ان تشرب الخمر وتأكل اللحم والخبز تأخذ قطعة من الورق الابيض وتضع عليها كلمات الخمر واللحم والخبز ثم تأكل الورقة •

وذات يوم بزغ ضوء في الظلام • كنت قد انعزلت في مخبأ في كيفيسيا ، في بيت صغير محاط بأشجار الصنوبر • لم أكن يوما حاقدا على البشر ، بل الحقيقة انني كنت ، دائما ، احب الناس (عن بعد) وكلما جاء شخص لزيارتي ، يستيقظ الكريتي في اعماقي ، وامنح نفسي اجازة لكي ارحب بهذا الانسان في بيتي • ولفترة لا بأس بها كنت استمتع وانا اصغي اليه

وادخل افكاره • وان استطعت مساعدته بأية طريقة فانني افعل ذلك بفرح • ولكن ما ان تطول المحادثة او الصلة حتى انسحب الى نفسي واتمنى ان اترك وحيدا • ويحس الناس ان لا حاجة لي بهم وانني استطيع العيش دون التحدث اليهم وهذا ما رأوا من المستحيل التسامح معي به • هناك قلة من الناس استطيع العيش معهم مهما طال الوقت دون ان احس بالانزعاج •

ولكن ذات يوم بزغ الضوء • في ذلكاليوم التقيت بشاب من عمري في كيفيسيا • اجببته واحترمته دون حدود • هو واحد من القلة الذين كنت احس انهم مقبولون في حضورهم اكثر مما هم مقبولون في غيابهم • كان حسن المظهر الى درجة كبيرة وكان يعرف بذلك وكان شاعرا غنائيا كبيرا وكان يعرف بذلك • كان قد كتب قصيدة طويلة مدهشة قرأتها اكثر من مرة وانا اكتشف متعة لا تهدأ في نظمها ولغتها وجوها الشاعري وانسياقها السحري : كان هذا الشاعر من فصيلة النسور • وصل القمة من اول خفقة بجناحيه وبعد ذلك الحين حاول ان يكتب النثر رأيت انه نسر حقيقي • ذلك انه حين توقف عن الطيران وحاول ، بدلا منه ، ان يسير على الارض كان ثقيلا وغريبا كنسر يمشي • الجو عالمه • لديه جناحان وليس لديه عقل ارضي جامد • كان يرى بعيدا او بشكل مبهم ، ويفكر بالصور • وكانت الشخوص الشعرية بالنسبة له حججا منطقية لا تتزعزع • وكلما شوشه الاستدلال المنطقي ولم يستطع ان يجد مخرجا اما ان تومض صورة براقة في عقلهواما ان يهتز ضاحكا ويهرب بهذه الطريقة •

غير ان لديه كرامة سامية عظيمة وفتنة نادرة ونبلا • حين تراقبه وهو يتكلم وعيناه الزرقاوان تشعان نشوة ، او حين تسمعه وهو يوقع على النافذة عند قراءة قصائده تفهم كيف كان الشعراء الملحميون اليونانيون القدامى ، والشعراء الذين يتجولون من قصر الى قصر مكللينبأوراق الكرمة او بالبنفسج وهم يروضون مستمعيهم الذين ما يزالون متوحشين بواسطة الشعر • والحقيقة انني منذ اللحظة الاولى التي رأيت فيها هذا الشاعر الشاب ، احسست انه شرف للجنس البشري •

صرنا صديقين بشكل مفاجىء وفوري • كنا مختلفين كثيرا • وتكهنا ان كلا منا في حاجة للاخر • واننا ، معا ، سنشكل الانسان الكامل • وبسبب امتلائي بالاسئلة والكفاحات الميتافيزيقية ظللت محصنا ضد الانخداع بالمظاهر الباهرة لانني تكهنت بالجمجمة تحت الوجه الجميل • كنت خاليا من السذاجة وغير واثق من اي شيء • لم أولد اميرا ولكنني كنت اجاهد لكي اصبح اميرا • اما هو فكان مرحا وعظيما وواثقا من نفسه • يمتلك لحما نبيلا وايمانا واضحا ومولدا للقوة بأنه خالد • لا شك انه ولد اميرا وليس عليه ان يعاني او ان يكافح لكي يصبح اميرا • وليس عليه ان يتوق الى القمة

طالما انه ـ وكان واثقا من هذا ايضا ـ قد وصل اليها • كان مقتنعا انه فريد من نوعه وليس هناك من يحل محله • ولن يتنازل لمقارنة نفسه بأي فنان عظيم اخر ، حيا كان أم ميتا • وقد منحته هذه السذاجة قوة وثقة في النفس عظيمتـــين •

حكيت له ذات مرة كيف تطير ملكة النحل في الجو يوم زفافها يتبعها جيش من اليعاسيب التي تحاول اللحاق بها • وينجح واحد ـ هو العريس • يتزوجها ثم يسقط ميتا على الارض • قلت له : « الخاطبون كلهم يموتون راضين • لأن كلا منهم يحس بمتعة العريس في عرسه ـ وكأنما قد توحدوا كلهم فـي واحد » •

لكن صديقي انفجر في ضحكة مدوية : « لا افهم ما تقوله ابدا • العريس يجب ان يكون انا • انا ولا اي شخص اخر » •

وأجبته ضاحكا : « لا تسمى الروح « انا » بل تسمى « كلنا » وذكرته بكلمات صوفي حبيـب : « : احس اننـــي المتــوج رغم ان الاخريـــن هـم المنتصرون » •

وفيما بعد • حين عرفته اكثر • قلت ذات يوم : « الفارق الكبير بيننـا يا انجيلوس ، هو انك تؤمن بأنك قد وجدت خلاصك وباعتقادك هذا نجوت • اما انا فأؤمن ان الخلاص غير موجود وباعتقادي هذا نجوت » •

في مكمن في اعماق نفسه ، كان هناك ضعف لطيف للغاية وملزم للغاية • كانت لديه حاجة ماسة لان يكون موضع حب واعجاب • فان استطعت ان تخترق وجهه المزهو بالانتصار ولهجته الواثقة الصادحة ترى ارستقراطيا قلقا يمد يده لكل عابر • قال لي واحد من اصدقائه ذات مرة ، وهـــو شخص ساخر : « انه يمثل دور السلطان ولكنه في الحقيقة سلطانة » •

كان الكثيرون يعتبرونه ممثلا او منافقا وذلك انطلاقا من الغيرة منه او من الكره للتيه الملازم لحياته الخارجية • وكانوا يدعون انه لا يؤمن بشيء وان اقواله كلها وافعاله كلها كذب وتباه ، وانه طاووس دائم العرض لريشه الزاهي ولكن لو نتفته لن تجد الا دجاجة عادية لا اهمية لها •

لا • لم يكن منافقا • حياته الخارجية ـ الكلام الكبير والعجرفة والمباهاة والتأكيد على انه فريد زمانه وعلى قدرته على القيام بالمعجزات ـ هذا كله كان منسجما مع الصدق المطلق ومع الثقة الداخلية العميقة • لم يكن يتظاهر انه فريد بل كان يؤمن بذلك فعلا • كان يستطيع ان يضع يده في النار واثقا انه لن يحترق • وكان يستطيع ان يزج بنفسه دون حذر في معركة مع ثقتـه

التامة بأنه لن تصيبه رصاصة . يأكل الكثير ويتباهى بذلك لانه كان واثقا ان كل ما يأكله سوف يتحول الى روح . وقد اعتاد ان يقول : « اما الاخرون .. اما الاخـرون ... » .

وذات يوم بينما كنا نتمشى في الحي القديم من اثينا قال : « احس الله كثيرا في داخلي بحيث انك لو لمست يدي في هذه اللحظة لانبعث منهـا الشـرر » .

لم أقل شيئا . وحين لاحظ صمتي سألني : « ماذا ؟ الا تصدقني ؟ حاول . المسها » . ومد لي يده . ولم اشأ ان اهينه . قلت له : « طيـب انا اصدقك . فلم علي ان اجرب ؟ » .

كنت واثقا ، بالطبع ، ان الشرر ينبعث منها . ولكن هل كنت واثقـا حقا ؟ من يدري ؟!... احس الان بالاسف لانني لم اجرب .

انجيلوس منافق ؟ ربما كـان كذلك لو انه اتخـذ مظهـر البساطة والكياسة . لكنه كان اصدق انسان في العالم . ولقد تأكدت من ذلك ذات يوم حين رأيت حادثا تجاوز حدود الفكاهة ودخل حدود الحماقة الخطرة المحرقة .

كنا نقيم في منزل ريفي تحيط به اشجار الصنوبر على الشاطىء . وكنا نتمشى لمسافات طويلة معا ، نقرأ دانتي والعهد القديم وهوميروس وهو يتلو اشعاره علي بصوته الراعد . تلك كانت الايام الاولى لتآلفنا ، ايام الخطبة . كنت مغتبطا جدا لانني وجدت شخصا عاجزا عن التنفس في أي مكان الا على أعلى مستويات الرغبة . ورحنا ندمر العالم ونعيد بناءه . وكان كل منا يعرف ان الروح خارقة القوة ، مع فارق بسيط انه كان يؤمن بأن هذا خاص بروحه بينما كنت ارى ان هذا لأرواح الجنس البشري كله .

وبعد عصر احد الايام بينما كنا نتهيأ للقيام بمشوارنا المسائي وكنا ما نزال نقف على العتبة ونحن ننظر الى البحر ، ومن سيصل عدوا الا وموزع بريد القرية ، اخرج من حقيبته رسالة واعطاها لصديقي ثـم انحنى على اذنه وقال بصوت حزين وخائف : « لديك ايضا رزمة كبيرة » . لكن صديقي لم يسمع . راح يقرأ الرسالة ووجهـه يصبـح قرمزيا ثم ناولني اياها : « اقـرأ ... » .

اخذت الرسالة وقرأت : « العزيز بوداكي .. جارنا الخياط قد مات . يا للمسكين . انني ارسله اليك . ارجوك ان تحييه » وكانت الرسالة تحمل توقيع زوجتـه .

نظر الي نظرة قلقة وقال : « اتظن انني ... هل الامر صعب ؟ » . هززت كتفي وقلت : « لا ادري . الحوادث كلها ... نعم . صعب جدا » . لكن ساعي البريد كان على عجلة . فسأل وهو ينهض على قدميه : « ماذا افعـل بالرزمـة ؟ » .

- « حولها » أجاب صديقي بجفاف وسحب يتطلع الي من جديد وكانه يتوقع مني التشجيع . لكنني احسست بارتباك شديد ولم أقل شيئا .

وقفنا صامتين ورحنا ننتظر . كانت الشمس على وشك المغيب والبحر قد أصبح ورديا غامقا وصديقي ينتظر وهو يعض شفتيه . وسرعان ما ظهر قرويان يحملان نعشا متواضعا يحتوي على الخياط في داخله .

وأمر صديقي : « اجلبوه الى الطابق العلوي » وقد اسود وجهه الزاهي . ثم التفت مرة اخرى ونظر الي قائلا : « ماذا تظن ؟ » وهو يحدق مباشرة في بؤبؤ عيني . « اتعتقد انني استطيع ان افعل ذلك ؟ » فأجبته : « حـاول . سأتمشـى » .

تمشيت على الشاطىء . ورحت استنشق عبير الصنوبر والبحر وقلت لنفسي الان سنرى ما اذا كان منافقا أم انه روح مغامرة ومجازفة مستعـدة لان ترغب في المستحيل وان تحاول تحقيقه . ما الذي سيفعله ؟ هل سيحاول ان يبعث الجثة حية ؟ أم انه سيخاف من ان يبدو مضحكـا ولذا سيتسلل كالثعلب الماكر ويزحف بهدوء الى سريره ؟ سنرى الليلة ... رحت امشي بأسرع ما استطيع وقلبي هائج ، وانا ارتعش لفكرة ان روح صديقي يجب ان تخضع للاختبار بهذه الطريقة امامي .

كانت الشمس قد غطست لتوها وراء الافق وجاء النعيب الاول والحزين والناعم للبوم من غابة الصنوبر . وبدأت قمم الجبال البعيدة تذوب فـي الظـلام .

أطلت مشواري متعمدا لانزعاجي من فكرة العودة الى البيت . فوجود الجثة كان يزعجني كتحصيل حاصل . ولم يسبق لي ان استطعـت مواجهة جثة دون ان اهتز خوفا وقرفا . وكنت ، من جهة اخرى ، راغبا في تأجيل ضرورة رؤية الكيفية التي سيتصرف بها صديقي في هذه اللحظة الحاسمة قدر ما استطيع .

وحين وصلت الى البيت ، كانت غرفة صديقي ، التي تقع فوق غرفتي ، تشع بالاضواء . ولانني لم أحس برغبة في العشاء توجهت الى سريري . ولكن كيف سأنام طوال الليل وانا اسمع من فوقي خوارا اخرس وقرقعة

السرير تتبعها مباشرة خطوات ثقيلة تروح وتجيء في الغرفة لمدة طويلة ثم الانين والقرقعة من جديد • واستمرت الحال طوال الليل • بين حين واخر كنت اسمع صديقي يتنهد بعمق ويفتح النافذة وكانه يطلب الهواء لئلا يختنق • وعند الفجر نمت اعياء • وحين استيقظت ونزلت الى الطابق السفلي كان الوقت متأخرا • صديقي يجلس على المائدة والحليب امامه لم يمس • حين رأيته خفت • كان شاحبا كالموتى وشفتاه كرماد الموتى وهالتان زرقاوان كبيرتان حول عينيه • لم أكلمه • جلست الى جانبه وانتظرت والقلق يأكلني •

قال اخيرا وكأنه يرغب في تبرير نفسه : « لقد فعلت ما استطعت • اتذكر كيف احيا النبي اليشاع (١) الميت ؟ استلقى بكل جسده فوق الميت ووضع فمه على فم الميت ونفخ فيه زفيرا • لقد فعلت مثله » • وصمت للحظة ثم قال : « طوال الليل • الليل بطوله • ولا فائدة » •

حدقت الى صديقي باعجاب ودهشة• لقد دخل بالفعل في حدود المضحك لكنه عبره ليصل الى الحدود المأساوية للحماقة ها هو يعود الان ويجلس قربي منهكا • والتفت الي يسألني : « وما العمل الان ؟ » اجبته : « ادع القس لدفنه • اما نحن فسنتمشى على الشاطىء » •

ناولته ذراعي الذي يرتعش • خلعنا احذيتنا وجواربنا ورحنا نخوض على الشاطىء لننعش انفسنا • ورغم انه لم يتكلم الا انني احسست به يهدأ ببرودة الماء والامواج الخفيفة• وهمس اخيرا : « انني خجل • أيعني هذا • ان الروح عاجزة ؟ » أجبته : « ليست بعد • ولكنها ستصير هكذا • لقد قمت بعمل مدهش في شجاعته لمجرد ان ترغب في تجاوز الحدود البشرية غير انه عمل مدهش في شجاعته ايضا ان تعترف بهذه الحدود دون خوف ودون يأس • سنضرب الجدران برؤوسنا ثم نعود الى ضربها • ستتحطم رؤوس عديدة ولكن ذات يوم ستنهار الجدران » •

فأعلن لي بعناد وهو يلقي بحجر كبير الى البحر « الرأس الذي سيحطمها يجب ان يكون رأسي ـ هذا ما اريده • رأسي » • وعلا صراخه « رأسي وليس رأس أي شخص اخر » •

ابتسمت • هذه الـ «ياء » و « الياء » والانا والانا كانت سجن صديقي، زنزانة دون ابواب او نوافذ •

---

(١) نبي عبراني من اتباع اليجا . واليجا نبي كبير يعود الى القرن التاسع قبل الميلاد .

سألته محاولا ان اريحه : « اتعرف أعلى ذروة يستطيع ان يصل اليها الانسان ؟ انها قهر النفس • الانا • حين نصل الى هذه الذروة ، وعندها فقط سوف ننجو يا انجيلوس » •

لم يقل شيئا • لكنه راح يضرب الامواج بكعبه مهووسا • وصار الجو بيننــا ثقيــلا •

قال : فلنعد الى البيت • لقد تعبت •

الحقيقة أنه كان غاضبا ولم يكن متعبا • ولم نتبادل كلمة واحدة طوال طريق العودة • سرنا مسرعين • كان النسيم يهب والبحر يتنهد وكان الهواء رطبا ومالحا • وحين وصلنا الى البيت اشرت الى مكتبة صديقي الضخمة باذلا جهدي للتخلص من الحادث السيء • قلـت له : « اسمع • سأغمض عيني وآخذ كتابا • والكتاب سيقرر » •

سألني صديقي مغتاظا : « ماذا سيقرر ؟ » •

ـ ما سنفعلـه غـدا •

اغمضت عيني وتلمست بيدي حتى امسكت كتابا • اختطفه صديقي من اصابعي وفتحه • كان ألبوم صور : اديرة وكهنة وابراج واشجار سرو وكهوف فوق صخور هاوية منحدرة على البحر ، والبحر يضطرم تحتها •

هتفت : « جبل آثوس » ، واضاء وجه صديقي وصرخ : « هــذا ما اردته بالضبط • انني اتمناه منذ سنين وسنين • فلنذهب » • ومد ذراعيه وضمني الى صدره بعنف • ثم سألني : « اأنت مستعد ؟ هل نلبس احذيتنــا ذات السبعة فراسخ ـ نحن اغوال أليس كذلك ؟ ألبس حذاءك ذا السبعة فراسخ لكي تطأ الجبل المقدس » •

المطر يهطل •وقمة آثوس تختفي وراء ضباب كثيف شامل • والبحر هادىء وموحل وهلامي • ودير يتلامع ابيض ناصعا وسط اشجار الكستناء المسودة بالمطر • لقد نزلت السماء الى ذرى الاشجار وكان المطر منهمرا وصامتــا ذلك النوع الذي تتشربه الارض وخمسة رهبان او ستة مبللون يقفون علــى الرصيف كأشجار السرو •

كان الى جوارنا راهبان يتحدثان وهما جالسان في قارب تجذيف ينقلنا الى داخل المرفأ الصغير في الجبل المقدس • كان اصغرهما ذو اللحية السوداء قليلة الشعر يتأبط كيسا ثقيلا ويقول : « مجرد سماعه وهو يغني ينسيك العالم • صوته احلى من أب او أم » •

أجاب الاخر : ما الذي تحاول ان تقوله لي ؟ لدينا في ديرنا شحرور يغني : « أبانا انني اناديك ! » و « المسيح قام » انه يدير رؤوسنا ونحن نسميــه

الاب الشحرور • انه يذهب معنا الى الكنيسة ويصوم طوال الصوم الكبير » •
فقال الراهب الشاب بعد فترة تأمل : « لا يمكن اذن ان يكون شحرورا يا أب لافرينديوس • ابدا • لا يمكن ان يكون شحرورا » •

ترجلنا على الارض المقدسة • وألقى الراهبان ، وهما يقفان على رصيف الميناء ، بنظرات خبيرة على كل شخص ينزل من القارب كأنما يبحثان عن امرأة متنكرة بثياب رجال ومتخفية بين المسافرين • خلال الالف سنة ، منذ ان نذر الجبل المقدس للعذراء ، لم تدس امرأة تلـــك المنطقة ولم يدنس الهواء بنفس انثوي ولا حتى اناثالحيوانات ـ نعاج او ماعز او دجاجات او هررة • الهواء مشبع فقط بأنفاس الذكور • .

انطلق مرافقانا المسافران وراءنا محملين كبغلين وراحا يوسعان خطاهما لكي يلحقا بنا • وسألنا الراهب الشاب مبتسما : « حجاج ؟ فلتكن بركتها في عونكـم » •

القديسون دائما شغوفون بالكلام • وهذان الاثنان اللذان يتصاعد منهما البخار يتحدثان عن المعجزات والآثار المقدسة والزهاد الذين رفعوا اذرعهم مصلين على قمم الجروف الهائلة • قال الفتـى : « وطالما انهم يرفعون اذرعهم لا داعي للخوف من انهيـار العالم • انهم يسندون العالـم ويمنعونه مـن الانهيـار » •

وسألته : « أصحيح انه لم يسبق ان داست امرأة هذا الجبل المقدس؟ »•
« ابدا • ابدا » • اجاب الاكبـــر وهـو يبصق في الهـــواء ويغمغـم : « ابق ورائي يا شيطان ! احيانا تبلغ الوقاحة ببعض النساء ان يأتين الى الشاطىء متنكرات بثياب الرجال • ولكن الرهبان المراقبين يكتشفونهن فـورا ويعيدونهـن » •

« وكيف يعرفون ؟ » سأل صديقي وهو يضحك •
« من الرائحة » • أجاب الراهب الشاب • « هو ذا • اسأله • لقد كان ذات مرة خفيرا على الرصيف » •
والتفت صديقي الى الراهب الكبير : « هل للنساء رائحة مختلفة يا أبانا المقدس ؟ كيف هي رائحتهن ؟ » •
« مثل الظربان (١) المنتن » أجاب العجوز وهو يوسع خطاه •
بدأ المطر يخف • لا بد ان ريحا قد هبت في طبقات الجو العليا • وتفرقت الغيوم وظهر شيء من ضوء الشمس • بغتة ابتسمت الارض وهي ما تزال

---

(١) حيوان ثديي صغير منتن الرائحة .

تستحم بالدموع وبرز قوس قزح شاحب في الجو الى جانب الشمس مجددا الصداقة بين السماء والارض المبللة . « زنار العذراء ! » هتف الراهبان وهما يرسمان الصليب .

وتابعنا تسلقنا على ذلك الطريق المرصوف بالحصى والمؤدي الـى كاريسي ، ونحن نتعكز على عصينا القوية المقطوعة من السنديان وحقائبنا على ظهورنا . مررنا بغابة كثيفة من اشجار الكستناء خفيفة الخضرة . واشجار الفستق والغار ذي الورق العريض . كـان الهواء مشبعا برائحة البخور ، او هذا ما خيل لنا . وأحسسنا وكأننا ندخل كنيسة هائلة مركبة من البحر والجبال وغابات الكستناء وسقفها السماء الصافية بديلا عن القبة . التفت الى صديقي راغبا في تبديد الصمت الذي بدأ يثقل علي . واقترحت عليه : « لم لا نتحدث قليلا ؟ » .

« اننا نفعل » أجاب صديقي وهو يلمس كتفي لمسة خفيفة . « اننا نتحادث ولكن بالصمت! بلسان الملائكة » . ثم ، بغتة ، بدا عليه انه بدأ يغضب « وماذا تنتظر منا ان نقول ؟ ان هذا جميل وان قلوبنا قد نبتت لها أجنحة وانها تريد ان تطير ؟ واننا قد بدأنا نسير على طريق يوصل الـى الفردوس ؟ كلمات . كلمات . كلمات . ابق صامتا » .

اندفع شحروران من شجـرة جوز فاهتـزت الاغصان المبللة ورشقـت وجوهنا قطرات من المطر .

قال الراهب العجوز : « لمملكة العصافير رهبانها ايضا ـ الشحارير ، ان الجبل المقدس مليء بها » .

وسأله الراهب الشاب : «وماذا عن النجوم يا أب لافرنديوس . هل لها رهبانهـا أيضا ؟ » .

ـ « سبق لها ان كانت رهبانا . كلها يا اخي . هنا على الإرض شهدوا على ايمان المسيح ثم استشهدوا وسموا الى حضن ابراهيم . فالجنة ، ان كنت لا تعرف ، هي حضن ابراهيم » .

كنت اصغي اليهما معجبا بروح الانسان ، تلك القوة التي في عز قوتها كانت قادرة على تحويل الاشياء كلها واخضاعها لاحلامها . الروح المؤمنـة جعلت كلا من الارض والسمـاء تدور حول نجـم قطب واحـد هو المسيح ، الشخصية الثابتة ، واجبرت كلا منهما على الدخول في خدمته . المسيـح ، بالنسبة لهذ هالارواح ، هو الجواب الاكبر لكل تساؤل . الاشياء كلها يتـم شرحها واضاءتها وتنظيمها وبذلك تستريح الروح . ولا يطرح الاسئلة الا اولئك الذين لا ايمان لديهم. وهم وحدهم يجاهدون ويضلون ويقعون فريسة اليـأس .

ولكن بعد أيام قليلة وصلنا الى الجبل المقدس • وقال زاهد نصف معتوه شيئا بلبلني • كان يعيش في حالة من السعار المنتشي وهو منزو في كهف مطل على البحر • قلت له ؛ لأغيظه ، « ايها المسكين • ايها المسكين ، لقد فقدت عقلك » •

فضحك وقال : « لقد تنازلت عن عقلي واخذت الله عوضا عنه • وبمعنى اخر لقد تنازلت عن فارذنغ (١) مزيف واشتريت الفردوس • فما رأيك يا بني ؟ أليست صفقة رائعة ؟ » وبعد قليل من الصمت تابع : « ودعني أقل لك شيئا اخر لمعلوماتك • مرة كان هناك ملك عظيم لديه ثلاثمائة وخمس وستون زوجة في جناح حريمه • كان جميلا يحب ان يأكل ويستمتع بوقته • وذات يوم ذهب الى دير رأى فيه زاهدا • نظر الى الزاهد مشفقا وقال : « اية تضحية عظيمة تقوم بها ! » فأجاب الزاهد : « تضحيتك اعظم » • « وكيف ذلك ؟ »؛« لانني قد تخليت عن العالم الفاني وانت تخليت عن العالم الخالد » •

وبدأ جرس قريب يقرع لصلاة المساء من مكان ما وراء أشجار الجوز • وظهرت قرية الراهبين حين درنا منعطفا في الطريق فأسرعنا الخطا •

البقالون وباعة الخضار والطباخون والباعة الجوالون ومنظفو الشوارع ـ كلهم رهبان • كانت قرية محزنة لا تحتمل،كلها من الذكور دونما امرأة واحدة ودون طفل ودون ضحكة• لا شيء الا الطيور : سوداء وصفراء ورمادية وشهباء وبيضاء ناصعة ، بعضها منقط وبعضها مشعث كالمكانس التي هي على هيئة الجرس وبعضها مجعد وكثيف ومغلق كزهور القرنبيط •

ذهبنا الى البروتاتون ، محل الاقامة الذي تنزل فيه وفود العشرين ديرا• وهم متربعون على مقاعدهم بعيون كتومة سريعة الحركة مليئة بالشك • عرفنا عن أنفسنا ـ مسيحيان يخافان الله يملأهما الحماس لله وقادمان لتقديم فروض الطاعة • قلنا اننا ما نزال في سن الشباب ، وقبل ان نبدأ في تذوق مشكلات العالم ، وقبل التزوج ، جئنا الى هنا الى حديقة العذراء لعل بركتها تنورنا وترينا الطريق الصحيح • لقد جئنا الى رحمتها كمنذورين •

وبدأ صديقي يصبح أكثر حماسا وهو يتحدث بصوته الداوي والقائه الشعري • استمع الينا الرهبان بأفواه فاغرة وبعضهم يشد لحيته • وكلما أفاض صديقي في الحديث استطعت ، انا نفسي ، ان اسبر معانيه وان افهم

---

(١) عملة ضئيلة القيمة .

السبب الحقيقي الذي جعلنا نأتي الى الجبل المقدس • ولا شك ان صديقي نفسه لم يكن يعرف السبب الا انه اكتشفه في سياق الحديث •

تهامس الرهبان وكل منهم ينحني على الاخر ثم نهضوا كرجل واحد ومنحونا اذنا مكتوبا بالتجوال في الاديرة وفي الصوامع كلها لنؤدي فروضنا في كل منها وللبقاء الى ان تمنحنا العذراء من رحمتها اشارة الى ان نذرنا قد انتهى •

بدأت رحلتنا • وتجولنا ، مليئين بالنشوة ، من دير الى دير ومن معجزة الى معجزة ونحن نتحادث بأصوات خرساء كالحجاج القدماء ، عن الله ومصير الانسان ، وواجبنا الخاص بنا ـ الموضوعات الدائمة لرحلتنا كلها • كنت احمل دفتر مذكرات اسجل فيه حصيلة اليوم كل مساء • والان ، بعد اربعين عاما ، أراها مصفرة لطول العهد بها ولكنني حين اقلب صفحاتها اعيد احياء تلك الايام الالهية التي لا تصدق • اية كلمة ، حتى غير الهامة ، تعيد الفرح والاشواق الى الحياة في داخلي وكذلك تعيد هواجس الشباب ، والمشاريع اللاهبة التي وضعتها وصديقي لتخليص ارواحنا ـ عجرفة الشباب ونبله وسذاجته كلها •

دير ايفيرون /١٩ نوفمبر / مشوار صباحي على الشاطىء • نبع صغير من الماء المقدس وكنيسة صغيرة الى جانبه وايقونة العذراء داخلها والدم يكاد ان ينفر من خديها • راهبان صيادا سمك يسحبان الشباك • والسمك يتراقص فيها •

عودة الى الدير • البورتايتيسا ـ سيدة البوابة ـ اية معجزة ! عينان حزينتان واسعتان ، فم صغير متموج ، ذقن ثابتة ـ فرح وحزن • غبطة البشر والامهم كلها •

وفي الليل • اية لحظة قدسية حين رأينا البحر ابيض بهيا يتنهد والقمر فوقه هائل في كبره • قال صديقي ان القمر الليلة يملأ فعلا مركزه • كان يضيء الابدية •

تحدثنا بأصوات منخفضة ونحن متقاربان • قلنا ان علينا ان نتخذ قرارا جذريا • علينا ان نتعرف على الابدية في كل لحظة •

اينما ذهبنا كان يتبعنا راهب شاحب وصامت • مخلوق مريض كان يسعل ويبصق ويحك نفسه دون توقف • لكن وجهه كان يشع بالسعادة •

قال صديقي : « لا بد انه مجذوب » •

وقلت : « لا بد انه قديس • الا ترى وجهه كيف يضيء ؟ تماما كما لو ان شمسا مسلطة عليه » •

وذات مرة توقفنا فانضم الينا ٠ قال : « انا الاب لافرينديوس المعتوه ، ربما كنتم قد سمعتم عني » ٠

أجاب صديقي : « أنت محظوظ ٠ لانك قد دخلت الجنة وانت ما تزال حيا ٠ وجه منور ٠ »

« الحمد لله » قال الراهب وهو يرسم اشارة الصليب ٠ « ما يسميه الاخرون جنونا انا اسميه فردوسا ٠ لكنني عانيت طويلا حتى فتحت الباب ٠

– أي بـاب ؟

– الباب الى الجنة يا اخي ٠ حين دخلت الى الدير ، في البدء ، كنت ارتعش وابكي خوفا ٠ كنت انتحب لفكرة الجنة وانتحب لفكرة الجحيم ٠ ولكنني ذات صباح نهضت وقلت لنفسي ، لم البكاء ؟ الله هو أبونا اليس كذلك ؟ ونحن ابناؤه ٠ أليس كذلك ، حسن اذن لم الخوف ؟ ومنذ ذلك اليوم سميت بالمعتوه ٠ »

وتناول كسرة خبز يابسة من تحت قميصه وناولني اياها ٠ قال : « خبز الملائكة ٠ كلا كُلا ٠ ايها الشيطانان المسكينان لكي تنمو لكما ايضا اجنحة ٠٠٠

دير سترافرونيكيتا – ٢١ نوفمبر ٠ مكان شاهق فوق البحر ٠ بواب عجوز من حطام كريت القديم ٠ امسكني من يدي ٠ ٠

– ايه ٠ من انت ؟

٠ كريتي ٠

– ادخل ٠

في احدى الحجرات كان بعض المبتدئين يتعلمون الموسيقى البيزنطية وهم يلتقطون النغمات الاولى بأصوات مرتفعة ٠ كانوا يمسكون بالتراث كقنديل مشتعل بأيديهم القذرة والطفولية ٠

البحر ظاهر من برج الدير ٠ كم يبدو كقوس هائل الكبر ٠ قوس هائل مشدود ٠

بعد ذلك في الدير نفسه رأس المسيح ابن الاثني عشر عاما مليء بالفهم والجدية الالهية ٠ مندفع ، جبهة عالية ، صدر ابيض ريان ، عينان عميقتان وغارقتان في التفكير ٠ ابن بورتا تيسيا فعلا ٠٠٠ ايقونة اخرى ٠ صورة كبيرة للقديس نيكولا من اويسترز ٠ لديه محارة ضخمة على جبينه وماء البحر ينقط من كفيه ٠

تحدثت مع البواب الكريتي :

– ما الذي جعلك تصبح راهبا

- ذات يوم قرأت لي عمتي في الانجيل وقالت لي ان العالم لا قيمة له • يجب ان لا انسى الاب فيليمون الذي كان يخدمنا على المائدة • جسد ممشوق كسيف من الفولاذ الدمشقي (١) ، مثل ملاك بين اللهيب • كان يتطلع الى تلقي الاوامر • تملأه الغبطة حين يخدم ويلبي • كانت فرحته كبيرة الى درجة لم يستطع معها ان يمنع نفسه من الضحك • كان يضحك باستمرار •

سألته : متى ياتي دوري في رؤية اللـه ؟

فأجاب : الامر سهل • سهل جدا • افتح عينيك فقط وستراه •

دير بانتو كراتوروس: سمعت، قبل الفجر، نغمة ساحرة من باحة الدير، اعلى الاصوات • هرعت الى نافذتي فرأيت راهبا في غسق الفجر • كان يعتمر قبعة الرهبان والكاميافكو (٢) الاسود معتدل على ظهره • كان يحمل وضما مستطيلا من الخشب ، سيمانتزون يمكن حمله ، يوقع عليه بمطرقته• كان يتقدم ببطء في الباحة وهو يتنقل من حجرة الى اخرى مناديا الاخوة لصلاة الصبح • كان صديقي ، الذي استيقظ بدوره ، ينحني من النافذة الى جانبي • وكنا ، معا ، نصغي برضى واستغراق • وبعد ان انتهى السيما نترون لبسنا وذهبنا الى الكنيسة • ظلام مطبق ، باستثناء مشعلين يشتعلان على الحامل (٣) امام ايقونتي المسيح والام العذراء • كان الهواء مشبعا برائحة الشمع والبخور الزهري •

بدأت ترنيمة الصلاة الصباحية بنعومة ولطف كحفيف الاشجار وتنهدات البحر • وجاء رئيس الدير يحمل شمعة بيده واقترب من كل مقعد لكي يرى ان كان الاخوة كلهم قد نزلوا ثم غطس المنضحة في الماء المقدس المتجمد وراح يرش جباه الرهبان بنشاط واضح • وحين تمشينا في الدير فيما بعد ، رحنا نعلق على الحياة هنا ، اي ايقاع قدسي ، واية صدفة مكتملة الزينة وساحرتها : نتاج اجيال مجهولة - ولكن الان ، في داخلها ، المحارة التي خلقت الصدفة وزينتها قد ماتت • وقلنا : « يجب ان نعيد النظر في التنسك المسيحي • »

وأقسمنا على ان نفعل ذلك : « وهـذا ما جئنا من اجلـه الى الجبل المقدس •

دير فاتو بيدي : اقتربنا من فاتو بيدي الشهير ذات صباح

---

(١) فولاذ مزدان بخطوط متموجة .

(٢) وشاح اسود يضعه الرهبان الارثوذكس فوق القبعة ويتدلى حتى الخصر . يأخذ احيانا شكل الهرم على الراس . يشبه الخمار من حيث الغاية . انه يمنع الراهب من رؤية « العالم » .

(٣) حاجز مزدان بالايقونات يفصل المذبح عن الجزء الاساسي من الكنيسة .

منعش مترع بمحبة الله اللطيفة ! صباح قادم لتوه من السماء ، وكان هذا هو اليوم الخامس للخلق والله ، لم ينه بعد صنع الانسان ليفسد عليه عمله . تفتح الشرق على مراحل كما تتفتح الزهرة ، وظهرت الغيوم الصغيرة ذات الخدود المحمرة ، كالملائكة الاطفال ، من وراء الافق ، وراحت تكبر تدريجيا فبدت وكأنها تنزل الى الارض . حط شحرور في وسط الطريق وتطلع الينا والندى ما يزال عالقا على جناحيه . ولكن ، كما لو انه لم يكن شحرورا ، كما لو انه روح لطيفة تعرفت علينا ، لم يخف ولم يتنح من طريقنا . وكانت هناك بومة صغيرة جاثمة على صخرة وقد دوخها الضوء . ظلت في مكانها بهدوء وصمت تنتظر ان يعود الظلام .

لم نتكلم . كان كل منا يحس ان الصوت البشري ، مهما بلغت حلاوته وبلغ خفوته ، سوف يثير الصخب ويكون نشازا هنا . وسوف يتمزق الستار السحري الذي يشملنا . كانت ايدينا ووجهانا تبرق بندى الصباح ونحن نزيح اغصان الصنوبر الواطئة . ورحنا نتابع سيرنا .

سعادتي تخنقني . التفتت الى صديقي وكنت على وشك ان افتح فمي لاهتف ، اية غبطة هذه ! لكنني لم اجرؤ . لقد عرفت ان السحر سوف يتبدد حالما اتكلم . اتذكر انني رأيت ثعلبا في عصر احد الايام في تايجيتوس فوق اسبارطة . كان يتقدم بحذر شديد عنقه ممدود وذنبه الاشعث منتصب بقوة ملقيا ظلا ارجوانيا طويلا على الحجارة . حبست انفاسي لئلا يشم الحيوان رائحتي ويهرب لكن هدوئي لم يكن كافيا لمنعي من التهليل . ورغما عني هربت مني صرخة صغيرة جدا . سمعها الثعلب وقبل أن اجد الفرصة لمعرفةالاتجاه الذي سلكه كان قد اختفى ... احسست ان السعادة في حياة الانسان هي نفسها دائما .

وبغتة سمعنا كلاما وضحكا . لقد وصلنا اخيرا الى الدير . كان هناك راهبان حسنا التغذية يجلسان على مقعد حجري أمام الباب الخارجي وهما ينكتان مع البواب .

توقفنا بغتة وكأننا رأينا افعى . نظر صديقي الي وقال : « لقد كان حلما . » وهز رأسه وتابع : « لوهلة خيل الينا ان البشر غير موجودين » واجبته : « يا للخجل ! لقد كان هذا هو الفردوس الحقيقي وهو اسمى بكثير من الفردوس الاخر . وبدلا من رجل وزوجته يتمشيان تحت اشجار الله كان هناك صديقان . والان . انظر . لقد طردنا ـ لم يطردنا ملاك يأتي مهرولا بسيفه بل طردنا انسان مسلح بصوت . »
كان الراهبان يصرخان بصوت مرتفع وينفجران في ضحك متدفق وهما يغيظان البواب . لكنهما صمتا حين رأيانا . ونهضا وهما يربتان على

بطنيهما ومدا لنا يديهما لنقبلهما ٠

قالا : « أهلا ٠ الله معكم » ٠

وأجاب صديقي وهو ينظر الى خدودهما المحمرة وكرشيهما : « يبدو إن اموركما تسير على افضل وجه يا ابوانا المقدسين ٠ » كان ما يزال عاجزا عن مسامحتهما على طردنا من الفردوس ٠

قال الاول ذو اللحية الشقراء : « لقد هجرنا العالم الزائف ومتعه » ظللنا صامتين ٠ غير ان الاخر ، الراهب ذا اللحية السوداء قال : « : لم تنظران الينا بهذه الدهشة ؟ الصلاة مغذية اكثر من اللحم ٠ »

كانا قد اقتربا منا ٠ وكانت رائحة الثوم تفوح منهما بشكل لا يمكن احتماله ٠ فقلنا : « لندخل ونقدم احترامنا » ونحن تواقان الى الهرب من هذين الراهبين الثوميين ٠

وجاء المضيف ٠ وهو راهب نظيف ازرق العينين ذو لحية بيضاء حريرية وبشرة متوردة يعيش برخاء واضح ٠ وبعد ان رحب بنا سار امامنا وتبعناه ٠ كان ديرا مترفا ٠ مدينة بأكملها ٠ غرف للزوار وابواب ونوافذ مدهونة حديثا واضواء كهربائية وحدائق مطلة على البحر ٠ كان الرهبان قد غادروا غرفة الطعام لتوهم وجلسوا خارج حجراتهم ليهضموا طعامهم في الشمس ٠ دخلنا الكنيسة وقدمنا احترامنا امام ايقونات العذراء الشهيرة : الباراميثيا ، الكنيغوريسا ، البيجاتاريسا ، الانتيفونتيريا ، والاسفاغمينه، والاليابروتيذا ٠ فتح أمامنا مذخر ثمين وقبلنا حزام العذراء المقدس ٠ وتذكرت الراهبين الذين جلباه الى كريت حين كنت طفلا ٠ تسابق الناس يومها الى ايقونة القديس ميناس ليقدموا احترامهم وهم يملأون حقيبة الرهبان الصغيرة بالمتيزيت الفضية والليرات الذهبية والحلق واطواق الزفاف ٠ لم يكن لدي ما اقدمه من اجل بركتها فبحثت في جيبي ووجدت قلم رصاص فألقيته في الحقيبة ٠

خرجنا الى الباحة وصعدنا الى غرفة الضيوف ٠ اعدت لنا وجبة فاخرة مليئة بنعم الله كلها ٠ وقال صديقي الذي يحب الطعام الجيد : « أمورنا هنا لا تسير بشكل سيء ٠ ليست سيئة ابدا ـ حتى لتظن اننا رهبان فاتوبيدي » ٠

واقترحت عليه : « لنشرب نخب برمودوس الفقير المسكين ٠ برمودوس المسكين الجائع ٠ اه كم كان يمتلىء بالغيرة وهو يفكر في رؤساء الاديرة وهم يتناولون وجباتهم في الاديرة ٠ وكم كان ريقه يشط ا وكم كان يشتكي لامبراطوره ٠ اتذكر الابيات ؟ » ٠

ـ طبعا اتذكـر :

حين افكر في رؤساء الاديرة يا صاحب الجلالة
اخرج من نفسي واخـرج مـن عقلي
يحشون انفسهم بسمـك النخب الممتاز
بينما يعطونني التـن (١) المنتن
يغرّون خمور كيوس الى ان ينتفخوا
بينما يتيبس بطني المسكين من الخل

وضحك صديقي ولكن ظلا مفاجئا ارتمى على وجهه • قال : « عيب علينا ان نضحك • هذا الدير يسحق قلبي • هل رأيت الرهبان ؟ كـل منهم حسن التغذية • لو عاد المسيح الى الارض وصدف له ان توقف بفاتوبيدي ، اه كم كان سيجعل السوط يغني فوق رؤوسهم • هيا بنا • دعنا نذهب •

ـ نذهب الى أين ؟ ان قلوبنا لا يسحقها هذا الدير فقط بل العالـم كله ـ الا تشعر بذلك ؟ في كل مكان يجوع بعضهم بينما يتخم الاخـرون ويلعقون شرحاتهم • الذئاب والغنم في كل مكان •قانون واحد في العالم ما يزال مصانا : كل والا أكلت ـ قانون الغاب • »

ولكن هل يعني هذا ان الخلاص غير موجود ؟ أليس هناك اي حيوان طيب بما فيه الكفاية وقوي بما فيه الكفاية بحيث انه لا يأكل الاخرين ولا يسمح ان يأكله الاخـرون •

ـ ولا أحد • ولكن قد يأتي يوم • لقد انطلق حيوان ما منذ الاف السنـين لتحقيق هذا الهدف لكنه لم يصل اليـه بعد •

• أي حيـوان ؟

ـ القرد • نحن ما نزال في منتصف الطريق ـ البيتيكا نتروبوس (٢) • فاصبـر •

• الله يستطيع ان يصبر • هو خالد • ما الذي يخسره بالزمن ؟ ولكن الانسـان ؟

أجبته : الانسان خالد ايضا • ورغم انه ليس ، كله ، خالدا • ولكن الجذر الخالد منه يستطيع ان يصبر •

نهضنا عن المائدة ونزلنا الى الشاطىء • كانت الشمس على وشك

---

(١) نوع مـن السمك •
(٢) انسان جاوة : انسان بدائي منقرض •

الغروب ولم تكن ورقة تهتز • كان هناك نورسان يفردان اجنحتهما ويضربان البحر بصدريهما الابيضين سعيدين •

قال صديقي وهو ينظر اليهما باعجاب : « لا بد انهما رجل وزوجته » •

فقلت : « أو صديقان » والتقطت حصاة عن الشاطىء ورميتها لتفريقهما •

★ ● ★

حين أستغرق في هذه المذكرات القديمة الان في شيخوختي وارى حملاتنا الدونكيشوتية في ذلك الحين - الرمح المطعوج ، والترس المنخور والخوذة التنكية والعقل المليء بالنبل والريح - أعجز عن أن ابتسم • ما أسعد الشاب الذي يؤمن أن واجبه هو اعادة صنع العالم وجعله أكثر انسجاما مع الفضيلة والعدالة وأكثر انسجاما مع قلبه • وما أبأس من يبدأ حياته دون جنون •

تجولنا في الجبل المقدس وكلما استنشقنا هواءه ومناخه التهبت قلوبنا واشتعلت حماسا • يا الهي أية قرارات اتخذنا ! وأية عهود قطعنا ! وبأية خفة كنا نقفز فوق الصخور ونحن نتقدم من دير الى دير ونحن نشعر ، ليس بخيالنا فقط ، بل بجسدينا بأكملهما اننا مزودان بأجنحة ملائكية ! هذا هو ، بالضبط ، المناخ الذي يولد الجنون أحيانا ، وأحيانا أخرى الورع والبطولة • وفي السنوات التي أناخت علينا فيما بعد لم نعد ، أنا وصديقي ، نذكر تلك الساعات الكيشوتية المقدسة • كنا نحس بالخجل • ليس لان اللهب قد خبا - وأسفاه ، انه لم يخب - بل لان قوتنا قد أثبتت أنها رخوة وأنها أقل من رغباتنا • اننا ما زلنا - كما كنا دائما - نريد أن نخلق عالما جديدا وأفضل • ولكننا رأينا اننا لا نستطيع أن نفعل ذلك • لقد اعترفت بالامر ولكن صديقي أبقاه مخفيا طوال حياته • وهذا هو السبب الذي جعله يذوي سرا ويعاني أكثر مما أعاني •

مرة واحدة فقط ، ذات مساء بعد سنوات عديدة حين أشرق البدر الهائل من البحر حزينا ونحن نغادر الدير في سبيستاي التفت الى صديقي وقلت له : « أتذكر يا أنجيلوس •••؟ » الا انه شحب • فقد أدرك انني تذكرت القمر في أثوس • وضع يده على فمي وأمرني أن أصمت ثم أسرع خطاه •

الان ، مرة أخرى ، أنحني على دفتري القديم وأقلب الصفحات •

دير كاراكالو:

غطت الغيوم سفوح أثوس وقمته تاركة منطقـــة واسعة من الثلج المشعشع في وسطه · بدأت تمطر - زخات شمسية · ركض دليلنا وأطلق طلقة من بندقيته ، وجاءت أصوات أجراس الدير احتفالية من وراء أجمة من أشجار التنوب · وظهر رئيس الدير ممسكا صليبا طويلا يرمز الى وظيفته ، وهو يقفعلى العتبة يرحب بنا ومعه حاشيته ·

دخلنا غرفة الطعام · كانت طويلة وضيقة بأعمـدة مدهونة بالازرق والاسود · جلس الرئيس علــى رأس المائدة صارما وصموتا وملتحيا · فوقه مسيح قاس مقطب الحاجبين مرسوم بالاخضر والاسود · وعن منبر عال وصغير يقرأ القارىء (١) ، وهو راهب شاحب صغير السن ، ملقيــا فصولا من حياة القديسين بصوت رتيب منغم · انكب كل على صحنه دون كلام · وقليلا ما لمس الرئيس طعامه او ذقنه ولكنه ، بغتة ، امسك بجرس صغير على يمينه وقرعه ثلاث مرات · وهب الرهبان جميعا واقفين وهم ما زالوا يمضغون طعامهم الذي لم ينته · وركض الراهب الذي يخدم علــى المائدة يقدم نفسه امام الرئيس ويتلقى بركته · ثم فعل القارىء مثله وطلب العفو ان كانت قراءته سيئة · ودخل خبز القربان على صينية صغيرة· خبزة صغيرة اخذ كل راهب منها قطعة صغيرة راح يقضمها كانتيدور (٢) مقـــدس ·

في تلك الليلة استلقينا ورحنا نتحدث · قال كل منا ان الوقت ملائم والعالم مهيأ لطريقة جديدة في حب المسيح · في وقت مبكر من ذلك اليــوم كنا قد قابلنا راهبا يقف خارج مقبرة الدير · وحين سألناه عن سبب وجود الرسوم على مداخل المقبرة وهي دائما تمثل المسيح مصلوبا وليس ، كما هو أكثر ملاءمة ، المسيح ناهضا من قبره · غضب الراهب واجاب : « مسيحنا هو المسيح المصلوب · هل رأيت في الاناجيل مسيحا يضحك ؟ انه يتنهـد دائما تحت السياط ويبكي - انه مصلوب ابدا » ·

ونحن عاجزان عن النوم الان قلنا : « لقد جاء الوقت الذي يجب ان نجعل المسيح فيه يضحك · نعم · يجب · لا جلد بعد الان ولا بكاء ولا صلب · يجب ان يجمع المسيح في اعماقه آلهة اليونان الاقوياء والسعداء · يجب ان يتمثلهم جميعا · لقد آن الاوان الذي يصبح فيه المسيح اليهودي يونانيا » ·

- « والذي سيحقق ذلك هو نحن » هتف صديقي وهو يرفع يده وكأنه

---

(١) الذي يقرأ من الكتاب المقدس في القداس .

(٢) الخبز الذي يوزع على المصلين عند الارثونكس وهو بديل عن « نعمة اللـــــه » .

يقسم على ذلك .

وهتفت بدوري : « نعم . نحن ! » وأحسست في تلك اللحظة ان لا شيء في العالم كله يستطيع ان يقاوم الروح البشرية .

صاح صديقي : « لن نفترق ابدا . سنلزم انفسنا معا مثل ثورين يفلحان الارض » .

بعد سنوات فهمنا . لقد الزمنا انفسنا معا كالثيران ولكننا فلحنا الهواء .

دير فيلوثيو

مشوار ساحر في الضباب . حور بهي طويل مغطى باللبلاب . راهب ثائر اسمه ايونيكوس ـ احمر الرأس ، بارز العظام مهذار الكلام . لا يتوقف عن اخبارنا بقصة اخته كاليرهو التي تلبستها الشياطين . كان من الواضح انه هو نفسه يحمل في اعماقيه شياطين . اثنان منهما . واحد اسمه هوجا والثاني اسمه اسماعيل . تلك المخلوقات اللطيفة تعارض الله دائما وتعارض ايونيكوس . كانت تريد ان تأكل اللحم ايام الصيام وكانت تحث ايونيكوس على النزول على رؤوس اصابعه ليلا والذهاب الى المطبخ لالتهام اي طعام متبق من العشاء . واضافة الى ذلك في كل صباح حين يسمع اسماعيل وهوجا الدعوة للصلاة يصرخ كل منهما : « لست ذاهبا . لست ذاهبا » .

تقدمنا الى باحة الدير . كان العشب ناميا في كل مكان ، بين الفحم الحجري وعلى الجدران المحيطة وكانت الحجرات سوداء من الرطوبة والعفونة . وكان المصلى في الوسط . دخلناه لتقديم صلاتنا امام الايقونة مدهشة الصنع ، للعذراء ذات القبلة الناعمة . كان خدها مائلا بحنان لا يوصف على خد المسيح الطفل وعيناها الحزينتان جدا تحدقان الى البعيد .

قال الراهب الذي يرافقنا : « انظرا بتمعن الى عيني العذراء . ما الذي تريانه فيهما ؟ » .

اقتربنا وحدقنا . ثم اجبنا : « لا شيء » .

قال الراهب وهو يلقي علينا نظرة قاسية : « كل من لديه ايمان يرى المسيح مصلوبا » . ثم فتح مدخرا فضيا يحتوي على عظم طويل . « اديا صلاتكما . انها ذراع كريسوستوم (١) اليمنى . ارسما شارة الصليب » .

---

(١) القديس جون (٣٤٥ ؟ ــ ٤٠٧) اب يوناني للكنيسة ولد في سورية .

رحلنا في الصباح الباكر يدفعنا الشوق لرؤية دير لافرا العظيم والشهير الذي بناه الامبراطور الحزين نيسيفوروس فوكاس الذي كان يرغب في القاء تاجه عنه واللجوء هنا ليعيش حياة النساك · لكن توقه الاخر ـ للنساء ـ لم يسمح له بذلك · ولذا ظل يماطل ويماطل وينتظر · الى ان جاءه اعـز اصدقائه يحمل سيفا قطع رأسه به ·

وصلنا · هناك صنوبرتان كبيرتان · الاولى زرعها متلقي اعترافـات نيسيفوروس فوكـاس ، القديس اتاناسيوس ، وزرع الثانيـــة تلميـــذه يوتيميوس · وكان آثوس المكلل بالثلوج معلقـــا فوق الدير وكأنه ضابط الكـل (١) ·

ادخلنا الى الموهف (٢) وبفخر اظهرت لنا كنوز الدير ـ جمجمة باسيل الكبير وفك تيودور ستراتيلاتيس ، والذراع اليسرى لكريسوستوم وكومة من العظام الاخرى · وفتحت لنا حقيبة ضخمة مزينة من نواحيها كلها بالحجارة الثمينة واللآلىء · وفي داخلها قطعة كبيرة من الصليب الحقيقي · وارتعش صوت الراهب بانفعال حقيقي لكن هذا ذكرني بما قاله ذات مرة مسيحي حقيقي مؤمن : « كل قطعة من الخشب حقيقية لانه من كل قطعة يمكن ان يصنع صليب · ثم لباس نيسيفوروس فوكاس وكله من الذهب ومزين بزهور ليلك من الحرير ، وتاجه الذهبي مرصع بجواهر حمراء وخضراء هائلة الحجم ، والانجيل المكتوب بيده ··· وبعدئذ كمية كبيرة من الكتب البالية » ·

تطلعت وصديقي باعجاب ·· لكن هذا كله لم ينجح في لمس قلوبنا ، وأكثر ما اتذكره من هذا كله ، واتذكـــره بامتنان كبير ، شذا شجرتـــي مشملة (٣) مزدهرتين في مدخل المكتبة · انتعش جسدي كله وهو يستنشق عطر المشملة الذي اعبده ، ذلك العبير الحلو الحاد اكثر تخديرا واسكارا من الخمور والنساء وكل روائع العالم ·

في الصباح التالي انطلقنا الى قمة آثوس قبل الفجر · كان المنـادي (للصلاة) لم يرتل بعد في الرواق ولم تستيقظ العصافير · السماء حليبية

---

(١) المسيح الـــذي يبارك العالم ممسكا بيده اليسرى الكـــرة الارضية في الكنائس الشرقية . (مرت في مكان اخر باسم البانتوكريتور) .
(٢) غرفة المقدسات وملابس الكهنة .
(٣) شجر من الفصيلة الوردية .

وصافية ونجمة الصبح تشع في الشرق كسارون (١) سداسي الاجنحة ·

كان الاب لوكاس ، القصير محني الرجلين ، وهو مهر بسابق ، يقودنا في الطريق · وبين حين واخر كان يقف ليتحدث معنا عن البحار والعربدات والمشاجرات مع الاتراك · لقد ظل وجوده السابق في العالم كقصة خرافية في اعماقه · كان يبدو وكأن تلك الحياة السابقة قد حدثت على كوكب اخر أكثر خطرا واكثر بدائية ووحشية ، كوكب مليء بالصرخات واللعنات والنساء · كان يحكي ويعيد حكايته الخرافية وتعيد احياءها ليحس بالسعادة · وعلى الرغم من انه كان يتنكر لكل جانب من جوانب حياته السابقة فانه حملها كلها معه ، مصرورة داخل قفطانه ·

وتوقف تحت شجرة تنوب كبيرة تواقا للكلام : « سنتوقف لنرتاح قليلا يا شباب ـ موافقون ؟ فلنتبادل بعض الكلمات · انني على وشك الانفجار » واخرج كيس تبغ مخبأ تحت طوقه ودرج لفافة ثم فتح الحديث ·

« انا ، الشخص الذي تريانه مرديتيا الطوق اعتادوا ان ينادوني ليونيداس ـ كابتن ليونيداس من كاليمنوس مصدر رعب الاتراك · كنت مهربا ومؤذيا بمقدار ما يستطيع المرء ان يكون ، فكيف جئت لأرتدي الطوق ! هذا ، سأحكيه لكم في وقت اخر ويكفي ان اقول الان ان المهرب في اعماقي لم يتذمر ابدا · وكيف يستطيع ان يتذمر وانا احشوه بالطعام والشراب كما لو انه بيك · ولا اهمية لكونه مربوطا في داخلي ككلب في قارب · لوكاس يأكل الخبز والزيتون في غرفة طعام الدير مع الرهبان الاخرين لكنه حين يعود الى حجرته ويوصد الباب ، يعد المائدة لليونيداس ويأكل اللحم · وكما ترون نحن لسنا واحدا بل اثنين · مفهوم ؟··· هذا ما اردت ان احكيه لكم · الخطيئة التي يعترف بها هي الخطيئة التي يتم اصلاحها · لقد تكلمت وانا أحس انني صرت افضل · والان فلنذهب » ·

هتف صديقي وهو ينفجر بالضحك : « برافو يا كابتن لوكاس ! لقد كنت بارعا في تدبير ما لا يدبر · ولكن ألم يداخلك الشك ابدا في ان هذا كله قد يكون من عمل المغوي (٢) ؟ » ·

ـ طبعا ، طبعا · قال الراهب وهو يغمز بدهاء · هذا الشك يداخلني كل صباح ـ لكنني عند العشاء انساه ·

واقترحت عليه : اربط منديلا بيدك للتذكير ·

---

(١) أحد الملائكة الحارسة لعرش الله في المعتقدات اليهودية القديمة .
(٢) الشيطـــان .

مج من لفافته بعمق وأخرج الدخان من منخريه .وقال : ليس لدي منديل؛ وعاودنا صعودنا . صنوبر وجروف شاهقة . كان البحر ، الهادىء هذا اليوم ، يمتد في الاسفل تحت ضوء الصباح اللطيف . وحين تزايـــد الضوء استطعنا ان نميز الجزر المقدسة ، ليمنوس وساموتراس ، عن بعد . كانت تبدو وكأنها تقوم وسط الجو دون ان تلمس الماء .

وصلنا خط الثلج . وكان الاب لوكاس يتقدمنا ببطء وبخطوات حذرة . انزلقنا وسقطنا ونحن نتقدم بصعوبة على الثلج الجليدي . كان الجبل شديد الانحدار ووحشيا وقاسيا . وبغتة توقف صديقي ، الذي كان يمشي امامي ، وانحنى محدقا الى الهوة العميقة التي لا قرار لها . اصيب بدوار جعلـــه يشحب فالتفت الي هامسا : « دعنا نرجع » .

قلت له : « ولكن ألن يكون هذا مخجلا ؟ » وانا انظر اليه مؤنبا . كنت شديد الرغبة في الوصول الى القمة .

« نعم . نعم » قال خجلا « فلنتقدم ! » وبدأ الصعود من جديد .

كانت الشمس مرتفعة حين وصلنا الى القمة وكان كل منا يلهث تعبا . لكن وجوهنا كانت متألقة لاننا وصلنا الى هدفنا .

ذهبنا الى الكنيسة الصغيرة لتقديم صلاة قصيرة لتجلي المسيح . وفي ذلك الحين كان الاب لوكاس قد اشعل نارا من العيدان والاغصان التي جمعها خلال الطريق ثم اخرج من حقيبته قهوة واعدها . تكومنا معـــا وراء صخرة كبيرة لان الريح كانت قد بدأت تهب وبدأنا نحس بالبرد . رحنا نحـــدق الى البحر الصامت اللامحدود الممتـــد امامنـــا والجزر المبحرة فيـــه ببيـــاض ناصع وبعيدا جدا الجبال الغامضة التي اعطت الجو هيئة رصاصية .

أعلن لوكاس : « يقولون انك تستطيع ان ترى القسطنطينية من القمة المقدسة » . ثم راح بعينيه الجاحظتين يحدق نحو الشرق جاهدا ان يـــرى العاصمـــة الملكيـــة .

ـ هل سبق لك ان رأيتها يا كابتن لوكاس ؟

تنهد الراهب وقال : « لا . لم استحق ذلك . يبدو ان اعيننا المادية غير كافية . يلزم عيون اخرى ، عيون الروح وا اسفاه ؟ ان روحـــي مصابة بقصر النظـــر .

قلت : لكنك تستطيع ان ترى الله .

اجاب الراهب : « ايه ! لا حاجة للعيون من اجل ذلك . الله اقرب الينا من كبدنـــا ورئتينـــا » .

كان صديقي مكتئبا وصامتا • لا شك انه لا يستطيع ان يجبر نفسه على مسامحة جسده الذي جبن للحظة • وبغتة لم يعد قادرا على السيطرة على نفسه أكثر من ذلك ، مد يده وضغط على يدي بقوة •

قال : « ارجوك • انس ذلك • اقسم انني لن افعلها ثانية » •

ايوزافايوي / ١٦ كانون الاول - ديسمبر

قضينا هذا اليوم ، يوم شفيعي (١) ، في الاستديو الشهير لايوزافايوي • هناك عشرة رهبان رسامين • كل اسبوع يجيء الدور على واحد لادارة شؤون المنزل - يمسح ويغسل ويطبخ - بينما ينصرف الاخرون الى الرسم • ويخرج من هذا الاستديو افضل لوحات المسيح ، حسن الصحة وحسن التسريحة ، لتوزع في كافة ارجاء العالم الارثوذكسي ، وكذلك لوحات العذراء الجميلة ، والمترفة والمكللة ، ولوحات القديسين ذوي الوجنات المتوردة والوجوه الرضية والذين تنقصهم الطهارة • وكلها لوحات معاد رسمها • الرهبان بسطاء حسنو المظهر ، محترمون وكرماء • يحبون الطعام الجيد والخمرة الجيدة والقطط المخصية • جلسنا بعد العشاء ساعات ونحن نتحدث امام النار ، نحن عن هذا العالم وهم عن العالم الالهي في السماء • لقد قضى الاب اكاكيوس ، وهو راهب قصير مستدير ذو قدمين متورمتين ، النهار بطوله وهو يرسم القديس انطونيوس وهو الان يربت على قطة سوداء مكتنزة على ركبتيه • كان يتحدث بأسلوب مؤثر عن الناسك المقدس • يبدو ان فتاة قد جاءت اليه ذات يوم وقالت : « لقد التزمت بوصايا الله كلها وانا اضع ثقتي كلها بالله ، وبأنه سيفتح لي ابواب الجنة » وعندها سألها القديس انطونيوس : « هل صار الفقر ثروة لك ؟ » ، « لا يا ابانا » ، « ولم يصبح العيب شرفا ؟ » ، « لا يا ابانا » ، « ولم يصبح الاعداء اصدقاء ؟ » ، « لا يا أبانا » ، « اذهبي يا فتاتي المسكينة اذن واشتغلي لانك حتى الان لا تملكين شيئا » •

وبينما كنت انظر الى اكاكيوس البسيط ، الذي كان يتعرق من كثرة الطعام ، ومن حرارة النار ومن ذكرى الناسك المخيف ، رحت افكر بهذا الانطونيوس ذي الوجنتين الموردتين الذي ظل يرسمه طوال النهار وتملكتني رغبة شيطانية في ان اقول له اذهب واشتغل يا صديقي المسكين لانك الان لا تملك شيئا • لكنني لم أتكلم • طبقة من الشحم والعادة والجبن تحيط بالروح ، ومهما كان ما تطمح اليه من اعماق سجنها ، فان الشحم والعادة والجبن تنفذ شيئا مختلفا تماما • لم أتكلم - جبنا •

---

(١) عيد القديس الذي يحمل اسمه •

حين ذهبنا الى النوم تلك الليلة اعترفت لصديقي • فقال ليعزيني : « لا بد انك احجمت أدبا وليس جبنا • بل شفقة لانك لم تشأ ان تحزن شخصا لطيفا كهذا • وربما لقناعتك بأن كلماتك لن تحقق شيئا » •

واعترضت قائلا : « لا ، لا • وحتى لو كان الامر كما تظن فان علينا ان نقهر الفضائل الصغيرة التي تتحدث عنها - الادب والشفقة والتلاؤم • انني أقل خوفا امام الخطايا الكبيرة مني أمام الفضائل الصغيرة لان لهذه وجوها لطيفة تخدعنا بسهولة فائقة • اما انا فانني اريد ان اقدم التفسير الاسوأ : اقول بأنني فعلت ذلك جبنا لانني اريد ان اخجل روحي وامنعها من تكرار ذلك مرة اخرى » •

في الصباح التالي ونحن جالسان مع الفنانين العشرة المطوقين في شرفة الصومعة الزجاجية وبين القديسين المرسومين بوجوه متوردة وبين العذراوات الريانات رحنا نشرب حليبنا ونمضغ الرصك (١) القمحي الطيب مع التوابل التي ترافقه . دخلت شمس الشتاء بلطف زائد من خلال النوافذ الكبيرة ممزوجة بعبير الصنوبر العذب • تحدثنا وضحكنا • لم يكن هذا الجبل المقدس • لقد بعث المسيح هنا وكان يضحك معنا • وحين راح الرهبان يعدون معاجز القديسين ارتعشت عيونهم ايمانا (او عدمه) والتمعت وجوههم ببريق بعيد •

مد الاب اغابيوس يده ولفت انتباهنا الى احدى لوحاته ، التي كانت معلقة امامنا على الجدار • كان أصغر الفنانين وله لحية سوداء لامعة وشفتان حمراوان •

« انه ارسينيوس الناسك العظيم » قال وهو يتأمل عمله باعجاب • « والمرأة التي ترونها راكعة عند قدميه ارستقراطية رومانية جميلة عبرت الجبال والبحار لتلقي بنفسها امامه • ولكن انظروا كيف ان الناسك يقطب حاجبيه وهو يشير الى البحر (أريد ان اظهر انه يرفضها بغضب) ويقول لها : « ابتعدي • ولا تخبري احدا انك رأيتني - لان البحر سيتحول الى طريق وستبدأ النساء بنقل انفسهن لاقتحام عزلتي » • وتتوسل المرأة : « صل لاجلي يا ابي » ويجيب الناسك : « ايتها المرأة ، سأصلي لله لكي يجعلني انساك » •

والتفت الرسام ملقيا علينا نظرة ماكرة ثم سألنا : « ماذا يعني ذلك ؟ سأصلي لله لكي يجعلني انساك ؟ » •

---

(١) نوع من البسكويت .

ظللنا صامتين لاننا لم نعرف ما يدور في ذهن الراهب ·
« يعني ان الناسك قد اخترقه جمال المرأة : وهذا ما يفسر السبب الذي يجعله يطلب عون الله ليجعله ينساها » ·

وسأل صديقي وهو يغمز الراهب : « وهل نسيتها ؟ » ·
فأجاب : « وهل يمكن نسيان أشياء كهذه ؟ » ولكنه حين رأى هاباكوك يسدد اليه نظرات نارية اعتذر عن كلماته وعض على شفتيه الحمراوين المكتنزتـــين ·

دير القديس بــول

مشوار رائع في قارب تجذيف الى ديــــر القديس بول · البحر بآلاف الالوان ـ ازرق شاحب واخضر وكعرق اللؤلؤ · صخور ناتئة حمراء كالــــدم القاني ، وأمواج سوداء ، وحمام بري ثم بغتة امتداد افقي من الرمـــل الابيض اللامــع ·

كان مزاج صديقي اليوم حسنا · وكان القارب كله يهتز من قهقهاته · طلبت منه ان يغضب كصيني · وباستعداد مدهش بدأ فورا يهدر بتيــار صاخب من الكلمات الصينية الوهمية ، كنت سعيدا الى درجة انني لم اعرف كيف استقر في القارب · « والان مارس الجنس كعربي » قلت لـه ذلك فبدأ بعاطفة فياضة يبوح بحبه لسيدة عربية · وهكذا ، وكأنما بلمح البصر ، وصلنا الى ميناء القديس بول وبدأنا الصعود الشاق الى الدير ·

كان البواب سيفالونيا (١) · عجوز ماكر كثير المزاح · ولتمضيــــة الوقت كان يقضي ايامه وراء الباب ممسكا بمطواة وهو يحفر ما يبدو انـه صور خشبية للمسيح والقديسين والشياطين · تطلع الينا متمعنا وسألنــا وهو يضحك : « ما الذي تريدانه هنا ايها الغبيان ؟ » ·

ـ نريد ان نصلي ايهـا العجوز ·
● تصليان لمن ؟ هل انتما بكامل قواكما العقلية ؟
ـ نصلــي للديــر ·
● أي دير ؟ ليس هناك دير ـ لقد انتهى ! العالم هو الدير · اسمعـا نصيحتي وعودا الى العالم !
حدقنا اليه فاغرين · كان يبدو انه فعلا آسف لوضعنا ·

---

(١) من سكان سيفالونيا الجزيرة التي سميت باسم سيفالوس وله قصة طويلة مع زوجته بوركريس حول الشك والغيرة تنتهي بقتلها ونفيه .

عند ذلك قال : « ليس الا مزاحا • ادخلا • اهلا بكما » •
دخلنا وتفرجنا على الحجرات التي تحيط بالباحة • مد الراهب يده وقال ساخرا : « انظرا الى خلية نحل الله • انظرا الى الحجرات • لقد كانت ذات يوم مسكونة بالنحل الذي يصنع العسل • اما الان فباليعاسيب ويا للسعها !••• فليحمنا الله » اضاف ذلك وهو يتفجر بالضحك •

لم ننبس بكلمة ولكننا كنا مشمئزين • هل تفرغ الدير المقدس من محتوياته القدسية الى هذا الحد ؟ ألم يخلف الرهبان الا الحجرات الفارغة الى هذا الحد وقد طارت الفراشة المقدسةمن داخلها •

بأقدام متعبة صعدنا الدرج الحجري المؤدي الى الغرفة المعدة للضيوف • امسك صديقي بيدي متأثرا وقال : « اصبر • لا تنزعج • طالما ان أرواحنا محتفظة بقوتها فان شيئا غير ذلك لا يهم • المهم ان لا تنحط ارواحنا •• لأن سقوط ارواح معينة في هذا العالم سيؤدي الى ان ينهار العالم نفسه • انها الاعمدة التي تسنده •قليلة غير انها كافية » • وهزني بقوة وقال وهو يضحك : « تماسك يا مسيو لونغي المسكين » •

دخلنا الغرفة • كان الاعضاء ، خمسة رجال او ستة ضخام الاجساد ايديهم متصالبة على بطونهم ، جالسين حول الرئيس ، وهو متربع في الوسط • شخص ذكي ذو لحية سوداء مجعدة ووجه انثوي ويدين بيضاوين وعمرة من الحرير الاسود • مد لنا يده بكثير من الغندرة لتقبيلها ثم سألنا عن أحوال العالم وعما اذا كنا قد جلبنا معنا اية صحف •

وسأل احد الاعضاء : « ما الذي يجري في انكلترا ؟ وما الذي يجري في المانيا ؟ اتظنان ان الحرب ستقع ؟ » •
قال اخر : «ستقع ان شاء الله » وغمز لجاره • « وآمل ان الالمان سيمرغون » •

وعند سماع هذه الكلمات رفس اخر بدين يبلغ سبعة اقدام كرسيه ثم هبواقفا على قدميه : « سيلتهمهم الالمان.الجميع بلقمة واحدة ـ الانكليز والفرنسيين والروس • واجدعوا انفي ان كنت مخطئا • الالماني هو مسيح هذه الايام • انه سوف ينقذ العالم ! » •

فقال الرئيس : « اجلس يا جرمانوس » ووضع يده البيضاء على فمه لكي يمنع نفسه من الضحك • ثم التفت الينا : « لا تصغيا اليه • اسمه جيرمانوس وهذا يفسر كونه مناصرا للالمان • ان الاخوة يستفزونه » •
ولكن ما ان بدأ الحديث يأخذ منحى هادئا حتى دفع الباب ودخل راهب

نحيل اخرق متاجج برأس مجروح والدم يسيل على لحيته وردائه الممزق . وصاح : « يا أبانا المقدس . انظر . ان اعداء المسيح قد حاولوا قتلي لانني صوتّ لك يوم الانتخاب » .

نهض الرئيس شاحبا وصرخ : « اخرج من هنا . الا ترى ان لدينـا ضيوفـا ؟ » .

لكن الراهب لم يبد عليه انه سيخرج بل خلع قبعته التي كانت ممزقة والدم يقطر منها وقال : « سأعلقها امام ايقونة القديس بول لكي يرى الى اي درك سقط ديره » .

ونهض الرهبان مهتاجين وبدأوا يلاطفونه ويهدئونه . وراح يقاومهم ولكن بالتدريج استطاعوا ان يحملوه خارجا . اما نحن فقد اغتنمنا الفرصة في ذلك الحين . انزلقنا بين الرهبان وخرجنا من الغرفة .

نزلنا الى الرواق حيث رحنا نتمشى جيئة وذهابا ونحـن صامتان . ورآنا البواب ففهم . تخلى عن قديسيه وشياطينه وجاء الينا متفجـرا بالبهجة . قال : « لا تستاءا يا صديقيّ . لقد رأيتما الاب انوسنت (١) أليس كذلك ؟ لقد حطمت رأسه لكنه سيشفى . لا داعي للخوف . ليست هذه اول مـرة » .

وسأل صديقي : « ولكن هل تحدث امور كهذه دائما في الدير ؟ بمعنى اخر أيدخل الشيطان حتى الى هنا ؟ » .

– واين اذن سيدخل يا بني ! مهما فعلت فانه سيدخل بطريقة مـا ، ذات يوم كان هناك دير يحتوي على ثلاثمئة وخمسة وستين راهبا . ولكـل راهب ثلاث عدد من السلاح وثلاثة خيول . الاول ابيض والثاني احمر والثالث أسود . كانوا يحرسون الدير في ثلاث نوبات يوميا لكي يمنعوا الشيطـان من الدخول : في الصباح على الخيول البيضاء ، وعلى الحمـراء ظهرا وعلى السوداء ليـلا .

– وهل دخـل الشيطان ؟

ضحك الراهب الماكر وقال : « هلّ تمزح ؟ طوالّ الوقت الذي كانوا فيه ممتطين جيادهم حول الدير كان الشيطان جالسا على عرش رئيس الدير في الداخل . كان هو الرئيس » .

---

(١) البـريء .

وسأل صديقي : « وماذا عنك ايها البواب القديس ؟ هل سبـق لك ان رأيت الشيطـان ؟ »٠

ـ طبعا ٠ لا شك انني رأيت الشيطان ٠

ـ وكيـف هـو ؟

ـ ريّان وأمرد ، جميل واهيف ٠ عمره اثنا عشر عاما ٠ ونظـر الينـا ثم غمز بعينه : « لقد رأيت رئيسنا المقدس كما اظن ٠ كيف اثر فيك ؟ فلتحل بركاته عليكما معا » ٠

ثم انفجر بالضحك وتحصن وراء الباب ٠

جاء خمسة او ستة رهبان واحاطوا بنا ٠ ومـن اجل ان ننسى رأس انوسنت المحطم اخذونا لنقدم احترامنا للرفات المقدس المحفوظ بعناية في مذخر فضي ـ عظام متنوعة وهبات المجوس : ذهب وبخور ومر (١) ٠ جعلونا ننحني فوقها لكي نشمها ٠ قالوا ان قرونا عديدة قد مرت دون ان تفقـد الهبات رائحتها ـ انها معجزة عظيمة !

حين خرجنا الى الباحة وبقينا وحدنا اشار لنا البواب برأسه فذهبنا اليـه ٠

قال لنا وسط قهقهته : « لها رائحة ٠ آه ؟ معجزة عظيمة ! حين نسكب الكولونيا فوقها فان رائحتهـا ستصبح كولونيـا ٠ واذا سكبت فوقهـا البتشول (٢) فان رائحتها ستصبح بتشول ٠ واذا رششت فوقها الكازولين فان رائحتها ستصبح كازولين ٠ اقول لكما انها معجزة عظيمة ٠ كيف كانت رائحتهـا اليـوم ؟ » ٠

ـ كالزهـور ٠ قـال صديقـي ٠

ـ حسن ٠ هذا يعني انهم قد رشوا فوقها ماء الزهر ٠ اتـرى ؟ وانحنى على قطعة الخشب التي كان ينحتها وهو غارق في الضحك ٠

ـ ابتعدا الان والا رأوا انني اتحدث اليكما وعندها سأوضع في مـاء ساخن ٠ انهم يعتبرونني مجنونا وانا اعتبرهـم حمقى امـا الشيطـان فسيأخذنـا جميعـا ٠

دير ديونيزيـو :

انطلقنا في الصباح الباكر في قارب تجذيف وتوجهنا الى ديونيزيو ٠

---

(١) صمغ رايتنجي يستخرج من ساق شجر المـر ٠
(٢) عشب ذو رائحة عطـرة ٠

خبرنا صاحب القارب ، الاب بينيديكت ، انه اشد الاديرة صرامة في الجبل المقدس • فمهما كنت مرحا لا تستطيع ان تضحك ومهما شربت من خمور في ذلك الدير لا تستطيع ان تسكر • وهناك غار مزروع في الباحة فاذا تطلعت اليه بعناية سترى المسيح مصلوبا على كل ورقة • كان معنا مطران يريد الذهاب الى ميناء دافنه لكي يسافر •

ـ العالم كله ، يا اب بينيديكت ، صليب صلب عليه المسيح • وليست أوراق الغار وحدها بل انا وانت وحجارة الارض ذاتها •

كان هذا أكثر مما أحتمل •

ـ أرجو عفوك يا مطران •انني ارى المسيح مبعوثا في كل مكان •

هز المطران رأسه واجابني : انك على عجلة • على عجلة يا بني • سنرى المسيح المبعوث ولكن ليس قبل ان نموت • ممرنا الارضي هذا ، وطالما نحن احياء ، هو الصلب •

ووثب على مقربة منا دلفين خارجا من المياه • والتمع ظهره القوي اللين تحت الشمس • وغاص ثانية ثم عاد الى الظهور وراح يقفز فرحا ـ المحيط كله مملكته • وبغتة ظهر دلفين اخر على بعد وراح كل منهما يندفع مسرعا نحو الاخر • وحين التقيا راحا يلعبان وفجأة سبحا بعيدا عنا متجاورين وهما يرقصان بذيليهما المشرعين •

تملكتني الغبطة فمددت ذراعي وأشرت الى الدلفين وانا اسأل بلهجة المنتصر : « هل المسيح مصلوب أم مبعوث ؟ ما الذي يقوله لنا الدلفينان ؟ »•

لكننا كنا قد وصلنا الى ديونيزيو ولم يجد المطران وقتا للاجابة •

في اللحظة التي خطونا فيها الى الباحة توقفنا مرعوبين • احسسنا اننا ندخل سجنا معتما وكئيبا • كانت الاعمدة المحيطة منخفضة وسوداء والاقواس بينها مدهونة بالبرتقالي الغامق • وكل انش من الجدران مغطى برسوم وحشية من سفر الرؤيا : شياطين ونار الجحيم وعاهرات يجري نهران من الدم من نهودهن وأغوال مرعبة لها قرون ـ كان توجه الكنيسة كله لارهاب الناس وجلبهم نحو السماء ، ليس بالحب ، بل بالرعب •

جاء المضيف ، الراهب المسؤول عن الزوار • حين رآنا نحدق الى الرسوم مرعوبين فتح شفتيه الصفراوين الضيقتين بحقد ـ كان يبدو مترعا بالكراهية لرؤيته رجلين ثريين حسني الهندام في زهوة شبابهما •

قال : « افتحا أعينكما على اتساعها ولا تشيحا بوجهيكما مكشرين • انظرا ! جسد الانسان مليء بالنيران والشياطين والعاهرات • الفحش الذي

تريانه ليس جهنم بل هو احشاء الانسان ٠

واعترض صديقي : لقد خلق الانسان على صورة الله ٠ وهو ليس مجرد فحش ٠ انـــه شيء اخر ٠

وزعق الراهب : كان ٠ كان ولم يعد كما كان ٠ في العالم الذي تعيش فيه تحولت الروح ايضا الى لحـــم ٠ لقد ضمتهـا الخطيئــة الى صدرهـا وأرضعتهــا ٠

وسألت : ما العمل اذن ؟ أليس هناك منفذ الى الخلاص ؟

ـ يوجد ٠ يوجد ٠ لكنه منفذ ضيق معتم وخطير ٠ لا يدخله المرء بسهولة٠

ـ أي منفــذ تعنــي ؟

ـ انظـــر !

ومد يــده مشيرا الــى مدخل الدير ٠

ـ لم نتهيأ بعد ٠ قال صديقي الذي اعتبر كلام الراهب مغيظا ٠ « فيما بعد ٠ حين نعجز ونضعف ٠ اللحم من صنع الله أيضا » ٠

وارتسمت على شفتي الراهب ابتسامة حاقدة ٠ وزعق : « اللحم مـن صنع الشيطان ٠ لقد حان الوقت لكي تتعلموا ، انتم يا جواسيس العالم ، ان صنع الله هــو الروح » ٠

والتف بردائه وكأنه يخاف ان نلمسه ثم اختفى تحت قنطرة برتقالية ٠

قال صديقي : دعنا نخرج ٠ من الواضح ان المسيح لا يعيش هنا ٠

وانفتحت ابواب حجرتين او ثلاث حجـــرات ٠ وظهر رهبان كالهياكل العظمية وهم يتطلعون الينا ويتمتمون بشيء ما ثم اغلقوا الابــواب من جديــــد ٠

أصر صديقي : « لا حب هنا ٠ دعنا نرحل » ٠

فسألته : « الا تحس بالشفقة عليهم ؟ افترض اننا بقينا هنــا عدة ايام ووعظناهم بحقيقة المسيح ٠ ما رأيك ؟ » ٠

ـ لهم ؟ مستحيل ! هدر للجهد ٠

ـ لا شيء يذهب هدرا ٠ حتى لو لم يتم تخليصهم سنكون قد اخذنا المستحيل علــى عاتقنا ٠

ـ هل انت جاد ؟ سال صديقي وهو ينظر الي مدهوشا ٠ فاجبته وقـــد استولت علي كآبة مفاجئة : « لو انني اعرف فقط ! هل سيكون هذا مــا استطيع القيام به فعلا ؟ قلبي يقول لي ان كنت رجلا حقا ابق هنا وشن الحرب ٠ ولكن واأسفاه فالعقل ـ الشيطان ـ لا يسمح لي ٠

تجرأ راهبان على المجيء الينا لادخالنا ٠ اخذانا حول الدير ٠ ورأينــا لوحة جدارية لعملاق برأس خنزير بري ، هو القديس كريستوفر ، وقد اظهر مخالبه الهائلة ٠ ثم اخذانا لنصلي لليد اليمنى ليوحنا المعمدان ٠ وفي غرفة

الطعام كان هناك ساروفان مشتعلان احمرارا وكل منهما يمسك بزوج من الرماح المستقيمة في كل يد واقدامها البيضاء الناصعة مغروسة فـي الارض الخضراء • على الجدار الايسر صورة للعذراء جالسة بين ملاكين والى جانبيها اشجار خضراء زاهية وعصافير تحط على الاغصان ووراء كل من الملاكين شجرة سرو ممشوقة • فوقنا على القبة ضابط الكل تتدلى من فمه شريطة وعلى الشريطة حروف ضخمة حمـــراء • وأشار الراهبان الى البانتوكريتر مادين اذرعهما : « اتستطيعان قراءة هذه الحروف ؟ احبوا بعضكم بعضا • الفظا هذه الكلمات امام عصاميتة وستزدهر ولكن قولاها لانسان فانــه لا يزدهر • نحن كلنا موجهون الى جهنم » •

كانت المقبرة بسيطة وساحرة مثل شرفة مطلة على البحر وليس هنا اكثر من خمسة او ستة صلبان متآكلة بفعل الريح والملح •

وبغتة حلّق فوقنا رف من الحمام الابيض متجها نحو الماء • ومد احد الراهبين يده بجشع ، وعيناه مليئتان بالقتل والجوع ، وكأنه يريد الامساك بالحمام • وتمتم وأسنانه تصر جوعا ونهما : « يا الهي لو ان معي بندقية » •

□

واخيرا وصلت رحلتنا الى نهايتها • وقبل رحيلنا بعدة ايام انطلقـت وحدي لأصعد الى كاروليا ، الصومعة الموحشة المحاطــة بصخرتين والمطلـة على البحر • هناك يعيش اكثر النساك وحشية وقدسية في الجبل المقـدس • كل منهم منزو في كهف ليصلي مستغفرا عن خطايا العالم ومبتعدا ما امكنه عن جاره لئلا يستمد الراحة من منظر بشري اخر • ولدى كل منهم سلة صغيرة مدلاة فوق الماء • والمراكب التي يصدف ان تمر بين وقت واخر تضع في هذه السلال كسرا من الخبز وحبات منالزيتون ـ او ما يمكن ان يكون لديها ـ لئلا يموت الزهاد جوعا • وكثير من هؤلاء الزهاد المتوحشين يفقـد قـــواه العقلية ، وقد يعتقد احدهم انه قد تنبت له اجنحة صغيرة فيطير من فوق الجرف ويهوي الى الاسفل • ولذا فان خط الشاطىء السفلي مغطى بالعظام •

وكان يعيش بين هؤلاء الزاهدين ماكاريوس الكهف ، الراهب المشهور بطهارته • الرغبة في رؤيته هي التي دفعتني الى الرحيل الى كاروليا • وكنت قد قررت ذلك منذ ان وطئت الجبل المقدس • كنت اريد ان انحنــي واقبل يده واعترف له بخطاياي • ليس خطاياي ـ اذ انني لم اكن اعتقـد بأنني قد اقترفت الكثير منها الى هذا الحد ـ ليس خطاياي بل الغطرسة الشيطانية التي كانت غالبا ما تحثني علــــى التحـدث بشكل مهين عن

الاسرار المقدسة السبع والوصايا العشر وتجعلنـــي ، راغبا في ان انقش وصايــــاي ٠

قرابة الظهر وصلت الى الصوامع ـ الثقوب السوداء في الجـرف وعلـى كل منها صليبها الحديدي المغروز في الصخر ٠وظهر من احدها هيكل ارعبني ٠ كان يبدو وكأن القيامة قد قامت وهذا الهيكل قد ظهر من تحت الارض قبل ان يكون لديه الوقت للاكتساء بلحمه كله ٠ تملكني الخوف والقرف وفي الوقت نفسه سيطر علي اعجاب خبيء غير معلن ٠ ولما لم اجرؤ على الاقتراب منه سألته الطريق عن بعد ٠ ودون ان يتكلم مد ذراعا مقددة واشار لي الى الاعلى نحو كهف اسود على حافة الجرف تماما ٠ وبدأت ، مرة اخرى ، اتسلـق الصخور التي جرحتني بحوافها الحادة ٠ وحين وصلت الى الكهف انحنيت عليه لاتطلع داخله ٠ ظلام تام : ورائحة التراب والبخور ٠ وبالتدريج بدأت اميز جرة صغيرة على اليمين في فلع في الصخر ولا شيء اخر ٠ كنت علـى وشك ان انادي لكن الصمت داخل هذه الظلمة بدا لي مهيبـا ومقلقـا فلـم اجرؤ على الصراخ ٠ وشعرت ان الصوت البشري ، هنــــا ، كالخطيئة او الــدنس ٠

وتعودت عيناي على الظلام ٠ وحين تمعنت في الداخل بعيني الجاحظتين رأيت وميضا فوسفوريا ـ وجها شاحبا ويدين هزيلتين ـ يتحرك في اعمـاق الكهف كما سمعت صوتا حلوا لاهثا :

ـ اهـــلا !

تشجعت ودخلت الكهف متقدما باتجاه الصوت ٠ كان الناسك متكوما على الارض ٠ رفع رأسه فاستطعت ان اتبين في العتمة وجهه الذي كان مضيئا في اعماق جمال لا يوصف ـ بلا شعر ، بعينين غارقتين في محاجرهما وقـد ارهقه الارق والجوع ٠ لقد تساقط شعره كله وراح رأسه يلتمع كالجمجمة ٠

« باركني يا أبي » قلت ذلك وانحنيت لاقبل يده ٠

لم يتكلم اي منا خلال فترة طويلة ٠ ورحت انظر بشغف الى هذه الروح التي محت جسدها والذي كان يثقل جناحيها ويعيقها عن التحليق الـــى السماء ٠ الروح التي تؤمن وحش آكل للبشر لا يرحم ٠ لقد التهمته ، لحما وعينين وشعرا : كله ٠

لم أجد ما اقوله ولم اعرف من اين ابدأ كان الجسد الهزيل امامي يبدو كميدان اثر مذبحة رهيبة وعليه رأيــــت الجراح التـــي تركها (المغوي) وعضاته ٠ واخيرا ، استجمعت شجاعتي فسألته :

ـ اما تزال تتصارع مع الشيطان يا أب مكاريوس ؟

ـ ليس بعد يا بني • لقد شخت الان وهو الاخر قد شاخ معي • لم تعد لديه القوة ••• انني اتصارع مع الله •

ـ مع الله ! هتفت مندهشا « وهل تأمل ان تنتصر ؟ » •

ـ انني آمل ان أهزم يا بني • ما تزال عظامي معي وهي التي تستمر في المقاومة •

ـ حياتك صعبة يا أبي • انا ايضا اريد الخلاص ولكن أليس هناك طريق اخر ؟

● مقبول أكثر ؟ سأل الناسك وهو يبتسم متفهما •

ـ أكثر انسانية •

● طريق واحد • واحد فقط •

ـ وما هو ؟

● الصعود • أن تتسلق سلسلة من الخطوات • من المعدة المتخمة الى الجوع ومن الحلق المبلل الى الظمأ ومن المتعة الى المعاناة • الله يتربع على قمة الجوع والعطش والمعاناة • والشيطان يتربع على عرش الدعة • فاختر •

ـ «أنا ما ازال شابا • والعالم جميل • لدي الوقت الكافي للاختيار » مدّ العظام الخمسة في كفه ولمس ركبتي ودفعني : استيقظ يا بني • استيقظ قبل ان يوقظك الموت •

ارتجفت • « انا شاب » كررت كلامي لكي استمد الشجاعة •

ـ الموت يحب الشبان • وجهنم تحب الشبان • الحياة شمعة صغيرة مشتعلة من السهل اطفاؤها • انتبه ـ استيقظ !

وصمت قليلا ثم سألني : « مستعد ؟ » •

تملكني العناد والسخط فهتفت : «لا » •

ـ عنجهية الشباب • انك تقول ذلك وانت تظن انه شيء يستحق أن تتباهى به • توقف عن الصراخ • ألست خائفا ؟

● ومن لا يخاف ؟ نعم • انا خائف • وماذا عنك يا أبانا المقدس • ألست خائفا ايضا ؟ لقد جعت وعطشت وقاسيت وها انت على وشك الوصول الى الدرجة العليا • ان باب الجنة يظهر امامك • ولكن هلّ سينفتح هذا الباب ويسمح لك بالدخولّ ؟ هل سيحدث هذا ؟ أأنت واثق ؟

تدحرجت دمعتان من طرفي عينيه وتنهد • وبعد صمت قصير قال • انا واثق من طيبة الله • فهي التي تقهر خطايا الانسان وتغفرها •

ـ وانا ايضا واثق من طيبة الله • بمعنى اخر انها قد تغفر ايضا عنجهية الشباب •

ـ ويل لنا ان اعتمدنا على طيبة الله وحدها • ففي حالة كهذه ستدخل

الرذيلة والفضيلة معا الى الجنة متشابكتي الذراعين •

ـ اتعتقد يا أبي ان طيبة الله ليست كافية وواسعة لكي تسمح بذلك ؟

حين نطقت هذه الكلمات لمعت في رأسي فكرة ـ فكرة غير ورعة ربما ولكن من يدري ربما كانت عظيمة القدسية ـ ان وقت الخلاص الكامل سيحين، وقت الصلح الكامل ، حين تنطفىء نيران جهنم ويصعد الشيطان ، الابن العاق ، الى السماء ليقبل يد والده والدموع تنسكب من عينيه • وسيصرخ : « لقد اخطأت » وسيقول الاب وهو يفتح ذراعيه على اتساعهما : « اهلا • اهلا يا بني • سامحني لانني عذبتك بهذا القدر » • لكنني لم اجرؤ على التعبير عن فكرتي مباشرة • وبدلا من ذلك اخترت طريقا ملتوية كوسيلة لتمويهها : « قيل لي ، يا ابي ، ان هناك قديسا ما ـ لا اذكر من هو الان ـ كان عاجزا عن ايجاد الراحة في السماء • وسمع الله تنهداته فاستدعاه وسأله : « ما الامر ؟ ما الذي يجعلك تتنهد ؟ الست سعيدا ؟ » فأجابه القديس : « كيف تتوقع مني ان اكون سعيدا يا مولاي طالما ان وسط الجنة هناك ينبوع يبكي ؟ »

ـ اي ينبوع ؟

ـ دموع الملعونين •

ورسم الناسك شارة الصليب بيدين راجفتين : « من انت ؟ » سألني بصوت واهن ميت • « قف ورائي يا شيطان (١) ! » وصلب نفسه ثلاث مرات اخرى ثم بصق في الهواء وكرر : « قف ورائي يا شيطان ! » واستعاد صوته القوة •

لمست ركبته التي كانت تلمع عارية في العتمة • وتجمدت يدي • قلت :

ـ أبانا • لم ات الى هنا لاغويك • انا لست المغوي • انا شاب يريد ان يؤمن مثلما كان جدي الفلاح يؤمن ببساطة وسذاجة ودون طرح اسئلة • اريد ذلك ولكنني لا استطيع •

ـ الويل لك • الويل لك يا طفلي التعس • سيلتهمك العقل ، ستلتهمك الذات ، الانا ، النفس • اتعرف متى القي الملاك الاكبر ليو سيفر الى جهنم ، هو نفسه الذي تدافع عنه وتريد انقاذه ؟ حدث ذلك حين التفت الى الله وقال : أنا • نعم • نعم • اسمع ايها الشاب وسجل هذا في عقلك جيدا • هناك شيء واحد يعاقب في جهنم ـ الذات ، نعم • الذات • فلتحل عليها اللعنات كلها !

---

(١) مرت هذه العبارة من قبل وهي تفيد الاستعاذة .

هززت رأسي بعناد : « بهذه الذات ، بهذا الوعي بالنفس ، ميز الانسان عن الوحوش • لا تقلل من شأنها يا اب مكاريوس •

ـ بهذا الوعي بالنفس ميز الانسان عن الله • كان كل شيء في البدء متحدا بالله وراضيا في احضانه • لم يكن هناك اشياء مثل انت وانا وهو ولا اشياء مثل لي ولك • لم يكن هناك اثنان • كان هناك واحد • كون (١) واحد ، كينونة واحدة • هذا هو الفردوس الذي تسمع عنه • هذا اولا شيء غيره • من هنا بدأنا كلنا • وهذا ما تتذكره الروح واليه تتوق ان تعود • مبارك هو الموت • اذ ما هو الموت برأيك ؟ انه بغل • ونحن نمتطي هذا البغل ونرحل •

كان يتكلم • وكلما تكلم اصبحت ملامحه اكثر اشعاعا والقا • وطافت على شفتيه ابتسامة حلوة رضية ثم كست الوجه كله حتى تظن انه قد انغمر بالجنة • سألته : لم تبتسم يا ابي ؟
ـ وكيف امنع نفسي من الابتسام ؟ أنا سعيد يا بني • كل يوم وكل ساعة اسمع وقع حوافر البغل ، اسمع الموت يقترب •

كنت قد تسلقت الصخور وغايتي الاعتراف امام هذا المنكر القاسي للحياة ولكنني رأيت انه لم يحن الوقت بعد • فالحياة لم تتصعد بعد في داخلي • كنت احب العالم المرئي كثيرا • وما يزال ليوسيفر يتلامع ببهاء في عقلي • انه لم يتلاش بعدفي وهج الله الاخذ للابصار • وقد قلت لنفسي فيما بعد : « غدا حين اكبر واشيخ واضعف وحين يضعف ليوسيفر في اعماقي • »

نهضت فرفع العجوز رأسه وسألني : « أأنت راحل ؟ حظا سعيدا • الله معك • » وبعد لحظة قال ساخرا : « تحياتي الى العالم • » فرددت عليه : « تحياتي الى السماء • وقل لله انه ليس خطأنا بل خطأه ـ فهو الذي خلق العالم جميلا • »

□

لم يكن الرهبان جميعا سعداء ولم يكونوا جميعا واثقين من انفسهم • اتذكر بشكل خاص واحدا منهم : الاب اغناطيوس • كنت وصديقي نقضي كل ليلة في الحديث بعد ان يغادرنا الرهبان الى النوم ويتركونا وحدنا في غرفة الضيوف • كنا نناقش اهتماماتنا الروحية العظيمة والطرق المختلفة التي يستطيع الانسان ان يسلكها للوصول الى الله • اضافة الى اننا كنا نجهد

---

(١) Cosmos الكون بوصفه نظاما متنافما ــ المورد •

لاعطاء هذه الكلمة مضمونا اكثر عذرية بعد ان ابتذلت كثيرا في افواه الرهبان والكهنة • وذات مرة بينما نحن نتحدث ، لا بد انه كان منتصف الليل - انبعث بغتة صوت مفعم بالانفعال من زاوية معتمة •

- يا رب • مكني من البقاء هنا والاستماع اليك الى الابد • انني لا اريد جنة غير هذه •

كان هذا الاب اغناطيوس • لا شك انه لم يكن يفهم تماما ما كنا نقوله لكن كلمات مثل الله والحب والواجب كانت تؤثر فيه وكانت تتردد كثيرا في محادثاتنا وفوق كل شيء كانت تؤثر فيه حرارة أصواتنا • وربما ، ايضا ، شحوب وجهينا في ضوء المصباح •

تصادقنا • ومنذ تلك الليلة ظل يواظب على الحضور معنا دون ان يتكلم بل يكتفي بالاستماع • وانك تستطيع ان تحس بتعطشه لسماع الاحاديث التي كانت تتفوق على المحادثات التي يجريها الرهبان فيما بينهم • ومساء يوم رحيلنا دعاني الى حجرته • كان الوقت متأخرا وكان صديقي متعبا وقد ذهب لينام •

قال : اجلس • أريد ان اعترف لك •

قدم لي مقعدا جلست عليه • نظرت اليه • كانت لحيته البيضاء قليلة الشعر تشع في ضوء القمر ، وتحول رداؤه الاسود الى اخضر بفعل القدم وكان القماش قد صار صقيلا لامعا من الاستخدام ومن البقع الشحمية • وكانت وجنتاه غائرتين ووجهه مغطى بالتجاعيد كحقل محروث • وكان حاجباه الكثيفان الاشعثان يبرزان فوق عينيه الغائرتين السوداويـن الفاحمتين • ورائحة البخور تفوح منه ممزوجة برائحة زيت الزيتون الزنخة • ويبرز الابهام الكبير لقدمه اليمنى من خلال القشاط في حذائه الضخم المصنوع كيفما كان •

ظل صامتا لفترة طويلة وكانه كان قد اتخذ قرارا ثم ندم عليه الان • واخيرا قال : « بحق الله اصبر واستمع الي.لا تتكلم او تنهض قبل ان انهي اعترافي • اشفق علي » كان صوته يرتجف • وسألني : « هل تشرب قهوة ؟ » وكأنه يرغب في تأجيل الوصول الى اللحظة الحرجة • لكنه قبل ان ينتظر الجواب جلس على سريره المتواضع وامسك بلحيتـه وهـو غارق في تأملـه وتردده • احسست بالشفقة عليه وقلت: « لا حاجة بك الى التردد يا أب أغناطيوس • أنا انسان طيب وانا اعرف شيئا ما عن معاناة الانسان تكلم بحرية وخفف عن نفسك • »

- « ليست مسألة معاناة » • قال ذلك وقد اكتسب صوته العجوز قوة مفاجئة • « ليست مسألة المعاناة بل المتعة • هل المتعة ملعونة ام مباركة ؟

انني اعذب نفسي منذ سنوات جاهدا لمعرفة ذلك دون ان استطيع • لهذا دعوتك • انني في حاجة للمساعدة • اتفهمني ؟

لم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى انفتح قلبه • لم يعد يتردد الان • صلب نفسه وركز عينيه ، ليس علي بل على إلمصباح المشتعل أمامه قرب ايقونة المصلوب • وبدأ !

ـ حاولت منذ سنوات طويلة ، يا بني ، ان ارى الله • ولكنني لم انجح • سنوات طويلة وانا اسجد ـ انظر كيف تيبست يداي • وسنوات طويلة بعدها كنت اصرخ : طيب • دعني لا ارى الله طالما لا استحق ذلك • ولكن دعني اقوى على الاحساس بحضوره اللامرئي لكي احس انا أيضا بالغبطة ولو لطرفة عين ولكي اعرف انني مسيحي وان سنوات تنسكي لم تذهب عبثا • كنت اصرخ واصوم وابكي ـ دون جدوى • كان قلبي عاجزا عن ان ينفتح ويسمح لله بالدخول في • لقد أقفله الشيطان وخبأ مفاتيحه •

رفع حاجبيه ليراني جيدا ثم التفت وحدق نحوي : « لم اخبرك بهذا كله ؟ » سأل وكأنه يوبخ نفسه ، « من انت ؟ ومن اين اتيت ؟ وما الذي تفعله هنا على الجبل المقدس ؟ لم علي ان اثق بك ؟ وارغب في الافشاء لك بهذا السر الذي ستسمعه بعد قليل ، السر الذي لم اكشف عنه حتى لكاهني والذي يثقل علي ويغمسني في الجحيم ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ »

ونظر الي حائرا ينتظر الجواب • فاجبته : « لعلها ارادة الله • ربما ان الله قد ارسلني الى الجبل المقدس لكي استمع اليك • يا أب اغناطيوس كيف تتوقع ان يعرف العقل البشري الطرق التي يختارها الله لكي يجعلك تتخفف من العبء الذي كنت تتحدث عنه » •

اطرق الراهب براسه وغرق في التفكير لوهلة • واخيرا قال : « ربما ••• » ثم تشجع واكمل دون توقف • « كما ترى • لقد عذبت نفسي سنوات وسنوات واحسست ان حياتي تضيع هباء • لا الصلاة ولا الصوم ولا العزلة كانت قادرة على مساعدتي في اي شيء • ثم هيمن علي شك رهيب في انه قد لا يكون هذا هو الطريق • ليس الطريق الذي سيقودني الى الله • لا بد ان هناك طريقا اخر • الطريق الاخر !! ولكن ايها ؟ وذات يوم امرني رئيس الدير ان اذهب للعمل كمشرف على ملحق كان الدير يمتلكه قرب سالونيكا • كان الوقت صيفا ، أيام الحصاد • وعلي ان اذهب الى هناك لكي امنع المحاصصين من خداعنا •

منذ احدى وعشرين سنة لم اكن قد خطوت خارج الدير ولم اكن قد رأيت الناس مع اطفالهم او سمعت ضحكة او وقعت عيني على امرأة • كان السهل

في الخارج قائظا وكان عمري قرابة الاربعين عاما · احدى وعشرون سنة منها في السجن والان تنفتح الابواب وأستنشق الهواء النقـي · كنت قـد نسيت الاطفال وهم يتدحرجون على الارض ويلعبون ومنظر المرأة التي تذهب الـى النبع وجرتها على كتفها ، والشباب الذين يشربون في الخمارات وقطفـة الحبق وراء اذانهم · على باب الملحق رأيت امرأة تحمل طفلها بين ذراعيها وترضعه · لوهلة ـ سامحني يا رب ـ ظننت انها مريم العذراء وكنت علـى وشك الانحناء والصلاة لها · لم أكن قد رأيت امرأة منذ عشرين عاما ، كمـا قلت لك ، وكان عقلي مبلبـلا ·

أما هي فزررت قميصها واخفت ثديها حالما رأتني · ثم انحنت لتقبل يدي · قالت : « اهلا بك يا ابانا · امنحنا بركتك » لكنني غضبت دون ان اعرف السبب · سحبت يدي وصرخت : « لا ترضعي حيث يمكن ان يـراك الرجال · ادخلي · »

احمرت خجلا فشدت الخمار الذي كان ملفوفا على رأسها وغطت فمها به · ثم دخلت مذعورة دون ان تنبس بكلمة · · »

اغمض الراهب عينيه ، محاولا بالتأكيد ان يرى الممـر ويرى المـرأة والقميص المفتـوح ·

ـ تابع · قلت له وقد لاحظت انه ظل صامتا طويلا ·

ـ من هنا بدأ الصعود : اجاب الراهب « الدرج الصاعد ـ اعني الـدرج النازل · لقد اتفقنا على ان تستمع الي دون ان تتكلم او تنهض للانصراف · ليس ذنبي · انه ذنب الشيطان ـ لا · حتى ليس ذنبه كل شي من صنع الله · يقول الكتاب المقدس انه اذا سقطت ورقة واحدة من شجرة فانه الله هو الذي يسقطها · فكيف يكون الامر حين الروح ··· أقول ذلك لاريح ضميري لكنه لا يمكن ان يرتاح خلال النهار لا يقول شيئا ولكنه في الليل ينهض ويصرخ بي · انها خطيئتك ·

لقد حكيت لك عن المرأة التي كانت تقف على الباب وهي ترضع طفلها · منذ اللحظة التي رأيت فيها ثديها لم اعد اعرف الهدوء · هناك ناسك عظيم اسمه القديس انطونيوس ، يقول : ان كنت في راحة وسمعت زقزقة السنونو فان قلبك لا يظل محتفظا بهدوئه السابق ·) حسن اذن ، ان كانت زقزقة السنونو تستطيع أن تلقي بقلوبنا في القلق فما الذي يستطيع ان يفعله ثدي عار لامرأة ؟ ! لا تنس : كنت ما ازال فتيا حين دخلت الدير ولم أكن قد عرفت امرأة من قبل · لم اقول : عرفت ؟ لم اكن قد لمست امرأة من قبل · ماذا افعل ؟ وكيف استطيع ان اتخلص من الشيطان ؟ القيت بنفسي الـى الصيام والصلاة · اخذت السوط الذي يستخدم لضرب الثيران ايام الدراسة ورحت اسوط نفسي بسرعة الى ان يتحول جسدي كله الى جرح كبير · ومرة اخرى

لا جدوى ٠ لا جدوى ٠ ما ان ينخفض ضوء المصباح قليلا حتى أرى ثديا ابيض يلمع في الظلام ٠ وذات ليلة حلمت حلما رهيبا ما ازال ارتعش حين افكر فيه ٠

وبغتة ربط لسانه وجف فمه ٠ لكنني طالبته دون شفقة :

ـ ومـاذا كـان الحلم ؟

جفف العرق عن جبينه والتقط انفاسه : حلمت بثدي ابيض ـ لم احلم بجسد او بامرأة ٠ ظلام حالك ووسطه ثدي ابيض وانا بردائي وقبعتي ولحيتي مضغوط عليه ٠٠٠ أرضع !

وتنهـد مـثل عجـل ثم صمت ٠

ـ تابع ٠ تابع ٠ قلت له دون شفقة ، لقد تغلبت لدي الرغبة في السماع على اللطف والكياسة ٠ لم يكن الامر فضولا بل كان تعاطفا مع هذا التعس الذي كان تواقا للكلام وعاجزا عنه ٠

وسألني الراهب وهو يحدق الي مستطلعا : « لم انت ملحاح ؟ الا تشفق علـي ؟

ـ لا ٠ اجبته لكنني بغتة احسست بالخجل ٠ « نعم ٠ نعم ٠ انني اشفق عليك ولهذا انا مصر ٠ سترى ٠ حالما تتحدث سترتاح » ٠

ـ صحيح ٠٠٠ نعم ٠ حالما اتحدث سأشعر بالراحة ، حسن اذن ، اسمع٠ كل مساء كانت هذه المرأة التي رأيتها في اليوم الاول على عتبة الباب ، تجلب لي صحنا من الطعام وكأسا من الخمر لعشائي ، في البدء كنت آكل لكنني فيما بعد صرت اترك كل شيء دون ان امسه وطوال عدة ايام ٠ وفي كل صباح حين تأتي لاستعادة الاشياء كانت تتردد لحظة وكأنها راغبة في ان تسألني لم لم آكل ٠ لكنها لم تكن تجرؤ ٠ وذات ليلة ٠ على اية حال ٠٠٠ كانت ليلة احد وكانت مرتاحة ٠ لم تكن قد اتعبت نفسها بالحصاد في الحقل ٠ كانت قد غسلت شعرها ولبست ملابس الاحد ٠ صدارة مشدودة ذات تطريزة حمراء كما أذكر ٠ كان الطقس حارا في الخارج وكانت قد فتحت قميصها قليلا وظهر انش من رقبتها ٠ لا بد أنها كانت قد زيتت شعرها بزيت الغار حسب عادة الريفيات ٠ ذلك أن رائحته كانت حلوة ٠ لا أعرف كيف ٠ ولكنها ذكرتني بالكنيسة يوم الفصح بعد أن كنا قد زيناها بالامس ورششنا أوراق الغار على أرضها ٠ كان الهواء مشبعا برائحة الغار والقيامة ٠

وضعت الصحن والخمرة على المائدة ثم استجمعت شجاعتها ـ مـن يعرف لماذا ؟ ألأنها كانت مستحمة ؟ ألانها كانت مرتاحة ؟ (حمام ، وبعض العطور وزر مفتوح ـ هذا كله يعين المغوي على القاء شخص ما الى الجحيم) على أية حال باستجماعها شجاعتها هذه المرة فأنها لم تخرج بل ظلـت واقفة حيث كانت ٠

ـ لمَ لمْ تأكل خلال الايام الاخيرة يا أب اغناطيوس ؟ سألتني وصوتها

مليء بالعطف والاهتمام • ولكي أقول الحق كانت كما لو ان ابنها لم يرضع منذ عدة أيام وكانت قلقة من انه قد يمرض •
لم أجب ، ولكنها لم تخرج ، أتعرف السبب ؟ انك ما تزال شابا ولذا فانت لا تعرف • لان الشيطان داخل رحم المرأة لا ينام • كان يشتغل •
قالت : ستدمر صحتك يا أب أغناطيوس • الجسد من صنع الله أيضا وعلينا أن نغذيه •
تمتمت لنفسي : « ابق ورائي يا شيطان » ورفضت أن أرفع عيني لانظر الى المرأة •
وبغتة أطلقت صرخة وكانني كنت أغرق : « اخرجي » •

خافت المرأة فركضت باتجاه الباب • ولكنني حين رأيتها تقترب منه اتضح لي انني خائف ايضا • كنت خائفا من أن تتركني • اندفعت اليها وامسكت بها من شعرها • كنت قد أطفأت المصباح لكي لا يراني المصلوب • هرب الضوء • والظلمة هي مسكن الشيطان • وأنا ما أزال ممسكا بها من شعرها • ألقيت بها على السرير • كنت أخور كالعجل وكانت صامتة • أمسكت بصدارها وسحبته وبحركة واحدة فتحت أزرار قميصها كلها •

كم من السنوات مرت منذ ذلك الحادث ؟ ثلاثون ؟ أربعون ؟ لا • ولا سنة • لقد توقف الزمن • هل سبق لك أن رأيت الزمن يتوقف ؟ وأنا رأيت • ثلاثين عاما وأنا أفك أزرار قميصها ولا نهاية لذلك • هنالك دائما زر آخر •

أبقيتها معي حتى الفجر دون أن أسمح لها بالذهاب • يا الهي أية متعة كانت ! وأي تخفف ! وأية قيامة ! لقد كنت مصلوبا طوال حياتي وفي تلك الليلة قمت • لكن كان هناك شيء اخر • القسم المخيف • القسم الذي أعتقد أنه يشكل خطيئتي • لهذا جلبتك هنا الى حجرتي ، لكي تحل لي اللغز • القسم المرعب هو هذا : للمرة الاولى في حياتي أحسست بالله يقترب مني ، يقترب بذراعين مفتوحتين • اية منة أحسست بها ! وأية صلوات أديتها طوال ذلك الليل حتى طلوع الفجر وبأي كمال انفتح قلبي وسمح لله بالدخول ! للمرة الاولى في حياتي – آه • لقد سبق لي أن قرأت ذلك في الكتاب المقدس من قبل ولكن تلك كانت مجرد كلمات – للمرة الاولى في حياتي اللاانسانية الجافة فهمت الى أية درجة هو الله طيب ، والى أية درجة يحب الانسان ، وكم لا بد أنه أشفق عليه لكي يخلق له المرأة ويخصها بفضل أن تقودنا الى الجنة عبر أقصر الطرق وأكثرها ضمانا • المرأة أقوى من الصلاة ومن الصوم و – سامحني – أقوى حتى من الفضيلة •

وتوقف مذعورا من الكلمات التي تلفظ بها • وانحدرت دمعتان من عينيه الغائرتين تحت حاجبيه وهو يلقي بنظرة متضرعة الى المصلوب •

« سامحني يا مسيحي » جأر ثم أغمض عينيه لكي لا يرى الايقونة لكنه بشكل ما استجمع نفسه فورا وفتح عينيه ونظر الي ٠ كنت على وشك ان أفتح فمي لقول شيء ما ٠ ولم تكن لدي فكرة عما سأقوله لكنني لم أستطع احتمال الصمت ٠ والدموع التي ظلت تنحدر من العينين الشائختين كانت ترعبني ٠ وقبل أن تسنح لي الفرصة للتلفظ بكلمة واحدة مد يده وكأنه سيضعها على شفتي ، قال : انتظر ٠ لم أنته ٠

ـ عند الفجر نهضت المرأة مسرعة وارتدت ملابسها ثم فتحت الباب بهدوء وخرجت ٠ اغلقت عيني وبدأت أبكي ٠ وانا مستلق في السرير على ظهري ٠ لكن تلك الدموع لم تكن مثل الدموع المرة الحاقدة التي كنت أذرفها في حجـرتي ٠

كان فيها شيء من الحلاوة التي لا توصف لانني أحسست بأن الله كان في حجرتي ، منحنيا على مخدتي ، وكنت واثقا من انني لو مددت يدي للمسته ٠ لكنني لم أكن توماس المتشكك ٠٠ لم اكن في حاجة الى ان أمد يدي لالمسه ٠ امرأة هي التي منحتني هذا اليقين ـ أكرر : امـرأة وليست صلاة أو صياما : امرأة ، ليباركها الله ، هي التي أدخلت الله الى غرفتي ٠

منذ تلك الليلة وطوال ثلاثين أو اربعين سنة أجلس وافكر لنفسي أيمكن ان تكون الخطيئة أيضا في خدمة الله ؟ ايه ٠ اعرف ما ستقوله لي (انه ما يقوله الجميع) نعم بالتأكيد ان تبت ٠ لكنني لم أتب ولم أندم ٠ أقول هذا بصراحة ووضوح ـ فلتنزل علي صاعقة الله ان أرادت ولتحلني الى رماد ـ لم أندم ولن أندم ولو أتيحت لي الفرصة لفعـل ذلك مرة أخرى فسأفعـل ٠

أزاح قبعته وحك رأسه ٠ وتحدر شعره الابيض مغطيا وجهه ٠ وغرق في أفكاره لوهلة ٠ وخمنت انه متردد في المضي ابعد من ذلك لكنه أخيرا اتخذ قـراره ٠

« هل من الممكن ان لا يكون ما فعلته خطيئة ؟ وان لم يكن خطيئة فما معنى الخطيئة الاصلية ، الافعى والتفاحة المقطوفة من الشجرة المحرمة ؟ انا لا اعرف ٠ ولهذا دعوتك الى هنا ٠ ربما كنت تعرف ٠ هذا ما دعوتك من أجله ٠ انني متمسك بالحياة بما تبقى لدي من عظمين أو ثلاثة عظام ٠ أريد ان افهم قبل أن اموت ٠٠٠ لم لا تقول شيئا ؟ يبدو لي أنك مشوش مثـلي يـا بنـي ٠ »

ما الذي كنت استطيع ان أقوله ؟ أكانت الخطيئة في خدمة الله ؟ هذه

أول مرة ينزل فيها علي هذا السؤال ليعذبني • أكان هناك بموازاة طريق الفضيلة طريق اخر أعرض، وأكثر يسرا هو طريق الخطيئة يمكن أن يقودنا الى الله ؟

أجبته : يا أب اغناطيوس • أنا ما أزال فتيا • ولم أجد بعد الوقت لاقتراف خطايا عديدة أو للمعاناة كثيرا ولذا لا أستطيع أن أجيب على سؤالك • ولا أريد أن أجعل عقلي قاضيا ، فأنا لا أثق به كما انني لا أثق بقلبي • الواحد يدين دائما بينما الاخر يعفو دائما فكيف أستطيع أن أقرر أيهما الصحيح ؟ يقول العقل ، يا أب اغناطيوس ، ان طريق الخطيئة ، هذا الذي قلت انه يقودك الى الله ، هو أكثر امتاعا وملاءمة ، وأنا أرفض قبوله • ومن جهة أخرى يقول القلب انه من المستحيل ان تبلغ شراسة الله وظلمه أن يريد للانسان معاناة الشهادة والجوع والعري والضعة • بمعنى اخر هل المجانين والمحطمون جسديا هم وحدهم القادرون على الدخول الى بيته ؟ أنا أرفض قبول هذا •• وهكذا فانك ترى يا أب أغناطيوس ايـة نتيجة أصل اليها حين أؤمن ان الرأيين صحيحان !

بينما كنت أتكلم كنت أفكر لنفسي دون النطق بأفكاري • المطلوب وصايا جديدة ! وصايا جديدة !••• أما كيف ستصنف هذه الوصايا الفضائل والرذائل فهو ما لم أعرفه • وكان ما رحت أقوله لنفسي مرة بعد أخرى : وصايا جديدة • وصايا جديدة مسألة ضرورية جدا • ولكن من سيعطينا ايـاهـا ؟

بدأت النافذة الصغيرة في الحجرة تضاء بضوء صغير ومن باحة الدير بدأت تصل الضربات الايقاعية للسمانترون الخشبي وهو ينتقل من حجرة الى أخرى داعيا الرهبان الى صلاة الصبح •

ونظر الاب أغناطيوس الى النافذة • ثم تمتم مندهشا : « بزغ الفجر ، بزغ الفجر ••• »

وانسحب الى زاوية وانحنى متأوها من الالم في ظهره وتناول ابريق الزيت الصغير ثم توجه الى الصليب وسكب قليلا من الزيت في المصباح الموجود أمامه • وتلقى اللهب الصغير دفعة جديدة من الحياة فتوهج وجـه المسيح وأضيئت القسمات الصفراء المتوجعة وقطرات الدم المتساقطة من تاج الشوك على الحاجب والخدين •

وسمر الراهب عينيه على هذا الوجه مدة طويلة ثم تنهد والتفت الي : « باختصار ، أليس لديك أي جواب لي ؟ لا شيء ؟ » كانت نبراته ساخرة

أو هكذا بدت لي • نهضت عن المقعد ووقفت الى جانب الراهب ورحت أحدق معه الى المصلوب • كنت متعبا ونعسانا أجبته : « لا شيء ! »

قال الراهب : « حسن • لا يهم • » وتناول أمتعته من الزاوية للذهاب الى صلاة الصبح • ثم عاد مرة أخرى الى مواجهة الايقونة ليقدم لها احترامه• وأضاء وجهه الذاوي والخالي من الحياة تحت ضوء المصباح •ثم رفع اصبعه مشيرا لي نحو المصلوب وقال : « هو أعطى الجواب • »

وفي اللحظة ذاتها قرع باب الحجرة وجاء صوت ينادي : « يا أب اغناطيوس ! » وأجاب الراهب : « قادم يا أبانا المقدس » ثم سحب ثوبه •

□

حين أقلب صفحات دفتري يتضح لي ان لا شيء يموت • كل شيء ينام في أعماقي • وها هو كل شيء يستيقظ الان وينهض من الصفحات الممزقة ونصف المطلسمة ليصبح من جديد أديرة ورهبانا ولوحات وبحرا • وصديقي أيضا هو الاخر ينهض من التراب مثلما كان في ذلك الحين ، أنيقا في زهرة شبابه وضحكته الهوميرية وعيناه الزرقاوان الصقريتان وصدره المليء بالقصائد ! كان يعطي الناس أكثر مما يستطيعون أن يأخذوا وكان يطلب منهم اكثر مما يستطيعون أن يعطوا • ومات مهجورا وحزينا حين لم يبق لديه شيء سوى الابتسامة المرة لروح جريحة ذات كبرياء • كان نيزكا قهر الظلمة لوهلة ثم تلاشى • هكذا سنتلاشى جميعا وهكذا ستتلاشى الارض أيضا • غير أن هذه الحقيقة لا تقدم أي عزاء كما انها ليست تبريرا له (الله) ذلك الذي يخلقنا ويدمرنا •

ظللنا نتجول في الجبل المقدس أربعين يوما وحين أكملنا دائرتنا عدنا اخيرا الى دافنة مساء عيد الميلاد لكي نرحل وكانت تنتظرنا اكثر المعجزات مفاجأة وحسما • فعلى الرغم من اننا كنا في عز الشتاء الا انه كانت هناك شجرة لوز مزهرة في حديقة صغيرة متواضعة •

امسكت ذراع صديقي واشرت للشجرة المزهرة • قلت له : « انجيلوس ! طوال رحلتنا هذه كانت قلوبنا تتعذب بأسئلة معقدة • والان هاك الجواب ! »•

ثبت صديقي عينيه الزرقاوين على شجرة اللوز المزهرة ورسم على نفسه شارة الصليب وكأنه يقدم احترامه وصلاته امام ايقونة مقدسة صانعة للمعجزات • وظل فترة طويلة دون ان يتكلم • واخيرا قال ببطء شديد •

« تصعد الى شفتيّ ، قصيدة صغيرة موجزة ، هاي كاي ! » •
وتطلع ثانية الـى شجرة اللوز •

□

قلت لشجرةاللوز:
حدثيني عـن اله يـا اخت
فأزهرت شجـرة اللـوز •

٢٠ ـ القــدس

حين عدت الى وحدتي من جديد اغمضت عيني وسألت نفسي عمـا تبقى لي اخيرا من الجبل المقدس ٠ من المتع العديدة والتجارب المثيرة ومـن الاسئلة الوفيرة التي عذبت صديقي وعذبتني ، ما الذي ترسب في اعماقي ؟ وما الذي كنت ابحث عنه حين ذهبت الى الجبل المقدس ؟ وما الذي وجدته هنـــاك ؟

الجراح القديمة التي اصبت بها خلال بلوغي ، حينما افشى لي معلمي السرين العظيمين ان الارض ليست مركز الكون وان الانسان ليس مخلوقا متميزا نازلا مباشرة من يد الله ، تلك الجراح القديمة التي برئت سنوات طويلة نكئت من جديد على الجبل المقدس ـ العذابان الميتافيزيقيان : من أين جئنا ؟ والى اين نذهب ؟ احد الجوابين قدمه المسيح ٠ جلب بلسما أشفى جراحا عديدة ٠ ولكن أكان في وسع هذا البلسم ان يشفي جراحي ؟ لفتـــرة قصيرة استطاعت صلوات الصباح والسمانترون والتراتيل والرسوم ـ الايقاع القدسي لحياة النساك ـ ان تهدىء كربي ٠ وبالتعرف على كفـاح المسيح من جهة احسست ان كفاحي قد تزود بالشجاعة والحلاوة والامل ٠ ولكـن السحر سرعان ما تبدد ووجدت روحي نفسها مرة اخرى مهجورة ٠ لماذا ؟ ما الذي كان ينقصها ؟ ومن الذي كان ينقصها ؟ وما الذي كانت روحي تبحث عنه حين ذهبت الى الجبل المقدس ؟ وما الذي فشلت في العثور عليه هناك ؟

بمرور السنين بدأت شيئا فشيئــا أهمس بأنني ذهبت الى الجبل المقدس بحثا عن شيء ما كنت ابحث عنه خلال حياتي : صديق عظيم او عدو عظيم ، ليس من مقامي بل اكبر مني ، يمكن ان يخوض الكفاح الى جانبي ٠ ليس امرأة وليس فكرة ٠ بل شيء اخر ٠ شخص اخر ٠ كان هذا هو الشيء ، او الشخص ، الذي ينقص روحي ولهذا كانت تحس بأنها تختنق ٠

وبعد ذلك فقط ، وليس اثناء وجودي هناك ، ادركت انني فشلت في العثور على هذا الشخص على الجبل المقدس • وانني لأتساءل عما اذا كانت هذه هي ثمرة رحلتي كلها على جبل آثوس ؟

الشيء الوحيد الذي وجدته وانا اطوف الجبل المقدس كان داعية متمرسا (او هكذا بدا لي في البداية) يمد كفيه المجروحتين للرهبان الذين يعبرونه • وكان الدم يقطر من قدميه الحافيتين ووجنتاه غائرتان جوعا ، وثيابه ممزقة يظهر منها جسده الهزيل • كان يقرع كل باب وهو يرتعش وعيناه مغرورقتان بالدموع ولكن احدا لم يقبله • كان يطرد من دير الى دير • والكلاب تجري في اثر ردائه الممزق وهي تنبح • رأيته ذات مساء جالسا على حجر وهو يحدق الى البحر المقفر • اختبأت وراء شجرة تنوب ورحت اتلصص عليه • ظل صامتا فترة طويلة وحين عجز عن السيطرة على نفسه اكثر من ذلك صرخ بغتة : « للثعالب جحور وانا لا املك مكانا اسند عليه رأسي » • واخترقت عقلي ومضة.لقد عرفته (١) وركضت لأقبل يده • لقد احببته حين كنت طفلا صغيرا واحببته منذ ذلك الحين • وانا الان ابحث عنه في كل مكان ولكنه اختفى • ولاحساسي بالغبن جلست على الحجر الذي كان يجلس عليه • آه لو انني ، فقط ، استطيع ان افتح له قلبي لعله يدخله ولا يظل يتشرد بردان دون بيت • فكرت في الفيلسوف بروكلوس ، الذي عاش في الوقت الذي لم يعد فيه الناس يؤمنون بآلهة الاولمب وراحوا يتنكرون لها • نام بروكلوس في كوخ على سفح اكروبوليس • وبغتة سمع في منتصف الليل شخصا يقرع بابه • قفز وركض ليرى من الطارق فرأى اثينا واقفة بأبهتها الكاملة على عتبته • قالت له : « يا بروكلوس • اينما ذهبت يرفضون استقبالي • لقد جئت ملتجئة الى جبينك » •

كم ارغب لو ان هذا المسيح ، بطريقة مشابهة ، يستطيع ان يلتجيء الى قلبي !

وبعودتي من جبل آثوس شعرت للمرة الاولى ان المسيح يتجول جائعا شريدا او انه في خطر وان دوره الان لكي يخلص – من قبل الانسان••

هيمن علي حزن وحنو شديدان • ولعدم رغبتي في العودة الى حياة الدعة والراحة سلكت طريقا ورحت امشي اياما واياما عبر الجبال المقدونية الى ان عثرت على قرية صغيرة كئيبة معتمة وبائسة – زرائب مغطاة بالروث، وقطيع من الاطفال والخنازير الملوثة بالوحل. نظر الرجال الي بوجوه مقطبة وحين حييتهم لم يجيبوا • اما النساء فصفقن ابوابهن حالما رأينني •

---

(١) الضمير مكتوب بحرف كبير HIM وهذا يعني انه المسيح او الله .

قلت لنفسي ان هذا هو المكان الملائم لي • هنا ، يا روحي ، في هذه القرية المخيفة وبين هؤلاء الناس المخيفين ستثبتين قدرتك على الاحتمال •

لم يفارق الداعية الجريجبالي • ولانني كنت اريد ان اذلل جسدي قررت ان اقضي الشتاء في هذه القرية •

وبعد مشكلات لا نهاية لها نجحت اخيرا في جعل راع عجوز يفهم انني لست مجرما ولا ماسونيا ولا مجنونا • وقبل ان يؤجرني زاوية من كوخه وان يقدم لي بعض الحليب والخبز كل يوم • وهناك لتوفر الكثير من الخشب جلست اقرأ امام النار • لم يكن معي اي شيء باستثناء الاناجيل وهوميروس • ورحت اقرأ كلمات المسيح عن الحب والتواضع حينا واقرأ حينا اخر الاشعار الخالدة لشيخ اليونانيين وأبيهم • يجب ان تكون طيبا ومسالما وصبورا ، واذا صفعت على خدك يجب ان تدير الاخر ، لا قيمة للحياة على هذه الارض ، الحياة الحقيقية هي تلك التي في السماء – هكذا كان الاول يأمر • يجب ان تكون قويا ، ويجب ان تحب الخمر والنساء والحرب • يجب ان تقتل وتقتل لكي ترفع عاليا كرامة الانسان وكبرياءه • أحب هذه الحياة الدنيا ، عبد حي افضل من ملك في هيدس – هكذا كان يأمر الثاني ، جد اليونان •

وبرز الآكيون (١) على حافة عقلي ، الآكيون بأنوفهم الضخمة ، بدروع سيقانهم ، بأقدامهم الكبيرة القاسية ، وبأفخاذهم المشعرة ، بلحاهم المدببة ، بشعورهم الكثة الطويلة المزفرة ، بروائح الخمر والثوم التي تفوح منهم • وكانت هنالك ميادين تتجول خالدة غير مدنسة على الجدران بهيبة ونقية في الضوء واخمصا قدميها المقوستين فقط مضرجان بالدم ، والآلهة ، المتوجون بجلال في الغيوم ، يقضون وقتهم بالتفرج على البشر وكل منهم يذبح الاخر •

هنا في عزلتي هذه اتلعت اذني ورحت اصغي الى السيرانتين (٢) • كنت استمع اليهما معا • براثنهما متغرزة في احشائي • وكلّ منهما كانت تسحرني ولكنني لم أكن اعرف الى اي من شبحي هاتين السيرانتين سأقدم عظامي •

الثلج في الخارج وانا اتطلع من النافذة الصغيرة واراقب نتف الثلج المتساقطة على قبح القرية • كل صباح تمر قطعان الغنم وتوقظني

---

(١) Achacans اهالي اكايا او اليونان القديمة •

(٢) كائنات اسطورية لها اجساد طيور ورؤوس نسوة كانت تسحر الملاحين بغنائها ... وهنا يقصد المسيح وهوميروس •

بأجراسها • وكنت اقفز من الفراش وأتسلق معها الدروب المغطاة بالثلج متبادلا بضع كلمات مع الراعي حول موضوعات الفقر والبرد والاغنام التي تموت • عمري لم أسمع راعيا يتحدث عن اي شيء بهذا الرضى ، لا شيء أكثر من الفقر والبرد والاغنام التي تموت •

ذات يوم كان كل شيء مغطى بفراش ناصع من الثلج وبدأت اجراس القرية تدق حدادا • لا بد ان شخصا ما قد مات • كان القرويون معتصمين داخل بيوتهم وقد اوصدوا ابوابهم • وبين حين واخر يحرك الهواء الساكن جرس بغل • ومن نافذتي استطيع ان ارى الغربان الجائعة وهي تطير جيئة وذهابا • كنت قد أشعلت ناري وضمني الدفء ، في عناق حنون مثل أم • احسست ان سعادتي كاملة • ولكن عند ذلك ، بغتة ، وكأن الفرح خيانة وخطيئة كبرى تفجر البكاء في داخلي ـ بكاء هادىء يائس وحنون مثل ام تغني تهويدة لابنها الميت •

لم تكن هذه المرة الاولى التي اسمع فيها هذا البكاء الداخلي • كلما أحسست بالحزن ازداد لطفا حتى ليبدو لي كطنين النحل البعيد • وكلما أحسست بالسعادة تفجر هائجا • وقد اعتدت ان اصرخ خائفا : « من الذي يبكي في داخلي ؟ ولأي سبب ؟ وبماذا اخطأت ؟ » •

حل الليل • وبينما كنت احدق الى النار راح قلبي يقاوم • لقد رفض ان ينضم للمناحة • لم علي ان أبدأ العويل والنواح ؟ لم يكن هناك حزن كبير يسحق روحي • لدي الهدوء والدفء ، والهواء الفلاحي في البيت تفوح منه رائحة السفرجل والقصعين • وكنت جالسا امام الموقد اقرأ هوميروس ـ كنت سعيدا • وصرخت « انا سعيد • ما الذي ينقصني ؟ لا شيء ! اذن فمن او ما الذي يبكي في داخلي ؟ وماذا يريد ؟ وماذا يريد مني ؟ » •

للحظة خيل الي انني سمعت قرعا على الباب • نهضت فلم أجد احدا • كانت السماء صافية تماما والنجوم تلتمع كالفم المشتعل • انحنيت وتفحصت الطريق المغطى بالثلج تحت ضوء النجوم لأرى ان كنت استطيع ان اتبين بالصدفة آثار اقدام بشرية • لا شيء • اتلعت اذني ورحت اصغي • كان هناك كلب ينبح مكتئبا في طرف القرية • لا بد انه رأى كارون يطوف على الثلج • لقد سقط منذ يومين في المسيل راع عجوز ولكنه قوي ويبدو انه خالد وظل طوال هذا اليوم وهو يسلم الروح والقرية كلها تخور متوجعة من الغرغرة الراعدة لنزاعه الاخير • انه الان صامت • ولا شيء يسمع الا النواح النابح لكلبه •

لا بد انه مات ،قلت ذلك لنفسي وانا ارتجف • اغضبني الموت •

فالكلمات المعزية حول المجيء الثاني والوجود في المستقبل ما تزال عاجزة عن خداعي • ولكن ، من جهة اخرى ، لم تصبح لدي القوة بعد على مجابهة الموت دون خوف •

غرقت مرة اخرى في هوميروس وكأنني ابحث عن الامان عند ركبتي الجد العجوز • وبدأت الاشعار الخالدة تتدحرج كالامواج من جديد وتتكسر على صدغي • عبر القرون رحت اسمع الضجة التي يثيرها الآلهة والبشر وهم يغيرون برماحهم • ورأيت هيلين وهي تمشي الهوينا على الاسوار الطروادية يحيط بها عجائز المدينة • وحين رأيتها رحت اجاهد لانسى • ولكن افكاري كانت مركزة على الموت • قلت لنفسي : آه لو أن قلب الانسان يكون كلي القدرة ، قويا الى درجة يستطيع معها مصارعة الموت ! لو انه كان مثل مريم المجدلية – مريم المجدلية البغي – ويستطيع ان يبعث الجثة المحبوبة •

احسست بقلبي مترعا • واأسفاه ! كيف استطيع انا ، بدوري ، ان ابعثه (١) وأجد الراحة ! وادركت ان الممدد ميتا في احشائي ، هو الذي يظل يبكي • كان يجاهد لكي ينهض لكنه لا يستطيع دون معونة الانسان وعلى هذا الاساس يحس بمقت كبير نحوي • كيف استطيع ان اخلصه – واخلص نفسي ؟

لو كان جدي لنشر شراع مركبه وابحر الى المضائق ليصادم مراكب الاتراك ذلك لانه يرى ان الاتراك واليهود يشتركون في مسؤولية صلب المسيح • كان بهذه الطريقة سينفث من غضبه ويجد الراحة • ولو كان ابي لامتطى فرسه وهاجم بالطريقة ذاتها الكفرة وعاد من المعركة ليلا ليعلق العمامات الملطخة بالدم لاعداء المسيحية على الفاصل الايقوني في بيتنا تحت ايقونة المصلوب • بهذه الطريقة كان ، ايضا ، سيجد الراحة • وعلى طريقته سيحس بالمسيح وقد بعث في قلبه • نهاية الامر ان ابي كان محاربا وكانت الحرب طريقته في تحقيق الخلاص وتلقيه •

ولكن ما الذي استطيع انا ، حثالة الذرية ، ان افعله ؟

عاليا في جبال كريت يحدث احيانا ، ونادرا جدا ، ان يولد مخنث في عائلة من الغيلان • ويتطلع اليه الاب العجوز ثم يتطلع اليه ثانية ولا يستطيع ان يفقه شيئا • كيف استطاع الشيطان ان يخرج هذه النفاية ، هذه الهشاشة ، من صلبه ؟ ويدعو ابناءه الوحوش الاخرى التي انجبها ، الى

---

(١) الضمير بحرف كبير ، الحديث عن المسيح او الله .

اجتماع لكي يروا رأيهم فيه . « انه عار على ذريتنا » يزأر العجوز « ما الذي سنفعله يا أولاد ؟ لن يستطيع ان يكون راعيا ، اذ كيف له ان يثب على القطعان الاخرى ليسرق ؟ ولن يستطيع ان يكون محاربا فسيشق عليه ان يقتل . انه وصمة على سلالتنا فلنعمل منه استاذ مدرسة ! » .

وانا للاسف ، كنت استاذ المدرسة في عائلتنا . ولكن لم الاحتجاج ؟ يمكنني ان اتأقلم مع الامر . ومهما بالغ اسلافي في احتقاري فان لدي انا الاخر اسلحتي وسوف اذهب الى الحرب .

كان الثلج يهطل خارجا . وكان الله لرحمته يغطي عدم اتساق العالم بثلجه . والخرق التي علقها على السياج المحيط بالزريبة المقدونية التي كنت اقطن فيها قد تحولت الى فرو أبيض ثمين . والاشواك الوسنانة قد ازهرت كلها . بين حين واخر تسمع بكاء طفل او نباح كلب او صوت رجل ، غير ان كل شيء يغرق في الصمت من جديد ثم لا تعود تسمع شيئا الا الصمت ، صوت اللـــه .

ألقيت بعود في النار وكمشة من أوراق الغار لكي اعطر الهواء ثم انكببت على هوميروس من جديد . لكن افكاري لم تعد متعلقة بالآكيين او الطرواديين او آلهة الاولمب . كان المشهد المغسول بالشمس يرفرف امام عيني كالفراشة ثم يختفي . ومرة اخرى سمعت احشائي تبكي .

كانَ يستلقي في القبر منتظرا ان يهرع الحواريون ويدحرجوا الصَخرة ويجثموا في القمة وينادوه بينما هو ينهض ثانية الى الارض . لكن احدا لم يأت . ولاحساسه بالغبن بدأ يبكي .

وبينما انا احدق الى اللهب المتفائل رأيت الحواريين المشبعين بالالم محتشدين في العليّة « مات الرّبان . مات » . كانــوا ينتظرون هبوط الليل لكي يغادروا القدس ويتفرّقوا . لكن امرأة قفزت . هي وحدها رفضت موته لأن المسيح قد قام في قلبها . وحافية القدمين شعثاء الشعر نصف عاريــة راحت تركض نحو القبر مع بزوغ الفجر ولانها متأكـدة من انها ستــرى المسيح فقد رأته . ولثقتها بأن المسيح قد بعث فانها بعثته وصرخـت : « يا ربّان » وسمع الرّبان صوتها في قبره ، انحنت على قدميه ورأته عنـد الفجر يمشي على عشب الربيع .

امتلأ عقلي بصورة البعث هذه . واثقلت جفنيّ حمى خفيفة بالغــة الحلاوة وبدأ الدم يتدفق حاميا الى صدغي . وكما يحدث حين تهب الريـــح قوية وتتبعثر الغيوم ثم تتوحد من جديد وتتشكل بشرا وحيوانات وسفنا ،

كذلك وبالطريقة ذاتها ، في اعماقي وبينما انا جالس قرب النار هب عقلي فتفككت الرؤيا في داخلي ثم تحولت الى وجوه بشرية ملفعة بالتوق والريح • لكن هذه الوجوه سرعان ما تتبعثر في حلقات كالدخان داخل رأسي ما لم تات الكلمات ـ في البدء مرتعدة ومترددة ثم بالتدريج تصبح اكثر عنفسة وثقة ـ لتبلور ما يمكن بلورته ، وفهمت : الريح المنوية المولّدة التي هبت في اعماقي اصبحت مادية وصارت جنينا وهو الان يرفس رغبة في الظهور •

اخذت قلمي وبدأت اكتب لكي اريح نفسي ـ لكي ألد •

لم أبدأ من البداية • المجدلية اول من قفز ، كانت خائفة مبللة بالدموع وشعرها مشعث • لقد استيقظت مذعورة قبل الفجر • لا بد انها رأت الرُّبان في حلمها • وكما يجذب الصياد فريسته بدأت تناديه :

آه ، كم هو مدهش ، لا استطيع
ان ارفع رأسي • الهواء مفعم بالشذى
انهض ، يا قلبي ، واضرب الارض لتجبرها على ان تفتح
كتفاي الدنيويتان تطفران كجناحين
لكن الفجر يبطىء في المجيء ، والجسد ، آه ، ثقيل جدا •
لا تتعجلي يا روح قبل ان ارتدي ملابسي واذهب
انظري • انني ألبس كعروس وأتانق
لقد حنّيت راحتي وقدمي
وكحلت عيني بكحل مشعشع
وبقعة جمال تصل حاجبيّ
لانني كما احب الارض
فان السماء المبجلة
تضرب صدري بلطف
وحين انحني
اقبل (الكلمة) بفرح وحزن
كما لو انها رجل
وعندما اصل الى قبرك الحبيب اخيرا
عبر دروب مشكولة بالورد
يا مسيحي
مثل امرأة هجرها حبيبها
سأتمسك بركبتيك الشاحبتين
لكي لا تتركني ابدا •••
سأتحدث وانا امسك بركبتيك الشاحبتين
ورغم ان الجميع ينكرونك ، يا مسيحي
لكنك لن تموت

لانني احتفظ في صدري بماء الخلود
اقدمــه لــك
فتصعد مــرة اخـرى الى الارض
وتتمشى معي علــى المروج
سأغني كعصفورة ملتاعة حبــا
تحط على غصن شجرة اللوز
ايام الثلج وهــي تغرد منتشية
ومنقارها مرفوع نحو السماء
الى ان تزهر البراعم على أغصانها ·

لم استطع النوم · كنت على غاية من العجلة · فطالما ان الوجوه قـد تصلبت لوهلة فانني كنت اريد ان آخذها في وقتها ـ الحواريون والمجدليــة والمسيح ، الضباب الذي يصبح ماديا ، والكذبة التي تصبح حقيقيـة ، والروح التي تغني من عشها القائم على أعلى اغصان الامل ـ وأثبتها الى الابــد بكلمات متينة وقوية ·

وفي نهاية ايام وليالي قليلة كانت مخطوطة المسرحية كلها على ركبتي· أمسكتها بقوة ، تماما كما تمسك الام ابنها بعد ولادته ·
بدأ الصوم الكبير واقترب عيد الفصح · وبدأت اتمشى في الحقول · لقد تحول العالم الى جنة وراحت ثلوج الاولمب تتلامع تحت الشمس بينما الحقول من تحت خضراء زاهية والسنونوات العائدة ، مثل مكوك النــول ، تنسج الربيع في الجو · وبدأت زهور برية صغيرة صفراء وبيضاء ، تدفــع التراب برؤوسها الدقيقة ، وتظهر تحت ضوء الشمس لكي تــرى العالــم الذي فوقها · لا بد ان شخصا ما قد أزاح عنها حجارة القبور الارضية : كانت تحقق قيامتها · شخص ما ؟ ··· من ؟ لا بد انه الله ، الله ذو الوجــوه التي لا تحصى : احيانا هو وردة واحيانا عصفور او زغب طازج من دالية واحيانا اخــرى قمــــح ·

وبينما حب اتمشى عبر الحقول المزدهرة قام دوار لطيف بتحويــل الزمان والمكان من حولي · بدا لي انني اسير في فلسطين وليس في اليونان · واستطعت ان اتبين الآثار الطرية التي تركتها قدما المسيح على تراب الربيع الخفيف وحولي تسمو جبال الكرمل وجيلبوا (١) وتابور المقدسة · ولم تكن هذه سويقات القمح الناهضة من الارض الى ان تصبح بطول الرجل بل هي المسيح ينهض من قبره · وهذه ليست شقائق النعمان الحمراء بل هي الدم المقدس للمسيح ·

---

(1) Gilboa.

سأل احدهم مرة الرابي نعمان : « ما الذي تعنيه حين تعظ بأننا يجب ان نذهب الى فلسطين ؟ لا شك ان فلسطين مجرد فكرة ومثل أعلى يجب ان تبلغه ارواح اليهود ذات يوم » • غضب نعمان فالقى بأمتعته على الارض وصرخ : « لا • لا • حين اقول فلسطين فأنا اعني حجارتها وخضرتها وترابها • فلسطين ليست فكرة • انها حجارة وخضرة وتراب • والى هناك يجب ان نذهـــب ! » •

قلت لنفسي والى هناك يجب ان اذهـــب • لكـي ارى وألمس جسد فلسطين الحار وليس الاكتفاء بالاستمتاع بها في حياتي وانا اتمشى على جبال اليونان وحقولها ، ان اتنفس الهواء وأدوس علـــى الارض وألمس الحجارة ، التي تنفسها المسيح وداسها ولمسها ، ان اتبع قطرات الـدم التي رسمت طريقه بين البشر • نعم يجب ان ارحل • ربما استطعت ان اجد هناك ، في فلسطين ، ما كنت ابحث عنه عبثا في الجبل المقدس •

مرة اخرى هبت رياح الرحيل في عقلي • الى متى ستظل تهب ؟ حتى الموت ان شاء الله ؟ اية متعة ان تنطلق من ارض جافة وترحل • ان نقطـع الخيط الذي يربطنا باليقين ونرحل • ان نتطلع وراءنا ونرى الجبال والناس الذين نحبهم يتضاءلون في البعد •

اسبوع الآلام يقترب • وفي المسيحية كلها سوف يصلب المسيح وسوف تنكأ الجراح الخمسة الخالدة وسوف يأتي القلب - مريم المجدلية - مـــرة اخرى للصراع مع الموت • ما الذي يحدث حين يكون لرجل قلب طفل ويستطيع ان يقاسي خلال هذه الايام : يعجز عن الاكل او النوم او كفكفة دموعه حين يرى في صلوات العيد جسد شجرة الليمون المزهرة لالهة تذوي على الصليب ؟ واية سعادة اكبر مما لديه حين يحب فتاة والربيع يدخل من نوافذ الكنيسة المفتوحة ، وقد تواعدا على اللقاء ظهر الجمعة الحزينة لكي يتباركا معـا بتقبيل قدمي المصلوب ثم لكونه ما يزال فتيا يرتعش خوفا لانه يعتقـد انه يقترف اثما باجتماع شفتيه بشفتي امرأة على جسد الله •

أغلقت هوميروس وقبلت يد الجد الخالد دون ان اجرؤ علـــى رفـــع رأسي والتطلع في عينيه • كنت خجلا وخائفا امامه لانني كنت اعرف تماما انني اخونه في تلك اللحظة بتركه ورائي واخذ عدوه الكبير معي : الانجيل •

لم تكن الارض قد استيقظت بعد ولا السماء - ديك على السطح فقط يمد رقبته الى الشرق وينادي الشمس (لقد طال الليل كثيرا !) داعيـا اياهـا للظهـور •

وكما لو انني كنت خائفا من ان يسمعني الجد العجوز فتحت الباب متسللا كلص وسلكت الطريق الى المرفأ لكي ابحر • كانت قد وصلت حشود من الرجال والنساء قادمة من قراها لكي ترحل ، مثلي ، الى فلسطين ولكي تؤدي فروضها على القبر المقدس • ولن أنسى مساء يوم الرحيل - العذوبة والحلاوة والحنو ! كان هناك رذاذ خفيف رحيم . ولو انك رفعت رأسك ونظرت الى السماء لرأيت وجه الله مغطى بالدموع •

وعلى القارب نفسه مدت بطانيات ولحف ملطخة بالشحم وبألوان متعددة على أرضه • ومجموعات من العجائز اللواتي يفتحن سلالهن ويمضغن • كان الهواء مشبعا برائحة بيوض السمك والبصل • وفي الوسط وقف رجل عجوز بخدين متوردين وشعر طويل أشيب • وبينما هو يؤرجح جذعه الى الامام والوراء كان يقرأ قصة المسيح بصوت عال منغم - حياة المسيح وآلامه : كيف جاء العريس الى القدس ، وبعد ذلك كيف أكل المسيح وتلاميذه من العشاء الرباني المر وكيف غادر التلميذ الخائن مسرعا وكيف تسلق يسوع جبل الزيتون والعرق يتصبب من جبينه « كقطع من الدم المتخثر » •

وتنهدت النسوة العجائز صغيرات الحجم والملفعات بالسواد وهززن رؤوسهن بتأثر عميق دون ان يتوقفن عن المضغ بهدوء وصمت كالاغنام • كان الله في قلوبهن البسيطة يكتسي مرةاخرى باللحم ويصلب وينقذ البشر • وكان راع فتي ، يدير ظهره للعجائز يصغي باهتمام وهو ينحني وسكينه في يده لينحت رأس عصفور على مقبض عصاه •

وبغتة حين جفف الظمأ حلق المسيح الى درجة لا تحتمل وصرخ : « عطشان ! » قفزت امرأة ،فتية ممتلئة قليلا ، بهياج مسعور وصرخت : « آه يا ولدي ! » كم انفعلت حين سمعت صرخة المرأة العميقة الامومية ، حين سمعتها تدعو ربها نفسه ابنها •

تركنا بحر ايجة وراءنا ورحنا نقترب من الشرق الادنى • افريقيا ظاهرة للعيان على يميننا وقبرص من يسارنا على الافق • وكان البحر المتأجج يلتمع • حومت فراشتان على الاشرعة • وعصفور صغير جائع يتبعنا اندفع الى الامام وأكل احدى الفراشتين • وحين بدأت فتاة شاحبة ضعيفة تصرخ محتجة قال لها أحدهم : « انسي ذلك • هكذا يجب ان تسير الامور • اتظنين ان الله امرأة ضعيفة ؟ »

كنا نقترب من الارض المشوية بالشمس ، حيث ذات يوم شب لهب من كوخ فقير في الناصرة ، لهب احرق قلب الانسان وجدده • الحياة اليوم في حالة من التفسخ مرة اخرى تماما كما كانت قبل الفي سنة ، لكن المشكلات

التي تبدد التوازن القائم بين العقل والقلب هي الآن اكثر تعقيدا والحلول اكثر صعوبة ودموية • في ذلك الحين وجدت رسالة بسيطة تتمتع بحلاوة فائقة • وبرز الخلاص على وجه الارض كفصل الربيع • لم يسبق ان وجدت رسالة ابسط منها ولا أحلى • ربما كانت تلك الرسالة قادرة على تخليصنا حتى اليوم ـ من يدري ؟ لهذا نحن ذاهبون الى القدس : لكي نستمع مرة اخرى الى ابن مريم •

كان الوقت ليلا • وتمددت على سطح القارب لكي انام ، ولكن جدلا عنيفا بدأ يحتدم في العنبر واعطيت اذني • شخص ما ، يبدو من صوته انه شاب ، كان يدين بعنف الحياة الاقتصادية والاجتماعية الحالية بظلمها وتضليلها • الجماهير تجوع بينما العظماء والاقوياء يكدسون الثروات • النساء يبعن انفسهن ، والكهنة لا يصدقون • الجنة والجحيم كلاهما هنا على الارض • الحياة الاخرى غير موجودة • هنا علينا أن نجد العدل والسعادة ••• وتصاعدت الصرخات : « نعم ، نعم ، انت على حق ! » « النار والفأس » • شخص واحد فقط حاول ان يعترض • استطعت ان اميزه من تنغيمات صوته فهو الشماس الذي يسافر معنا • لكن صوته كان يضيع وسط الصرخات والضحكات •

نهضت عن وسادتي ورحت استمع بشغف • عنبر هذه السفينة كان يبدو مثل مقبرة جديدة يجتمع فيها العبيد مرة اخرى ـ عبيد اليوم ـ يتآمرون لنسف العالم من جديد • كان امرا مخيفا • فهدف رحلتنا هو ان نتعبد لوجه الله الحلو الاليف ـ بلطف زائد وعذاب كبير وامتلاء بالامل في الحياة الخالدة • كانت النسوة الصغيرات العجائز قد جلبن له خبزا منذورا ، ونذورا فضية وشموعا ودموعا وصلوات • بينما في الدرجة الاولى كان عديمو الايمان السعداء يتحدثون في السياسة او ينامون • بينما هنا في الاسفل ، وفي اعماق العنبر ، كنا نحمل ، كهدية رهيبة ، بذور نظرية كونية (١) جديدة وخطرة وغير متشكلة نهائيا بعد •

كان العالم الحبيب المقدس في خطر ، وعالم اخر ، قاس مكون من الوحل والنار ينهض مليئا بالحياة من الارض ومن قلب الانسان • وهو مختبيء في اعماق العنبر من كل سفينة كان يشتريها ويرحل •

في صباح اليوم التالي بدأنا نرى الارض الموعودة ـ خط بعيد على الافق في البدء غير واضح بسبب الغيم الحليبي ثم الجبال المنخفضة في

---

(1) Cosmogony.

اليهودية (١) شهباء في البدء وبعد ذلك زرقاء فاتحة واخيرا تتلاشى غارقة في ضوء النهار القوي نهضت العجائز وجمعن صررهن معاً ولففن مناديلهن على رؤوسهن ثم بدأن يرسمن شارات الصليب ويبكين ٠

رمل وحدائق غناء ونساء سمراوات بدينات وصبار ونخيل ، وصعود الى المدينة المقدسة في باصات لاهثة ٠ وبغتة اخذ كل قلب يخفق بعنف ٠ جدران وشرفات مفرجة (٢) وبوابات محصنة وروائح روث وتوابل وفواكه متعفنة ٠ جلابيب بيضاء واصوات قاسية حلقية ٠ ونهضت من التراب ظلال الانبياء المقتولين كلهم ، وعادت الحجارة الى الحياة وراحت تصرخ وهي مضرجة بالدماء ٠

القدس ! ٠

لا ارغب في تذكر اسبوع الالام ولا اجرؤ ٠ خلال تلك الايام السبعة اتضحت اخيرا مغامرة الانسان المأساوية كلها ـ الامل والحب ، الخيانة والتضحية ، والصرخة : « الهي يا الهي لم تخليت عني ؟ » ليس المسيح بل الانسان ـ كل انسان عادل ونقي ـ يخان ويساط ويصلب دون ان يمد الله يده لمساعدته ٠ والحقيقة انه لولا وجود قلب المرأة العطوف لكان الله قد ترك الانسان في القبر الى الابد ٠ خلاصنا معلق بخيط ، بصرخة حب ٠

ليلة بعد اخرى حتى الوصول اخيرا الى الفجر المقدس ليوم الفصح ٠ كانت كنيسة القيامة تضج كخلية نحل هائلة ٠ وكان الجو مشبعا برائحة الشمع وعرق البشر ـ الاباط المتعرقة البيضاء والسمراء والسوداء لرجال ونساء ناموا تلك الليلة تحت قباب الكنيسة منتظرين اللحظة الخالقة للكون التي فيها سينبعث النور المقدس من ضريح المسيح ٠ في كل مكان الرائحة الواخزة العميقة للشمع والزيت الزنخ ٠ وتحت الايقونات المقدسة تغلي القهوة في أوعية صغيرة والامهات يعرين صدورهن لارضاع اطفالهن ٠ ولا بد ان الزنجيات قد زين شعورهن بالودك (٣) وقد ذاب الان فجعل لهن رائحة كرائحة الاغنام ٠ وكان رجالهن يفرزون ما لا يطاق من نتن الفحول ٠

ووصلت موجة بعد اخرى من الحجاج حتى ضاقت الكنيسة بهم ٠ تسلق بعضهم الاعمدة واخرون انتشروا على المقاعد بينما احتشد غيرهم في رواق

---

(١) ١٣ كم شمال يافا ، كانت تعرف سابقا باسم اليهودية ثم سميت العباسية نسبة الى ولي مدفون فيها (راجع : بلادنا فلسطين ـ مصطفى مراد الدين ص ٢٧٨ ؛
(٢) شرفات ذات فتحات لاطلاق النار ٠
(٣) شحم حيواني ٠

النساء بينما اعينهم المستثارة الجاحظة تتوجه نحو الهيكل الصغير في وسط الكنيسة الذي سيصعد منه النور في اية لحظة. أحباش وبدو وزنوج بالطرابيش والجلابيب متعددة الالوان والعيون اللاهبة الدامعة - بشر من كافة الاجناس - يصرخون ويضحكون ويتنهدون . واغمي على شاب فرفع ومدد في الباحة كاللوح . وسقط كاهن ماروني عجوز ونحيل ، مرتديا السوتان (١) الابيض الناصع والحزام الاحمر ، على الحجارة المرصوفة والزبد يصعد من فمه .

وبغتة صمت الحشد . وامتلأ الجو بالعيون المتوهجة . لقد ظهر البطريرك مرتديا ملابس موشاة بالذهب . ووحده سار خافض الرأس تحت الهيكل في وسط الكنيسة . ورفعت الامهات أبناءهن الى اكتافهن لكي يمكنّهم من الرؤية . ووقف الفلاحون فاغري الافواه . كل ثانية كانت تسقط مثل قطرة كثيفة على رؤوسنا . وتوتر الجو حتى صار له صريف كجلد الطبل وهبت ومضة من الظلة المقدسة وظهر البطريرك وبيده حزمة كبيرة من الشموع البيضاء والمشتعلة وفي ومضة عين كانت الكنيسة تموج باللهب من ارضها حتى سقفها . المتفرجون جميعا كانوا قد اندفعوا نحو البطريرك وهم يمسكون بشموعهم البيضاء لكي يتلقوا النور . وراحوا يضعون ايديهم في اللهب ثم يفركون وجوههم وصدورهم . كانت النسوة يزعقن بينما بدأ الرجال بالرقص . وبهذا الضجيج تدفق الجميع الى الباب ، ليخرجوا .

وبقيت الكنيسة خالية . الضجة الرهيبة والحشد المسعور والاسمال متعددة الالوان - هذا كله بدا وكأنه كان حلما غريبا . نظرت الى الارض فتأكدت ان تلك الرؤية كلها كانت حقيقة فتحتي على الحجارة المرصوفة رأيت بقايا معينة من النشوة : قشور برتقال ونوى زيتون وزجاجات مكسورة .

خرجت الى الفناء لاستنشاق الهواء النقي . كنت اتمنى ان ارحل ، ان اذهب الى الجبال الموحشة الجرداء المواجهة لي وأظل امشي وامشي دون ان ارى شيئا الا الشمس والقمر والصخور . فطوال الوقت الذي كان فيه الحشد المنتشي يضطرم من حولي والمؤمنون يندفعون في نشوتهم وهم يدعون المسيح - يأمرونه - بالقيام من قبره كنت اضبط نفسي وارفض أن أدع قلبي يثمل . فللروح ، كما للجسد ، حياؤها : انها ترفض ان تتعرى امام الملأ . ولكن ما أن صرت وحدي حتى رحت أصرخ : بعيدا ! بعيدا الى البراري ! هناك يهب الله كالريح المحرقة ، هناك سأتعرى وادعه يحرقني .

---

(١) ثوب الكاهن .

وقال الله : ابقي ايتها السيدة الروح • لا ترحلي •
ـ ما الذي تريده مني يا رب ؟
ـ أريدك ان تتعري ايتها السيدة الروح •
ـ يا رب • كيف تستطيع ان تطلب مني طلبا كهذا ؟ انني اخجل •
ـ أيتها السيدة الروح ، لا شيء يجب أن يقف حائلا بيننا ولا حتى أرق الحجب • لهذا ايتها الروح يجب ان تتعري •
ـ هانذا يا رب • لقد تعريت • خذني !

انطلقت الى البحر الميت وانا اغني هذه الكلمات الخالدة عن روح تعشق الرب • كنت أريد ان ارى الهوة التي فتحتها المدينتان الخاطئتان حين غارتا • كانت الصخور الشهباء والصفراء والمتوردة تطلق البخار حين تسقط عليها الشمس القاسية اللزجة • وبين حين واخر تهب دفعة من الريح المحرقة فتملأ فمي ونفسي بالرمال • كانت الحجارة لاهبة • لا زهرة ، ولا قطرة ماء ، ولا عصفور يطلق صوتا يرحب به بعابر او يحاول ان يطرده • وكان الله معلقا فوقي ، الله وحده ـ كالسيف •

هذا الرب ليس المسيح • خطرت لي الفكرة فارتعشت • ليس ابن مريم اللطيف ذا الكلام الحلو • انه يهوه ، اكل البشر المخيف • لقد بحثت عن رب ووجدت اخر • كيف استطيع الفرار في هذه النقطة من تخوم صمته المظلمة المستغلقة ؟

كلما ابتلعتني الصحراء اكثر ، التهب رأسي أكثر • ورحت أدعو الله أن يظهر ويكلمني • ألم يخلقني بشرا ؟ أو لم يكن الانسان الحيوان الذي يطرح اسئلة ؟ حسن • انني اطرح اسئلتي وعليه ان يجيب • كنت اسأله بهدوء في الريح اللاهبة • واعترفت « يا رب انني امر في لحظة حرجة • ما الذي علي ان افعله ؟ ضع في فمي جمرة ، كلمة ، الكلمة البسيطة التي تحقق الخلاص • لهذا نزلت في هذه البئر العميقة ، البئر التي يعميها النور الباهر ـ لكي اتحدث اليك • فتجل • »

انتظرت وانتظـرت • ولا جـواب •
منذ سنوات طفولتي ، حين كنت اقرأ سير القديسين ، في دارنا كنت احترق رغبة لان اضع قدمي على هذه الارض التي اخطو عليها الان ؟ احترق رغبة لان اسير على الارض والحجارة التي سار عليها المسيح وأن أسمع صوته • كان لدي دائما ما أقوله له (وما يزال لدي) • لا بد ان يشفق علي الن يفعل ؟ نعم • سيجيب ! وبينما العالـم يتحـرك يقـوم بتغيير اسئلته وعذاباته وشياطينه • ولربما كان لدى المسيح كلمة جديدة ما يشفي بها الجراح الجديدة ويجعل للحب وجها جديدا وأكثر رجولة •

رحت أحدث نفسي بهذه الطريقة وأنا اتقدم واستنشق هواء الصحراء

المكون من لهيب ورمال ، والذي تنشقه الانبياء وتلقوه في اعماقهم . وحين وصلت الى بطن الوادي فاجاني البحر الميت يلتمع أمامي ، ساكنا ورماديا كالرصاص الذائب وممتلئا بالمياه الموحلة الرجراجة القطرانية ، والتي منها يجري نحو فلسطين ، بين القصب والطرفاء ، نهر الاردن الازرق المائل الى الخضرة . كان هناك العديد من الرجال الذين يرتدون القمصان الطويلة ويرسمون شارات الصليب . ووقف على ضفة النهر قس يغني بينما كان الاخرون يغطسون في المياه المطهرة ويتحولون الى حجاج .

اقيمت حانة على الضفة تحت سقف من القصب المحبوك . وفيه حاك عتيق يطلق « الامان » (١) العربي بصوت أجش بينما راح صاحب الحانة ، ذو الجلباب المبقع بالشحم يجار مع الحاكي وهو يقلي كبد الغنم .

أسرعت الخطى ملتفا حول ساحل البحر الميت ودخلت الصحراء من جديد وعيناي القلقتان الهائجتان مسمرتان على المياه الراكدة ، وكأنني اجهد لاستكشاف المدينتين الغائرتين في اعماقها . وبينما انا اتطلع ومضت في ذهني لمعة صفراء . رأيت ـ قدما جبارة قادرة قد تقدمت لتدوس مدينتي سدوم وعمورة وتسحقهما وتخفيهما . روعت . ذات يوم ستقوم قدم جبارة قادرة بسحق سدومنا وعمورانا وابادتهما . وهذا العالم الذي يضحك وينسى الله سيتحول بدوره الى بحر ميت . في ختام كل مرحلة تأتي قدم الله بهذه الطريقة وتبيد المدن ذوات البطون المتخمة والعقول المتخطية .

خفت . (يبدو لي احيانا ان هذا العالم هو سدوم اخرى قبل مرور قدم الله عليه . واظن انه يمكن سماع القدم الرهيبة الان وهي تقترب) .

توقفت على كثيب رملي منخفض ورحت احدق الى هذه المياه الملعونة وهي تحاول ان ترفع المدينتين الفاتنتين الخاطئتين من أوعية القطران . كنت أريد لهما ان تشعا من جديد ولو لوهلة بسيطة تحت اشعة الشمس وبما يكفي لان المحهما . ثم ارف جفني من جديد وتتلاشيان .

كانت المدينتان تضطجعان على ضفة النهر كعاهرتين تتبادلان القبلات ، رجال يتعانقون مع رجال ، ونساء مع نساء رجال مع خيول ونساء مع ثيران . ياكلون حتى التخمة من (شجرة الحياة) وياكلون ويتخمون من (شجرة المعرفة) . وحين حطموا اصنامهم المقدسة وجدوا انها ليست الا خشبا وحجارة . وحين حطموا افكارهم وجدوا انها كانت مليئة بالهواء وحين اقتربوا من الله كثيرا قالوا : « هذا الله ليس أبا للخوف ، بل هو ابن الخوف » ففقدوا

---

(١) الغناء الذي يرتند لازمة امان امان .

خوفهم . وكتبوا على البوابات الاربع المؤدية الى المدينة بحروف صفراء كبيرة ، هنا لا يوجد اله . ماذا تعني عبارة لا يوجد اله ؟ تعني انه لا كوابح على غرائزنا ، لا ثواب على خير ولاعقاب على شر ، لا فضيلة ولا خجل ولا عدل ـ اننا نحن ، ذئابا وذئبات ، في حالة نزاء (١) .

غضب الله ونادى ابراهيم : يا ابراهيم .

ـ مرني يا مولاي !

ـ يا ابراهيم ! خذ غنمك وابلك وكلابك وخدمك وجواريك وزوجتك وابنك ـ وارحل ! ارحل . لقد وصلت الى رأي .

ـ يا مولاي . « وصلت الى رأي » على شفتيك تعني « سأقتل ! » .

ـ عقولهم صلفة وقلوبهم مترعة بالفرح وبطونهم متخمة ـ لقد مللت منهم . يبنون بيوتا من الحجر والحديد وكأنهم مخلدون . زودوا انفسهم بالافران واشعلوا النيران وذوبوا المعادن . لقد سطحت الصحراء كالجذام على وجه الارض لانني أريدها هكذا فقام هؤلاء البشر في سدوم وعمورة بري الصحراء وتسميدها وتحويلها الى جنة . ولم تعد العناصر الخالدة من ماء وحديد وحجر ونار الا عبيدا لهم . لقد انتهيت منهم ! انهم اكلوا شجرة المعرفة وقطفوا التفاح وسوف يموتون !

ـ كلهم يا مولاي ؟

ـ كلهم . ألست القادر على كل شيء ؟

ـ لا يا مولاي ، لست القادر على كل شيء لانك عادل لست قادرا على القيام بكل ما هو ظالم وخسيس ولا معقول .

ـ وما الذي يستطيع أن يعرفه أي منكم عن العادل والظالم والشريف والخسيس ، المنطقي واللامعقول ايتها الديدان المخلوقة من طين والتي تعيش على الطين ومصيرها ان تعود الى طين ؟ ان غاياتي لا تكتنه ، ولو قدر لكم أن تواجهوها لاصابكم الرعب .

ـ أنت رب السموات والارض . أنت تمسك بالموت والحياة جنبا الى جنب في راحة يدك وأنت الذي تختار . أنا دودة ، مجرد طين وماء ولكنك نفخت في فخلق الطين والماء روحا . ولهذا سأتكلم . هناك آلاف من البشر في سدوم وعموره يأكلون ويشربون ويتبرجون ويضحكون ويسخرون، وهناك آلاف من العقول التي تشرئب كالثعابين لتنفث بسمومها نحو السماء وهي تفح . ولكن ان كان بينها أربعون روحا فاضلة فهل ستحرقها يا مولاي ؟

---

(١) حدة الاهتياج الجنسي عند انثى الحيوان .

– أسماء ! أريد أسماء ! من هؤلاء الاربعون ؟
– وماذا لو كانوا عشرين ! عشرين روحا فاضلة يا مولاي ؟
– أنا أريد أسماء • انني أمد يدي لاعد •
– وماذا لو كانوا عشرة ، عشرة أرواح فاضلة يا مولاي ؟ وماذا لو كانوا خمسة ؟
– أغلق فمك الصفيق يا ابراهيم •

– ارحمنا يا مولاي • لست عادلا فقط • أنت طيب أيضا • ولو كنت عادلا فقط لحدث الويل • كنا ضعنا كلنا • لكنك طيب يا مولاي ولهذا ما يزال الناس قادرين على الوقوف في الهواء •

– لا تركع وأنت تمد يدك للامساك بركبتي* • فليس لي ركبتان • ولا تبدأ النواح لكي تمس قلبي اذ لا قلب لي • أنا صارم ، قطعة جامدة من الغرانيت الاسود ولا يمكن ليد أن تطبع لمستها علي • لقد وصلت الى قراري : سأحرق سدوم وعموره •

– لا تتسرع يا مولاي • لم العجلة حين تكون مسألة قتل ؟ انتظر لقد وجدت واحدة !
• ما الذي وجدته وأنت تنقب في التراب أيتها الدودة ؟
– روح فاضلة •
• من ؟
– لوط ، ابن أخي هرون •

ورحت أشعر بصدغي* ينبضان وأنا واقف على الكثيب الرملي • سمعت في أعماقي صوت الله يصطرع مع صوت الانسان • وبدا لي لوهلة أن الهواء يتخثر وان لوطا يقف أمامي – قاسيا وحافيا بلحية متدلية ولهب منتصب على جبينه • لم يكن لوط العهد القديم ، العبد ، بل كان لوطا خاصا بي ، لوطا متمردا يرفض أن يطيع أمر ربه في أن يهرب وينجو بنفسه وبدلا من ذلك فانه يحس بالشفقة على مدينتيه الفاتنتين الخاطئتين وبملء ارادته يلقي بنفسه الى النار ليحترق ويفنى معهما •

صرخ بابراهيم : قل له انني لن أذهب • أنا سدوم وعموره – قل له ذلك – وأنا لست راحلا ، ألا يقول انني حر ؟ ألا يقول (ويتباهى) بأنه خلقني حرا ؟ اذن أنا افعل ما أريد • لست راحلا •

– انني أغسل يدي من الامر أيها العاصي • وداعا •
– وداعا يا بئر الفضيلة العجوز ، وداعا يا حمل الله ! وقل لمولاك

« تحيات من لوط العجوز » وقل له شيئا اخر أيضا ، انه ليس عادلا وليس طيبا . انه القادر على كل شيء . انه القوي فقط ولا شيء اخر !

كانت الشمس قد غربت وصار الضوء أكثر لطفا بينما هدأ صدغاي. شعرت وكأنني خارج لتوي من صراع بائس تنهدت ونظرت الى الوراء . كيف خرج متمرد كهذا من أعماقي ؟ كان أمرا مرعبا . وأين كانت هذه الروح المتوحشة النفور مختبئة في أعماقي وراء الله ؟ لقد كنت مع ابراهيم الاب التقي المطيع . فكيف حدث انني الان قد هجرته ، ودست على الكتاب المقدس لاخلق لوطا كهذا وأتحد به ؟

لقد كان الشيطان الصفيق يجثم في أعماق نفسي منتظرا أن يتشوش رأسي لوهلة وأن يهمل عقلي الاقفال لكي يقوم بفتح باب الفخ والقفز الى النور ثم البدء بالتصرف بوقاحة مع الله عدوه الابدي .

لقد رأيت انه من الضروري لي ان أطهر أعماقي وأن أطرد الشياطين من داخلي - الذئاب والقردة والنساء ، والفضائل الصغيرة والمتع الصغيرة والنجاحات - لكي أبقى مجرد لهب صاعد نحو السماء . وبما أنني قد أصبحت رجلا فما الذي كنت سأفعله الا أن أقوم بما كنت أتوق اليه وأنا طفل في دار أسرتي ! يولد المرء مرة واحدة فقط ولن تكون لي فرصة أخرى أبـــدا .

كان الليل قد حل حين عدت الى القدس . وبدت النجوم مثل لقمات من النار معلقة فوق رؤوس البشر لكن أحدا في شوارع القدس المقدسة لم يكن يرفع رأسه لـيراها ويفنى خوفا . لقـــد تغلبت العواطف اليومية والاهتمامات الصغيرة والطعام والدخل المالي والنساء على الخوف . وبهذا استطاع الناس أن يثابروا على نسيانهم وان يتابعوا حياتهم .

وفيما كنت أتقلب على فراشي القاسي قلت لنفسي ، لقد آن لي أن أتخذ قرارا ، أن أكمل ما تنبأت به وأنا طفل ما يـزال حليب الله عـلى شفتـــي .

حين كنت في جبل آثوس أخذ أحد الرهبان يدي وحدق الى راحتي وقال انه سيقرأ لي بختي . كان وجهه ، فعلا ، وجه غجري : أسود مدبوغا وله شفتان كشفتي الماعز وعينان يتطاير منهما الشرر .

قلت له ضاحكا : أنا لا أومن بسحرك .

فأجاب : هذا لا يهم . ما يهم هو أن أومن أنا .

تطلع الى خطوط كفي ونجومها ونقاطعها وتجعداتها . وبعد تمعن

قال : «لا تحشر انفك في شؤون الناس • أنت لم تخلق للفعل • ابق على مبعدة • انك لا تقوى على صراع الناس • ليس أنت • لانك وأنت تقاتل تظل تفكر بأن عدوك قد يكون على حق • ومهما فعل لك بعد ذلك فانك تسامحه • أتفهـم ؟ »

قلت له : « تابع » • لقد تأثرت قليلا لانني رأيت،أنه على الرغم من أن هذا الراهب لم يرني من قبل فانه كان يقول الحق • تطلع الى يدي مرة أخرى متفحصا وقال : « تتآكلك اهتمامات متعددة • تريد الكثير وتسأل أسئلة كثيرة • انك تفتك بقلبك • ولكن خذ نصيحتي ولا تبالغ في الاهتمام بايجاد الجواب • يجب أن لا تخرج لكي تجده • هو سيأتي لكي يجدك • استمع لما أقول وأرح نفسك • انه آت • ودعني أخبرك بما قاله لي معلمي ذات مرة : « كان هناك كاهن يبحث طوال حياته عن الله • وحين كان يلفظ أنفاسه الاخيرة أدرك أن الله كان يبحث عنه طوال ذلك الوقت » •

وانحنى على يدي من جديد ثم حدق الي بعينين منتفختين • وقال : « في أواخر عمرك ستكون كاهنا • لا تضحك • ستصير كاهنا • »

ان النبوءة الكاذبة قد تتحقق أحيانا • ويجب على المرء أن يؤمن بها ببساطة • وتذكرت النبوءة الاخرى التي تنبأت بها القابلة حين ولدت اذ نظرت الي في الضوء وقالت : « ذات يوم سيكون أسقفا • »

صرخت وقد هيمن علي الرعب : « لا • لا• لا أريد أن أصبح راهبا » وسحبت يدي وكأنني أحسست بالخطر •

ظننت أنني نسيت كلمات الكاهن بعد تلك السنوات الطويلة ثم بغتة في هذه الليلة برزت الى ذاكرتي من جديد • حاولت أن أضحك فلم أستطع • كان يبدو ان الكلمات تعمل فيّ سرا طوال تلك المدة وتدفعني تماما الى حيث لا أريد أن أذهب • لم تعد المسألة مضحكة •

أغمضت عيني لكي أنام وأهرب ••• وبغتة تحولت الى عاص مطارد في شوارع مدينة كبيرة • قبض علي وحوكمت وحكم علي بالموت • أخذني الجلاد وجعلني أمشي أمامه بينما هو يتبعني والفأس على كتفه • بدأت أركض ، فسألني الجلاد وهو يلهث : « لم تركض ؟ » فأجبته : «مستعجل•» وحين قلت ذلك هبت نسمة دافئة واختفى الجلاد • لم يكن جلادا بل غيمة سوداء وقد تلاشت • وأردت أن أتابع ولكنني لم أستطع • برز أمامي جبل سد طريقي • صخرة قاسية من الصوان وعلى قمتها علم أحمر يرفرف قلت لنفسي ان كنت أريد التقدم أبعد من ذلك فان علي أن أتسلقها • حسن اذن • باسم الله • رسمت شارة الصليب وبدأت الصعود • لكنني كنت ألبس بوطا بمسامير ضخمة وراح الشرر يتطاير من وقع المسامير على

الصوان . صعدت وصعدت وتزحلقت وسقطت واستعدت زخمي وتسلقت من جديد . وحينما اقتربت من القمة رأيت انه لم يكن علما ذلك الذي يرفرف في الذروة بل لهبا . وتابعت صعودي وحامت عيناي على الذروة . لا . لم يكن لهبا ايضا - وصار بوسعي أن أراه الان بوضوح - كان الله . ليس الله الاب . بل الله الاخر ، يهوه الرهيب . وكان ينتظرني .

تجمد الدم في عروقي . ولوهلة كنت على وشك أن أعود لكنني خجلت. همست لنفسي : « فات الاوان على التوقف . الى الامام . » وسأل صوت أنثوي في داخلي : « ألست خائفا ؟ » فصرخت : « نعم . أنا خائف . » صرخت بصوت عال وبألم شديد الى درجة أنني استيقظت .

جلست في فراشي . كان الحلم ما يزال يلمع بين جفني . درسته مرة أخرى لكنني لم أستطع أن أجد تفسيرا . لم عاص ؟ ولم الجلاد ؟ ولم العلم واللهب والله ؟ وهززت رأسي . يأتي الجواب حين نتوقف عن طرح السؤال . هكذا قلت لنفسي وهدأت . الجواب يأتي حين ينزل السؤال من عقولنا المهذارة ويغزو قلوبنا وأصلابنا .

« الماء العذب لمن يظمأ . أنت مغلق على من يتكلم ومفتوح على من يحتفظ بهدوئه . ومن يظل صامتا يأتي ويجدك ، أيها النبع ، ويشرب . » تلك كانت الكلمات القديمة الخالدة . وفي هذا اليوم همست بها شفتاي امتنـــانا .

كان هناك موكب ديني يمر تحت نافذتي . وكان الجو مليئا بالبخور والاغاني . وبغتة أحسست بالسعادة . قرار سري ما كان ينضج في العتمة في أعماقي . وما زلت عاجزا عن تبين ملامحه لكن كان لدي الايمان .

نهضت وارتديت ملابسي ثم فتحت النافذة . كانت السماء متوهجة والطريق تحتي يعج بكافة انواع البشر وكلهم على عجل . الهواء مشبع بروائح البخور والفـــاكهة المتعفنة والنتن الثقيل الكريه المتصاعد مـن البشر . وكانت امرأة عربية بدينة توازن سلة من الـذرة المشوية على رأسها وهي تنادي على سلعتها وأسنانها تلتمع بيضـاء ناصعة تحت أشعة الشمس . بينما اليهود بشواربهم الطـــويلة المشحمة يتسللـون بمحاذاة جدران البيوت وأنوفهم المعقوفة تقطر سما . وعبر رهبان كاثوليك وأرثوذكس وأرمن كل في طريق الاخر . دون ان يتبادلوا التحية . لقد انحدر المسيح على أيديهم الى راية للكراهية .

نزلت الى الشارع وتجولت في المدينة . كنت أنظر الى كل شيء للمرة

الاخيرة وأودعه • رأيت في نافذة حانوت منحوتة قديمة لجبل سيناء والقديسة كاترين تقف في الوسط وعلى رأسها تاج ملكي وعلى جانبيها جبلان : سيناء والقديس ابستيم • كانت تمسك بيدها الاولى ريشة وبالاخرى كانت تربت بحنان على العجلة التي كانت أداة استشهادها وتحتها كتب بيونانية قديمة : « ما الذي تساوينه ايتها الجبال الباقية ؟ ولم تتباهين بانك مغطاة بالنباتات وزاخرة بالاشجار ومعبأة بالحليب ؟ جبل واحد وواحد فقط هو المكتظ بالاشجار والملفع بالضباب والتقي الكثيف المقدس الشريف النقي السماوي الروحي الملائكي والالهي : جبل سيناء الذي وطئه الله • »

ظللت وقتا طويلا عاجزا عن رفع عيني عن هذه المنحوتة • وكلما ازددت تحديقا اليها ازددت تأكدا من أنه لو استمر الحلم أكثر من ذلك ولو لم أصرخ : « أنا خائف » وأستيقظ لتحول الجبل الذي كنت أتسلقه الى جناحين • لان ذلك الجبل المصنوع من الصوان والشرر كان طريق الصعود في كفاحي • ولو انني بلغت حدوده لتحول الكفاح الى جناحين ولتوحدت بذلك الشيء المشع على الذروة سواء كان علما أحمر أم لهبا أم الهـا •

وامتزجت الاحلام بالاشواق الطفولية بالنبوءات الغامضة مع واقع هذه الصورة عن سيناء الموجودة أمام عيني وبغتة وجد الحلم الذي كان ينضج في أعماقي ملامحه • قلت بصوت مرتفع : « هذا هو طريقي » لقد وجدت ما سوف أفعله • سأذهب الى سيناء • وهناك ستتفتح عيناي • »

٢١ ـ الصحـراء
سينـــاء

لسنوات عديدة كان سيناء الجبل الذي وطئه الله ، يلمع في ذهني كقمة لا ترتقى • وقبل الدير الشهير المبني على قمة العليقة التي « اشتعلت بالنار ولم تحترق » كان هناك البـحر الاحمر والبتـــراء العربية وميناء رايثو (١) الصغير ، والرحلة الطويلة على الابل عبر الصحراء والمسيل الجرفي عبر الجبال الوحشية الرهيبة حيث قضـــى العبرانيون المعذبون سنوات عـديدة •

الجليل ، ببهائه الغنائي ، وجباله المتناغمة ، وبحره الازرق والبحيرة الصغيرة الساحرة ، يمتد خلف ظهر يسوع ويشبهه كما تشبه الام ابنها • انه تعليق بسيط وواضح تحت نص الانجيل (العهد الجديد) • في الجليل كشف الله عن نفسه مسالما مكتفيا مرحا ـ كانسان جميل •

لكن العهد القديم كان دائما يثيرني ، فقد كان يتلاءم بعمق أكبر مع حاجات روحي • وفي كل مرة كنت فيها أتتبع هذا (الكتاب المقدس) المليء بالنقمة والصواعق ، هذا الكتاب الذي يتصاعد بخارا حين تلمسه تماما مثل الجبل الذي نزل عليه الله ، كنت أحس برغبة عارمة في أن أذهب وأرى هذه الذرى اللابشرية التي ولد عليها (الكتاب المقدس) أن أراها بعيني وألمسها •

لن أنسى ما حييت ذلك النقاش الذي دار ذات مرة بيني وبين فتاة في حديقة •

---

(1) Raïtho.

قلت : لقد قرفت من الشـــعر والفن والكتب • تبدو لي كلها دون جوهر ، كأنها مصنوعة من الكرتون • تماما كما لو انك جائعة وبدلا من أن يقدم لك الخبز والخمر واللحم تقدم لك قائمة الطعام فتمضغينها كالعنزة •

ولا أدري ما الذي حدث لي فاغضبني ، ربما كان الامر أنني كنت أرغب في الفتاة التي تقف أمامي ولكنني لا أستطيع أن ألمسها •

هي شبيهة بصبية من الفلاحات الروسيات : شاحبة بعظام بـارزة فيالوجنتين وفم واسع • وفيما أنا اتطلع اليها تزايد غضبي • كنت امسك بزهرة فبدأت انتزع وريقاتها •

« هكذا تشبع أرواحنا المنهكة جوعها ـ كالماعز » •

غمزت الفتاة بعينها غمزة خبيثة واجابت ضاحكة : « انك تكلمني بغضب مع انني اتفق معك • الكتاب الحقيقي الوحيد هو العهد القـديم فهو غير مصنوع من الكرتون ، كله من اللحم والعظم ، والدم يتقاطر منه • بالنسبة لي تبدو الاناجيل مثل قدح من البابونج يقدم للبسطاء والمرضى • كان المسيح حملا فعلا • وقد ذبحوه على العشب الاخضر في عيد الفصح أما هو فقد ثغا مستسلما دون مقاومة • يهوه هو ربي ـ يهوه القاسي الفظ المتلفع بجلود الوحوش التـي قتلها كهمجي خارج من أدغالـه ومـن حزامـه تتدلى بلطة • وبهذه البلطة يفتح قلبي ويدخل • »

وصمتت للحظة وخداها يتوهجان • غير ان اللهب لم يخب فتابعت : .

« اتذكر كيف يخاطب البشر ؟ أرأيت كيف تذوب الجبال والبشر بـين يديه ؟ وكيف تغور الممالك تحت قدميه ؟ الانسان يصرخ ويبكي ويتـوسل ويختبىء في الكهوف ويلطأ في الاخاديد ـ يحاول جاهدا ان يهرب • بينما يظل يهوه مغروسا في قلبه كالخنجر » •

ومرة اخرى صمتت الفتاة مثلي • لكنني احسست بالخنجر في سويداء قلبـــي •

كان ذلك اليوم نقطة البدء في اشتعال رغبتي في ان ارى والمس الوادي الذي شقه الله وهو يعبر الصحراء ، رغبتي في ان ادخله كما يدخل المـرء عرين الاسد • وهاأنا الان ، والحمد لله ، قد جـاءتني الساعة التي سأشبع فيها هذا الجـوع الجديد •

كانت رحلتي تبدو كالحلم الخاطف ، رؤيا نارية وفاتنة : من القدس الى السويس ثم من السويس الى رايثو مينـاء البتـراء العربيـة التي منها سأنطلق الى سيناء الذي وطئه الله • كانت الجبال شاهقة زرقاء والمـاء اخضر والمرفأ واسع ومفتوح وبعض الزوارق الصغيرة الحمراء والصفـراء

والسوداء في التجاويف العميقة ، وقلة من الاكواخ الفقيرة على طول الشاطىء • سكون عظيم • وظهر جملان على رصيف المرفأ التفتا برأسيهما نحو البحر قليلا ثم تأرجحا قليلا وبعدها بخطوات ايقاعية جبارة اختفيا بين البيوت •

وجاء قارب شراعي لاخذي • كان فيه راهب بدين صبياني • لقد أرسل الاباء السيناويون المقيمون في القاهرة اشارة بوصولي •

كان قلبي يتراقص حين وضعت قدمي على الرمل الخشن ، أيمكن ان يكون هذا كله حلما ؟ كان خط الشاطىء مغطى بالاصداف الكبيرة • وكانت البيوت مبنية من الشعاب الصخرية المستخرجة من البحر ، ومن الاسفنج والمرجان المتحجر وقناديل البحر وتروس السلاحف الضخمة • وكان هناك عدد من الفلاحين يقفون على المصطبة الترابية وهم يلتمعون بوجوههم الداكنة وجلابيبهم البيضاء ، وفتاة صغيرة سمراء كالشوكولاته تلعب على الرمل وهي مرتدية ثوبا رسم عليه بوغنفيلية (١) مظللة •

وعلى مبعدة كانت هناك بعض البيوت الاوربية المبنية من الخشب ولها شرفات ومظلات واسعة وملونة وحدائق غناء وعلب تنكية مرمية في كل مكان • كانت هناك امرأتان انكليزيتان تجلسان على شرفة خضراء وتبدوان في هذه الصحراء الحارة شاحبتين وكأنهما قد أغمي عليهما •

وشرح لي الراهب الصبياني الذي جاء لاخذي انه هنا في رايثو كان محجر المسلمين العائدين من الحج في مكة • في اوقات كهذه يحتشد الشاطىء المهجور بالاف الحجاج • كان هناك صخب هائل بالدفوف والمزامير ، والحجاج يجلسون من بعيد على الرمل يقرأون القرآن بأصوات عالية منغمة •

وصلنا الى المنتجع الذي اقامه السيناويون في رايثو • من هنا سنأخذ الجمال وننطلق الى الجبل الذي وطئه الله • كانت الباحة الواسعة محاطة بغرف متعددة ، واجنحة للزوار ومدرسة للصبيان وأخرى للبنات ومخازن ومطابخ واصطبلات • كانت الكنيسة في الوسط غير ان اكبر معجزة في هذه الصحراء العربية كان قلب الارشمندريت تيوذوسيوس الدافىء والمليء بالحب ، سيد المنتجع • قلما يأتي اليونانيون الى هذه البرية • ولذا راح الارشمندريت تيودوسيوس ، الطويل المتوقد حماسا واليوناني المبجل القادم من تنيسميس في اسيا الوسطى يرحب بي وكأنه يرحب باليونان ذاتها •

اقيمت كافة الطقوس اللبقة للضيافة الدينية ، تلك الطقوس التي

---

(١) نبات معـرش •

صارت مألوفة لدي ، ملعقة من المربى ، قهوة تركية مع كأس من الماء الباردة ، مائدة مرتبة بشكل جميل وعليها سماط أبيض معطر ، واشعاع الفرح في وجوه من يقومون على خدمة الزائر ·

كنت أستطيع أن أرى البحر الاحمر وهو يتلألأ من نافذتي وجبال ثيبابيد متجمعة على بعد وغارقة في الضوء · تكلمت مع الرئيس عن « ثلاث عشرينات وعشر نخلات » (١) التي تقول الاناجيل ان العبرانيين وجدوها في هذه القرية الصغيرة · وسألت عن « اثنتي عشرة عين ماء » وكأنني اسأل عن أقرباء اعزاء يعيشون في الخارج · وحين اخبرني ان غابة النخيل ما تزال موجودة وان الينابيع جارية فرحت ·

كثيرا ما أحسست بسعادة مشابهة ـ بعد رحلة متعبة كأس من الماء البارد ، مأوى بسيط وملائم ، قلب انساني يعيش مجهولا في ركن مصطلى العالم ليقدم الدفء والامان للغرباء · وحين يظهر الغريب في الطرف الاخر من الشارع يقفز قلبه فرحا لانه وجد انسانا · في الكرم ، كما هو الامر في الحب ، لا بد ان من يعطي يكون اكثر سعادة ممن يأخذ ·

أكلت والارشمندريت على مائدة الكرم والمحبة وتبادلنا الاحاديث كصديقين قديمين سعيدين لعودة شملهما · لقد ولدت فيه ، هنا في هذه الصحراء، كمية كبيرة من الاسئلة وهو تواق لان يسمع مني الاجوبة . حكيت له عن المدن الكبيرة ، كفر الانسان المعاصر والامه ، غطرسة الاغنياء واملاق الفقراء ، عجز الشرفاء ثم حكيت له عن القلاقل التي حدثت في روسيا ·

وسألني الرئيس بتفهم : « وهل يؤمن هؤلاء الموسكوفيون بالله » ؟

ـ كلا · انهم يؤمنون بالانسان ·

ـ بهذه الدودة ؟ قال الرئيس باحتقار ·

ـ نعم بهذه الدودة يا أب تيودوسيوس · اجبته بعناد وانا احس بغتة ان علي ان ادافع عن هذه الدودة ·

وبدأت تلح علي رغبة شيطانية · كانت الافعى تتسلق شجرة المعرفة وتفح · وكان الراهب يتقي شرها ·

وهكذا ، بقيادتي لقلب الناسك المطمئن الى التجربة ، وتحولا طمأنينته الى ادراك ، رددت على حسن ضيافته بأحسن طريقة ممكنة ·

وجاء طعمة ومنصور وعوا · كانوا يرتدون الجلابيب متعددة الالوان

---

(١) ثم جاؤوا الى ايليم وهناك أثنتا عشر عين ماء وسبعون نخلة . فنزلوا هناك عند الماء . التوراة ـ الخروج ـ الاصحاح الخامس عشر .

وعلى رؤوسهم عمائم مصنوعة من وبر الجمال ويطقانات طويلة فـي أوسـاطهم • هم رعاة الابل الثلاثة ـ ثلاثة بداة بأرجل نحيـلة لينة وعيون صقرية صغيرة ـ الذين سيرافقونني في رحلة ثلاثة أيام وثلاث ليال الى الدير وسيحمونني في ساعات الخطر• ويقول تاريخ قديم ان البدو يرون ضعف المسافة التي تزاها عيوننا ويشمون رائحة الدخان عن بعد ثلاثة اميال ويميزون نوع الخشب المحروق كما يميزون بين الآثار التي يخلفها الرجال على الرمل وبين تلك التي تخلفها النساء ويعرفون ما اذا كانت النسـاء متزوجات أم عزبات أم حوامل •

حيونا دون كلام وهـم يضعـون راحاتهم علـى صدورهم فأفـواههم وجباههم • ووراءهم ظهرت ثلاثة جمال في باحة الدار محملة بأحمال عالية من لوازم الرحلة : مؤن وبطانيات وخيمة • كنت قد تعلمت حتى الان بعض الكلمات العربية ، الكلمات الاساسية التي تلزمني في الأيام الثلاثة التـي سأعيشها مع البدو •• كلمات عن الخبز والماء والنار والله •

بركت الجمال • كانت عيونها اللامعة جميلة لكنها خالية من اللطـف • وكانت أعنتها مزينة بشرابات سوداء وبرتقالية مصنوعة من الشعر •

ـ أعط النوق قليلا من البلح لتحلية اسنانها • أمر الرئيس فخـرج الراهب الشاب مسرعا وقبضتاه مليئتان بالبلح •

تعانقت والارشمندريت وعيوننا على وشك ان تمتلىء بالدمـوع • وافترقنا • على مقربة من ملحق الدير تبدأ الصحراء ـ شهبـاء وصامتة وقاحلة •

ايقاع الابل الواثق المتموج ينقل جسدك • ودمك يتعود علـى ايقاع هذا التموج ومع دمك تتعود روحك • يحرر الزمن نفسه من التقسيمـات الحسابية التي حشره فيها ، باذلال ، العقل الوقور الصافي في الغـرب • أما هنا ومع اهتزاز « سفينة الصحراء » فيتحرر الزمن من حدوده الرياضية الثابتة• يصبح الزمن مادة سائلة غير قابلة للتقسيم، ودوامة خفيفة مسكرة تحول الافكار الى موسيقى ولحن حالم •

وباستغراقي مع هذا الايقاع لساعـات بـدأت افهم لماذا يقرأ أبناء الاناضول القران وهم يتارجحون الى الامام والى الخلف وكأنهم على ظهور الابل • بهذه الطريقة ينقلون لارواحهم الحركة الرتيبة المسكرة التي تقودهم الى الصحراء الكبيرة الغامضة ـ الى النشوة •

على مرمى النظر كان يمتد أمام عيوننا اتساع مغو زهري اللون وظننت انه البحر • تجمع البداة الثلاثة وتهامسوا ثم افترقوا • وتابعنا السير ، لم يكن ذلك بحرا • الامتداد الزهري كله كان صحراء اثارتها عاصفة مخيفة أعطت لغيوم الرمل المحترق لونها الزهري • وبعد قليل دخلنا في العاصفة الرملية فكدنا ان نختنق • قطع طعمة اغنيته • ولف البداة الثلاثة أنفسهم باحكام ببرانسهم وغطوا افواههم وانوفهم •

ارتفع الرمل ليضرب وجوهنا وأيدينا ويجرحها • وبدأت الجمال تدور على نفسها عاجزة عن حفظ توازنها • ومع ان الطريق المتعرج استمر ثلاث ساعات فقد فرحت سرا لانني استطعت ان اضيف هذه العاصفة الصحراوية الرهيبة الى تجاربي •

بدأت الشمس تغرب • كنا قد خلفنا العاصفة وراءنا ورحنا ، أخيرا ، نقترب من الجبال • وبالتدريج بدأت الصحراء تتحول الى اللون البنفسجي وتتغطى بالظلال • ووقف طعمه الذي كان يسير في المقدمة ، واعطى اشارة التخييم « كرر ! كرر ! » راحت حلوق البدو تغرغر • ونخرت الجمال • ركعت على ركبها الامامية ثم سقطت الى الخلف على مؤخراتها بصوت راعد مثل بيوت تتهدم •

انزلنا الاحمال ونصبنا الخيمة ونحن نعمل معا • وكوم عوا كومة من العيدان التي جمعها بعناية فائقة في الطريق • ثم اشعل النار • واخرج منصور الكاسرولة والرز والسمن من حقيبة مصنوعة من القش المجدول وبدأ يطبخ بينما كان طعمة يمزج الطحين بالماء ثم راح يرشق العجين في المقلاة بأصابعه الدقيقة فاعد فطائر صغيرة تشبه التورت • وفي اثناء ذلك كان البيلاف (١) قد بدأ يطلق روائحه الشهية • جلسنا معا حول النار وأكلنا ثم اعددنا الشاي واخرجنا غلايينا ورحنا ندخن ونحن نحدق حينا الى الجمر المتلاشي وحينا الى النجوم العديدة المتأججة والمعلقة فوق رؤوسنا •

عم جسدي وروحي احساس غريب بالرفاه • لكنني حاولت أن اخضع هذه الرومانسية كلها ـ الارض العربية ، والصحراء والبدو ـ فسخرت من قلبي الذي كان يخفق مستثارا •

تمددت داخل الخيمة واغمضت عيني فانصبت في رأسي همهمات الصحراء المكبوتة الغامضة • كانت الجمال تجتر طعامها خارجا وكنت استطيع سماع احناكها وهي تمضغ • كانت الصحراء كلها تجتر مثل ناقة •

---

(١) طعام شرقي من رز ولحم وتوابل ـ المورد .

في فجر اليوم التالي بدأنا رحلتنا بين الجبال ، تلك الجبال المهجورة القاحلة التي تكره الناس وتنفر منهم • بين حين واخر كان حجل رمادي يصفق بجناحيه بصوت رنان بين تجاويف الصخور السوداء واحيانا كان غراب يدور محلقا فوق رؤوسنا وكأنه راغب في ان يتشمم ما اذا كنا قد بدأنا نتفسخ لكي ينقض علينا •

طوال النهار مع ايقاع الجمل واغنية طعمة الرتيبة الهادئة • كانت الشمس تنصب علينا نارا والهواء يمر راعشا على رؤوسنا وعلى الصخور •

مشينا الطريق ذاته الذي سلكه العبرانيون منذ ثلاثة الاف سنة في هربهم من أرض مصر الغنية • هذه البرية الموحشة التي كنا نجتازها كانت المشغل الذي جاع فيه بنو اسرائيل وعطشوا وتألموا وتشكلوا • ورحت اتطلع بعينين قلقتين الى الصخور الشاهقة واحدة بعد اخرى وادخل الوادي المتعرج واثبت ذرى الجبال اللاهبة في ذهني • وتذكرت كيف انني ذات يوم على الشاطىء اليوناني توغلت ساعات داخل كهف مليء بالنوازل الهائلة والقضبان الحجرية العملاقة التي كانت تلتمع مشعة حمراء تحت ضوء المشعل • كان فيما مضى كهفا لنهر كبير ثم ظل فارغا لان النهر قد غير مجراه عبر القرون • ولمعت في ذهني فكرة ان الشيء نفسه قد حدث لهذا الوادي الذي كنا نجتازه الان تحت الشمس.الله ـ يهوه القاسي ـ هو الذي حفر هذه السلسلة من الجبال لكي يمر •

وقبل ان يعبر هذه المتاهة لم يكن يهوه قد حدد هويته بعد لان شعبه لم يكن قد تجدد بعد •والالوهية(١) المتعددة لم تكن واحدا •• كانوا أرواحا لا تحصى تهيم في الجو لا اسماء لها ولا يمكن رؤيتها • هم الذين نفخوا روح الحياة في العالم وانجبوا وهبطوا على النساء من الاعالي وقتلوا وبرقوا وأرعدوا وجاؤوا الى الارض في هيئة صواعق • لم يكن لديهم موطن ولم يكونوا لاحد ولا لاية قبيلة • لكنهم بالتدريج اكتسوا باللحم وصاروا مرئيين يفضلون الصخور الشاهقة • وفرضوا أماكنهم في مراكز سامية • وقام البشر بدهن الشحوم على هذه الصخور وبتقديم الاضحيات لها حتى غطوا الصخور بالدماء • ومهما كان الشيء عزيزا على المرء ـ وليده الاول أو ابنته الوحيدة ـ فقد كان عليه أن يضحي به الى الاله لكي يستطيع الزحف الى فضل الله العظيم •

وعبر قرون من الرفاه تنعم العرق البشري ببطء وصار متحفزا • وتنعم

---

(١) أو الربوبية Elohim جاء شرحها في قاموس ويبستر : اسم عبري لله استخدم في العهد القديم في مقاطع تعود الى مراحل متأخرة من التاريخ التوراتي .

الله ايضا وصار متحضرا • وصارت الحيوانات تقدم له كاضحيات بدلا من البشر • وصار يعطى مظاهر يمكن الوصول اليها : الافعى والصقر والعجل الذهبي والسفنكس المجنح (١) • وهكذا في هذه الارض المصرية الغنية والمترفة بدأ رب العبرانيين ينفس من غيظه • ولكن بغتة جاء الفراعنة المعادون فاقتلعوا العبرانيين من الارض الغنية والقوا بهم الى الصحراء العربية • وبدأ الجوع والعطش مثلما بدأ التذمر والعصيان • ولا بد انهم في هذه المنطقة بالذات قد توقفوا ظهر احد الايام وهم ظمأى وجائعون وراحوا يصرخون : « كم نتمنى لو اننا متنا بيد الله في ارض مصر حين كنا نجلس حول قدور اللحم وحين كنا نأكل الخبز حتى التخمة » فقام موسى بتقديم البخور ورفع يديه الى الله في يأس ثم الصراخ : « ما الذي أستطيع فعله بهذا الشعب الجاحد ؟ بعد لحظة سيلتقطون الحجارة ويرجمونني • »

وانحنى الله على شعبه وسمع • احيانا كان ينزل عليهم المن والسلوى ليأكلوا واحيانا كان يرسل عليهم سيفا يقطعهم • ويوما بعد يوم وكلما توغلوا في الصحراء اكثر ازدادت ملامحه قسوة وازدادت معاملته لهم ضراوة• في الليالي كان يصبح نارا تزحف الى رؤوسهم وفي النهار عمودا من دخان كان يحشو نفيسه في تابوت العهد ، وكان اللاويون (٢) يحملونه مذعورين فاليد التي تلمسه تستحيل الى رماد •

وازدادت ملامحه صرامة • صارت فظة واخذت مظهر اسرائيل القاسي• لم يعد مجموعة من الارواح اللامرئية والتي لا اسماء لها والمبعثرة في الهواء دون مأوى كما لم يعد رب الارض كلها • لقد صار يهوه ، الرب القاسي المنتقم المتعطش للدماء لعرق واحد من البشر ، العبرانيين.كان عليه أن يكون قاسيا ومنتقما ومتعطشا للدماء لانه كان يمر في ظروف صعبة فقد كان يحارب العماليق والميديانيين والصحراء • وكان عليه ان ينتصر عليهم ـ بتحمل الالام وبالمكيدة والقتل ـ وينقذ نفسه •

هذا الوادي المجدب القاحل الموحش الذي كنا نجتازه كان الغمد الرهيب ليهوه • من هنا مر وهو يزأر •

كيف يمكن لاي انسان ان يعرف العبرانيين معرفة حقيقية دون ان يعبر هذه الصحراء المخيفة ودون ان يجربها ؟ لثلاثة ايام مديدة رحنا نعبرها

---

(١) كائن خرافي في الميثولوجيا اليونانية لـه جسم أسد واجنحة طائر وصدر امـراة وراسها .
(٢) نسبة الى قبيلة لاوي العبرية .

على جمالنا · حنجرتك تطقطق من العطش ورأسك يدور وعقلك يهـوم وانت تلتف في هذا الوادي المتعرج الاملس · حين يتطرق (١) شعب طوال أربعين عاما في هذا الاتون فكيف يمكن لشعب كهذا ان يمـوت ؟ فرحت لرؤية الحجارة الرهيبة التي ولدت عليها فضائل العبريين : دأبهم ، وقوة ارادتهم وعنادهم وقدرتهم على الاحتمال وفوق كل شيء لحم الرب الـذي من لحمهم ولهبه الذي من لهيبهم ذلك الرب الذي نادوه : « أطعمنا واقتل اعداءنا وقدنا الى الارض الموعودة » ·

لهذه الصحراء يدين اليهود بقدرتهم الدائمة على البقاء وفضائلهم ورذائلهم التي سيطروا بها على العالم · واليوم ، في فتـــرة الغضب القلقة ، والانتقام والعنف هذه التي نمر بها يبدو اليهود بالضرورة مرة أخرى الشعب المختار لإله الخروج الرهيب من أرض الرق ·

في تلك الظهيرة كنا سنصل أخيرا الى دير سيناء · لقد صعدنا الهضبة الميدانية على علو أكثر من ٥٠٠٠ قدم · وكنا قد قضينا الليلة السابقة في مقبرة اسلامية حيث نصبنا خيمتنا أمام ضريح الشيخ · استيقظنـا فجرا · كان البرد لاذعا وقد غطى الثلج خيمتنا · وكان السهل الممتد أمامنا كله أبيض ناصعا · هدمنا سقف كوخ خرب في المقبرة وأشعلنا منه نارا · وتصاعدت ألسنة اللهب وتحلقنا حول النار التماسا للدفء وكذلك اقتربت الجمال ومدت أعناقها فوقنا ·· شربنا منقوع التمر وأعددنا بعض الشاي · ثم مد البدو بساطا على الثلج وركعوا وراحوا يصلون ووجوههم النحيلـة التي لوحتها الشمس متوجهة صوب مكة ·

التمعت وجوههم وهم غارقون في النشوة · ورحت ، باحترام كبير ، أرقب هذه الاجساد الثلاثة الصبورة الجائعة الممتلئة بشكل مقبول · لقد مارس منصور وطعمة وعوا نوعا من الصعود ، فتحت الجنة أبوابها لهم ودخلوها · تلك جنتهم الخاصة ، الجنة الاسلامية ، جنة بدوية من الشمس والجمال البيضاء وقطعان ترعى في سهوب خضراء وخيام متعددة الالوان وأمامها تتربع النساء ورؤوسهن مردودة الى الوراء مع الضحك وأساور ذهبية على معاصمهن وكواحلهن ، وعيونهن مكحلة وشعر رؤوسهن محنى وبقعتان تجميليتان على خدي كل منهن والطعام يتصاعد منه البخار ، والمناسف (٢) مع اللبن ، وتمر ، وخبز أبيض ، وجرة من الماء البارد ·

---

١) المقصود كما يتطرق الحديد .
٢) هي كلمة بيلاف : شرحها المورد بانها طعام شرقي من ارز ولحم وتوابل .

وكانت هناك ثلاث خيام أكبر من بقية الخيام ، ثلاثة وثلاثون جملا أسرع من بقية الجمال وثلاثمئة وثلاث وثلاثون امــرأة أكثر سحرا من بقيــة النساء : الخيام والجمال والنساء لطعمة ومنصور وعوا .

انتهت الصلاة وأغلقت الجنــة أبوابها ونزل البدو الى الهضـبة الميديانية واقتربوا من النار صامتين وعادوا الى أعمالهم الارضية المتواضعة مرحين . المهم كم ستطول هذه الحياة ؟ الجنة ستكون الختام ولذا فالصبر جميــل .

مددت يدي الى طعمة الذي كان يجلس الى يميني واستظهرت لـه بالعربية الصرخة الاسلامية المقدسة : لا اله الا الله محمد رسول الله . اهتز مندهشا كما لو انني كشفت سره . شع وجهه بالفرح ونظر الي ثم ضغط على يــدي .

انطلقنا . وتابعت على قدمي غير قادر على احتمال الايقاع البطيء المتأني للجمل . جبال من الغرانيت الاحمر والاخضر تنهض على الجانبين. وبين حين واخر يمر فوق رؤوسنا طائر كالجــوكي ، طائر صغير وأسود بقلنسوة بيضاء صغيرة . وظهرت في الطرف الاخر من الطريق قافلة من الجمال . أطلق البدو صرخات الفرح وتوقفنا « السلام عليكم (١) » هتف قائدا الجملين المقتربين يحييان . تصافحا بالايدي مع أدلائنا وانحنى الزوجان كل زوج للاخر واقتربت الاوجه وبدأ الحديث بأصوات هامسة هادئة ليطول به السلام . وبدأت أسئلة التحية البسيطة القديمة . « كيف حالكم؟ كيف حال زوجاتكم ؟ وجمالكم ؟ من أين تأتون ؟ والى أين تذهبون ؟ » وراحت كلمتا « سلام » و « الله » تتردد على شفاههم . وأخذ هذا اللقاء في الصحراء المعنى المقدس السامي الذي يجب أن يميز دائما لقاء الانسان بالانســان .

ان لدي اعجابا قلبيا عميقا بأبناء الصحــراء هؤلاء . انظر كيــف يعيشون ـ على تمرات قليلة وكمشة من القمح وقدح من القهوة . أجسادهم رشيقة وسيقانهم دقيقة كسيقان الماعز وعيونهم كعيون الصقور . انهم أفقر أهل الدنيا لكنهم أكثر أهل الدنيا كرما . مهما جاعوا لا يأكلون حتى الشبع أو التخمة . يحتفظون ببعض السكر وبعض القهوة وكمشة من التمر ليقدموه لغريب . في رايثو حكى لي الرئيس كيف أن بدوية صغيرة وقفت تحدق الى سائح انكليزي كان قد فتح معلبات الطعام المحفوظ وبدأ يأكل .

---

(١) موضوعة باللفظ العربي وبالمعنى الانكليزي معا .

وقدم لها الانكليزي لقمة لكنها رفضت بكبرياء ، ثم بغتة داخت من الجوع وانهارت الى الارض ·

الحب الاول للبدوي هو جمله · ولقد اعتدت أن أرى آذان طعمه ومنصور وعوا تهتز قلقا كلما سمعوا أحد الجمال يطلق أضعف تنهيدة · يقومون ويوازنون السرج ثم يفحصون البطن والخف ويجمعون ما يمكن جمعه من عشب جاف ويطعمونه · في المســاء يفكون الحمولة ثم يغطون الجمال ببطانيات من الصوف ثم يمدون على الارض قطعة من القماش وبعناية فائقة ينتقون الاقذار من طعامها ·

هناك قصيدة عربية قديمة تمتدح رفيق البدوي المحبوب :

تمشي الناقة في الصحراء وتتقدم
قوية كأخشاب التابوت
فخذاها شبيهان ببوابة برج
وآثار الحزام على خاصرتهـا
كالبحيرات الجافة المليئة بالحصى
ان لمستها في هذا المكان
تظن انك تلمس مبردا
وهي شبيهة بقنطرة بناها اغريقي
وغطاها بالقرميد · (١)

كنا نحث الخطى في الجبال ونحن نتحرق رغبة للوصول الى الدير · قليل من الماء في حوض طبيعي نخلات قليلة ، كوخ حجري وبعد قليل صليب خشبي مركز على الصخور · وبغتة رفع طعمة ذراعه وصرخ : « الدير (٢) » ·

تحتنا وعلى امتداد مكشوف بين جبلين ظهر دير سيناء الشهير محاطا بالجدران العالية · كنت تواقا لهذه اللحظة ولكن ما أن جنيت ثمار هذا

---

(١) لنا ان نتصور من هذه الترجمة ما يصيب الشعر عند نقله عبر لغتين : الكلام المثبت هنــا هو ترجمتي للترجمة الانكليزية ولكي يكون القــارىء العربي في الصورة الصحيحة نشير الى انها ابيات طرفة بن العبد في وصف الناقة . وهي :

واني لامضــي الهم عنــد احتضاره	بموجاء مــرقــال تــروح وتغتدي
امــون كالــواح الاران نصــأتهــا	على لاحــب كانــه ظهــر برجــد
لها فخذان اكمــل النحض فيهمــا	كانهمــا بــابــا منيــف ممــرد
لهــا مــرفقــان افتــلان كانمــا	امــرا بسلمتــي دالــج متشــدد
كقنطــرة الــرومي اقســم ربهــا	لتكتنفــن حتــى تشــاد بقــرمد

(٢) بالعربيــة .

الجهد الطويل حتى بدأت أحس بفرح هادىء دون صخب . لم أوسع خطاي . ولوهلة أحسست بدافع يدعوني للعودة ، ووجدت في المتعة القاسية في حدها الاقصى ، متعة عدم جني ثمرة رغبتي والتمتع بها .. ولكن بغتة هبت نسمة دافئة تحمل أريج الاشجار المزهرة ، وانتصر الانسان فيّ فتقدمت .

لقد صار في وسعي الان أن أميز ملامح الدير بوضوح أكبر . جدرانه وأبراجه وكنيسته وشجرة السرو . وصلنا الى حديقة الراهب التي تقع خارج الجدران . مددت نفسي الى حافة السياج فرأيت أشجار الزيتون والبرتقال والجوز والتين مع أشجار لوز مقدسة هائلة وكلها تلتمع في ضوء الشمس هنا في قلب الصحراء ! مع الدفء اللطيف والعبير وصرير الحشرات الصغيرة كانت هنا الجنة !

تمتعت بهذا الوجه للرب لفترة طويلة ، الوجه المرح الذي يحب الناس والمصنوع من التراب والماء والعرق البشري . خلال الايام الثلاثة الماضية كنت أواجه وجهه الاخر : الوجه الرهيب القاتم المصنوع من الغرانيت فقط . لقد قلت لنفسي ان هذا (النار التي تحرق والغرانيت القاسي بما لا يسمح للرغبات البشرية ان تنقش عليه) هو الرب الحقيقي . ولكن الان وأنا أنحني على السياج وأتطلع الى الحديقة المزهرة أتذكر بانفعال قول الناسك : « الله رعشة ودمعة لطيفة » .

يعلن بوذا : « هناك نوعان من المعجزات ، معجزات الجسد ومعجزات الروح : وأنا أومن بالثانية لا بالاولى » . ان دير سيناء معجزة للروح . مبني حول بئر وسط الصحراء الوحشية ومحاط بقبائل نهابة تدين بدين مختلف وتتكلم لغة مختلفة ، وظل هذا الدير أربعة عشر قرنا محصنا كالقلعة يقاوم القوى الطبيعية والبشرية التي تحاصره . وفكرت بفخر ان الضمير البشري الاسمى موجود هنا ، الفضيلة البشرية هنا قد أخضعت الصحراء .

لم أستطع كبح ابتهاجي الا بصعوبة . أنا ، هنا ، بين الذرى التوراتية وعلى هضاب العهد القديم المنبسطة ! الى الشرق جبل المعرفة حيث طمر موسى الثعبان النحاسي . والى الوراء ارض العمالقة وجبال العموريين (١) والى الشمال جبال كيدار وأدوم وتيمان التي تصل الى صحراء مؤاب (٢) . والى الجنوب رأس فران والبحر الاحمر . واخيرا الى الغرب سلسلة جبال

---

(١) شعوب سامية متعددة عاشت في العراق وسورية وفلسطين خلال الالف الثالث والالف الثاني قبل الميلاد .
(٢) المؤابيون شعب سامي قديم .

سيناء والقمة المقدسة التي تكلم موسى من فوقها مع الله ، وعلى مبعدة قمة القديسة كاترين • كانت حديقة الدير تتلامع بالشمس والثلج واشجار الزيتون تحف اوراقها بهدوء واشجار البرتقال تتوهج بخضرتها الزاهية واشجار السرو تسمو متفردة سوداء وشاهقة • والعبير المتصاعد من اشجار اللوز المزهرة يفوح بطيئا ومنتظما ، كأنفاس الله ؛ جاعلا منخريك وعقلك ترتعش غبطة •

كيف استطاع هذا الدير ـ القلعة ، فعلا ، ان يقاوم هبات نسيم الربيع الفاتنة هذه ؟ وكيف ، عبر القرون ، تماسك عن التهاوي الى الارض ذات ربيع ؟

□

دخلت الدير من بوابة الحصن العالية • وسط باحة واسعة كانت الكنيسة والى جانبها جامع صغير بمئذنة نحيلة • هنا ، اخيرا ، اجتمع الهلال والصليب • وحول الباحة حجرات مغطاة بالثلج ومتلامعة بياضها الناصع ؛ وكذلك اجنحة الزوار ومخازن المؤن • كان هناك ثلاثة رهبان يتشمسون • وقفت طويلا وانا استمع اليهم باستغراق ، كان لكلماتهم صدى واضح في صمت الهواء • وكان كل منهم مهتما بأن يتكلم ويريح باله • احدهم كان يتحدث عن المعجزات التي رآها في امريكا ـ سفن بخارية ، ناطحات سحاب ونساء واضواء راهية في الليل ، وتحدث الاخر عن تحمير الخروف على السفود في مسقط رأسه والثالث عن معجزات القديسة كاترين ، كيف اخذها الملائكة من الاسكندرية وجلبوها الى هنا على قمة الجبل وكيف انك تستطيع الى الآن ان ترى آثار جسدها على الصخور •

صعدت البرج لكي استطلع الجوار • ورآني راهب شاب شاحب فركض يرحب بي واذا به في الثامنة عشرة من العمر وكريتي ، ولان الشمس قد لوحته فان الزغب الاجعد الكثيف على خديه كان اشقر كستنائيا شفافا • وفيما نحن نتحدث عن موطننا البعيد ظهر رجل عجوز جميل ومسالم يقرب عمره من الثمانين اقترب منا لاهثا مقطوع الانفاس • ولان احدى قدميه قد صارت في القبر لم تعد لديه القوة لان يرغب في خير أو شر • كانت احشاؤه ، كما يرغب بها بوذا ، خاوية •

جلسنا ، نحن الثلاثة ، على مقعد طويل في الشمس • واخرج الشاب كمشة من التمر من تحت قميصه وقدمها لي وهي ما تزال مليئة بحرارة جسده • ولمس العجوز ركبتي وبدأ يحكي لي كيف بني الدير وكيف صمد طوال قرون عديدة ، وبدت لي قصة الدير ، وانا جالس في الشمس بين الجبال ... طورية ، قصة بسيطة وحقيقية كأية قصة خرافية •

« الامبراطور جوستنيان بنى الدير حول البئر التي كانت بنات يترو يردنه لسقي غنمهن ، وبالضبط في موقع العليقة التي التهبت بالنار ولم تحترق • وارسل جوستنيان مئتي عائلة من بونتوس ومصر للاقامة قرب الدير وخدمته وحمايته وليكونوا خدمه • بعد قرن جاء محمد • زار جبل سيناء وما تزال آثار خف ناقته محفوظة على بلاطة من الغرانيت الاحمر • وقد استقبله الرهبان بحفاوة كبيرة مما ابهجه وارضاه – فلتتقل عظامه في جهنم – وجعله يمنح الدير امتيازات عظيمة • وهي مكتوبة بخط كوفي على جلد الرو (١) وقد وقع عليها براحة كفه اذ لم يكن يعرف الكتابة طبعا • وتقول الامتيازات : « اذا التجأ راهب من سيناء في السهل او الصحراء ، في الجبال او في كهف فسأكون معه وسأحميه من كل اذى • سأدافع عن قاطني سيناء حيثما كانوا – في البر والبحر في الشرق او الغرب ، في الشمال او الجنوب • ولن يكون عليهم ان يدفعوا جزية ولن يستدعوا للتجنيد او لدفع الضرائب ولن يدفعوا عن محاصيلهم عشرا • وستخيم اجنحة الرحمة فوق رؤوسهم ••• » •

وبينما كان العجوز يتكلم ، قام صوته البعيد عن اي اتصال انساني ، باحياء الجبال والجدران البيزنطية المحيطة بي ، وامتلأ الجو بالقديسين والشهداء • وراح اليافع الكريتي بجانبي يستمع الى الاسطورة الاعجازية بفم فاغر وهو غارق في النشوة • تحتنا في الباحة كان الرهبان قد خرجوا من حجراتهم لوزن القمح الذي جلبه العرب • وكان باب المطبخ مفتوحا واستطعت من خلاله ان ارى مائدة طويلة محملة بسرطانات بحرية ضخمة وحمراء ، وراهبا شاحبا متلفعا ببطانية بنية يرسم محارة بحرية كبيرة •

قال العجوز وهو يضحك : « هذا هو الاب باكوميوس • انه نصف مجنون• هذا الاهبل المسكين يرسم صورا » •

قلت وانا راغب في الدفاع عن الفنانين جميعا : « الرسول لوقا كان رساما ايضا » •

« انها غواية كبيرة يا بني – فليبعدك الله عنها • يجب ان تكون رسولا لكي تستطيع المقاومة » •

كان على حق • فسكت • نهضت ونزلت الى الباحة • كان الرهبان يحملون الثلج ويلعبون به كالاولاد • لقد كانوا مسرورين لان الثلج قد هطل

---

(١) نوع من الايائل .

فذلـك يعني ان الصحراء ستعشب وان الاغنام والماعز سوف تأكل والناس سوف يحصلون على كفايتهم من الخبز ٠

جاء عدد من العبيد وجلسوا عند جدار الدير ٠ وراحوا يدخنون ويؤشرون ويتحادثون بأصوات مرتفعة ٠ وكان بينهم بعض النساء القذرات الحافيات متلفعات بأرواب سوداء ، وشعورهن مدفوعة فوق جباههن على هيئة الكعك مثل قربوس السرج ، ووجوههن مغطاة من انوفهن وما تحت بسلاسل دقيقة في نهاية كل منها اصداف وقروش فضية صغيرة ٠ فتحت كل امرأة رداءها واخرجت منه طفلا وضعته على الحجارة امامها ٠ كان الجميع ينتظرون ان يظهر الرهبان ويلقوا لهم الحصص اليومية : ثلاثة ارغفة صغيرة مـدورة لكل رجل ، ورغيفين لكل امرأة وطفل ٠ والقاعدة هي ان يحضروا شخصيا لتلقي هذا الطعام ولقد غادروا خيمهم منذ ساعات لكي يصلوا في الوقـت المناسب ٠ غير ان هذه الارغفة الصغيرة لا تسد جوعهم ولذا فانهم يجمعون الجنادب (١) التي يجففونها ويطحنونها ثم يعجنونها ليصنعوها خبزا ٠

تأثرت كثيرا وانا ارى هؤلاء الاخوة البعيدين ٠ قرونا وهم يحيطـون بهذه الاسوار البيزنطية ، والارغفة الصغيرة (المعمولة في معظم الاحيـان من النخالة) تلقى اليهم كالصخور ٠ انهم يعيشون ويموتون بتهديدهم للدير ، واليوم تماما كما في ايام يترو البنات هن اللواتي يرعين الاغنام ٠ لا أحد يزعجهم ٠ حين يقع شابان في الحب يتسللان سرا ويذهبان الى الجبل ٠ يقوم الشاب بالعزف على الناي والفتاة بالغناء دون ان يلمس احدهما الاخر٠ ثم ينزل الفتى فيلقي ببرنسه عليها ويغطيها ٠ ويأتي والد الفتى وكذلك يأتي الشيخ ٠ يمَسك الابوان بسعف نخل ويقسمانه الى قسمين ٠ وعندها يقول والد الفتاة : « أريد الف ليرة (٢) مقابل ابنتي » ٠

ويهتف الشيخ : « الف ليرة ! لكن ابنتك تستحق الفين ٠ والعريس راغب في دفع هذا المبلغ ٠٠ وعلى اية حال من اجل خاطري اخفض له خمسمئة لـــيرة ٠

ويجيب الاب : من اجل خاطر الشيخ اتنازل عن خمسمئة وفي الوقـت ذاته يكون الاقارب قد توافدوا واحدا بعد الاخر وجلسوا متربعين امام الخيمة٠ وعند هذه المرحلة ينهضون :

ـ خفض له مئة اخرى من اجل خاطري ٠

---

(١) والجــراد .

(٢) هو يذكر Pound وقد تكون جنيها او دينارا . أنا استخدم هنا الليرة كوحدة نقــدية .

ـ ومئة اخرى • يقول آخـر •
ـ وخمســــين •••
ـ وخمسة وعشرين اخرى ••
الى ان يتم تخفيض المبلغ الى ليرة واحدة •
وفي هذه اللحظة تبدأ النسوة اللواتي كن يطحن القمح في زاوية بالزغردة « لو •• لو •• لو •• لو •• » •
وينهض والد الفتاة •
« ومن اجل خاطر النساء اللواتي يطحـــن القمـــح اقدم ابنتي لقاء نصف لـيرة •
يأكلون ويشربون ويرقصون مساء العرس باذلين كل ما يملكونه •
وهكذا استمرت عادات الصحراء دون تغيير طوال آلاف السنين •

□

جاء الكريتي الشاب وقال لي : « الآباء المقدسون ينتظرونك في قاعـة الاستقبال • فتفضل » •

ما يقرب من عشرين راهبا كانوا يجلسون في القاعة الكبيرة التي يتم فيها استقبال الضيوف ، راحوا يحدقون الي بفضول • كان علي ان اقبل ايديهم جميعا ولكن لوجود كثيرين منهم قررت ان ذلك سيكون مملا فلم اقبل الا يد رئيس الدير • كان يجلس في الوسط نحيلا وقاسيا دون ان يتكلم • ومـــرة اخرى القهوة وملعقة المربى وكأس من خمر التمر والكلمات اللطيفة العريقة ـ من اين انت ؟ من انت ؟ اهلا وسهلا !

الرئيس ، شجرة السنديان العتيقة المبخرة والمفحمة بصواعق الله ، كان ينظر الي لكنني كنت واثقا من انه لا يراني • بدأت عيناه تغيمان • ما عادتا تميزان العالم المرئي بوضوح ، كان ينظر الي ويرى وراء كتفي مدنا كبيرة : الـ « عالم » المتمرغ في الرذيلة والخيلاء والصفاقة والموت •
قلت له انني امر في ازمة واستأذنت في المكوث في الدير عدة ايام ريثما تستقر روحي وتصل الى قرار •

وسألني الرئيس : « هل ترغب في ان تجد الله » • وادركت انه قد رآني الان للمرة الاولى ، اما قبل ذلك فكان ينظر الي فقط •
واجبته : « اريد ان اسمع صوته • اريد منه ان يدلني على اي طريق اختار • فهنا ، في الصحراء فقط ، تستطيع الروح ان تسمعه » •
وقال الرئيس : « الاصوات كلها يمكن ان تسمع هنـا في الصحراء • خاصة صوتان من الصعب الفصل بينهما : صوت الله وصوت الشيطان •

فانتبه يا بني » ٠

دخل راهبان الى قاعة الاستقبال ليريا الحاج الجديد ويحيياه ٠ كان اولهما المسؤول عن الضيافة ، وهو شخص بدين ذو لحية جعداء وعينين زرقاوين ضاحكتين : وعمله ان يعتني بالغرباء ٠ اما الثاني فله ابتسامة حزينة ساخرة ، طويل له شاربان ولحية وحاجبان ٠٠ وكلها بيضاء كالثلج ، وكفان طويلتا الاصابع لونهما ابيض ايضا ٠لم يكلمني بل اكتفى بالتحديق الي وعيناه ترتعشان وتضحكان ٠ تضحكان أم تسخران ؟ في هذه اللحظة لا اعرف ٠ بعد ايام سوف اعرف ٠

نهض الرئيس ٠ مد لي يده وقال : « فليأذن الله بأن تجد في الصحراء ما كنت تبحث عنه عبثا في العالم » ٠

ركض راهب ليفتح الباب له ٠ ومشى بخطوات ثقيلة ثم اختفى ٠

وجاء الي مسؤول الضيافة وقال : « حان وقت الاكل ٠ تعال الى حجرة الطعام من فضلك » ٠

كان الرهبان جالسين حول مائدة طويلة والرئيس في مقدمتها ٠ وجلب الراهب الذي يقوم بالخدمة وجبة الطعام ـ سرطانات مسلوقة وخضراوات مع خبز وقدح من الخمر لكل شخص ٠ وبدأ الآباء يأكلون ٠ لم يتكلم احد ٠ وصعد القارىء منبرا صغيرا وبدأ يرتل تعليقه على درس اليوم : عودة الابن الضال ٠

مرات عديدة وفي عدة اديرة عرفت هذا الايقاع الطقسي للطعام ٠ بهذه الطريقة تأخذ الوجبة اهميتها العظيمة والروحية الملائمة ٠ قال الرابي مرة : « بالاكل يحرر الانسان الفاضل الله الموجود في الطعام » ٠

ورتل القارىء بتنغيمات اناقته البيانية عن الابن الضال : عذاباته وخزيه بعيدا عن بيت ابيه ، وكيف كان يأكل بذور الخروب مثل الخنزير وكيف انه ، ذات يوم ، لعجزه عن التحمل اكثر من ذلك ، عاد الى أبيه ٠٠٠

ووسط هذا الجو العميق من الطاعة المسيحية رحت افكر لنفسي ٠ في دير اخر اكثر انسجاما مع قلق العصر الروحي وعصيانه كانوا سيقرأون النتيجة الفاخرة التي صاغها معاصر خائف لهذه الامثولة ٠ يعود الضال متعبا ومهزوما الى البيت الابوي الهادىء ٠ وفي تلك الليلة التي اضطجع فيها على الفراش الناعم لكي ينام ، يفتح الباب بهدوء ويدخل اخوه الاصغر ٠ يقول : « اريد ان ارحل ٠ لقد صار بيت ابي سجنا خانقا ! » ويسر الاخ العائد لتوه مهزوما لسماع هذا الكلام ٠ يعانق اخاه ويبدأ بتوجيه النصح له حول ما يجب ان يفعله والاتجاه الذي عليه ان يسلكه وهو يحثه على ان يثبت انه اكثر

شجاعة وثقة بالنفس مما كان مو ، وعلـــى ان لا يتنـــازل بالعـودة الى « الاصطبل » الابوي (هكذا يسمي بيت ابيه) • ويرافق اخاه الى البـــاب ويهز يده وهو يفكر ان اخي سيكون أقوى مما كنت ولن يعود •

□

كيف سأستطيع نسيان الليلة الاولى التي قضيتها في حصن اللـــه الصحراوي ؟ اصبح الصمت مليئا بالاشباح ، وتحلق من حولي وكأنني قـد سقطت الى قاع بئر جافة مظلمة • ثم تحول بغتة الى صوت وبدأت روحي ترتعـــد •

« ما الذي تريده هنا في بيتي ؟ أنت لست نقيا ولا شريفا • نظرتك تطير بهذا الاتجاه في البدء ثم في ذلك الاتجاه • انني لا اثق بك • انت مستعد للخيانة في اية لحظة • ايمانك خليط دنس من الالحادات المتعددة • انك لا تعرف ان الله يجلس منتظرا في نهاية كل طريـق ، ستظل على عجلـــة دائما ، وستفقد شجاعتك دائما في منتصف الطريق وترجع لتسلك طريقـا اخر • الناس العاديون لا يرون السيرانات (١) ولا يسمعون اغنيات في الجو • يجلسون عميانا وطرشانا ، وهم محنيون في قبضة الارض وفي سبيلهـا • ولكن المصطفين ، القباطنة ، يسمعون سيرانة في اعماقهم – في روحهم – فيتبعون صوتها بشجاعة • ما الذي تظن انه يجعل للحياة قيمة غير ذلك ؟ اما القباطنة Captains المساكين المهمومـــون فيسمعون السيرانة ولا يصدقون • يتحصنون وراء الحذر والجبن ويظلون طوال حياتهم وهم يزينون الحجج المؤيدة والحجج المعارضة بميزان تحليلي دقيـــق • والله ، الذي لا يعرف ان يلقي بهم ، والذي لا يرغب بهم زينة لجهنم او دنسا للجنة يأمر بأن يظلوا مقلوبين في الهواء متأرجحين بين الفساد والطهر » •

توقف الصوت • وظللت انتظر ووجنتاي ملتهبتان احمرارا من الخجل والغضب • ثم من مكان ما – اتساءل ان كان من الصحراء نفسها – اكتسبت القوة لأرفع رأسي احتجاجا وعصيانا •

– لقد وصلت الى النهاية • وفي نهاية كل طريق وجدت الهاوية •
– لقد وجدت عجزك عن ان تتابع • الهاوية هي الاسم الذي نعطيه لكل ما لا نستطيع عبوره • ليست هناك هاوية • ولا نهاية للطريق • هناك روح

---

(١) السيرانة Siren : واحدة من مجموعة كائنات اسطورية (عند الاغريق) لها رؤوس نسوة واجساد طيور ، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم مورد الهلاك (المورد)

الانسان فقط وهي التي تسمي كل شيء بما ينسجم وشجاعتها او جبنها . المسيح وبوذا وموسى ، كلهم ، وجدوا الهاوية . لكنهم نصبوا جسورا وعبروا من فوقها . ومنذ قرون الى الان وجماهير البشر تعبر وراءهم .

- بعض الناس يصبحون ابطالا بأمر الله . واخرون بكفاحهم . انــا أكافــح .

وتفجرت ضحكة مخيفة من حولي وفي اعماقي .

- ابطال ؟ ولكن ان تكون بطلا يعني ان تلحق نفسك بايقاع منظم يتخطى الفرد . اما انت فما تزال مليئا بالقلق والكسل . ولعجزك عن اخضاع الفوضى التي تعتمل في داخلك وعن خلق الـ « كلمة » المتكاملة الواحدة تنتحب بقناعة ذاتية : «الصيغ القديمة خانقة ...» ولكن لو انك تقدمت ابعد من ذلك في الفكر او في الفعل لاستطعت ان تصل الى الحدود البطولية التي تتمكن فيها عشرة ارواح مثل روحك ان تجد مكانا لها وان تعمل . ولو انك تلقيت دوافعك من رموز سماوية معروفة لاستطعت ان تدفع نفسك في تجارب دينية خاصة بك ، وان تعطي (هذا ما تبحث عنه لكنك لم تكتشفه بعد) صيغة معاصرة للعواطف القديمة نحو الله والانسان .

- انك ظالم . قلبك لا يعرف الشفقة . كنت اسمعك من قبل ايها الصوت القاسي - كلما وقفت على مفترق طرق لأختار سبيلي .

- وستظل تسمعني دائما كلما هربت .

● لم اهرب ابدا . انني اتقدم دائما متخليا عما احب وقلبي ينشطر نصفــين .

- والى متى ستظل تفعل ذلك ؟

● الى ان اصل الى ذروتي . هناك سأرتاح .

- ليست هناك ذروة . هناك مرتفعات فقط . لا راحة . بل كفاح فقط . لم انت مندهش ؟ ولم تحدق هكذا بعينين جاحظتين ؟ ألم تعرفني بعد ؟ تظن انني صوت الله . أليس كذلك ؟ لا . انا صوتك انت . انني اسير معك دائما ولا اتركك ابدا . اسفي عليكلو انني تركتك لنفسك ! ذات مـرة ، تلك المرة التي قفزت فيها غاضبا من صلبك وسمتني اسما احتفظـت به لأنني احببته . انا (مرافقتك الجوابة - النمرة) .

توقف الصوت . ازددت ثقة حين عرفته . لم علي ان اخاف من هـذه النمرة ؟ اننا نرحل معا دائما . لقد رأينا كل شيء وتمتعنا معا بكل شيء . ونحن ، الاثنين ، قد أكلنا وشربنا في اراض غريبة ، وقاسينا معا ، ومعـا استمتعنا بالمدن والنساء والافكار . وحين نعود الى حجرتنا الهادئة محملين بالغنائم ومثخنين بالجراح ، تشق هذه (النمرة) طريقها بمخالبها الـى

قمة راسي حيث وجارها • وتمدد نفسها باحكـــام حول جمجمتي وتنشب براثنها في دماغي ، وكل منا ، دون لجوء الى الكلمات ، يتأمل في ما رأيناه ويتوق الى ما يجب ان نراه •

نبتهج لأن العالم المرئي والمخفي كله لغز عميق مبهم ـ لا يمكن ادراكه ويتجاوز الفكر والرغبة واليقين • نتبادل الاحاديث ، انا ومرافقتي الجوابة النمرة ، ونضحك لاننا قاسيان ولطيفان وقلقان • نضحك من عدم استقرارنا على الرغم من اننا واثقان اننا ذات مساء سوف نتحول الى كمشة مـــن التراب ونستقر •

يا روح الانسان ، ايتها النمرة ، يا مرافقتي الجوابة : ما امتع ان نحيا ونحب الارض وان ننظر الى الموت دون خوف •

نهضت في الفجر تواقا الى السير في الصحراء • كانت نجمة الصبـاح ما تزال ظاهرة والضوء لخافت قد انتشر على ذرى الجبال • استيقظت طيور الحجل، والجبل كله بقمته المقدسة التي نزل عليها يهوه ، تردد اصداء القوقأة • صفت السماء وذابت الثلوج المتراكمة في الاسفل وشربتها الرمال ، ولكن الثلوج في إعالي الجبال ما تزال تتلامع بلونها القرنفلي تحت الاشعـة الاولى للشمس • لا صوت ، لا دليل على الماء ، لا عشبة خضراء • عـزلة وحشية مقتصرة على الرمل والله •

لا شك ان نوعين من البشر ، فقط ، يستطيعان ان يتحملا العيش في صحراء كهذه : المجانين والانبياء • ان العقل يتداعى هنا ليس من الخوف بل من الرهبة المقدسة . قد ينهار احيانا ، فيبدد طمأنينة الانسان.وقد يندفـع احيانا اخرى عاليا فيدخل السماء ويرى الله وجها لوجه ويلمس هدب ردائه اللاهب دون ان يحترق ، ويسمع ما يقوله الله ثم يأخذ ذلك ويلقيه في وعي الناس • في الصحراء فقط نرى ولادة هذه الارواح العنيفة التي لا تنضبط والتي تثور عاصية رافضة حتى ضد الله ذاته وتقف امامه دون خوف وعقولها من المادة البهية نفسها التي لحاشية الله • يراها اله فيحس بالفخـر لأن نفسه لم يتبدد فيها • ولم يتنازل الله كي يصبح انسانا •

نبيان كانا يسيران في الصحراء وهما يتخاصمان • ادعى الاول ان الله نار وادعى الاخر ان الله قرص عسل • ورغم ان صوتيهما قد بحا من الصراخ فان احدا منهما لم يستطع ان يكسب الاخر الى صفه •

واخيرا اشار الاول غاضبا نحو الجبل المواجه له وقال : « ان كنت اقول الحق فان الجبل سيرتجف » •

حين قال ذلك بدأ الجبل بالرجفان •
فأجاب النبي الثاني باحتقار : « هذا ليس برهانا » •
ـ ان كنت اقول الحق سينزل من السماء ملاك يغسل قدمي •
وحين قال ذلك نزل ملاك من السماء وانحنى بذل وبدأ يغسل قدميه •
لكن الاخر هز كتفيه وقال : « هذا ليس برهانا » •
ـ ان كنت اقول الحق سيهتف الله : هذا صحيح •
حين قال ذك سُمع من السماء صوت يهتف : « هذا صحيح » •
لكن النبي الثاني اكتفى بهز كتفيه مرة اخرى والقول : « هذا ليس برهانـــا » •

في تلك اللحظة كان اليشاع مارا بالسماء وحين رأى الله يضحك اقترب منه وسأله : لم تضحك يا رب ؟

فأجاب الرب : لانني مسرور يا اليشاع • على الارض تحتي ارى رجلين يتحدثان وهما ابناي الحقيقيان » •

وفيما انا اسير كنت افكر باعجاب بالنبيين العنيفين • وبدا لي انني ما ازال قادرا على رؤية آثار خطاهما على الرمل • سعيد هو الاب الذي يستحق الحصول على أبناء كهؤلاء • وقلت لنفسي ايضا : سعيدة هي الصحراء التي رأت اسدين كهذين يمشيان عليها وهما خارجان من ادغال الله •

في اليوم التالي صعدت مع الاب اغابيوس والاب الرسام باكوميوس الى القمة المقدسة ، الحصن الشفاف الذي فيه رأى موسى ربه « وجهـــا لوجه » وتحدث اليه • كان الخط الافقي المفاجيء يبدو عن بعد مثل عــرف خنزير بري • يسأل اللوح : « ما الذي تساوينه ايتها الجبال الباقية ، ايتها الجبال المغطاة بالعشب والقطعان والاجبان ؟ جبل واحد ، واحد فقط هــو الجبل الحقيقي ، جبل سيناء الذي نزل عليه الله وهو يقيم الان فيه » •

يهوه ، شيخ بني اسرائيل المخيف ، يجلس متربعا على قمــة هذا الاولمب العبري ، يتربع على قمته كالنار جاعلا الجبل يتبخر • لا احـــد يستطيع لمسه ولا احد يستطيع رؤيته وجها لوجه • كل من رآه مات • يهوه يعرف بالنار • كان يلتهم كل ما كان العبرانيون يلقون به الى اللهيـــب • وفوق كل شيء اخر كان يحب التهام اطفالهم •

حين صعدنا الـ ٣١٠٠ درجة المؤدية من سفح الجبل الى قمته مــررنا بباب منخفض مقوس محفور في الصخور • في الازمنة التي كان الناس يخافون فيها لمس القمة كان يجلس هنا من يتلقى اعترافاتهم • كل من يتسلق جبل الرب يجب ان تكون لديه يدان نظيفتان وقلب طاهر ، والا قتلته القمــة •

اليوم يبدو الباب مهجورا ، تستطيع الايدي الملطخة والقلوب الخاطئة ان تمر دون خوف ٠ فالقمة لم تعد تقتل ٠

مررنـــا ٠

فوقنا كان الكهف الذي رأى فيه النبي اليشاع رؤياه العظيمة ٠ دخل الكهف فأرعد صوت الرب : « غدا تذهب وتقف امام الرب ٠ ستهب عليك ريح قوية عاتية تقتلع الجبال وتحطم الصخور لكن الرب لن يكون في الريح ٠ وبعد الريح ستأتي هزة ارضية لكن الله لن يكون في الهزة ٠ وبعد الهزة نار لكن الرب لن يكون في النار ٠ وبعد النار نسيم عليل بارد ٠ وهناك يكون الـــرب » ٠

هكذا تأتي الروح ، بعد العاصفة والهزة والنار ، نسيما عليلا باردا وهكذا ستأتي في ايامنا ايضا ٠ اننا نمر في فترة الهزة ، والنار تقتــرب وفورا (متى ؟ بعدكم جيل ؟) سيهب النسيم العليل البارد ٠

وفوق هذا الكهف وقف باكوميوس واشار الى رف صخري : « هنا وقف موسى يوم حارب العبرانيون العمالقة ٠ وطالما ابقى ذراعه مرفوعة عاليا كان العبرانيون ينتصرون لكنه حين تعب واخفضها تحول العبرانيون الــى دهماء فجاء قسان هما ، هرون وحور ، وثبتا ذراعي موسى مكانهما الى ان كان اخر الاعداء قد « طردوا بحد السيف » ٠

كانت لهذه الاساطير في روح باكوميوس الساذجة اهمية لا مثيل لها ٠ كان يحدق مدهوشا بعينـــين جاحظتين وكانه يحكـــي عن غيلان مقدسة ـ الديناصورات والبهاضم (١) ـ ما تزال تجوب الجبال ويمكن ان يراها كل من كان قلبــه طاهرا ٠

كان الاب اغابيوس النحيل الهزيل يقودنا في الطريق برشاقة الشباب ٠ لم يكن يتكلم بل كان تواقا الى الوصول للقمة لانزعاجــه من ثرثرة الاب باكوميـــوس ٠

حين وضع قدمه على القمة المقدسة اضطرب قلبي ٠ لم يسبق لعيني ان تمتعتا بمشهد اكثر مأساوية وروعة ٠ تحتنا البتراء العربيـــة بجبالهـــا الارجوانية العميقة وعلى مبعدة التخوم الزرقاء لبلاد العرب السعيدة والبحر لاخضر البراق يتلألأ مثل الفيروز ٠ والى الغرب الصحراء التي ينطلق البخار

---

(١) البهضم بهيمة منقرضة من الدرداوات ــ المورد .

منها تحت الشمس ووراءها بعيدا في خلفيتها جبال افريقيا • وفكرت : هب تحد روح الانسان الواثق او اليائس سعادتها القصوى •

دخلنا كنيسة صغيرة على القمة • وبدأ باكوميوس يحك الجدران بأظافر يديه باحثا عن بقايا اللوحات الجبصية القديمة • واشار بلهجة المنتصر الى الاعمدة البيزنطية الصغيرة للنافذة ودعاني بفخر لأرى رمزي الروح القدس : حمامتان بيزنطيتان بمنقارين متصلين • كان يجهد نفسه لاكتشاف الحياة القديمة واعادة بنائها دون ان يسمح للماضي بالعبور • هنا على القمة ، حيث هبط الله مثل لهب متقد ، كانت روح المنقب الاثري تزعجني • التفت الى الراهب وسألته : « كيف تتصور الله يا أب باكوميوس ؟ » ألقى علي نظرة متحيرة وبعد ان فكر قليلا أجاب : « مثل الاب الذي يحب ابناءه » فصرخت : « يا للعار ! هنا على جبل سيناء تجرؤ على التحدث عن الله بهذه الطريقة ؟ ألم تقرأ الكتاب المقدس ؟ الرب الاله (نار مهلكة) » •

ـ لم تقول لي ذلك ؟
ـ لكي تدعها تحرق هذا كله ـ اعني الماضي• اتبع نار الله يا باكوميوس ولا تجمع الرماد •

وفتح الاب اغابيوس شفتيه وقال : « استمع لنصيحتي وتوقف عن التعامل مع نفسك فوق طبيعة الله • لا تلمس النار فتحترق • ولا ترغب في رؤية الله لئلا تعمى » •

وفتح الحقيبة التي كان يحملها على ظهره فأخرج زوجا من الحمام المقلي وسرطانين بحريين وكمية من الجوز والتمر وحقا خشبيا مليئا براكي التمر ورغيفا كبيرا من خبز القمح •

ـ « الطعام جاهز ! » •

بغتة ادركنا كم كنا جائعين • مددنا الطعام على نضد صخري في النقطة التي يقال ان آثار قدمي موسى ما تزال ظاهرة ، وهو منخفض شبيه بتابوت طفل صغير • واسلم باكوميوس نفسه للحمام المقلي بشهية منفتحة ناسيا الحمامتين اللتين تتبادلان القبل والحمامات الحجرية • لم يسبق لي أن رأيت انسانا يشغل عينيه ويديه واسنانه بهذا الشره • حتى انه اخذ العظام الصغيرة المتبقية وكومها امامه وبدأ يمصمصها •

قلت له ضاحكا : « لقد عادت الحمامتان الى الحياة يا اب باكوميوس • ادخل الى الكنيسة وسترى انهما ما عادتا موجودتين » •

فقال باكوميوس : ولم تضحك ؟ كل شيء ممكن •

وهتف اغابيوس الذي لم يكن يهتم ابدا بشره الاخر : « نعم ! ولو ان

الروح القدس كان حمامة لاكلته ايضا ! » ثم رسم الصليب على نفسه وتطلع الى الصحراء وهو يتنهد ٠

وسألته : « لم تتنهد يا أب اغابيوس ؟ » وقد كنت تواقا لمعرفة المزيد عن هذا الراهب الصارم الذي تسلق الجبل بهذه الحيوية على الرغم من كبر سنه ٠

فاجاب : « وكيف استطيع ان لا اتنهد ويداي وقدماي ـ وقلبي ـ مغطاة بالوحل ؟ لقد حلت اخيرا الساعة التي يجب ان اقدم نفسي فيها امام الله ـ ولكن باية يد واية قدم واي وجه ؟ يداي ملطختان بالدم وقدماي موحلتان ٠ من سينظفها لي ؟

فقال باكوميوس ليريحه : « المسيح سيقوم بذلك يا أب اغابيوس والا فلم نزل الى الارض ؟ يجب ان تقول له : ها هي يداي وقدماي يا مسيحي فاغسلها » ٠

ضحكت ٠ أكان هذا عمل الله اذن ؟ ان يغسل اقدامنا ؟

وانزعج باكوميوس فسأل : « لم تضحك ؟ » ٠

اجبته : بعد اذنك يا أب باكوميوس ساجيبك بأمثولة ٠ ذات يوم كان يعيش ملك في الجزيرة العربية ٠ وكان داهية ، يجمع عبيده كل صباح قبل الفجر ولا يسمح لهم ان يبدأوا العمل قبل ان يأمر الشمس بالبزوغ ٠ وذات يوم جاءه حكيم اشيب وقال له : (الا تعرف ان الشمس لا تنتظر امرك ؟) ، (اعرف ، اعرف يا استاذنا العجوز ولكن قل لي اي نوع من الالهة لدينا اذا كان لا يستطيع ان يصبح اداة لي ؟) ٠٠٠ اتفهمني يا أب باكوميوس ؟

ولكن بينما كنت اتكلم كان باكوميوس قد اكتشف عظمة صغيرة عليها قليل من اللحم فراح يقضمها ولم يجب ٠ التفت الى اغابيوس لكي اغير الموضوع ٠

ـ كيف صرت راهبا يا أب اغابيوس ؟

ـ كيف صرت راهبا ؟ لم تكن رغبتي بل كانت رغبة الله ٠ حين صرت في العشرين من عمري تملكني توق كبير لان البس الرداء ٠ غير ان الشيطان وضع العوائق في طريقي ٠ اية عوائق ؟ ستسألني ٠ حسن ٠ مجرد هذه : كانت اموري تسير بشكل حسن وكنت اكسب مالا ٠ وماذا يعني كسب المال ؟ يعني نسيان الله ٠ كنت متعهدا ابني الجسور والبيوت والطرق وأكسب مالا وفيرا ٠ وكنت اقول لنفسي دائما : حالما اخسر اموالي سأذهب لاصبح راهبا ٠ وأشفق الله علي ٠ لعبت في البورصة وخسرت كل ما املك ٠ قلت : « الحمد لله ٠ قطعت حبالي ورحلت ٠ اتعرف كيف يقطعون حبال منطاد

فيرتفع للسماء ؟ هكذا تركت العالم » ٠

احمر وجهه الشـاحب ٠ لقد تذكر انه خلص نفسه من العالم وأحس بالسعـــادة ٠

ـ « وهكذا جئت الى هنا ٠ لم تكن لدي فكرة عن اين ساذهب ٠ لكـن الله فضله شامل ـ امسك بيدي وجلبني الى هنا ٠ جئت لكنني كنت ما ازال شابا وجسورا ٠ لا تنظر الي الان ٠ لقد شخت ، وذبت ، وتيبست كالزبيب ٠ في تلك الايام كان دمي ما يزال يضطرم في داخلي ٠ لم أكن استطيع الجلوس بيدين مطوقتين دون ان افعل شيئا ٠ لم تكن الصلاة تريحني فبدأت اعمل ٠ شققت طرقا ٠ الطرق التي سلكناها كلها من شغلي ٠ وشق الطريق هو العمل المحدد لي هنا ٠ هذا ما خلقت لأجله ٠ وان ذهبت الى الجنة فعلى الطريـــق التي شققتهـا » ٠

وضحك محاولا ان يسخر من آماله « بف !! الجنة ! أبهذه الطريقة يدخل الانسان الـى الجنة ؟ » ٠

كان باكوميوس ، الذي خدره الاكثار من الاكل ، نصف نائم وهو ملتف ببطانية ثقيلة ، سمع كلمات اغابيوس الاخيرة ففتح عينيه وقال بصوت عذب « ستدخلها يا اغابيوس ٠ ستدخل ٠٠ لا داعي للقلق » فضحك اغابيوس وقال : « انت لديك كل شيء على ما يرام بالتأكيد ٠ لا خوف على الاطلاق ، انك تمسك فرشاتك والوانك وترسم الجنة ثم تدخلها ٠ ولكن ماذا افعل انا ؟ انا ، يا سلام ! ان ابني وابني وابني من الخـارج للخارج ٠ علي ان اشق طريقا ملائما يصل الى بوابات الجنة والا فلن ادخل ٠ كل بما فعل » ٠ والتفت الي : « وماذا عنك ؟ » ٠

ـ انا ؟ انا فيها الان ٠ في خاطري ارى الجنة جبلا عاليا وعلى قمتـــه كنيسة صغيرة وخارج الكنيسة مقعد حجري وعليه حق من راكي التمـــر وحمامتان مقليتان وبعض الجوز والتمر ويرافقني شخصان لطيفان وكلنـا نتحدث عـن الجنة » ٠

لكن باكوميوس كان يرتعش ٠ شد البطانية على جسمه ونهض ٠ كانت شفتاه قد ازرقتا فانحنى وأمسك بحق الراكي وشرب ما تبقى فيه ٠

بحق الله دعونا نرجع ٠ سنتجمد ونموت هنا ٠

قال ذلـك وبدأ الهبـوط ٠

□

في تلك الليلة بدأت اقلب صفحات العهد القديم في حجرتي وانا وحيد

محتفظا بصورة الصحراء في اعماق ذاكرتي • لا شك ان الصحراء خالية الا من واحد • وهذا الواحد لا يسامح ولا يبتسم ولا يشفق • ليس الالم سيد الصحراء ولا الظمأ او الجوع او الاعياء وليس ، كذلك ، اي اسد جائع ولا الموت • الله هـو السيـد •

وبينما انا اقرأ في العهد القديم وصلت الى العليقة التي اشتعلت ولم تحترق ، وتصورت انني اعود الى دخول الوادي الرهيب الذي شقه يهوه بين الجبال لكي يعبره • بدا لي الكتاب المقدس كسلسلة من الجبال متعددة الذرى حيث نزل الانبياء المولولون مربوطين بالحبال ومتلفعين بخرق بالية •

وبينما انا منحن على الكتاب المقدس قافزا من قمة الى قمة وانا اقلب صفحاته تذكرت الفتاة التي حدثتني ذات مرة بشكـــل مؤثر عن المراهق المتورد « ذي الملامح الجميلة » الذي اختاره الله ملكا رغم معارضة البشر •

وملأ النبي الوقور صموئيل ، الذي اعترض فدعك بين يدي الله ، قلبي بالاسى • ولكي اخفف من أساي اخذت ورقة وبدأت اكتب • تلك هي وسائل الجبان التي تعودت ان الجأ اليها للتخفيف من احزاني :

ـ « صموئيـــل ! » •
كان النبي الوقور بحزامه الجلدي وأسماله المرقعة يحدق الى المدينة من عل فلم يسمع نداء الله • ووقفت الشمس على علو ذراع فوق الافق • وكان جيلغال الخاطيء يغمغم من تحت وهو محشور بين صخرتين حمروايين في جبل الكرمل بنخيله المشوق كالسيوف وتينه البري المثقل بالثمار •

« صموئيل » رن صوت الله مرة اخرى • « لقد شخت يا صموئيل يـــا خادمي الامين • الا تستطيع ان تسمعني ؟ » •

وارتعش صموئيل • وتقاطع حاجباه الكثيفان غضبا وارتجفت لحيته الطويلة المشعثة بعنف ورددت اذناه الاصداء كمحارتين • وصهلت اللعنة في احشائه كمهرة غير مروضة •

« لعنتي » جأر وهو يمد ذراعه النحيلة فوق المدينة التي كانت تضحك وتغني وتصخب كعش من الدبابير « لعنتي على كل من يضحك ، وعلى الاضحيات العاصية التي تلطخ وجه السماء ، وعلـــى المرأة التي تضرب قبقابها على حجارة الشوارع ! » •

الهي يا الهي ! هل انطفأت الصواعق في راحتك البرونزية لقد نفخت علتك المقدسة على الجسد النقي لمليكنا فسقط على الارض يرغي كالبزاق

ويفع كسلحفاة • لماذا ؟ لماذا ؟ ما الذي فعله لك ؟ انني اسألك ـ اجبني ، سلط الطاعون ، اذن ، على البشر كلهم ان كنت عادلا ، واستخرج بذور الرجال من اصلابهم وارشقه على الصخور ! » •

وأرعد الرب للمرة الثالثة : « صموئيل ! اهدأ يا صموئيل واصغ الى صوتي ! » •

بدأ جسد النبي يرتجف وحين انحنى ليستند على الصخرة الملطخة الدم ، حيث تذبح قرابين الله ، سمع صرخات الله الثلاثة دفعة واحدة • رفع ذراعية عاليا ونادي : « انا هنا يا رب » •

ـ صموئيل • املأ ابريقك بالزيت النبوي واذهب الى بيت لحم •

ـ ولكن بيت لحم بعيدة • وقرن من ضرب الارض في خدمتك قد يبس قدمي • امتط شخصا اخر يا الهي انا لم اعد استطيع •

ـ انا لا اكلم اللحم • هذا ما احتقر وارفض ان المس • انا اتحدث الى صموئيل !

ـ تكلم يا الهي • انا هنا •

ـ املأ ابريقك يا صموئيل بزيت النبوة واذهب الى بيت لحم • ودون ان تفتح فمك ، ودون ان تسمح لأحد بمرافقتك اقرع باب يسى •

ـ لم يسبق لي ان ذهبت الى بيت لحم • فكيف سأعرف باب يسى •

ـ لقد علمته ببصمة من الدم • اقرع باب يسوع • ومن ابنائه السبعة اختر واحدا •

ـ أيهم يا ربي ؟ لقد حسر بصري ولا استطيع ان ارى جيدا •

ـ حين تقابله سيخور قلبك مثل عجل • هذا هو الذي عليك أن تختاره • افرق شعره حتى ترى قمة رأسه وادهنهلتتوجه ملكا على اسرائيل ••• لقد تكلمت !

ـ لكن شاؤول سيعرف • وخلال عودتي سينصب لي فخا ويقتلني •

ـ وماذا يهمني ؟ انني لا اقيم وزنا لحياة خدمي • اذهب •

ـ لا • انا ارفض •

ـ امسح العرق عن وجهك يا صموئيل • وتحكم بفكيك فلا يصطكان ثم كلمني أنا ربك • انك تتأتىء يا صموئيل ! تكلم بوضوح •

ـ انني لا اتأتىء • لقد قلت انني ارفض أن أذهب •

ـ تكلم بنعومة وهدوء ! انك تزعق وكأنك خائف • لم ترفض ان تذهب ؟ انني واثق من أن صموئيل سوف يتلطف باجابتي • هل أنت خائف ؟

ـ لا لست خائفا • الحب يمنعني من الذهاب • فأنا الذي دهنت شاؤول ملكا على اسرائيل • لقد احببته اكثر من أولادي • ولقد نفخت روحي بين شفتيه الشاحبتين ، انها روح النبوة ، روحي ، التي جعلته شهيرا • انه جسدي وروحي ، لن اخونه •

ـ لم تصمت ؟ هل فرغ قلب صموئيل بهذه السرعة ؟
ـ يا رب • انك القادر على كل شيء • لا تلعب بي • اقتلني • لا خيار لك ـ اقتلني !
امتلأت عينا صموئيل بالدم • فتمسك بالصخرة وراح ينتظر •
وزأر قلبه مرة أخرى : « اقتلني ! اقتلني ! »
ـ « يا صموئيل » صار صوت الرب حنونا الان • كان يبدو وكأنه يستعطفه • لكن النبي العجوز ازداد عنفا وضراوة •
ـ اقتلني • اقتلني ! لا خيار لك !

لا جواب • عبرت الظهيرة وتحدرت الشمس • وظهر ولد داكن حافي القدمين • صعد الطريق واقترب من النبي مرعوبا وكأنه يقترب من حافة هاوية • وضع وجبة النبي المؤلفة من التمر والعسل والخبز وجرة من الماء في ظل صخرة ثم انصرف مسرعا بأنفاس لاهثة • ونزل الى المدينة وغاب في كوخ أهله المتواضع • وانحنت أمه عليه وهي تعانقه وسألته بصوت مرتجف : « أما يزال ؟ أما يزال ؟ »

فأجاب الولد : ما يزال • ما يزال يتصارع مع الرب •
غابت الشمس وراء الجبل • وظهرت نجمة المساء معلقة فوق المدينة الخاطئة كبذرة من نار • رأتها امرأة شاحبة من وراء حصيرة (١) النافذة فصرخت « ستسقط الان وتحرق العالم !!! » •

وراحت النجوم تعوم متلاعبة متوهجة فوق جدائل النبي الطويلة وهي تدور مذعنة على عجلات غير مرئية • وبينما كان يقف في وسطها مرتعدا اندفعت في شعره واصطدمت بصدغيه مثل حبات ضخمة من البرد •
وهمس مخاطبا : « يا رب •• يا رب » ولم يستطع ان ينطق بشيء اكثر من ذلك •

أخذ الجرة وملأها بالزيت النبوي وأمسك بعكازه ذي العقد وبدأ نزوله • كانت لقدميه اجنحة نامية ، وكانت قطرات الندى تتلامع على لحيته البيضاء كالنجوم • كان طفلان يلعبان عند عتبة أول بيت انطلقا هاربين منذ أن لمحا أسمال النبي المرقعة وعمامته الخضراء • وبدأ الصراخ : « انه قادم • انه قادم » •

وقبعت الكلاب في الزوايا واذنابها بين سيقانها • وخارت عجلة وهي

---

(١) حصيرة تسمح للنور والهواء بدخول الحجرة وترد عنهما اذى الشمس والمطر (المورد) •

تمد رقبتها على الارض ، وهبت دفعة من الريح القوية فعبرت المدينة من طرفها الاول الى طرفها الاخير • اوصدت الابواب ، ودعت الامهات أطفالهن وأدخلتهم من الشوارع • وراح صموئيل ، وهو يدق عكازه علـى الحجارة ، يتقدم بخطوات واسعة ليعبر وتمتم : « أحس كأن حربا معلقة فوق رؤوس البشر ، كأنه الطاعون أو الله » •

وظهر في الطريق راعيان يحمل كل منهما عصا طويلة • وحالما رأيـا النبي انبطحا على الارض • « مرني ان احطم جمجمتيهما يا رب • كلم قلبي! أنا مستعد » لكن لم يأت اي صوت يهدىء باله فعبرهما وهو يتلفظ بلعناته الثقيلة على بذور الانسان • كانت الشمس حامية والغبار يثور من تحـت قدميه ويلتف حوله مثل غيمة • واحس بظمأ مفاجىء فهتف : « يـا رب أعطني ما أشربه » « اشرب» أجابه صوت لطيف الى جواره ، صوت مثـل سقسقة المياه • التفت فرأى ماء يقطر من شق في صخرة ويتجمع في تجويف فيها • انحنى وابعد شاربيه ووضع فمه على الماء • فسرت البرودة حتـى كعبيه وطقطقت عظامه العتيقة •

استأنف سيره • وغابت الشمس فارتاح على جذع نخلة واضعا كفه اليمنى تحت خده وراح في نوم عميق • وتجمعت حوله الثعالب ولكن حـين شمت رائحته ولت مذعورة • وتعلقت النجوم فوقة كالسيوف • واستيقظ في الفجر فانطلق من جديد • وفي اليوم الثالث ظهر السهل من ممر في الجبال ، ونهر الاردن يلتمع في مجراه مثل ثعبان ممدد بطيءالحركة• مرت ثلاثة أيام وعندئذ بغتة لمعت بيوت بيت لحم بيضاء ناصعة من وراء أشجار النخيل •

مر رف حمام فوق رأس النبي ، وتردد لحظة ثم اندفع بغتة مـذعورا نحـو المدينة •

عند البوابة الكبيرة الشمالية ، الملفعة بروائح القطعان النتنة ، وقربها العميان والمجذومون يتسولون الخبز ، كان العجائز يقفون بانتظار النبي • وهمهموا فيما بينهم مرتعدين • « ، سيحل الجذام في قريتنا ! فالله لا ينزل الى الارض الا لكي يدمر مخلوقاته » •

تماسك اكبرهم عمرا وخطا الى الامام خطوة واحدة وقال : « أنا سأتحدث اليـه » •

وصل النبي مع غيمة الغبار وأسماله ترفرف مثل راية حرب ممزقة •

ـ ما الذي جلبته لنا ؟ سلاما أم مذبحة ؟

أجاب النبي وهو يمد يديه : « السلام ! اذهبوا الى بيوتكم واخلـوا الشوارع • أريد ان اعبرها بمفردي • »

أخليت الشوارع وأوصدت الابواب • تحرى صموئيل الابواب كلها بدقة

بتمرير اصابعه عليها وهو يدخل القرية . وعلى طرف القرية وعند اخر بيت فيها اكتشف بصمة الدم . قرع الباب فاهتز البيت كله ونهض يسى العجوز مرعوبا ليفتح الباب .

– « السلام على بيتك يا يسى والصحة لابنائك السبعة ولتحمل كنائنك بغلمان . معك الله .

أجاب يسى : « فلتتحقق مشيئته » وراح فكه السفلي يرتعش .

وظهر رجل يملأ الباب . التفت صموئيل ، وحين رآه انفرجت أساريره . كان الرجل عملاقا ذا شعر اسود مجعد وصدر واسع مشعر وفخذين قويين كعمودين من البرونز . قال يسى بفخر : « هذا ابني الياب » . لم يقل صموئيل شيئا . كان ينتظر من قلبه ان يجار . لا بد ان هذا هو . قال لنفسه . « لا بد ان هذا هو . لم لا تتكلم يا رب ؟ » انتظر طويلا ولكن بغتة تفجر الصوت الرهيب في داخله : « لم هذه الثرثرة ؟ روحك قد مالت اليه . أليس كذلك ؟ طيب ولكنني لا اريده . لا اريده . أنا أفحص القلب واغوص في الصلب وازين نقي العظام ... لا اريده . »

وأمر صموئيل : « اجلب ابنك الثاني » وشحبت شفتاه .

جاء الابن الثاني لكن قلب النبي ظل صامتا وظلت اعماقه ساكنة « اليس هو ، ليس هو » راح يخور وهو يرفض الابناء الستة واحدا بعد الاخر وهو يثبت عينيه على جباههم وحواجبهم وأفواههم متفحصا ظهورهم وركبهم وجذوعهم واسنانهم كما لو انهم حملان . وتكوم منهكا على العتبة وصرخ متألما : « لقد خدعتني يا رب . انك ماكر دائما ودائما لا ترحم . انك لا تشفق على البشر . اظهر . انا صموئيل اناديك ... لم لا تتكلم ؟ »

واضطرب يسى وجاء اليه . قال « ما يزال هناك داوود اصغرهم انه يرعى الغنم . »

– استدعه

وقال الاب : « الياب . اذهب وادع اخاك » .

قطب الياب حاجبيه فخاطب الاب ابنه الثاني : « ابيناداب اذهب واستدع اخاك » .

لكن هذا رفض ايضا . ورفضوا كلهم .

نهض صموئيل عن العتبة : « افتح الباب . انا سأذهب بنفسي »

وسأل العجوز : « أأصف لك شكله لكي تستطيع التعرف عليه ؟ »

– لا . سأتعرف عليه اكثر من ابيه وأمه .

وفيما هو يتعثر على الحجارة بدأ يصب لعناته وهو يصعد الهضبة صارخا : « لا أريد . لا أريد » بينما راح يتقدم صعدا .

وفي اللحظة التي لمح فيها شابا واقفا بين غنمه ، شابا ذا شعر احمر

متوهج يشع كالشمس المشرقة توقف ، وخار مثل عجل ٠
ناداه بلهجة آمرة : « تعال الي يا داؤود ! »
فأجاب داؤود : بل تعال الي انت ٠ انا لا اترك غنمي ٠
وزأر صموئيل وهو يتقدم مليئا بالنقمة : « انه هو ! هو ! » ٠
اقترب منه وأمسك بكتفه وغاص بأصابعه في ظهره وفحص ساقه ثم عاد الى الرأس ٠
وابعد الصبي رأسه غاضبا : « من أنت ؟ وماذا تعني بفحصك لي ؟ »
ـ أنا صموئيل خادم الرب ٠ لقد أمرني ان اذهب فذهبت وامرني ان اصرخ فصرخت ٠ انا قدمه وفمه ويده وظله على الارض ٠٠ انحن ٠
وبتلمس قمة رأس الصبي سكب الزيت المقدس ٠
ـ انني اكرهك ٠ لا اريدك ٠ انا احب اخر ٠ لكن رياح الرب تمر من فوقي وهاك ضد ارادتي ، أنا أرفع يدي وأسكب الزيت النبوي على قحفك ٠٠٠ داؤود ملك اسرائيل المدهون ! داؤود ملك اسرائيل المدهون ! داؤود ملك اسرائيل المدهون ! » وضرب القارورة المقدسة على الحجارة فحطمها : « لقد حطمت قلبي بالطريقة ذاتها يا رب ٠ لم أعد راغبا في العيش ٠ »
وانطلقت سبعة غربان من أعماق السماء وتحلقت في دائرة فوقه وراحت تنتظر ٠ فك النبي عمامته الخضراء ونشرها على الارض مثل الكفن ٠ اقتربت الغربان اكثر وتشجعت ٠ غطى النبي وجهه بأسماله المرقعة ولم يتحرك بعد ذلك ٠ (١)

---

(١) وردت القصة في التوراة (صموئيل الاول الاصحاح السادس عشر) على الشكل التالي : « فقال الرب لصموئيل : حتى متى تنوح على شاول وانا قد رفضته عن أن يملك على اسرائيل . املأ قرنك دهنا وتعال ارسلك الى يسى البيتلحمي (نسبة الى بيت لحم) لاني قد رأيت لي في بيته ملكا . فقال صموئيل : كيف اذهب ؟. ان سمع شاول يقتلني . فقال الرب :خذ بيدك عجلة من البقر وقل قد جئت لأذبح للرب. وادع يسى الى الذبيحة وانا أعلمك ماذا تصنع وامسح لي الذي اقول لك عنه . ففعل صموئيل كما تكلم الرب وجاء الى بيت لحم . فارتعد شيوخ المدينة عند استقباله وقالوا : أسلام مجيئك ؟ فقال : سلام . قد جئت لأذبح للرب . تقدسوا وتعالوا معي الى الذبيحة . وقدس يسى وبنيه ودعاهم الى الذبيحة . وكان لما جاؤوا انه رأى الياب . فقال ان امام الرب مسيحه . فقال الرب لصموئيل لا تنظر الى منظره وطول قامته لأني قد رفضته . لأنه ليس كما ينظر الانسان. لان الانسان ينظر الى العينين وأما الرب فانه ينظر الى القلب . فدعا يسى ابيناداب وعبره أمام صموئيل فقال : وهذا ايضا لم يختره الرب . وعبر يسى شمه . فقال : وهذا ايضا لم يختره الرب . وعبر يسى بنيه السبعة أمام صموئيل . فقال صموئيل ليسى: الرب لم يختر هؤلاء . وقال صموئيل ليس : هل كملوا الغلمان ؟ فقال بقي بعد الصغير وهوذا يرعى الغنم . فقال صموئيل ليسى: ارسل وات به لأننا لا نجلس حتى يأتي الى ههنا . فارسل واتى به وكان اشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر . فقال الرب : قم امسحه لان هذا هو . فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط اخوته . وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدا . »

بهذه الرؤيا عن الرجل الذي يحاول ، عبثا ، ان يعارض الله حملني النوم بعيدا ، وأسلمت نفسي دون مقاومة للايدي اللامرئية • وبهذا مر الليل،الذي كنت اخافه كثيرا ، بسعادة ومن دون احلام •

نزلت الى الباحة فجرا وانا مرتاح جدا • وكان الرهبان يتنقلون كالاشباح في العتمة ثم اختفوا واحدا اثر الاخر في الكنيسة • دخلت معهم لاسمع صلاة الصبح وانا جالس في احد المقاعد • كان هناك مشعلان يحترقان امام الفاصل الايقوني ـ ولم يكن هناك ضوء اخر ـ لكنني استطعت ان اتبين شكل المسيح الصارم في العتمة والى جانبه الوجه الحنون والحزين للعذراء المقدسة • وكان الهواء عابقا بروائح الشمع والبخـور •

وفكرت لنفسي : « أية سعادة هنا وأية عزلة ! وكم هو بعيد العالم المضطرب الصاخب ! فلم الهرب من تحت جناح المسيح ـ والى أين ؟ ولم الغرق في اهتمامات اقل ومتع اصغر ؟ المحارة هنا ، وفيها الجوهرة الكبيرة • سأسيطر على جسدي وعلى روحي ، وسأشذب الاغصان الصغيرة كلها التي تخفف من قوة التاج ، لن أبقي الا على التـاج وسـوف أنهض • أمامـي مكافح عظيم سأتبعه • انه يكابد صعودا شاقا سأتسلقه معه •

ظللت احدق الى شكل المسيح القوي الزاهد في ضوء المشعلين اللطيف ، متفحصا اليدين الرشيقتين اللتين تقبضان بقوة على العالم وتمنعانه مـن السقوط في العدم • لقد عرفت ان المسيح ، هنا على الارض وطوال حياتنـا الكاملة ، لم يكن المرفأ الذي يلقي فيه المرء بمرساته ، بل هو المرفأ الذي ينطلق المرء منه راحلا ليكسب وسط البحر ويجابه بحرا عنيفا عاصفا ثم يكافح طوال العمر لكي يرسو في الله • المسيح ليس النهاية او الغاية • انه البـدء • وهو ليس « الترحيب » Welcome بل هو الوداع ! Bon Voyage • وهـو لا يسترخي وسط الغيوم الناعمة بل هو الذ يتضربه الامواج ، مثلما تضربنا ، وعيناه مثبتتان على نجم القطب North Star ، ويداه مثبتتان على الدفة • لهذا أحببته ولهذا سأتبعه •)

كان ما جذبني وشجعني ،فو قكل شيء اخر ، هو باي كفاح وباية جرأة بطولية ، انطلق الشخص الذي اكتشف نفسه في المسيح لكي يصل الى الله ويندمج فيه بحيث يصبح الاثنان واحدا لا يقبل الانفصام • لا طريقة للوصول الى الله الا هذه • باتباع اثار المسيح الدموية علينا ان نناضل لتحويل الانسان فينا الى روح بحيث يمكن لنا ان نتحد بالله •

لقد كانت الطبيعة المزدوجة للمسيح ، دائما ، لغزا عميقا مبهما بالنسبة لي ، وخاصة توق المسيح ، الانسان ، هذا التوق البشري والالهي ، للوصول

الى الله ، أو بدقة اكبر للعودة الى الله والتطابق معه · هذه النوستالجيا (١)، التي هي روحية جدا وواقعية جدا ، فتحت في جروحا عميقة لكنها ايضا فجرت في ينابيع اضافية ·

بدءا من شبابي كان ألمي الرئيسي ومنبع افراحي واحزاني كلها ، مستمدا من المعركة الدائمة الوحشية بين الروح واللحم ·

في داخلي كانت القوى المظلمة الممعنة في القدم للشخص الشرير : البشري وما قبل البشري ، وفي داخلي ايضا كانت القوى المضيئة ، البشرية وما قبل البشرية ، لله ـ وكانت روحي هي الحلبة التي يلتقي فيها هذان الجيشان ويشتبكان ·

كان الالم ممضا · كنت احب جسدي ولم اكن اريد له ان يفنى · وكنت احب روحي ولا اريد لها ان تتعفن·ورحت اجاهد لكي اصالح معا هاتين القوتين المتنازعتين والخالقتين للعالم،واجعلهما تدركان انهما ليستا عدوين بل زميلتي عمل لكي تستمتعا بانسجامهما ـ واستمتع انا ايضا معهما ·

كل انسان نصف اله ونصف انسان · انه روح ولحم معا · لهذا لا يعتبر لغز المسيح لغزا لمذهب معين بل هو شمولي وعام · يتفجر الصراع بين الله والانسان داخل كل شخص مصحوبا بالرغبة في الصلح · وكثيرا ما يكون هذا الصراع قصير الامد في اللاوعي · والروح الضعيفة ليس لديها القدرة على احتمال مقاومة اللحم طويلا · انه يصبح ثقيلا ويصبح هو ذاته لحما فينتهي النضال · لكن بين الناس المسؤولين ، الذين تظل عيونهم مثبتة ليلا ونهارا على الواجب الاسمى ، يتفجر بين اللحم والروح صراع لا مكان لرحمة فيه وقد يستمر حتى الموت ·

وكلما ازدادت قوة الروح واللحم ، ازداد الصراع غنى في نتائجه وازداد غنى الانسجام النهائي · الله لا يحب الارواح العنيفة واللحم الرخو · ان الروح ترغب في الصراع مع لحم قوي ومليء بالمقاومة ، فهي طائر لاحم جائع أبدا ، يأكل اللحم وبتمثله يخفيه ·

الكفاح والصراع بين اللحم والروح ، العصيان والمقاومة، المصالحة والخضوع ، واخيرا ـ الهدف الاسمى للصراع ـ الاتحاد بالله ، هذا هو الصعود الذي التزم به المسيح ، الصعود الذي يدعونا للالتزام به أيضا متتبعين اثاره (اثار المسيح) الدامية ·

---

(١) التوق المرضي ·

- هذا هو الواجب الاسمى للانسان الذي يكافح - ان ينطلق باتجاه القمة الشاهقة التي وصل اليها المسيح ، الابن الاول للخلاص • فكيف نبدأ ؟
اذا كان علينا أن نقوى على اللحاق به يجب أن نحصل على معرفة عميقة بصراعه (المسيح) ، يجب أن نعيش ألمه من جديد ، انتصاره على المكائد الفاتنة في الارض ، وتضحيته بمتع البشر الصغيرة والكبيرة ، وصعوده من تضحية الى تضحية ، ومن مأثرة الى مأثرة حتى الوصول الى قمة الشهادة : الصليب •

لم يسبق لي أن تتبعت رحلة المسيح الدامية الى الجلجلة بهذه الحدة ولم أعش من جديد حياته وعواطفه بهذا الفهم والحب مثلما حدث لي خلال أيامي ولياليّ في القدس والجليل والبحر الميت • ولم يسبق لي أن احسست ، بهذا القدر من الحلاوة وبهذا القدر من الالم ، بدم المسيح يتساقط قطرة فقطرة في قلبي •

ذلك انه من أجل الصعود الى الصليب ، قمة التضحية ، والى الله ، قمة اللامادية ، مر المسيح بكل المراحل التي يمر بها الانسان المكافح • كلها - ولهذا تكون معاناته اليفة لنا ، لهذا نشفق عليه ولهذا يبدو لنا انتصاره النهائي انتصارنا الخاص بنا الذي سنحققه في المستقبل • هذا الجانب من طبيعة المسيح الذي كان بشريا بشكل عميق يساعدنا في فهمه وحبه ومتابعة معاناته وكأنها معاناتنا • فلو لم يكن لديه ، في داخله ، هذا العنصر البشري الحار لما استطاع ان يلمس قلوبنا بهذا اليقين وهذا اللطف، ولما استطاع ان يصبح نموذجا لحياتنا • اننا نكافح ، ونراه يكافح ايضا ، فنستمد منه القوة • نرى اننا لسنا وحدنا في العالم ، انه يناضل الى جانبنا •

كل لحظة عند المسيح هي صراع وانتصار •لقد تغلب على الفتنة اللامرئية في المتع البشرية البسيطة • تغلب على الغواية وكان ، باستمرار ، يحول اللحم الى روح ويصعد • وصار كل عائق في رحلته فرصة لتحقيق انتصار اخر ثم علامة على هذا النصر • لدينا أمامنا نموذج ، نموذج يشق لنا الطريق ويمنحنا القوة •

ما يهب عبر السماء والارض ، في قلوبنا وقلب كل شيء حي ، هو نفس عات - صرخة عظيمة - نسميه الله • كانت حياة النبات تتمنى ان تستمر في نومها الساكن قرب المياه الراكدة ، لكن الصرخة انبعثت فيها وهزت جذورها بعنف : « بعيدا ! انخلعي من الارض ، سيري ! » ولو كانت الشجرة قادرة على ان تفكر وتحكم لصرخت : « لا اريد ! ما الذي تدفعينني للقيام به ؟ انك تطلبين المستحيل ! » لكن الصرخة لا ترحم فتتابع هز الجذور والصراخ « بعيدا ! انخلعي من الارض ! امشي ! »

ظلت تصرخ بهذه الطريقة الاف الدهور ، وفي النهاية ، نتيجة للرغبة والكفاح هربت الحياة من الشجرة الساكنة وتحررت ٠

ظهرت الحيوانات ـ الديدان ـ لتعيش على راحتها في المياه والوحول ، وقالت : « نحن هنا على ما يرام ٠ لدينا السلام والامان، لن نتزحزح من هنا ! »

لكن الصرخة الرهيبة انهمرت بين اصلابها دون شفقة : « غادري الوحل ، قفي ، لدي ما هو أفضل منك » ٠

ـ لا نريد ! لا نستطيع ٠
ـ انت لا تستطيعين أما انا فاستطيع ٠ قفي !
وبعد الاف الدهور ظهر الانسان يرتجف في وقفته على رجليه الليفتين ٠

الانسان قنطور ، حوافره الخيلية (١) مزروعة في الارض ، لكن في جسده من الصدر حتى الرأس تشتغل الصرخة عديمة الشفقة وتعذبه ٠ لقد كافح مرة اخرى طوال الاف الدهور لكي يسحب نفسه ، كالسيف ، من غمده الحيواني ٠ وهو يكافح ايضا ـ وهذا كفاحه الجديد ـ لكي يمتشق نفسه من غمده البشري ٠ وينادي الانسان يائسا : « الى أين استطيع ان اذهب ؟ لقد وصلت الى الذروة ، وما بعدها فالهاوية ٠ » وتجيبه الصرخة : « أنا بعدها ٠ قف ! » كل شيء قنطور ، ولو لم تكن الحالة هكذا لتعفن العالم في الخمول والعقم ٠

وفيما أنا امشي ساعة بعد ساعة في الصحراء المحيطة بالدير ، بدأ الله يحرر نفسه تدريجيا من القسس ٠ ومنذئذ صار الله بالنسبة لي هو هذه الصرخة ٠

ومع مرور الايام في هذه العزلة الالهية هدأ قلبي ٠ وبدا أنه يمتلىء بالاجوبة ٠ لم أعد أطرح أسئلة ٠ صرت متيقنا ٠ كل شيء ـ من أين جئنا ؟ والى أين نذهب ؟ وما الغاية من وجودنا على الارض ؟ ـ صار يجيئني بسيطا ويقينا في هذه العزلة التي وطئها الله ٠ وبالتدريج تعود قلبي على الايقاع الالهي ٠ صلوات الصبح ، القربان المقدس ، صلوات المساء ، المزامير ، شروق الشمس صباحا ، وغروبها مساء ، مجموعات النجوم المعلقة كل ليلة مثل ثريات فوق الدير ٠٠ كل شيء كان ياتي ويروح مطيعا قوانين خالدة ليسحب دم الانسان الى الايقاع الهادىء ذاته ٠ صرت ارى العالم مثل شجرة ، صورة هائلة ، وانا ٠ مثل ورقة خضراء معلقة على غصن سويقة نحيلة ٠ وحين كانت ريح الله تهب كنت اخفق واتراقص مع الشجرة كلها ٠

---

(١) نسبة الى الخيول ٠

ظللت اتحدث الى روحي ، وأسألها بألم : هل تؤمنين ؟ أأنت على استعداد لبذل وجودك كله ؟ أأنت مستعدة ؟

ما كنت أريده هو التوافق مع النظام القاسي ، الانخراط في جيش انطلق لتحقيق الامل الاسمى ، والصعود بدوري الى السفينة ذات (البرج المسيحي) جنبا الى جنب مع أبطالها القانعين المعوزين الاطهار - ولسوف نرفع الشراع الاحمر ، ولسوف تتبرعم كرمة القربان المقدسة من الصاري • ولسوف نطوف البحار كالقراصنة لكي نختطف جزة الخلود الذهبية عن كتفي الله • ما كنت أريده هو الانتصار ، بدوري ، على التفاهة والمتعة والموت •

كنت أجوب الصحراء كل يوم عدة ساعات مدركا ان قرارا خفيا كان ينضج في داخلي ببطء ، قرارا لم يجرؤ بعد على اعلان اسمه • وفي الاماسي بعد عودتي كنت اجد الرهبان خارج حجراتهم • لقد هدأ قيظ النهار فراحوا يستنشقون برودة الليل القادم •

العزلة ضرورية لاية روح تفشل في ان تحترق بعاطفة عظيمة • فان لم يستطع راهب ، في عزلته ، ان يحب الله حتى الجنون فهو هالك • لقد تشوشت عقول العديد من الرهبان • هؤلاء الاخوة ليس لديهم ما يفكرون به أو ما يرغبونه • يغمضون اعينهم نصف اغماضة ويجلسون صفا واحدا في الباحة وينتظرون الساعة التي سيدخلون فيها الى الكنيسة ثم قاعة الطعام فحجراتهم - وهذا كل شيء • لقد غامت ذاكرتهم وتساقطت اسنانهم وجاءهم وجع الظهر • لم يعودوا بشرا لكنهم ليسوا حيوانات ايضا • كما انهم ليسوا ملائكة • ليسوا ذكورا ولا اناثا ، ليسوا أحياء أو أمواتا • يمدون أذرعهم في غيبوبتهم وينتظرون الموت تماما كما تنتظر البذور مجيء الربيع •

أحدهم كان يظل يتذكر زوجته ويبصق بلا توقف • وكان لدى الاخر دفتر ملاحظات ورزمة من الاقلام تحت قميصه ، وبين حين واخر يخرجها وينهمك في رسم الصورة ذاتها - مسيح ذو نهدين يرضع آمه • وراهب ثالث عند يقظته في كل صباح ينزل الى الباحة ليغتسل في النبع ويدلك نفسه كالمهووس ليزيل الدنس الذي خلفته الاحلام التي جاءته في الليل • ويجلس دائما في المكان ذاته من الباحة وكتاب مغلق على ركبتيه ذلك الراهب الغريب الذي دخل الى مقر الرئيس مع مسؤول الضيافة في اليوم الاول • لم يكن يتكلم مع احد ابدا وكلما دخل الباحة رفع عينيه ورآني تفتر شفتاه عن ابتسامة لطيفة احيانا - هذا ما كان يبدو لي - وابتسامة ساخرة احيانا اخرى • وفي مناسبات عديدة ، حين كنت امر من امامه يتهيأ للنهوض وتراه على وشك ان يتحدث الي لكنه ، دائما ، يعود للجلوس والابتسامة تتقلص على شفتيه •

استمتعت بهذه العزلة المقدسة سبعة ايام • وفي اليوم السابع جاء الى

حجرتي مسؤول الضيافة مرحا كعادته ٠

ـ أرسلني الاب المقدس لاسالك اين تقف روحك ؟ وما هو القرار الذي توصلت اليه ؟

أجبته : أقبل يديه ٠ أفضل ان اعترف قبل أن أجيبه ٠

توقف مسؤول الضيافة للحظة واخيرا سألني : اتحب ان تبقى معنا ؟

ـ احب أن أبقى مع الله ٠ وهنا في الصحراء احسه اقرب الي منه في اي مكان اخر ٠ولكنني اخشى ان الجذور التي تربطني بالعالم لم تقتلع كلها بعد٠ سأعترف للاب وهو الذي سيقرر ٠

ـ كن حذرا ٠ الاب المقدس يتوقع الكثير من الناس ٠

ـ وأنا اتوقع الكثير من نفسي يا ابي ٠ ولهذا اظل مترددا ٠

وتوقف في اللحظة التي فتح فيها الباب ليخرج ٠

ـ حملني الاب جواكيم رسالة ٠ انه يود لو يراك ٠

ـ الاب جواكيم ؟

ـ العجوز الذي جاء معي الى قاعة الاستقبال للترحيب بك ٠

سررت ٠ اخيرا سأعرف ماهية هذا الراهب الصامت الغريب ٠

سألته : متى ؟

ـ يقول : الليلة في حجرته ٠

ـ جميل ٠ قل له أنني سأكون هناك ٠

ـ « لقد اعتاد أن يكون في مركز مرموق ٠ انه لا يختلط بأحد ولا يتحدث إلا مع الله ٠ لقد عرف اسمك وهو يريد ان يراك ٠ كلمة باحترام ٠ » بهذه الكلمات كان قد اجتاز العتبة دون ان ينتظر جوابي ٠

تأخرت حتى هبط الليل وغط الرهبان في نومهم ٠ وانطفأت الاضواء في الحجرات واحدا بعد الاخر ٠ مشيت على رؤوس أصابعي في الممر الطويل حتى وصلت الى حجرة الاب جواكيم ٠ توقفت لالتقط انفاسي اذ كنت قد بدأت الهث وكأنني كنت أركض ٠ كانت الحجرة مضاءة ٠ وضعت اذني على الباب واصغيت باهتمام ٠ صمت ٠ وفي الوقت الذي رفعت فيه يدي لاقرع الباب فتح باب الحجرة وظهر الاب جواكيم ٠ كان حاسر الرأس وشعره الابيض منسدل على كتفيه ٠ كان يلف حبلا معقدا كثيفا حول خصره ٠ كما كان حافيا ٠ قال :

ـ أهلا وسهلا ٠ آمل ان احدا لم يرك ٠ ادخل ٠

الجدران عارية ٠ وفي الزاوية فراش ضيق من القش مدعوم بزوج من الهياكل السريرية المعدنية ٠ كرسيان وطاولة صغيرة وجرة في كوة في الجدار ٠ مجلد ضخم على الطاولة ، واضح انه الاناجيل ، وصليب خشبي كبير على الجدار المقابل وليس عليه صورة المسيح المصلوب بل صورة المسيح في قيامته ٠ ومن العوارض تتدلى صفوف من التفاح مربوطة معا كالسبحات ،

الحجرة كلها عابقة بروائح الفاكهة المتعفنة ·
مد الاب جواكيم ذراعيه ، وكانت الغرفة ضيقة الى درجة كاد معها ان يلمس الجدران وقال وهو يبتسم : « هذه هي شرنقتي ، انني احبس نفسي فيها مثل اليرقة وانتظر اليوم الذي سوف اخرج فيــه فراشة · » هز رأسه واستطعت أن أراه يعض شفتيه الرفيقتين المشققتين وهو يقف قرب المصباح الذي كان يضيء وجهه الطويــل الذابل · وصار صوتــه الان مليئا بالمرارة والسخرية : « ما الذي تتوقع ان تحلم به يرقة اكثر من ذلك ؟ اجنحة ! » ·

وصمت · التفت يتطلع الي · تلاشت السخرية وصارت نظرته نظـرة انسان يطلب العون : « ما رأيك ؟ لماذا تحلم اليرقة بالاجنحة ؟ أهي براءتها الساذجة ؟ أم صلفها ؟ ام انه من الممكن ان كتفيها تحسان بوخز الاجنحة التي تهيئها ؟ »

قام بحركة سريعة من ذراعه وكأن في كفه اسفنجة ينظف بها شيئا ما · وهتف : « حتى هنا وليس أبعد من ذلــك · لقــد وصلنا الى الاعماق بسرعة كبيرة · وهذا يكفي ا··· خذ كرسيا واجلس · لقد دعوتك لاخبرك بشــيء اخر ·· حسن · اجلس · لا تهتم بي · انا لا استطيع الجلوس · » وضحك ثم قال : « اتعرف ان هناك بدعة تقول : على اقدامك دائما · لقد التزمــت بهذه البدعة منذ سنوات ، منذ أيام طفولتي · »

ــ اما انا يا ابانا فأنتمي الى بدعــة اخرى : قلق دائما · انني اصارع منذ أيام طفولتي ·
ــ ومع من تتصارع ؟
ترددت · بغتة تملكني الرعب · فكرر الراهب سؤاله : « مع من ؟ » ثــم انحنى علي وخفض صوته : « مع الله ؟ » ·
ــ نعــم ·
وثبت العجوز عينيه علي دون ان يتكلم ·
ــ أيمكن ان يكون هذا مرضا يا أبانا ؟ وكيف أشفى منه ؟
ــ ارجو ان لا تشفى ·
ورفع يديه وكأنه يريد ان يباركني ــ أو يلعنني ·
ــ امر مؤسف ان تضطر للصراع مع ند لك او مع من هو اقل منك · ولكن بما انك تتصارع مع الله فالمؤسف ان تشفى من هذا المرض ·
وصمت للحظة ثم تابع : « تأتي الغوايات الينا كثيرا هنا في الصحراء ذات يوم جاءتني غواية غريبة في نومي · رأيت نفسي حكيما عظيما في القدس ·

استطعت ان اشفي من امراض عديدة مختلفة لكنني قبل كل شيء استطعت ان اخرج الشياطين من الممسوسين ·صار الناس يجلبون الي المرضى

من كافة انحاء فلسطين · وذات يوم وصلت مريــــم ، زوجــة يوسف ، منَ الناصرة ومعها ابنها يسوع البالغ من العمر اثني عشر عاما · وقعت على قدمي وصرخت باكية : « ايها الحكيم الشهير اشفق علي واشف ابني · في داخله العديد من الشياطين » طلبت من الابوين ان يخرجا وظللت وحيدا مع يسوع · ربت على كتفه وسألته : « ما الامر يا بني ؟ اين تشكو الالم ؟ » فأجاب وهو يشير الى قلبه : « هنا · هنا » ·

– ومــاذا أصابـــك ؟
– لا استطيع النوم او الاكل او العمل · انـنـي اجوب الشوارع وانـــا أتصــارع ·
– ومع مــن تتصارع ؟
– مع الله · مع من غيره تتوقع مني ان اتصارع ؟

أبقيته قربي شهرا · كلمته بلطف دائم · واعطيته اعشابا تنومـه · وضعته في حانوت نجار لكي يتعلم صنعة · وكنا نخرج لنتمشى معا فأكلمه عن الله وكأن الله صديق او جار يأتي الينا في المساء ويجلس معنا على عتبة بيتنا لنتحدث · لم يكن هناك شيء صعب او مؤثر في احاديثنا · كنا نتحدث عن الطقس وحقول القمح وكروم العنب والفتيات اللواتي يذهبن الى النبع ·· وفي نهاية الشهر شفي يسوع تماما · لم يعد يتصارع مع الله صار رجلا مثل غيره من البشر · ورحل الى الجليل ثم علمت فيما بعد انه صار نجارا عظيما ؛ افضل نجار في الناصرة » ·

ونظر الراهب الي ثم سألني : « هل تفهم ؟ يسوع قد شفي · وبدلا من ان ينقذ العالم صار افضل نجار في الناصر · فما معنى المرض والعافيـــة اذن ؟··· طيب · يكفينا من هذا كله – فلنغـــير الموضوع ! تبدو متعبا · اجـلس » ·

جلست على الكرسي تحت الايقونة ورحت احدق الى قدمي الراهـــب الحافيتين على الحجارة المرصوفة ، وعظامهما الدقيقة ؛ وكاحليه النحيلين والابهامين الطويلين الانيقين · كان الضوء قد جعل ابهاميه يلتمعان مثـل الرخام العتيق الذي صار اشقر محمرا بسبب الشمس ·

تراجع خطوتين ثم عاد ووقف قبالتي شادا ذراعيه على صدره وقال لي بصوت حنون وكأنه يحدث طفلا صغيرا : « تطلـــع · انظر الي جيدا · الا تتذكرنـــي ؟ » ·

اجبته مندهشا : « لم يسبق ان وقعت عيني عليك » ·

ـ لا شيء يموت في ذاكرة الطفل · لا بد ان وجهي ما يزال موجودا في مكان عميق من ذاكرتك · اسمع : لقد قضيت صيفا في كريت حين لم تكن قد بلغت الخامسة بعد · كنت بائعا بالجملة في تلك الايام اتعامل بالكباد والخروب والزبيب · كان والدك احد زبائني · اما يزال حيا ؟

ـ نعم · لكنه عجوز محني لا أسنان له الان · انه يجلس على الاريكة طوال النهار وهو يقرأ كتاب الصلوات ·

فصرخ الراهب وهو يرفع يده : « ظلم ! اجساد مثل جسده يجب ان لا تتهدل · يجب ان تموت موتا فجائيا وهي تمشي والارض تهتز من تحتها · الموت فعل الله ، اسم النقطة التي عليها يلمس الله الانسان · لكن انهيار الجسد فعل شيطاني غادر خسيس ··· ايمكن ان يكون صحيحا ان الكابتن ميكائيل عجوز ومقعد ؟

ظل صامتا قليلا وصارت عيناه ضاريتين لكنه سرعان ما تنفس بعمق وتابع : « اعتاد والدك ان يشتري الزبيب والكباد والخروب لحسابي · وكنت احمل السفن وارسلها الى تريست · كنت اشتغل جيدا واكسب الكثير ثم ابدد بالكثرة نفسها· كنت حيوانا متوحشا لا يمكن ان يكتفي من الطعام والشراب والزنى · بعت روحي للشيطان وظل جسدي دون قيادة ودون كابح · ورحت اسخر من الله واسميه البعبع والفزاعة ، وانه لا يستطيع ان يفعل شيئا اكثر من إخافة العصافير التي لا عقل لديها وابعادها من ان تنقّر في الحدائق · وكل مساء بعد ان انهي عملي كنت اكرس نفسي للسكر بلا خجل حتى الفجر ·

والان · حاول ان تتذكر : ذات صباح كنت تقف باكرا امام حانوت والدك حين سمعت بشكل مفاجىء غناء وضحكا وعربة بأربع عجلات منطلقة بأقصى سرعتها · التفت فرأيت ست نساء مخمورات ـ من مغنيات المقاهي ـ وكلهن يصرخن ويقهقهن ملء حناجرهن وهن يلقين بالجوز والتين على الناس في الشارع · وكان السائق شخصا مهيبا بقبعة رسمية صقيلة ، يسوط الجياد مهووسا وهي تصهل مستثارة وتجمح · عندها احسست بالخوف ، ظننت انهم قادمون نحوك مباشرة ، فصرخت وركضت لتختبىء وراء سترة ابيك ··· هل تذكر ؟ هل عادت الحادثة اليك الان ؟ الحوذي السكران كان انا · كنت اعتمر قبعة رسمية ، واقول لك ـ هي قبعة حريرية ـ ولكي اثيرك وجهت السوط اليك مباشرة وفرقعته في الهواء · هل تتذكر الان ؟ » ·

انحنى ووضع يده على كتفي ودفعني : « هل تذكر ؟ » ·

كنت قد اغمضت عيني · وبينما انا اصغي اليه كنت اجاهد لازيح أستار الذاكرة المكومة على سنوات طفولتي واحدة بعد الاخرى · وبالتدريج

خفّت الظلمة • وبغتة عادت الجياد الاربعة والمغنيات السكرانات والقبعة المخيفة وفرقعة السوط فوق رأسي ، كلها حية من اعماق الذاكرة • صرخت : « نعم ، نعم ، اتذكر • أكان ذلك انت يا ابانا ؟ انت ؟ » •

لكن الراهب العجوز لم يسمعني • كان قد انحنى على الجدار واغمض عينيه • وبهذه الحالة وبعينين مطرقتين تابع :

« ذات صباح احسست بالكفاية • الجولة اللحمية ليست كبيرة جدا • انها تنتهي بسرعة • تأكل وتشرب وتقبّل وتأكل ثانية وتشرب ثانية وتقبل ثانية ـ وليس هناك مكان اخر تذهب اليه • اقول في النهاية وجدت انني اكتفيت • تذكرت روحي فركبت عربة وذهبت الى دير في جبل آثوس • بقيت هناك ثلاثة أشهر • صلاة وصيام وصلاة صبح وقربان مقدس ، تفاصيل عمل ، خبز شعير ، زيتون فاسد ، حبوب محمصة ـ فقرفت سريعا من ذلك كله • ولكن ما الذي لدي لافعله في العالم الان ؟ لم تعد لديه متعة واحدة اضافية يقدمها الي ، ولا خطيئة واحدة لم اتذوقها • عدت الى الدير ولكنني طلبت من الحوذي ان يظل هذه المرة على مقربة ، ان ينتظر في اقرب قرية لعلي احتاج اليه • وبالفعل قبل مضي وقت طويل احتجت اليه • ومرة اخرى فررت من الدير •

انحطت حياتي حتى صارت غير محتملة • وصرت معلقا بين الارض والسماء متأرجحا من احداهما الى الاخرى رافضا الاثنتين • ذهبت الى ناسك عجوز يعيش ، بعيدا عن الاديرة ، في كهف محفور في صخور منحدر مطل على البحر وجعلته يتلقى اعترافي •

ـ ما الذي افعله يا ابانا المقدس ؟ اتنصحني ؟

وضع الناسك العجوز يده على رأسي وقال : « اصبر يا ولدي ، ولا تتسرع • السرعة احدى احابيل الشيطان ، انتظر بهدوء ومع الايمان » •

ـ الى متى ؟

ـ الى ان ينضج الخلاص فيك • امنح الحصرم وقتا لكي يتحول الى عسل •

ـ وكيف سأعرف يا أبانا متى يتحول الحصرم الى عسل ؟

ـ ستستيقظ ذات صباح وترى ان العالم قد تغير ولكن انت الذي تكون قد تغيرت يا بني وليس العالم • سيكون الخلاص قد نضج فيك • في ذلك الوقت سلم نفسك لله وبعدها لن تخونه •

وهذا ما حدث بالضبط • فتحت نافذتي ذات صباح • كان الفجر يبزغ لدظتها ونجمة الصباح ما تزال تلتمع في السماء وكان البحر الهادىء يتنهد

بهدوء ولطف وهو يتكسر على الشاطىء • كنا ما نزال في عز الشتـــاء لكن شجرة مشحلة امام نافذتي كانت مزهرة ، وكان عبيرها لاذعا وحلوا كالعسل• كان المطر قد هطل خلال الليل والاوراق كانت ما تزال تقطر الماء والارض بأكملها تلتمع راضية • تمتمت : « يا رب ، يا رب ، اية معجزة هذه ! » ثم بدأت أبكي • وعندها فهمت • لقد وصل الخلاص • جئت هنا الى الصحراء ودفنت نفسي داخل هذه الحجرة بسريرها المتواضع وجرة الماء فيها وكرسييها الصغيرين • وانا الان انتظر • انتظر ماذا ؟ فليسامحني الله • لا اعــرف بالفعل ماذا انتظر • ولكن هذا لا يزعجني • اهلا بكل ما يأتي • اعتقد انني سأبرز في الطليعة عند اي حادث • وان كانت الاخرة موجودة فعلا اكون قد دبرت امري للتوبة في اخر لحظة • (ألم يعدنا المسيح بأن التوبة قبل ثانية من الموت تؤمن الخلاص ؟ •) ومن جهة اخرى ان لم تكن الآخرة موجودة اكون قد استمتعت بهذه الحياة واعتصرتها ثم القيتها ورائي مثل قشرة الليمون ••• هل تفهم ؟ ما الذي تفكر به ؟

ـ كنت اتساءل لماذا دعوتني الى حجرتك الليلة يا ابانا ؟ لا بد انــك ترغب في ان تخبرني بشيء اخر الى جانب هذا •

أمال الجرة وملأ كأسا من الماء ثم اخذ رشفة • اذ لانه لم يكن متعودا على الكلام منذ سنوات عديدة فان حلقه قد جف •

ـ بالطبع كنت اريد ان اخبرك بشيء اخر ولكن عليك ان تعرف اولا من انا ومن كنت • بهذا فقط تستطيع ان تفهم ما اريد ان اقوله لك وتــدرك ان من حقي ان اخبرك به •

صمت للحظة ، وبعد ان انتقى كلماته اضاف بصوت مليء بالانفعال : « ليس الحق فقط بلِ الواجب » •

رفعت نظري لأتطلع اليه • كان يقف في وسط الغرفة منتصبا ومتشنجا مثل عمود • تطلعت اليه ودهشت • اي متع واي ذل عرف هذا الرجل واي صلف ابدى في تحدي الله القدير • وتعجبت كيف دخل الى الصحراء دون ان يقبل النسيان ، وكيف سمح ، بشجاعة ، لقافلة خطايـــاه ان تتبعه بحيث تمشي معه ، وهو مليء بالثقة ، نحو الله •

ظل صامتا • وكان من الواضح انه يجهد لاختيار ما سيقوله وكيفيــة قوله دون ان يحرجني • ذلك انه قد رآني اتلوى بعصبية على كرسي •

واخيرا اعلن : « اريد منك ان تعرف ان بين متع العالم كلها ـ ولديه متع كثيرة عليه اللعنة ـ الشباب هو ما احترمه اكثر من البقية • حين ارى شابا في خطر أحس ان طليعة الله ، او الحياة كلها ، في خطر • اهرع لتقديم العون قدر ما استطيع ـ اعانة الشـباب • على ان لا يفنى ، وبمعنى اخر ان لا

يضل ، وتتساقط زهوره ويشيخ قبل اوانـــه • لهذا دعوتـــك الليلـة الى حجرتـــي » •

اضطربت وسألته : « ماذا ، أأنا في خطر ؟ » دون ان اعرف ما اذا كان علي ان اغضب ام أضحك •

لوح العجوز يده ببطء الى الامام والخلف ليهدئني وقال : « اغضب ، اضحك اخرج عن طورك ـ ولكن اصغ بعناية • انني احدثك منطلقا من تجربة شخصية مريرة وان من واجبك ان تستمع • لقد راقبتك سبعة ايام وانـــت تدور حول لهب الله مثل فراشة ليلية • وانا لا اريد ان اتركك تهلك • لا • ليس انت ، اكرر ، بل الشباب • انني اشفق على خديك اللذين ما زال الزغب يغطيهما ، وعلى شفتيك اللتين لم تشبعا من القبل او من الكفر . وروحك البريئة التي تندفع نحو الهلاك تحاول ان تسترق ومضة من الضوء • لكنني لن اتركك • انك على حافة الهاوية ولن اتركك تسقط •

ـ ايـــة هاويـــة ؟

ـ هاويـــة اللـــه •

اهتزت الحجرة حين لفظ تلك الكلمة الرهيبة • دخل كائن غير مرئي • لم يسبق لهذه الكلمة التي طالما نطقت بها بامتهان ان اثارت في خوفا كهذا الخوف • انبعثت في داخلي مخاوف الطفولة التي كنت احس بها وانا اسمع كلمة « يهوه » وكأنها تخرج من كهف مظلم ملـــيء بالضجيج ، المخـــاوف ذاتها التي اثارتها في كلمة « مذبحة » منذ ايـــام طفولتـــي • نهضت عن الكرسي وانزويت في ركن • وتمتمت : « لا تتوقف يا أبي • انني مصغ » •

ـ في اعماقك اهتمام عظيم مهلك • انني أراه في عينيك المحترقتين وفي حاجبيك المرتعشتين بلا توقف ويديك اللتين تتلمسان الهواء وكأنك أعمى او كأن الهواء جسد وانت تلمسه • انتبه • هذا القلق اما ان يقودك الـــى الجنون او الى الكمال •

احسست بنظرته تخترقني وتخبط احشائي :

ـ اي قلق ؟ لا اعرف اي قلق تعني يا أبي •

ـ القلق حول القدسية • لا تخف • انت نفسك لا تعيه لانك تعيشه • لماذا اقول لك ذلك ؟ لامكنك من معرفة الطريق الذي تسلكه والاتجاه الـذي اخترته ، لأبعدك عن الضلال • فعلى الرغم من انك انتهيت من اصعب صعود فانك في عجلة من امرك للوصول الى القمة بحيث انك تظن نفسك قادرا على تحقيق ذلك قبل تجاوز سفح الجبل وجوانبه وكأنك تفترض نفسك نسرا • لكنك انسان • لا تنس ذلك • انسان ـ لا اكثر ولا اقل • لك ساقان وليس لك جناحان • نعم • اعرف ان رغبة الانسان السامية هي في القداسة • جميل

وحسن لكن علينا اولا ان نتجاوز الرغبات الاقل سموا • يجب ان نتعلم احتقار اللحم وكذلك التعطش للسلطة والذهب والعصيان • ما اعنيه هو ان علينا ان نعيش شبابنا وكل عواطفنا البشرية كاملة • يجب ان نفرغ هذه الاصنام من محتوياتها وان نكتشف انها محشوة بالتبن والهواء ، يجب ان نفرغ انفسنا وننظفها لكي لا نرغب في النظر الى الوراء • عند ذلك ، وعند ذلك فقط ، نقدم انفسنا امام الله ••• هكذا يتصرف المجاهد الحقيقي •

اجبته : لا أستطيع التوقف عن الصراع مع الله • سأظل اتصارع معه حتى اللحظة الاخيرة التي اقدم نفسي فيها امامه • اعتقد ان هذا قدري ، ان لا اصل الى غايتي – هذا ما لن افعله – بل ان اصارع •

اقترب مني وطبطب بلطف على كتفي •

– لا تتوقف عن الصراع مع الله • ليس هناك مبدأ افضل من ذلك • ولكن لا تفترض انك لكي تصارع بثقة اكبر عليك ان تقتلع الجذور المظلمة من اعماقك – اعني الغرائز • ان رؤية امرأة تخيفك حتى الموت تسميها المغوية – « ابعد ورائي يا شيطان » • نعم انها المغوية • ولكن ان كنت ترغب في التغلب على الغواية فهناك طريقة واحدة فقط ، عانقها • تذوقها وتعلم كيف تحتقرها • عندها تعجز عن اغوائك مرة اخرى • والا ، حتى لو عشت مئة عام ، ان كنت لم تستمتع بالنساء ، فسيأتين سيان كنت نائما او ناشطا ويمرغن احلامك وروحك • لقد قلتها مرة وانا اعيدها ثانية : كل من يقتلع غرائزه يقتلع قوته • فمع الزمن والشبع والمبدأ يمكن ان تتحول هذه المادة المظلمة الى روح •

تطلع حواليه ثم خطا نحو النافذة وكأنه يخشى ان يسمعنا احد ثم عاد مقتربا مني وهمس لي بصوت اجش : « ما زال لدي شيء اخر اقوله لك • نحن وحيدان ولا يستطيع ان يسمعنا احد •

قلت : الله يستطيع •

– انا اخاف البشر ولا اخاف الله • الله يفهم ويغفر اما هم فلا – ولا اريد ، تحت اية ظروف ، ان افقد السكينة التي وجدتها هنا في الصحراء • فاستمع اذن واحفظ جيدا ما ساقوله لك •وانا متأكد انه سيساعدك •

توقف للحظة ونظر الي بعينين نصف مغمضتين من خلال جفنيه وكأنه يقدر وزني •

تمتم : اتساءل ان كنت تستطيع تحمله •

اجبته وقد فقدت صبري : استطيع • استطيع • تكلم على حريتك يا أبانا •

خفض صوته اكثر وقال : « ليس الملائكة اكثر من – اتسمع ؟ – ليسوا

اكثر من شياطين مصفاة • وسياتي اليوم ـ آه لو انني استطيع ان اعيش حتى أراه ـ الذي يفهم فيه الناس ذلك وعندها ... » •

وانحنى مقتربا من اذني ، وللمرة الاولى كان صوته يرتعش وهو يقول : « وعندها يتقدم دين المسيح خطوة اخرى على الارض • سيشمل الانسان كله وليس نصفه كما هو الان باحتوائه للروح فقط • ستتسع رحمة المسيح • سيحتوي الجسد ويطهره مثلما يفعل للروح • وسيرى ـ وسيعظ ـ بأنهما ليسا عدوين بل زميلي عمل • اما الان • ما الذي يحدث ؟ ان بعنا أنفسنا للشيطان فانه يدفعنا لانكار الروح ، وان بعنا انفسنا لله يدفعنا لانكار الجسد • متى ينمو قلب المسيح بما لا يكفي لمواساة الروح فقط ، بل لمواساة الجسد ايضا ويصالح بين هذين الوحشين المفترسين ؟ » •

تأثرت بعمق وقلت : شكرا يا ابي للهبة العظيمة التي وهبتني اياها

ـ الى الان وانا ابحث عن شاب استطيع ان آتمنه على هذا قبل ان اموت • الحمد لله الان انت اتيت • خذه • انه ثمرة تمهتني الكامل للروح واللحم •

ـ انك تقدم لهب حياتك كلها • هل سأستطيع حمله ابعد من ذلك وتحويله الى نور ؟

ـ يجب ان لا تسأل ان كنت ستنجح ام ستفشل • ليس هذا ما يهم • ما يهم هو كفاحك من اجل حمله ابعد من ذلك • والله يقدر ذلك ـ الهجوم ـ على حسابنا وليس على حساب احد غيرنا • اما اذا كنا سننتصر او ننهزم فهذا شأنه وليس شأننا •

الوقت لا بأس به لم يتكلم اي منا • ومر ليل الصحراء بأصواته اللامتناهية المقلقة من خارج نافذة الحجرة الصغيرة • وكان من الممكن سماع الثعالب وهي تعوي من بعيد ؟ هي الاخرى كانت تعاني من آلام الحب والجوع •

تمتم العجوز وهو يرسم شارة الصليب : « انها الصحراء • الضوع (١) والثعالب وبعيدا الاسود • اما داخل الدير فالرهبان نائمون يحلمون وفي السماء فوقنا النجوم • والله في كل مكان » •

ومد لي يده قائلا : « لم يعد لدي ما اقوله لك يا بني » •

عدت الى غرفتي بخطوات خفيفة • كان ذهني واضحا وقلبي يخفق بهدوء • كانت كلمات الاب جواكيم كأسا من الماء العذب • ولقد كنت ظامئا • وامتدت البرودة الى نقي عظامي •

---

(١) طائر •

جمعت امتعتي وربطتها في رزمة ووضعتها على ظهري وفتحت الباب ٠
لا بد ان النهار قد بدأ لأن السماء صارت حليبية وبدأ اصغر النجوم يغيب ٠ وفي اسفل الوادي بدأ حجل يقوقي ٠

بعمق استنشقت الفجر المبارك ورسمت شارة الصليب وهمست : « باسم اللـه » ٠

تقدمت في الممر مرة اخرى ٠ كان الضوء ما يزال مشعا في حجرة العجوز ٠ قرعتها وسمعت قدميه الحافيتين تنزلقان على الحجارة المرصوفة ٠ فتح الباب وتطلع الي ٠ وحين رأى الرزمة على ظهري ابتسم ٠

قلت له : « انني راحل يا أبي » وانحنيت اقبل يده : « امنحني بركتك »٠

وضع راحة كفه على شعري وقال :

« باركك الله يا بني ٠ ارحل ٠ وليكن الله معك ! » ٠

مذكرات كازنـــتزاكي

٢

تقرير إلى غريكو

الجندي للطباعة والنشر

٢٢ ـ كريــت

أرهقت · لقد كنت شابا ، قبل أي شيء آخر ، وقلق الشباب عبء مرهق لن يتنازل للاعتراف بحدود طاقة الانسان · انه يبحث عن الكثير ولا يستطيع الا القليل · بعد أن كافحت للوصول الى هذه الحدود ، وبعد أن تعبت من الكفاح عدت الى أرض آبائي · كنت راغبا في الالتقاء بجبالنا وفي رؤية حملة الالوية بطرابيشهم المائلة وضحكاتهم الواسعة وفي الاستماع ، مرة أخرى ، الى حروب الحرية · كنت أريد أن أمشي على تراب الوطن لكي أستمد منه القوة ·

سألني والدي : من أين أنت قادم ؟

فأجبته : « من مكان بعيد جدا » دون أن أذكر كلمة واحدة عن مغامرتي التي كادت أن تنتهي بأداء القسم في سيناء ·

تلك كانت المرة الثانية التي تجهض فيها محاولتي للوصول الى القداسة · المرة الاولى ، كما تذكرون ، كانت في طفولتي حين ذهبت الى الميناء وركضت الى قبطان كان يستعد لرفع مرساته ، ورجوته ان يأخذني معه الى جبل آثوس حيث أستطيع أن أصبح راهبا · وطقت خاصرتا القبطان من الضحك وصرخ بي : « الى البيت ! الى البيت ! » وراح يصفق بيديه ليبعدني وكأنني دجاجة صغيرة ، وتكرر الامر ثانية الآن · صاح بي الاب جواكيم : « عد الى العالم · في أيام كهذه ، وسن كهذه ، العالم هو الدير الحقيقي الذي ستصير فيه قديسا » ·

رجعت الى أرض الوطن لكي أستجمع قواي · غادرت كاسترو ماشيا الى القرى حيث كنت آكل وأشرب مع الرعـاة والفلاحين · واحسست بالخجل حين رأيت كيف تتعارض الحياة الكسول المخادعة في الدير مع أرض كريت كلها ، تلك الارض التي تتصارع ، دون توقف ، ان لم يكن مع الفيضانات والجفاف فمع الفقر والمرض أو الاتراك · وأنا كنت أحاول أن أسـير بعكس رغبتها وأن أخونها بتحولي الى راهب · كان الاب جواكيم على حق · العالم هو ديرنا · والراهب الحقيقي هو ذلك الذي يعيش مع البشر ويعمل هنا مع الله ملتصقا بالتراب · فالله ليس جالسا على عرش فوق الغيوم · انه يصارع هنا على الارض والى جانبنا · لم تعد العزلة طريق الانسـان المكافح ، والصلاة الحقيقية ، الصلاة التي تسلك طريقها الى بيت الرب وتدخله ، هي العمل النبيل بهذه الطريقة يصلي ، اليوم ، المحارب الحقيقي ·

ذات مرة قال لي كريتي : « حين تقف أمام الابواب السماوية ولا تفتح لك لا تمسك بالمطرقة لتدق الباب ! بل أنزل البندقية عن كتفك وأطلق ! »

ـ أتعتقد ، فعلا أن الله سيخاف ويضطر لفتح الابواب ؟

ـ لا يا بني · لن يخاف · لكنه سيفتحها لأنه سيعرف أنك عائد من المعركة ·

لم يسبق لي ، أبدا ، أن سمعت كلمات رجل مثقف بهذا العمق الذي اتسمت به الكلمات التي كنت أسمعها من الفلاحين ، وخاصة منهم العجائز الذين أتموا الكفاح · لقد خمدت عواطفهم في أعماقهم وراحوا يقفون على عتبة الموت وهم يلقون بحنان نظرة أخيرة هادئة الـى الـوراء ·

بعد ظهر أحد الايام التقيت بعجوز على منحدر جبلي · كان نحيلا ذاويا بشعر أبيض كالثلج و « شروال » (١) مرقع وحذائين مليئين

---

(١) هو السروال التقليدي الذي يلبسه الفلاحون ويمتاز باتساع شديد بين الفخذين . وقد استخدمت كلمة « الشروال » لتمييزه .

بالثقوب . وكما هي عادة الرعاة الكريتيين كان يعلق عصاه بين كتفيه . كان يتابع صعوده البطيء من حجر الى حجر ويقف بين حين وآخر ليتطلع مستغرقا الى الجبال والسهل البعيد وفسحة البحر الظاهرة عن بعد من بين ضفتي الوادي .

هتفت اليه من بعد : « يعطيك العافية يا جدي . ما الذي تفعله هنا وحدك ؟ »

- أودع يا ابني . أودع .
- في هذا المكان المهجور ؟ لا أرى أحدا هنا . من تودع ؟

هز العجوز رأسه غاضبا وقال : « أي مكان مهجور ؟ ألا ترى الجبال والبحر ؟ لماذا منحنا الله العيون ؟ ألا تسمع العصافير من فوقك ؟ لماذا منحنا الله آذانا ؟ تقول ان هذا المكان مهجور ؟ هؤلاء هم أصدقائي . اننا نتبادل الاحاديث . أناديهم فيجيبونني . أنا راع . لقد تجولت خلال جيلين برفقتهم . ولكن وقت الفراق قد حان . لقد حل المساء . »

قلت وقد خيل الي ان بصره منحسر بسبب السن : « ولكن ما يزال الوقت باكرا . نحن في الاصيل يا جدي . لم يحل المساء بعد » .

هز رأسه : « أعرف ما الذي أتحدث عنه ، انه المساء كما أقول لك . المساء .. وداعا » .

قلت لأشجعه : « ستسجن حتى كيرون ★ يا جدي » .

فضحك : لقد حققت ذلك . لعنه الله . نعم . لا تقلق . لقد سجنته ، هذا المخاتل العجوز . كيف ؟ بعدم خوفي منه ... وداعا . أنت أيضا تسجنه يا فتاي الجميل وستنال بركتي » .

لم أستطع احتمال تركه يذهب .
- قل لي اسمك يا جدي . لا أريد أن أنساك .

★ ناقل ارواح الموتى الى هيدس .

- حسن اذن • انحـن والتقط حجـرا • سلها وستجيبك • مانوسوس العجوز من كافوهوري • هذا ما ستقوله لك • حسن • يكفي الآن • اعذرني • كما تستطيع أن ترى • انني على عجلة ••• رحلة موفقة •

بعد ان قال ذلك استأنف صعوده وهو يتعثر لضعف بصره •

صحيح اننا لا نستطيع ان نقهر الموت ، الا اننا نستطيع أن نقهر خوفنا من الموت • كان هذا الجبلي العجوز يواجه النهاية بصفاء• لقد وسعت التلال روحه وحصنتها ، فهو لن يتنازل بالركوع أمام كيرون • وما كان يريده منه هو ، ببساطة ، التأجيل لأيام قليلة ريثما يودع مرافقيه السابقين : الهواء المنعش والزعتر والحجارة •

ولكنني فيما كنت أمشي ذات يوم قرب فايستوس ، على سهل ميسارا الواطىء ، رأيت عجوزا آخر مئويا (١) • كان يجلس على عتبة كوخه المتواضع ليتشمس • وكانت عيناه مثل جرحين أحمرين وأنفه يشر ، وريقه يسيل من فمه ورائحة التبغ والبول تفوح منه •

عند دخولي الى القرية كان أحد أحفاد هذا الرجل قد حدثني ضاحكا عن جده • وقد قيل لي أن أذهب وأراه لأنه كان قد عاد طفلا من جديد ، ظاهريا كان يجلس عند مورد القرية كل مساء ينتظر الصبايا أن يأتين لملء جرارهن • وقد قال لي الحفيد : « انه يمط عنقه عند سماعه قرقعة قباقيبهن (٢) • انه نصف أعمى • وهو غير قادر على تمييزهن جيدا ولذلك فانه يمد ذراعيه وينادي : (انت يا من هناك • من أنت ؟ تعالي هنا يا طفلتي ان كنت راغبة في مباركتي • اقتربي ودعيني أراك) • وتذهب الفتاة اليه ضاحكة ، ويمد هذا العجوز الشاذ كفه الى وجهها • يمد كفه بشراهة - حتى ليخيل اليك انه سيلتهمه - يتحسس الانف والفم والذقن بنهم ثم

---

(١) اي أن عمره في حدود المئة عام .

(٢) القبقاب : تسمية شعبية لحذاء خشبي بسير جلدي في المقدمة نقط . وهو يصدر صوتا عند السير به .

يحاول ان ينزل الى الرقبة • لكن الفتاة لا تريد أن تسمح له • تطلق صرخة وتركض وسط الضحك الصاخب • ويترك العجوز وهو يتنهد وراحته ما تزال مفتوحة • وهو الآن يتنهد ! ان عليك ان تسمعه • تنهده شبيه بالثور • لقد سألته ذات يوم : (ولكن لماذا تتنهد يا جداه ؟ ما مشكلتك ؟) فأجابني بدموع مدرارة : (ما الذي تظن أنها مشكلتي ؟ عليها اللعنة ! أليس في رأسك عينان ؟ انني أغرق في القبر تاركا بنات جميلات كهؤلاء ورائي ! آه لو أنني كنت ملكا لكي أذبحهن جميعا بحيث أستطيع أخذهن معي) • ثم ، وبعد أن يحس انه مليء بالخزي ، يبدأ في غناء المانتينا (١) ، والمقطع ذاته دائما ، بصوته المحشرج :

وا أسفاه ! مرت الايام ، الايام الغالية

آه على استعادتها ، ولو من كل عام يوم •

لقد جعلني استماعي للحفيد متشوقا للذهاب وابداء الاعجاب بهذه السنديانة المئوية • دللت على كوخه ، حيث وجدته جالسا يستدفىء بالشمس • قلت له وأنا أتقدم منه : « طيب ، طيب ، يا جدي • سمعت انك في المائة من عمرك • قل لي كيف بدت لك الحياة خلال هذه الاعوام المئة ؟ »

تطلع الي بعينين خابيتين لا أجفان لهما وقال : « انها مثل كأس من الماء البارد يا بني » •

– أو ما تزال ظمآنا يا جدي ؟

رفع كفه عاليا وكأنه يستنزل لعنة وقال : « اللعنة على كل من ليس ظمآنا ! »

★ ★ ★

قضيت ثلاثة أيام في دير وأنا أتطلع الى البحر الليبي • كنت

---

(١) مأخوذة من الكلمة الايطالية مانتيناتا . وهي في الاصل اغنية عاشق يغنيها تحت نافذة حبيبته ، وفي كريت تأخذ المانتيناتا دائما صيغة الدوبيت (بيتين من الشعر) .. وهي أغنية ضحلة ولم تعد محددة بموضوع .

دائما أحب الحياة الفوضوية في الاديرة - الايقاع القديم الذي يسودها ، والقساوسة بعيونهم الماكرة أو الناعسة وكروشهم المنتفخة أو الفارغة وأكفهم الضخمة المسكة بمنجل التشذيب أو الفأس حينا وبالقربان المقدس أو الطبق حينا آخر • كنت أحب رائحة البخور دائما ، وصلاة الصبح في الهيكل فجرا وبعد ذلك توجه الجميع معا الى المعلف الكبير ، غرفة الطعام ، التي تعبق بالفضلات وبزيت الزيتون الزنخ • والمحادثات الهادئة في الامسيات على شرفة الدير وفترات الصمت الثقيلة المليئة بأصداء العالم البعيدة • نادرا جدا ما كنا نتحدث عن المسيح • كان مثل سيد صارم لكنه غائب ، ذهب الى السماء وترك خدمه وحدهم في قلعته حيث قاموا دون خجل باقتحام مخزن الطعام وبالنزول الى مستودع الخمور وبالتمدد على الاسرة الناعمة - أي قاموا بالرقص بعد غياب الهر • ولكن آه لو انه ظهر بالباب بغتة ! كيف كانت الموائد ستنقلب وأية صرخات كان هؤلاء المترهبنون ادعاء سيطلقونها وكيف كان قوس المولى سيرن !

ذات يوم بينما كنت جالسا على شرفة الدير مع أحد القسس حولت الحديث الى القديس الذي أحبه كثيرا ، فرانسيس أسيسي • لم يكن القس قد سمع به من قبل • تجهم وجهه (كان فرانسيس قديسا كاثوليكيا ، أي كان مهرطقا) • غير أن الفضول اليوناني هو الذي انتصر أخيرا •

- « جميل وحسن • أنت تحكي وأنا أستمع » ولف ذراعيه حول بطنه مستعدا لادانة كل ما سأقوله •

وبدأت : اعتاد هذا القديس أن يقول لله في صلواته : كيف أستطيع أن أتمتع بالجنة يا مولاي وأنا أعرف ان الجحيم موجود ؟ يا الهي العزيز ارحم الملعونين وضعهم في الفردوس أو فلتدعني أنزل الى جهنم لأواسي المعذبين • سأقيم نظاما يهدف الى النزول الى جهنم لمواساة الملعونين ، فان لم نستطع التخفيف من آلامهم سنبقى نحن في الجحيم لنتعذب معهم » •

وانفجر القس ضاحكا وقال : « دعني اقص عليك الآن قصة جميلة • ذات يوم دعا أحد الباشاوات معوزا الى العشاء • وضع

امامه صحن زيتون وصحنا من الكافيار الاسود • ودون أن يتطلع الى الزيتون كثيرا هجم المعوز على الكافيار بشراهة وأتى عليه • وقال له الباشا : كل بعض الزيتون أيضا يا أخي • فأجابه الآخر : لماذا يا باشا أفندي ؟ ما الغلط في الكافيار ؟

« أتفهم ؟ الفردوس هو الكافيار الاسود • آسف • ولكن بمقدار ما يعنيني الامر فان صديقك فرانسيس - كيف تقول اسمه ؟ - ليس الا كاثوليكيا أبله آخر » •

يوم مغادرتي نهضت قبل الفجر وذهبت لصلاة الصبح متشوقا لسماع الترنيمة المرتعشة الرتيبة التي يرددها القسس لله والكلمات المؤثرة المليئة بالندم التي ابتكرها مؤمنو الازمنة القديمة ليصبّحوا بها على الله قبل طلوع النهار : « الهي يا الهي ! أقف أمامك صباحا • روحي ظامئة اليك واللحم يتوق اليك في الارض الجافة الظامئة التي لا ماء فيها •••• » وقفت فوق مقعد في جوار النافذة التي كنت أرى البحر تحتي من خلالها ، متسعا بلا حدود وغير مطروق ، ما يزال أبيض في ضباب الصباح وممتدا الى رمال أفريقيا الحارة • كانت العصافير قد استيقظت مع القسس وبدأت أنغامها لتحية النور • وسط الغناء كانت ذروة شجرة السرور قد أضيئت بينما كانت أوراق شجرة البرتقال المجاورة لها ما تزال غارقة في قتامة خضراء معتمة • كان عازف السيمانترون قد أكمل جولته على الحجرات لايقاظ القسس ، وقد دخل الآن الى الهيكل نصف المضاء وأزاح وشاحه (١) المتدلي ثم علق السيمانترون الخشبي قرب الباب •• وفيما كان يقف في المدخل نصف مظلل ، كان للحيته المجعدة القاتمة وشعره المتدلي على كتفيه بريق أخاذ • بطوله وتقاطيعه السوداء كان يتدفق شبابا • كم من المخجل ان جسدا كجسده لم يقدر له أن يعانق امرأة وينجب أطفالا • لا بد أن أبناءه وبناته كانوا سيجمّلون العالم •

---

(١) Kahymmaflac : غطاء من قماش اسود يوضع فوق قلنسوة القسس الارثوذكس ويتدلى من الخلف حتى الخصر . ويجمع احيانا بشكل هرمي فوق الراس . وهو يشبه الخمار في استخدامه : انه يمنع القس من رؤية العالم .

وفيما كنت أفكر في كيف أن خسارة العالم قد فشلت في تحقيق كسب لله ظهرت بهدوء امرأة متشحة بخمار أسود في المدخل وعلى ذراعيها طفل. كان رئيس الدير قد حذرني في اليوم السابق، تحذيرا مصحوبا بابتسامة ماكرة ، بأن لا أصدم ان جاءت امرأة حديثة الزواج من قرية مجاورة في الصباح طالبة البركة لوليدها الجديد . فقد كانت تريد ان تحميه من العين الشريرة كان من الواضح انه جميل جدا وكانت عيناه المحاطتان بحاجبين كثيفين تشكلان تعويذة له .

وقفت قرب الباب وانتظرت برأس محني ان تنتهي صلاة الصبح لكي يقترب منها رئيس الدير بمنضخة الماء المقدس . وبدا أن الجو يتغير ، وان الانفاس الرهبانية الثقيلة تمتزج بأنفاس المرأة ، ومن الكنيسة تفوح رائحة زيت الغار من شعر العروس المغسول منذ قليل . ودبت الحياة في صوت الرئيس الرتيب ، تماما في اللحظة التي كان ينشد فيها الترنيمة المرحة : « انه الرب الاله ولقد تجلى لنا ، مبارك القادم باسم الرب ... » ومال الرهبان بمقاعدهم الى الامام والتفتوا وألقوا نظرات جانبية نحو الباب وبدأ اثنان أو ثلاثة منهم بالسعال واتجه عازف السمانترون الى المرأة وهمس لها بشيء ما . ودون أن ترفع رأسها تقدمت خطوتين الى الامام وجلست على الكرسي القريب من الباب . كنت تستطيع ان تحس بأن كلا منهم قد فقد هدوءه وان الرهبان كلهم الآن ، وأنا بينهم ، لم يعودوا قادرين على الانتظار لانتهاء الصلاة .

كانت الشمس في ذلك الوقت قد أشرقت . وامتلأت الباحة بالضوء وراحت الاشعة المائلة تدخل الكنيسة جاعلة الايقونات المقدسة وكذلك وجوه الرهبان وأيديهم تشع متلامعة . ونزل الرهبان عن مقاعدهم وهم يتنهدون جميعا « حمدا لله ! حمدا لله ! » لقد انتهت الصلاة .

ارتدى رئيس الدير بطرشيله وامسك بالمنضحة ، ووقف عازف السمانترون خلفه ومعه وعاء القربان المليء بالماء المقدس . ووضعت المرأة نفسها بالباب وجسدها كله في الضوء . كانت الآن قد ألقت

عنها خمارها كاشفة عن وجهها كله · رفعت عينيها وتطلعت الى رئيس الدير الذي كان قد وضع راحته على رأس الطفل الصغير وبدأ يتلو المباركة · ثم ثبتت نظرها على عازف السمانترون · وذكرتني عيناها الواسعتان السوداوان الحزينتان بحلاوتهما المعجزة عن الوصف بعيني بورتايتيسا في دير ايفيرون ـ الحلاوة ذاتها وقلق الام ذاته على الابن ·

وبغتة بدأ الطفل يرفس بقدميه الصغيرتين ويزعق · ولكي تسكته فكت الام أزرار صدرها وأخرجت ثديها · وتلقف الطفل الحلمة وهدأ · كانت لحظة لن أنساها ما حييت : صدر العروس الملتمع باستدارته الناصعة ورائحة الحليب تفوح في الجو وتزداد قوة مع القليل من العرق والبحر الليبي ممتد في الخارج ، أزرق قاتما الآن ، خلف كتفي المرأة · ولجم لسان رئيس الدير ولكن لوهلة فقط · تغلب الاله في داخله فأكمل الصلاة دون أن يخزي نفسه ·

وحثني الشيطان على التحدث الى عازف السمانترون · توجهت اليه في الفناء على الرغم من انني لا أعرف ماذا سأقول ·

وبدأت : أب نيكو ديموس ··· !
لكنه وسع خطاه ودخل حجرته ·
بعد ساعة عدت الى تطوافي على قدمي كما كنت أفضل ·

كم من السنوات مرت منذ ذلك الحين ؟ أربعون ؟ خمسون ؟ لقد تلاشى الدير من ذاكرتي ولم يبق ، بديلا عنه ، الا ثدي الام الخالد الابيض المدور متلامعا فوق البحر الليبي ·

★ ★ ★

باغتني الليل في اليوم التالي وأنا أقترب من قرية · كنت جائعا ومتعبا من السير طوال النهار على الارض القاحلة الصخرية ، الا انني على الرغم من عدم معرفتي بأحد في القرية ومن عدم وجود أدنى فكرة عما يمكن أن يكون اسمها فقد أحسست بالراحة كنت أعرف أنه لا يهم أن تطرق أي باب في قرية كريتية فان الباب

سيفتح لك ، وستعد وجبة على شرفك وستنام بين أفضل ملاءتين في المنزل ، وفي كريت ما يزال الغريب هو الاله المجهول ، وأمامه تفتح الابواب كلها والقلوب كلها ،

كان الليل قد بدأ يهبط حين دخلت القرية ، الابواب كلها مغلقة والكلاب في الدور ، وقد شمت رائحة الدخيل ، بدأت بالنباح ، أين سأذهب وأي باب سأدق ؟ الى بيت القس حيث يجد الغرباء كلهم الملجأ ، ان القسس في قرانا غير مهذبين وثقافتهم ضحلة ، وهم عاجزون عن أية مناقشة نظرية حول المبدأ المسيحي ، غير ان المسيح يعيش في قلوبهم وأحيانا يرونه بعيونهم ان لم يكن على وسادة مصيبة الحرب فانهم يرونه جالسا تحت شجرة لوز مزهرة في الربيع ،

فتح باب ، وخرجت امرأة عجوز صغيرة وبيدها مصباح لكي ترى من هذا الغريب الذي دخل القرية في ساعة كهذه ، توقفت وقلت : « أطال الله عمرك يا سيدتي » وقد نعمت صوتي لئلا أخيفها ، « أنا غريب وليس لدي مكان أنام فيه فهل تتلطفين بأن ترشديني الى منزل القس ؟ »

– بكل سرور ، سأرفع المصباح لكي لا تتعثر ، فالله – تبارك اسمه – قد منح التراب للبعض والحجارة للبعض الآخر ، لقد كانت الحجارة من نصيبنا ، انتبه لخطواتك واتبعني » ،

سارت أمامي بالمصباح ، انعطفنا عند زاوية ووصلنا الى باب ذي قنطرة ، وكان هناك مصباح معلق عليه ، قالت العجوز : « [illegible] بيت القس » ،

رفعت المصباح فوقع الضوء على وجهي وتنهدت ، كانت على وشك ان تقول شيئا ما لكنها غيرت رأيها ،

قلت : شكرا لك يا سيدتي اللطيفة ، [illegible] ازعاجك ، تصبحين على خير ،

ظلت تتطلع الي دون أن تبتعد ،

ـ ان كنت لا تنزعج من بيت فقير تستطيع ان تأتي وتبيت عندي ٠

لكنني كنت قد طرقت باب القس ٠ سمعت خطوات ثقيلة في الدار ٠ وفتح الباب ورأيت رجلا عجوزا يقف أمامي بلحية ناصعة البياض وشعر طويل منسدل على كتفيه ٠ ودون ان يسألني من أنا وما أريد مد يده :

ـ أهلا ٠ هل أنت غريب ؟ ادخل ٠

وأنا أدخل سمعت أصواتا ٠ فتحت أبواب وأغلقت ثم انسلت عدة نساء مسرعات الى غرفة مجاورة واختفين ٠ وأجلسني القس على الاريكة ٠

ـ زوجتي ، البابا ديا ، متوعكة قليلا ٠ عليك ان تعذرها ٠ لكن أنا نفسي سأطبخ لك وأعد المائدة لعشائك وأهيء السرير لنومك ٠

كان صوته مثقلا ومتألما ٠ تطلعت اليه ٠ كان شاحبا جدا وكانت عيناه منتفختين وملتهبتين بتأثير البكاء ٠ ولكن لم تخطر لي أية فكرة عن مصيبة ٠ أكلت ونمت ٠ وفي الصباح جاء القس وجلب لي صينية فيها خبز وجبن وحليب ٠ مددت له يدي وشكرته وودعته ٠

قال : باركك الله يا بني ٠ وليكن المسيح معك ٠
ذهبت ٠ وفي طرف القرية ظهر رجل عجوز ٠ وضع يده على صدره وحياني ٠ ثم سألني :
ـ أين قضيت الليل يا بني ؟
ـ في بيت القس ٠
تنهد العجوز : آه ٠ المسكين ٠ وانت لم تشم رائحة أي شيء ؟
ـ ما الذي كان هناك لأشم رائحته ؟
ـ لقد مات ابنه صباح الامس ٠ ابنه الوحيد ٠ ألم تسمع النسوة يندبن ؟
ـ لم أسمع شيئا ٠ لا شيء ٠
ـ لقد نقلنه الى الغرفة الداخلية ٠ لا بد أنهن كبحن ندبهن لكي لا تسمع وتنزعج ٠

··· مع السلامة ، رحلة موفقة !

كانت عيناي قد امتلأتا بالدموع · وهتف العجوز مستغربا : « ما الذي يبكيك ؟ آه · عرفت · انت شاب · انك لم تتعود على الموت بعد · رحلة موفقة ! »

★ ★ ★

جميل أن تكون في كريت ولكن من أجل أن تستمد منها العزم فقط · بعد أشهر قليلة أحسست بالضيق من جديد · ضاقت الطرق ، وتقلص بيت أسرتي وفقد الحبق والقطيف أريجهما · وبعد أن رأيت كيف استقر أصدقائي القدامى تملكني الرعب · أقسمت أن لا أحبس نفسي أبدا ضمن الجدران الاربعة لمكتب وأن لا أنسجم مع حياة الدعة وأن لا أوقع على اتفاقية مع الضرورة · تعودت أن أنزل الى المرفأ واتطلع الى البحر · كان يبدو بابا للحرية · آه ما أحلى أن تفتحه وتهرب ·

بدأت أسير جيئة وذهابا في المنزل بصمت مطبق · وكان والدي يراقبني وقد قطب حاجبيه · وذات يوم سمعته يقول لأمي : ما الذي حدث لابنك هذا ؟ أية أفكار حمقاء تتآكله ؟ بدل أن يتطلع أمامه ليقبض على ما هو في متناول يده يتطلع الى ما لا يمكن الحصول عليه · انه يرى ان عصفورين على الشجرة أحسن من عصفور في اليد · قولي عني انني كاذب ان لم يكن ابننا مثل أولئك المجذوبين الذين قرأت عنهم في قصص الجنيات ، أولئك الذين يذهبون الى أطراف الارض مفترضين أنهم سيجدون نبع الشباب ·

لكنه كان يبكي على حليب مراق · كان يتوقع مني ان أفتح مكتبا وأبدأ العمل عرابا في حفلات التعميد في القرية وفي الاعراس لكي أكسب أصدقاء سينتخبونني الى الهيئة التشريعية ، وأن اكتب المقالات في الصحيفة المحلية وأن أصدر كراسا يقول ان المنطقة تسير الى الهلاك وانه من الضروري ، بأية طريقة ، أن يظهر بشر جدد ويتسلموا الدفة ·

وذات يوم لم يستطع تمالك نفسه فسألني : « لم تبق تتجول

هكذا دون أن تقوم بشيء ؟ متـى تنـوي أن تفتـح مكتبا وتبدأ العمل » ؟

ـ لم أتهيأ لذلك بعد ٠
● ما الذي تحتاج اليه أيضا ؟

لم أكن احتاج لشيء وفي الوقت نفسه كنت أحتاج الى كل شيء ٠ كنت ما أزال أتعذب تحت وطأة صلف الشباب وشراهته ٠ كان نساك طيبة بتوقهم الى المطلق ينغلون في أعماقي (وربما أنهم ما يزالون) كما كان أيضا الرحّل العظام الذين وسعوا الارض بترحالهم ٠

استجمعت شجاعتي وأعدت القول : « لم أزل غير مستعد.ان جامعة أثينا غير كافية ٠ علي أن أتابع الدراسات العليا » ٠

ـ وهذا يعنـي ؟

ترددت ٠ كان أبي يجلس على الاريكة في ركنه المعتاد قرب نافذة الدار ٠ تابع درج لفافته وفلشها دون ان يتطلع الي ٠ كان عصر يوم أحد ، وأشعة الشمس تتخلل الالواح ملقية ضوءها على وجهه الصارم الذي حرقته الشمس وعلى شاربيه الكثيفين وعلى الندبة في جبينه التي لا بد أن سيفا تركيا قد خلفها فيه ٠

ـ وهذا يعني ؟ أعاد السؤال رافعا رأسه الآن لينظر الي ٠ « هل تريد ان ترحل الى الخارج ؟ »

ـ نعم ٠
● الـى أيـن ؟
أظن ان صوتي كان يرتجف : الى باريس ٠
ظل أبي صامتا لحظات قليلة ٠ وأخيرا قال : طيب ٠ اذهب ٠

كان أبي وحشيا وغير مثقف الا انه لم يمنع عني أبدا أي شيء له علاقة بتطوري الفكري ٠ وقـد سمعتـه ذات يوم يقول لأحـد أصدقائه وقد كان مزاجه طيبا : « من يسأل عن الكروم اللعينة أو الزبيب والخمر وزيت الزيتون ! فلتتحول مواسمي كلها الى ورق

وحبر لابني • انني مؤمن به ! » كان يقوم بآية تضحية معلقا علي كما يبدو آماله كلها في خلاصه الشخصي ، لأنني ان نجوت نجا معي وكذلك نجت معنا ذريتنا المجهولة كلها •

حين كنت ما أزال طفلا قلت له مرة إنني أريد أن أتعلم العبرية لكي أقرأ التوراة بلغتها الاصلية • وكان هناك يهود في ميغالو كاسترو في ذلك الحين ، فقام والدي باستدعاء الحاخام واتفقا على أن أذهب اليه ثلاث مرات في الاسبوع نتلقي دروس العبرية • ولكن ما أن سمع أقرباؤنا وأصدقاؤنا بالامر حتى وقفت شعور رؤوسهم وركضوا الى أبي صارخين : « ما هذا الذي تفعله ؟ أليست لديك مشاعر تجاه ابنك ؟ ألا تعرف ان هؤلاء الصالبين يضعون الاطفال المسيحيين يوم الجمعة الحزينة في جرن مليء بالمسامير ويشربون دماءهم » وأرهق والدي من صرخاتهم ومن بكاء أمي • فقال لي ذات يوم : « لقد أوقعنا أنفسنا في التباس طريف • انس مسألة العبرية ، ستتعلمها حين تكبر » •

كلما كنت أقول له أنني أريد أن أتعلم لغة أجنبية كان يقول : « جميل هيا • تعلمها • ولكن بشرط واحد فقط : ان تلبس قميصا داخليا آخر » • يبدو انني كنت نحيلا ولا بد انه كان خائفا علي • تعلمت ثلاث لغات أجنبية قبل أن أغادر كريت وكان علي نتيجة لذلك أن أرتدي قمصانا داخلية اضافية • وحين ذهبت الى الجامعة في أثينا خلعتها •

ـ طيب • اذهب • قال ذلك مرة أخرى

لم أستطع استيعاب فرحتي • انحنيت للامساك بيده وتقبيلها • ولكنه سبقني وسحبها قائلا : « لست قسا » •

في اليوم التالي قبلت يد أمي • انحنت علي ومنحتني بركتها وطلبت الي حبا بالله أن لا أتحول الى كاثوليكي • ثم علقت حول رقبتي تميمة وكانت تحتوي على قطعة من (الصليب الحقيقي) • يبدو ان جدي كان يلبسها في الحروب فلم تلمسه رصاصة واحدة •

رافقني والدي الى المرفأ وهو يتطلع الي بقلق وفضول من

وقت لآخر من زاوية عينه . لم يستطع ان يفهم من أنا وماذا كنت أريد ولماذا كنت أتنقل من مكان الى آخر بدل المكوث والاستقرار في كريت .

وبغتة قال لي حين وصلنا الى الواجهة المائية : « أظن انك تشبه جدك . لا أعني والد أمك بل والدي . القرصان » .

وبعد لحظة صمت تابع : « ولكنه كان يسطو على السفن ويقتل ويسلب ويزيد أملاكه . فما شأنك أنت ! أية سفن تسطو عليها ؟ »

وصلنا الى الميناء فشد على يدي : « وداعا . وحظا سعيدا وانتبه لما أنت فيه » ثم هز رأسه غير راض أبدا عن ابنه الوحيد .

وبالفعل ، أية سفن أسطو عليها ؟

٢٣ ـ باريس ـ نيتشه

الشهيــد العظيــم

الفجر · كان هناك رذاذ خفيف ولطيف يرذ · الصقت وجهي بنافذة العربة فاستطعت رؤية باريس تمر من وراء شبكة المطـر الشفافة ، تمر ضاحكة وسط دموعها وهي ترحب بي · رأيت الجسور تمر قربي والمباني متعددة الطوابق والمغطاة بالسخام والحدائق والكنائس ، وأشجار الكستناء القوية العارية من أوراقها والناس يسيرون مسرعين في الشوارع العريضة المضاءة · من خلال خيوط المطر المتدلية استطعت أن أرى وجه باريس اللعوب الفاتن كله وهو يبتسم ويتلألأ تماما كما نرى الحائك خلف خيطان النول ·

سألت نفسي عما يمكن ان يكون مخبأ لي في هذه المدينة التي طال اشتهائي لها · ولمت روح الانسان لعجزها عن التنبؤ بالمستقبل ولو بساعة واحدة قادمة · أفلا تستطيع الروح ان تفعل شيئا لرؤية ما سيأتي الا انتظار ولادة ما لم يولد ؟ فهل الروح كئيبة وهشة مثل اللحم ؟ كنت اتساءل عما اذا كنت سأجد في هذه المدينة الكبيرة ما كنت أبحث عنه · ولكن ما الذي كنت أبحث عنه ؟ ما الذي كنت أرغب في أن اجده ؟ أكان هذا يعني ان الدليل ذا اكليل الشوك لم يكن كافيا لي ، الدليل الذي كان يقف كمعلم ، على قمة جبل عالية ، مصنوع من الحجارة والدم وكان يدلني على الطريق ؟ أم ان الاب

جواكيم كان على حق في دفعي لعبور الجحيم والمطهر الارضيين ان كنت أرغب في الوصول الى الفردوس - أن أجرب المتعة والالم والخطيئة وبعدها اتجاوز المتعة والالم والخطيئة ! ان كنت أرغب في الخلاص ؟

كان الضوء قد رفع رأسه قليلا ، شمس ملساء علقت نفسها في هذه السماء الغريبة المؤلفة من الضباب والكآبة واللطف العصي على التعبير . كم يبدو سائق معجلة ★ اليونان المؤنس مقتلعا من جذوره في هذه الاراضي الغريبة . بعيدا في وطنه كان يعري كل شيء ويكسوه من جديد بضوئه جاعلا الروح تتألق صريحة ومرئية مثل الجسد . ان الشياطين تهجر حجرتها المظلمة هناك فيتغلغل الضوء الى نقي عظامها الاسود ويحولها الى مخلوقات طاهرة حلوة الكلام مثل البشر . ولكن الشمس هنا مختلفة الامر الذي يعني القول بأن وجهي الارض والروح مختلفان . كان علينا ان نتعلم محبة الجبين نصف المضاء للجمال الجديد والابتسامة الكتوم والبهاء الخفي .

هذه ملامح الله الجديدة ، هكذا رحت أفكر وأنا أحدق بشراهة الى الاشجار والبيوت والنساء المتبرجات ★★والكنائس الكئيبة . هذه هي ملامح الله الجديدة . انني أسقط وأصلي لمجده .

كان احتكاكي الاول بهذه الملامح الارضية الجديدة نشوة دامت عدة أيام ، بل عدة أسابيع . الشوارع والحدائق والمكتبات والمتاحف والكنائس القوطية والرجال والنساء في المسارح وفي الشوارع والثلج الجميل الذي بدأ يهطل - كل منها كان ثملا أيضا وراحت كلها تتقلب أمام روحي المبتهجة الى أن زالت السكرة أخيرا وهدأ العالم نفسه مرة أخرى وثبت .

وذات يوم بينما كنت منكبا على كتاب في مكتبة سانت جنفياف

★ يقصد الشمس .

★★ mascaraed اي اللواتي يستخدمن المسكرة وهي مستحضر تجميلي لصبغ الاهداب والحواجب .

جاءت الي فتاة • كانت تمسك بكتاب يحتوي على صورة رجل وقد غطت أسفل الصفحة بكفها لكـي تخفـي اسمه • انحنـت فوقي وتطلعت الي بدهشة ثم أشارت الى الصورة • وسألتني :

ـ مـن هـو ؟

هززت كتفي : كيف لي أن أعرف ؟

ـ ولكنه انت ـ الصورة ! انظر الى الجبـين والـى الحاجبين الكثيفين والعينين الغائرتين •

ونظرت الى الصورة مضطربا •

ـ طيب • من هو ؟ قلت وأنا أحاول أن أزيح يد الفتاة جانبا لكـي أرى اسمه •

ـ ألا تعرفه ؟ أهي المرة الاولى التي تراه فيها ؟ انه نيتشه !

نيتشه ! لقد سمعت عنه لكنني لم أكـن قـد قرأت أيا من كتبـه بعـد •

ـ ألم تقرأ « ولادة التراجيديا » أو « زرادشت » ؟ عن العـود الازلي أو الانسان المتفوق (السوبرمان) ؟

ـ لا شيء • لا شيء • أجبت الفتاة بخجل •

ـ انتظر لحظة ! هتفت وغابت على عجل •

خلال دقائق قليلة عادت ومعها زرادشت : « هاك » قالت ضاحكة • « ها هنا غذاء قوي أسدي لعقلك ـ ان كان لديك عقل وان كان جائعا » •

★ ★ ★

كانت تلك واحدة من اللحظات الحاسمة في حياتي • فبفضل تدخل طالبة جامعية مجهولة كان قدري ينصب لي كمينا في مكتبة سانت جنفياف • كان المسيـح الدجـال ينتظـرني هنا، ذلـك المحارب الناري العظيم المضرج بالدماء •

في البدء أرعبني تماما • لم يكن ينقصه شيء • براثن ليو سيفر وأنيابه وأجنحته كانت كلها ظاهرة اضافة الى الصفاقة والغطرسة والعقل العاصي والرغبة الجامحة في التدمـير والسخريـة والشـك والضحكة العاقة • لكن طيشه وكبرياءه حرراني من قدميّ ، وأثملني الخطر فغرقت في كتابه بخوف وتوق وكأنني أدخل غابـة صاخبة مليئة بالوحوش الضارية والنباتات المدوخة •

كل يوم كنت أعجز عن انتظار انتهاء دروسي في السوربون وهبوط الليل • كنت اتشوق للذهاب الى البيت وللطلب الى صاحبة المنزل أن تشعل لي النار لكي أفتح كتبه - كانت كلها مكومة على مكتبي - وأبدأ في مشاركته كفاحه • تعودت شيئا فشيئا على صوته ، ونفسه اللاهث وصرخاته المتألمة • لم أكن أعرف ان المسيح الدجال - لقد اكتشفت هذا لتوي - يكافح ويتألم تماما كما يكافح المسيح ويتألم وأنهما أحيانا ، في لحظات الكارثة ، كان وجهاهما يبدوان متشابهين •

كانت أقواله تبدو لي تجديفات عاصية والسوبرمان عنده قاتل لله • الا ان لهذا العاصي سحرا غامضا • كانت كلماته رقية مغوية تدوخ وتسكر ، انها تجعل قلبك يرقص والحقيقة ان فكره كان رقصة ديونيسية (عربيدة)•، وأغنية نشوانة قائمة بانتصار في أكثر اللحظات يأسا من مأساة الانسان والانسان المتفوق • ورغما عني أعجبت بألمه وجلده وطهارته كما أعجبت بقطرات الدم التي لطخت حاجبيه وكأنما هو أيضا ، المسيح الدجال ، كان يضع على رأسه اكليلا من الشوك •

وعلى الرغم من انني لم أكن قد توصلت الى هذه الفكرة بوعي الا ان الشخصين ، المسيح والمسيح الدجال ، بدآ يظهران بالتدريج • أكان صحيحا ، اذن ، أن هذين الاثنين لم يكونا عدوين أبديين وأن ليوسيفر لم يكن عدو الله ؟ وهل سيتمكن الشر ، أخيرا ، من الدخول في خدمة الخير ويتعاون معه ؟ ومع مرور الايام وفيما كنت أدرس أعمال هذا النبي المعادي لله كنت أصعد درجة بعد أخرى للوصول الى وحدة صوفية حمقاء • كانت الخطوة الاولى في الاستهلال ، كما قلت لنفسي ، هي : الخير والشر عدوان • الدرجة الثانية والاعلى هي : الخير والشر زميلا عمل • الخطوة الاعلى ، أعلى ما أستطيع الوصول اليه الآن هي : الخير والشر متطابقان (هما الشيء ذاته) • عند هذه الدرجة توقفت مرتعدا من الشك الرهيب الذي لمع في عقلي : ربما ان هذا الكافر القديس كان يحثني على الانضمام اليه في كفره !

قضيت الشتاء كله منشغلا بهذه المعركة • صار النزاع أكثر عنادا ودقة مع مرور الزمن ، استنشقت لهاث الخصم ، لهثات عميقة

متألمة من بعد متزايد الى أن بدأت الكراهية تتحول وتتغير ، ودون أن أدري تحول الصراع الى عناق • لم يسبق لي في حياتي كلها أن احسست ، بمادية ملموسة كهذه وبدهشة كهذه ، ان الكراهية ، بعبورها بنجاح عبر الادراك والشفقة والتعاطف ، يمكن ان تتحول الى حب • وخطر لي أن الامر ذاته يمكن ان يحدث حين يتصارع الخير مع الشر • كان الامر يبدو وكأنهما كانا ، فيما مضى ، متحدين ثم تفرقا وهما يكافحان الآن للالتقاء من جديد • لكن وقت المصالحة التامة لم يحن بعد • واذا كان في وسعي أن أحكم من خلال تجربتي فلا بد أن وقتا كهذا سيحين ، أي انه سيأتي اليوم الذي يعترف فيه بالخصم وبمساهمته الحرة في المركب العظيم الذي يسمى « الكون المتناسق » ـ كوسموس ـ وبتعبير آخر « التوافق والانسجام » ـ هارموني •

ما أثر في أكثر من أي شيء آخر ، أيها (الشهيد العظيم) هو حياتك المأساوية المقدسة • كان المرض ألد أعدائك وأوفى أصدقائك ، الوحيد الذي ظل وفيا حتى الموت • لم يكن يسمح لك أبدا أن تسترخي أو ان تبقى حيث أنت ولم يسمح لك أن تعلن : انني مسرور هنا ولن أذهب أبعد من ذلك • كنت لهبا تأججت ثم ذويت تاركا رمادك خلفك ثم رحلت •

نعم ، أعرف من أين أتيت •
مضطرما كاللهيب
أحترق وأتلف •
كل ما ألمسه يتحول الى ضوء
وكل ما أغادره يتحول الى فحم •
لا شك انني ملتهب •

حين جاء الربيع وصار الطقس أكثر دفئا بقليل انطلقت في رحلة حج لكي أعثر على قطرات دمك الذي ما يزال حارا وأتابعها على كل مرتقيات كفاحك واستشهادك البطوليين •

ذات صباح ماطر كنت أتجول عبر الضباب باحثا عنك في الازقة الضيقة الموحلة في قريتك ـ مسقط رأسك • ثم وجدت بيت

أمك في المدينة الصغيرة المجاورة ذات الكنيسة القوطية الفخمة . خلال نوبات الحمى الشديدة كنت تلجأ الى هناك لكي تجد الراحة في ان تعود ابنها من جديد . ثم أتت الشوارع المقدسة على كورنيش جنوه حيث كنت تجد متعة كبيرة في البحر وحلاوة في السماء والناس المتواضعين . كنت لطيفا وحليما فقيرا جدا ومرحا جدا الى درجة ان سمتك نسوة الجوار بالقديس . وأنت تذكر انك قد خططت للبدء بحياة على غاية من الهدوء والبساطة : « إنني أعتزم أن أكون مستقلا بطريقة لا يؤذي فيها استقلالي أحدا ، أن يكون لدي كبرياء خبيئة رخيمة الصوت ، أن أنام دون هموم وأن أتجنب الشراب وأن أعد وجباتي الخاصة المتواضعة : أن لا يكون لدي أصدقاء لامعون يفرضون أنفسهم ، وأن لا أتطلع الى النساء أو أقرأ الصحف أو أبحث عن امتيازات ، وأن اختلط مع الصفوة المختارة فقط فان لم أجد الصفوة فأختلط مع الناس العاديين » .

كم تأثرت حين كنت أبحث تحت شمس الربيع في انغادين بين سيلز ماريا وسيلفابلانا عن الصخرة الهرمية حيث هيمنت عليك للمرة الاولى رؤيا (العود الازلي) ! لقد صرخت وسط البكاء والنواح : « مع ان حياتي كانت مريرة ولا تطاق فلتحل عليها البركة ولتتكرر مرة بعد أخرى مرات لا تحصى » . ذلك لأنك كنت تتذوق فرح الابطال المرير ، الفرح الذي كان يبدو للنفوس الحقيرة استشهادا : أن ترى الهاوية أمامك وأن تتقدم اليها دون أن تتنازل للاحساس بالخوف .

كانت القمم المحيطة بي تطلق بخارا أزرق في ضوء الشمس . سمعت ضجة عن بعد ورأيت جبلا من الثلج ينهار بغتة فتذكرت ما كتبه اليك صديقك : « يبدو لي كأنني أسمع في كتبك صوت الشلال البعيد » .

في طريقي داخل سيلز ماريا التفت الى اليمين مرتعشا بينما كنت أعبر جسر المشاة الصغير الذي تليه المقبرة المتواضعة ، ارتعشت ، فمثلما أحسست أنت بغتة بوجود زرادشت الى جانبك ، كذلك فانني رأيت ظلي تحتي ينقسم الى اثنين وأنا أنظر اليه - وكنت أنت هناك تسير الى جانبي .

أيها الشهيد العظيم مآثرك ومحنك كلها تبرز في عقلي • حين كنت ما تزال مليئا بالشباب والحماس كنت تستجوب باصرار كل بطل لكي تختار ذلك الذي سيخضع قلبك • لقد جاء اليوم الذي التقيت فيه بشوبنهور (برهمي الشمال) • جلست عند قدميه واكتشفت الرؤية البطولية واليائسة للحياة : العالم من خلفي • وكل شيء ، المرئي وغير المرئي ، حلم خادع • لا شيء موجود الا الارادة ــ وهي عمياء دون بداية أو نهاية لا هدف لها ، مستهترة ، ليست عقلية أو لا عقلية • هائلة بشكل لا عقلأني • حيث تنحشر في الزمان والمكان وتتفتت الى أشكال لا نهائية • وتمحوها • ثم تخلق أشكالا جديدة وتسحقها من جديد • وتستمر الى الابد على هذا المنوال • ليس هناك شيء اسمه التقدم • فالقدر لا يحكمه العقل ، والدين والاخلاق والافكار العظيمة عزاء لا قيمة لها ولا تصلح الا للجبناء والحمقى • الانسان القوي ، الذي يعرف ذلك يواجه سلسلة الاوهام في العالم (فانتا سماروجيا) هذه التي لا غاية لها ، بهدوء ، ويفرح لتفسخ قناع مايا ★ ذي الاشكال المتعددة والعمر القصير •

كل ما تنبأت به في الماضي ، آه يا نبي انسان المستقبل المتفوق ، قد نظم الآن في نظرية صارمة ومحبوكة وتسامى الى مستوى الرؤيا البطولية • فالشاعر والفيلسوف والمحارب الذين كانوا متخاصمين في قلبك قد أصبحوا أخوة • وصار الزاهد الشاب أمام الموسيقى والعزلة والمشيات الطويلة يستمتع بالسعادة لفترة معينة •

ذات يوم حين فاجأك المطر الغزير في الجبال كتبت : « ما الذي يعنيني من المبادىء الاخلاقية ـ افعل هذا ولا تفعل ذاك ؟ كم يختلف عنها البرق والعاصفة والبرّد ـ القوى الحرة الخالية من التعاليم الاخلاقية ! كم هي سعيدة وقوية تلك القوى التي لا يزعجها الفكر ! »

كانت نفسك تفيض بمرارة بطولية حين قيض لك القدر ،

★ قوة سحرية ، عند الهنود ، فيها قدرات الالهة والشياطين .

ذات يوم في زهو شبابك ، أن تلتقي وجها لوجه بدليلك الثاني بعد شو بنهور ، ذلك الانسان الذي منحك أعظم متعة في حياتك : فاغنر .

كانت لحظة عظيمة . كان عمرك خمسة وعشرين عاما ، متوهجا بالحماس ومنكمشا على نفسك ، بطباع هادئة ولطيفة وعينين غائرتين عميقتين . وكان فاغنر في التاسعة والخمسين ، في أوج قوته ، مليئا بالأحلام والمآثر ، قوة طبيعية متفجرة فوق رؤوس الجيل الجديد . وكان يقول للشبان « أريد مسرحا أستطيع أن أخلق فيه بحرية . تعالوا وامنحوني اياه . أريد شعبا يفهمني ، وانتم ستكونون شعبي ! ساعدوني ! ـ انه واجبكم . ساعدوني وسأمجدكم ! »

كان الفن هو المتنفس الوحيد . لقد كتب فاغنر الى الملك لويس الثاني : « بتقديم الحياة على أنها لعبة يحول الفن أكثر وجوه الحياة إضافة الى صور جميلة وبهذا فانه يسمو بنا ويعزينا » .

كنت تستمع باهتمام وتحول كلمات المعلم الى لحم ودم يقاتلان الى جانبه . ألقيت بنظرك الى الفلاسفة ما قبل السقراطيين . وبغتة انبثقت أمامك حقبة عظيمة وبطولية ، حقبة مليئة بومضات نادرة من البصيرة والخرافات المخيفة والافكار المأساوية والنفوس المعذبة التي انتصرت على الهاوية بأن غطتها بالاساطير البهيجة . ولم تعد أمامنا اليونان الرعوية التي صورها لنا أساتذة المدارس ، الارض المتوازنة السعيدة التي كانت تواجه الحياة والموت بهدوء باسم ساذج . انتهى هذا الهدوء ، وكان هذا ثمرة الشجرة المتوهجة المزدهرة التي بدأت تذبل . وجارت الفوضى تحت الاثداء اليونانية قبل أن يصل الانسجام وقام اله غير مروض ، هوديو نيزوس ، بقيادة الرجال والنساء في رقصات مسعورة بين الجبال والكهوف وقامت اليونان بأسرها ترقص مثل مينادة .(١)

---

(١) امراة تشارك في مهرجانات باخوس أو امراة شديدة الاهتياج مخالطة في عقلها .

وفي حمى الحكمة المأساوية رحت تكدح لتجمع أجزاء رؤياك في كل موحد · كان أبولو وديونيزوس هما الازدواج المقدس الـذي ولد المأساة · أبولو يحلم بتوافق العالم وجماله وهو يراه في صيغ منسجمة · راسخا في تفرده وسكونه كان يقف وسط بحر الظواهر المتلاطمة وهو مستمتع بالامواج التي كانت تغيظـه في أحلامـه · نظرتـه مليئة بالنور ، وحتى حين كان الحزن أو الغضب يهيمنان عليه لم يستطيعا تمزيق التناغم الوحدوي المقدس ·

ديونيزوس يمزق التفرد ، ويلقي بنفسه في بحر الظواهر ويلحق بالامواج الرهيبة المتلألئة المتقلبة · وتآخي البشر مع الوحوش · وصار الموت ذاته يرى كأحد أقنعة الحياة · وينقسم الوهم متعدد الصيغ والمنتشر باطراد الى قسمين ونرى أنفسنا وجها لوجه مـع الحقيقة · أية حقيقة ؟ حقيقة اننا جميعا واحد ، وأننا جميعا ومعا نخلق الها ، وان الله ليس سلف الانسان بل حفيده ·

كان اليونانيون ، وهم محصنون في حصن أبولو ، يكافحون في البدء لاقامة حاجز في وجه هذه القوى الديو نيزوسية المنفلتة مـن عقالها والتي كانت تأتي عبر الطرق البحرية والبرية لتلقي بنفسها علـى الارض اليونانيـة · لكنهم كانـوا عاجزيـن عـن ترويض ديونيزوس ترويضا كاملا · والتقى الالهان في منازلة دون ان يتمكن أحدهما من اخضاع الآخر فاصبحا صديقين وخلقا المأساة ·

تحررت الطقوس الديو نيزوسية من وحشيتها وغسلتها رقة الحلم المضبوطة وكللتها بالبهاء · غير ان ديو نيزوس ظل البطـل الدائم والوحيد للمأساة · ان أبطال المأسـاة وبطلاتها جميعا هم ببساطة أقنعة للاله ـ هم ابتسامات ودموع ملطفة تتألق بالعظمـة الابولونيـة ·

ثم تلاشت المأساة اليونانية بغتة · اغتالها التحليل المنطقي · قام سقـراط ، بجدلياتـه ، بقتـل الرصانـة الأبولونيـة والثمالة الديو نيزوسية · وانحطـت المأساة علـى يـدي يوربيديس الـى مستوى بشري بدلا من العاطفة الالهية والى موعظة سوفسطائية للدعاوة للأفكار الجديدة · فقدت جوهرها المأساوي وتبددت ·

غير ان الثمالة الديو نيزوسية بقيت ، وخلدت نفسها في مذاهب سرية وفي لحظات الفرح العظيمة في حياة الانسان • وكنت تتساءل عما اذا كانت ستستطيع ان تكسو نفسها مرة أخرى بلحم الفن المقدس • وهل ستبقي الروح السقراطية ـ بتعبير آخر : العلم ـ ديو نيزوس في قيوده الى الابد ؟ أم لعله بعد ان أدرك العقل البشري حدوده يمكن لحضارة جديدة ان تظهر ويكون سقراط رمزها ـ سقراط الذي تعلم الموسيقى أخيرا ؟ .

حتى ذلك الحين كان المثل الاعلى لحضارتنا هو الباحث الاسكندراني غير ان التاج الذي على رأس العلم بدأ يتقلقل فالروح الديو نيزوسية كانت دائما تعود الى الاستيقاظ • وأعلنت الموسيقى الألمانية من باخ الى فاغنر عن مجيئها • بدأ فجر « حضارة مأساوية » جديدة بالبزوغ وبدأت المأساة تعاني بعثها • فكيف تم تحول عالم الوهم هذا ، صحراء شوبنهاور المعتمة ؟ وكيف وقع كل ما هو ميت وساكن في عصف دوامة النقد الألماني ! وهتف النبي الشاب : « نعم يا أصدقائي ! تعلموا أن تؤمنوا ، كما أؤمن ، بالحياة الديونيزوسية وببعث المأساة الديونيزوسية • لقد انتهى العصر السقراطي أمسكوا بالترسوس ★ في أيديكم وتوجوا أنفسكم باللبلاب • تجرأوا على أن تكونوا كائنات مأساوية وهيئوا أنفسكم لمعارك عظيمة وثقوا بالهكم ديو نيزوس • »

هكذا ، يا نيتشه ، كانت الآمال الخلاقة الشاملة التي علقتها على عمل فاغنر • فالحضارة المأساوية الجديدة كانت ستنبع من ألمانيا • كان اسخيلوس الجديد حيا وهو يقاتل أمام عيوننا • انه يخلق وهو يتمنى أن نعينه •

غير ان تنبؤاتك لم توقظ أية استجابة • احتقرك الباحثون وظل الجيل الجديد غير مهتم • تألمت وتولدت الشكوك في أعماقك حتى بدأت تشك في امكانية تسامي الانسان المعاصر • مرضت وتخلى عنك تلاميذك في الجامعة •

★ الصولجان : وهو ايضا رمح متوج بحلية على شكل كوز صنوبر ويلف احيانا باعواد الكرمة كان يحمله باخوس واتباعه ــ المورد .

ألم يعتصر القلب · قام الشاعر الذي فيك بتغطية الهاوية بزهور الفن ، ولكن الفيلسوف الذي فيك ، والذي كان راغباً في أن يتعلم مهما بلغت التكاليف ، كان يحتقر كل راحة وحتى راحة الفن · كان الاول ـ الشاعر ـ يخلق ويبعث الامل بينما كان الثاني ـ الفيلسوف ـ يحلل ويشرح ويبعث اليأس · قام عقلك النقدي بتحطيم الاصنام · فأية قيمة لفن فاغنر ؟ هكذا كنت تسأل نفسك ، لقد كان فنا بلا شكل وبلا ايمان ، لا شيء أكثر من التلفظ ببلاغة خاوية من الثمالة والنبل القدسيين ـ تماما مثل فن يوريبيديس · انه فن صالح للسيدات المهسترات وللمنافقين وللعجزة · وانحط نصف الهك الآن وتحول الى منافق · لقد خدعك ولم يحافظ على وعده · انه يعمل الآن في مضامين مسيحية ويكتب « بارسيفال » · لقد اندحر البطل وتحطم عند أسفل الصليب ـ الرجل ذاته الذي كان قد وعد بخلق أساطير جديدة وأن يشد فهد العقل الى العربة الديونيزوسية ·

ان الفن يغطي الحقيقة الرهيبة بصورة جميلة ولذا فانه عزاء للجبناء · كانت تلك صرختك الجديدة · أما نحن فلنكتشف الحقيقة حتى لو دمر العالم خلال ذلك ·

كانت هذه الصرخة الجديدة متناقضة في بدايتها · لقد انتصر الناقد فيك على الشاعر وانتصرت الحقيقة على الجمال · ولكن حتى شو بنهور الآن لم يستطع ان يلبي حاجات عقلك المتزايدة · فالحياة ليست مجرد ارادة العيش بل هي شيء أكثر حدة ـ هي ارادة السيطرة · والحياة لا ترضى بمجرد الحفاظ على الذات ، انها ترغب في التوسع والسيطرة ·

ولم يعد الفن غاية الحياة ، بل هو استراحة قصيرة في معركة الحياة · ان المعرفة أسمى من الشعر وسقراط أعظم من اسخيلوس · وعلى الرغم من ان الحقيقة مميتة الا أنها أسمى من أجمل الكذبات وأغناها ·

انشطر قلبك الى نصفين وأنت تنتقل في مرضك من مكان الى مكان · كانت الحرارة تشلك والثلج يجرح عينيك والريح تسلخ

اعصابك ولعجزك عن النوم بدأت تتعاطى المهدئات · كنت تعيش في غرف غير مدفأة وغير مريحة ومعدمة · ولكنك ظللت تقول انه ليس من حق المريض أن يلعن الحياة · وانبثقت من آلامك أنشودة الفرح والصحة صافية ومقاومة ·

احسست ببذرة عظيمة تنتش في أعماقك وتلتهم أحشاءك · وذات يوم بينما كنت تتمشى في انغادين توقفت بغتة· لجمك الرعب وأنت تفكر في ان الزمن لا يحد بينما المادة محدودة · ولذا فلا بد أن تأتي لحظة جديدة تعود فيها تركيبات المادة هذه الى الحياة كما كانت من قبل · بعد آلاف من القرون سيقف شخص مثلك ، والحقيقة أنه انت بالذات ، على هذه الصخرة ذاتها ويعيد اكتشاف الفكرة ذاتها · ولن يتكرر هذا مرة واحدة فقط بل عددا لا يحصى من المرات · ولذا فلا أمل في مستقبل أفضل · لا خلاص · سنظل ندور الى الابد على عجلة الزمن ذاتها · وبهذه الطريقة يصبح لأكثر الأمور عرضة للفناء خلودها ويصبح لأكبر أعمالنا أهمية لا تقاس ·

غرقت في نشوة الالم · فهذا كله كان يعني ان معاناتك لا حدود لها · وان معاناة العالم لا شفاء منها · ولكن كبرياء الزاهد فيك جعلتك تستقبل الشهادة بفرح ·

وقلت لنفسك ان عملا جديدا يجب أن يخلق وان من واجبي أن أخلقه وذلك لطرح انجيل جديد على البشرية · ولكن بأية صيغة ؟ النهج الفلسفي ؟ لا · يجب أن ينسكب الفكر غنائيا · ملحمة ؟ نبوءات ؟ وبغتة أبرق في ذهنك زرادشت ·

ووسط هذا الالم الممتع وجدتك لوسالوم ، السلافية النارية ذات الفكر المتوقد المليئة بالاثارة والفضول والتي انحنت أمامك ، أيها الشهيد العظيم ، وراحت تستمع اليك باهتمام ·بذلت نفسك لها فاستنزفتها وهي لا تعرف الشبع حتى جففتها · كم من السنوات قد مرت منذ ان فتحت قلبك بمثل تلك الثقة ، واستمعت بالتوهج والاهتياج والانتاجية التي تثيرها فينا النساء ، وأحسست بقلبك يذوب تحت درعك الحربي الثقيل ! في ذلك المساء حين دخلت حجرة تصوفك ، كان هواء حياتك عبقا لأول مرة برائحة امرأة ورحت تستنشقه بعمق ·

تحقيق السوبرمان • وكان العود الازلي يخنقك • كان السوبرمان هو شيميرا ★ الجديد الذي يستطيع القضاء على رعب الحياة • ليس الفن ، بعد ، بل القدرة • اعتبرت الاله طاحونة هوائية ، يا دون كيشوت ، ورحت تدكه •

أعلنت « مات الله » وأوصلتنا الى حافة الهاوية • هناك أمل وحيد • على الانسان ان يتخطى طبيعته ويخلق السوبرمان • وسيقع على عاتقه عبء الادارة الكاملة والتنظيم الشامل للكون (كوسموس) وستكون لديه القدرة على تحمل هذه المسؤولية • الله ميت وعرشه خال • وسنتوج أنفسنا مكانه • هل نظل وحدنا تماما في العالم ؟ وهل رحل السيد ؟ يكفي هذا • منذ الآن لن نعمل لأنه يأمرنا بذلك وليس لأننا نخاف أو نطمح بل لاننا نحن أنفسنا نريد ان نعمل •

ان العود الأزلي خاو من الأمل والسوبرمان هو الامل العظيم • كيف يمكن تحقيق المصالحة بين هاتين النظرتين المتناقضتين للعالم ؟ ألم لا يوصف • منذ ذلك الحين وروحك ترفرف أجنحتها فوق هاوية الجنون • وظل زاردشت مجرد صرخة • تركت تلك القصيدة المأساوية في حالة نصف اكتمال ورحت تكافح الآن لتثبت ان جوهر الحياة هو الرغبة في السيطرة •

صرخت ان أوربا تنهار وعليها ان تنصاع لمبدأ الزعماء الصارم • ان الاخلاقية المسيطرة اليوم هي من صنع العبيد ، مؤامرة دبرها الضعفاء ضد الاقوياء ، دبرها القطيع ضد الراعي • لقد قام العبيد ، بأنانية داهية ، بقلب القيم رأسا على عقب • صار القوي سيئا وصار المريض والضعيف طيبا • هؤلاء العبيد لا يستطيعون تحمل الألم • انهم خيرون ومسيحيون واشتراكيون • السوبرمان وحده ، الذي يقسو على نفسه بادىء ذي بدء ، هو القادر على طرح وصايا جديدة واعطاء الجماهير أهدافا سامية جديدة •

★ بين اغوال العواصف يكفي ذكر شيميرا وهاربيس للحماية . شيميرا الهة العواصف . لها راس اسد وجسم ماعز وذيل غول .

ولحقت بك أحلى الرعشات تلك الى الجبال ، أيها الزاهد ، حيث كنت قد اقمت ملجأك • كنت تنتظر رسالة المرأة متقطع الانفاس • وذات يم أرسلت اليك ثمانية أبيات • خفق قلبك وكأنك فتى في العشرين من العمر ورحت ترتلها تحت أشجار التنوب المنعزلة :

من ذا الذي يستطيع الهرب ان قبضت عليه
ان حولت نحوه عينك القاسية ؟
لن أرغب في الهرب ان امسكت بي
ولن أصدق أنك تستطع الاكتفاء بالتدمير
أعرف انك تمر عبر كل كائن أرضي
ولا شيء على الارض يظل دون ان تلمسه
الحياة من دونك ستكون جميلة
ولكنك جدير جدا بأن تحيا •

ثم جاءت ، فورا ، أيام الفراق المشؤومة • أخفتْ المرأة • كنت مثل غابة داهمها الليل ، وفي عتمتك لم تستطع المرأة ان ترى الاله الصغير يبتسم لها واصبعه على شفتيه • وبدأ من جديد استشهادك: المرض والعزلة والصمت • كنت تحس احساس الشجرة التي اثقلتها ثمارها فأحنتها وكنت تتوق الى أيد تأتي وتجني محصولها• وعلى الرغم من انك كنت تقف في نهاية الطريق وتطل على مدن البشر تحتك فان أحدا لم يأت • أليس هناك من يحبني ؟ رحت تصرخ في عزلتك ، أليس هناك من يهينني أو يسخر مني ؟ أين الكنيسة لتنزل لعناتها علي ؟ وأين الدولة لتقطع رأسي ؟ انني أصرخ وأصرخ • ألا يسمعني أحد ؟

وانبثق في حناياك أمل جديد ـ بذرة جديدة ، السوبرمان • كان السوبرمان يشكل غاية العالم • وهو الذي يمسك بالخلاص بين يديه ويحدد الجواب لسؤالك القديم عما اذا كان من الممكن السمو بالانسان المعاصر • نعم • ممكن • وليس عن طريق المسيح كما كان ذلك المرتد فاغنر يعظ في عمله الجديد بل عن طريق الانسان نفسه ، بفضائل أرستقراطية جديدة وبكفاحاتها • كان الانسان قادرا على

طبيعة هذه الاهداف ، والتنظيم الملائم للنخبة وللدهماء ، ودور الحرب في هذه الحقبة المأساوية من التاريخ الاوربي ، تلك كانت المشكلات التي أرهقتك في السنوات الأخيرة من وضوحك الفكري ٠ ولما لم تكن قادرا على حلها وراح عقلك يتداعى ، انصرفت من جديد تكرس نفسك لقصائدك الديونيزوسية القديمة ٠ وغنيت أغنية البجعة الخاصة بك بتشاؤم مرير :

الشمس تغيب ٠
سرعان ما ستتوقف عن الظمأ
يا قلبي المحترق ٠
في الهواء عذوبة
أحس بأنفاس من أفواه مجهولة ـ
البرودة العظيمة تقترب ٠٠٠
الهواء غريب ونقي
ألم تلق هذه الليلة
نظرة ساخرة ومغوية علي ؟
فلتتماسك يا قلبي الجريء
ولا تسأل لماذا ٠
انه مساء حياتي !
والشمس تغرب ٠

رأيت ما لم يكن مسموحا للانسان أن يراه فانخطف بصرك ٠ رقصت خارج حدود الاحتمال البشري على حافة الهاوية ثم غرقت في الهاوية ٠

سيطرت الظلمة على عقلك بسرعة ٠ ودامت هذه الظلمة أحد عشر عاما حتى موتك ٠ كنت أحيانا تمسك بين يديك كتابا وتسأل : « أنا أيضا كتبت كتبا رائعة ٠ ألم افعل ؟ » وحين كانت تقدم اليك صورة فاغنر كنت تقول : « لقد أحببت هذا الرجل كثيرا » ٠

لم يسبق لصرخة أكثر تمزيقا للقلب ان انطلقت من صدر انسان ، ولم يسبق لي أن عشت حياة قديس بهذه الصرامة ، حتى حين كنت أقرأ الاساطير المقدسة في طفولتي ٠ أعتقد بعد انتهاء

حجي الى الجلجلة وعودتي الى باريس ان قلبي (وليس عقلي) قد تغير • الى هذا الحد عانيت آلام هذا الشهيد الملحد العظيم ، وبقسوة كبيرة بدأت جراحي القديمة تلتهب وأنا أتتبع هذه الآثار الدامية الى درجة انني صرت أشعر بالخجل من حياتي الجبان المنظمة الرصينة التي لم تجرؤ على تهديم جسورها وراءها لتدخل وحدها تماما مملكة اليأس والشجاعة الكاملين • ما الذي قام به هذا النبي ؟ وما الذي طلب منا أن نفعله بالدرجة الاولى ؟ طلب الينا ان نرفض العزاءات كلها - الآلهة والاوطان والاخلاق والحقائق - وان نظل منعزلين دون أصحاب ومرافقين وان لا نستخدم الا قوتنا وان نبدأ في صياغة عالم لا يخجل قلوبنا • أي الطرق أكثرها خطرا ؟ ذلك هو الطريق الذي أريده • أين هي الهاوية ؟ تلك هي التي أتوجه اليها ، أي المتع أكثرها شجاعة ؟ انها تحمل المسؤولية الكاملة •

كنت أحس أحيانا ، وبشكل مفاجىء ، بظله الى جانبي وأنا أتمشى تحت أشجار الكستناء الباريسية أو على ضفة نهرها الشهير • كنا نسير جنبا الى جنب صامتين الى ان تغيب الشمس • كان دائما متقطع الانفاس يلهث عابقا برائحة الكبريت • خطر لي انه كان حتما عائدا من الجحيم - توقف نفسي في حلقي وبدأت ألهث • لكننا لم نكن نتصارع الآن • لقد صرنا صديقين • تطلع الي ورأيت نفسي في بؤبؤي عينيه • ان الالم سار على أية حال • لقد نقل الي مشاكله كلها • والى جانبه بدأت معركتي لمجاراة ما لا يجارى - لمصالحة الأمل المطلق مع اليأس المطلق ولفتح باب الى ما وراء العقل واليقين •

ذات مساء وعندما كانت الشمس تغرب وكنا على وشك ان نفترق التفت الي ، وهو الذي لم يكن يكلمني من قبل ، وقال : « أنا أدونيس المصلوب - أنا وليس هو » • كان صوته مشبعا بالحسد والكراهية والحب •

كان الهدوء يعود الى قلبي دائما حين أذهب في اليوم التالي وأستمع الى صوت برغسون السحري • كلماته تعويذة سحرية تفتح بابا صغيرا في أعماق الظلمة وتسمح للضوء ان يتدفق • ولكن الجرح

والدم والتنهيدة الجبارة ـ تلك العناصر التي تأخذ بألباب الشباب ـ كانت قد ضاعت ٠ وتعودت أن أخرج وأمشي مرة أخرى تحت أشجار الكستناء للقاء الآخر الذي يجرح ٠

لم يخترقني الجرح عميقا في تلك الايام ٠ كنت أشاركه أوجاعه ولكن بشكل سطحي فقط ٠ ومثل القديس فرانسيس وسمت بوصمة بينما كان النبي الصلب يحمل جرحا دافقا ، تحول جلدي الى أسود وأزرق ٠ وهذا كل شيء ٠ فيما بعد ، حينما هبطت الملائكة الرؤيوية التي رآها ببصيرته ، على البشر بدأت جراحي تتفتح ٠ كان ذلك في لندن ، كما أذكر ، وبعد سنوات عديدة ٠ كان الخريف قد عاد من جديد ٠ وكنت جالسا على مقعد في احدى الحدائق ٠ وكان الجو مرعبا ٠ لقد ولد السوبرمان في مكان ما ٠ في مكان ما تخيل نمر متعطش للدماء انه السوبرمان ٠ ولعجزه عن التواؤم في عرينه أكثر من ذلك سيطرت عليه الرغبة في التسلط ٠ لقد لبس جنكيزخان طوقا حديديا نقشت عليه كلمتان « راستي روستي » أي « القوة هي الحق » ٠ ان عصرنا قد قدم هذا الطوق الحديدي ذاته ٠ كان شيطان عصرنا مثل ذلك الملك الافريقي الذي تسلق أعلى أبراجه ومعه اثنتا عشرة امرأة واثنا عشر مغنيا وأربعة وعشرون جلدا من جلود الماعز مليئة بالخمر ٠ كان طويلا مثل برج وبدينا شاحما كالزبدة وكان جسمه مغطى بالشعر ٠ كانت المدينة تهتز بالرقص والغناء فانهارت الاكواخ القديمة على الارض ٠ في البداية رقص الملك ٠ ثم وبعد أن تعب جلس على حجر وراح يضحك ٠ ثم تعب من الضحك وبدأ يتثاءب ولكي يقضي الوقت ألقى بالنساء في البدء عن البرج ثم المغنين وأخيرا الجلود الفارغة من الخمر ٠ لكن قلبه لم يرتح فبدأ يندب معاناة الملوك التي لا عزاء لها ٠

جاء بائع صحف يعلن آخر بلاغات الحرب ٠ توقف الناس في الشارع وكأن قلوبهم قد توقفت عن الخفقان ٠ وركض بعضهم بسرعة الى البيوت كان يبدو عليهم وكأنهم يريدون أن يتأكدوا مما اذا كان أطفالهم ما زالوا على قيد الحياة ٠

اقترب ظل وجلس على المقعد الى جانبي ٠ التفت اليه

فارتعشت . كان هو . من كان ذلك الذي أعلن ان جوهر الحياة هو التوق الى التوسع والسيطرة وان القوة وحدها جديرة بأن تنال الحقوق ؟ من كان ذلك الذي تنبأ بالسوبرمان ، وعند التنبؤ به جلبه ؟ لقد وصل السوبرمان وها هو نبيه المرتعد المنكمش يجاهد ان يختبىء تحت شجرة خريفية !

كانت تلك هي المرة الاولى التي أحس فيها بتعاطف مأساوي كهذا معه . لأنها كانت المرة الاولى التي أرى فيها بهذا الوضوح أننا جميعا مزامير راع غير مرئي ، وأننا نعزف أية نغمة ينفخها فينا ولا نعزف النغمة التى نرغب فيها نحن .

حدقت الى العينين الغائرتين والحاجب المقفل والشاربين المتدليين .

همست له : « لقد جاء السوبرمان . أهذا ما كنت تريده ؟ »

انكمش أكثر مما كان منكمشا مثل وحش جريح مطارد يحاول ان يختبىء ورن صوته من الضفة الاخرى فخورا أو متألما : « نعم » .

كنت أستطيع أن أحس بقلبه ينشطر الى نصفين .

ـ انت زرعت . انظر ما الذي حصد . هل يعجبك ذلك ؟

ومرة أخرى جاءت من الضفة الأخرى صرخة يائسة تجرح القلب : « نعم ! » .

وحيدا مرة أخرى نهضت عن مقعد الحديقة لأرحل . في تلك اللحظة أرعدت قاذفة قنابل فوق المدينة المعتمة . كانت الطائرة ، التي تخيلها ليوناردو دافنتشي طائرا صناعيا لطيفا يحمل الثلج من قمم الجبال الشاهقة في الصيف ليرشه على المدن من أجل تبريدها ، تمر فوقنا الآن محملة بالقنابل .

بالطريقة ذاتها بدأت أفكر ـ وأنا ما أزال محتفظا بنبي الحرب المسالم في ذهني ـ بالطريقة ذاتها تنبثق الافكار من العقل الانساني مثل القبرات فجرا ، ولكن ما ان تقع عليها نظرة الانسان الجشعة حتى تتحول الى عقبان نهمة آكلة للحوم . ويصرخ رئيسها التعس ويحتج يائسا : « ليس هذا ما كنت أريده ! ليس هذا ما كنت أريده ! » ولكن العقبان تمر من فوقه زاعقة وهي تلعنه .

كان الغذاء الذي غذاني به نيتشه في تلك المرحلة الحاسمة النهمة من شبابي غذاء قويا كغذاء الاسود • كنت قد كبرت بسخاء • وأجد نفسي الآن أتقلص من خلال الانسان المعاصر في الحالة التي أنزل نفسه اليها ، ومن خلال المسيح في الحالة التي أنزله اليها الانسان • آه كم كان دهاء من الدين ، قلت لنفسي غاضبا ، ان يستبدل الثواب والعقاب بحياة أخرى في المستقبل ليريح الجبناء المستعبدين والحزانى فيمكنهم من ان يحنوا رقابهم بصبر أمام أسيادهم ، ومن ان يتحملوا هذه الحياة الدنيا دون تذمر (وهي الحياة الوحيدة التي يمكن لنا أن نتأكد منها) ! وكم هذا الدين مساومة يهودية على (مائدة الاله) حيث تلقي بفارذنغ ★ في هذه الحياة ثم تجمع في الحياة الأخرى الملايين المخلدة ! لا • الانسان الذي يأمل في الجنة أو يخاف من الجحيم لايستطيع ان يكون حرا • أية سذاجة وأي دهاء وأي ربا ! ويا لخجلنا لو أننا نستمر سكارى في حانات الامل أو في أقبية الخوف • كم من السنوات قد عشت من دون أن أعي ذلك ! كان من الضروري ان يأتي النبي القاسي ويفتح عيني •

حتى الآن كنا قد عهدنا الى الله بالادارة الكاملة للعالم • ايمكن أن يكون قد جاء دور الانسان لتحمل المسؤولية ـ دورنا لخلق عالم ، عالمنا الخاص ، وبعرق الجبين ؟ هب نسيم شيطاني من الغطرسة بين صدغي • وأعلنت بوقاحة انه قد آن الاوان لأن يتلقى الانسان في حنايا صدره الكفاحات كلها والآمال كلها ، وان عليه ان يستخرج النظام من الفوضى دون ان ينتظر معونة الاله ـ ان يحول الفوضى الى كون متناسق • ان علينا ان نحافظ على استقلالنا الشخصي وان نبقي عليه متينا متماسكا بحيث يمكن ان نكون واقفين على أقدامنا وسط الهيجان المعاصر الذي يعم العالم حين يؤون الأوان بالنسبة لنا لتحويل الصرخات غير الواضحة الى رسالة بسيطة وحقيقية ـ الى انجيل •

سمعت هذا الانجيل في داخلي كصداح بعيد ، كأول نسمات الربيع • كان قلبي شبيها بشجرة اللوز • فحينما كان الشتاء مهيمنا

★ عملة بريطانية قليلة القيمة وهي دلالة على كل شيء تافه لا قيمة له .

حولها وكانت السماء من فوقها معتمة فان تلك الشجرة ، وقد تلقت الايعازات اللفظية السرية ، تظهر أمام عيوننا بغتة مغطاة بالزهور ـ مغطاة بالزهور في عز كانون الثاني على الرغم من انها تقف مرتعشة أمام الريح القارسة • وكذلك كان قلبي المزدهر تماما يرتعش • قد تهب ريح قوية وتعريه • ولكن لا يهم • لقد قام بواجبه • صرخ بأعلى صوته بأنه قد رأى الربيع •

ذات ليلة حلمت حلما ، خلال حياتي كانت الاحلام دائما أدلة لا تخطىء • وجميع المشاكل التي كانت تعذب عقلي الأرق ، وهي تزدوج وتتداخل في جهد يائس لاكتشاف حل بسيط ومؤكد ، كانت تصفى في أحلامي • انها تتخلص من الزيادات فيها وتعود الى الجوهر البسيط • وهذا الجوهر يتحرر • خلال تلك الفترة كلها كنت مثل القديس سيباستيان تخترقني وتعود الى اختراقي السهام التي أطلقها علي النبي المأساوي للعود الأزلي . وكان عقلي يجهد عبثا ، وسط الظلمة التي تحيط بنا وتخنقنا ، لاكتشاف ما يشكل أساس واجب الانسان • ثم في ليلة من الليالي رأيت حلما . بدا لي انني كنت واقفا على الطرف الاقصى من الشاطىء محدقا الى البعيد • كان المحيط أسود حالكا هائجا ومرعبا وكانت السماء فوقه سوداء مثله وثقيلة ومنذرة بالخطر • لا نسمة • كان الصمت والركود مخيفين • كنت أختنق وأنا عاجز عن التنفس وبغتة لمع شراع أبيض مضاء في الفرجة الضيقة التي ما تزال موجودة بين البحر والسماء • كان مركبا صغيرا متألقا بين القمتين يتقدم بسرعة جنونية وسط الهدوء الخانق ، وشراعه منتفخ موشك على التمزق • مددت ذراعي نحوه وصرخت : « قلبي ! » ثم أفقت •

كان الحلم عونا كبيرا لي في حياتي • يا لخجلي من أنني لا أستطيع أن أركض للعثور على الأب اليائس القانط للأمل لأخبره بالمعنى الكامن الذي جاءني في نومي • ألم يكن في هذا حل لمتاعبه كلها ؟ ألم يكن هو الذي أثار القارب الصغير الجسور ، وسط اليأس المطبق الذي يبحر بريحه الذاتية ويشع بضوئه الخاص دون حاجة منه لأحد ؟

كم من مرة ، في لحظات الحرج والمتاعب ، حين يعتم كل ما

حولي ويتخلى عني اعز اصدقاتي واعز امالي ، آغمضت عيني ورأيت ذلك القارب الصغير بين اجفاني ؟ ويكتسب قلبي الشجاعة فيقفز على قدميه صارخا : « أمسك بالدفة ولا تخف » ثم يمخر عباب الظلمة !

كانت الجراح التي أصابني بها نيتشه عميقة ومقدسة لا تقوى علامات بيرغسون الصوفية على شفائها • انها تهدئها مؤقتا ولكنها سرعان ما تنكأ وتنزف من جديد ـ ذلك انني طوال فترة شبابي كان ما أرغب فيه أكثر من غيره هو الجرح وليس العلاج •

في تلك المرحلة صارت معركتي مع اللامرئي واعية وعديمة الرحمة •

كانت النقمة قد هيمنت علي في تلك السنوات الباكرة • اتذكر أنني لم أكن أستطيع تحمل استعراضات الوجود الانساني : كيف كانت الحياة تتوهج لوهلة ثم تنفجر في الهواء بعدد هائل من الومضات الملونة ثم تتلاشى تماما وفورا • من الذي أشعلها ؟ ومن الذي منحها هذا السحر والجمال ثم بغتة ودون رحمة أطفأها ؟ صرخت : « لا • لن أقبل بذلك • لن أقره ، سأجد وسيلة ما تمنع الحياة من الانطفاء » • ذلك لأنني كنت أشفق على روح الانسان وأعجب بانجازاتها • كيف كانت دودة الحرير البطيئة هذه قادرة على استخراج حرير قدسي كهذا من أحشائها ؟

دودة الحرير أكثر الديدان طموحا • لا شيء ! الا البطن والفم • تجر نفسها وهي تأكل وتتبرز وتأكل من جديد ، أنبوبة قذرة بفوهتين • وبغتة يتحول الطعام كله الى حرير • الانسان هكذا • تتوهج السماء والارض ، والافكار تتوهج بأثمن أنواع الحرير التي كساها بها ، ثم تأتي قدم جبارة بشكل مباغت فتدوس على الدودة صانعة المعجزة •

لقد ذهبت دعة الطفولة الساذجة والمبسطة الى الابد • عرفت الآن ان السماوات هيولى سوداء مليئة بالصمت واللامبالاة . رأيت ما يحدث للجمال والشباب حين يغيبان في القبر : ولم تعد روحي تقبل التنازل لترضى بالعزاء الذي تقدمه الآمال المقبولة الجبانة •

تدريجيا وبخطى مترددة كنت أقترب من الهاوية . لكن بصري كان ما يزال غير متعود ولم أجرؤ على التحديق الى عينيها . روحي ما تزال قلقة ومضطربة . كانت ، أحيانا ، تنهض وتتحدى قدر الانسان بثقة الشباب وأحيانا أخرى تتقلص متراجعة وتهيمن عليها سوداوية رومانسية .

بعد ذلك بكثير ، بكثير جدا ، استطعت أن أقف وركبتاي ثابتتان على حافة الجرف وأتطلع الى الهاوية دون خوف ودون أي أثر للتبجح .

★ ★ ★

أية ليال هادئة قدسية قضيتها في العمل والدراسة في تلك الغرفة الصغيرة بعيدا عن وطني ! كنت أسمع أحيانا صرخات وضحكات في الشارع تحتي وأغاني حب في منتصف الليل ، وأحيانا كان الثلج الهادىء الابيض يتكوم على الأسطحة . المصباح يحترق حتى أواخر الليل والنار في الموقد وأنا منكب على كتبي أعيد احياء المآثر العقلية للبشرية .

بأفكار مسبقة كهذه ، أفكار مسبقة مستمدة في الوقت ذاته من الشباب ومن العصر بشكل ظاهر ، قضيت سنواتي في باريس . بدأت صاحبة البيت تشك بشيء ما وظهر الانزعاج عليها . كانت تلقي بنظرات جانبية تنمّ عن عدم رضاها علي وتحييني بشيء من البرود . وذات يوم لم تعد فيه قادرة على ضبط نفسها . صرخت : « وأخيرا يا مسيو . الى متى ستستمر هذه الحالة ؟ »

ـ أية حالة ؟

ـ أية حالة ! لم تعود باكرا كل مساء ، ولا يأتيك زوار ، لا رجال ولا نساء ، ويظل ضوؤك حتى ما بعد منتصف الليل . أعتقد أنك ترى هذا طبيعيا ؟

ـ لكنني أحضر دروسا طوال النهار في الجامعة وفي الليل أدرس وأكتب . أليس هذا مسموحا ؟

ـ لا · ليس مسموحا · انني أتلقى احتجاجات من المستأجرين الآخرين · انك تخفي شيئا ما · هذه الكياسة وهذه العزلة وهــذا الصمت ـ دون امرأة ، ولبق ودون صديق ! لا بد انك مريض · نعم · لا بد أنك مريض · والا فمع احترامي الشديد انت تهيء شيئا ما في الخفاء · أنا آسفة · ولكن ببساطة هذا لا يمكن أن يستمر ·

في البداية كنت على وشك أن أغضب ولكنني سرعان ما أدركت ان صاحبة المنزل على حق · حين يكون شخص كبيرا وطبيعيا في مجتمع عنيد لا أخلاقي وصاخب ولا يستقبل رجالا أو نساء في غرفته فانه يتخطى الحدود · لا يغفر له ذلك ولا يمكن ان يغفر له · وبما ان حياتي كانت غاية في البساطة فقد اعتبرها الناس معقدة بشكل خطر · ومهما كان ما أقوله أو أفعله فانهم يكسبونه معنى مختلفا ، ويحاولون دائما ان يتكهنوا بما هو مختف وكامن ·

فيما بعد حتى أفضل أصدقائي لم يستطع ان يصدق بساطة كهذه ، ثم رأى انها لا تحتمل حين صدقها · ذات ليلة كنت جالسا في الدار أحدق الى النجوم · كانت السماء المليئة بالنجوم بالنسبة لي دائما أكثر المشاهد اثارة واعتصارا للقلب · ولم تكن تمنحني أية غبطة ، لا شيء الا الرهبة · لم أكن أستطيع أن أتطلع اليها دون أن يغزو الألم قلبي ، جاء صديقي الى الدار وسألني مستغربا : « ما الذي تفعله هنا ؟ » ثم « آه · انك لا تتكلم ؟ لماذا ؟ » واقترب مني وانحنى فوقي ورأى الدموع التي تنسكب من عيني فانفجر في قهقهة صاخبة وصرخ : « كذاب ! منافق ! أفترض أنك ستقول لي انك تبكي لأن النظر الى النجوم مؤثر · لكنك لا تستطيع ان تستغفلني ، أيها اليسوعي ! لا بد أنك تفكر في واحدة من تلك النساء ذوات الاذيال المتأرجحة اللواتي يحمن حولك » ·

وفي مناسبة أخرى أيضا ، بعد هذه ، عندما عرفت بانيت استراتيتي في روسيا وكنا عائدين معا الى اليونان ، ظل بانيت يحدق الي طوال الرحلة كلها · ظل يتفحصني دون أن أعرف ما هي النتيجة التي توصل اليها · وفي أثينا سأل صحفيا أجابه : « ماذا أستطيع أن أقول ؟ انه انسان غير طبيعي » وسأل بانيت المسكين وهو مليء

بالتوجس « ماذا يفعل ؟ » فجاءه الجواب : « هذا هو الامر بالضبط : لا شيء ، حتى انه لا يدخن » ٠

هكذا كانت حياتي في باريس خلال ثلاث سنوات من اقامتي فيها - مسالم ومتقد الحماس ، ومن دون مغامرة خارجية واحدة ، ودون مسائل حب الطلبة أو سكر الطلبة ودون مؤامرات سياسية أو ثقافية ٠ وفي النهاية حتى صاحبة المنزل تعودت علي ٠ فبعد ان اعتقدت انها سبرت أسراري استطاعت أخيرا ان تغفر لي طهارتي ولياقة حياتي ، التي كانت فيما مضى غير مفهومة بالنسبة لها ٠

« لا بد انه منخرط في نظام ديني ما في بلده » سمعتها من وراء ظهري تقول لاحدى الجارات ، وهي امرأة كانت ترقبني صباحا ومساء بعين متوجسة ٠ « انه يريد أن ينخرط ٠ نعم انه يريد ٠ لكنه لم يقبل » ٠

وسألت الجارة مغتاظة : « ان كان هذا هو النظام الذي ينخرط فيه فلم لا ينسحب ؟ »

وأجابت صاحبة المنزل بتسامح : « طيب ، انها حيلته الوحيدة » ٠

وحين أعددت حقائبي وكنت على وشك الرحيل جاءت الى غرفتي مع ابنتها سوزان وقالت وهي مستميتة لاغوائي : « طيب ٠ قبل ابنتي الآن طالما انك راحل » ٠ وحين رأتني الفتاة أقترب منها قالت محتجة « ولكن ليس على الجبين ٠ ليس على الجبين » ٠

- اين اذن ؟
- في أي مكان آخر تريده أيها الشيطان المسكين ٠
- على الفم ٠ زعقت الأم وهي تتقصف من الضحك ٠

انحنيت عليها وقبلتها على خدها ٠

★ ★ ★

قبل مغادرتي باريس ذهبت عصر أحد الايام لتوديع نوتردام ٠ سأظل دائما ممتنا لهذه الكاتدرائية لأنها أثرت في بهذا القدر حين رأيتها لأول مرة ٠ في كنائسنا تصدم القبة المرء كائتلاف بهي بين

المحدود واللامحدود ، بين الانسان والله • ويتسامق الهيكل وكأنه طامح في الوصول الى السماء ، ولكن بعد ذلك ، باستسلام ورع يخضع زخمه بغتة لـ « الشرط » المقدس وينحني بخضوع ويلتوي داخل نفسه أمام المطلق المستحيل ويصبح قبة ساحبا البانتوكريتر ★ الى قمته •

لقد صدمني الاندفاع المتهور في الكاتدرائية القوطية على انه أكثر تقديرا لنفسه • تنبثق نوتردام من الارض وكأنها قد جمعت حجارة الارض كلها لترتيبها بحيث تنتهي الى سهم حاد جريء يندفع في السماء مثل قضيب من البرق • كل شيء في هذه المعمارية القدسية يجاهد للاندفاع نحو القمة ويتحول الى سهم • هنا لم يعد لدينا المنطق المستقيم والمربع للاسلوب اليوناني الذي يضع النظام البشري على رأس الهيولى موازنا موازنة كاملة بين الجمال والحاجة ، ومدشنا تآلفا معقولا بين الانسان والله . بدلا من ذلك لدينا شيء قوي ولا عقلاني . سعار ذو منبع قدسي ينقل الناس نقلا مباغتا ويحثهم على القيام بهجوم على البرية الزرقاء الخطرة لانزال (ومضة البرق) العظيمة ـ الله ـ الى الارض •

ربما كانت الصلاة والروح البشرية شيئا كهذا ـ من يدري ؟ فبعد تجميع آمالنا البشرية ومخاوفنا علينا ان نقذف بها كالسهام نحو الذرى فوق البشرية التي لا تطال • ان الروح البشرية زخم وكبرياء ، صرخة وسط الصمت الجبان الذي لا يحتمل ، رمح يقف منتصبا لا ينحني ويمنع السماء من ان تسقط على رؤوسنا •

أحدق الى هذا السهم المشرئب ، دون خوف ، الى السماء وأحس بروحي تزداد متانة وتمدد نفسها ثم تصبح سهما •

بغتة أطلقت صرخة غبطة • ألم تكن صرخة نيتشه مثل هذه الصرخة تماما ؟ ألم تكن هي الاخرى سهما في الجو ، قضيبا من البرق متوجها للقبض على الاله لانزاله عن عرشه ؟

كم كنت سعيدا وأنا أتجول بهذه الطريقة تحت الاقواس

★ ضابط الكل : المسيح الذي يبارك العالم ممسكا بيده اليسرى الكرة الارضية في الكنائس الشرقية .

القوطية ساعة الغروب وأنا مغمور بهذه الروح الزرادشتية المؤلفة من الحجارة والحديد والزخرفة الملونة الصافية ، والتموجات العميقة للأرغن اللامرئي ذي البهجة القدسية ٠

بهذه الطريقة ودعت باريس على مهلي وقلبي مفعم بالاسئلة وبيأس وأمل هائجين ٠

كنت راحلا وقد فقد قلبي يقينه وهدوءه ٠ من كان ذلك الزاهد الذي أعلن « انك تجلس بهدوء وقلبك مرتاح ولكن لو انك سمعت زقزقات السنونو كثيرا لما بقي قلبك في هدوئه السابق » ؟ وأنا ـ انا الذي استمع الى الزعقة الحادة للصقر المتوحش ؟

كنت أغادر باريس ، الجراح على كفي وقدمي وجانبي ـ جراح الصلب كلها ـ قد شفيت ولكن مكانها كانت روحي تؤلمني ألما رهيبا وهي تقفز في داخلي دموية متمردة ٠

دائما ، وكلما توصلت الى يقين تصبح راحتي وهدوئي قصيري العمر ٠ تنبع شكوك ومقلقات جديدة من هذا اليقين وأجد نفسي مجبرا على البدء بكفاح جديد لتخليص نفسي من اليقين السابق وللبحث عن يقين جديد ـ الى ان ينضج هذا اليقين الجديد أخيرا ويتحول بدوره الى شك ٠٠٠ فكيف اذن نستطيع تحديد الشك ؟ شك ؟ أم يقين جديد ؟

علمني نيتشه ان لا أثق بكل نظرية متفائلة ٠ كنت أعرف ان القلب المخنث للانسان يحتاج دائما الى العزاء ، حاجة يكون العقل ذلك الصوفي المتفوق في قسوته مستعدا دائما لتقديم العون فيها ٠ وبدأت أحس ان كل دين يعد بتحقيق الرغبات البشرية هو ببساطة ملجأ للجبناء ولا يليق بالانسان الحقيقي ٠ سألت نفسي عما اذا كان طريق المسيح هو الطريق المؤدي الى خلاص الانسان أم انه مجرد خرافة محكمة الصنع تعد بالجنة وبالخلود بمهارة وبراعة فائقتين ، وبحيث ان المؤمن لن يستطيع أبدا ان يعرف ما اذا كان هذا الفردوس ليس أكثر من انعكاس لتعطشه الخاص ٠ فنحن لا نستطيع التحقق من ذلك حتى الموت ، وما من أحد قد عاد ، أو سوف يعود ، من أرض الموتى ليخبرنا ٠

لذلك علينا ان نختار أكثر الآراء بعثا للأمل ، واذا صدف ان كنا نخدع أنفسنا وكان الامل غير موجود فهذا أفضل بكثير ٠ بهــذه الطريقة ، وفي الاحداث كلها ، لا تهان روح الانسان . ولن يستطيع الاله أو الشيطان أن يسخر منها بالقول انها كانت مخدرة كمدخن الحشيش وانها قد خلقت فردوسا وهميا من خلال سذاجتها وجبنها ـ بغية تغطية الهاوية ٠ ولا يبدو لي الايمان الخالي من الامل على انه الاصح بل هو بالتأكيد الاكثر شجاعة ٠ كنت أعتبر الامل الميتافيزيقي طعما مغريا لا يتنازل الناس الحقيقيون لقضمه ٠ كنت أريد كـل ما هو أكثر صعوبة ، وبتعبير آخر ، ما هو لائق بالانسان أكثر ، الانسان الذي لا يئن ولا يتراجع ولا يمضي متسولا راجيا ٠ نعم ٠ هذا ما كنت أريده ٠ ثلاث تحيات لنيتشه ، قاتل الله ٠ فهو الذي مدّني بالشجاعة للقول : ان هذا ما أريد ٠

وبدت لي كنيسة المسيح في الحالة التي أوصلها اليها رجال الدين حظيرة فيها آلاف الاغنام المذعورة تثغو ليلا ونهارا يتكىء كل منها على الاخر وهي الى الابد في النيران المتأججة بينما لا يستطيع البعض الآخر انتظار الذبح لأنها تأمل في ان ترعى الى الابد عشبا ربيعيا خالدا ٠

لكن الانسان الحقيقي ليس غنمة ٠ وليس كلب حراسة أو ذئبا أو راعيا ٠ انه ملك يحمل مملكته معه ويتقدم ٠ ولأنه يعرف الى أين يذهب فانه يصل الى حافة الهاوية وينزل التاج الكرتوني عن رأسه ويلقيه ٠ ثم يتعرى من مملكته ٠ يتعرى تماما كغواص ، يضم كفيه ويضم قدميه أيضا ويلقي بنفسه على رأسه في الهاوية فيفنى٠ وكنت أتساءل عما اذا كنت سأستطيع ذات يوم مواجهة الهاويــة بهذه النظرة الهادئة الجسور ٠

وانني لأتساءل عما اذا كان قد سبق ان سمعت صرخة كهذه على الارض من قبل ، صرخة فيها من الكبرياء ما يكفي لاحتقار الامل . حتى نيتشه استسلم للرعب لوهلة ٠ لقد صدمه (العـود الازلي) بأنه استشهاد لا متناه ٠ ومن خوفه صاغ أملا عظيما ، منقذا للمستقبل ، السوبرمان ٠ ولكن السوبرمان ليس الا فردوسا آخر ، سرابا آخر يخدع الانسان التعيس المسكين ويمكنه من تحمل الحياة والموت ٠

٢٤ ـ فيينـا ـ مرضي

كان جسدي منهكا وروحي في حالة من التوتر الزائد فأغلقت عيني" في عربة القطار ولم أحاول أن أفتح جفني لأرى البلدان التي أجتازها • كان القوس مشدودا جدا حتى أنني كنت أسمع تمزق الحبل الممدود بين صدغي" في داخلي ، لقد وصل الى حد الانقطاع •

صدغان يرنان ، والاعصاب في رقبتي تخفق • أحسست بقواي تتسرب من دماغي وحقوي ورسغي ـ وتتلاشى • ورحت افكر مع نفسي • اذن فهكذا هو الموت ـ هادىء وشفوق ، شبيه بدخولك الى حمام دافىء وقطع شرايينك • فتحت الباب امرأة بين ذراعيها طفل لتدخل المقصورة التي كنت أتمدد فيها وحيدا بطولي كله • حين رأتني أغلقت الباب بسرعة وفرت مذعورة • لا بد أن رأسي قد أصبح الآن جمجمة • هكذا فكرت • ولهذا ذعرت المرأة • جميل أن الموت لم يصبني في عقلي كما فعل بك يا سيدي •

حين وصلنا الى فيينا استجمعت قواي كلها لمغادرة القطار وشراء صحيفة من الكشك على الرصيف • لكنني انزلقت واصطدمت بعمود حديدي ، فسقطت على الارض فاقد الوعي •

لا أذكر شيئا بعد ذلك • حين فتحت عيني وجدت نفسي في بهو واسع فيه صفوف من الأسرة • كان الوقت ليلا • ومصباح أزرق صغير يحترق فوقي • كان رأسي ملفوفا بقطن وشاش • وكان شبح

أبيض بجناحين كبيرين ، على كل صدغ جناح ، يرفرف بخفة بين الأسرة • جاء الي ووضع يده الباردة اللطيفة على نبضي وكأن أجنحه روحي تخفق هناك •

كان النوم العميق هو كل ما تبدى لي من مكوثي في سرير المرض • أيام عديدة وأنا أرفض أن أفتح فمي للأكل • ذبلت وصرت عاجزا عن رفع نفسي للحركة • كل يوم كنت أحس بنفسي أغرق باستمرار أعمق فأعمق –في البدء حتى الخصر ثم الى الصدر ثم الى الرقبة – في وحل ناعم فاتر تفوح منه رائحة الاوراق المنتنة • وخمنت انه لا بد ان يكون الموت •

بين حين وآخر كنت أرفع راسي من خدره • ومع عودة وعيي الى النور استدعيت المرضة • وجاءت بجناحيها البارزين من صدغيها وقد عرفت ما أريد فحملت في يدها قلما وورقة مستعدة للكتابة • كان ذهني يعمل ويقاوم ويحاول أن يمنع نفسه من الغرق في الوحل مع ما تبقى مني • وكنت قد عودت المرضة على المجيء لكي أقول بعض الكلمات لها–هايكاي★ أو أي شيء يبرز من هذه الهيولى – وأجعلها تكتبها لي • كثير من هذه الهاي كاي كانت لا شيء• بينما أدخلت فيما بعد ، أخريات منها في كتاباتي بعد خروجي من مستنقع المـوت •

« أنا مستعدة » قالت الاخت وهي تمسك بيدي وتبتسم •
كانت دائما تكتب والورقة مستقرة على ركبتيها –أتذكر يديها النحيلتين ناصعتي البياض • أغمضت عيني وأمليت عليها :
« مرحبا أيها الانسـان ، أيها الديـك الصغـير المنتـوف ذو الساقين ! صحيح – ولا أهمية لما يقوله الناس – ان الشمس لن تشرق ما لم تَصْحَ » •
ضحكت المرضة وقالت : أية أمور تخترعها في حماك !
– اكتبي : دودة تنام في قلب الاله وتحلم ان الاله غير موجود •
اكتبي : لو فتحتم قلبي لوجدتم جبلا شاهقا منيعا ورجلا وحيدا يتسلقه •
واكتبي هذا أيضا : لو أزهرت الآن وسط الشتاء يا شجرة اللوز

★ هايكو شكل شعري ياباني من ثلاثة ابيات دون قافية .

المبعثرة فسيأتي الذبح ويدمرك · ويحيب شجرة اللوز في كل ربيع : دعه يفعل ·

ـ يكفي · يكفي لهذا اليوم · قالت الاخت وهي ترى ان لوني قد صار شاحبا ·

ـ لا · لا · هذه أيضا : انني أستمتع برؤية العقل وهو يدق باب السماء ويتوسل والله يرفض ان يفتح الابواب ويعطيه كسرة من الخبز ·

وأصرت الاخت : يكفي ! يكفي !

ـ لا · لا · هذه أيضا لكي يعرفوا هناك في اليونان اذا ما مت : أينما ذهبت وحيثما حللت فانني أمسك باليونان بين أسناني كورقة من الغار ·

أغمضت عيني ، لقد أفرغ دماغي · تمتمت : « تعبت يا أخت ···· » وغرقت من جديد في المستنقع ·

كانت متع حياتي وتقلباتها ، الناس الذين احببت ، والبلدان التي رأيت ، كلها تعوم في راسي مثل الغيوم ، تتماسك قليلا ثم تتبعثر وتتلاشى بينما تبرز غيوم أخرى ، أحيانا من صدغي الأيمن ، ومن الأيسر أحيانا أخرى حسب الجهة التي تهب منها الريح ·

ذات يوم ووسط الحمى تذكرت (عذراء الخطى الذهبية) وهو دير كريتي مطل على البحر الليبي · يا لهذا اليوم الذي كان ويا لها من شمس ربيعية لطيفة ، وكيف كان البحر يتلامع وهو يندفع نحو الشاطىء المغربي ! ورئيس الدير ، العجوز المربوع العريض المفعم بالحيوية بلحيته البيضاء المدببة وشاربيه المفتولين كالجندي كم كان مفعما بالمزاج الطيب وكم كان عقله متألقا ! أخذني لنتمشى ونتفرج على مقبرة الدير حيث أراني قبور الرهبان محفورة في الصخور فوق المياه · كان البحر يبلل الصلبان الخشبية السوداء كلما هبت عاصفة فتمحي كافة الاسماء المكتوبة عليها · أردت أن أعود اذ انني أجد التمشي بين القبور أمرا مزعجا جدا · لكن رئيس

الدير أمسك بذراعي وضغط عليه حتى آلمني • قال وهو يضحك . « تعال • تعال أيها الفتى الشجاع • لا تخف • يقال ان الانسان هو الحيوان الذي يفكر في الموت • لكنني أخالف هذا الرأي • لا • الانسان هو الحيوان الذي يفكر في ديمومة الحياة • تعال وانظر ! » وتوقف عند قبر فارغ مكشوف • « انظر • هذا قبري • لا تخف يا فتى ! اقترب • انه ما يزال فارغا • لكنه سوف يمتلىء » وانفجر في عاصفة من الضحك • هو نفسه كان قد حفر القبر في الصخور بمعول كما هيأ الشاهدة • قال لي : « انظر ما الذي كتبته عليها • طيب • لم لا تنحني وتقرأ ؟ كفاك خوفا • أقول لك » • ركع ومسح الغبار عن الحروف المكتوبة وقرأ : « ايه أيها الموت • انني لا أخافك ! » تطلع الي ، حتى أذناه كانتا تضحكان « ولم علي أن أخاف منه ذلك الافاك العجوز ! انه بغل ، سوف أمتطيه وأجعله يأخذني الى الله • »

أعتقد ان بعض أغنى ساعات الانسان وأكثرها حرية والاكثر تحررا من الزمان والمكان والعقلانية هي ساعات الحمى •

كنا في أيار • وقد صرت أخير قادرا على مغادرة المصح والخروج الى الضوء • كان الليلك مزهرا في الحدائق والنساء يرتدين ملابس شفافة بألوان زهرية ، والصبايا والشباب يتبادلون الهمسات تحت أشجار حديثة الخضرة وكان لديهم أسرارا عظيمة يحكونها • في عصر اليوم الذي خرجت فيه كان نسيم لطيف يهب حاملا معه الروائح من شعر النساء ووجوههن المطلية بالمساحيق • رحت أردد لنفسي ان هذه هي الارض ، العالم العلوي • ما أجمل أن تكون حيا ومعك حواسك الخمس - الابواب الخمسة التي يدخل العالم منها - وهي تعمل بشكل جيد • وما أجمل أن تقول ان العالم جميل وانا أحبه •

لقد أثارت الارض المغتسلة بالشمس فيّ احساسا بالرقة أثارني الى حد كبير • شعرت أنني قد ولدت لتوي وقد نزلت الى العالم السفلي لوهلة وانني حين رأيت الرعب قفزت وفتحت عيني فوجدت نفسي مرة أخرى في الضوء القدسي المألوف أسير تحت الاشجار وأصغي الى الضحكات والاحاديث البشرية •

رحت أتمشى ببطء · كانت ركبتاي ما تزالان ترتجفان ، وكان دوار زاهي الالوان حلو وناعم كضباب الصباح يلف عقلي · وراء الضباب كنت أرى العالم نصفه صلب ونصفه مصنوع من الاحلام · تذكرت أيقونة رأيتها ذات مرة في كنيسة ما لا أذكرها · كان الرسم مقسوما الى مستويين · في المستوى السفلي القديس جورج الاشقر القوي يمتطي حصانا هائجا وهو يغرز رمحه في الوحش المزبد المتلوي الرهيب ، الذي فتح فمه القرمزي استعدادا لأكله · وكان الصراع المماثل المثار على الجزء العلوي بعيدا عن القديس جورج والحصان والوحش مؤلفا من غيمة رقيقة على وشك التبعثر والتلاشي في الهواء · وفيما كنت أتمشى بركبتين مرتعشتين عبر حدائق فيينا وشوارعها كان هذا المستوى العلوي المرسوم في لوحة العالم هو الجانب الذي أراه · وكنت أرتعد خشية أن تهب ريح ما وتبددها ·

كيف لي أن أعرف انه في غضون أيام قليلة ستهب هذه الريح ذاتها وتبعثرها فعلا !

فيينا مدينة فاتنة مغرية ، يتذكرها المرء دائما كعشيقة · جميلة متقلبة متبرجة تعرف كف تلبس وكيف تتعرى ، كيف تسلم نفسها وكيف تخون ، ليس بدافع الحب أو الكراهية ، بل من خلال المرح · انها لا تمشي بل ترقص ولا تنادي بل تغني · المطر يبللها والثلج يغطيها والشمس تدفئها · تراها – ليس لديها ما تخفيه – فتهتف : تاليا ، أغلايا ، يوفروسين – فيينا – ربات الحسن الاربع ★ !

خلال الايام القليلة الاولى من عودتي الى الحياة استمتعت بهذه المدينة الضاحكة استمتعت بالضوء وبعبير الارض وأحاديث الناس واستمتعت أكثر من ذلك بالماء العذب والخبز الطري والفاكهة ·

★ هن ثلاث ربات للحسن ، شقيقات كان اليونانيون يعتبرونهن ملتحلت للفتنة والجمال . كن وصيفات لأفروديت يعتنين بزينتها . اضاف لهن المؤلف اسم فيينا .

كنت أغمض عيني على شرفة غرفتي وأصغي لصخب العالم · العالم يبدو مثل خلية نحل تعج بالعاملات واليعاسيب والعسل : ونسيم الربيع مثل يد رقيقة باردة على وجهي ·

ولكن بعد ان أتخم جسدي واستلمت روحي الزمام من جديد بدا ذلك الفرح كله يصدمني اذ يبدو لي غاية في الضحالة والتفاهة ، فهو متعارض مع أعمق حاجاتي ، يحس المرء ان هناك من يدغدغ الرجال والنساء ـ وهذا ما يفسر ضحكهم الدائم · لكنني كنت أعتبر الانسان حيوانا ميتافيزيقيا وهكذا كان يبدو لي في ذلك الحين ، فالضحك والاستهتار والمرح خيانة وصفاقة · تذكرت والدي الذي كان يرى الضحك وقاحة دون ان يعرف لماذا · الا انني كنت أعرف لماذا · وتلك هي الخطوة الوحيدة التي نجح الابن في تجاوز أبيه فيها ·

بدأ الصوت الصارم القاسي للنبي المأساوي الذي أحبه يبرز في أعماقي بوضوح متزايد · « يا للخجل ! » جأر الصوت الداخلي : « أهذا هو العقل الاسدي المتماسك الذي غذيتك به ؟ ألم آمرك بعدم الانحناء للعزاءات ؟ العبيد والجبناء وحدهم لديهم آمال ـ من الافضل لك أن تستسلم لهذه الحقيقة · العالم مصيدة أعدها الله · لا تتنازل لقضم الطعم · مت جوعا بدلا من ذلك ! » ثم بثقة وبصوت أكثر نعومة : « أنا جبنت وفشلت · أما انت فلتنجح ! » ·

في أحيان أخرى كان هذا الصوت يعلو مهسهسا مستهجنا وساخرا : « ما الذي تعنيه بتباهيك وادعائك انك تريد ما هو أكثر صعوبة ، وأنك تثق بالايمان الذي لا ينحني للعزاءات في الوقت الذي تقضي وقتك كله خلسة وتسكر في حانات الامل هذه ، في الكنائس ، منحنيا لعبادة الناصري ومتسولا « ساعدني يا مولاي » بيد ممدودة ؟ شق طريقك ـ وحيدا ! تقدم ! توصل الى النهاية وهناك ستجد الهاوية · تطلع اليها ـ هذا كل ما أطلبه منك، ان تتطلع الى الهاوية دون أن تصاب بالذعر · هذا ولا شيء غيره · أنا نفسي قمت بذلك · لكن عقلي انهار · اجعل عقلك متماسكا وثابتا · تجاوزني » ·

قلب الانسان لغز قاتم لا يحل · انه جرة مثقوبة وفمها مفتوح أبدا · وعلى الرغم من أن أنهار الارض كلها تصب فيها فانها ستظل فارغة عطشى · ان أعظم الآمال لم تستطع ملأها · فهل ستمتلىء الآن بأعظم اليأس ؟

هذا هو الاتجاه الذي ظل الصوت عديم الرحمة يدفعني لسلوكه · تكهنت بمن كان يدفعني لاقتفاء آثره ، الخطوات التي سبقتني بثبات ودون تردد نحو الهاوية دون ابطاء ولا اسراع بل بانتظام نبيل عظيم · كان الصوت يقول لي دائما : « انه المخلص النهائي ، يخلص الانسان من الامل والخوف والآلهة · اتبعه ! أنا نفسي فشلت في القيام بذلك في الوقت المناسب لأن السوبرمان جاء حاملا معه أملا عظيما لي فضللت · لم أجد الفرصة لتنحيته جانبا · ولكن أنت ! ادفع بسوبرمانك الناصري ، جانبا وحقق ما لم أجد الفرصة لتحقيقه ـ الحرية القصوى » ·

ظل الصوت المزعج يحثني بعناد لا يرحم وشيئا فشيئا بدأ نبي الفداء الكلي المطلق ينهض صامتا في داخلي · صارت أحشائي زهرة لوتس جلس عليها متربعا ، وعجلتان غامضتان محفورتان على باطني قدميه ، أصابعه مضفورة بمهارة ، ولولب أسود بين حاجبيه مثل عين ثالثة · كانت ابتسامته المغلقة المؤذية تمتد من شفتيه الصغيرتين الى أذنيه الكبيرتين ومنهما الى الجبين ثم تنزلق كالعسل من هذا المطل العالي لتغزو جسده كله ولتصل بوضوح الى باطني قدميه حيث تتحرك العجلتان وكأنهما متشوقتان للانطلاق ·

بوذا ! كنت قد قرأت عن حياته وعن رسالة الكبرياء اليائسة منذ سنوات عديدة لكنني كنت قد نسيت كل شيء · من الواضح انني كنت لم أنضج بعد ولهذا لم أستطع أن أنتبه· ثم صدمني صوته كنداء ساحر غريب صادر من أعماق آسيا ، من غابة معتمة مليئة بالافاعي وبالسحلبيات المدوخة · وظل صوت آخر ، صوت أليف ذو حلاوة مطلقة ،ينبعث من أعماقي ، ورحت أتقدم بثقة للالتقاء به · ولكن الآن في وسط عربدة هذه المدينة ، هنا أيضا جاء صوت ذلك المزمار الساحر الغريب · كيف أغمضت عيني وتلقيته ! كان

الصوت أكثر ألفة الآن وكما لو أنه لم يسبق له ان صمت في داخلي بل كان ، ببساطة ، قد طغى عليه البوق المسيحي ليوم القيامة ٠

لا شك انني قد قويت بالطعام الاسدي للنبي الشيطاني لأنني بدأت أحس بالخجل من محاولاتي لتغطية الهاوية بستارة مبهرجة ٠ كنت ما أزال لا أجرؤ على مواجهتها مباشرة كما هي : عارية وبغيضة ٠ لقد حل المسيح ، وهو يمد ذراعه بشفقة ، بيني وبين الهاوية ليمنعني من رؤيتها ومن الخوف منها ٠

بدأت أثير روحي وأعذبها ٠ وعلى الرغم من أنها كانت تود ان تظل متورطة باللحم وان توهب فما ويدين لتقبل العالم وتلمسه ، وعلى الرغم من أنها لم تعد ترغب في اعتبار غلافها ، الجسد ، عدوا بل انها صارت ترغب في مصادقته لكي يستطيعا أن يسيرا معا ، يدا بيد ، وبحيث لا يفترقان حتى القبر ـ على الرغم من ان الروح كانت ترغب في ذلك كله فقد وقفت في طريقها ٠ أي « أنا » ؟ شيطان في داخلي ، شيطان جديد ـ بوذا ٠ كان هذا الشيطان يظل يصرخ ، الرغبة لهب ، والحب لهب ، الفضيلة والامل و « أنا » و « أنت » والجنة والجحيم كلها لهب . شيء واحد ، وشيء واحد فقط ، من نور ، هو نكران اللهب ٠ خذ اللهب المتأجج الذي يحرقك ، خذه وحوله الى نور ٠ ثم أطفىء النور ٠

حين ينتهي عمل النهار في الهند وتسقط الظلال على الاسطحة وأزقة القرية وصدور الناس يترك أحد السحرة ★ كوخه ليقوم بجولات في القرية ٠ ينتقل من باب الى باب والقصبة السحرية بين شفتيه يعزف عليها نغمة حلوة ومهدئة كالسحر الذي يشفي الارواح ٠ وقد سميت هذه النغمة بـ « نغمة النمر » ويقال انها تشفي جراح النهار ٠ تلك هي النغمة التي كنت أرغب في سماعها بوضوح ، ولكي يتحقق لي ذلك أقفلت غرفتي على نفسي وانكببت ليلا ونهارا على كتب ضخمة لدراسة طقوس بوذا وتعاليمه ٠

« في زهرة شبابي ، وبشعري الاسود الاجعد ، في أوج متعتي

★ طارد الارواح الشريرة .

بشبابي ، وعند أول اعتزاز بقوة الرجال ، حلقت شعري حتى الجلد وارتديت الثوب الاصفر وفتحت باب بيتي ودخلت الصحراء ٠٠٠٠ »

هنا تبدأ معارك المبدأ الزاهد « صار ذراعاي أشبه بقصبتين جافتين ٠ وكغذاء كنت أتناول حبة أرز واحدة من شروق الشمس حتى غروبها ، ولا يخطرن لك ان الارز كان أكبر مما هو عليه الآن ، بل كان كما هو الآن تماما ٠ صارت مؤخرتي مثل خف الجمل وظهري مثل السبحة وصارت عظامي بارزة مثل هيكل كوخ خشبي نصف متهدم ٠ ومثلما يتلامع الماء في قاع بئر عميقة كذلك كانت عيناي تلتمعان ٠ ومثل اليقطين الذي يتيبس في الشمس ويتفسخ كذلك كان رأسي » ٠

غير ان الخلاص لم يأت من هذا الطريق القاسي للمبدأ التصوفي٠ عاد الى قريته وراح بوذا يأكل ويشرب ٠ وجلس تحت شجرة بهدوء غير سعيد ولا حزين وقال : « لن أنهض من تحت هذه الشجرة لن أنهض من تحت هذه الشجرة ، لن أنهض من تحت هذه الشجرة حتى أجد الخلاص » ٠

بنظره الصافي وروحه الطاهرة رأى التفاهة ، رأى الحياة تخرج من الارض ثم تختفي ورأى الآلهة تتناثر كتناثر الغيوم في السماء ورأى الدورة الكاملة فاستند الى شجرته ٠ وحين فعل ذلك بدأت أزهار الشجرة تتساقط على شعره وركبتيه ، والرسالة السامية على عقله ٠

تلفت يمنة ويسرة ، أمامه ووراءه ٠ كان هو نفسه الذي يجأر في الوحوش ويجأر في البشر وفي الآلهة ٠ تملكه الحب ، الحب والشفقة على نفسه التي كانت موزعة تكافح خلال العالم ٠ عذابات الارض كلها وعذابات السموات كانت عذاباته ٠ « كيف يمكن لأحد أن يكون سعيدا في هذا الجسد المسكين وفي هذا الخليط من الدماء والعظام والدماغ واللحم والمخاط والمني والعرق والدموع والبراز ؟ كيف يمكن لأحد أن يكون سعيدا في هذا الجسد المحكوم بالحسد والكراهية والكذب والخوف والالم والجوع والعطش والمرض والشيخوخة والموت ؟ الاشياء كلها ـ النباتات والحشرات والوحوش

والبشر ، تتقدم نحو الفناء • انظر خلفك الى أولئك الذين لم يعودوا موجودين وانظر أمامك الى أولئك الذين لم يولدوا بعد • ينضج الناس مثل القمح ويتساقطون كالقمح وينبتون من جديد • المحيطات التي لا حدود لها تجف والجبال تمحي ، يرتعش نجم القطب والآلهة تتلاشى •••• »

الشفقة ـ هذا هو الدليل الذي لا يخطىء في الرحلة البوذية • بالشفقة نخلص أنفسنا من أجسادنا نقضي على التجزئة ونذوب في اللاشيئية • « نحن جميعا واحد ، وهذا الواحد يتألم ـ يجب أن نخلصه • حتى لو تألمت قطرة مرتعشة من الماء فقط فانني أتألم » •

« تبزغ (الحقائق النبيلة الاربع) في عقلي • العالم شبكة وقعنا فيها • الموت لا يخلصنا لأننا سنولد من جديد • فلنتغلب على الظمأ ولنقتلع الرغبة من جذورها ولنفرغ أحشاءنا ! لا تقل : أريد أن أموت أو : لا أريد أن أموت • بل قل : أنا لا أريد شيئا • اسم بعقلك فوق الرغبة والأمل ـ وعندها ، حتى وأنت ما تزال في هذه الحياة ، ستكون قادرا على الدخول في غبطة انعدام الوجود • وبيدك توقف (عجلة البعث) • »

لم يسبق ان سما شكل بوذا أمامي فستحما بضوء ساطع كهذا • في الماضي حين كنت أعتبر النيرفانا ★ مساوية للخلود كنت أرى بوذا جنرالا آخر من جنرالات الامل يقود جيشه بعكس اندفاع العالم • والآن فقط أدركت ان بوذا يحث الانسان على الرضى بالموت وعلى حب المقدور وان يوائم بين قلبه والدفق الشامل ، وحين يرى المادة والعقل يطارد كل منهما الآخر يتحدان ويلدان ويفنيان.وكان يقول : « هذا ما أريد » •

بين الناس الذين ولدتهم الارض جميعا يقف بوذا متألقا في الذروة ، روحا نقية خالصة • دون خوف أو ألم ، مليئا بالرحمة

★ مرحلة النشوة والسعادة القصوى التي تتحقق عن طريق قتل الحواس والشهوات في البوذية .

والحكمة كان يمد يده ويفتح الطريق الى الخلاص وهو يبتسم بوقار • والكائنات كلها تتبعه دون تفكير ، وبالخضوع ، بحرية ، لما لا يمكن تجنبه ، تقفز مثل الجداء الذاهبة للرضاعة • ليس البشر وحدهم بل الكائنات كلها ، البشر والوحوش والاشجار • وعلى خلاف المسيح لا يخصص بوذا البشر وحدهم. انه يشفق على كل شيء ويخلص كل شيء •

كان يحس في قلبه بالكون يتشكل ويفنى - وحده دون معونة القوى اللامرئية • كان الاثير يتكثف في جمجمته المقمرة بالشمس ويصبح سديما ، والسديم يصبح نجما ، والنجم ، كالبذرة ، يشكل قشرة ويولد أشجارا أو حيوانات وبشرا وآلهة ، ثم تشب النار في رأسه ويتحول كل شيء الى دخان ثم يتلاشى •

عشت أياما وأسابيع عديدة وأنا مندفع في هذه المغامرة الجديدة • أية هاوية هو القلب البشري ! وكيف تتحول خفقات القلب الى وجيب فيسلك طرقا غير متوقعة • أيمكن أن شوقي وتوقي كله للخلود يقودني الى الفناء المطلق ؟ أم أنه من الممكن ان يكون الخلود والفناء هما الشيء ذاته ؟

حين نهض بوذا من تحت الشجرة حيث ظل يكافح سبع سنوات بحثا عن الخلاص ، مضى وقد وصل الى الخلاص حتى الآن وجلس متربعا في ساحة مدينة كبيرة • وهناك بدأ يتكلم وهو محاط باللوردات والتجار والمحاربين ، ويعظهم عن الخلاص • في البدء سخر منه هؤلاء الكفرة كلهم لكنهم بالتدريج بدأوا يحسون أن أحشاءهم قد فرغت وأحسوا بأنفسهم وقد تطهروا من الرغبة ، وشيئا فشيئا تحولت أثوابهم المبهرجة بالابيض والاحمر والازرق الى صفراء مثل ثوب بوذا • وأنا ، بطريقتي الخاصة ، أحسست أن أحشائي قد فرغت وان عقلي قد ارتدى الثوب الاصفر •

ذات يوم بينما كنت أتمشى في براتر ، وهي حديقة فيينا الكبيرة ، توجهت الى تحت الاشجار فتاة من الجماعة المتبرجة • وسعت خطاي خائفا لكنها لحقت بي وأمسكت بذراعي • كانت

تفوح منها رائحة البنفسج القوية · وفي الضوء استوضحت عينيها الزرقاوين وشفتيها المدهونتين وثدييها نصف العاريين ·

همست وهي تغمز بعينها : تعال معي ···

- لا · لا · صرخت وكأنني في خطر ·

تركت ذراعي وسألت : « ولم لا ؟ »

- آسف · ليس لدي وقت ·

- هل أنت معتوه ؟ قالت الفتاة وهي تنظر الي باشفاق · ما أنت ؟ راهب ؟ لا أحد يرانا ·

كنت على وشك أن أجيب ان بوذا يرانا لكنني أمسكت نفسي، وكانت عينا الفتاة ، في الوقت ذاته ، قد وقعتا على متسكع وحيد آخر فهرعت اليه لتحدثه · تنفست الصعداء وأنا أحس كما لو انني قد نجوت من خطر كبير ورجعت بأقصى سرعة الى غرفتي ·

كنت قد غرقت في بوذا · عقلي عباد شمس أصفر وبوذا هو الشمس · كنت أتتبعه وهو يشرق ثم وهو يصل الى ذروة سمته ثم وهو يختفي · قال لي ذات مرة عجوز روملي « الماء ينام لكن الارواح لا تنام » الا انه بدا لي خلال تلك الايام ان روحي قد غرقت في نوم مبهج · وغمرتها السكينة البوذية · ومثلما تحلم وتعرف انك تحلم ، وحين لا يثير فيك كل ما تراه في نومك ، سيان كان خيرا أم شرا ، لا فرحا ولا حزنا ولا خوفا لأنك تعرف انك ستستيقظ وسيمحي كل شيء ، بهذه الطريقة ذاتها ، ودون أن أحس بفرح أو خوف كنت بسكينة تامة أراقب مرور أشباح العالم أمام عيني ·

ولكي أمنع هذه الرؤيا من التبدد بسرعة كبيرة ، ولكي أزيد من صلابة الخلاص الكامل بالكلمات لتستطيع روحي أن تحسه بشكل ملموس بدأت أكتب حوارا بين بوذا وحواريه الاثير لديه أناندا ★ ·

★ ★ ★

★ ولد في اليوم ذاته الذي ولد فيه بوذا وكذلك زوجته وحصانه وشجرته ومرافقه . كان متزوجا من امراة جميلة وكان قلبه متعلقا بها ولذلك احتاج بوذا الى مجموعة من التجارب (أخذه الى الجنة والجحيم) لكي يقنعه بالزهد وبالمبدأ البوذي . ثم اصبح افضل اتباعه .

نزل المتوحشون من الجبال وهدموا المدينة • وجلس بوذا باسما تحت شجرة مزهرة • وكان أناندا يحني رأسه على ركبتي بوذا ويغمض عينيه ليمنع سلسلة اشباح العالم (فانتا سماغوريا) من تضليل أفكاره • وحولهما كان يقف حشد من المستمعين الذين يتوقون لأن يصبحوا حواريين كانوا يريدون أن يسمعوا كلمات الخلاص ، ولكن ما أن سمعوا بأن الهمج المتوحشين يشنون حربا حتى صاروا يضطرمون • صرخوا : « انهض أيها المولى ! قدنا لصد الهمج • فيما بعد تستطيع ان تقول لنا سر الخلاص » •

وهز بوذا رأسه : « لا • أرفض أن آتي » •
وصرخ الآخرون بغضب : « هل أنت متعب ؟ هل أنت خائف ؟ »

وأجاب بوذا : « لقد أكملت الرحلة » وصوته يتجاوز التعب والخوف ويتجاوز الحماس الوطني •

فصرخ البقية : « طيب • اذن • فلنذهب نحن ولندافع عن أرض آبائنا ! » وعادوا باتجاه المدينة •

قال بوذا وهو يرفع يده ليباركهم : « اذهبوا ومعكم بركتي • لقد ذهبت الى حيث أنتم ذاهبون • ذهبت ورجعت • سأظل جالسا هنا تحت هذه الشجرة المزهرة منتظرا عودتكم • وعند ذلك فقط ، حين نجلس جميعا تحت الشجرة المزهرة ذاتها يصبح لكل كلمة أقولها ولكل كلمة تقولونها المعنى ذاته لنا جميعا • أما الان فما يزال الوقت باكرا جدا • انني أقول شيئا وتفهمون شيئا آخر • اننا لا نتكلم اللغة ذاتها • ولذا أرجو لكم رحلة مريحة ••• والى اللقاء ! »

قال ساريبوتا : « أنا لا أفهم يا مولاي • هل عدت تتحدث الينا بالألغاز ؟ »

– ستفهم حين تعود يا ساريبوتا • كما قلت لك • ما يزال الوقت باكرا • لقد عشت سنوات حياة البشر وعذابهم ، سنوات وأنا أمتلىء وأنضج • قبل ذلك لم أكن أتمتع بهذه الحرية الكاملة يا رفقائي • ولماذا حققت هذه الحرية ؟ لأنني أتخذت قرارا عظيما •

ـ قرار عظيم ؟ سأل أناندا ٠ ورفع رأسه ثم انحنى ليقبل باطن قدم بوذا المقدسة ٠ « أي قرار يا مولاي ؟ »

ـ لا اريد ان ابيع روحي لله ،لذلك الذي ،انتم الآخرين كلكم، تسمونه الله ٠ ولا اريد ان ابيع روحي للشيطان ، اذلك الذي انتم كلكم ، تسمونه الشيطان ٠ لا أريد أن أبيع نفسي لأحد ٠ آنا حر ا سعيد هو الانسان الذي ينجو من مخالب الله والشيطان ٠ هو ، وهو وحده ، الذي يجد الخلاص ٠

وسأل ساريبوتا والعرق يتصبب من جبينه : « الخلاص مم ؟ الخلاص مم ؟ هناك كلمات ما تزال على شفتيك يا مولاي ٠ انها تحرقك ٠

ـ لا يا ساريبوتا ٠ انها لا تحرقني ٠ انها تبردني ٠ اعذرني ٠ ولكنني لا أعرف ان كنت تملك الاحتمال ، ان كنت تستطيع ان تسمعها دون أن يصيبك الذعر ٠

ـ مولاي ٠ قال ساريبوتا ٠ « نحن ماضون الى الحرب وقد لا نعود ٠ قد لا نراك بعد الآن ٠ فاكشف لنا عن هذه الكلمات الختامية ، كلماتك الاخيرة ٠٠٠ الخلاص مم ؟

ببطء وتثاقل ، مثل جسد يهوي في الهاوية ، تساقطت الكلمات عن شفتي بوذا المشدودتين : « من الخلاص ! »

وهتف ساريبوتا : من الخلاص ؟ الخلاص من الخلاص ؟ لا أفهم يا مولاي !

ـ هذا أفضل يا ساريبوتا ٠ لو فهمت لخفت ٠ ومع ذلك أريد ، أيها الزملاء ، أن تعرفوا ان هذا هو شكل حريتي ٠ لقد نجوت من الخلاص ٠

وصمت ٠ الا انه لم يعد قادرا على كبح جماح نفسه :

ـ أريدكم أن تعرفوا ان أي شكل آخر للحرية هو عبودية ٠ ولو انني ولدت ثانية لقاتلت من أجل هذه الحرية العظيمة ، من أجل

الخلاص من الخلاص ··· ولكن هذا كاف · لم يئن الأوان لحديثنا · سنقول كل شيء حين تعودون من الحرب ـ اذا عدتم · وداعا ·

وتنفس بعمق · وحين رأى حوارييه مترددين ابتسم وسألهم : « فيم بقاؤكم ؟ ما تزال الحرب واجبا عليكم · هيا اذن · هيا الى الحرب · وداعا ! »

قال ساريبوتا : « الى اللقاء يا مولاي ··· هيا بنا فلنذهب · وليكن الله معنا » ·

لم يتحرك أناندا · ونظر اليه بوذا راضيا بطرف عينه ·
قال الحواري وهو يتلون بشدة : « سأبقى معك هنا يا مولاي » ·
ـ خوفا يا عزيزي أناندا ؟
· بل حبا يا مولاي ·
ـ لم يعد الحب كافيا يا رفيقي الوفي ·
· أعرف ذلك يا مولاي · حين كنت تتكلم رأيت اللهب يلعق فمك ·
ـ لم يكن لهبا يا أناندا · بل تلك كلماتي · هل تفهم هذه الكلمات فوق البشرية يا صديقي المخلص الفتي ؟
· أظن أنني أفهمها · ولهذا بقيت معك ·
ـ ما الذي تفهمه ؟

· كل من يقول ان الخلاص موجود هو عبد لأنه يظل يزن كل كلمة من كلماته وكل عمل من أعماله في كل لحظة · انه يتساءل مرتعدا ، هل سأنجو أم ستحل علي اللعنة ؟ وهل سأذهب الى الجنة أم الى الجحيم ؟ كيف يمكن لروح أن تكون حرة وهي تأمل ؟ كل من يأمل يخاف من حياته ومن الحياة القادمة معا · انه سيتعلق في الهواء متشككا وهو ينتظر الحظ أو رحمة الله ·

وضع بوذا يده على شعر أناندا الاسود وقال له : ابق ·
ظلا صامتين بعض الوقت تحت الشجرة المزهرة وبوذا يداعب شعر حواريه الحبيب بهدوء ومحبة ·
ـ الخلاص يعني التخلص من المخلصين كلهم · تلك هي الحرية السامية ، أسمى حرية ، حيث لا يتنفس الانسان الا بصعوبة · هل تستطيع الاحتمال ؟

أحنى أناندا رأسه ولم يتكلم ٠

ـ بمعنى آخر ، أنت تفهم الآن من هو المخلص الكامل ٠٠٠

صمت للحظة ، ثم قال وهو يفرك بين أصابعه زهرة سقطت من الشجرة : « انه المخلص الذي سيخلص البشر من الخلاص » ٠

★ ★ ★

بأحرف الابجدية الستة والعشرين (الحجارة الوحيدة والاسمنت الوحيد الذي لدي) شققت الطريق المؤدي الى الخلاص ٠ أنا أعرف الآن ٠ ولأنني أعرف كنت أنظر الى العالم بهدوء ، دون خوف ، لأنه لم يعد يستطيع أن يخدعني الآن ٠كنت أنحني من نافذتي وأنظر الى الرجال والنساء والسيارات والمخازن المعبأة باللحوم والبقالة والمشروبات والفاكهة والكتب ـ وابتسم ٠ هذه كلها ليست الا غيوما ملونة ، تهب عليها نسمة لطيفة فتتشتت وتتبدد ٠ لقد أنجبتها قوة المغوي ، ويتعلق الآن بها الظمأ والجوع البشريان لساعة أو ساعتين ، قدر الامكان قبل أن تهب النسمة وتبددها ٠

أخرج الى الشارع وأنخرط في موج الناس الذين يركضون كلهم بسرعة كبيرة ٠ كنت أركض معهم ٠ لم يعد لدي ما أخافه ٠ وكنت أقول لنفسي انهم أطياف ، ضباب تشكل من قطرات ندى ٠ لم أخاف منهم ؟ لم لا أذهب وأرى ما يفعلونه ؟ وصلنا الى دار سينما ملونة بأضواء حمراء وزرقاء وخضراء ودخلنا وتبوأنا مقاعد مغطاة بالمخمل٠ في الطرف الأقصى كانت هناك شاشة متألقة تمر عليها بسرعة ظلال قلقة ٠ ما الذي كانوا يفعلونه ؟ يقتلون ويقتلون ثم يقتلون ٠ الى جانبي كانت تجلس فتاة ٠ وكانت رائحة أنفاسها عابقة بالقرفة ٠ احسست بصدرها يعلو وهي تتنفس ٠ بين حين وآخر كانت ركبتها تلمس ركبتي ، ارتعشت لكنني لم أبتعد ، التفتت وتطلعت الي لوهلة ، وفي شبه الظلمة المخيمة على الصالة خيل الي انني رأيت ابتسامتها ٠

سرعان ما احسست بالاكتفاء من مراقبة تلك الظلال فنهضت لأخرج ٠ ونهضت الفتاة أيضا ٠ عند المخرج التفتت مرة أخرى وابتسمت ٠ وبدأنا حديثا ٠ كان القمر يسطع فوقنا فتوجهنا الى

الحديقة وجلسنا على مقعد صغير • كان الوقت ربيعا وكان الليل حلوا كالعسل والليل عابقا • كان الازواج ★ يمرون باستمرار ، وكان آخرون يتعانقون ويتمددون على العشب • وبدأ بلبل مختبىء بين الليلك يغرد فوق رؤوسنا • وتوقف قلبي • لم يكن طائرا ، لا بد انه جني داهية • أعتقد أنني كنت قد سمعت هذا الصوت ذاته من قبل – عندما تسلقت جبل بسيلوريتي – وعرفت ما كان يقوله • مددت يدي ووضعتها على شعر الفتاة • سألتها : « ما اسمك ؟ » فأجابت ضاحكة : « فريدة • لم تسأل ؟ اسمي : امرأة » •

عند هذا الحد انفلت شيء رهيب من فمي • لم تكن الكلمات التي قلتها كلماتي . لا بد انها تخص واحدا من أسلافي – ليس أبي الذي كان يحتقر النساء بل هو شخص آخر • وفي اللحظة التي نطقت بها أحسست ان الرعب يهيمن علي • ولكن بعد فوات الأوان •

– فريدة • هل تقضين الليلة معي ؟

أجابت الفتاة بهدوء : ليس الليلة • لا أستطيع • غدا •

أحسست بالارتياح فنهضت بسرعة كبيرة • افترقنا • وعدت متعجلا الى غرفتي •

وعند ذلك حدث شيء لا يصدق ، شيء يجعلني أرتجف حتى الآن حين أتذكره • ان روح الانسان غير قابلة للتلف فعلا ، انها فعلا نبيلة وجليلة القدر ، ولكن لأنها مضغوطة على قلبها فانها تحمل جسدا يزداد تعفنا كل يوم • في طريق عودتي الى البيت سمعت الدم يصعد الى رأسي • ثارت ثائرة روحي حين أحسّت أن جسدي كان على وشك الوقوع في الخطيئة ، قفزت على قدميها ، مترعة بالاحتقار والغضب ، ورفضت أن تمنح الاذن • وتابع الدم تدفقه الى الاعلى وتجمع في وجهي الى أن أدركت شيئا فشيئا ان شفتي وخدي وجبهتي قد تورمت ، وصغرت عيناي الى درجة ان لم يبق منهما الا شقان صغيران ، وبصعوبة فائقة صرت أستطيع أن أرى أي شيء •

★ المقصود الازواج من شاب وفتاة وليس بالضرورة من زوج وزوجة .

وأنا أتعثر في مشيتي رحت أوسع خطاي واركض متلهفا للعودة الى البيت لكي أتطلع الى المرآة وأرى الحالة التي كنت فيها ·

وأخيرا حين وصلت وأشعلت الضوء وتطلعت أطلقت صرخة ذعر · كان وجهي كله متورما ومشوها بشكل مخيف · بالكاد كانت عيناي تظهران بين كتلتين مندفعتين من اللحم الوردي ، وفمي أصبح شقا طوليا عاجزا عن الانفتاح · وبغتة تذكرت الفتاة فريدة · كيف أستطيع أن أراها في اليوم التالي وأنا في هذه الحالة المقرفة ؟ كتبت برقية : « لا أستطيع المجيء غدا · سآتي بعد غد · » ثم سقطت على سريري يائسا ، أي مرض يمكن ان يكون هذا ؟ سألت نفسي · أهو الجذام ؟ حين كنت طفلا في كريت كنت كثيرا ما أرى المجذومين بوجوههم المنتفخة القانية المتقشرة دائما ، وتذكرت الآن أي رعب كانت تثير في – الى درجة انني قلت ذات يوم : « لو انني ملك لأخذت كافة المجذومين وعلقت على رقابهم حجارة وألقيت بهم في البحر · » هل من الممكن ان يكون (اللامرئي) – أحد اللامرئيين – قد تذكر كلماتي اللاانسانية فأرسل علي هذا المرض المرعب عقوبة ؟

لم أنم لحظة واحدة تلك الليلة · كنت متشوقا لمجيء الفجر لأنني قلت لنفسي ان المشكلة قد تنتهي في الصباح ، وكنت أستمر في تلمس وجهي لأرى ما اذا كان الانتفاخ قد بدأ يخف · عند الفجر قفزت من السرير وركضت الى المرآة · كان هناك قناع مرعب من اللحم يكسو وجهي · وكان الجلد قد بدأ يتفجر وينزف سائلا أبيض مصفرا · لم أكن انسانا بل كنت شيطانا ·

استدعيت الخادم لأعطيها البرقية · زعقت وخبأت وجهها براحتيها في اللحظة التي فتحت فيها الباب ورأت وجهي · ودون أن تجرؤ على الاقتراب مني اختطفت البرقية وذهبت · مر يوم ويومان وثلاثة وأسبوع وأسبوعان · وكل يوم ، وخشية أن تأتي الفتاة الى غرفتي وتراني ، كنت أبعث بالبرقية ذاتها « لا أستطيع أن آتي اليوم · سآتي غدا » · لم أكن أحس بأي ألم لكنني لم أكن أستطيع ان أفتح فمي لكي آكل ، كان طعامي الوحيد الحليب وعصير الليمون

وكنت امتصهما بمصاصة · وأخيرا لم أعد أستطيع التحمل · كنت قد قرأت كتبا عديدة في التحليل النفسي كتبها فلهلهم ستيكل ، التلميذ الشهير لفرويد فذهبت أبحث عنه · ان نفسي هي التي أوقعت بي هذا المرض دون أن أعرف السبب · وتكهنت : ان نفسي هي المسؤولة ·

بدأ البروفسور العالم يستمع لاعترافي · حكيت قصة حياتي : كيف كنت أبحث عن طريق للخلاص منذ بلوغي ، وكيف تبعت المسيح سنوات عديدة وكيف وجدت دينه في النهاية مبسطا جدا ومتفائلا جدا ، وكيف تركته لأسير في طريق بوذا ·

وابتسم البروفسور · قال لي : « ان البحث لايجاد بداية العالم ونهايته هو مَرَضي · الانسان الطبيعي يعيش ويكافح ويجرب الفرح والحزن ويتزوج وينجب أطفالا ولا يضيع وقته في التساؤل : من أين ؟ والى أين ؟ ولماذا ؟ الا انك لم تنه قصتك · ما تزال تخفي عني شيئا ما · اعترف بكل شيء ·

حكيت له كيف قابلت فريدة وقلت له اننا قد رتبنا موعدا ·

وانفجر البروفسور في ضحكة قوية ساخرة · تطلعت اليه مستثارا · كنت قد بدأت أكره هذا الرجل لأنه كان يتفحص أسراري تحت عدسته المكبرة الحمقاء ، ويضغط ليفتح كافة الابواب الموصدة والمرتجة في داخلي ·

« يكفي ! يكفي ! » قال وقد بدأ يضحك بطريقته الساخرة · « سيظل هذا القناع على وجهك طالما انت في فيينا ـ المرض الذي أصابك يسمى مرض الزهاد · انه مرض نادر جدا في أيامنا لأنه ما من جسد ، اليوم ، يطيع روحه · هل سبق لك أن قرأت أساطير القديسين ؟ هل تتذكر الناسك الذي هجر صحراء طيبة وركض الى أقرب مدينة لأن شيطان الزنا قد ركبه فأحس انه مجبور على أن ينام مع امرأة ؟ ركض وركض ولكن حين كان على وشك أن يعبر بوابات المدينة تطلع فرأى برعب ان الجذام يغطي جسده · ولكنه لم يكن الجذام · كان هذا المرض · المرض ذاته الذي أصابك · كيف

يستطيع ان يقف أمام [illegible] وجه مصص[illegible] [illegible] وايــة امــرأة ستری انها تستطيع لمسه ؟ وهكذا ركض عائدا الى صومعته فــي الصحراء وقدم الشكر لله الذي أنقذه من الخطيئة بينما غفر له الله وأزال الجذام عن جسده ··· هل تفهم الآن ؟ ان روحك المنغمسة في الفلسفة البوذية ـ أو بالاحرى ما تسميها روحك ـ تعتقد ان النوم مع امرأة خطيئة مميتة · ولهذا فهي ترفض ان تسمح لجسدها باقتراف هذه الخطيئة ، أن أرواحا كهذه ، قادرة على ان تفــرض نفسها الى هذه الدرجة على اللحم ، هي أرواح نادرة في عصرنا · طوال عملي العلمي لم أواجه الا حالة واحدة أخرى مشابهة وهــي حالة سيدة من فيينا تقية ومستقيمة وفاضلة الى أبعد الحدود · كانت تحب زوجها حبا شديدا لكنه كان في الجبهة ، وصدف لها ان قابلت شابا وعشقته · وذات ليلة كانت مستعدة لتسليم نفسها لكن روحها ثارت وعارضتها · صار وجهها متورما بشكل كريــه تماما كوجهك الآن · فبحثت عني يائسة · فهدأتها وقلت لها : ستشفين حين يعود زوجك من الحرب ، وبالفعل حالما رجع زوجها ، بمعنى انه حالما زال خطر الخطيئة عاد وجهها الى جماله الاصلي · حالتك مشابهة تماما · ستشفى حالما تغادر فيينا وتتــرك فريدة وراءك ·

لم أصدق · خرافات علمية · هكذا قلت لنفسي وأنا أغادره في حالة من الهيجان العنيد · سأبقى في فيينا · سأبقى وسأتحسن ··· بقيت شهرا آخر لكن القناع لم يزل · وتابعت ارسال البرقية اليومية الى فريدة : « لا أستطيع أن آتي اليوم ، سآتي غدا » لكن هذا الغد لم يأت أبدا · وذات صباح وقد أنهكني الامر كله نهضت من فراشي مصمما على السفر · أخذت حقيبتي ونزلت الدرج وصلت الــى الشارع وتوجهت الى المحطة · كان الصباح باكرا وكانت نسمة باردة تهب علي · كان رجال الطبقة العاملة ونساؤها مسرعين الى أعمالهم في مجموعات مرحة وهم ما يزالون يمضغون لقمات من الخبز · لم تكن الشمس قد وصلت الى الشوارع بعد · كانت عدة نوافذ قد فتحت ؛ والمدينة كانت تستيقظ · مشيت بخطوات خفيفة وبمزاج حسن ، كنت استيقظ مثل المدينة · وأحسست بوجهي يفقد ثقله فيما كنت اتقدم · كانت عيناي قد تحررتا وصار بوسعهما ان تتفتحا · وبدأ

التورم في شفتي يخف فرحت أصفر مثل طفل • مر النسيم البارد على وجهي مثل يد رحيمة ، مثل المداعبة • وحين وصلت أخيرا الى المحطة وأخرجت مرآة جيبي لأتطلع الى نفسي ، يا لفرحتي ! أي حظ طيب • كان التورم في وجهي قد اختفى تماما • ملامحي السابقة ، الانف، والفم والخدان ، عادت • هرب الشيطان وعدت مرة أخرى انسانا •

منذ ذلك اليوم أدركت ان روح الانسان منبع رهيب وخطر للاضطرابات ، دون ان ندري نحمل كلنا قوة متفجرة ملفوفة بلحمنا وشحمنا • والأسوأ من ذلك اننا لا نريد ان نعرفها لأننا عندها نفقد مبررات النذالة والجبن والكذب ، لا يعود في وسعنا الاختباء وراء عجز الانسان المفترض وفسادة • نحن أنفسنا يجب أن نتحمل المسؤولية حين نكون سفلة أو جبناء أو كذابين ذلك لأنه على الرغم من اننا نمتلك قوة كلية القدرة في أعماقنا فاننا لا نجرؤ على استخدامها خشية ان تدمرنا • لكننا نفضل الطريق السهل المريح ونسمح لها بأن تصرف طاقتها شيئا فشيئا الى ان تنحط هي بدورها وتتحول الى لحم وشحم • ما أرهب ان لا نعرف اننا نمتلك هذه القوة ! لو أننا كنا نعرف لكنا فخورين بأرواحنا • في السموات والارض كلها لا شيء يشبه الله هذا الشبه مثل روح الانسان •

٢٥ ـ بـرلين

قفزت من فيينا الى برلين ٠ وعلى الرغم من ان بوذا كان قـد روى الكثير من ظمئي الا انه لم يستطع ان يطفىء ظمئي لرؤية مناطق كثيرة من الارض وبحار كثيرة وبالقدر الذي أستطيعه ، لقد منحني ما كان هو يسميه « عين الفيل » ـ القدرة على رؤية الاشياء كلها وكأنما للمرة الاخيرة وتوديعها

ظللت اقول لنفسـي ان العالـم شبـح وان النـاس أطياف ، وكائنات ندية ، وأبناء للندى سريعو الزوال ٠ لقـد بزغ بوذا ، الشمس السوداء ، فذابوا وصاروا لا شيء ٠ لكن الشفقة هيمنت على روحي ، الشفقة والحب ٠ لو انني أستطيع ، فقط ، أن أبقي هذه الاشباح على حافة رؤياي لحظة أخرى وأمنعها من التلاشي ! أحسست أن آخـر نبضة من قلبي لم تتلفع بالرداء الاصفر ٠ لقد ظلت خفقة حمراء قانية ، تخفق بعناد ، رافضـة ان تسمح لبوذا بالاستحواذ علي كاملا ٠ كـان في أعماقـي كريتـي يرفـع يـده احتجاجا ، رافضا ان يدفع فارذنغ ★ نحاسيا كجزية للفاتح المسالم ٠

في برلين أدركت ذلك كله ٠ وحينما أغمض عيني الآن لأتذكر خطاياي في تلك المدينة الكريهة (خطايا قاتلة لشخص من أتباع بوذا) تفيض ذاكرتي بالضحك وبالكلمات المشتعلة والليالي الدافئة

★ قطعة نقد ضئيلة وتستخدم للدلالة على كل ما هو ضئيل القيمة ٠

المدهشة التي انقضت دون تفكير بالنوم ، وباشجار الكستناء والكرز المزهرة وبالعيون اليهودية النهمة ، وبالرائحة الواخزة للابطين الانثويين ـ واعجز عن وضع الامور في نصابها ٠

أقلب دفاتر صفراء في محاولة لمعرفة ما حدث أولا وما حدث بعده وأية أيمان اقسمناها ، وما سبب الفراق ٠٠٠٠ عظيمة فعلا قدرة حروف الابجدية ، تلك الجند الصغيرة الستة والعشرين ، التي تقف على حافة المهوى لتدافع عن قلب الانسان ، لوقت ما على الاقل ، وتمنعه من السقوط والغرق في عين بوذا السوداء التي لا قاع لها ٠

٢ أوكتوبر :

كنت أتجول خلال ثلاثة أيام في شوارع برلين الرتيبة التي لا تنتهي ٠ لقد فقدت أشجار الكستناء أوراقها وكانت هناك ريح قارسة وكان قلبي قد تجلد ٠ دخلت اليوم بابا كبيرا كتب عليه بأحرف كبيرة : « مؤتمر الاصلاح التربوي » ٠ كان الثلج يهطل وكنت بردانا فدخلت ٠ كانت القاعة مليئة بالاساتذة ، وكان حشد الرجال والنساء كبيرا ٠ بحثت عن مكان أجلس فيه ٠ وبغتة رأيت بلوزة برتقالية تتلامع بين السترات السوداء والرمادية ٠ وتماما كما تنجذب الحشرة بلون الزهرة كذلك فانني ، بالطريقة ذاتها ، تحركت نحو الفتاة ذات البلوزة البرتقالية ٠ كان المقعد المجاور لها خاليا فجلست ٠ وكان أحد المعلمين يؤشر بطريقة مضحكة ـ كان قد أبح صوته فشرب قليلا من الماء وهدأ لبعض الوقت ثم أجهد نفسه من جديد وذلك كله حول الكيفية التي سيغير بها المنهاج المدرسي ويصنع جيلا ألمانيا جديدا يستخف بكل من الحياة والموت ٠ ها هنا أيضا مخلص آخر ، كان يجاهد لانقاذ العالم بتحطيمه ٠

التفت الى جارتي ٠ كان شعرها أسود داكنا وعيناها الواسعتان كانتا سوداوين ولوزيتين وأنفها كان معقوفا قليلا ٠ كانت بشرتها داكنة ، بلون الكهرمان القديم ، مع بقع خفيفة على الوجه ٠ انحنيت صوبها وسألتها :

ـ من أين تظنينني ؟

أجابت وقد تضرجت بشدة: من بلاد الشمس ·

ـ صحيح · من بلاد الشمس · انني اختنق هنا · هل نخرج ونتمشى قليلا ؟

· نعم · هيا بنا ·

ما أن أصبحت في الشارع حتى راحت تقفز وتضحك وتصرخ مثل طفل أعطي لعبة جديدة ·

« اسمي ساريتا وأنا يهودية وأكتب قصائد » ·

دخلنا الى حديقة · كانت الاوراق الصفـراء المتراكمة على الارض تنسحق تحت أقدامنا · وضعت يدي على شعرها كان دافئا وناعما كالحرير · ودون كلام توقفت الفتاة ومدت عنقها وكأنها تنصت باهتمام لشـيء ما ·

قالت : يدك تمنح القوة · أحس كأنني جرة ملئت من النبع ·

كان الوقت قبيل الظهر · فاقترحت : « فلنذهب ونأكل · حساء مكثف · ظريف وساخن ليدفئنا » ·

ـ هذا يوم صيام عند اليهود · الاكل فيه خطيئة · انني جائعة وبردانة مثلك · لكنها خطيئة ·

ـ فلنقترف الخطيئة اذن لكي نستطيع ان نندم فيما بعد ويغفر لنا الهك يهوه الرهيب ·

بدأ عليها الانزعاج عندما سمعتنـي ألمح الـى الهها بهذه الطريقة المازحة ·

ـ ومن هو الهك ؟

جعلني سؤالها أجفل · أحسست فورا أنني كنت ارتكب خطيئة بحق الهي · طوال ذلك الوقت كنت قد نسيت ان هاتين العينين وهذا الشعر وهذه البشرة الكهرمانية ليست الا شبحا ، وانني لم أنفخ ولم أكن أريد أن أنفخ لطرده ·

ـ « ديونيـزوس ؟ » سألـت الفتـاة ضاحكـة · « السكـير العظيم ؟ »

ـ لا · لا · واحد غيره · واحد رهيب أكثر من الهك يهوه ··· لا تسألـي !

كان علي في تلك اللحظة أن أنهض وأنصرف لكنني أشفقت على جسدي وأشفقت على جسدها فبقيت ٠

ـ اقرئي واحدة من قصائدك ٠ قلت ذلك لأحول أفكاري ٠
أشع وجهها بهجة ٠ وصار صوتها أكثر هدهدة ومرارة :
أيها المنفيون الذين لم يدركوا بعد
ان المنفى وطن ٠
حين ندخل مدنا جديدة
يسير الوطن لاحقا بنا مثل أخت ٠
أيها المنفيون الذين لم يدركوا بعد
انه في قلوبنا المنفية ،
يبدأ نشيد الانشاد
حين نمنح ابتسامة ٠

امتلأت عيناها بالدموع وسألتها : « هل تبكين ؟ » وانحنيت عليها ٠ فأجابت : « أينما لمست اليهودي فانك تجد جرحا » ٠

٣ أوكتوبـر :

آه لو كان الانسان قادرا على الاحتفاظ بالنشوة ! لو ان ديونيزوس كان الها كلي الابداع وشمولي الخلق ! لكن النشوة تتبدد بسرعة ، والذهن يصفو ويتحول اللحم المتماسك الحار الى شبح من جديد ٠ في اليوم التالي استيقظ عقلي ٠ نظر الي باحتقار وتجهم وصرخ : كافر ، خائن ، غدار ، متقلب ! انني أخجل من أن أعيش وأسافر معك ٠ ربما ان بوذا يستطيع ان يغفر لك لكن أنا لا استطيع ٠ اياك أن تخطو مرة أخرى الى الشرك ذي اللون البرتقالي ٠

الا ان أول شيء فعلته في الصباح ، رغم ذلك ، هو انني سلكت الطريق ذاته وعدت الى المؤتمر ٠ تطلعت لكنني لم أر اللون البرتقالي في أي مكان ٠ وعلى الرغم من انني كنت أريد أن أبتهج الا انني لم أستطع ٠ ومرة أخرى سمعت الكلام المنمق المفخم ٠ كان كثير من المستمعين يأكلون التفاح ليهدئوا جوعهم وكان آخرون منكبين يسجلون ملاحظات ورؤوس أقلام ودون أن يضيعوا كلمة واحدة ٠

وبغتة شعرت بشيء كالانفاس الدافئة ورائي : وجه يبحث عني ويثبت عينيه علي · التفت فرأيتها في الطرف الاقصى من القاعة · كانت تلبس شالا رثا ذا لون زيتي غامق ، وقد ردت قبتها ذات الفرو المنزوع الوبر لأن الغرفة كانت باردة · ابتسمت لي وأشع وجهها مثل تمثال رخامي في ضوء الشمس ·

لم ألتفت للنظر اليها مرة ثانية ، حاولت أن أخرج لكنها لحقت بي في الردهة وأعطتني مجموعة صغيرة من قصائدها · ضحكت وقفزت · لم تكن نشوتها من اليوم السابق قد تلاشت · لكنني كنت تواقا لمفارقتها وللانصراف · وفي اللحظة التي بدأت فيها أنحني لتقديم يدي اليها رأيت عينيها تتطلعان الي متسائلتين ومتشككتين وظل من الخوف يخيم عليهما · كان جسدها قد ازداد صغرا وصار اكثر انحناء ، لقد تقلصت داخل نفسها · وانفطر قلبي شفقة ، أمسكت بها من أعلى ظهرها وفركت كتفيها النحيلين ·

ـ لماذا تؤذيني ؟ سألت وهي تحاول الفرار ·

ـ لأنك مصنوعة من طينة مختلفة ، ولأن لديك الها مختلفا ولأنني كنت أفكر فيك طوال الليل · كنت أريد أن أسألك بعض الاسئلة · ولكن يجب أن تقولي الحقيقة ·

ـ ولم لا أقول الحقيقة ؟ أنا لا أخافها · أنا يهودية ·

ـ ما الذي يأمرك به الهك ؟ أي واجب يفرضه عليك ؟ هذا ما يجب أن أعرفه قبل أن نتقدم أكثر من ذلك ·

ـ الكراهية ـ هذا هو الواجب الأول · هل ارتحت ؟

بغتة تشنجت قسماتها · وعلى الرغم من ان شفتيها السميكتين لم تعودا تتكلمان فانهما قد ظلتا ترتعشان · عينان صفراوان وشدق فاغر لنمرة صارت واضحة وراء الوجه الجميل ذي الملامح القاتمة ·

ـ هل ارتحت ؟ همست مرة أخرى باستفزاز ·

تذكرت قول بوذا : « اذا رددنا على الكراهية بالكراهية فلن يتحرر العالم من الكراهية » ·

أجبتها : « الكراهية هي الخادم الذي يسير في الامام وينظف الطريق لكي يمر السيد » ٠

ـ ومـن هـو السيد ؟

٠ الحـــب ٠

ضحكت اليهودية ساخرة : « هذا ما يثغو به مسيحك ٠ أما بالنسبة لنا فالهنا يهوه يأمرنا قائلا اذا لكمك أحدهم فاسقط لك سنا فحطم فكه كله بالمقابل ٠ أنت حمل أما أنا فذئبة جريح ٠ لا نستطيع ان نختلط ٠ جميل اننا أدركنا ذلك قبل ان نجمع شفاهنا » ٠

ـ ما الذي لديك ضد العالم ؟ لم تريدين أن تدمريه ؟

٠ أشك في ان تكون قد سبق لك ان جعت ٠ أبدا ٠ ليس أنت ٠ انك لم يسبق لك ان نمت تحت جسر ولم تقتل أمك في مذبحة منظمة ٠ باختصار ليس لك الحق في أن تسأل ٠ هذا العالم ـ عالمك ـ ظالم وفاسد لكن قلوبنا ليست كذلك ٠ أريد أن أساعد رفاقي على تدميره وبناء عالم جديد ، عالم لا يجعل قلوبنا تحس بالخجل ٠

تمشينا تحت الاشجار العارية ٠ كانت بعض الاوراق ما تزال عالقة في الاعالي لكن هبة قارسة جاءت لتهزها فارتمت على رأسينا وأكتافنا ٠ كانت اليهودية ترتعش وكان قفازاها مليئين بالثقوب وكانت بلوزتها قطنية وحذاؤها بالي الكعبين ٠ كان ممزقا رثا ٠ نظرت نظرة جانبية الى عينيها للحظة ورأيت مذعورا أنهما مثبتتان علي وتشعان بكراهية تملأهما ٠

ما الذي مرت به هذه الفتاة لكي تتحدث بهذه الكراهية ! قلت لنفسي ربما لأنها كانت تخشى ان تقع في حب رجل من المعسكر المعادي ٠

كانت شفتاها قد ازرقتا من البرد وكانت أسنانها تصطك ٠ خجلت فخلعت معطفي الفرو وألقيته بسرعة على كتفيها قبل أن تجد الوقت للهرب ، هزت نفسها غاضبة محاولة ان تلقيه عنها لكنني أمسكت به عليها بثبات ورجوتها ان تبقيه ٠

توقفت وكأنها صارت عاجزة عن التقاط أنفاسها • لقد توقفت عن المقاومة • وشعرت بحرارة جسدي تخرج من معطفي وتتغلغل ببطء وعمق داخل جسدها • عادت شفتاها الى احمرارهما من جديد • وشيئا فشيئا بدأ وجهها يستعيد جماله • واتكأت بذراعها علي لا بد ان ركبتيها قد تراختا •

تمتمت : جميل أن تدفأ • تبدو الحياة وكأنها تتغير •

اغرورقت عيناي بالدموع وانا افكر بأن قليلا من الدفء وقليلا من الخبز وسقفا فوق رأسك وكلمة لطيفة وعندها تمحي الكراهية •

وصلنا الى بيتها •

سألتها : متى سأراك مرة أخرى ؟

قالت : خذ معطفك • لقد فهمت الآن لماذا يتحدث كل من لديه معطف من الفرو بالطريقة التي تتحدث بها • خذه لأن قلبي على وشك ان يضعف •

ـ ليس قلبك يا ساريتا بل كراهيتك •

ـ انها الشيء ذاته • بارك الله بالبرد والجوع • لولاهما لانغمرت بالراحة • بمعنى آخر لكنت ميتة وجثة • وداعا !

لم تمد يدها • فتحت حقيبتها واخرجت مفتاحها لتفتح الباب •

وكررت سؤالي : متى سأراك مرة أخرى ؟

لكن وجهها كان قد عاد وأصبح قناعا أصغر من الكراهية ، ودون أن تجيب فتحت الباب وغابت في العتمة •

ولم أرها بعد ذلك أبدا •

اعتزلت في غرفتي • لقد تحول قلبي الى كيس مليء باليرقات • بغتة كان العالم قد اكتسى باللحم والعظم من جديد وبدا أنه موجود فعلا • وانفتحت التعطشات الخمسة في جسدي وبدأت أنادي بوذا ليأتي ويطرد المغوي • ذات مرة كان هناك قديس عظيم عجز ، بعد اربعين سنة من التمسك بالزهد ، عن ان يصل الى الله • كان هناك شيء يقف في طريقه ويصده • وفي نهاية السنوات الاربعين فهم • كان الشيء جرة صغيرة كان يحبها كثيرا لأنها تبرد ماء الشرب الذي يحفظه فيها • حطم الجرة فاتحد بالله فورا •

★ هذه القصة رويت عن المتصوف المسلم السري السقطي

عرفت ـ عرفت ان الجرة في حالتي هي جسد الفتاة الصغير الذي لا يقاوم · فان كنت بدوري راغبا في التوحد بالله ، فان علي أن أمحو هذا الجسد الذي يقف في طريقي · حين يتسلل دبور وحشي الى خلية نحل ليسرق العسل ، تندفع العاملات اليه وتقمط جسده كله بشبكة من الشمع الارج فتخنقه · كانت شبكتي الشمعية مؤلفة من الكلمات والاشعار والاوزان · بهذه الحبال المتلوية المقدسة سألف ساريتا وأمنعها من سرقة عسلي ·

بدأ الدم يندفع الى صدغي · جمعت أفكاري المبعثرة التائهة · وجاهدت لكي أركز قوتي على جسد واحد وصوت واحد وعينين سوداوين قلقتين · كنت أريد طرد هذه الاشياء لأنها كانت تفصلني عن بوذا ·

حشدت الكلمات ووقفت في مقدمتها ثم انطلقت الى الحب · بدأت أكتب · ولكن كلما أكثرت من الكتابة ابتعد هدفي عني وازداد توقي · راحت ساريتا تبتعد أكثر فأكثر ، وازدادت صغرا الى أن تلاشت ، ولمع أمامي مرتقى ، مرتقى صخري عليه أثر أحمر ورجل يتسلق ـ حرف هيروغليفي بسيط مرسوم بأقل قدر من الضربات · وعرفت فيه حياتي · حللت لغزه فرأيت بكم من السذاجة وبكم من الآمال كنت قد انطلقت ، ورأيت اين كانت محطات الطريق المختلفة التي توقفت فيها مؤقتا لالتقاط أنفاسي ولاستجماع زخم جديد ـ النفس ، العرق ، الجنس البشري ، الله ، وكيف بغتة توضحت القمة السامية من فوقي ـ الصمت ، بوذا · وأخيرا رأيت التوق الذي بدأ يتأجج في أعماقي ، التوق لتحرير نفسي الى الابد من الخدع كلها ، الارضية والسماوية ، وللنجاح في الوصول الى القمة المنعزلة المهجورة ··· حين جمعت الصفحات التي كتبتها وقرأتها ـ كانت مبعثرة على الارض ـ تملكني الرعب · كنت أريد أن أكتب تعويذة للتخلص من ساريتا لكنني بدلا من ذلك كتبت تعويذة للخلاص من الكون كله · كان بوذا يجلس ساكنا وواثقا من نفسه على القمة يراقب كفاحي في سفح المرتقى وهو يبتسم بمودة ولطف ·

بعد أن نظمت الاسئلة القديمة ، وبعد أن وجدت الكلمات وشكلت الجواب شعرت بالراحة · نهضت لأخرج وأحرك تنمل جسدي

الذي كان معتزلا منذ عدة أيام · كان الليل قد حل ، لا بد ان الناس قد أنهوا عشاءهم · ولأنها لم تكن تمطر ولم يكن الثلج يهطل فقد تدفقوا الى الشوارع · رأيت أضواء ملونة على مدخل كبير ، واعلانات ملونة تقول « رقصات من جاوة » · ومن الداخل سمعت موسيقى رزينة مليئة بالعاطفة ، كان الرجال والنساء يدخلون فدخلت أيضا ·

بين المشاهد التي كانت روحي تستمتع بها يقف في ذروتها دائما الرقص والسماء المليئة بالنجوم · لم تستطع الخمرة أو النساء ولا حتى الافكار أن تضعني في حالة هياج تام ـ جسدا وعقلا وروحا ـ كما يفعل هذان الشيئان · ولهذا فقد كنت مسرورا لأنني في هذه الليلة ، وبعد هذه الايام العديدة من الصيام الزاهد ، لن أكتفي بأن أجعل لحمي ينفض عنه حذره وأن أمتع نفسي ، بل سيستمتع معي عقلي وروحي ـ هؤلاء الرحالة الثلاثة المترافقون ·

حين دخلت الصالة كان الرقص قائما · الاضواء مطفأة باستثناء البقعة الخضراء المزرقة الغامضة التي كانت تضيء المسرح وتجعله يبدو مثل قاع بحر شرق أقصوي · كان هناك يافع دقيق الاطراف داكن البشرة يرتدي حلى غريبة ساحرة وبذلة خضراء ذهبية ـ مثل حشرة ذكر في حالته النزوية الصيفية ـ يرقص ويرقص مستعرضا رشاقته أمام الانثى ، وكم كان لديه من القوة ومن اللدانة ، وكم كان يستحق ـ هو ولا أحد غيره ـ ان ينتقى للتزاوج معها وانجاب ابن بحيث تنتقل هذه المزايا من الرشاقة والقوة واللدانة الى هذا الابن ولا تفنى · كانت الانثى تقف بلا حراك وهي تتطلع اليه وتزنه بنظرها محاولة أن تتخذ قرارها · وبغتة قررت · وألقت بنفسها الى الرقص ولخوفه انتحى الرجل جانبا · لقد جاء دوره الآن لكي يقف مستغرقا بلا حراك وهو يتطلع الى المرأة · راحت ترقص وترقص أمام الرجل المذعور · فتحت ذراعيها ونحت عنها أستارها حتى التمع جسدها أخضر مزرقا لوهلة ثم انطفأ · في اللحظة التالية اقتربت منه متظاهرة بأنها ستلقي بنفسها في حضنه · أطلق صرخة انتصار وفتح ذراعيه لكن المرأة كانت تفر منه في كل مرة مع هسهسة وترقص بعيدا عن متناول يده ·

سواء كانت حيوانات أم طيورا أم بشرا ، فان الاقنعة في كل دورة رقص كانت تلقى ، ووراءها كلها يظهر الوجه ذاته ، الوجه الخالد للحب • وفيما كنت أرقب الثنائي الجاوي سألت نفسي عما اذا كانت رقصة أخرى أبعد من ذلك ، ولنقل أنها رقصة الله ستستطيع في دورانها أن تخلع قناع الحب هذا أيضا • وخطر لي أن أتساءل:أي وجه مرعب سيظهر عندها ؟ كنت أجاهد أن أستحوذ على الوجه النهائي خلف كل قناع ولكنني لم أستطع • وتساءلت عما اذا كان سيكون هواء فارغا ـ وجه بوذا ؟ كان الراقصان ، الرجل والمرأة ، قد اندمجا هذه المرة • كانا يرقصان متشابكي الذراعين في حالة من النشوة وهما يقفزان في الهواء ويسقطان ليندفعا الى الأعلى من جديد محاولين وسط لهاث الرغبة ان يتخطيا الحدود الانسانية •

خرجت وتجولت في الشوارع حتى ما بعد منتصف الليل • بدأت كسفات ثلجية متفرقة تتساقط واستقبلتها بشعور من الارتياح لانها بردت شفتي المحترقتين • كانت أسئلة جديدة تبرز في أعماقي• لقد فتح رقص هذا المساء الينابيع القديمة في أحشائي ، الينابيع التي كنت قد ظننت أنها نضبت • وأدركت ان حشايا الكريتي لا تفرغ بسهولة • كان في داخلي أسلاف رهيبون لم يأكلوا من اللحم أو يشربوا من الخمر قدر ما كانوا يحتاجون ولم يقبلوا من النساء قدر ما كانوا يشتهون وها هم الآن ينتفضون بشراسة ليمنعوني ـ ويمنعوا أنفسهم ـ من الموت • وفي الحقيقة ما الذي كان لبوذا في كريت ؟ وما الذي يمكن أن يأمل فيه في كريت ؟

تطلعت الى كسفات الثلج الهائمة في ضوء مصابيح الشارع فذكرتني بالرجل والمرأة الجاويين اللذين رأيتهما ذلك المساء ، وبعدد لا يحصى من الرجال والنساء الذين يمثلون الرقصة ـ المطاردة والمعركة والرغبة ـ وفي النهاية يشكلان وحدة لكي ينجبا ابناء ويضمنا خلودهما • ان الظمأ للخلود أصعب ارواء من الظمأ للموت •

استلقيت ، منهكا تماما ، لأنام • وكعادة حظي الحسن ، حين يتعذب عقلي المتيقظ بالأسئلة ويعجز عن التخلص منها ، يأتي

النوم ليبسطها ويحولها الى حكاية • هكذا هي ذروة المادة الساكنة للحقيقة حين تزهر •

حلمت انني أتسلق جبلا • كنت أحمل عصاي على كتفي كعادة الرعاة الكريتيين وكنت أغني • وأتذكر أنها كانت أغنية شعبية كنت احبها كثيرا •

بذرت بذرة فلفل على شفتي ماراغارو
فنمت بكثافة وصارت نبتة عملاقة •
الآن يجنيها اليونانيون وينقلها الاتراك
وماراغارو تدرسها بانفراج ساقيها وهي تصعد •

وبغتة اندفع عجوز من كهف • كان قد شمر أكمامه ويداه كائنتا مغطاتين بالوحل • وضع اصبعه على شفتيه ليسكتني ثم أمرني بصوت صارم « توقف عن الغناء • أريد الهدوء ! ألا ترى انني أشتغل ؟ » (هنا أشار الى يديه) •

سألته : ما الذي تشتغله ؟

– ألا تستطيع ان ترى بنفسك ؟ داخل هذا الكهف أنا أصنع المفتدى •

صرخت وقد بدأت الجراح القديمة تنز في أعماقي من جديد : « المفتدى ؟ من الذي يفتدى » ؟

أجاب العجوز بسرعة وهو يدخل من جديد الى كهفه : « ذلك الذي يعي الكلية ويحبها ويعيشها ! »

« ذلك الذي يعي الكلية ويحبها ويعيشها ••• » طوال اليوم الثاني وأنا أردد هذه الكلمات التي جاءتني من حلمي دون أن أتعب منها • أكان هذا صوت الله ، الصوت الذي لا يمكن أن يسمع الا ليلا وذلك حين يكون العقل الثرثار قد أغلق فمه ؟ هكذا رحت أسأل نفسي • كنت دائما أؤمن بالنصح الذي تقدمه لنا ساعات الظلمة • لا شك ان الليل أكثر عمقا وقداسة من ذلك الساذج النهار • الليل يشفق على الانسان •

مرت عدة أيام . كثيرا ما حدث في حياتي ان هذين الشيطانين ، شيطان النعم وشيطان اللا ، يتصارعان ويتعاركان في داخلي . وفي كل مرة كنت فيها أجد جوابا على الاسئلة التي تعذبني ، كنت أقبله دون ارتياح لأنني كنت أعرف أن هذا الجواب سوف يفقس ، حتما ، أسئلة جديدة . ولذا فان المطاردة التي يقوم بها الشيطانان في داخلي هي مطاردة لا نهاية لها . ويبدو ان كل جواب يخفي أسئلة مستقبلية في طيات يقينه المؤقت . ولهذا كنت دائما لا أنظر الى مجيئه بارتياح بل بقلق دفين .

كان المسيح يخفي بذرة بوذا في أعماقه الدفينة . وتساءلت : ما الذي كان بوذا يخفيه ملفوفا في ردائه الاصفر ؟

ذات أحد ماطر كنت أتجول على مهلي في متحف أتفرج فيه على أقنعة أفريقية قوية مصنوعة من الخشب وجلود الحيوانات والجماجم البشرية . وفي محاولتي لحل لغز الاقنعة قلت لنفسي ان القناع هو وجهنا الحقيقي ونحن هذه الاغوال ذات الافواه الدامية والشفاه المتدلية والعيون المرعبة . ان هناك قناعا كريها يعوي وراء الملامح الجميلة للمرأة التي نحب ، وهيولى وراء العالم المرئي ، وبوذا وراء وجه المسيح اللطيف . وأحيانا في لحظات الحب والكراهية والموت تتلاشى الفتنة والسحر ونرى الملامح المخيفة للحقيقة . وتذكرت وأنا أرتعش الصبية الايرلندية داخل تلك الكنيسة الصغيرة على قمة الجبل الكريتي . ما ان لمستها شفتاي حتى بدا ان وجهها قد تهرأ وتلاشى كاشفا عن قردة مخيفة متعذبة منتشية ملأتني بالقرف والخوف . منذ ذلك الحين كنت أضبط نفسي ، بصعوبة ، عن تعرية الوجوه الحقيقية للبشر لأن الحب والغزل والتفاهم المتبادل سوف تختفي كلها ، عندها يبدو انني أتظاهر بتصديق وجوه البشر وبهذه الطريقة أستطيع أن أعيش مع رفقائي البشر .

كل يوم قبل طلوع النهار كان هؤلاء الاروميون ★ الذين ينحتون الاقنعة يتسابقون الى أعلى أقرب تل لينادوا الشمس ـ لـ توسلوا

★ سكان البلاد الاصليون .

اليها ـ لكي تظهر وهم يرتعدون خشية انها بصدفة ما قد لا تأتي ثانية • كان المطر بالنسبة اليهم مليئا بأرواح الذكور التي تدخل الارض وتخصبها • وكانت ومضات البرق هي النظرات الغاضبة للرئيس غير المرئي • كانت الاوراق على الاشجار تتكلم ، مثل شفاه البشر تماما ، وكانت عجائز عديدات يفهمن ما نقوله • وحينما كان هؤلاء الاروميون يعبرون نهرا فان النهر هو الذي يسحبهم اليه ليغرقهم الا أنهم كانوا يستجمعون قواهم ويمرون عبر التيار دون سرعة كبيرة ثم يتلوون ضحكا حين يصلون الى الضفة المقابلة لأنهم اجتازوه بأمان • كانت الاشياء كلها تتكلم وتجوع وتسمع ولها جنسها وتتزاوج • كان الهواء مليئا بكثافة بأرواح الموتى ، ومن أجل ازاحتها جانبا كان هؤلاء الناس يتفرقون ويحركون أذرعهم حين يسيرون وكأنهم يسبحون • لهذا استطاعوا رؤية الحقيقي بهذا الوضوح خلف الظاهر ، وعرّوا القناع الأزلي المتخفي وراء الوجه الزائل •

جاءت فتاة ووقفت الى جانبي وبدأت تتفرج ، مثلي ، على الأقنعة • لوهلة كنت على وشك الخروج لأنني أحس دائما بانزعاج معين حين أكون وحيدا أو أتفرج على شيء يؤثر فيّ ثم يأتي شخص ما ليتفرج عليه أيضا • كانت قصيرة وبدينة ولها صدر بارز وذقن قوية وأنف صقري وعينان برموش كبيرة •

التفتت والقت علي نظرة متأملة طويلة وكأنني كنت أنا الآخر قناعا •

سألتني : هل انت أفريقي ؟
فضحكت ، وأجبت : لست أفريقيا كاملا • قلبي فقط •
قالت : ووجهك أيضا • ويداك ••• أنا يهودية •
قلت لأثيرها : شعب مرعب • خطر • يتظاهر انه يريد ان ينقذ العالم ••• أما زلتم تنتظرون المسيح ؟
ـ لا • لقد جاء •
• المسيح ؟
ـ نعم المسيح •

ضحكت ثانية : متى ؟ وأين ؟ ما اسمه ؟
- لينـــين ٠
كان صوتها قد أصبح بغتة عميقا وأصبحت عيناها كئيبتين ٠

لينين ! للحظة بـدا لـي ان الاقنعـة كلها أمامـي قد تحركت وقضقضت بفكوكها الكبيرة المفتوحة ٠ ودون كلام راحت الفتاة تتطلع عبر النافذة الى السماء القاتمة ٠

نعم ، قلت لنفسي ، كان لينين مخلصا جديدا آخر ، مخلصا جديدا آخر خلقه المستعبدون والجائعون والمضطهدون ليمكنهم مـن تحمل العبوية والجوع والاضطهاد - قناعا جديدا آخر ليأس البشر وأملهم ٠

- أعرف مسيحا آخر يخلص الانسان من الجوع ومن التخمة أيضا ، من الظلم ومن العدل أيضا ، و - وهذا هو الاهم - من كـل المسيحات ٠

٠ واسمـه ٠٠٠٠
- بـوذا !

ابتسمت بازدراء ثم قالت بصوت غاضب « سمعت عنه ٠ انه شبح ٠أما مسيحي فمصنوع من لحم ودم » ٠

لقد تفجرت ٠ وتصاعدت الرائحة الواخزة لجسدها المتعرق من بلوزتها المفتوحة ٠ وتثاقلت عيناي لوهلة ٠

قلت وانا ألمس ذراعها : « لا تغضبي ٠ انت امرأة وأنا رجل ٠ نستطيع ان نصل الى حيث يفهم كل منا الآخر ٠
تطلعت الي بعينيها نصف المغمضتين وحاجباها يرتعشان ٠

- « هذا المكان مقبرة » قالت ذلك وهي تتطلع الآن الى الأقنعة والى الآلهة الخشبية والاسلحة الغريبة التي تحيط بنا « مقبرة ، انني أختنق هنا ٠ المطر يتساقط في الخارج ٠ تعال ٠ دعنا نتبلل » ٠

قضينا ساعات في المطر ونحن نسير تحت أشجـار الحديقة

الواسعة · كانت عائدة من روسيا منذ عدة أيام ـ من الفردوس وكان كيانها كله يشع حبا وكراهية ضارية · وكان اسمها ايتكا ·

استمعت اليها · في البدء كنت أقدم احتجاجات لكنني سرعان ما أدركت ان الايمان يسيطر ويتحكم من مكان سام أعلى من رأس الانسان وان العقل عاجز عن لمسه · تركتها لذلك تسترسل في حديثها · وتركتها تهدم العالم وتعيد بناءه ·

اقترب المساء · وقل عدد المتسكعين وأضيئت الانوار · وبدا بغتة ان الناس والبيوت والاشجار قد غرقت في المطر المضيء ·

« تعبت » قالت الفتاة وهي تميل على ذراعي · « دعنا نذهب الى غرفتي » ·

تركنا الحديقة وسرنا في الازقة الضيقة ووصلنا الى حي العمال ·

ـ ستلتقي بثلاث من صديقاتي · سنتناول الشاي معا هذا المساء · الاولى رسامة · انها تتصارع مع الالوان · تصنع شيئا ثم تمحوه · انها تبحث لكنها لا تعرف عم تبحث · وهي تقول (عندما أجده سأعرف ما الذي أبحث عنه) اسمها دينا وهي يهودية · الاخرى ممثلة ، وهي تبحث مثل دينا تماما · انها تتقمص كل شخصية تمثلها ولكن حين تنتهي وتخرج منها فانها تمزق نفسها اربا · اسمها ليا وهي يهودية أيضا · الثالثة جميلة جدا لكنها مفسدة ومتكلفة · والدها الغني يواصل مدها بالمال وهي تنتقي فساتين سهرة وتشتري العطور وتختار الرجال الذين تريدهم وتنام معهم · اسمها روزا · وهي ليست يهودية بل من فيينا · انني أحبها ولا أعرف لماذا ··

صمتت للحظة ثم أضافت : « ربما لأنني أحب أن أتشبه بها · من يدري ؟

تظاهرت انني لم أسمع ، ولكنني في أعماقي سررت سرا لأن اسمع صوت الانثى الابدية يعلو على الافكار والنظريات حول تدمير العالم واعادة بنائه ·

كانت الصديقات قد وصلن • روزا اشترت الحلويات والفاكهة• وقد أعدت المائدة وكن ينتظرن ، وروزا تضع أحمر الشفاه وقد تمددت على أريكة بينما كانت الاثنتان الاخريان تقرآن بشغف في صحيفة مددتاها أمامهما • كان الناس مهتاجين مرة أخرى والعالم في نوبة حمى •

فيما كنت أراقب الارواح الاربعة المتوحشة المحيطة بي رحت أفكر : بورك حظي الذي يلقي بي دائما بين اليهود • اظن أنهم يلائمونني أكثر من المسيحيين •

أطلقت الفتيات الثلاث صرخة حين دخلنا • لم يكن يتوقعن رجلا •

قالت ايتكا ضاحكة : « انني حتى لا أعرف اسمه • وجدته في المتحف الاثنولوجي ★ • انه قناع • »

عدلت روزا جلستها وامتلأ الجو بالشذى • لقد جعلتني رائحة الانفاس الدافئة والشباب المتعجل أمرض فورا • لا أعرف لماذا • ولكن حين وجدت نفسي بين هذا العدد من الصدور الانثوية وهذا العدد من العيون القلقة والشفاه المتبرجة فانني امتلأت بالخجل والخوف • كنت أفضل أن أنصرف ولكن الشاي جلب فجلسنا على وسائد على الارض وركبنا متلاصقة • الآن ، وبعد سنوات طويلة ، لا أتذكر من هذه الأمسية كلها ـ تلك الأمسية التي أثقلت علي كثيرا ـ الا ايتكا وهي تتحدث بحماس عن موسكو ، عاصمة العالم الحمراء ، وروزا تضحك وتعيد صبغ شفتيها بعد ان شربت الشاي ، والبنتين الأخريين تحدقان بعيون جاحظة ولا تقولان شيئا •

حل الليل • ونهضت الفتيات الثلاث لينصرفن • نهضت معهن لكن ايتكا شدت على ذراعي وأشارت لي بالبقاء • بقيت • وفي تلك الليلة بدأ بوذا يشحب في داخلي • أدركت في تلك الليلة ان العالم ليس طيفا وان جسد المرأة حار ومليء بمياه الخلود وان الموت غير موجود •

★ الاتنولوجيا : علم الاقوام والاجناس البشرية .

بقيت معها عدة ليال · لم تقل كلمة واحدة عن الحب ، ولم يجروء القلب على افساد ألعابنا العارية المقدسة بتنهداته وتعهداته· لا شيء الآن الا الاجساد ، مثل الحيوانات ، كنا نتعارك ثم نغرق في نوم عميق منهكين وفرحين · آه ! بوذا ! بوذا ! كنت أفكر وأضحك ·

اية راحة تتحقق حينما لا يتورط اللحم في الاهتمامات الروحية بل يبقى على الارض نقيا ونظيفا مثل حيوان · لقد مرغت المسيحية اتحاد الرجل بالمرأة حينما وصمته بالخطيئة · وبعد ان كان في الماضي عملا قدسيا ، وخضوعا مفرحا لارادة الله ، حطت المسيحية من قيمته وجعلته تجاوزا · قبل المسيح كان الجنس تفاحة حمراء ثم جاء المسيح فدخلت دودة الى تلك التفاحة وبدأت تأكلها ·

كنت أتطلع باعجاب الى هذه الفتاة المتأججة · طوال الليل تكون وحشا نهما آكلا للذكر وكل ذرة في روحها قد تحولت الى لحم ، بينما تظل طوال النهار لهبا من النقاء الخالص · ذكرتني بامرأة استثنائية أخرى ، كانت مثلها اما ان تكون كلها جسدا واما ان تكون كلها روحا ، انها القديسة تيريسا · ذات يوم رأتها راهبات ديرها وهي تلتهم بنهم حجلا محمرا · روعت الراهبات الساذجات لكن القديسة تيريسا ضحكت · وقالت « عند الصلاة صلاة · وعند الحجل حجل ! » كانت تمنح نفسها بكليتها الى كل من العملين لتغذي جسدها وروحها بالنهم ذاته ·

كانت ايتكا تلعب معي طوال الليل ولكن حين يأتي النهار كانت تقطب حاجبيها وتنظر الي بكراهية · وتسألني دائما : « ألست خجلا من كونك مرتاحا وغنيا ؟ دون أن تجوع أو ترتجف بردا في الشتاء ودون ان يكون لديك حذاء مهترىء ؟ ألا تخجل من التسكع في الشوارع وأنت تقول لنفسك : العالم جميل وأنا أحبه ؟ »

وأقول لها : أنا لا أقول ان العالم جميل وأنا أحبه · أقول ان العالم سلسلة أطياف · الجوع والبرد والحذاء (المثقوب أو ما هو دون ثقوب) هي أطياف · ستهب عليها نسمة وتبددها كلها · هذا ما أقوله ·

هاجمتني بعنف وأغلقت فمي براحتها : « اسكت ! اسكت ! لا أريد أن أسمع أية كلمة أخرى ٠ أيمكن ان يكون صحيحا اذن انكم أنتم الاثرياء ، كلكم لا قلوب لديكم تحسّون فيها بالعطف ؟ أليس لدى أي منكم عينان يرى بهما ؟ تعال انظر ! »

أخذتني وقادتني عبر الحي البروليتاري ٠ كان كل شخص يعرفها ٠ دخلت الى الاكواخ البائسة وجعلتني أرى الاطفال الجائعين والامهات الباكيات والرجال العاطلين عن العمل جالسين بصمت وهم يعضون شفاههم ٠ وحين كنت أطرح عليهم أسئلة كانوا يتأملونني من رأسي الى قدمي ثم يحولون وجوههم عني ٠

سألت ايتكا : « لماذا لا يتكلمون ؟ لماذا ؟ »

- « انهم يتكلمون فعلا ٠ انهم يجأرون - ولكن كيف لمثلك ان يسمعهم ؟ ولكن لا تخف ذات يوم ستسمعهم بوضوح تام ٠ » وثبتت عينيها علي آملة ان ترى معاناة البشر وقد تغلغلت فيّ ٠٠

لكنني أجبتها ساخرا : « يا للخجل انني أنا أيضا لا أمتص أي نوع من السكاكر أحلي به ريقي ، أحد تلك المنتجات اللذيذة للفن الانساني الحلواني : الله ، وأرض الوطن ، وصديقك المفضل كارل ماركس ٠ ذات يوم التقيت بأسعد انسان في العالم ٠ كان يمتص سكرتين في آن معا : المسيح وماركس ٠ فلكونه مسيحيا متعصبا وشيوعيا متعصبا أيضا استطاع ان يحل كافة الاشكالات في الحياة ، الارضية والسماوية ٠

كنت قد بدأت ممازحا ولكن وأنا أتكلم أحسست بالعطف والمرارة يثقلان روحي ٠ ومن باب الاحساس الكاذب باحترام النفس لم أشأ أن أكشف عنهما وأصررت على معارضتها والمفاخرة برفض استقاء العزاء من امتصاص السكاكر ٠

« أنا لا أريد أيا من هذه المريحات ٠ كل ايمان يعد بالجزاء وبالسعادة يبدو لي عزاء جبانا لا يصلح الا للمخرفين والضعفاء والنباتيين » ٠

ـ « انا لست خرفة ولست كسيحة أو نباتية » • ردت رفيقتي غاضبة • « توقف عن تبجحك • بوذا الذي لديك سكرة أخرى مثل البقية • وأكثر من ذلك أريد أن تعرف انني لا أريد أن أراك أو أسمعك بعد الآن » •

نفضت رأسها بغضب وتركت ذراعي ثم دخلت في أول شارع صادفناه وتركتني •

ولكن عند المساء تبتسم شفتاها اليهوديتان المليئتان : « كل ما قلناه خلال النهار ـ ماء فوق السد » هكذا اعتادت ان تهتف ضاحكة كل مساء « الآن انه الليل ! » •

كنا نفترق كل صباح • هي تذهب الى المعمل حيث تشتغل وأنا تعودت المشي وحيدا في الاحياء الفقيرة • لم أكن أشاء ان أذهب الى هناك مرة أخرى في وجود ايتكا لانني حين أكون معها كانت كبريائي تجعلني أقاوم وأغلق قلبي • ولكن حين أكون وحيدا لا تعود معاناة البشر سلسلة من الاطياف • لم تعد ظلا بل حقيقة ؛ انها جسد جائع يتألم وينزف •

يا رب لا تنزل على الانسان كل ما يستطيع تحمله ! لم أكن أعرف ان هذا القدر من الالم ومن الجوع والظلم موجود في العالم • لم يسبق لي حتى الان ان التقيت بهذا الوجه الرهيب للحاجة بهذا القدر من القرب • ان قائمة أخرى من القوانين هي التي تتحكم هنا ، والكراهية في الدرجة الاولى • لا بد ان تتغير الوصايا العشر هنا ـ بل لقد تغيرت • لقد صار للحب والكراهية والحرب والاخلاق معاني جديدة • ذات يوم رأيت امرأة هزيلة ممددة على الرصيف • وكانت أسمالها قد انحسرت فكشفت عورتها • ولأنني أشفقت عليها توقفت لأقول لها ان تسحب ثوبها • قلت : « انت غير محتشمة » • فهزت كتفيها وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة « انا جائعة وانت تتحدث عن الاحتشام • الحياء للأغنياء » •

لم أستطع تحمل هذا القدر من الرعب ـ خدان غائران من الجوع، أطفال هزيلون ينقبون في أكوام النفايات لكي يعثروا على الفتات الذي لم يؤكل ، بطونهم خضراء ومنتفخة ، وأرجلهم ليست أكثر

من عظام ملفوفة بصباغ أصفر · بعضهم يتكئون على عكازات لأن أرجلهم لم تعد قادرة على حملهم وبعضهم كانت لديه لحى نامية على خدودهم الطرية ·

ولعجزي عن تحمل الامر أكثر من ذلك حولت عيني لكي لا أرى لأنني أحسست بالخجل ·

أذكر ذلك جيدا : قبل العطف على البشر أحسست بذلك الخجل الداخلي · خجلت لرؤيتي العذاب الانساني في الوقت الذي كنت فيه أجهد لتحويل هذا الرعب كله الى مشهد زائل وعبثي · كنت أقول لنفسي ان لا شيء من هذا حقيقي· وانني يجب أن لا أضل بحيث أومن ، مثلما يفعل أي شخص بسيط وساذج · لا · ان الجوع والتخمة ، الفرح والحزن ، الحياة والموت ـ كلها أطياف ! كنت أقول هذا وأكرره ، ولكنني حين رأيت الاطفال الجائعين الباكين والنساء بخدودهن الغائرة وعيونهن المليئة بالكراهية والالم بدأ قلبي يذوب تدريجيا · وبانفعال شديد صرت ألاحظ هذا التغير المفاجىء في داخلي · في البدء خفق الخجل في قلبي وبعده العطف · بدأت أحس بعذابات الآخرين كما أحس بعذاباتي · ثم جاء بعده السخط والنقمة ، ثم التوق الى العدالة ، وفوق كل شيء آخر ، الاحساس بالمسؤولية · انني المسؤول عن كل ما في العالم من جوع وظلم وقلت لنفسي : هذه مسؤوليتي ·

ماذا علي أن أفعل ؟ رأيت واجبي يتحول · كان العالم يتوسع : والحاجة أكبر من ان يسيطر عليها ، والواجب الذي يحس مسجون ومخنوق في جسد صغير واحد ، في روح صغيرة واحدة · ما الذي علي أن أقوم به ؟ وأية وجهة أسلك ؟ في أعماقي كنت قد عرفت ما علي ان أفعله لكنني لم أجرؤ على الكشف عنه · بدا ان هذا الطريق ضد طبيعتي · ولم أكن واثقا مما اذا كان الانسان ، بالحب والجهد ، قادرا على تجاوز نزعته الطبيعية · لكنني فكرت في الامر · تساءلت ما اذا كان لديه الكثير من القوة الخلاقة ؟ ان كان لديه فانه اذن بلا تبرير مقبول ان لم يسع في اللحظات الحاسمة لتحطيم حدوده ·

خلال تلك الأيام الصعبة ، حين كنت أجاهد ضد طبيعتي من أجل تجاوز نفسي الكريهة ومن أجل تحمل الآلام للتخفيف من العذاب

الانساني ورد الى ذهني نموذج للتضحية والحب استثنائي في نبله ـ كان يبدو كأنه راغب في ان يدلني على طريقي · وتذكرت ما قاله لي ذات يوم : « علينا ان نهتم دائما بصرخة انسان يطلب العون » ·

حين دخلت أول مرة أزقة أسيسي الضيقة خلال جولتي في ايطاليا وسمعت الاجراس تقرع بمرح (كانت صلاة المساء) من برج الاجراس في كنيسة القديس فرانسيس ومن رجل الله المسكين ، ومن دير القديسة كلير الصغير أحسست بسعادة لا توصف ، وعندما أقمت فيقصر الكونتيسة العجوز ايريشيتا ، ظللت في تلك المدينة المقدسة أشهرا عديدة غير راغب في مغادرتها · والآن في هذه الايام الصعبة التي كانت فيها روحي تحاول ان تكافح لكي تسمو أعلى قليلا انفتح قلبي واندفعت منه أسيسي · برز ابن برناردون الاشعث الحافي الى الضوء في تلك الايام العصيبة ، وخطا الى المقدمة ثم أشار الى طريقي بيده · لم يكن طريقا بل مرتقى صخريا شديد الانحدار · لكن الهواء من حوله كان محملا بأريج القدسية الحلو ·

تذكرت اليوم الغائم الذي تسلقت فيه ديلا فيرنا جبل استشهاد فرانسيس ومجده · كانت ريح جليدية عنيفة تهب وكانت الصخور شهباء وعارية ، خالية من العشب · والاشجار العارية كانت كلها سوداء · المنطقة كلها تئن متعذبة وقاسية ـ لا شيء الا الفقر والقفر والعزلة · كانت الظلمة تقترب ، والضوء كان خافتا دون ألق ، وكانت القمة ما تزال تلوح من فوقي · حاولت دون جدوى ان أركز رغبتي وأن استثير قوتي كلها وأنا أحس بألم يسيطر على جسدي المتجلد الجائع ، الذي كان على وشك ان يداهمه الليل في هذا القفر · وبغتة حدثت المعجزة · بدا ان هذه المنطقة اللاانسانية اللامزهرة من حولي قد انتقلت من مكانها ، صعدت الخطوة السرية التي يتوق الواقع كله سرا لصعودها ، وأحسست ان من حولي هنا كان الفقر ـ الفقر الفرانسيسي ـ قاسيا على الجسد ، عديم الرحمة بعادات الانسان المقبولة وبمتعة الكسول المسفة ·

لقد كان هذا القديس هو ذاته الذي أمات لحمه ، وأنكر متع الحواس الخمس وألقى بالرماد على طعامه حينما أحس بالشيطان الداخلي الشره يلعق شرائح اللحم أمامه · كان يلقي بنفسه في جداول

جليدية في عز الشتاء ويبقى طوال الليل سهرانا ويظل جائعا وبردانا ـ عذب جسده الطيني بهذه الكثرة وحين أشفق عليه على فراش الموت التفت وقال : « اغفر لي يا أخي الحمار فلقد عذبتك كثيرا » ٠

لكن هذا الفقر كان فرانسيسيا ٠ أي انه كان واثقا من غناه ، ومن الربيع السري الذي كان يهيئه ومن الصيف الدافىء المحمل بالثمار الذي يختفي في داخله ٠ وبغتة تفتح في ذهني جبل فيرنا المقفر الاجرد في ذلك المساء وتحول الى مشهد ساحر من فردوسنا الداخلي ، مشهد مخضوضر شذي مغطى في ضواحيه كلها بالنحل والفراش وبدأت الآن أتسلق الجبل المعاد خلقه من جديد وأنا أصرخ « بوركت يا أخت لافيرنا ، أيتها الاخت الفقر » ٠

جاء الربيع ٠ كيف لي أن أغادر ؟ كنت أعيش سعيدا في مواجهة دير القديسة كلير الصغير في قصر الكونتيسة ايريشيتا العجوز التي كانت مشبعة بالمتعة والبهاء الفرنسيسيين ٠ لم يسبق لي ان تعرفت على هذا التطابق بين القديس فرانسيس وبين الربيع بهذا العمق ، ذلك انه بين المقولات الفرنسيسية العظيمة الثلاث عن الفقر والطهارة والطاعة ، لم يكن بينها ما يتلاءم كليا مع روح فرانسيس النقية المبعوثة أبدا مثل مقولة الربيع العظيمة عن الطهارة ٠ في أية منطقة أخرى كان حريا بالربيع ان يوقظ روح الانسان المفتونة التواقة الى ذكرى الشباب والمرأة التي أحب ، وابنته الصغيرة : وان يبعث على الاستياء : لم تكون الطبيعة متجددة الانبعاث الى هذا الحد بينما يعجز الناس عن استعادة شبابهم !! انه لا بد ان يجعل روح الانسان تحسد الجبال والوديان لأنها « لا تنتظر الموت ولا تعرف الشيخوخة » الا ان الربيع في أسيسي يأخذ بالضرورة وبفرح هيئة فرانسيس هذه التربة الامبرية ★ ، التربة التي كان لها حسن حظ انتاج فاكهة كهذه ، تزداد اتساعا وغنى ، انها تبشر بربيع مزدوج أو ثلاثي فيه كل زهرة أسيسية تسمو ، دون أن تفقد بأي شكل مصيرها السعيد ، لتصبح رمزا قدسيا لازدهار روح الانسان ٠

★ نسبة الى « امبريا » المقاطعة الايطالية .

كان فرنسيس واحدا من الاوائل ، كان الزهرة المكتملة الاولى التي تنبعث من شتاء العصور الوسطى المحروث بأشكال عديدة . كان قلبه بسيطا وسعيدا وطاهرا . وكانت عيناه ، مثل عيون الاطفال والشعراء العظام ، تريان العالم دائما للمرة الاولى . لا بد ان فرانسيس كان كثيرا ما يحدق الى حشرة ، أو زهرة بسيطة أو ينبوع ماء ثم يجد عينيه مليئتين بالدموع . ولا بد انه فكر بينه وبين نفسه : أي منظر هذا ؟! وأية متعة ؟! وأية أسرار قدسية هي الزهور والمياه والحشرات ؟! بعد قرون عديدة كان فرانسيس أول من يرى العالم بعينين عذراوين . لقد سقط درع العصور الوسطى السكولاستي ★ الثقيل غير العملي ، وظل الجسد والروح عاريين معرضين لرجفات الربيع كلها .

زرت أسيسي بعد عدة شهور عاجزا عن البقاء بعيدا عنها . كان السهل المدني بكرومه العديدة وكروم التين وغابات الزيتون محملا بالثمار الآن . عبرته وحيدا متنقلا من قرية الى أخرى مستمتعا بالتربة الخصبة الباهرة بهدوء صامت : الارض المقدسة الولود التي تحملت آلام الحراثة والعزق باستسلام صامت وها هي الآن تضطجع مسترخية مغتبطة وحضنها يفيض بالثمار . تحس أنها راضية ورخية لأنها أدت واجبها ، فبانصياعها للقوانين الأزلية وبمرورها الواثق الصبور عبر مراحل التأمل والمعاناة كلها ، استطاعت ان تنجز هذا الجنى الخريفي الثري الخاص بها .

بغتة ، ومن دون أي جهد مقصود ، وجدت نفسي أتعرف مرة أخرى على المعنى العميق للطاعة ، المبدأ الفرانسيسي الاساسي الثالث . اطاعة الاشارة الصارمة ونكران أنفسنا لثقتنا بالقوى السامية التي تحيط بنا والتي فينا ، القوى المرئية والخفية ، ونحن راسخون في ايماننا بأنها تعرف كل شيء بينما نحن لا نعرف شيئا ـ هذا هو الطريق الوحيد الى النماء . الطرق الأخرى كلها مجدبة وخادعة لأنها لا تؤدي الى أي مكان ، بل تكتفي بأن تعيدنا الى النفس البائسة اللعينة بعد الخواء والتيه الصلف .

★ فلسفة سائدة في العصور الوسطى اتصفت باخضاع الفلسفة للاهوت . من ابرز ممثليها توما الاكويني .

وهكذا حدث ان نهض فرانسيس ثانية من هذه الارض التي كان مفتونا بها • لقد رأيته مستلقيا على الارض تماما مثلما حدث في ذلك الصباح الباكر الذي وجده فيه الرهبان مفترشا أرض حديقة القديسة كلير وهو يغني تمجيداته للشمس والنار والماء ••• ويموت• لقد كان سعيدا • ولقد ألزم نفسه بقوانين أزلية • وملأ يديه بالثمار ، ومثل عامل طيب كان عائدا الى مولاه •

خلال تلك الشهور التي كنت فيها أتجول في أزقة أسيسي وفي الحقول النائية أو أتأمل لوحات القصر العظيم لـ (الرجل المسكين) أتذكر أنني ظللت أجاهد لكي أتعرف بنفسي على ربيع كهذا أو خريف مثله قدر ما أستطيع • أية سنوات شباب نهمة مستعصية كانت !! في كل صباح كنت أنطلق ، سعيدا ويائسا ، مع بزوغ الفجر للتطواف في تلك المنطقة المقدسة وكنت أشعر بما لا بد ان يشعر به أي شاب وبما أحس به ذلك الاسبارطي الشاب الذي رأى الثعلب قريبا من لحمه العاري فلم يتكلم ولم يصرخ على الرغم من ان جسده كان ممزقا ـ لقد كان يتألم فخورا لمعرفته بأنه نجح في السيطرة على ألمه •

ودون أن أكون راغبا في الامر لا بد أن وجهي قد كشف عن كفاحي وألمي لأنني ذات صباح وأنا أغادر المدينة من بوابة القديسة كلير أوقفني رجل نحيل طويل بدأ شعره الاشقر يشيب • ورغم انني كثيرا ما كنت أراه يتجول مثلي في تلك المنطقة التي كانت تجتذب الكثير من الحجاج الا اننا لم يسبق ان تبادلنا أية كلمة • كنا نكتفي بأن يبتسم كل منا للآخر بأدب كلما تقاطعت دروبنا ثم نتابع سيرنا دون كلام ـ كنا نمشي بالمزيد من الخفة ، كطريقة في الكلام ، وكأن كلا منا كان يرغب في أن لا يفسد على الآخر عزلته وهدوءه •

ولكن في ذلك الصباح توقف هذا الغريب المجهول وتطلع الي وبعد لحظة من التردد سألني : « هل تحب ان نتمشى قليلا معا ؟ »

ـ نعم • أحب •

وبعد ان سرنا عدة خطوات قلت له : « أنا من اليونان • لقد جئت الى أسيسي ووقعت في هوى القديس فرانسيس » •

وأجاب الغريب : « أنا من الطرف الآخر من أوربا . من الدانمرك . أنا الآخر وقعت في هوى القديس فرانسيس . لقد عشت هنا في أسيسي سنوات عاجزا عن الرحيل . اسمي جورجنسن » .

أجفلت : « أنت الذي كتب الكتاب الرائع عن فرانسيس ؟ »

ابتسم جو رجنسن بمرارة وهز رأسه : « من ذا الذي يستطيع ان ينصف القديس فرانسيس ؟ حتى دانتي لا يستطيع . هل تعرف الفصل الحادي عشر من باراديزو ★ ؟ »

فرحت . في تلك الايام ذاتها كنت قد أحببت هذا الفصل حبا جارفا وفيما كنت أقوم بمشاويري وحيدا أعبر شوارع أسيسي أو في الريف المحيط بها كثيرا ما كنت أتمتم بأبيات مطلعها :

يا علاج الفانين الاحمق
ما أكذب الحجج التي
تجعلك تتحدر وأنت تضرب جناحيك !

وبدأنا ، معا ، نستظهر الايطالي المدهش ، وقد توحدنا ، بغتة في أخوة تحت جناح الشعر العظيم . سلكنا الطريق العالي المطل على الوهد بكرومه وغابات زيتونه الوافرة . كانت الشمس قد أشرقت الآن وأضاءت العالم فملأته بظلال مديدة . صمتنا لبعض الوقت . وأخيرا التفت الي مرافقي وسألني : « لماذا تحب القديس فرانسيس ؟ »

لكنه أسف فورا لما فعل فقال : « اعذرني . لقد كنت مشتتا » .

اجبته : « أحبه لسببين : الاول لأنه شاعر ، واحد من أعظم شعراء ما قبل النهضة . وبانكبابه على أتفه مخلوقات الله سمع العنصر الخالد الذي تحتويه في أعماقها : الاتساق .

« والثاني ؟ » سأل جور جنسن .

★ الجنة ــ فصل من الكوميديا الالهية .

ـ ثانيا أحبه لأنه بالحب وبمبدأ الزهد استطاعت روحه ان تقهر الواقع ـ الجوع والبرد والمرض والصنف والظلم والبشاعة (ما يسميه الناس الذين لا أجنحة لهم واقعا) ـ ونجحت في ان تحول هذا الواقع الى حلم مفرح محسوس أكثر حقيقة من الحقيقة ذاتها • لقد اكتشف السر الذي كان كيميائيو العصور الوسطى يبحثون عنه بشغف : كيف تحول حتى أحقر المعادن الى ذهب ؟ لماذا ؟ لأن « حجر الفيلسوف » بالنسبة لفرانسيس لم تكن شيئا مستحيلا أو خارجا عن الانسان لا يمكن العثور عليه الا ببلبلة القوانين الطبيعية، ان الحجر قلب الانسان • وهكذا ، ومن خلال هذه المعجزة في الكيمياء السرية استطاع ان يخضع الواقع ، أن يحرر الانسان من الضرورة ، وان يحول ، داخليا ، لحمه كله الى روح ، ان القديس فرانسيس بالنسبة لي هو الجنرال العظيم الذي يقود الرعايا البشرية الى نصر غير مشروط » •

ـ اليس هناك شيء آخر ؟

أجبته : أنا أعرف ما الذي تريد أن تسألني عنه • لا • لا شيء آخر • جنرال وشاعر ـ لا شيء غير هذا •

صمتنا من جديد لكن سرعان ما قال جو رجنسن : « هذا لا يكفي » • وعلى الرغم من انه بدأ يرفع يده وكأنه يرغب في لمس كتفي وفي استرضائي لصالح اعلانه البليد هذا الا انه أبقاها في الجو وكرر بمزيد من الصرامة هذه المرة : « لا • هذا لا يكفي » •

كنت سأرد ولكنني ضبطت نفسي خشية أن أقول شيئا فظا •

قال جورجنسن وكأنه يكمل فكرة صامتة « لهذا يبدو وجهك متعبا جدا • انك ما تزال تكافح • لم تحقق خلاصك بعد • وهذا الكفاح يهلكك يوما بعد الاخر • هذا هو السبب الذي جعلني أوقفك هذا الصباح وأتحدث اليك • »

ـ « على غرض انك تستطيع ان تساعدني في كفاحي ؟ » سألته بصوت جاء ، رغما عني ، مليئا بالغضب والسخرية •

ذلك • اذا نتكلم أحيانا قبل ان تجد أرواحنا الفرصة للسيطرة على الجسد •

قال جورجنسن « اضبط نفسك • أنا لا أستطيع أن أساعدك • على كل انسان أن يجد طريقه الخاص به وان ينقذ نفسه • مم ؟ من الآني • ينقذ نفسه من الآني ويعثـر على الازلي » •

قلت ، وأنا ما أزال مغتاظا : « من وجهك الصافي ومن مشيتك الهادئة الواثقة ولهجتك اللطيفة دائما يبدو انك قد عثرت علـى طريقك • ولا شك انك تنظر الينا ، نحن البقية ، بشفقة بل وربما بتعطف ـ نحن البقية التي ما تزال تكافح • ربما كنت قد ولدت متميزا بمواصفات متوازنة ولم تعرى أي كفاح في حياتك » •

توقف جورجنسن ونظر الي لوهلة • مد يده بتصميم هذه المرة ، وكأنه يمدها الى غريق ، وأمسكني من ذراعي • قال : « ما تـزال شابا • لقد كنت ذات مرة شابا وانا أعرف انك عديم الصبر • مـا يزال ينقصك التواضع وما تزال ترفض ان تتنازل لطلب المساعدة • اسمح لي أن أقول لك شيئا • انني لم أولد متميزا • لقد عرفت معنى الالم والكفاح والعجرفة جيدا • حين كنت شابا مثلـك كانت لـدي مطامح شيطانية عظيمة • كتبت روايات مليئة بالفجور والعواطف والسخرية • ومع الايام صار الفن يضايقني كثيرا • وحين كرست نفسي للعلم تحولت الى داعيـة متعصـب للداروينيـة ولكل فكرة معادية للمسيحية • كنت أريد أن أحطم الكنيسة والدولة والاخـلاق ـ الاغلال كلها • تربعت على عرشي في قلب الحياة وأعلنت « الحرب على العدو التقليدي » وكان العدو التقليدي هو تسميتي لله • كتبت والقيت الخطابات في كل مكان • ركضت وركضت والراية في يدي • لكنني بغتة توقفت وسكت • بدا ضيق مفاجيء وغير مفهوم يقلق فؤادي • غادرت الدانمرك لكي أهرب من أصدقائي ومن عاداتي القديمة ورحلت الى ألمانيا ثم توجهت الى ايطاليا وجئت الـى أسيسي » وابتسم « كان ذلك منذ ثلاثين عاما • لقد قضيت الاعوام الثلاثين الفائتة هنا في أسيسي تحت ظل فرانسيس • الحمد لله » •

قلت وقد تأثرت بعمق : « ثم ؟ انني لم اقرأ أيا من كتبك باستثناء القديس فرانسيس » ؟

« هذا أحسن • لقد نشرت كتاب رحلات تحدثت فيه (أو بالاحرى حاولت أن أتحدث) عن الشعور الذي شعرت به عند رؤيتي المدن القديمة بقلاعها وكنائسها ولوحاتها ••• كنت قد ذهبت من قبل الى دير بنديكتين لكنه أخافني فغادرته فورا صباح اليوم التالي • وعلى الرغم من ان عشاء الرهبان الهادىء المبهج كان يبدو لي جميلا وجذابا ، ومتناقضا تماما مع الحياة التي كنت اعيشها ، وعلى الرغم من انه مكنني للمرة الاولى أن أرى الطريق الذي يؤدي الى السعادة الا أنني ترددت في سلوك هذا الطريق » •

والتفت جورجنسن وأشار بفرح متوقد الى أسيسي المقدسة بجدرانها القديمة والاكروبولوس ★ المتهدم – روغا غراند – وكنيسة القديس فرانسيس الشبيهة بالحصن والمبنية على ثلاث مستويات• وسألني : « هل سنعود لرؤيتها ؟ »

سلكنا الطريق الذي يعود بنا الى أسيسي • كان الفلاحون النحيلون ذوو العيون المتوقدة يعبرون بنا تسبقهم أزواج الثيران ، ثيران أومبريا البيضاء الشهيرة ، وهي تسير متثاقلة تحت النير ، وقرونها المعقوفة مكللة بسنابل القمح الناضجة • وحيتنا فلاحة صبية ذات شعر حالك السواد وبصوت جلي : « pax et bonum » ردّ جورجنسن على قولها : «صباح الخير» وعلى الطريقة الفرانسيسية أشار الى البراسيليقا ★★ الكبيرة عند سفح أسيسي • في داخلها توجد كنيسة فرانسيس الصغيرة « بورزيونكولا » • قال : « هناك في بورزيونكولا ركعت على ركبتي لأول مرة مجبرا وذلك حين نظرت الى القديس والجروح الخمسة في جسده ، لكنني خجلت فنهضت وخرجت• ما الذي جعلني أركع؟ ما الذي حدث لي؟ وتابعت أسأل نفسي غاضبا • ولكن في الوقت ذاته غمر كياني الداخلي العميق احساس بالراحة لا يوصف • وسألت نفسي من جديد : لماذا ؟ لماذا ؟ لم أحس بهذا الارتياح ؟ والحقيقة ان هذه السعادة قد تجاوزت أي شيء تذوقته في حياتي حتى تلك اللحظة ، ولكن على الرغم من ذلك كان

★ الجزء الاعلى المحصن من مدينة اغريقية .

★★ كنيسة مبنية على شكل مستطيل في احد طرفيه جزء ناتىء نصف دائري .

في داخلي شيء لا يريد ان يؤمن . كان هذا الشيء يحتقر كل ما هو فوق الطبيعة وكان يضع ثقته وايمانه في شيء واحد فقط . في العقل البشري وفي كل ما يقوله العقل . وهذا ما وقف على باب قلبي ومنع المعجزة من الدخول » .

« طيب ، وبعد ذلك ؟ » سألت نافذ الصبر ، وقد رأيت مرافقي يغرق في الصمت من جديد . « كيف جاءك الخلاص ؟ »

– بهدوء ودون ضجيج كما يأتي في معظم الاحيان . تماما كما تنضج الثمرة وتصبح حلوة ريانة كذلك نضج قلبي وصار حلوا ريانا . بغتة بدا كل شيء بسيطا ومؤكدا أمامي . وتوقفت الآلام والترددات والمعارك كلها . جلست عند قدمي فرانسيس ودخلت السماء . وفرانسيس ، فرانسيس نفسه ، هو (الاخ البواب) الذي فتح لي الباب .

اقتربنا أخيرا من أسيسي . كانت الشمس تشع على قلعة المدينة الملوثة بالدم ونصف المنهارة ، وكان جرس القديسة كلير المصفر ذو الصوت الفضي قد بدأ يقرع مرحا مهذارا مثل حجل الجبال

قال جورجنسن « يجب أن تعذرني لأنني تحدثت عن نفسي كثيرا . اعتبره اعترافا . انني أكبر منك سنا وأنا أستمتع بالاعتراف لمن هم أصغر مني – لأن هذا هو النوع الوحيد من الاعتراف الذي ربما كانت له أية فائدة » .

ولكي أخفي انفعالي قلت ضاحكا : آه لو أن فرانسيس كان فعلا بواب السماء – أية فرحة ! انه كان سيدخل اليها القديسين والخاطئين ، المؤمنين والكفرة وحتى أصحاب الملايين . نعم وحتى أشنع أنواع الحيوانات ، الفئران والديدان والضباع » .

قال جورجنسن دون ان يبتسم : « ستكون هذه فوضى . ليست فوضى فقط بل ستكون ظلما » .

مرزنا تحت بوابة الحصن • كان دير القديسة كلير على يسارنا والبيت الذي أقيم فيه على يميننا •

قال مرافقي : « سآتي معك للحظة لكي أسلم على الكونتيسة العجوز • أتذكرها في أول مجيئي • انها أجمل نبيلة في أسيسي • لقد ترملت وهي فتية ولم تتزوج بعدها أبدا وأذكر أنها اعتادت أن تمتطي جوادا أبيض لتفقد أملاكها - غابات الزيتون والكروم • لو انها عاشت في أيام القديس فرانسيس لربما أصبحت قديسته كلير » •

- أتساءل ان كانت تشاركك اعتقادك الديني

أجاب جورجنسن : « ألا ترى وجهها ؟ انه منور » •

صعدنا الدرجات • كان الطقس باردا في القصر الكبير وكانت نار تتأجج في غرفة الكونتيسة • خادمتها ايرميلاندا بدأت تعد المائدة الصغيرة الواطئة وتجلب القهوة والحليب وخبز الحنطة لسيدتها • وحين رأتنا أضافت قدحين اضافيين • وجلسنا •

نعم • لقد كان الوجه الارستقراطي المسن منورا فعلا • لقد ظلت العينان المخمليتان الواسعتان حالكتي السواد دون أن يمسهما الزمن • فتح الباب الموصل الى الحديقة وتلألأت شجيرة ورد مزدهرة تحت ضوء الشمس •

« الى أين ذهبتما في هذا الصباح الباكر ؟ » سألت الكونتيسة « أنا واثقة انكما كنتما تتحدثان عن القديس فرانسيس » •

« كيف عرفت ؟ » سأل جورجنسن وهو يتطلع الي مبتسما •

ضحكت الكونتيسة : « لأنني منذ لحظة ، حين خرجت الى الحديقة ، رأيتكما من بعيد تتجهان الى هنا • وكنتما ، الاثنين ، ملفعين باللهب ! »

★ ★ ★

بكم من الوضوح تعـود الـي تلـك الايـام في أسيسي بكـل تفاصيلها • انني لم أطلب معونة فرانسيس ولكن ها هو يركض ليريني الطريق • لو انني اجد القوة فقط • حين رأيته يعانق المجذومين من بعيد هيمن علي القرف والخوف ، وحين رأيته يتجول حافيا مـن أجل أن يعظ ، ووجهه مشع بالغبطة فيما الناس يسخـرون منه ويضربونه ويلقون عليه الحجارة ، صار قلبي عاجزا عن المقاومة ، وعلى الرغم من انني كنت أعي ضعتي فقد ظللت أقول لنفسي ، كـل شيء الا هذا ! الافضل هو الموت فجأة في استشهاد فوري •• ان مواجهة الهزء والسخرية يوما بيوم مسألة تفوق احتمالي •

كنت دائما أجد الصلة المباشرة بالبشر مثيرة للضيق • لقـد كنت تواقا لمساعدتهم قدر ما أستطيع ولكن عن بعد • وكنت أقوم بذلك بمتعة كبيرة • لقد أحببتهم كلهم وتعاطفت معهم كلهم ولكن عن بعد • وكلما اقتربت منهم كنت أجد انه من المستحيل علي ان اتسامح معهم طويلا — وكانـوا يحسـون الاحسـاس ذاتـه نحوي فنفترق • لدي حب جارف للعزلة والصمت • اننـي أستطيع أن اقضي ساعات وأنا أحدق الى النار أو البحر دون أن أحس بالحاجة لأيـة رفقة اضافية •• لقد كان هذان دائما أعز رفاقـي وأحبهم ، وكلما أحببت امرأة أو فكرة فذلك لأنني كنت أجد فيهما الصفات الرئيسية للنار والبحر •

الاكثر من ذلك (قلت ذلك لنفسي لكي أبرر عجزي عن انتهاج طريق فرانسيس الصاعد) كيف يمكن (لرجل الله المسكين) — دون كيشوت علوي آخر ببساطة ساذجة مشابهة ، ونقاء وحب مشابهين — كيف يمكن لانسان كهذا ان يظهر ثانية على الارض في هذه الايام التي نعيش فيها أيام مامون ومولوخ ★ ؟

قلت ذلك مرارا وتكرارا عليّ أعزي نفسي • ولم اكن أعرف ان (رجل الله المسكين) الجديد قد ظهر الآن على الارض ، وكـان

★ مامون : شيطان الجشع وحب المال — مولوخ : اله سامي كانت عبادته تتطلب التضحية بالاطفال وذبحهم •

المجذومون الذين يحيطون به هم الزنوج . ولو انني علمت به خلال تلك الايام التقليدية الحاسمة في برلين التي كانت تدفعني للتخلص من الكسل البوذي وتدفعني الى الفعل الثوري ، لشعرت بالمزيد من الخجل من جبني . لقد علمت بعد ذلك بكثير ، ـ بكثير جدا ـ حين لم يعد من الممكن وربما لم يعد من المستحسن ، ان أغير حياتي ، حين كنت قد قررت نهائيا سلوك طريق مختلف كليا من أجل أداء واجبي .

لقد سيطر علي الانفعال في ذلك الاصيل من آب حين سلكت ذلك الطريق الضيق الى قرية غونسباخ الصغيرة في الغابات الالزاسية . وحين قرعت الباب فتح لي القديس فرانسيس ، الذي هو ابن عصرنا ، الباب بنفسه ومد لي يده . كان صوته عميقا ومريحا . تطلع الي وهو يبتسم تحت شاربيه الكثيفين الشائبين . لقد سبق ان رأيت محاربين كريتيين عجائز مثله تماما ـ مليئين باللطف وبالارادة الصلبة .

كانت لحظة قد باركها القدر . انفتح قلب كل منا على الآخر . جلسنا معا حتى حلول الليل ونحن نتحدث عن المسيح وهوميروس وأفريقيا والجذام وباخ ، وقبيل المغرب ذهبنا الى الكنيسة الصغيرة في القرية .

« فلنبق صامتين » قال لي في الطريق وقد غمر وجهه القاسي انفعال عميق .

كان ذاهبا من أجل الارغن ليعزف عليه باخ . جلس ... أعتقد ان تلك اللحظة واحدة من أسعد لحظات حياتي .

في طريق عودتنا ، حين رأيت زهرة برية على جانب الطريق توقعت لأقطفها .

« لا تفعل » قال وهو يمسك بيدي « هذه الزهرة حية ، يجب ان يكون لديك احترام للحياة » .

كانت نملة صغيرة تتمشى على قبة سترته . أمسكها بلطف لا يوصف ووضعها على الارض وعلى جانب بعيد من الطريق لكي

لا يدوسها أحد . وعلى الرغم من انه لم يقل شيئا الا ان كلمتي « أختي النملة » كانتا على طرف لسانه ، من بين الكلمات اللطيفة الموروثة عن جده الاول في أسيسي .

افترقنا أخيرا حين حل الليل . عدت الى عزلتي . لكن ذلك اليوم من آب لم يغب ابدأ تحت افق ذاكرتي . لم أعد وحيدا . بثقة لا تتزعزع كان هذا المكافح يسلك طريقه بخطوات فتية ثابتة الى جانبي. و على الرغم من أن طريقه لم يكن طريقي فقد كان من المريح لي جدا وكان درسا قاسيا لي أن أراه يصعد مرتقاه بهذه القناعة وذلك العناد . منذ ذلك اليوم صرت مقتنعا بأن حياة القديس فرانسيس لم تكن خرافة . أحسست باليقين فيما بعد بأن الانسان ما يزال قادرا على انزال المعجزات على الارض . لقد رأيت المعجزة ولمستها وتحدثت اليها . ولقد ضحكنا معا وصمتنا معا .

بعد ذلك اليوم لم يعد قلبي قادرا على التمييز بين هذين الشخصين المغربين اللذين أزيحا من الزمن الفاني واتحدا اتحادا لا انفصام له في الابدية ، أي في خطى الله ، كل منهما يشبه الآخر كأخوين : القديس فرانسيس من أسيسي وألبرت شفيتزر ★ .

الحب القوي الرفيق للطبيعة . والترنيمة للأخ الشمس وللأخوات القمر والبحر والنار تتردد أصداؤها كل يوم وكل ليلة في قلبيهما . كل منهما كان يمسك بورقة شجرة برؤوس أصابعه ، وعند رفعها الى الضوء يرى فيها معجزة الكون المخلوق كله .

الاحساس الرقيق المليء بالاحترام وبالرفقة للناس وللافاعي والنمال ــ لكل شيء يعيش ويتنفس . كل منهما يرى الحياة مقدسة ويرتعش فرحا حين ينحني على عيني أي شيء حي ويرى الخالق منعكسا فيهما بكل كماله . بالتحديق الى النملة والافعى والانسان كانا يكتشفان الاكتشاف المفرح بأن الاشياء كلها أخوة .

★ طبيب وموسيقي ورجل دين فرنسي أسس مستشفى في غابون ونال جائزة نوبل عام ١٩٥٢ . ولد عام ١٨٧٥ وتوفي ١٩٦٥ .

العطف ذاته واللطف ذاته (المعبر عنه بالفعل) نحو كل شيء يتعذب • اختار كل منهما المجذومين ، أعمق هاوية للبؤس والالم وأكثرها رهبة . اختار الاول المجذومين البيض والآخر المجذومين السود في أفريقيا • لقد قلت العطف واللطف وكان علي أن أقول ميتا metta ، هذه الكلمة البوذية وحدها تستطيع أن تعبر بأمانة عن الاحساس الذي يولده العذاب الانساني في هذين الاخوين • في اللطف والعطف هناك اثنان : المعذب ومن يتعاطف معه • أما في (ميتا) فهناك تطابق مطلق • حين أرى مجذوما أحس أنني أنا نفسي المجذوم • لقد عبر عن ذلك بأتم وجه الصوفي المسلم في القرن التاسع **السري السقطي** بقوله : « لا يوجد الحب الكامل بين اثنين الا حين يخاطب كل منهما الآخر بقوله : يا أنا • »

الحمق المقدس ذاته ـ هجر ملذات الحياة ، والتضحية بالجواهر الصغيرة من أجل الحصول على (الجوهرة الكبيرة) والابتعاد عن الطريق المستوي الذي يؤدي الى السعادة السهلة وسلوك الطريق الجبلي البدائي الذي يصعد بين هاويتين نحو الحمق المقدس • حمق الاختيار الحر للمستحيل •

المرح ذاته الخالي من المكر يرى في كل منهما : تندفع الضحكة من أعماق القلب الخير ، والفرح الابنة الغالية لروح تفيض بالنعم ، والقدرة على رؤية ملامح الحقيقة اليومية وقبولها بعطف وتفهم • لقد أقام الاسبارطيون المتجهمون مذبحا لاله الضحك •

فلقد كانت الصرامة المطلقة تثير الضحك دائما.هذا وحده ما يمكّن روحا عميقة من تحمل الحياة ••• لقد وهب الله هذين الاخوين قلبين مرحين ، ولأنه فعل ذلك فانهما يرحلان مرحين نحو ذروة مسعاهما ، نحو الله •

الحب الانفعالي ذاته للموسيقى • وما قاله توماس من سيلانو عن أحدهما ينطبق تماما على الآخر : « هناك حاجز رقيق جدا يفصل

الاخ فرانسيس عن الابدية ، ولهذا كان دائما يسمع النغم الالهي ـ عبر هذا الحاجز الدقيق » • وبالاستماع الى هذا النغم كان كل منهما يحس ببهجة قريبة من النشوة : « لو أن الملائكة التي تعزف على الفيول ★ في أحلامي قد جرت أقواسها على الاوتار مرة أخرى فقط لانتزعت روحي نفسها من جسدي • الى هذه الدرجة كانت الغبطة لا تحتمل » • هكذا قال الاول • ولا بد ان الثاني ، وأنا واثق من ذلك ، يحس بالحد الاقصى ذاته من الغبطة عندما يعزف باخ •

كان كل منهما يمسك في قبضته حجر الفيلسوف الذي يحول أحقر المعادن الى ذهب ، والذهب الى جوهر روحي • كانا يأخذان المرض والجوع والبرد والظلم والبشاعة ـ الحقيقة بأرهب وجوهها ـ ويحولانها الى حقيقة ولكن أكثر واقعية حين تهب ريح النفس • لا ليست ريح النفس بل ريح الحب • وفي قلبيهما ، مثل الشمس فوق الامبراطوريات الكبيرة ، لا يغرب الحب أبدا •

★ ★ ★

لكنني تعلمت ذلك كله بعد فوات الاوان ، لم أكن أعرفه في تلك الايام العصيبة في برلين • حين رأيت المعجزة الانسانية في هذه القرية الالزاسية الصغيرة كانت أصابعي قد تلطخت بالحبر • لقد نقلني الحس العميق الى حيث أحول الحياة الى كلمات وتشابيه وأوزان وانحدرت (ما أزال أجهل كيف) الى دافع قلم • ما حدث لي هو بالذات ما كنت أحتقره جدا : أن أسد جوعي بالورق مثل معزاة •

كان رجلا الله المسكينان هذان قادرين على مساعدتي في مجال واحد فقط ، المجال الذي لا يقدر بثمن والمتمثل في التبيان لي ان الانسان قادر على الوصول الى أبعد نقطة في الطريق الذي اختاره وان من واجبه ان يحقق ذلك (ومن يدري لعل المجاهدين كلهم على اختلافهم يلتقون في نهاية الطريق) • وهكذا صارا نموذجين لي ،

★ نوع من الكمان •

مثالين محببين عن الاصرار والصبر والامـل • باركهما الله • لأن هذين البطلين للمأثرة قد علماني انه بالامل وحده فقط نستطيـع تحقيق ما يتجاوز الامل

بتشجيع منهما حاولت أن أقهر طبيعتي ، فتابعت في الطريق الذي أملاه علي حنو ايتكا ونقمتها وكلماتها اللاذعة • لقد قمت بذلك بعضا من الوقت ولست آسفـا • وحـين عـدت الى طريقـي الطبيعي أحسست أن قلبي قد أصبح مترعا بالعذاب الانساني وان الطريق الوحيد لانقاذ النفس هو انقاذ الآخرين • أو الكفاح لانقاذ الآخرين ـ حتى هذا يكفي • وتعلمت أيضا ان العالم حقيقي وليس طيفا وان روح الانسان مكسوة باللحم ـ وليس بالريح كما شرح لي بوذا •

ولكن فيما كنت أجهد لاتخاذ قراري أتذكر ان عقلي قد قاوم مقاومة شديدة • كان ما يزال متلفعا برداء بوذا الاصفر • وكان يظل يقول لقلبي لا طائل مما تنوي القيام به • العالم كما تطلبه ، حيث لا يعاني فيه أحد من الجوع أو البرد أو الظلم ، غـير موجود ولن يوجد . لكنني كنت أسمع قلبي يجيب من أعماقي : على الرغم من انه غير موجود فانه سيوجد لانني أريده ان يوجد • انني أرغب فيه وأريده بكل خفقة من خفقات قلبي • انني أؤمن بعالم غـير موجود ولكن بايماني فيه أخلقه • اننا نسمي كل ما لم نرغب فيه بالقوة الكافية « غير موجود » •

لقد بلبلني جواب قلبي • ان كان كل ما قالـه صحيحا فانه مسؤولية مخيفة يحملها الانسان تجاه ظلم العالم كله وعاره كله !

★ ★ ★

تسارع ايقاع الاحداث قبل ان تمر أيام كثيرة ، وربما لان روحي كانت قد استعدت أخيرا • تتالت الاحداث ، واحدا بعـد الاخر ، تدفعني • في أي وقت آخر كان من الممكن أن أعتبرها مجرد مشاهد ، أما الآن فقد أصبحت لحما من لحمي •

ذات صباح ، وقبل ان ننهض ، سمعنا جلبـة غامضة غير

محددة ، خوارا بعيدا ، كأنما كان في البعيد قطيع من المواشي يساق الى المسلخ وقد أحست الماشية بالاربطة الحمراء على رقابها فبدأت تخور .

قفزت اتيكا من السرير ، ولفت نفسها بمعطفها البالي ، ودون أن تلتفت لتتطلع الي اندفعت تنزل السلالم . كان الخوار يقترب شيئا فشيئا . أسرعت الى النافذة وفتحتها . كانت نتف خفيفة من الثلج تتساقط . لو كانت اليونان لتلامعت الجبال والشواطىء تحت شمس الصباح أما هنا فقد كان الضوء الذي يزحف فوق الاسفلت المغطى بالثلج مريضا وموحلا .

لا شخص ولا كلب . كان الشارع خاليا تماما . ولكن في البعيد ، ومن كل مكان في الجو ، كان هذا الخوار العميق الذي يقترب أكثر فأكثر . انتظرت ، بالتدريج صار الشارع مضاء أكثر . جاء غرابان وحطا على شجرة مغطاة بالجليد دون ان يصدر عنهما أي صوت . كانا ينتظران أيضا .

وبغتة رأيت امرأة طويلة نحيلة بجديلة شعر محلولة في الطرف الاقصى من الشارع . لم تكن تمشي بل كانت تقفز ، وكأنها في رقصة ، وفوق رأسها تخفق راية.سوداء . ووراءها مباشرة ظهر جيش من الرجال والنساء والاطفال يخوض الثلج بتشكيل منظم ، يتقدمه أربعة يشقون الطريق . فاجأهم الضوء الموحل . فلم تعد ترى سوى الوجوه الشاحبة الساخطة التي فيها ثقوب سوداء بدل العيون ، وكأن جيشا لجبا من العميان بجماجم أكلتها الديدان قد نهض من القبور .

صار الضوء أقوى قليلا الآن ، وصرت قادرا على أن أرى بوضوح أكثر . عبر الشارع كان عدد من أصحاب الحوانيت يخرجون مفاتيحهم لفتح حوانيتهم ، ولكن ما ان رأوا الجيش المتوحش حتى أعادوا المفاتيح الى جيوبهم والتصقوا بالجدران . رأتهم المرأة ، فعبرت رصيف المشاة واتجهت اليهم ولوحت بالراية السوداء بقوة فوق رؤوسهم . وشق الاجواء صوت أجش : « نحن جائعون » .

في تلك اللحظة رفعت نظرها باتجاه نافذتي وفتحت فمها • ولتكهني بالكلمات التي كانت على وشك التفوه بها ارتعبت ، ومن دون أن أعي تماما ما كنت أقوله بدأت أصرخ : « هدوءا ! هدوءا ! »

صفقت النافذة وألصقت نفسي بجدار الغرفة ـ كنت مثل أصحاب الحوانيت تماما • وتمتمت وأنا مشتت تماما : « انهم جائعون ••• انهم جائعون ! جيش الجوع ••• »

طوال النهار لم أستطع ـ ولم أجرؤ ـ أن أخرج خوفا من أن ألتقي في طريقي بالمرأة التي تحمل راية الجوع السوداء • ففي حالة كهذه ستكون من السرعة بحيث انها ستلقي الي بالكلمات الموجعة التي لا تطاق • كنت أعرف ما ستكون عليه هذه الكلمات ولهذا كنت أحس بالخوف وبالخجل •

عادت ايتكا قبيل الظهر شاحبة ومتقطعة الانفاس • ألقت بمعطفها البالي على الارض وبدأت تمشي جيئة وذهابا في الغرفة الضيقة • كنت قابعا في الزاوية أنتظر • وكنت قادرا على سماع أنفاسها الثقيلة • التفتت بغتة وأشارت نحوي وزعقت : « أنت الملوم ! أنت ! أنت وكل من هو مثلك : كل من هو حسن النية وحسن التغذية ولا مبال • انك تحتاج الى أن تعرف الجوع والبرد وان ترزق بأبناء جائعين وبردانين ، وان تطلب العمل دون ان يمنح لك ! هذا ما أتوقعه منك وليس هذا التسكع من مدينة الى مدينة لتقف مشدوها أمام المتاحف والكنائس القديمة ولتبكي حين تتطلع الى النجوم لأنها تبدو جميلة ومخيفة جدا • أيها الاحمق المسكين • أخفض نظرك فقط وتطلع الى الطفل الذي يموت عند قدميك ! » •

صمتت لوهلة ثم أضافت : « انك تكتب قصائد • وتتكلم بدورك ـ لديك من الوقاحة ما يسمح لك بأن تتكلم ـ عن الفقر والاضطهاد والجريمة • بتحويل آلامنا الى جمال تخرجها من جسدك • اللعنة على الجمال حين يجعل انسانا ينسى الالم البشري ! » •

سقطت من عينيها دمعتان • اقتربت منها • كنت أريد أن ألمسها وأن أهدئها بوضع يدي على شعرها • لكنها أجفلت ودفعتني

بعيدا عنها ثم صرخت : « أبعد يديك عني ! » ولم تكن النظرة التي وجهتها الي مليئة بالازدراء والاحتقار فقط بل وبالكراهية ·

وصعد الدم الى راسي فصرخت غاضبا : « ماذا تتوقعين مني أن أفعل ؟ ماذا أستطيع أن أفعل ··· دعيني وشأني ! »

ـ لا · لن أدعك وشأنك ! انك تفضل ان أدعك وشأنك · تـود أن تهرب · لكنني لن أفعل · انك لا تستطيع ان تكره · أهذه هي المسألة ؟ طيب · أنا سأعلمك · لا تستطيع ان تقاتل أنا سأعلمك » ·

وطاف بوجهها مشروع ابتسامة · لم تكن ضاحكة بل كانت تشنجات في اللحم غير محتملة · اقتربت مني : « هل تعرف المثـل الشرقي الذي يقول : من يمتطي ظهر النمر لا يستطيع ان يترجل عنه ؟ لقد امتطيت نمرا ـ أنا ـ ولن أدعك تترجل أبدا ! »

فتحت خزانة صغيرة وأخرجت بعض الخبز وقليلا من الزبدة وعددا من التفاحات ، أشعلت طباخ الكاز وأعدت الشاي · ودون أن ننبس بكلمة جلسنا على كرسيين (كل ما في الغرفة) وقربنا الينا طاولة صغيرة وبدأنا نأكل · نظرت الى حاجبيها المرتعشين · كانت ترفع كأسها لتشرب ثم تنسى نفسها ويظل ذراعها معلقا فـي الهواء · كان عقلها في مكان آخر · وكانت فكرة ما تعذبها · رحت أمضغ طعامي وراسي محني وأنا خجل جدا ، وذلك لأنني احسست بتواضع ان هذه المرأة كانت أقوى مني ·

أنهينا وجبتنا · فرفعت رأسها ونظرت الي · كانت عيناها الآن تلتمعان وقد احمرت شفتاها ·

ـ « اعذرني لتحدثي بهذا الاسلوب القذر · ولكنني قد عدت لتوي من جيش الجوع » ·

نهضت واتجهت الى النافذة ثم أغلقت الستائر الممزقة · انسكب ضوء هادىء حنون في الغرفة · دفعت بالطاولة الصغيرة جانبا لتفسح مجالا · ثم اتجهت الـى الاريكـة وردت الاغطية · تبعتها بطرف عيني · حين كانت تفك أزرار بلوزتها التفتت لتتطلع الـي ·

سألتها ضاحكا : هل أنت نعسانة ؟
« لا ! » أجابت • وكان صوتها قد صار غائما : « تعال ! »
في اليوم التالي نهضت قبل الفجر وأعدت بسرعة حقيبتها الصغيرة • جاءت الى الاريكة وأيقظتني • قالت : « أنا ذاهبة » •
ارتعشت : ذاهبة ؟ الى أين ؟ » •
ـ بعيدا • لا تسأل • وداعا • الى اللقاء •
ـ متى ؟

هزت كتفيها • وبمنديل ملفوف بشدة على شعرها انحنت ورفعت حقيبتها الصغيرة ثم تطلعت الي • كانت عيناها الزرقاوان قاسيتين وجافتين وشفتاها المليئتان تبتسمان • قالت : « شكرا على الليالي كلها • لقد أدينا واجبنا تجاه اللحم بكمال • لقد تحقق بوذا وانتهى • نحن طردناه ٠٠٠٠ لم تنظر الي هكذا ؟ هل أنت آسف ؟ »

لم أقل شيئا • لقد استقرت حلاوة مريرة جدا في أحشائي • تلك الليالي والايام كلها امتزجت في داخلي وملأت أحشائي بالمتعة والألم •

وسألتني من جديد : « هل أنت آسف ؟ »
كانت قد وصلت الى الباب ومدت يدها لتفتحه •
أجبت باستفزاز : « نعم • أنا آسف • لقد دمرت لي بوذا ، ان قلبي خاو » •
ضحكت ساخرة : « انك تحتاج الى سيد • أليس كذلك ؟ »

ـ نعم • احتاج • سيد أفضل من الفوضى • بوذا وضع ايقاعا لحياتي : هدفا • لقد لجم الشياطين التي في داخلي • أما الآن ٠٠٠ »

قطبت حاجبيها • لم تعد تضحك • قالت : « يا رفيق » ـ كانت تلك المرة الاولى التي تدعوني فيها رفيقا ـ « لقد أفرغ قلبك ونظف • انه الآن جاهز • هذا ما كنت أريده • انني أؤمن بك ـ لا تهتم لما أقول حين أكون غاضبة • أنت رجل شريف وانسان ليس سهلا • انني أؤمن بك ٠٠٠ »

فكرت قليلا ثم اضافت : « لا · ليس بك بل بشعار عصرنا · اهدأ وستسمعه · وداعا » ·

فتحت الباب وسمعت خطواتها المسرعة وهي تنزل السلالم ·

★ ★ ★

« اهدأ وستسمعه · » رافقتني كلمات ايتكا هذه عدة أيام وعدة ليال · هدأت نفسي ورحت أصغي بانتباه محاولا أن أسمع · حضرت محاضرات يلقيها أصدقاء لروسيا وقرأت كتبهم ومنشوراتهم · وصرت أتجول آخر الليل في أحياء العمال في برلين · رأيت الفقر والعري ، واستمعت الى محادثات بذيئة ، واستنشقت هواء مشبعا بالنقمة · سيطر علي الحزن والعطف في البداية ثم استولى علي الغضب وأخيرا اليقين المرير بأنني أنا نفسي المسؤول ؛ وان اليهودية المضطرمة كانت على حق · الخطأ خطئي · لماذا ؟ لأنني لم أنهض لأصرخ ، لأنني كنت أرى وأشفق ثم أنسى فورا ، لانني كنت استلقي ليلا وأنام في فراش دافىء دون أن أفكر بأولئك الذين ليس فوق رؤوسهم سقف ·

ذات ليلة رأى واحد من تلامذة فرانسيس من أسيسي سيده المرتعش يسير عاريا في عز الشتاء · قال له مستغربا : « لم تسير عاريا في هذا البرد يا أب فرانسيس ؟ » فأجاب : « لأن آلافا فوق آلاف من الاخوة والاخوات بردانون في هذه اللحظة يا أخي · ليست لدي بطانيات لأعطيهم وأدفئهم ولهذا فأنا أشاركهم بردهم » ·

تذكرت كلمات (رجل الله المسكين) ولكن الآن فقط أدركت أن مشاركة الآخرين بردهم لاتكفي · على المرء أن يهتف : « الى الامام جميعا ، كل من هو جائع وكل من هو بردان · هناك كميات لا تحصى من البطانيات · خذوها واستروا عريكم ! »

شيئا فشيئا بدأت أخمّن الاهمية الشاملة والانسانية للتجربة الدموية التي تتم في أرض روسيا الشاسعة وروحها الشاسعة · بدأ عقلي يتسامح ويقبل الشعارات الثورية التي كانت ، فيما مضى ،

تبدو لي غاية في السذاجة والطوباوية • وفيما كنت أتطلع الى الوجوه الجائعة والخدود الغائرة والقبضات المشدودة بدأت أحدس بميزة الانسان القدسية : بايمانه بأسطورة ورغبته فيها وتضميخها بالدم والعرق والدموع (الدموع وحدها لا تكفي ولا الدم وحده ولا العرق) يحول الانسان تلك الاسطورة الى واقع •

خفت • للمرة الاولى أرى كم هو مبدع تدخل الانسان وكم هي عظيمة مسؤوليته • نحن الملامون ان لم يأخذ الواقع الشكل الذي نرغب فيه • كل ما لم نرغب فيه بالقوة الكافية هو الذي نسميه غير موجود • ارغب فيه ، وضمّخه بدمك وعرقك ودموعك وسيتجسد• الواقع ليس أكثر من وهم خاضع لرغبتنا ومعاناتنا •

بدأ قلبي يخفق للجائعين والمضطهدين • لقد نفذ صبرهم ، وبداوا هجومهم • بدا أن دمي الكريتي كله يستشعر الثورة وبدأ يغلي • من جديد رأيت أمامي الحرية والعبودية ـ الخصمين الازليين ـ ونهضت في داخلي كريت وأطلقت صرختها •

أيمكن ان تكون تلك هي (الصرخة) التي أنتظر سماعها ؟ ربما • في اللحظات الحاسمة من حياتي لم يحدث أبدا أن كريت لم تنهض في داخلي وتطلق صرختها •

وذات مساء ، كنت متعبا من مشاهد النهار المرهقة ، انكببت على مكتبي وبدأت أقلب كتابا عن فن عصر النهضة محاولا أن أنسى كل ما رأيته وسمعته وعانيته وأنا أتجول منذ الصباح الباكر • أكثر من الخمرة والحب، أكثر خداعا من الافكار، هي قدرة الفن على اغراء الانسان وجعله ينسى • يحل الفن محل الواجب ، بكفاحه لتحويل الزائل الى أزلي ولتحويل معاناة الانسان الى جمال • ماذا يهم اذا كانت طروادة قد انتهت الى رماد واذا كان بريام وأبناؤه قد قتلوا ؟ بأية طريقة كان العالم سيستفيد ، وكم كانت روح الانسان ستزداد فقرا لو ان طروادة استمرت في الحياة السعيدة ولو ان هوميروس لم يأت لتحويل المذبحة الى أبيات ★ خالدة ؟ تمثال ، بيت

★ ميكسامتر : ابيات ذات ست تفعيلات .

شعر ، مأساة ، لوحة ـ تلك هي النصب التذكارية السامية التي أقامها الانسان على الارض ٠

سامية ولكنها أيضا الاكثر خطرا على المعاناة الانسانية اليومية ٠ الفن يجعلنا نحتقر الاهتمام اليومي الصغير بالطعام وحتى بالعدل ، اننا ننسى ان هذا هو الجذر الذي يغذي الزهرة الخالدة ٠

لقد كان المسيحيون الاوائل على حق في ان يريدوا من فنانيهم ان لا يجعلوا العذراء جميلة في لوحاتهم الدينية ٠ جمالها يغوينا فننسى أنها أم الله ٠

بغتة سمعت نقرة على الباب ٠ فتحته ٠ برقية من موسكو ! قرأتها مرة بعد أخرى وأنا أفرك عيني غير مصدق ٠ قربتها من المصباح وتفحصتها وكأنها تخفي سرا خطيرا كنت أرغب في استجلائه في الضوء قبل أن أتخذ قراري ٠ هذه الورقة الصغيرة يمكن ان تكون رسالة من القدر جاءت لتغير حياتي ٠ هكذا فكرت ٠ لمصلحتي أم ضدها ؟ من ذا الذي يستطيع ان يثق بالقدر ! انه ليس أعمى لكنه يعمي ٠

هل أذهب أم لا ؟ كانت البرقية تدعوني لزيارة موسكو لأمثل المثقفين اليونانيين في الذكرى العاشرة العظيمة للثورة ٠ سيتدفق الحجاج الى مكة الحمراء من أنحاء العالم كافة ٠ من ذا الذي جعل هذه الدعوة ممكنة بذكر اسمي ؟ لم تم اختياري ؟ بعد ثلاثة أيام فهمت ٠ تلقيت رسالة قصيرة من موسكو ٠ كانت دعوة استفزازية من ايتكا :

« سلاما أيها البوذي المزيف يا ذا المعدة الممتلئة ! أيها الارستقراطي ! أيها المعذب الهاوي ! حتى الآن كنت تبحث عن ملامح الله وأنت تتخلى عن اله مزيف لتنتقل الى اله مزيف آخر ٠ تعال هنا ، يا صديقي المسكين ، لكي تعثر على ملامح الله الحقيقي ، ملامح الانسان ٠ تعال اذا كنت راغبا في الخلاص ٠ ما يزال العالم الذي نبنيه مجرد هيكل ٠ فانحن بدورك وأضف حجرا ٠ ابن ٠ ان بوذا جميل ، جميل حقا ـ للحى البيضاء ! »

كان الليل قد حل • نهضت وفتحت النافذة • كان كل شيء في الخارج هادئا • توقف الثلج • ومن جرس برج ما دقت ساعة بحلاوة في الهواء البارد • كانت الاشجار تحتي في الشارع تتلامع وهي مغطاة بالمتدليات الجليدية • وفيما كانت نظرتي تتوه في السديم الليلي تجلت روسيا أمامي شاسعة مكفنة بالبياض وبيوتها الدافئة المضاءة ، وزحافاتها الجليدية تنزلق على الثلج • كان البخار يتصاعد من خياشيم الخيول ، حتى أنني سمعت الاجراس الصغيرة المرحة ترن على أعناقها • وبعيدا على طرف الثلج ، كانت قباب لامعة تتلألأ وهي ليست متوجة بصلبان بل بأعلام حمراء كالحريق • تذكرت راهبا أثينيا نصف مجنون اعتاد ان يقول لي : « كل انسان وكل شيء متوج بعنقود من اللهب • فاذا انطفأ هذا اللهب يفنى الانسان والشيء » • لقد كان محقا • وفكرت ان روسيا أيضا متوجة بعنقود من اللهب • فاذا انطفأ هذا اللهب تفنى روسيا •

أغلقت نافذتي بسرعة كبيرة • لقد قررت أن أرحل الى موسكو •

٢٦ ـ روسيا

تناطح المعجزة الواقع ، تفتح فيه ثغرة وتدخل · حين آن الاوان جمع لينين خرقه وأسماله ، وجمع مخطوطاته في رزمة كبيرة ، وربط كل ممتلكاته الدنيوية في صرة ، وودع صاحب منزله ، الاسكافي السويسري الذي كان قد أجره غرفة في بيته في سويسرا ·

قال المالك وهو يمسك بيد لينين ويتطلع اليه باشفاق : « الى أين تذهب يا فلاديمير اليتش ؟ أي جنون يجعلك ترغب في العودة الى روسيا ؟ ما الذي ستفعله هناك ؟ هل تعتقد انك ستجد غرفة في روسيا ـ أو عملا ؟ خذ بنصيحتي يا فلاديمير اليتش وعش بسلام هنا » ·

أجاب لينين : يجب أن أذهب أنا مضطر ·
ـ مضطر ؟ لماذا ؟
· مضطر · كرر لينين بهدوء ·
ـ لكنك دفعت ايجارك كله والشهر لم ينته بعد · انت تعرف طبعا أنني لن أعيد لك الفرق ·
أجابه لينين : لا يهم · أبق الفرق لك · أنا مضطر للرحيل ·

ورحل · وضع قدمه على الارض الروسية وهو يرتدي قبعته الصغيرة وقميصه النظيف المهترىء وسترته البالية ـ جيش مؤلف من شخص قصير شاحب وأعزل · وكان يقف ضده الارض الروسية

الشاسعة والموجيك الاشرار والارستقراطيون المعربدون والكهنوت ذو القوة الطاغية ، والحصون والقصور والسجون والبراكات والقوانين القديمة والاخلاق القديمة والسوط ، الامبراطورية الرهيبة المدججة بالسلاح . هناك وقف بقبعته الصغيرة ، وبعينيه المنغوليتين الدقيقتين اللتين تحدقان بثبات في الجو بينما كان في داخله شيطان يرقص ويصفر وهو يصر بأسنانه ويتكلم : « هذا كله لك يا فلاديمير اليتش . انني أهبك اياه مجانا . يكفي ان تقول عبارة واحدة . قل العبارة السحرية التي كنت أمليها عليك طوال تلك السنين الطويلة : « يا عمال العالم اتحدوا ! » قلها وعندها فان القياصرة والقسس ذوي اللحى العنزية والجدائل الذهبية والكروش المتخمة والانيقة، بنفخة واحدة سيتساقطون على أقفيتهم. امش على جثثهم يا فلاديمير اليتش . الى الامام يا فتى ، دس على جثثهم واصعد .ركز العلم الاحمر على الكرملين . حطم جماجمهم بالمطرقة واقطع أعناقهم بالمنجل ! »

وراح لينين يسأل وهو يصغي الى شيطانه الداخلي بقبضتين مشدودتين ، « من أنت ؟ قل لي اسمك . أريد أن أعرف من أنت » .

« أنا المعجزة » . أجاب الشيطان ونطح روسيا بقرنيه .

قلة هم الذين استطاعوا حتى الآن ان ينظروا الى روسيا بعيون نزيهة صافية وكانوا عاجزين عن رؤية ملامحها متعددة الوجوه ذات الظلال والاضواء الوفيرة كونا موحدا . ان هناك هوة كبيرة تفصل الروح السلافية عن الروح الغربية . الروسي قادر على التأليف بين المتناقضات الداخلية التي هي بالنسبة للعقلية الاوربية غير متجانسة . يضع الاوربي الاستدلال المنطقي فوق كل اعتبار ، الاستدلال الواضح والخاضع لمقياس عقلي من القيم . الروسي يضع الروح فوق كل شيء آخر ، القوة القاتمة الغنية المتناقضة المعقدة التي تدفع بالانسان خارج حدود العقل الى العاطفة العنيفة اللامسؤولة . لم تتجسد فيه بعد القوى العمياء الخلاقة في تسلسل عقلي . ما يزال الروسي ملتصقا بالارض بقوة ، انه مليء بالارض وبالعتمة المولدة للعالم .

تأملت وجه لينين ، كان هذا الوجه مليئا بالضوء واللهب ،

رأيت أمامي العجينة المعتمة ـ الموجيك ـ التي تعهد هذا العقل العنيد ان يجبلها · كنت تواقا بعنف متعاظم لأن أرى العدوين والحليفين الاصيلين الحقودين ، الروح والمادة ، يتصارعان داخل حلبة الكرملين الدموية المغلقة ·

كان الثلج يهطل بكثافة ويغطي السهل المحروث كله · تحت الثلج كان القمح المبذور يتغذى · وكان الفلاحون الروس ـ الموجيك ـ يتحركون بهدوء ، دون تعجل وكأنهم خالدون · بين حين وآخر كان غراب حالك السواد يرفرف عابرا متجها الى مسكن البشر لكي يأكل ·

انتظرت القطار عدة ساعات وأنا محاط بوجوه مغولية في المحطة ، وبعيون مائلة ولحى معبأة بقشور بذور البطيخ ، وببصارتين تفرشان ورقهما وموجيك عجوز يصب الشاي في صحن صغير ويشرقه بصوت راعد وباستمتاع حيواني وأمهات صينيات متلفعات بلحف قذرة ، وأبناؤهن مربوطون على ظهورهم أو متدلون عند أعناقهن كالكنغر ـ حشد انساني دافىء كان يتعرق ويعبق · كان للهواء في كل مكان رائحة اصطبل ، ربما مثل اصطبل بيت لحم ·

انتصف النهار وبدأ المساء يهبط ونحن ننتظر · كانت الوجوه من حولي وقورة ومسالمة · لم يخرج أحد ليرى ان كان القطار آتيا أم لا · كان كل انسان ينتظر واثقا من أن القطار سيظهر دون شك اليوم أو غدا · لم يكونوا يحسبون الساعات بساعا تاليد · كانوا يعرفون ان الزمن رجل نبيل ، دوق عظيم ، وكانوا يخافون من معارضته ·

قبيل الفجر سمعنا صفير القطار من بعد · نهض الناس كلهم وجمعوا صررهم ، ومرة أخرى دون تعجل · عجوز كان متمددا الى جانبي وهو يشخر طوال الليل ، تطلع الي الآن وغمز باحساس بالانتصار وكأنه يقول : حسن يا عجوزي الصغير كم كان سخيفا منك ان تستثار لأن القطار لم يأت وان تتذمر ولا يغمض لك جفن طوال الليل · انظر · ها هوذا · لقد جاء ·

الثلج من جديد · قرى صغيرة ، كنائس صغيرة بقباب خضراء

محدبة ، ودخان عديم الحركة فوق الاسطحة · المزيد من الغربان ، سماء تنخفض ، ثلج · تطلعت وتطلعت ، عيناي تعودتا على العمق الازرق البعيد مثل عيون كل الذين يعيشون في سهول فسيحة · تطلعت وبغتة ظهرت قباب لامعة مدورة في الافق البعيد باهتة أمام السماء الشهباء ·

كان الوقت قبيل الظهر ، أخيرا نحن نقترب ، ونصل الى القدس الجديدة للاله الجديد ، العامل ، في قلب روسيا – وربما قلب عالم اليوم · موسكو !

كانت اتيكا تنتظرني في المحطة · وحين رأتني ضحكت : « لقد وقعت في الفخ · ولكن لا تخف · انها مصيدة كبيرة ، مهما مشيت فيها لن تصل الى قضبانها · وهذا هو معنى ان تكون حرا · أهلا ! » ·

★ ★ ★

كنت أتجول من الفجر الى المغيب وأنا أحدق بعينين نهمتين الى هذه الهيولى متعددة الالوان متعددة الاصول – موسكو · كان الشرق كله منسكبا على الثلج · الباعة الاناضوليون يرتدون العمائم الثقيلة · صينيون ببشرات جلدية أشبه ببشرات القرود يبيعون أحزمة من جلود الثيران ولعبا صغيرة من الخشب والورق · كل انش من رصيف المشاة يحتله رجال ونساء يبيعون بصخب شديد فاكهة وسمكا مدخنا وصدريات أطفال وطيورا مرسومة وتماثيل للينين · الصبايا يعلقن صحفا ، والسجائر في أفواههن ، العاملات يعبرن وعلى رؤوسهن مناديل حمراء ، نساء بدينات خشنات بوجنات وعيون مغولية · أطفال نصف عراة يعتمرون قبعات مقببة من الاستراخان ★ · مشلولون يجرون أنفسهم على الارصفة بأيد ممدودة وهم يزحفون أمام كل عابر · فلاحون يمرون حاملين جلود بقر برتقالية اللون ولحاهم كثيفة متلبدة كالذرة ، والهواء من حولهم عابق كأنما يمر قطيع من البقر ·

★ فرو الحملان الصغيرة .

كنائس بقباب خضراء لامعة · ناطحات سحاب · « يا عمال العالم اتحدوا » مكتوبة على الشوارع والكنائس والحافلات ، وبخط أحمر على جدران كنيسة كبيرة : « الدين أفيون الشعوب » · وقبيل المساء وفوق كل هذه الضجة الفوضوية ، تقرع الاجراس الروسية بغتة بعذوبة فائقة ، أجراس صلاة المساء التي تصر على البقاء حية ···· فوضى - هذا أول انطباع يخرج به المرء عن موسكو ·

الانطباع الثاني هو الرهبة · لا تستطيع أن ترى في أية مدينة أخرى من العالم هذه الوجوه القاسية المصممة النكدة ، والعيون المتألقة ، والشفاه المشدودة والنشاط المتوتر العنيف · تحس وكأنك قد انتقلت الى مدينة قروسطية ★ كئيبة مليئة بالابراج والشرفات المفرجة حيث الفرسان يرتدون دروعهم وراء أبواب مترسة بينما العدو يقترب · الجو مشحون باستعداد وحشي للحرب · خطر كبير وامل كبير معلق فوق كل راس ·· : شيء ما يكمن في الجو هنا ويولد الخوف · ملائكة نارية في كل العيون وسيف معلق على أبراج الكرملين مثل كمير ★★ من العصور الوسطى فوق برج قوطي يراقب بعين يقظة من فوق موسكو بآلاف العيون وآلاف السيوف ·

بغتة اندفعت ثلة من الجنود الحمر في الشارع قادمة من زاوية منعطف بوجوههم القاسية الجذلة · اهتز الرصيف وتسابق المشاة ليخلوا الطريق · امرأة صغيرة بدينة تحمل سلة من التفاح زعقت من الخوف وتساقطت التفاحات وتدحرجت على الارض حمراء براقة · كان الجنود يسيرون بخطى ثقيلة وكانوا يعتمرون القبعات المنغولية المحدبة ويلبسون معاطف شهباء تصل الى أقدامهم · كان الضابط الذي يسير في المقدمة أول من بدأ الغناء · رايته حين مر من أمامي · كان فمه في تشنج المصروع ، وقد انتفخت أوداجه حتى الانفجار والعرق يتصبب على خديه · ظل يغني وحده بعضا من الوقت ، وكان يبدو وهو يسير كانما كان يرقص ، الى هذه الدرجة من النشوة المنفلتة كان ايقاع جسده · كان يغني وحده وبغتة تلقف

★ من القرون الوسطى ·

★★ الكمير : كائن خرافي له راس اسد وجسم شاة وذنب افعى ·

الجنود الاغنية ، وتفجر الشارع المتجلد في كل مكان باللهب وترددت الاصداء كأنما في ميدان معركة • ومرت رعشة خفيفة في ظهري • حقيقة المستقبل – من يدري ؟ اخترقتني مثل ومضة البرق • لقد ظهر الروس في مدينة كبيرة ، لندن أو باريس ، وبدأوا ينهبونها • أي الوحوش أكثرها تعطشا للدم وشرها للحم ؟ الايمان الجديد • وأيها أكثرها عشبية ؟ الايمان الذي صار قديما • لقد دخلنا الآن بين شدقي الايمان الجديد •

في ذلك المساء التقيت بأكثر شعراء الموجيك غموضا وشهوانية، نيكولاي كيلويف • لحية شقراء خفيفة ، وخط شعر متراجع ، لا بد انه في الاربعين لكنه يبدو في السبعين من عمره • كان صوته هادئا مريحا •

قال لي بكبرياء خفية : « أنا لست واحدا من أولئك الروس الذين يشغلون أنفسهم بالسياسة والمدافع ، أنا جزء من العرق الذهبي الذي يصنع الايقونات والخرافات • ان روسيا الحقيقية تعتمد علينا » •

توقف وبدا عليه انه أسف لتحدثه بهذه الصراحة • لكن كبرياءه الداخلية قد نقلته بعيدا • ولعجزه عن ضبط نفسه تابع : « ان الثيران والدببة لا تستطيع ان تحطم باب القدر ولكن قلب حمامة يستطيع ذلك » •

ملأ كأسه بالفودكا وبدأ يشرب ، رشفه وهو يفرقع لسانه مستطيبا • ومرة أخرى أسف لكلماته • أغمض عينيه نصف اغماضة ونظر الي ثم قال : « لا تستمع لما أقول • أنا لا أعرف عم أتحدث • انني شاعــر • »

★ ★ ★

مساء اليوم العظيم ، كانت الثورة الروسيةة تحتفل بميلادها المثير • لقد جاء حجاج بيض وسود وصفر من أنحاء العالم كافة • في العصور القديمة كانت شعوب الشرق السمراء تنزل بطريقة مشابهة

الى مكة ، وكانت الشعوب الصفراء تجتمع بطريقة متشابهة في بيناريس في حشود صامتة كالنمال · لقد انتقلت مراكز الارض · العيون كلها ، عيون الاعداء والاصدقاء ، راضية أم مكرهة ، وبحب أو ببغضاء ، مثبتة ، اليوم ، على موسكو ·

في وسط الساحة الحمراء كان (الضريح المقدس) في القدس الجديدة مغطى بالثلج · كان آلاف الحجاج في أرتال رباعية مزدحمة ينتظرون أن يفتح الباب الصغير · رجال ونساء وأطفال ، جاؤوا من أطراف الارض ليروا القيصر الاحمر الذي يستلقي حيا تماما تحت الارض وليقدموا له فروض الاحترام · ولقد جئت معهم · لم يكن أحد يتكلم · انتظرنا ساعات في الثلج والبرد وعيوننا معلقة على (الضريح المقدس) وبغتة تحرك هيكل ضخم لرجل أمام الباب الصغير ، لقد فتح الحرس الاحمر باب القبر ·

ببطء ، ودون كلام كان الحشد ، كل أربعة معا ، يدخل من المدخل الاسود ويغيب . غبت معهم · ورحنا ننزل تدريجيا في الارض · الجو مثقل بأنفاس الناس ورائحتهم · وبغتة تألق الوجهان الاسمران البليدان للفلاحين اللذين كانا يسبقانني وكأنما فاجأتهما شمس خفية · مددت عنقي · بعيدا ، في الاسفل ، صار من الممكن رؤية الزجاج الكبير الذي يغطي الجثة المقدسة ، وتحته كان يلتمع رأس لينين الاصلع الشاحب ··

كان يتمدد حيا تماما في سترته العمالية الرمادية مغطى من خصره وما تحت بعلم أحمر ، قبضته اليمنى مطبقة واليسرى مفتوحة فوق صدره · كان وجهه ورديا وباسما ولحيته القصيرة شقراء متوهجة · وكانت مسحة من الصفاء تملأ القفص الزجاجي المحمى · كانت الجماهير الروسية تحملق منتشية ، بالنظرة المتفحصة التي كانوا يتطلعون بها قبل سنوات قليلة الى الوجه الوردي الاشقر ليسوع على شاشات الصلب المذهبة · لقد كان هذا الرجل أيضا مسيحا ، مسيحا أحمر · الجوهر واحد : جوهر البشر الخالد ، المصنوع من الامل والخوف · لم يتغير الا الاسماء ·

خرجت الى الساحة المغطاة بالثلج مستغرقا في التفكير · كنت

أفكر وأنا مليء بالاعجاب ، كم كافح هذا الرجل !! وكم تحمل في منفاه ـ الفقر والخيانات والافتراء ـ وكم من المرات تخلى عنه أقرب أصدقائه وقد أخافهم ايمانه وعناده • داخل ذلك الرأس الاصلع الذي رأيته ، تحت ، في القفص الزجاجي ، وخلف تينك العينين الصغيرتين ، المطفأتين الآن ، كانت روسيا ، بقراها ومدنها وسهولها الفسيحة التي لا تحد وبأنهارها العريضة البطيئة وسهوبها القطبية القفراء ، تصرخ وتطالب بالحرية •

ولأنه كان روح روسيا الاقوى ، وبالتالي ، الاكثر مسؤولية آمن انها كانت تناديه وتلقي عليه مسؤولية تخليصها • لماذا اذن صنعت هذه الروح القوية من كفاحاتها ودمائها ودموعها ان لم يكن لكي تلزمها بهذه المهمة المصيرية الرهيبة ؟•

بينما كنت أتمشى جيئة وذهابا في الساحة الحمراء ، وأنا أفكر ، كانت ايتكا ، التي عينت دليلا لي ، مستمرة في التحدث الي وأنا أعجب لشبابها وايمانها • وفيما كانت تتكلم كان جسدها كله يلتهب تماما مثل قديسي الغريكو •

قالت محتجة : « لا تسألني عن لينين • ماذا أستطيع أن أقول ؟ ومن أين أبدأ ؟ لم يعد رجلا • انه شعار • لقد فقد صفاته البشرية وصار أسطورة • الاطفال الذين ولدوا في السنوات الثورية يسمون أبناء لينين• والعجوز الغامض الذي يأتي في عيد رأس السنة محملا بالهدايا التي يوزعها على الاطفال لم يعد القديس نيكولاس ولا القديس باسيل • انه لينين • الفلاحون ـ الموجيك ـ والنساء العجائز الصغيرات بين الجماهير ، كلهم ، يحتاجون الى روح قدس مواسية وحامية ، فوق طبيعية ، النساء يعلقن هيكل لينين المقدس على الفاصل الايقوني الجديد ويشعلن الشموع له • وفي القرى في أقاصي روسيا ، في كل مكان من المحيط القطبي الى المستوطنات المدارية في آسيا الوسطى ، يقضي الشعب البسيط ـ الصيادون والفلاحون والرعاة ـ لياليهم ينحتون صورة لينين وهم يتحدثون ويضحكون ويتنهدون • تكسوه النساء بكافة أنواع الحرير بينما ينجره الرجال

من الخشب ، ويرسم الاطفال صورته على الجدران بقطع من أقلام الفحم • ذات مرة جاءته صورة له من قرية صغيرة في أوكرانيا ـ موزاييك من حبوب القمح مع شفتين من الفلفل الاحمر •

« لقد صار لينين شعارا لنا جميعا ، مثقفين وجهلة • بالنسبة لنا لا يقف الرجل العظيم ليطل من فوق الجماهير التي ولدته ، انه يخرج من أحشاء الجماهير مع فارق وحيد هو ان ما تهتف به الجماهير بشكل غير واضح يصوغه هو في رسالة متكاملة • وفي اللحظة التي تصاغ فيها هذه الرسالة لا تعود هنـاك أيـة امكانيـة لتبديدها وتضييعها • تصبح شعارا • والشعار يعني العمل »

ـ « وماذا عن ستالين ؟ » سألتها وانا تواق لأن أسمع عـن الشخص الوحشي المشورب ذي الجسد الصلب البليد ، والعينـين الداهيتين والملامح المدروسة الزريّة • مـن أي جنس من الغيلان المقدسة كان ستالين ؟

ظلت ايتكا صامتة للحظة وكانها تحسب كلماتها لئلا تهرب منها كلمة فائضة.تستطيع ان تحس انها قد دخلت منطقة محرمة • وأخيرا وجدت ما تقوله فتكلمت :

« لينين هو الضوء وتروتسكي هـو اللهـب لكـن ستالين هو التراب ، الارض الروسية الثقيلة • لقد تلقى البذرة ، حبة مـن القمح • الآن ومهما حدث ، ومهما كانت كمية المطر أو الثلج ، ومهما قل المطر أو الثلج ، فانه سوف يظل ممسكا بالبذرة ، لن يتخلى عنها الى ان يتمكن في النهاية من تحويلها الى سنبلة من القمح • انه صبور وعنيد ولديه قدرة لا تصدق على الاحتمال • سأحكي لك حادثة واحدة جرت أيام شبابه حين كان عاملا في تيفليس وستفهم ما أعنيه •

« في تلك الايام ـ انها تبدو لنا مثل خرافة ـ كان كبار الدوقات ، ★ حـين يسكـرون ، يصفـون الموجيـك في حـدائقهم ويستخدمونهم

★ جمـع دوق وهو النبيل .

دريئات . لكن العمال كانوا قد بدأوا ينظمـون أنفسهـم ، وكان البوليس القيصري يقوم باعتقال قادة الطبقة العاملة في فترات متقطعة ، ويسجنهم أو ينفيهم الى سيبريا أو يقتلهم . ذات يوم قام العمال الذين يفرغون الشاحنات باعلان الاضراب في تيفليس وقالوا : اما ان تحسنوا شروط معيشتنا بحيث نستطيع ان نعيش بشرا واما ان نتوقف عن العمل . ونزل اليهم البوليس واعتقل منهم قرابـة خمسـين شخصا وصفّهم فـي حقـل تيفليس ، واصطف جنود القيصر وكل منهم يمسك بسوط مزود بمسامير » .

« كان العمال ، واحدا بعد الآخر ، يعرون ظهورهم ويمرون أمام صف الجنود بينما يضرب كل جندي بالسوط بأقصى ما يستطيع من قوة . كان الدم يتفجر وكان الألم أقسى من أن يحتمل . كثيرون عجزوا عن المرور أمام صف الجنود كله فتهالكوا . بعضهم مات » .

« وجاء دور زعيم العمال . خلع قميصه وعرى ظهره ولكن قبل ان يبدأ نوبته انحنى الى الارض وقطف ورقة من العشب الطري وضعها بين أسنانه . ثم تقدم ليمر اما صف الجنود بطيئا ولكـن منتصبا . وراحت السياط تنزل عليه بجنون ، وتدفق الدم من جروحه لكنه لم يفتح فمه ولم يصـدر عنـه أي صـوت . وصمـم الجنود الساخطون على القضاء عليه . كان كل منهم يضربه ضربتين أو ثلاث ضربات . ولكن لم يصدر عنه أي صوت . مر أمام الصف كله دون أن ينحني أو يئن حين وصل الى آخر الجنود اخرج ورقة العشب من بين أسنانه وأعطاها للجندي . وقال له : خذ هذه لتتذكرني بها . انظر . انني حتى لم أعضض عليها . اسمي ستالين » .

تطلعت ايتكا الي وابتسمت :

« ان كل روسي يمسك بورقة العشب الخضراء بين أسنانه منذ سنوات ويجهد ان لا يعضها ... هل تفهم الآن ؟ »

« نعم » أجبتها مرتعشا : « الحياة عنيفة ، عنيفة جدا »

وقالت ايتكا : « ولكن الروح الانسانية ما تزال أكثر عنفا » . وضغطت على ذراعي وكأنها تريد ان تشجعني .

رفعت راسي عاليا وانا استمع الى كلمات ايتكا الحارة ٠ واحسست كأن الانفاس البعيدة العنيفة للسهوب تهب من فوقي ٠ ريح شرقية مليئة بالدمار والخلق جعلت عقلي في دوامة ٠

كان ما أثر في أكثر من غيره وبدرجة متزايدة كل يوم هو : انني في حياتي كلها لم يسبق لي أن رأيت اللامرئي مرئيا كما هو هنا في روسيا الصاخبة وعلى سهولها المغطاة بالثلوج ٠ وحين أقول (اللامرئي) لا أعني أية نسخة كهنوتية عن الله ، أو الوعي الميتافيزيقي أو الكائن المكتمل تماما بل أعني القوة السرية التي تستخدم الناس ـ وقد استخدمت الحيوانات والنباتات والمعادن قبلنا ـ كحاملين لها وبهائم للأعباء ، والتي تسرع الخطى وكأن لها هدفا وكأنها تسلك طريقا محددا ٠ تحس هنا بأنك محاط بالقوى العمياء التي تخلق البصر والضوء ٠

فيما وراء كل عقلنة ، وفيما وراء المشاحنة المتعلمة ، والحاجات الاقتصادية والبرامج السياسية ، وفوق السوفيتيات والمفوضين ، انها روح عصرنا التي تعمل وتوجه هنا ، الروح الكئيبة السكرى القاسية لعصرنا ٠ والجميع ، من الموجيك البهيمي الى شخصية لينين القدسية ، هم المتعاونون معها بوعي أو بلا وعي ٠ هذه الروح أسمى من البرامج وأسمى من القادة وأسمى من روسيا ٠ انها تهب فوقهم وتخليهم وراءها وتحرك العالم ٠

حين أتيت الى هذا المختبر الرهيب ، طرحت أسئلة فلسفية على المؤمنين الذين كانوا يبنون روسيا الجديدة ٠ كنت ما أزال محكوما بالاهتمامات المتكلفة والعبثية لابن المدينة الذي أكل حتى الشبع ولديه الفراغ للمناقشة واللعب ٠ لم أكن أرى العالم الملموس : كنت أريد رؤية العالم اللامرئي ٠ ومن الواضح انني كنت قادما من مروج بوذا المغطاة بالنرجس الاصفر ٠

يحكى ان سقراط العجوز كان يتمشى ذات صباح في الاغورا ★ منتظرا أول شاب يأتي لكي يوقفه ويشغله في محادثة ويحرك روحه ٠

★ اسم الساحة العامة في المدن الاغريقية ٠

ولكن في ذلك الصباح رأى ، بدلا من الشاب ، حكيما هنديا عجوزا يظهر له من الشرق . كان هذا الحكيم قد سار على قدميه منذ سنوات لكي يرى سقراط . وفي اللحظة التي رآه فيها ألقى بنفسه على قدميه وأمسك بركبتيه وقال : « بوذا ! أيها الحكيم المرسل من الدنيا ، يا قاهر الحياة والمسوخية ، المسيطر على الآلهة ، أيها الفيل الابيض الذي يخطو ويمزق الغرور المغوي الصلف اربا ، أيها الجسد خارج حدود العين والاذن ، وخارج حدود الشم والتذوق واللمس أمِلْ طاس الصدقات الذي تمسك به واسفحني مثل قطرة في بحر اللاوجود . مد يدك يا سيدي ودلني على طريق المصيبة الازلية » .

وأخفى سقراط ، بأدب ، الابتسامة الساخرة التي بعثتها هذه الكلمات الهمجية وأجابه : « أيها الغريب ، اذا كنت قد فهمتك بشكل صحيح فانك تتحدث عن الآلهة والخلود . سآخذك الى صديق لي ، الهيرفنت ★★ اليوزيس . انه يعرف كيف انوجد العالم ومن أين جئنا والى أين نذهب ويعرف ان النجوم أكبر من بيلوبونيزوس ويعرف اضافة الى ذلك ان الله بيضة تلتمع في ايريبوس وسوف يعلمك تعويذة السرو الابيض ... أما أنا فيؤسفني انني اشغل نفسي بهذا العالم وبالانسان فقط » .

وخطر لي كم كان ستالين سيضحك لو انني دخلت الى الكرملين في اليوم التالي وطرحت عليه أسئلة الهندي العجوز .

★ ★ ★

الفجر . أنحني على نافذتي . كواكب غريبة – مطارق ومناجل ونجوم حمراء – تومض كالفسفور في الفجر المعتم ببصيلاتها الضوئية متعددة الالوان.أجاهد لتمييز حروف الكتابات الحمراء التي تطوق الشوارع . يتزايد الضوء تدريجيا فاتهجى : « عمال ... سبع ساعات ... ليتين .... الثورة العالمية ... » ارتدي ملابسي بسرعة والتقي بشعوب الارض كلها في أروقة الفندق وانا انزل

★★ الهيرفنت : كاهن اغريقي قديم .

من طابق الى طابق ـ حشد من العمال المدعوين ، يدويين وفكريين . أنحني كثيرا عند لقائي بالكتاب اليابانيين ، والوفود من فارس وأفغانستان ، حاجين من الجزيرة العربية ، ثلاثة طلاب جامعة هنود وهنديتين فاتنتين بشالين كشميريين برتقاليي اللون . في الطابق الاول تبادلت التحيات مع مغوليين عملاقين وثلاثة جنرالات صينيين صغيرين في غاية التهذيب أحس في كلماتهم وعيونهم هياج آسيا الخطر المضطرم .

نسرع للوصول في الوقت المناسب لبدء الاحتفال . برد شديد وسماء رمادية وبخار يتصاعد من الافواه والانوف . كانت الساحة الحمراء قد امتلأت . مسؤولو الحكومة يقفون في صف فوق ضريح لينين المقدس وبمواجهتهم يجلس المدعوون من كافة أنحاء العالم على مقاعد مرتبة بشكل مدرج في صفوف متصاعدة . الوحدات العسكرية في صفوف منظمة ثابتة ، والجماهير وراءها تثير ضجة كثيفة مكتومة مثل هزة أرضية بعيدة تحت الارض . الارض تهتز تحت أقدامنا . وفي الخلفية كاتدرائية ايفان الرهيب الرائعة بقبابها العديدة وألوانها الكثيرة بارزة مثل شبح في ضباب الصباح .

الجنرالات الصينيون الصغار متراصون حولي والاوسمة على صدورهم ، وكذلك بعض الرجال والنساء الهنود والمثقفون اليابانيون وزنجي ذو حجم جدار وحلقة ذهبية في أذنه . يتطلع كل منا الى الآخر بلطف ، نبتسم ونعبر عن انفعالنا بصمت وسرية . يشد شاعر ياباني على يدي . لا أعرف الا كلمة يابانية واحدة هي « كوكورو » وتعني « القلب » ولذا أضع يدي على قلبي وأميل على أذنه وأقول : « كوكو رو » يطلق على أثرها صرخة فرح ويرتمي بين ذراعي .

بغتة ـ أبواق عسكرية . نقفز على أقدامنا بوجوه مشرقة . وحدات فرسان شركس وقوقاز ومغول وقلموق ★ تمر أمامنا ، القائد في المقدمة بسيف مسلول ومشرع والفرسان يتبعونه بأزيائهم

★ قبائل القلموق المغولية القاطنة في المنطقة الممتدة بين غربي الصين ووادي نهر الفولغا الادنى ـ المورد .

الوطنية وهم يحملون الرماح والرايات • يحيون ضريح لينين ويختفون •وتتتالى في موجات متلاحقة وحدات المشاة والمدفعية وبحارة البلطيق والبحر الاسود والقوى الجوية وحرس موسكو والمنظمات الحزبية والعمال بستراتهم الجلدية وبنادقهم القصيرة والعاملات بمناديلهن الحمراء والبنادق على أكتافهن • ثم العرض الشعبي المذهل اللامتناهي • ثلاثة أنهار حمراء بطيئة الحركة تتدفق من الاتجاهات الثلاثة للساحة الجبارة . مر الطلاب ثم الطلائع ، فالشبيبة الشيوعية فالفلاحون ، الآسيويون على الجمال والصينيون على تنين قماشي هائل يفتح شدقيه ويغلقهما • وعلى عربة ذات منصة كرة ضخمة مربوطة بسلاسل وطفل يضرب السلاسل بمطرقة ويحطمها ، وبعدها سلسلة من العربات ذات المنصة وعليها محاربون قدماء عجزة يلوحون بعكازاتهم في الهواء ويهتفون • وتمر الامهات حاملات أطفالهن ، وتمر الساعات •• وبغتة تخترق الشمس الضباب وتشرق الوجوه الغفيرة وتلتمع العيون وتهتز الساحة كلها بالهتافات وبخطى المشاة الثقيلة • وتنتزع الهنديتان أمامي شاليهما البرتقاليين وتلقيان بهما في الهواء •

أتطلع حولي • كل انسان يبكي • أتطلع مرة أخرى ولا أرى شيئا ، عيناي غائمتان بالدموع مثل البقية • أسقط على الجنرال الصيني النحيل الذي بجانبي وأشده بأقوى ما أستطيع ونبكي معا • يندفع الزنجي الى الامام ويحتضننا معا بين ذراعيه • انه يبكي أيضا ويضحك • كم من الساعات دامت هذه النشوة الالهية ؟ كم من القرون ؟ كان هذا هو ثاني يوم عظيم في حياتي وأعلاها شأنا • فالأول هو اليوم الذي وضع فيه الامير جورج اليوناني قدمه على الارض الكريتية . وفيما كنت أشد على الجنرال الصيني بين ذراعي والزنجي يشد علينا معا أحسست ان الحدود تتهاوى وان الاسماء والبلدان والاعراق تزول • كان الانسان ببكائه وضحكه وعناقه يتوحد بالانسان الاخر • لقد نورت عقولهم ومضة برق فرأوا : ان البشر كلهم أخوة !

أنا الآخر أحسست ان قلبي ينادي ، مثل أرض روسيا الشاسعة • وأقسمت على ان حياتي ستأخذ أخيرا بوحدة الهدف وانني سوف أحرر نفسي من الاشكال العديدة للعبودية وأن انتصر

على الخوف والكذب وأساعد الاخرين على ان يحرروا أنفسهم من الخوف والكذب . لقد مارس البشر الظلم بما فيه الكفاية ولن أتسامح معه بعد الآن . يجب أن نقدم الهواء النظيف والالعاب والتعليم لأطفال الارض جميعا ، والحرية والحب للنساء ، والود واللطف للرجال ، وحبة من القمح لهذه الفرس المنهكة التي تهز ذيلها : قلب الانسان .

قلت لنفسي ان هذا هو صوت روسيا وأقسمت على أن أتبعه حتى الموت .

أيها العاشق . نقد كنت أعني ما أقول : كنت مصمما على التخلي عن حياتي . فهمت لأول مرة أي فرح لا بد أن يشعر به أولئك الذين يرجمون أو يحرقون أو يصلبون لأجل فكرة . كانت تلك أول مرة أمارس فيها معنى الاخوة بهذا العمق ، ومعنى ان « البشر كلهم واحد » . وأدركت ان هناك هبة أسمى من الحياة وقوة تقهر الموت .

★ ★ ★

كنت أعرف بمحن حياة بانيت استراتي البطولية وكنت قد قرأت قصصه المليئة بالسحر الشرقي لكنني لم أكن قد رأيته من قبل . ذات يوم تلقيت ورقة مجعدة ملطخة عليها حروف كبيرة مكتوبة بسرعة : « تعال لتراني . كان أبي يونانيا وأمي رومانية . أنا بانيت استراتي » .

دققت باب غرفته في فندق الانتقال في موسكو وكنت مسرورا فعلا لامكانية رؤية الرجل الذي كان قد عرف معنى النضال . لقد تغلبت على الشك الذي يعتريني في كل مرة أواجه فيها مسألة التعرف بشخص جديد وذهبت الى هذا الرجل ، الى استراتي ، مليئا بالثقة . كان مستلقيا في فراش المرض . وفي اللحظة التي رآني فيها جلس وصاح باليونانية مرحا : « جميل أن أراك ، قسما بالله جميل أن أراك ! »

الصلة الداخلية ، الصلة الوثيقة ، صلة حارة . تطلع كل منا الآخر وكأنه يحاول ان يتلهى بشيء ما – مثل نملتين تتلامسان

بلوامسهما . كان وجه استراتي المجهد نحيلا مغضنا وشعره الاشيب اللامع يتدلى مشعثا على جبينه مثل شعر طفل . وكانت عيناه تلتمعان مليئتين بالخبث والعذوبة ، وشفته مدلاة بشهوانية .

قال لي : « لقد قرأت الخطاب الذي ألقيته في المؤتمر ذلك اليوم وأحببته . لقد وضعتها عندهم ، عند أولئك الغربيين الحمقى . يظنون أنهم سيمنعون الحرب بالقلة من حملة أقلامهم المسالمين ! أو اذا ما نشبت الحرب فانهم يظنون ان العمال سيثورون ويلقون بأسلحتهم . يا للحمق . أنا أعرف العمال معرفة جيدة . سيجرون أنفسهم الى المجزرة من جديد ويبدأون القتل . نعم . لقد وضعتها عندهم بشكل ممتاز كما أقول لك . ان حربا عالمية أخرى ستنشب أردنا ذلك أم لم نرد ولذا فان علينا أن نستعد ! »

تطلع الى عيني مباشرة ومد يده النحيلة وشد على ركبتي . وقال لي ضاحكا :

« قالوا لي انك من المفترض ان تكون متصوفا لكنني أستطيع أن أرى أنك تمتلك عينا ثاقبة مفتوحة وان صدرك ليس مليئا بالهواء النقي وحده . هذا ما يعنيه كون المرء صوفيا أليس كذلك ؟ المهم . ماذا أعرف عن الامر ؟ كلمات . كلمات . أعطني يدك » .

تماسكنا بالايدي ونحن نضحك . ونهض من فراشه قافزا . كان في حركات هذا الرجل المفاجئة الرشيقة شيء من القط البري . أشعل طباخ الكيروسين ووضع عليه « الركوة » ثم صاح بلهجة النادل الغنائية « واحد سكر وسط » .

استيقظت فيه ذكريات اليونان وبدأ دمه السيفالوني يغلي . راح يغني بعض الاغنيات القديمة التي كان قد سمعها في الحي اليوناني في برايلا :

لو أكون فراشة ،

واطير قربك .

كانت اليونان تبرز من بين حناياه • لقد حن الابن الضال الآن للعودة الى أرض آبائه • وبغتة اتخذ قراره وقد امتلأ بالانفعال « سأعود الى اليونان » •

تعب فسعل وعاد الى فراشه وراح يرتشف قهوته •

جلس في سريره وهو يشعل لفافة بعد الاخرى وبدأ يتحدث بتشتت عاطفي عن روسيا ثم عن كتابه وعن بطله الرئيسي ، أدريان زوغرافي ، الذي يتألم لأنه يبحث طوال حياته عن صديق ولا يجده • ان رغباته غير ممنهجة وقلبه متمرد وعقله عاجز عن تنظيم الفوضى •

تطلعت الى استراتي بكثير من الحب والعاطفة • وأحسست ان حياته تواجه تغييرا جذريا وانه لم يقرر لنفسه الطريق الذي سيسلكه • ظل يتطلع الي بعينيه الصغيرتين اللامعتين وكأنه يطلب مني العون •

قلت له ضاحكا : « ان ادريان ، بطل أعمالك ، هو أنت • أنتما متشابهان • انك لست الثوري الذي تظن نفسك • انت الانسان الثائر • للثوري منهج ونظام وانسجام في نشاطه ولجام على قلبه • انت متمرد وتجد صعوبة في البقاء متمسكا بفكرة واحدة • الآن وقد حللت في روسيا يجب ان تنظم الامور في داخلك وتصل الى قرار • ان عليك مسؤولية تحقيق ذلك » •

صرخ وكأنني أمسكت برقبته : « دعني وشأني » ولكنه بعد لحظة سألني بصوت متألم : « هل انت واثق ؟ »

« أدريان زوغرافي الروماني مات » هتفت وأنا أمسك بذراع استراتي النحيل وكأنني راغب في تعزيته • « عاش أدريان زوغرافي الروسي ! لقد مر وقت طويل منذ خرجت من احياء برايلا الضيقة • قلق العالم وأمله قد توسعا وأدريان أيضا قد تضخم • دع الايقاع الشخصي غير المنظم في حياته يتحد بإيقاع روسيا العالمي لكي يحصل في النهاية على الانسجام والايمان • لقد آن الاوان لجعل توازن ادريان اللطيف فعالا وكذلك وتوازن بانيت الذي كنت تبحث عنه منذ

سنوات عديدة لأن هذا التوازن الآن يستطيع أن يركز نفسه لا على المصير المتقلب لفرد واحد بل على الجماهير المكافحة في شعب جبار » .

« يكفي » صرخ استراتي مغتاظا . « يكفي ! أي شيطان جاء بك الى هنا ؟ كنت أفكر ليلا ونهارا بما تقوله وأنا مستلق على سريري . لكنك لا تسأل عما اذا كنت أستطيع . انك تصرخ بي ! اقفز ! لكنك لا تسأل عما اذا كنت استطيع » .

أجبته : « سنرى يا بانتيتاكي ! لا تثر . اقفز وسنرى الى أي مدى ستصل » !

- يا الله . هذه ليست لعبة . كيف تستطيع ان تتحدث هكذا ؟ انها مسألة حياة أو موت .

قلت وأنا أنهض : الحياة لعبة وكذلك هو الموت . لعبة - وربحنا وخسارتنا يعتمدان على لحظة كهذه تماما .

- لماذا نهضت ؟

. من الافضل أن أذهب . أخشى أن أكون قد أتعبتك .

- لن تذهب الى أي مكان . ستبقى . سنأكل . وبعد الظهر تخرج معنا الى مكان ما .

. الى أين ؟

- لرؤية غوركي . لقد أرسل لي رسالة وهو ينتظرني . سأرى اليوم هذا الاستراتي الاوربي الشهير لأول مرة .

وكشف صوته الثائر عن حسد طفولي للنموذج العظيم .

قفز عن سريره وارتدى ملابسه ثم خرجنا وهو يمسك ذراعي بشدة .

وراح يقول لي : « سنصبح أصدقاء . نعم . سنصبح أصدقاء لأنني الآن بدأت أحس بالحاجة الى ضربك على أنفك . من الافضل لك ان تعرف انني لا استطيع أن أحس بالصداقة دون لكمات . لا بد لنا ان نتشاجر بين حين وآخر وان يحطم كل منا جمجمة الآخر - هل تسمع ؟ هذا هو معنى الحب » .

دخلنا مطعما وجلسنا ٠ وتناول قارورة صغيرة مليئة بزيت الزيتون كانت مربوطة الى رقبته مثل تعويذة وسكب الزيت على حساء اللحم الكثيف ثم رش الكثير من الفلفل على الحساء من علبة صغيرة أخرجها من جيب صداره ٠

« زيت وفلفل » قال ذلك وهو يلعق شفتيه « تماما كما في برايلا » ٠

أكلنا بشهية ٠ وراح استراتي يتذكر لغته اليونانية شيئا فشيئا ، وفي كل مرة تبرز في ذاكرته كلمة يصفق مثل طفل ٠ وعند كل كلمة كان يهتف : « كيف أنت ؟ كيف أنت ؟ وكيف حالك اليوم ؟ » ٠

لكنه ظل حاضر الذهن وكل فترة كان ينظر الى ساعته ٠ وبغتة نهض وقال : « آن الاوان ٠ فلنذهب » ٠

نادى النادل واشترى أربع زجاجات من الخمر الارمني الممتاز وعبأ جيوب سترته برزم صغيرة من المازة ، وعبأ علبة سجائره ثم انطلقنا ٠

كان استراتي مستثارا ، لقد كان على وشك ان يرى غوركي العظيم للمرة الاولى ٠ لا شك انه كان يتوقع عناقا ومائدة عامرة بالطعام ودموعا وضحكا وأحاديث تتلو أحاديث ثم عناقا ثم المزيد من العناق الى ما لا نهاية ٠

قلت له : « أنت متوتر يا بانيت » ٠

لم يجب ٠ أسرع الخطى غاضبا ٠

وصلنا بناء ضخما وصعدنا الدرج ٠ وظللت أتطلع الى مرافقي بطرف عيني ٠ كنت أستمتع بمراقبة جسده النحيل الدقيق ، ويدي العامل اللتين لديه واللتين عرفتا الكثير من العمل ، وعينيه النهمتين ٠

سألته : « هل تستطيع ان تضبط نفسك الآن وقد أوشكت على رؤية غوركي ؟ هل تستطيع ان تمنع نفسك عن العناق والصراخ ؟ »

اجابني غاضبا : « لا ٠ ماذا تظنني ؟ انكليزي ؟ كم مرة علي أن أقول لك انني يوناني ٠ سيفالوني ٠ أنا أصرخ وأعانق وأعطي نفسي ٠ تستطيع ، فضيلتك ، ان تمثل دور الانكليزي اذا شئت ٠ » وأضاف بعد ثانية « واذا كان لا بد أن تعرف فأنا أفضل أن أكون وحدي ٠ انني أرى وجودك مزعجا » ٠

ما كادت الكلمات تخرج من فمه جيدا حتى كان غوركي بغتة على عتبة السلم وعقب لفافة يلمع بين شفتيه ٠ كان ضخما ذا عظام كبيرة وفكين غائرين وعظام بارزة في الوجنتين وعينين زرقاوين صغيرتين تتطلعان بقلق وحزن وفم مشدود بشكل لا يوصف ٠

راح استراتي يقفز الدرج كل ثلاث درجات بقفزة منذ ان رآه حتى أمسك بيده ٠

« بانيت استراتي » صرخ وهو يتهيأ للوقوع على كتفي غوركي العريضتين ٠

مد غوركي يده بهدوء ودون كلام ٠ وتطلع الى استراتي بنظرة لم تفصح عن أية اشارة لفرح أو فضول ٠

بعد لحظة قال : ادخلا ؛

ومشى أمامنا بخطى هادئة ٠ واستراتي يسير وراءه بعصبية والمازة وزجاجات الخمر الاربع بارزة من جيوب معطفه ٠

جلسنا في غرفة مكتب صغيرة مليئة بالناس ٠ لم يكن غوركي يتحدث الا بالروسية وصار من الصعب بدء الحديث ٠ وراح استراتي يهذر باثارة كبيرة ٠ لا أذكر ما قاله ٠ لكنني لن أنسى حرارة حديثه ونبرة صوته وتشبيراته الكبيرة وعينيه المتقدتين ٠

وكان غوركي يجيب بهدوء وايجاز وبصوت لطيف عذب دون أن يتوقف عن اشعال سجائره ٠ وكانت بسمته المريرة تعطي حديثه الهادىء جوا تراجيديا عميقا ومركزا ٠ انك تحس فيه رجلا تحمل الكثير ، وهو مستمر في تحمل الكثير ، رجلا رأى مشاهد مرعبة الى

درجة انه ما من شيء ، ولا حتى الاحتفالات والهتافات السوفياتية ، ولا المجد والتكريم اللذان نالهماه يمكن أن يؤثر فيه بعد ذلك • كان هناك حزن هادىء لا يعرف الشفاء يتدفق من وراء عينيه الزرقاوين •

قال : « كان بلزاك أعظم أساتذتي • أذكر أنني حين قرأته كنت أرفع الصفحات الى الضوء وأتطلع اليها ثم أهتف منزعجا : أين يستطيع المرء ان يجد قوة كهذه ؟ أين يستطيع ان يجد السر العظيم ؟ » •

سألته : « وماذا عن دوستويفسكي وغوغول ؟

ـ لا • لا • من الروس هناك واحد فقط • ليسكوف •

وصمت لوهلة • ثم أضاف : « ولكن فوق الجميع ـ الحياة • لقد قاسيت الكثير وأنا أكن حبا عظيما لكل من يقاسي ويتألم • لا شيء غير هذا » •

وصمت وهو يتابع بعينين نصف مغمضتين دخان لفافته الازرق•

أخرج بانيت الزجاجات ووضعها على المائدة • ثم أخرج صرر المازة ولفاتها • لكنه لم يجد الشجاعة لفتحها • لقد أدرك انه ليس الوقت الملائم • لم يتحقق الجو الذي توقعه • كان ينتظر شيئا مختلفا تماما • كان يظن ان بطلي التجربة المعذبين سيشربان ويصرخان ويلقيان خطابات مجيدة ويغنيان ويرقصان الى ان ترعد الارض ذاتها • لكن غوركي كان ما يزال غارقا في تجربته ، وكان ما يزال ، تقريبا ، بلا أمل • نهض • كان عدد من الشبان الموجودين قد دعوه فانعزل معهم في المكتب المجاور •

« حسن يا بانيت » سألته حين ذهب « ما رأيك بالاستاذ ؟ »

فتح استراتي زجاجة بحركة متشنجة • وقال : « ليس لدينا كؤوس • هل تستطيع أن تشرب من الزجاجة ؟ »

ـ « نعم » وأخذت الخمر • وقلت : « نخبا • الانسان حيوان في صحراء يا بانيت •• كل انسان محاط بهاوية وليست هناك جسور في أي مكان • لا تنزعج يا بانتياكي • ألم تكن تعرف ذلك ؟ »

« اسرع وأشرب لكي آخذ دوري » . قال ذلك بقرف . « أنا عطشان » .

مسح شفتيه : « كنت أعرف . لكنني أظل أنسى » .

ـ تلك فضيلتك العظيمة يا بانيت . المؤسف هو ان تكون لا تعرف ـ ستكون عندها معتوها . وعند معرفتك المؤسف ان لا تظل تنسى ـ ستكون عندها باردا عديم الحساسية . بينما انت الآن انسان حقيقي ـ حار مليء بالسخافات ، شلة من الآمال والاحباطات ـ حتى المـوت .

ـ حسن . لقد رأينا غوركـي الآن . وهـذا هـو الامر . أعاد الزجاجات الى جيوبه وجمع الصرر والرزم . وخرجنا .

في طريق عودتنا قال لي : انني أرى أن غوركي بارد جدا . وانـت ؟

ـ أنا أرى انه مليء جدا بالمرارة . شخص لا عزاء له .

ودمدم بانيت مغتاظا : كان عليه ان يصرخ ويسكر ويبكي ليخفف العبء عن نفسه .

ـ ذات مرة حين قتل أعزاء أمير مسلم في احدى الحروب وجه الامير أمرا الى رجال قبيلته يقول : « لا تبكوا ولا تصرخوا لئلا تخف أحزانكم » هذا يا بانيت أكثر المبادىء التي يفرضها المـرء على نفسه اثارة للاعتزاز وهذا ما يجعلني أحب غوركي كثيرا .

★★★

في اليوم التالي مررت بكاتدرائية موسكو الكبيرة ودخلتها . كان هذا المعبد اللامحدود في اتساعه والذي كان مثار افتخار روسيا القيصرية خاويا ومعتما وغير مدفأ ، وكانت الاشياء الوفيرة المرافقة للقديسين المحاطين بالهالات تتجمد في عتمة الشتـاء المهجورة . وكانت السيدة العجوز الصغيرة،التي تناوب على مائدة جمع الصدقات والمنكبة على صحن فارغ لا يحتوي على كوبيك واحد، غير كافية لتدفئة هذه الرعية المقدسة المرتعشة بردا بأنفاسها التي كانـت تخرج كالدخان من فمها وأنفها .

وبغتة سمعت أصواتا ملائكية لرجال ونساء ينشدون الترانيم في جناح النساء في الطابق العلوي · بحثت فوجدت الدرج الرخامي الحلزوني وبدأت أصعد · واستطعت ان أميز فوقي - اثنين أو ثلاثة من الرجال والنساء العجائز الصغار في العتمة · كانوا يصعدون بدورهم وقد لفوا شالاتهم عليهم وراحوا يلهثون ·

حين وصلت أعلى الدرج وجدت نفسي في مختلى دافىء ، معبد كله من الذهب فيه شموع مضاءة وأناس راكعون ، والحرم مليء بالشماسين والقسس والمطارنة اللابسين الذهب والحرير ·

لن أنسى دفء هذا المختلى وحلاوته · كان الرجال في معظمهم عجائز بسبلات ★ جانبية. كان يبدو عليهم أنهم نبلاء سابقون أو بوابون في بيوت نبلاء · وكانت شعور مقلنسة بخمارات ناصعة البياض · وكان المسيح يلتمع على حاملة الايقونات حسن التغذية متورد الوجه وصدره مغطى بالاوسمة - يدان بشريتان وعينان وقلب من الفضة والذهب ·

ظللت واقفا وسط الجمع الراكع · وجدت من المستحيل علي أن أضبط مشاعري · بدا لي هذا الحشد وداعا يقطع نياط القلب ، كأنما كان هناك شخص عزيز جدا يرحل الى مكان بعيد ، في رحلة خطرة ، وأصدقاؤه هنا يودعونه · كان آخر المؤمنين يودعون بمرارة صورة الههم الحبيبة ، بينما كان المؤمنون الاوائل في الصورة الجديدة لـ « السر » الجديد يندفعون دون رحمة ويحطمون الاصنام القديمة الهشة ··· اننا نعيش لحظة حاسمة قاسية يموت فيها دين قديم ويولد فيها دين جديد مضرج بالدم ·

ان الازمنة التي نمر بها ، والازمنة التي هي أكثر رهبة والتي سيمر بها أبناؤنا وأحفادنا هي أزمنة صعبة · غير ان الصعوبة كانت دائما منشطا للحياة ، توقظ دوافعنا وتثيرها كلها ، الخيرة منها والشريرة لتجعلنا نتجاوز العراقيل التي تبرز أمامنا بشكل مفاجىء ·

★ السبلة : ذلك الجزء من اللحية الذي ينمو على جانبي الوجه .

وبهذا نصل أحيانا الى نقطة أبعد بكثير مما كنا نأمل : بحشد قوانا كلها ، التي كانت لولا ذلك ستظل نائمة أو ستظل تعمل على مضض ومن دون تركيز • وذلك لأن هذه القوى المحتشدة ليست قوانا وحدنا وليست أيضا قوى بشرية فقط • القوى التي تتحرر فينا عند الدافع الاول الذي يعمل فينا من أجل ان نقفز هي وحدة من قوى ثلاثية : قوى شخصية وقوى انسانية وقوى قبل انسانية • وفي اللحظة التي يتحفز فيها الانسان المتحفز من أجل القيام بالقفزة، تتحفز في أعماقنا الحياة في الدنيا كلها وتنمي دوافعها • وهذا ما يحدث حين نحس بوضوح بأبسط الحقائق التي غالبا ما ننساها في لحظات الاسترخاء المريحة والعقيمة : وهي ان الانسان ليس خالدا لكنه يخدم شيئا ما أو شخصا ما خالدا •

حين انتهت طقوس الصلاة وبدأ آخر المؤمنين ينزلون الدرج الرخامي ببطء اقترب مني شاب هزيل شاحب • كانت له لحية قصيرة شقراء وعينان زرقاوان متعبتان وكان دائم السعال • وبادرني بالحديث •

سألني مستثارا : « هل أنت واحد منا ؟ ألم تخن المسيح ؟ »

أجبته : « أنا لا أخونه ان لم يخني » •

قال الشاب • مستغربا كلماتي : « المسيح لا يخون أبدا • انه لا يخون • هو يخان فقط • ولكن تعال • الطقس بارد في الخارج • دعنا نذهب الى بيتي ونتناول بعض الشاي الساخن » •

كان والده نبيلا سابقا يمتلك منزلا كبيرا ، حشر الآن في غرفتين وملئت الغرف الاخرى بعائلات الطبقة العاملة - وقد أعطي أقل الغرف شمسا لأنه ، على خلاف العمال ، ليس لديه أطفال بينما أبناء العمال يريدون أن يستمتعوا بالشمس • وكان الشاب يعمل في معمل لكي يكسب عيشه لكنه كان شاعرا وهو يكتب الاشعار كلما اتيحت له فرصة صغيرة •

قال : « انا الآن بصدد كتابة قصيدة طويلة • حوار : المسيح يتحدث مع عامل • الوقت صباح وصفارات المعمل تنطلق ، والثلج

منهمر في الخارج والطقس بارد جدا • الرجال والنساء يهرعون الى معاملهم ، مرتجفين بردا ، وأجسادهم مشوهة من التعب • العامل الذي لدي يمسك بيد المسيح ويقوم معه بجولة على المصانع ومناجم الفحم والموانىء • والمسيح يتنهد ويسأل :

ـ لم هؤلاء الملعونون كلهم ؟ ما الذي فعلوه ؟

ويجيبه العامل : لا أعرف • قل لي أنت •

ويأخذه بعد ذلك الى كوخه الرطب بموقده المطفأ وأطفاله الجائعين الباكين • يغلق العامل الباب • ويمسك بذراع المسيح ويصرخ : يا ربان ! كيف نتصرف ازاء القيصر ؟ ما الذي لقيصر لنعطيه اياه وما الذي لنا لنأخذه ؟ » •

وتوقف الشاب وهو يلهث وراح يحرك يديه الى الوراء والى الامام بقوة وقلق •

سألته : وبعد ؟ بماذا أجاب المسيح ؟

ـ « لا أعرف » أجاب آخر المؤمنين وهو يتطلع حوله خائفا : « لم أعرف بعد أو بالاحرى وبدقة أكبر لم أعد أعرف » •

وتهاوى الشاب على كنبة ممزقة ووجهه بين يديه وهو يئن : « لماذا ؟ لماذا ؟ »

وخطر لي انه هو الآخر يسأل • يسأل ولا يجد جوابا • وانني أتساءل ما اذا كان المسيح قادرا على الجواب • لم لا يسأل لينين ؟

سألته : لم لا تسأل لينين ؟ وكنت أتكلم رغما عني بغضب •

ـ لقد فعلت •

• وماذا كان جوابه ؟

ـ « يا عمال العالم اتحدوا » فقفزت مهتاجا وصرخت : ولكنني أسأل عن الروح ، يا فلاديمير اليتش ، عن الله ، عن الابدية !

ـ ثم ؟

ـ رفع لينين كتفيه وضحك متمتما : « بورجوازي ••• » • ثم سحق عقب لفافته تحت كعبه :

الغابة كبيرة والريح مواتية

هيا يا بي كو احمل قوسك !
من هنا ، من هنا ، من هنا ، ومن هناك !
خنزير ! من يقتل الخنزير
يا بي كو المسكين ؟ بي كو !
ولكن من يأكله يا بي كو المسكين ؟
هيا ! قطعه . ستأكل الاحشاء .
بام ! تدحرج فيل على الارض !
من قتله ؟ بي كو .
من سيأخذ النابين الثمينين يا بي كو المسكين ؟
صبرا يا بي كو . سيعطونك الذنب
(أغنية قزمية)

كلما مرت الايام احسست بسحر روسيا السري يتغلغل أعمق فأعمق الى داخلي . لم تكن المسألة ببساطة مسألة المنظر الغريب للشتاء القطبي الذي أذهلني ، ولا رؤيتي الاولى للحياة السلافية ـ أو الشعب أو القصور او الكنائس او الترويكات ★ او البالالايكا ★★ أو الرقصات من حولي في كل مكان . كان شيئا آخر ، شيئا أكثر غموضا وعمقا . هنا في الجو الروسي أحسست بالقوتين الاصليتين المولدتين للعالم ، بوضوح أكبر وبشكل محسوس تقريبا ، وهما تتصادمان . الى هذا الحد يتغلغل جو الحرب المحيط بك الى أعماقك بحيث أنك أردت أم لم ترد تلقي بنفسك في غمار الكفاح الى جانب احدى هاتين القوتين المولدتين للعالم أو مع الاخرى وتحارب . وما تذوقته في وجودي القصير هذا فقد رأيته هنا قاسيا ورهيبا في جسد روسيا الكبير . لقد كان الكفاح ذاته ، وتحديدا المعركة المشابهة ، بين الخصمين الازليين نفسهما ، الضوء والظلمة . وهكذا توحد تدريجيا كفاحي مع كفاح روسيا ، سيكون خلاص روسيا هو خلاصي أيضا فالضوء واحد لا يتجزأ وحيثما انتصر أو هزم فانه ينتصر أو ينهزم في داخلك .

★ الترويكة : عربة روسية تجرها ثلاثة جياد .
★★ آلة موسيقية روسية شبيهة بالغيتار .

من اللحظة التي وصلت فيها أخيرا ، في أعماقي ، الى هذا التطابق صار مصير روسيا هو مصيري • لقد كنت أكافح وأناضل الى جانبها • ولاحساسي بضيق موسكو انطلقت لرؤية الحلبة الواسعة بأكملها أولا - من مورمانسك على القطب الشمالي الى بخاري وسمرقند ومن لينينغراد الى فلاديفوستوك - وفي كل مكان كان الاعداء والحلفاء الجذريون يتصارعون •

كل انسان يحمل صليبه وكذلك كل شعب • الاغلبية تحمله على أكتافها حتى الموت ، ليس هناك من يصلبها • سعيد هو الانسان الذي يصلب لأنه وحده الذي سيستمتع بالقيامة وروسيا قد صلبت . فيما كنت أتجول بين جمهورياتها وقراها كنت أرتجف من الرهبة المقدسة • لم يسبق لي أن رأيت كفاحا كهذا وألما كهذا على الصليب وآمالا كثيرة كهذه • أدركت لأول مرة كم يصعب على الانسان ان يقرر القيام بخطوة الى الامام لكي يقهر حبه السابق ، والهه السابق ، وعاداته القديمة • وعلى الرغم من ان هذه الاشياء كلها كانت ذات مرة روحا تحثه على الصعود فانها تتحول الى مادة رصاصية مرهقة مع مرور الزمن وتتساقط في منتصف طريق الرحلة - وهي الآن تمنع النفس الخلاق الجديد من المرور •

كان ملايين الموجيك يقاومون • لم يفهموا ولم يشاؤوا أن يخلصوا • أمسكوا بالمسامير ودقوها في « الام » • بعملهم في التراب جيلا بعد جيلا تحولوا الى تراب وصاروا يكرهون اللهب • العمال الجائعون الجرحى - وكلهم لهب - كانوا يدفعون الجماهير البسيطة لكي تلتحق بطريق الخلاص باللطف حينا وبالعنف حينا آخر •

وكانت شعوب العالم تقف ، هادئة شبعانة ، حول الحلبة الروسية التي كان يتصارع فيها الضوء مع الظلام • وكانت تقهقه : « انتهت ! روسيا انتهت ! » لأن المتعقلين الشبعانين لا يستطيعون أبدا أن يفهموا القوى الانبعاثية اللامرئية للصلب • ولكن كما قال المسيح ، انه لكي تصبح حبة القمح سنبلة قمح ، يجب أن تنزل الى الارض وتموت • كانت روسيا تعاني أمرا مشابها - مثل حبة من القمح ، مثل فكرة عظيمة •

يروي أحد الاسفار الابوكريفاوية ★ كيف ان الحواري المحبوب يوحنا قد رأى رؤيا مذهلة وهو يقف باكيا أمام المصلوب . لم يكن الصليب من خشب بل من نور ولم يكن مصلوبا عليه رجل واحد بل آلاف الرجال والنساء والاطفال والكل يتوجعون ويموتون . ارتعد الحواري المحبوب وهو عاجز عن تحديد أو تثبيت أي من الاشخاص العديدين . كان الجميع يتغيرون باستمرار ويركضون ويختفون . كان بعضهم يعود مرة أخرى . وبغتة تلاشى الجميع ولم يبق على الصليب أي شيء ، الا (صرخة) مصلوبة .

هذه الرؤيا تتماوج أمامنا اليوم . لكن مخلص اليوم ليس رجلا واحدا بل هو شعب بأسره . روسيا كلها ، ملايين الرجال والنساء والاطفال مصلوبون ويتألمون . انهم يختفون ويفيضون ولا تستطيع ان تميز شخصا محددا واحدا ، ولكن من هذه الميتات الوفيرة كلها من المؤكد ان « الصرخة » سوف تبقى .

لا حاجة لأي شيء آخر . هذه هي الطريقة التي سيتم فيها خلاص العالم مجددا . وماذا يعني « الخلاص » ؟ يعني ايجاد مبرر جديد للحياة لأن المبرر القديم قد استنزف قواه ولم يعد قادرا على دعم الصرح الانساني ، سعيد هو الانسان الذي يسمع (صرخة) عصره (لكل حقبة صرختها الخاصة بها) ويعمل بالتعاون معها . هو وحده الذي يجد الخلاص .

اننا نعيش حقبتنا وبالتالي لا نراها . ولكن ان حدث مع الايام ان أضرمت الفكرة الجديدة ، التي تصلب اليوم ، العالم وجددته ، فاننا نكون قد دخلنا الحلقة الاولى من النار . بعد قرون ربما سميت هذه الحقبة عصرا وسيطا وليس نهضة . العصر الوسيط ـ وبتعبير آخر فترة توقف . تخمد حضارة ما وتفقد قوتها الخلاقة وتنهار ، ويجهد (نفَس) جديد تحمله طبقة ، جديدة من البشر ، بحب وصرامة وايمان ، لخلق حضارة جديدة .

★ الابوكريفا : اربعة عشر سفرا تلحق احيانا بالعهد القديم من الكتاب المقدس لا يعترف البروتستانت بصحتها ـ المورد .

وليس خلق هذه الحضارة الجديدة أمرا مؤكدا • لا شيء مؤكد مسبقا في أي عمل ابداعي • قد يكون المستقبل كارثة شاملة ، وقد يكون حلا وسطا جبانا • لكنه قد يكون أيضا انتصارا لـ « النفس » الخلاق • وفي هذه الحالة تكون مرحلتنا الانتقالية هي المرحلة التي نعاني فيها آلام العمل الشديدة لحضارة في طور الولادة •

لا شيء مؤكد • ولهذا السبب ذاته على كل شعب ، وكل فرد ، مسؤولية جسيمة في عصرنا هذا غير المبتوت أمره وغير المتبلور ، وهي مسؤولية أكبر بكثير من أية مسؤولية سابقة • وفي عصر غير مبتوت فيه ومليء بالاحتمالات يكون لاسهام شعب أو فرد قيمة لا تقدر •

ما هو واجبنا اذن ؟ أن نميز بدقة اللحظة التاريخية التي نعيشها وأن نزج بقدراتنا الصغيرة في معركة محددة • وكلما كنا على هيئة التيار الذي يدل على الطريق استطعنا أن نعين الانسان في ارتقائه الصعب غير المؤكد والمحفوف بالاخطار نحو الخلاص •

★ ★ ★

حين انهيت حجي ومكثت في بخارى عدة أيام أحسست بالشمس اللطيفة تقع علي أخيرا وتدفىء جسدي وروحي بعد برودة سيبيريا اللاانسانية • وصلت اليها قبل الظهر بقليل • حرارة لاهبة ، لكن الشوارع كانت قد رشت بالماء وكان الهواء عابقا برائحة الياسمين • وكان المسلمون بعماماتهم الملونة جالسين تحت ظلات من القش وهم يضفرون الحصر ويشربون المرطبات ★ المنعشة ، وكان شبان بدينون بقمصان مفتوحة يغنون الاغاني ★★ الشرقية العاطفية وهم يجلسون على كراس مرتفعة في المقاهي • كنت جائعا وظمآنا جدا فاشتريت بطيخة وجلست في الظل الذي يلقيه جامع كوكبة Kok — Kouba الشهير • وضعت البطيخة على ركبتي وقطعتها وبدأت اكل •

★ sherbet الشربات .. عصير الفواكه .

★★ amanèdhes أغان عاطفية تتكرر فيها كلمة (أمان)

وتغلغل شذاها وحلاوتها الى عظامي • لقد كنت مثل زهرة اريحا الذابلة ، غطست في برودة هذه البطيخة وحييت من جديد •

مرت بي فتاة صغيرة ، يقترب عمرها من السابعة ، وظهرها مغطى بعدد كبير من الاشرطة الصغيرة جدا وفي كل منها صدفة أو خرزة زرقاء أو هلال لدفع أذى العين الشريرة • حين مرت من أمامي كان ردفاها يهتزان مثل ردفي امرأة ناضجة وعبق الجو برائحة المسك •

عند الظهر صعد المؤذن ذو اللحية البيضاء والعمامة الخضراء الى المئذنة المواجهة لي ووضع راحتيه على أذنيه ثم تطلع الى السماء وبدأ يدعو المؤمنين الى الصلاة بصوت عذب جهوري • وفيما كان يؤذن عبر الجو اللاهب طائر لقلق حتى وصل الى رأس المئذنة فحط عليها برجل واحدة •

جلست أستمع ملء أذني وأتطلع ملء عيني • ورحت أستمتع بالفاكهة العبقة الاحلى من الحلاوة • كنت سعيدا • أغمضت عيني ولكنني لخشيتي من أن أنام وأفقد هذه السعادة كلها فتحتهما من جديد • كانت ساحة بخارى الشهيرة ، الريجستان ، خالية أمامي • في الماضي كان الحجاج المهووسون يأتون في كل ربيع من كل أرض اسلامية ليندبوا الحسن والحسين ، ابني علي المقتولين ظلما • كانت القوافل تصل محملة بالطيب والتفاح والبلح والعاهرات المقدسات ، وكان الشبان يأتون على جياد بيضاء وبأيديهم حمامات بيضاء ، ورؤوسهم الحليقة مدهونة بالرماد والتبن ، وخلفهم المؤمنون المسعورون بجلابيبهم البيضاء البراقة وهم يضربون رؤوسهم بسيوفهم حتى يسيل الدم على شواربهم المعقوفة ولحاهم وجلابيهم البيضاء • كانوا يعيشون الحداد أربعين يوما وأربعين ليلة وهم يندبون : حسن ! حسين ! حسن ! حسين ! وبعد ذلك ، وهم ما زالوا في حدادهم ، وما زالوا مضرجين بالدماء ، يستلقون تحت الاشجار المزهرة ويضاجعون المومسات المقدسات •

ولكن ساحة ريجستان الآن خالية ، والمسجد الملون العجيب نصف مهدم • لقد كانوا أطيافا • صاح الديك فاختفوا •

نحو ماذا كان الناس يوجهون هذا الهوس القدسي وهذا الصخب وهذا النواح ؟ وماذا كان هدفه ؟

هيمنت المرارة على روحي ٠ لقد تعبت من بعث الموتى ٠ ولكي أنام وأهرب منهم أغمضت عيني ٠ حلمت حلما ٠ شفتان عاصفتان ، شفتا امرأة ، معلقتان في الهواء دون وجه ٠ تحركتا وسمعت صوتا : « من هو ربك ؟ » قلت دون تردد « بوذا ! » ولكن الشفتين تحركتا من جديد : « لا ٠ لا ٠ ايبافوس ★! » ٠

قفزت على قدمي ٠ لقد انكشف العمل الخبيء كله الذي كان يتم خلال الاشهر الثلاثة الماضية في حنايا عقلي ٠ لقد انفتح باب المصيدة المؤدي الى أعماقي ورأيت ٠ خلال هذا الوقت كله كنت أتألم وأكافح مثل أفعى بين الاشواك ، أجاهد لخلع جلد ، وارتداء جلد جديد ٠ كنت أتألم دون أن أعرف السبب ٠ والآن جاء هذا الحلم : بوذا هو الجلد القديم وايبافوس هو الجديد ٠

ايبافوس ، اله اللمس ، الذي يفضل اللحم على الظلال وكالذئب في الامثال لا ينتظر تحقق وعود الآخرين حين يتعلق الامر باملاء بطنه٠ انه لا يثق بعين ولا بأذن انه يريد ان يلامس ، أن يقبض على الانسان والتراب وأن يحس بحرارتهما تمتزج بحرارته ويحس بهما يتحدان به ٠ حتى انه يريد ان يحول التراب الى جسد لكي يستطيع ملامسته ٠ الاله الذي يعتمد عليه أكثر من الآلهة كلها والعملي أكثر منهم كلهم ، هو ذلك الذي يمشي على الارض ويحب الارض ويتمنى ان يعيد خلقها « على صورته ومشابهة له » ـ هذا هو الهي ٠

لقد أنجزت روسيا معجزتها دون ضجيج ودون كلمات ٠ ومثل الافعى التي لم ينم جلدها الجديد بعد والتي تحس بالبرد فتزحف تحت الشمس لتتفيأ ، كذلك كانت روحي تزحف تحت الشمس

★ اعاد زيوس بلمسة منه « ايو » الى بشر وولدها ايبافوس فهو « ابن اللمسة » .

الجديدة · حين استيقظت لم أعد الشخص ذاته لأنني في السابق لم أكن أعرف وقد عرفت الآن · انني أظل أسأل نفسي : كيف يمكن لحلم أن يغير حياة انسان ؟ انه لا يغيرها · هكذا أجيب · انه فقط يعلن ان تغييرا قد حدث ·

بأي اتجاه يوجه الناس جهودهم المسعورة التي يحسون أن عليهم أن يقوموا بها ؟ ما الهدف ؟ في الماضي كنت ابتسم بسعادة وأجيب : « سلسلة أوهام · العالم غير موجود · الظلم والجوع والفرح والحزن والجهد كلها غير موجودة · كل شيء طيف · نفخة ويتلاشى كل شيء » ·

الا انني قفزت الآن واقفا ولدي شعور بالارتياح · كان الظلام قد بدأ يهبط على ساحة ريجستان · رفعت راسي : « ما الهدف ؟ لا تسأل · لا أحد يعرف حتى الله ، لأنه يتقدم معنا · فهو أيضا ، يبحث ويتعرض للخطر ، هو أيضا قد تكرس للنضال · الجوع والظلم موجودان في القلب مثلما توجد تلك الوفرة من الظلام · وهذه الاشياء التي تراها ليست أطيافا · ومهما نفخت فلن تختفي · انها لحم وعظم · المسها ، انها موجودة · ألا تسمع صرخة في الهواء ؟ انها تصرخ · ما الذي تقوله في صراخها ؟ النجدة ! ولمن تصرخ ؟ لك أنت · لكل انسان · انهض · ليس واجبنا أن نطرح أسئلة بل ان يشد كل منا يد الآخر ، كلنا معا ، وان نصعد المرتقى » ·

★ ★ ★

كان العالم قد تغير حين توقفت في برلين مرة ثانية ثم في فيينا في طريق عودتي الى اليونان عند نهاية هذه الأشهر الثلاثة · لا ، ليس العالم ـ بل عيناي ، الرقصات الصفيقة ، الموسيقى الهمجية الحديثة ، النساء المتبرجات والرجال المتبرجون ، الابتسامة الساخرة الجارحة ، الشره للذهب وللقبلات ـ كل ما كان يبدو سابقا غريبا ومغويا لي صار الآن يثير في القرف والرعب · صرت أرى أنها نذر النهاية · رائحة كريهة معلقة في الجو وكأن العالم يتعفن · لا بد ان سدوم وعمورة كان لهما الرائحة ذاتها ·

ولا بد ان بومباي كانت كذلك قبل ان تتحول الى رماد· ذات ليلة احسست ان مدينة اللذة الملعونة تنهض من جديد في أفكاري وأنا أجوب شوارع فيينا المضاءة التي تعج بالنساء والضحك · كنت ما أزال فتيا جدا حين رأيت بومباي أول مرة ، وغير قادر في حينها على اكتشاف الرسالة الرهيبة التي تحملها لنا · ولم أبحث عن هذه الرسالة · لم يدخل عقلي أبدا في ذلك الحين ان مصير بومباي يمكن ذات يوم ان يكون مصيرنا أيضا ، كان العالم في حينها ما يزال بالنسبة لي متينا متشبثا بحذر بكتفي المسيح ··· والآن ؟ قررت أن أجري تعديلا طفيفا على رحلة عودتي من أجل رؤية بومباي مرة أخرى ·

كانت السماء غائمة قليلا وعشب الربيع قد غطى العتبات، والدور والشوارع مهجورة خالية كما أحبها · تجولت وحدي في المدينة الفارغة وأنا أصفر ·

كانت البيوت مفتوحة ، دون أبواب ، ودون مالكين . الحانات والمعابد والمسارح والحمامات كلها مهجورة . وكانت ما تزال على الجدران ، بألوان باهتة ، صور راقصات عاريات وملائكة حب تبدو عليهم البلاهة وديوك وكلاب وصور بذيئة لعلاقات جنسية بين البشر والحيوانات ·

ورن ، بغتة ، في أذني صوت : « فليمكنني الله من أن أمشي في باريس ولندن وأنا أتحدث بالروسية الى الرفاق » ارتعشت ، وعبر جسدي نذير رهيب ·

لقد كانت خزائن بومباي مليئة ، نساؤها صفيقات ، حديثات الاستحمام وعقيمات ، ورجالها عديمو الايمان ساخرون ومنهكون ، وكل الآلهة المتنكرة للاله ـ أغريقية وأفريقية وأسيوية ـ كانت هناك في حشد وضيع متجمعة في مجموعة شر متواضعة · كانت تبتسم بدهاء وهي تتقاسم الهبات والبشر · والمدينة كلها ممددة على ظهرها عند سفح فيزوفيوس وهي تقهقه باستهتار ·

صعدت مرتفعا وتطلعت · الآن بعد هذه السنوات الكثيرة

وهذا الكفاح الكبير فهمت ، بوركت هذه المدينة الخاطئة لأنها نقلت الينا رسالة ان العالم كله هو بومباي قبل الهلاك بقليل • ما فائدة عالم كهذا بنسائه الصفيقات ورجاله الكفرة ، بسفالته وظلمه ومرضه ؟ هؤلاء التجار الدهاة ، والقناصة أكلة لحوم البشر ، والقسس يتاجرون بالله بالمفرق ، وهؤلاء القوادون والخصيان لم يعيشون ؟ ولم يجب أن يكبر هؤلاء الاطفال كلهم ليشغلوا الأماكن التي شغلها آباؤهم في الحانات والمعامل والمباغي ؟ هذه المادة كلها تعيق الروح عن المرور • ومهما كانت الروح التي كان العالم يمتلكها ذات مرة فقد أنفقها في خلق حضارة باهرة من الافكار والاديان والفنون والحرف والعلوم والانجازات • والآن يستنزف هذا العالم قواه • فليأت الهمج لفتح هذا الطريق المسدود ولشق مجرى جديد للروح •

أرى أعدادا غفيرة من المضطهدين والجائعين يخدمون الموائد العامرة التي يجلس عليها السادة متبلدين من التخمة والافراط في الشراب • الحلم يثير أولئك الذين يقومون بالهجوم ، بينما الآخرون ، أولئك الجالسون ، يسمعون الضجة بغتة • يلتفتون • في البداية يضحكون ثم تشحب وجوههم ويتطلعون بقلق فيدركون ، يدركون ان عبيدهم وخادماتهم ومزارعيهم والعمال والحفاة قد ثاروا • لحظة قدسية ! ان أعظم انجازات الفكر والفن والعمل قد تحققت خلال أزمنة صعود الانسان الخطر •

يتجمع السادة معا ليقاوموا ويقاومون • لكن زخم ازماتنا كله ضدهم • لقد أكلوا وشربوا وخلقوا حضارة وفقدوا طاقتهم ، وجاءت اللحظة لتحقق الصيغة الاخيرة لواجبهم • يجب أن يفنوا •

حالما تصبح الموائد عامرة سيبدأ العبيد بأن يسمنوا ويتبلدوا بدورهم • جماهير مظلومة أخرى ستنهض من التراب ومعها الجوع والحلم ، جنرالا الروح ، وتشق الطريق مرة أخرى • وسيستمر هذا الايقاع الى الأبد دون توقف •

هذا هو القانون ، بهذه الطريقة وحدها تستطيع الحياة ان تجد نفسها وتتقدم • العضويات الحية كلها (والأفكار والحضارات

عضويات حية) تحس بهذه الحاجة الداخلية التي لا تقاوم ، ومن ورائها الالتزام ، بأخذ ما تستطيعه مما يحيط بها وتمثله بحيث تجعله لها ومنها ـ لكي تحكم العالم اذا استطاعت · والفكرة الجديدة هي أشد الوحوش جوعا وتشبثا ·

ولكن في الوقت ذاته يبدأ قانون جديد بالعمل ، القانون القاسي والقائل بأنه بمقدار ما تؤدي العضوية الحية واجبها من أجل التوسع والتحكم فانها بالمقدار ذاته ، وأكثر ، تقترب من سقوطها ·

وربما كان الصلف الخطيئة الوحيدة التي يعتبرها التوافق الشامل خطيئة مميتة فلا يغفرها · ان تكامل سلطة العضوية مقدر له ان يولد دمارها ·

وهناك أيضا هذه الحقيقة غير المفهومة : لأن العضوية الحية قد أتمت واجبها ، تحديدا ، فهذا هو سبب افنائها · ولو أنها لم تتم هذا الواجب لعاشت ـ متبلدة ـ لوقت أطول بكثير · دون ازعاج للآخرين ودون أن تنزعج هي نفسها ·

ويبدو ان هذا الواجب المدمر محتوى في قلب العضوية لكي يساعدها على الاختفاء حالما تكمل مهمتها في التفوق والسيطرة ـ يساعدها على الاختفاء لئلا تقف في طريق عضوية أخرى تكون قد بدأت ترفع يدها ثائرة ، وترغب في أن تحكم العالم بدورها · ويبدو ان هناك فعالية مدمرة عظيمة موجودة في كل ذرة من ذرات الحياة ، وكأنما كل ذرة منها قد كشفت فيها زخم الحياة بشموليتها ، وهي جاهزة للتفجر عند أية صدمة · ان الحياة تحرر توقها الداخلي بهذه الطريقة وتتقدم ·

ولا يعرف قادة البلشفيك ذلك ويجب أن لا يعرفوه · ان القدر يعصب عيونهم ليمنعهم من رؤية الى أين هم ذاهبون · فلو رأوا لتناقص زخمهم ·

انني أجاهد للاحاطة بالدائرة الكاملة للنشاط الانساني بأقصى طاقتي وللتكهن بالريح التي تثير هذه الامواج البشرية كلها · أنكب

على العصر الذي أعيش فيه ، ذلك القوس الصغير ، الذي لا يدرك بالحواس ، من الدائرة الكبيرة وأجهد للحصول على رؤية واضحة للواجب الحالي . ربما كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع فيها انسان ان يحمل شيئا خالدا في اللحظة الزائلة من حياته ، خالدا لأنه منسجم مع ايقاع خالد .

وأحس بعمق أكبر ان انسانا مكرسا للكفاح يسمو من المعادن الى النباتات ثم من النباتات الى الحيوانات ومن الحيوانات الى الانسان ثم يكافح من أجل الحرية . ويأخذ المكافح مظهرا جديدا في كل عصر حاسم . انه اليوم قائد البروليتاريا الناهضة يطلب العدالة ، والسعادة والحرية ويقدم للرفاق شعارات ويشجعهم بينما ليس لدى أحد ذلك السر الرهيب في ان العدالة والسعادة والحرية تظل تبتعد أكثر فأكثر .

وانه لمن المفيد والصحيح ، على أية حال ، ان يؤمن الذين يكافحون من أجل مثل أعلى بأنهم سوف يحققونه وانهم حالما يصلون الى ذلك فان السعادة ستطغى على العالم كله . بهذه الطريقة تتزود الروح بقلب قوي وتستجمع الشجاعة للارتقاء الامتناهي والامر مشابه تماما لسائق العربة الذي يضع كمشة من العلف أمام فم حصانه . ويمد الحصان ، الذي يجر العربة المحملة الثقيلة ، عنقه ويأكل عشبة لكن العلف يبتعد أكثر ، ويتبعه الحصان ويجاهد للوصول اليه وهكذا يتقدم ويصعد المرتقى .

انني خاضع للاحترام . وسط هذه الحشود الغامضة أميز بوضوح (صرخة اللامرئي) الذي يصعد ويحث البشرية على الصعود معه . ولو انني عشت في زمن آخر لميزت هذه الصرخة بين النبلاء والمواطنين والحرفيين والتجار الذين كانوا ثائرين في ذلك الحين ولكنت تحالفت معهم . البشر منجرفون في هجمة أزلية أقوى منهم ، اندفاعة تجرفهم الى الاعلى وتتركهم حين ينهكون في النهاية ، ثم تتوجه الى مادة خام أخرى لم تفقد قوتها .

ان من واجبنا ان نتبع هذه الهجمة ونعيها في عصرنا وان نعمل بالتنسيق معها . ولقد تملكت اليوم الحشود التي جاءت واستعبدت .

هذه الحشود الآن هي مادتها الخام ٠ ولا تستطيع الجماهير ان تفهم هذه الاندفاعة التي لا ترحم ٠ ويطلقون عليها أسماء صغيرة لتمكنهم من جعلها مفهومة بعقولهم الضيقة وملائمة لحاجاتهم اليومية ٠

يسمونهـا السعادة والمساواة والسـلام ٠ ولكن (المكافح) اللامرئي يترك هذه الاوهام الخادعة لتشجع الجماهير ويقاتل بشدة وبلا رحمة ليتجاوز العقول والاجساد وليبـدع رسالـة الحرية مـن صرخات النقمة والجوع المعاصرة كلها ٠

انه لفي غاية الخطورة ان تنحني لترى ٠ قد يتملكك الرعب عندها لأنك ستكتشف سرا مروعا : فـ (المكافـح) ليس مهتما بالبشر ، انه مهتم باللهب الذي يشعل الناس ٠ ومضماره خط أحمر يثقب البشر وكأنهم سبحة من الجماجم ٠ انني أتبع هذا الخط الأحمر فهو وحده بين الأشياء في العالم كلها ما يثير اهتمامي علـى الرغم من أنني أحس به يمر في جمجمتي ذاتها ، يخترقها ويحطمها ٠ بارادتي الحرة أقبل الضرورة ٠

ولكن فلنتوقف عند الحدود الانسانيـة ، ففـي داخلها فقط نستطيع ان نعمل وأن نؤدي واجبنا ٠ دعنا لا نتجاوزها الى الحافة ، لأن الهاوية تفغر فاها عند الحافة وقد نمتلىء رعبا ٠ ان بوذا يقف على الحافة بابتسامته الهادئة الحاقدة ، ذلك المشعوذ العظيم الذي ينفخ فيخفي العالم ٠ لكننا لا نريد للعالم ان يختفي ولا نريد مـن المسيح ان يحمله على كتفيه وينقله الى السماء ٠ نريد ان يبقـى العالم لكي يعيش ويكافح معنا هنا ٠ ونحن نحبه تماما كما يحب الخزاف فخاره ويرغب فيه ٠ فليست لدينا مادة خام أخرى لنعمل بها ، ولا حقل متماسك فوق الهيولى لنبذر ونحصن فيه ٠

٢٧ ـ القوقـاز

كنت ما أزال في ايطاليا حين تلقيت برقية من وزارة الشـؤون الاجتماعية في اثينا تسألني ما اذا كنت موافقا على تسلم المديرية العامة في الوزارة ، مع مهمة محددة هي الذهاب الى القوقاز حيث يعيش مئات الآلاف من اليونانيين في خطر · وكان علـي أن أحاول ايجاد طريقة ينتقلون بها الى اليونان وينجون ·

كانت المرة الأولى في حياتي التي تتاح لي فيها فرصة الانخراط في عمل مع أناس أحياء ، من لحم ودم بدلا من الصراع أكثر من ذلك مع النظريات والأفكار والمسيحات والبوذات · سررت ، لقد تعبت من الملاكمة الوهمية ، ومن التجول من مكان الى مكان حاملا معي أسئلة وباحثا عن أجوبة · ظلت الأسئلة تجدد نفسها وظل الجواب ينتقل دائما · وصار سؤال يتراكم فوق سؤال ، ثعبان فوق ثعبان ، وهي تخنقني · ولقد آن الأوان لاختبار ما اذا كان الفعل ، حين يضرب سيفه في عقد التأمل التي لا تحل ، هو وحـده القادر علـى تقديم جواب ·

ووافقت لسبب آخر أيضا ، كنت أشفق على شعبي المصلوب أبدا ، والذي يتعرض مرة أخرى للخطر في جبـال بروميثيوس ، القوقاز · مرة أخرى لا تقوم (الدولة) و (العنف) بدق المسامير في بروميثيوس بل في اليونان كلها وتصلبها على جبال القوقاز · كان هذا صليبها وهي تنادي ، ولا تنادي الآلهة بل البشر ، أبناءها :

لينقذوها • وهكذا ، وبتحديد بلايا الحاضر في معاناة اليونان الابدية ، وبرفع التقلبات المأساوية المعاصرة الى مستوى الرموز ، وافقت •

غادرت ايطاليا وتوقفت في أثينا ، وأخذت عشرة مرافقين مختارين معي (معظمهم كريتيون) وانطلقت الى القوقاز لأرى أولا كيف يمكن انقاذ هؤلاء الآلاف من البشر . في الجنوب كان الاكراد يدقون حدوات الجياد بالمسامير على كل يوناني يمسكون به • وفي الشمال كان البلشفيك نازلين بالنار والفأس • وفي الوسط كان يونانيو باتوم وسوخومي وتيفليس وكارس يقفون عراة جائعين مرضى ينتظرون الموت والأنشوطة تضيق حول أعناقهم • مرة أخرى الدولة من جهة والعنف من جهة أخرى ـ الحليفان الأزليان •

ما أمتع أن تنطلق من أجل مهمة صعبة وأنت محاط برفاق متحمسين ومخلصين • خلفنا وراءنا الشاطىء اليوناني ، وذات صباح ظهرت القسطنطينية شاحبة في الأفق المظلل •

كان مطر لطيف يهطل والمآذن البيضاء والسرو الاسود يخترقان الضباب مثل صواري مدينة غارقة • القديسة صوفيا والقصور والجدران الملكية نصف المهدمة كانت كلها غارقة في المطر الصامت القانط • تجمعنا عند مقدم السفينة ورحنا نجهد ان تخترق نظراتنا الضباب الكثيف لكي نرى •

شتم واحد من رفاقي : « عليها اللعنة ! العاهرة ! تنام مع الاتراك » وعيناه مليئتان بالدموع •

وتمتم آخر : « عبر السنين سيأتي وقت تعود فيه الينا مرة أخرى » •

لكن قلبي لم يتأثر • لو انني مخرت هذه المياه الأسطورية في مناسبة أخرى لالتهب عقلي بالخرافات والأغاني الشعبية مع الرغبات القوية ولأحسست بدموع حارة كبيرة تذرف من ايقونة العذراء المباركة على راحتي • لكن المدينة الاسطورية كلها في هذا

اليوم بدت مثل صورة للرغبة بعيدة جدا ومستحيلة جدا ، مثل مخلوق مصنوع من الضباب والخيال ٠

ظللنا يومين نحدق الى القسطنطينية عن بعد ، منتظرين أن يهدأ البحر لكي ننطلق ٠ وكنت مسرورا لأن المطر منعني من رؤيتها ، ومسرورا لأن الحراس الاتراك الضخام منعونا من مغادرة السفينة ووضع أقدامنا على الارض المقدسة المتتركة ★ ٠ لقد توافق هذا كله مع مزاجي العنيد المتعض ومع قلبي الأبله المدعي الذي لم يكن يرغب في الكشف عن آلامه ٠

المزيد من المطر ٠ وظلت القسطنطينية تغرق ، ولكن بعد ذلك صار البحر أخضر لامعا وخفت الأمواج تدريجيا وأخيرا في صباح اليوم الثالث انطلقنا ٠ مررنا عبر البوسفور ٠ صارت الحدائق الكثيفة تتقطع باستمرار والبيوت تتناقص ٠ شواطىء أوربا على يسارنا وآسيا على يميننا وقد صار لها مظهر أكثر وحشية ٠ دخلنا البحر الأسود الرهيب : وهبت ريح عنيفة من جديد ، وجاءتنا رائحة البحر المالحة ٠ وصارت الامواج تندفع الى الأمام مقوسة ظهورها مزبدة معربدة مثل جياد هوميروس البيضاء المطهمة ، اجتمعنا في حجرتي وتحدثنا عن اليونان – اليونان الخالدة المعذبة ذات الألف جرح – وعن واجبنا في أن لا نخزيها في المناطق البعيدة التي كنا ذاهبين اليها ٠

لن أسجل هنا تقلبات بعثتنا ومراحلها ٠ قضينا ، أنا ومرافقيّ، شهرا ونحن نزور المدن والقرى التي انتشر فيها اليونانيون ٠ عبرنا جورجيا ودخلنا أرمينيا ٠ في تلك الأيام ذاتها كان الأكراد قد قبضوا على بعض اليونانيين ، وهم ثلاثة هذه المرة ، وركبوا لهم حدوات مثل البغال ٠ كانوا قد وصلوا الى جوار كارس وصرنا نسمع مدافعهم ليلا ونهارا ٠

قلت : « يجب أن يبقى واحد منا في كارس ليجمع اليونانيين كلهم – رجالا ونساء وأطفالا اضافة الى مواشيهم ومعداتهم – وان

★ اى التى جعلت تركية .

يتصرف كقائد لكي ينقلهم الى مرفأ باتوم · كنت قد أرسلت في تقريري أطلب مجيء الزوارق مع شحنات من المواد الغذائية والملابس والأدوية · وهذه القوارب ستأخذ الناس في رحلة عودتها · من يريد البقاء في كارس ؟ يجب أن لا تحدث خطيئة ـ ستكـون مهمته خطـرة » ·

كان وجهاء كـارس اليونانيـون مجتمعـين حـولنا يستمعون وعيونهم معلقة على شفاهنا ·

تقدم المرافقون العشرة كلهم الـى الأمـام · كلهم يريـدون البقاء · انتقيت أكثرهم تأثيرا في مظهره ، زميل صف سابق عزيز علي وأثير لدي ، سبق له ان جرح في حروب الماضي · كان مقـداما لا مباليا وحيويا وكان يستمتع بممازحة الخطر ·

قلت : « انت تبقى يا هيراكليس · وليكن اله اليونان معك » ·

أجاب ضاحكا : « يجب أن تسامحوني كلكم اذا قلبت الدلو ـ أي اذا مت · وليسامحكم الله » ·

شددنا على يده وتركناه · بعد عدة أسابيع ظهر في باتوم مغبرا أسود كالفحم وثيابه ممزقة · كان يمشي في المقدمة ووراءه جيش كبير من يونانيي كارس مع ثيرانهم وخيولهم وأدواتهم وفي وسطهم القس مع الأناجيل المغلفة بالفضـة جلبها مـن الكنيسة والعجائز يحملون الايقونات المقدسة على أذرعهم · لقد اقتلعـوا جذورهم وتوجهوا أخيرا الى اليونان الحرة ليمدوا جذورا جديدة ·

ونحن ، خلال هذا الوقت ، كنا قد جمعنا يونانيـي جيورجيا كلهم · وذات صباح سمعت صرخات وهتافات الفرح وطلقات بنادق · ركضت الى المرفأ · كانت أولى السفن اليونانية قد وصلت لنقل الناس ·

كان كفاحا صعبا · وقد أضعفنا التعب والقلق وقضاء الليالي دون نوم · كنت أحيانا اختلس نظرة سريعة الى الجبال الاسطورية القفراء والى السهول الساكنة ، وجمع البشر البهي بعيونهم الشرقية

الواسعة وعذوبتهم التي لا تقاوم والأرواح المرحة المبتهجة • كانوا يشربون ويرقصون ، يتعانقون ويقتل كل منهم الآخر بنبل مجيد مثل حشرات ملونة •

لم يكن لدي الوقت ولم أرغب في تحويل تفكيري عن الواجب الجسيم الذي جئت الى هنا بسببه • رأيت رجالا ونساء وأطفالا صغارا جائعين ويائسين يتجمعون حولي ويحدقون الى عيني • كانوا ينتظرون مني أن أجلب لهم الخلاص • فكيف يمكنني أن أخونهم ؟ كنت أقول لهم دائما : « لا تخافوا يا أخوتي • نحن جميعا في هذه المشكلة معا • اما أن أنجو معكم أو أضيع معكم » وكنت أحدثهم أحيانا عن شعبنا المعذب الذي حاصره الهمج والجوع والفقر والهزات الارضية والنزاعات قرونا عديدة • ولقد كانت هذه القوى تريد ان تضع نهاية لليونان ولكنها كانت خالدة ، انظروا كيف عاشت وازدهرت آلاف السنين ••• وهكذا استطاعت هذه الأرواح البائسة ان تستمر بحملها اليونان في أذهانها •

كان هناك مساء وحيد فقط كنت فيه قيد شعرة من خيانتهم • وأتذكر الأمر بخجل : ذات مساء على البحر في باتوم في حديقة لطيفة مغطاة بحصى بيضاء خشنة ومحاطة بالروطان ★ الذي تفتحت عليه أزهار قرمزية اللون متماوجة • كان يعذبني قلق لا يمكن احتماله • في تلك الايام لم تكن هناك دلائل على زوارق اضافية • هل ستأتي أم لا ؟ وهل ستنجو هذه الارواح المعلقة برقبتي كلها ؟ قبل عدة أيام كنت قد تعرفت الى جورجينا باربارا نيكولا ييفنا ، وقد دعتني هذا المساء الى تلك الحديقة اللطيفة لأنها رأت كم كنت متوترا بعمق وقد أحست بالأسف نحوي • كانت أجمل امرأة قابلتها في حياتي • لا • ليست جميلة ، بل هي شيء لا يمكن ان تحتويه الكلمات – عينان خضراوان ساحرتان بشكل خطر مثل عيني أفعى ، وصوت أجش متكتم ، كله وعد ورفض وعذوبة • حين تطلعت اليها طاش صوابي • وانطلق من صلبي قباع ★★ ما قبل انساني ، وانفتحت في

★ نبات تصنع منه السلال •

★★ صوت الخنزير •

داخلي كهوف عميقة سوداء ، وبـدأ أسـلاف مهجـورون بدائيون يخورون وهم يحدقون الى بربارا نيكولايفنا .

وحدقت اليها مثلهم وأنا أقول لنفسي لن تتكرر هذه اللحظة ، ولن يعثر على هذه المرأة مرة أخرى . لقد عملت أعداد لا تحصى من المغامرات والمصادفات والاحداث العارضة والاقدار ، ملايين السنين لكي يولد هذا الرجل وهذه المرأة ويتضاجعا على شاطىء قوقازي داخل هذه الحديقة ذات الروطان المزدهر ، فهل سنترك هذه اللحظة القدسية تفلت منا ؟

التفتت المرأة وهي تغمض عينيها نصف اغماضة : « نيكولاي ميخايلوفتش ، هل جئت لتأخذني من هنا ؟ » .

تملكني الرعب . لقد تجرأت المرأة على قول ما كنت أتوق ولا أجرؤ .

ـ أخذك من هنا ؟ الى أين ؟

ـ بعيدا عن هنا . لقد مللت زوجي . انني أختنق هنا وأذبل . انني أشفق على جسدي ، يا نيكولاي ميخايلوفتش ، أشفق على جسدي . تعال . خذني بعيدا » .

تشبثت بالكرسي الذي كنت أجلس عليه . كان كيك ★ قد ألقى مرساته أمامنا وخفت أن أقفز وأمسك بها من خصرها وأصعد بها الى القارب لكي نتمكن من الفرار . وصارعت لكي أقاوم .

ـ وماذا عن واجبي يا بربارا نيكولايفنا ؟ وماذا عن آلاف الارواح التي تنتظر مني أن أنقذها ؟

بحركة سريعة فكت المرأة الشريط الحريـري الـذي تلف به رأسها ، وانسكب شعرها المزرق على كتفيها ، زمت شفتيها مغتاظة وهتفت ساخرة « واجب ! اسمح لي أن أقول لك ان هناك واجبا واحدا

★ زورق طويل .

فقط ! واجب وحيد : هو ان لا تترك السعادة تهرب منك ـ ان تمسك بها من شعرها • أمسك بي من شعري يا نيكولاي ميخايلوفتش • لا أحد يـرانا » •

تطلعت الى البحر • كانت الشياطين كلها تتصارع في داخلي وليس بينها ملاك واحد • وكان القدر يقف أمامي منتظرا • ومرت لحظة طويلة • وبغتة قفزت المرأة شاحبة •

قالت : فات الأوان • لم تستطع أن تقبـل فـورا ، فشلت في الامساك بشعري • إنك تحسب الربح والخسارة • فات الأوان • حتى لو قبلت الآن فلن أقبل ، في صحتك يا نيكولاي ميخايلوفتش ! برافو ! انك تافه صغير شريف ، ما يعرف بأنـه دعامـة حقيقية للمجتمع • بصحتك وبسعادتك » •

وهي تقول ذلك كانت قد أفرغت كأسها المليئة بالخمرة الارمنية اللاذعة •

الآن ، بعد آلاف السنوات في شيخوختي ، أغمض عيني فيزدهر الروطان من جديد ويدق البحر الاسود صدغي وتأتي بربارا نيكولايفنا وتجلس أمامي ، ولكن ليس على كرسي هذه المرة بل متربعة على الحصى الابيض • أتطلع اليها وأسأل نفسي هل اخطأت فـي عدم الامساك باللحظة القدسية من شعرها ؟

أتنهد وأجيب : لا • ولم آسف على شيء •

★ ★ ★

غادرت القوقاز بعد أسبوعين • كانت الأيام الأخيرة قاسية جدا • كانت السفن قد بدأت فعلا في التحرك ناقلة الناس • ورأيت انخراطي في مملكة الفعل يثمر ، واستطعت منـذ ذلـك الحين أن أتخيل اليونانيين الكادحين يمدون جذورهم في مكدونيا وتريس ، أراضينا القديمة التي تمزقت تحت العقب الهمجية • سوف يغطونها بالقمح والتبغ واليونانيين الصغار • لا بد انني كنت راضيا • لكن

دودة خبيثة كانت تنغل في قلبي وتثقبه شيئا فشيئا ـ وبما انني لم أكن قد تمكنت بعد من التعرف على ملامح قلقي الجديد بوضوح فقد اكتفيت بالاحساس بالمرارة ٠

وفيما كنت على وشك الصعود الى السفينة جاءني عجوز من بونتوس ٠

ـ قيل لي انك مثقف يا ريس ٠ وأحب أن أسألك سؤالا ان لم يكن لديك مانع ٠ هل كان الليديون الذين شاركوا في حرب طروادة يونانيين ؟

صعقت ٠ لم أحلم أبدا ان يكون هذا الأمر بين الأمور كلها مشكلة تعذب الرجل ٠

أجبته : « يونانيين ؟ لا ٠ أبدا ٠ كانوا ليديين من آسيا الوسطى » ٠

هزّ العجوز رأسه : « كان الآخرون على حق اذن حين أخبروني انك تتنكر لتراثنا القومي ٠ وداعا ! » ٠

★ ★ ★

كان هذا آخر صوت سمعته في القوقاز ٠

كثيرا ما فكرت ، فيما بعد ، في هذا العجوز من بونتوس ٠ وبدأت بالتدريج أفهم انه ليس مهما ما هي المشكلة ، وسيان كانت صغيرة أم كبيرة ، تلك التي تعذبنا ، الشيء المهم الوحيد هو أننا نتعذب واننا نجد أساسا لعذابنا ٠ بتعبير آخر اننا نعمل أذهاننا لكي لا نسمح لليقين بتحويلنا الى حمقى ، واننا نجاهد لفتح كل باب مغلق نجده أمامنا ٠ « لا أستطيع العيش دون يقين » يقول الشخص المتعجل للاستقرار لكي يجد أرضا ثابتة يقف عليها ، ولكي يأكل دون ان يرى ما لا يحصى من الجائعين وهم يفغرون أفواههم ويتابعون الطعام الذي يلتهمه٠« لا أريد العيش دون شك ولا أستطيع » يصرخ آخرون ممن لا يأكلون بضمير مرتاح ولا ينامون دون كوابيس ، ولا يقولون ان هذا العالم خال من العيوب فليبق كما هو الى الأبد ٠

هؤلاء الآخرون ، باركهم الله ، هم ملح المولى ، هم الذين يحمون الروح من التعفن • لقد ضحكت وسخرت حين سمعت العجوز من بونتوس بقلقه المضحك • أما الآن يا أخي ، ويا رفيقي في الكفاح ، لو انني أستطيع أن أراك ثانية لألقي بنفسي بين ذراعيك !

كانت السفينة مليئة ببشر مقتلعين من أرضهم وكنت في طريقي لغرسهم في اليونان ، بشر وخيول وثيران وقصعات عجين وأسرة أطفال وفرشات وايقونات مقدسة وأناجيل ومعاول ومجارف - كل شيء كان يهرب من البلشفيك والأكراد ويرحل باتجاه اليونان الحرة • وليس من المخجل أبدا أن أقول أنني كنت متأثرا من أعماقي • كنت أحس كما لو انني قنطور ★ وان هذه السفينة بحشدها الهائل هي جسدي من الرقبة وما دون •

كان هناك انتفاخ بسيط في البحر الاسود وكان للموجة النيلية القاتمة رائحة الجبَس (البطيخ الاحمر) • عن يسارنا شواطىء بونتوس وجبالها التي كانت ذات يوم لنا وعن يميننا البحر الشاسع المتلألىء • غابت القوقاز في الضوء لكن العجائز جلسوا عند مؤخرة السفينة وأداروا ظهورهم وقد عجزوا عن تحويل عيونهم عن الافق الحبيب • اختفت القوقاز وصارت طيفا ذهب بددا ، ولكن في أعماق حدقات العجائز بقيت راسخة لا تعرف الغياب • انه لمن الصعب ، والصعب الى أبعد الحدود على الروح أن تقتلع نفسها من موطنها ، من الجبال والبحار ، من الناس الذين أحبتهم ومن البيت الحبيب الصغير الفقير • الروح أخطبوط وهذه الأشياء كلها أطرافها •

جلست في المقدمة على حبل ملفوف • وكان يحتشد حولي رجال ونساء ، بعضهم من كارس وبعض من سوخومي ويونانيون مضطهدون آخرون من تايغان • لم يكن لعذابهم من نهاية وكان كل منهم مندفعا في سرد حكايته للتخفيف عن نفسه • وكنت أستمع وأنا معجب سرا بقدرة الشعب اليوناني على التحمل ، ذلك أنهم وسط حدادهم وندبهم للأحياء الذين ماتوا والبيوت التي احترقت ،

★ القنطور كائن خرافي نصفه الاعلى بشر ونصفه الاسفل حصان .

والجوع والخوف اللذين عانوهما ، يطلق أحدهم بغتة نكتــة بذيئة ينتهي معها بؤسهم كله وترتفع رؤوسهم عاليا من جديد · فبينما كانت صبية مشعثة تبكي زوجها الذي قتل مد عمــلاق ضخم ذو شاربين فاحمين متدليين مخلبــه الضخــم ولمسها على كتفها · قال « يكفي بكاء يا ماريوريتسا · حتى لو بقي شخصان فقط في العالم كله - ولنقل أنا وأنت - فان الارضــ اليونانيــة ستمتلىء بالاطفال من جديد » · ونقل عينيه على الباخرة « هل تعلمون يــا أخوتي أين يكمن أمل العالم ؟ هل ستقولون في الراس ؟ لا تحت ذلك » ثم ألقى نظرة سريعة على المرأة « اي قسما بالله لولا انني أخجل أمام السيدات لأريتك أين يكمن أمل العالم ! ··· فلتتوقفي عن البكاء · هيا ! » ·

احمرت المرأة خجلة وضحك الرجال وهتفوا : « تودوريس ، لا أحد يقترب منك انت · بوركت لأنك تجعلنا نضحك · »

وكان هناك رجل وحيد يجلس جانبا ولا يتكلم · هذا الرجل لم يضحك ولم يحك معاناته كان يبدو غــير راغــب في التخفيــف عن نفسه · وكان له جسد ضخم ورقبة عجل ويدان طويلتان ضخمتان لا بد أنهما تصلان الى ركبتيه · وقميصه المفتوح يكشف عن صدر مغطى بالشعر · لم يسبق لي أن رأيت قبل ذلك انسانا يشبه الدب الى هذا الحد ·

حين تفرق الآخرون واضطجعوا على أسمالهم ليناموا بقي هذا الرجل يحدق الى البحر ورقبته الغليظة ممدودة الى الامام · توجهت اليه مدركا أن هناك قوة مقلقة تنبت من هذا الثور البشري الذي لا يتحرك ·

« أنت لم تتكلم » بدأت لكي أفتح معه محادثة · التفت وتطلع الي ثم مد يده فطقطقت عظامه ·

« أتحدث ؟ لأقول ماذا ؟ لأصف ألمي وأجد الراحة ؟ أنا لا أريد أن أجد الراحة » ·

صمت ونهض وكأنه راغب في الابتعاد ولكنه عاد وجلس من جديد . أحسست به يصارع شيئا في داخله . ولم يكن يريد ان يتكلم . لكن قلبه قد فاض . اضافة الى ان الليل كان قد هبط وأننا كنا وحيدين ، فلان قليلا .

« لقد رأيت الجبال والغابات في القوقاز . ألم ترها ؟ لقد تجولت وحدي فيها سنين . كانوا يسمونني الخنزير البري لأنني لم أكن أرافق أحدا . لم أكن أذهب الى المقهى أبدا ولا الى الكنيسة ، كما قلت لك ، كنت أجوب الجبال والغابات وحيدا . لقد التهمت الجبال حجرا حجرا . كنت حجارا وحطابا وفحاما ، وكنت عاريا وفقيرا . لكنني كنت شابا وقويا مثل ثور ولم أكن في حاجة لأحد . وذات يوم احسست بقوتي تخنقني وأنا أتسلق جبلا. ولكي أمنع نفسي من الانفجار بدأت أعزق الجبل وأقطع عوارض خشبية من أكبر الصنوبرات وأبني بيتا . بنيته قريبا من نبع ماء ، وأكملت الباب والنوافذ وكل شيء . صار كاملا . وجاء رجال ونساء من قرية مجاورة لرؤيته . جلبوا معهم خمرا وطعاما . لكنني اكتفيت بالجلوس على حجر والتطلع اليه . وجاءت فتاة وجلست الى جانبي . وراحت تتطلع اليه أيضا . وفيما كنا نتطلع اليه معا دخت . وفي صباح اليوم التالي وجدت نفسي متزوجا » .

تنهد : « وجدت نفسي متزوجا . وانتهى الدوار . وعاد الي عقلي من الجبال العالية » .

قلت لها : « ما الذي سنأكله يا زوجتي ؟ أنا لا أستطيع أن أطعم واحدا فكيف سأطعم اثنين ؟ ثم ماذا عن الاطفال ؟ » .

قالت : لا تقلق . دعنا نذهب الى الكنيسة .
- وماذا تتوقعين مني أن أفعل في الكنيسة ؟ لن أذهب .
- قلت لك دعنا نذهب .
ذهبنا وصلّبنا أنفسنا وتشجعنا .
قالت زوجتي : والآن هيا بنا نذهب ونعمل في حقلنا .
- حقل ؟ أي حقل أيتها الحمقاء ؟ أنك تقصدين الحجارة .
- سنكسر الحجارة ونسحقها ونصنع ترابا .

ذهبنا وسحقنا الحجارة وصنعنا ترابا وزرعنا محصولنا ٠
وقالت لي هذه المرة زوجتي : « فلنذهب الآن لتقليم زيتوناتنا » ٠
ـ أية زيتونات ؟ هذه العصي اليابسة ؟
ـ أقول لك دعنا نذهب ٠

ذهبنا وقلمنا العصي اليابسة ٠ زرعنا وقلمنا وملأنا أنفسنا بالخبز وحشونا أمعاءنا بزيت الزيتون ٠ فليقدس الله عظام جدي ٠ لقد اعتاد ان يقول لي : « لا حاجة لأن تخاف الفقر والعري اذا كانت لك زوجة صالحة » ٠

وصمت مرة أخرى ٠ امسك بطرف الحبل وبدأ ينسل خيوطه مثل قط بري ٠ وكنت أستطيع أن أسمع أسنانه تصر في الظلام ٠

ـ وبعد ذلك ؟ سألته وأنا مضطرب ٠
ـ يكفي ٠ هل تتوقع مني أن أصف معاناتي مثل الاخرين ؟
ـ ماذا عن زوجتـك ؟
ـ قلت لك يكفي !
طمر رأسه بين ركبتيه ولم يتكلم بعدها ٠

★ ★ ★

« تستطيع دموع البشر أن تدير طواحين العالم كلها ، ولكنها لا تدير طاحونة الله » قال لي ذلك رجل في المئة منعمـره، في قرية مكدونية ، كان يقرفص أمام عتبة كوخه الفقير لكي يدفىء نفسه في الشمس ٠ ان الحب والعطف من نبات الانسان وليسا من نبات الله ٠ أية آلام لا تحتمل كانت هذه السفينة تحمـل وتجلـب الى اليونان ! لكن الزمن ، عليه رحمة اللـه ، يشفـق علينا ٠ الزمن اسفنجة تمحو ٠ ان المحصول الجديد من عشب الربيع يغطي حجارة القبور بسرعة وتستأنف الحياة صعودها لاهثة ٠

كانت السماء مليئة بالنجوم ٠ وخرج برجي ، العقرب ، مـن البحر غاضبا بعين حمراء وذنب معقوف ٠ كان يحيط بي ألم الانسان ومن فوقي السماء المليئة بالنجوم ، خرساء ولا انسانية ، ومليئة

بالوعيد . لا بد ان لهذه النقاط النيرة معنى خبيثا . ولا بد ان هذا الأرغوس ★ ذا الالف عين يقوم على حراسة سر رهيب . ولكن أي سر ؟ لم أكن أعرف . الشيء الوحيد الذي كنت أحس به في أعماقي هو انه ليس لهذا السر أية علاقة بقلب الانسان . كان يبدو أن في الكون المنظم مملكتين منفصلتين : هما مملكة الانسان ومملكة الله .

بأحاديث كهذه وتأملات كهذه عبرنا البحر الاسود . ومن جديد رأينا القسطنطينية عن بعد وكانت هذه المرة تستحم بضوء الشمس وهي مليئة بالحدائق والمآذن والخرائب . رسم الركاب الذين معي الصلبان على أنفسهم بشكل عاطفي وانحنوا احتراما لها ، وانحنى رجل على مقدم السفينة وصاح : « تشجعي يا أماه ! تشجعي ! » وحين صرنا في مواجهة الشاطىء اليوناني نهض القس القادم من سوخومي ، وكان بين من يسافرون معنا ، ولف عليه بطرشيله ورفع يديه العجوزين الى السماء وصرخت بصوت عال لكي يسمعه الله : « مولاي ! مولاي ! أنقذ شعبك ! ساعده على مد جذوره في أرض جديدة ، لكي يحول الحجارة والاخشاب الى كنائس ومدارس ولكي يمجد اسمك باللغة التي تحبها ! » .

طفنا حول شواطىء تريس ومكدونيا وساقتنا الريح الى الجبل المقدس ثم دخلنا ميناء سالونيكا . لقد استغرقت مهمتي أحد عشر شهرا . وراحت حمولات السفن من البشر والماشية تصل تباعا من القوقاز ، وكان دم جديد يدخل في عروق الانسان . طفت تريس ومكدونيا لأختار الحقول والقرى من بين ما خلفه الاتراك حين رحلوا . تملك المالكون الجدد وبدأوا الحراثة والزرع والبناء . أعتقد ان من أكثر متع الانسان شرعية أن يتعب وأن يرى تعبه يثمر . ذات مرة أخذني وإستراتي مهندس زراعي الى امتداد صحراوي قرب استراخان . مد ذراعيه ، وبحس انتصار عانق الرمال اللامتناهية . قال : « لدي آلاف العمال . انهم يزرعون نوعا من الأعشاب ذات الجذور الطويلة التي تمسك المطر والتراب . خلال

★ عملاق ذو مئة عين مكلف بحراسة العجلة ايبو وقد حولت عيونه بعد موته الى ذيل للطاووس .

سنوات قليلة ستكون هذه الصحراء كلها بستانا » كانت عيناه تلتمعان « انظر ! هل ترى القرى والبساتين والمياه في كل مكان حولك ؟ » وصرخ استراتي مندهشا : « أين ؟ أين ؟ اننا لا نرى شيئا » • ابتسم المهندس الزراعي وقال : « خلال سنوات قليلة سترى ذلك كله » • وغرز عصاه في الرمل وكأنه يقسم •

الآن رأيت انه كان على حق • تطلعت حولي بطريقة مشابهة الى الارض الخراب التي كان زملائي الركاب يتقاسمونها فيما بينهم ورأيتها مليئة بالبشر والبساتين والمياه • وسمعت الاجراس من كنائس المستقبل ، والاطفال يلعبون ويضحكون في باحات المدارس• وهنا كانت شجرة لوز مزهرة أمامي : يجب أن أصل اليها واقطف منها غصنا مزهرا • ذلك لأننا بايماننا العاطفي بشيء لم يوجد بعد انما نخلقه • وما لا يوجد هو ما لم نرغب فيه بالقدر الكافي،وهوما لم نروه بدمائنا الى حيث يصبح قويا الى درجة تجعله يخطو متجاوزا عتبة اللاوجود المعتمة •

اخيرا ، وحين انتهى كل شيء ، احسست فجأة كم كنت متعبا • لم اكن أستطيع الوقوف على قدمي ، ولم اكن استطيع أن اكل او انام او اقرأ • كنت منهكا • لقد حشدت قواي كلها من أجل هذا الوقت ، وطالما ان الحاجة قائمة ، ولقد ساندت الروحُ الجسد ومنعته من ان يسقط • ولكن المعركة انتهت فورا ، وانحل الحشد الداخلي ولكن ليس قبل الانتهاء من المهمة الموكولة الي • أنا الآن حر • قدمت استقالتي • ووجهت وجهي فورا الى كريت • كنت أريد أن أسير على ترابها والامس جبالها ثانية لكي أستمد منها القوة •

٢٨ ـ عودة الابن الضال

حين يعود الانسان الى بلده بعد سنوات عديدة من التجوال والكفاح في الخارج وينحني على حجارة الاسلاف ويطوف بنظره على المناطق الاليفة المحتشدة بالأرواح البلدية وبذكريات الطفولة وأشواق الشباب ، يتصبب منه عرق بارد ٠

ان العودة الى تراب الاسلاف تجعل قلوبنا تضطرب ٠ وكأنما كنا عائدين من مغامرات لا يمكن ذكرها وداخلين في مناطق جديدة محرمة ، وبغتة ، هناك في اقامتنا المؤقتة في الخارج ، أحسسنا بثقل يسقط على قلوبنا ٠ أي شغل لنا هنا مع الخنازير التي تأكل البلوط ؟ نتطلع وراءنا الى الارض التي غادرناها ونتنهد وعند تذكر الدفء والسلام والحياة الرغدة نعود مثل الابن الضال الى صدر الامومة ٠ في داخلي تتسبب هذه العودة دائما في رعشة سرية ، ودلالة منذرة كأنما بالموت ٠ بدا لي وكأنني أعود الى طين الاسلاف الذي طال شوقي اليه بعد مثاقفات الحياة وتبذيراتها ، وكأنما قوى خفية قاتمة متحكمة قد أوكلت لانسان تنفيذ مهمة والآن عند عودته يبرز صوت قاس من حنايا أرضه يسأله : هل نفذت مهمتك ؟ قدم تقريرا عن نفسك !

هذه الرحم الأرضية تعرف بدقة قيمة كل من أبنائها وكلما سمت الروح التي صنعتها صعبت الوصايا التي تفرضها عليها ـ انقاذ نفسها أو شعبها أو العالم ٠ ان مرتبة روح الانسان تتحدد بأي من هذه الوصايا تلتزم ، الأولى أم الثانية أم الثالثة ٠

ومن الطبيعي ان يرى كل انسان هذا الارتقاء ، الارتقاء الذي تكون روحه ملزمة بالقيام به ، محفورا بعمق أكبر على الارض التي ولد فيها • ان هناك تعاقدا وتفاهما غامضين بين هذه الارض التي صنعتنا وبين أرواحنا • وتماما كما ترسل الجذور أمرا سريا الى الشجرة لكي تزهر وتحمل الثمار بحيث تجد هذه الجذور مبرر وجودها وتصل الى الهدف من رحلتها ، كذلك فان أرض الاسلاف بالطريقة ذاتها تفرض وصايا صعبة على الارواح التي ولدتها • ويبدو ان الارض والروح مصنوعتان من المادة ذاتها ، وتقومان بالهجوم ذاته ، والروح هي التي تحقق الانتصار الأكمل •

ان ترفض أبدا التنكر لشبابك ، حتى أقصى مراحل شيخوختك ، وأن تصارع طوال حياتك لتحويل أزهار نضجك الى شجرة محملة بالثمار ـ هذا ، كما أعتقد ، هو الطريق الوحيد للانسان المتحقق •

فالروح تعرف معرفة تامة (وعلى الرغم من انها تتظاهر بالنسيان كثيرا من المرات) ان عليها ان تقدم الحساب للأرض الوالدية • ولا أقول « أرض الآباء » بل أقول الارض الوالدية • فالأرض الوالدية شيء أكثر عمقا وأكثر تواضعا وأكثر تحفظا وهي مؤلفة من عظام عتيقة مطحونة •

هذا هو يوم القيامة الارضي ـ والوحيد ـ الذي توزن فيها حياتك داخل أحشائك التي ما تزال حية • وتستمع الى الصمت الحاسم الحاكم بالعدل يطلع من أرض أسلافك فترتجف • أي جواب تستطيع ان تقدمه له ؟ تعض على شفتك وتفكر ، آه لو انني أستطيع أن أعيش حياتي من جديد ! ولكن فات الأوان •• تعطى الفرصة مرة واحدة فقط ، مرة واحدة الى الأبد • ولا تعاد ثانية •

وذكريات الطفولة التي تتفجر من كل اتجاه تساعد على زيادة الألم أكثر • لقد أحاطت بأرواحنا المندفعة الى الأعالي قشرة سميكة فجمدتها في شكل حدبات وتجاعيد وعادات مخزية • وتلك الروح التي كانت في لهيب الشباب المتأجج تتوق للسيطرة على العالم ،

والتي كانت تحس أنها محدودة جدا في قلعة بلوغها الرائع ، تقعي الآن راجفة في زاوية واحدة من جسد كله ذابل وكله جلد . وعبثا تحثها الحكمة القديمة والجديدة للخضوع بتفهم وصبر لقانون الضرورة . وتقول لها هذه الحكمة من خلال المواساة الجبانة ان النباتات والحيوانات والآلهة كلها تندفع الى الأمام تنتصر وتهزم وتنهار بالطريقة ذاتها تماما . ولكن روحا مطلبية لن تتنازل بقبول عزاءات كهذه . وكيف تستطيع ذلك ؟ لقد ولدت تحديدا من أجل أن تشن الحرب على قانون الضرورة .

ان العودة الى الموطن حادث حاسم . تتفجر القشرة المريحة والخائنة وينفتح باب المصيدة ، فتنبعث الكيانات التي كانت ممكنة ذات مرة والتي قتلناها - النفوس الأفضل كلها التي كان من الممكن ان نصيرها ثم فشلنا في ذلك بسبب الكسل وسوء الطالع والجبن - مثل أشباح كريهة وتقفز الى وعينا .

وهذا الامتحان يصبح غير ممكن احتماله حين تكون أرض الشخص الوالدية حروفا وغير ممكن تدبيرها وحين لا تسمح له جبالها وبحارها - والارواح المصنوعة من هذه الصخور والمياه المالحة - أن يستقر في راحة مدبرة حتى لو للحظة ، أو ان يحس بالرضى العذب وان يقول « يكفي ! » . ان في كريت هذه شيئا قاسيا بشكل لا انساني . وأنا لا أعرف ما اذا كانت تحب أولادها ولذلك فهي تعذبهم ، فكل ما أعرفه هو انها تظل تجلدهم حتى يتدفق الدم منهم .

ذات يوم سئل الشيخ جليلان ، ابن هاراسا ، « ما الذي يجب أن يفعله العرب لكي يتجنبوا الانهيار ؟ » فأجاب « كل شيء سيكون على ما يرام طالما أنهم يغيرون على خيولهم والسيف في أيديهم والعمامة على رؤوسهم » . وحينما استنشقت الهواء الكريتي وحدقت الى الكريتيين لم أستطع أن أفكر في أي شعب على الأرض استطاع أن ينفذ هذه الوصية العربية الشامخة باخلاص أكبر .

في أكثر لحظات الحياة حسما - حين يدفع الشاب جانبا بحشد من الاحتمالات المتاحة له ثم يختار واحدا ، واحدا فقط ، ويربط

مصيره به ثم يدخل النضوج - في تلك اللحظة قامت ثلاثة أحداث كريتية بانقاذ (لا لم تنقذ بل حاولت ان تنقذ) روحي • وربما انها سوف تنقذ أرواحا أخرى وهذا ما يغفر لي ذكرها • انها بسيطة جدا بقشرة فلاحية سميكة ، ولكن كل من يستطيع كسر هذه القشرة فانه سيتذوق ثلاث لقمات من الأدمغة الاسدية الصلبة •

★ ★ ★

١) راع من أنوغيا وهي قرية صخرية قفراء على منحدرات بسيلوريتي • اعتاد هذا الراعي ان يسمع أبناء قريته يحكون غرائب وعجائب عن ميغالو كاسترو • ففي هذه المدينة ، كما تقول الروايات ، تستطيع أن تجد بضائع العالم كلها ، الفول أكوام ، وأكياس من سمك القديد المملح وبراميل عديدة من السردين والرنكة المدخنة ، وأكثر من ذلك حوانيت طافحة بالاحذية ، وحوانيت أخرى مليئة ببنادق المسكيت للبيع قدر ما تشاء وبارود وسكاكين جيب وخناجر ، وحوانيت أخرى أيضا أفرانها تنتج مخبازا بعد مخباز من الخبز كل صباح ، خبز أبيض على شكل أرغفة طويلة رقيقة • واضافة الى ذلك ، تقول الروايات ، هناك في الليل نساء لا يقتلنك ، كما تفعل الفتيات الكريتيات ، اذا لمستهن ولحمهن أبيض ولذيذ مثل تلك الأرغفة الطويلة الرقيقة •

سال لعاب الراعي وهو يستمع الى هذه المعجزات كلها ، وصارت ميغالو كاسترو تضيء في خياله على أنها الفردوس الكريتي المليء بسمك القديد والمسكيت والنساء • راح يستمع ويستمع • وفي عصر أحد الايام كان عاجزا عن المقاومة أطول من ذلك ، شد كمره بقوة حول خصره • وقذف بكيس الزوادة ، الزوادة المطرزة ، على كتفه وأمسك بعصاه ثم انحدر عن بسيلوريتي • خلال عدة ساعات كان يقف وجها لوجه أمام كاسترو • كان الوقت ما يزال نهارا وكانت بوابة السور ما تزال مفتوحة • وتوقف الراعي عند القبة • خطوة واحدة ويكون في الفردوس • ولكن بغتة قفزت روحه واقفة • بدا وكأنها تحس بنفسها مخنوقة بالرغبة ، انها لم تعد تفعل ما تشاء ولم تعد حرة • خجل الكريتي وقطب حاجبيه • يجب ان يدافع عن احترامه لنفسه •

قال . « اذا شئت دخلت واذا لم أشأ لم أدخل · لن أدخل » · أدار ظهره لميغالو كاسترو وتوجه مرة أخرى الى الجبل ·

٢) مات شاب قوي ووسيم في قرية كريتية أخرى ، في الجبال البيضاء · قام أربعة من خيرة أصدقائه وقالوا : « هل سنذهب ونسهر على فراش موته لكي نريح النساء من ندبهن ؟ »

« نعم · » وافق الجميع بأصوات مخنوقة ·

لقد كان الشاب الميت أفضل « قبضاي ★ » في القرية ، في العشرين من عمره وقد طعنهم موته في الصميم ·

قال أحد الاصدقاء : « لقد جلب لي أحدهم بعض الراكي اليوم· انه راكي التوت الاسود · وهذا يستطيع حتى أن يعيد الميت للحياة · ما قولكم يا شباب ؟ هل أعبىء زجاجة وآخذها معي ؟

– وأمي خبزت اليوم · فهل أجلب رغيفين من خبز الشعير ؟
– ولقد تبقى لدي بعض سجق الخنزير · فهل أجلب حبلا منه ؟

– أما أنا فسأجلب الكؤوس · قال الرابع · وخيارتين طازجتين·

أخذ كل منهم زوادته ووضعها تحت سترته الرعوية المصنوعة من صوف الفريز · هبط الليل وجاء الاربعة فدخلوا بيت الميت ·

كان الميت محاطا بالحبق والعترة ، ممددا في تابوته على حوامل في وسط المنزل · كانت قدماه تواجهان الباب · وحوله كانت النسوة يندبنه مغنيات ·

قال الاصدقاء ، بعد أن حيوهن تحية المساء : « اذهبن أيتها السيدات ونمن قليلا · نحن سنسهر معه · »

★ Pallikari . الكلمة يونانية وقد شرحها مترجم الكتب الى الانكليزية (ب. أ. ببين) كما يلي : الرجل الحقيقي . شجاع وقوي وقادر على مقاومة الالم . كانت تستخدم أصلا للجنود المشاة الذين يرافقون الفرسان وفيما بعد لأي جندي . أما الآن فتستخدم لوصف اي شاب له صفات الجندي . وفي اليونان الآن فهي تعبير لا نظير له في المديح .

انسحبت النسوة الى غرفة داخلية واوصدن الابواب · توجه الاصدقاء الى المقاعد فوضعوا الراكي والمازوات عند قدميه وراحوا يحدقون الى الفقيد بعيون مليئة بالدموع · مرت نصف ساعة ثم ساعة · واخيرا رفع أحدهم عينيه عن الجثة ·

ـ ما قولكم يا شباب هل نشرب ؟

أجابوا : طبعا · نحن لسنا سكرانين · هل سكرنا ؟ فلنشرب ·

انحنوا وتناولوا الطعام · وأشعل أحدهم ورقة وشوى السجق· وملأت غرفة الميت رائحة لذيذة · عبأوا الكؤوس ولفوها بأكفهم لكي لا تصدر صوتا وقرعوها بقوة ·

« فليسامحه الله ··· نخب دورنا ·

« نخب دورنا ··· فليسامحه الله ·

أفرغوا كأس راكي واثنين وثلاثة وأكلوا المازة وأفرغوا الزجاجة وبدأوا يحسون بالغبطة · نظروا الى الجثة من جديد · وبغتة قفز أحدهم واقفا ·

ـ « ما قولكم يا شباب ؟ » ونظر الى الجثة نظرة جانبية · « ألن ندفنه ؟ »

ـ هيا بنا · رفعوا شراويلهم العريضة الواسعة ووضعوا نهاياتها في أكمارهم لكي لا تعيقهم في الركض · ثم نقلوا التابوت الى العتبة وفتحوا الباب المؤدي الى أرض الدار ·

بفت !! بفت !! بصقوا في راحاتهم · انطلقوا راكضين وبدأوا يدفنون الجثة ·

٣) وهذا الحدث الاخير ·

أحد الفصح ، قبل الفجر بقليل · ينطلق الأب كافاتوس بأقصى سرعته من قرية الى أخرى في جبال كريت ليقيم المسيح بسرعة فائقة لأن هناك قرى عديدة وليس لها الا هذا القس الوحيد ويجب أن يتم القيامة فيها كلها قبل الفجر · كمّاه مرفوعان ، وهو مثقل بثوبه الكهنوتي وانجيله المفضض الثقيل ، يتسلق الجبال الصخرية المغطاة بالجولق (نبات شوكي) ويركض طوال تلك الليلة المقدسة

متقطع الانفاس . يصل الى قرية ويصرخ : « كريستو أينسني » - أي المسيح قامَ - ثم ينطلق الى القرية التالية ولسانه متــدل من فمــه .

في القرية الاخيرة ، وهي قرية صغيرة بين جرفين كان الناس محتشدين في الكنيسة الصغيرة . كانوا قد أشعلوا المشاعل وزينوا الأيقونات والحامل بالغار والريحان الذي جلبوه من الوادي . بينما ظلت شموعهم في أيديهم دون اشعــال . كانوا بانتظار مجيء (الكلمة العظيمة) لكي يستطيعوا اشعالها .

في تلك اللحظة سمعوا طقطقة الحصى في الصمت وكأن حصانا كان يتسلق سفح الجبل والحجارة تتساقط من تحته .

« لقد جاء ! لقــد جاء ! »

انطلق الجميع خارجا . كان الافق الشرقي قد صار ورديــا والسموات تضحك . سمعت أنفاس ثقيلة وراحت كــلاب الرعاة تنبح فرحة ثم بغتة ومن وراء سنديانة مائلة - بقميص مفتوح الازرار ، وبجسد مبلل بالعــرق ، وبوجه محمر مــن الركض ، وباستغراق منهك في المسيحات التي أقامها - برز الأب كافاتوس العجوز الاسود القزم وشعره المشعث متدل .

كانت الشمس في تلك اللحظة تشرق من طرف الجبل . قفز القس فصار أمام أبناء القرية ومد ذراعيه وصرخ « كريستوس أينستاكاس يا شباب ! » كانت كلمة أنيستي المألوفة المبتذلة قد صارت تبدو له صغيرة ورخيصة وبائسة ، انها عاجزة عن احتواء (النبأ العظيم) . فتوسعت الكلمة وتوالدت على شفتي القس . تراجعت القواعد اللغوية وتحطمت أمام زخم الروح العظيم وخلقت قواعد جديدة وهكذا كان ! ففي خلق الكلمة الجديدة ، هذا الصباح ، أحس الكريتي العجوز للمرة الاولى أنه فعلا يحقق قيامة المسيح - المسيح كله وبكل انش في قامته العظيمة .

★ ★ ★

حبك للحرية ، ورفضك قبول استعباد الروح حتى مقابل الجنة، وممارستك الالعاب الشجاعة فوق الحب والالم وعليهما وفوق الموت وعليه، وتحسيمك أقدس الاصنام القديمة حين تعجز عن احتوائك بعد ذلك تلك هي صرخات كريت الثلاث العظيمة ٠

ان ما يملأ الروح بغبطة نقية خالصة ، في هذه الحوادث ، هو حقيقة ان من يتكلم هنا ليس الفلاسفة والاخلاقيين ، أولئك الذين يصنعون نظريات رفيعة صعبة ويعلنونها من خلال أوقات فراغهم وبعيدا عن أي خطر ٠ لدينا هنا بدلا من ذلك أرواح بسيطة ، فلاحون كريتيون ، يطيعون الدوافع الداخلية فيهم ، ومن دون أن تتقطع أنفاسهم يرتقون أعلى القمم التي يستطيع أن يصل اليها الانسان : الحرية واحتقار الموت وخلق القواعد الجديدة ٠ يتكشف أمام عيوننا الاصل الثلاثي النبيل للانسان ، اذ أننا نرى كيف أن هذا الوحش ذا الساقين في اتباعه طرقا غير الطرق الذهنية استطاع أن يصبح انسانا ٠ وبهذا تصبح رحلتنا الى الجلجلة الذهنية المصيرية متقلة أكثر بالمسؤولية لأننا الآن ، وبرؤيتنا للكريتيين ، نعرف اننا ان فشلنا في أن نصبح بشرا فهذا خطؤنا نحن ونحن فقط ٠ ومن أجل ذلك وجد هذا النوع اللطيف ـ الانسان ـ وظهر على الارض ولم يعد هناك أي مبرر لانحطاطنا وجبننا ٠

والشخص الذي لا يحاول خداع نفسه أو الآخرين ، في كريت ، يجد نفسه وجها لوجه ، وبدرجة ليست موجودة في أي مكان آخر ، أمام الربة ذات الثدي الواحد ، الامازونية ★ ، التي لا تفضل أحدا ولا تجلس على ركبة أحد من الآلهة أو البشر ، الربة : المسؤولية ٠

★ ★ ★

قضيت عدة أيام وأنا أتجول في المخابىء الحبيبة التي قضيت فيها شبابي ٠ مشاوير على شاطىء البحر ٠ في الأمسيات كان

★ اسم الشعب الاسطوري في مملكة كلها نساء محاربات . قيل ان النساء فيها يستأصلن الثدي الايمن لكي يسهل عليهن شد القوس ٠

النسيم البارد ذاته يهب ، ذلك النسيم الذي اعتاد أن يداعب شعري حين كان شعري أسود ، والرائحة ذاتها من الياسمين والحبق والعترة كانت تفوح حين أمر في الأزقة الضيقة عند الغسق ، والابواب مفتوحة والفتيات في المنازل يبدأن بسقاية الاصص في الدور ٠

لقد ظل للنسيم والرائحة العطرية والبحر شباب دائم ٠ البيوت وحدها قد شاخت وكذلك أصدقائي القدامى ٠ كثيرون منهم لم أستطع التعرف اليهم وكثيرون لم يعرفوني ٠ كانوا يحدقون الي للحصة ـ كنت أذكرهم بشخص ما ولكن من هو ؟ وحين كانوا يتعبون من محاولة التذكر كانوا يعبرون بي ٠ واحد منهم فقط رفع ذراعه مندهشا حين رآني وتوقف ثم صاح : « أهذا أنت يا صديقي القديم ؟ انظر الى نفسك ـ ما الذي حدث ؟ »

كان صديقي الحميم السابق ، ثالث الجماعة التي أسست جمعية الصداقة ، كان يبدو منعما وغليون فارغ في فمه لكي يستنشق النكهة ويخدع نفسه فيتوقف عن التدخين ٠ تطلع الي وتفحصني ثم شدني بقوة بين ذراعيه ٠

ـ كم أصبحت هزيلا وأسود ! ان خديك غائران وجبينك مغطى بالتجاعيد والاخاديد ٠ وتكاثف حاجباك مثل الاشواك بينما عيناك تنفثان النار ٠ ما الذي حدث لك ؟ الى متى ستظل تحترق ؟ والى متى ستظل تجوب العالم ؟

ـ طالما أنا حي ـ وحتى أصبح عاجزا عن التغير فاقف ميتا منعما ومعي غليون مطفأ في فمي مستظرفا العيش ٠

« أنا عجوز ٠ هل أنا كذلك ؟ هل أنا ميت ؟ » تساءل صديقي وهو ينفجر في ضحكة مهسهسة ساخرة ٠

لم أقل شيئا ٠ لقد ملأني التفكير في صديقي القديم بغتة بالحزن والسخط ٠ كيف أحببته في تلك الايام من غطرسة الشباب القدسية والمضحكة حين كنا نجوب شوارع كاسترو حتى الفجر ٠ بأية قناعة وبأية قوة كنا ندمر العالم ونعيد بناءه ! كانت أسوار مدينتنا

الصغيرة تضيق علينا ، والافكار التي نتعلمها من أساتذتنا كانت تضيق علينا ، وكنا نجد انه من المستحيل ان نخضع بارتياح داخل متع الانسان وطموحاته الاعتيادية ٠ وكنا نقول دائما : « فلنحطم الحدود » ٠ ولم نكن نعرف أية حدود هي ٠ كنا نظل نفتح أذرعنا ببساطة وكأننا كنا نختنق ٠

الآن يرخي صديقي ذراعيه الى جانبه ولم يعد يواجه مشكلة في التنفس وان ظلت لديه أية رغبة مؤلمة فانه يجاهد لاغراقها بتدخين غليون دون تبغ ٠

★ ★ ★

« لماذا ذهبت الى روسيا ؟ ما الذي فعلته ؟ » هكذا سألني والدي ليلة وصولي ٠ ونظر الي حانقا وهو لا يستطيع كبح غضبه الا بالقوة ٠ انه يتوقع مني منذ سنوات أن أفتح مكتبا وأن أبدأ التطواف في القرى لأعمل عرابا للمعمودية والأعراس ٠ سيتزايد أصدقائي وبعدها أعلن ترشيحي وأنتخب للمجلس النيابي ٠ ولكن ، بدلا من ذلك ها هو يراني الآن أطوف العالم ٠ وأكثر من ذلك فقد نقلت الاشاعات انني قد كتبت كتبا ٠ وآخر مرة رأيته فيها كان قد سألني : « أي نوع من الكتب ؟ حكايات ؟ رسائل عشق ؟ أغنيات ؟ يا للخجل ! الخصيان والرهبان هم وحدهم الذين يكتبون ٠ فلتستقر أخيرا في بلدك ، أنت انسان فلتعمل عمل الانسان ! »

أما الآن فهو ينظر الي من طرف عينيه ويقول : « ربما انك انقلبت عليّ الى بلشفيك ٠ هل الامر هكذا ؟ لا رب ولا وطن ولا شرف ٠ تقدموا أيها الكلاب دون سيطرة من أحد عليكم » ٠

قلت لنفسي ان هذا هو الوقت الملائم لشرح ما يحدث في روسيا ونوع العالم الجديد الذي يبنى ٠ وهكذا بدأت أحكي بكلمات بسيطة كيف انه لم يعد يوجد في روسيا أغنياء أو فقراء ٠ كل انسان يعمل وكل انسان يأكل ٠ ليس هناك أسياد وعبيد الآن ٠ كل انسان سيد ٠ لقد وجدت انسانية جديدة هناك ، وأخلاقية أسمى ، وشرف أكثر مدعاة للاحترام ، وأسرة جديدة ٠ ان روسيا في موقع القيادة

وهي تدل على الطريق والعالم كله سيتبعها الى أن تسيطر السعادة والعدالة على العالم ٠

توترت وبدأت أخطب ٠ وكان والدي يستمع بصمت ٠ وظل يلف لفافته ويفلتها ثم يلفها ويفلتها من جديد دون أن يقرر اشعالها ٠ قلت لنفسي انه يفهمني والحمد لله ٠ وبغتة رفع ذراعه غاضبا فسكت ٠

قال وهو يهز رأسه : « كل ما تقوله حسن وممتاز ٠ ولكن ماذا يعني اذا كان قد حدث فعلا ؟ »

بتعبير آخر : استمر ٠ تحدث وتحدث اذا كنت ترى ان الامر يستحق ٠ ليس هناك الا الكلمات ـ الثرثرة ـ انها لا تؤذي ٠ ولكن انتبه أيها التعيس ٠ انك لا تحولها الى فعل ٠

كم كنت أتمنى لو انني حولت هذه الكلمات الى أفعال ! ولكنني كنت أخشى أن لا أستطيع ٠ لقد تبخرت من أعماقي قوة شعبي الكبيرة وغرقت سفينة قراصنة جدي ٠ وانحط العمل الى كلمات وتحول الدم الى حبر ، وبدلا من اشهار الرمح وشن الحرب فانني أمسك بريشة صغيرة وأكتب ٠ كان الاحتكاك بالناس يزعجني ، ويحط من قواي وحبي ٠ وحين أكون وحدي فقط وأتأمل في مصير الانسان يفيض قلبي بالعطف والأمل ٠

وبعودتي من المشغل السوفياتي المولد للعالم استجمعت شجاعتي ٠ وقلت لنفسي ان الانسان يستطيع الآن ان يتغلب على عجزه ونواقصه ٠ ألا يستطيع ؟ يستطيع بالتأكيد ٠ فكم هو مخجل لي أن أجلس بهذه السلبية وأتقبل ما منحتني اياه الطبيعة ٠ سوف أتمرد !

وفي اللحظة التي كنت فيها أحتاج اليه تماما جاء عم غني لي ومنحني مبلغا من المال لكي أتوقف عن التطواف دون جدوى حول العالم ، كما قال ، ولكي أكرس نفسي لعملي بحمية وأفتح مكتب محاماة ثم انتخب الى المجلس النيابي وربما طلب الي ذات يوم أن أترأس وزارة وبهذا أمجد اسم عائلتي ٠ فأنا ، في النهاية ،

أول واحد من هذه السلالة يصبح متعلما وأول من يفتح كتابا ويقرأ .
ولذا فان علي أن أقوم بهذا الواجب .

قلبت الأمر في عقلي مرارا وتكرارا . لا . ما أزال عاجزا عن الانغلاق في مكتب - كنت أختنق . سأجد طريقة أخرى لدخول الحياة العملية . أية طريقة ؟ لم تكن لدي فكرة . حشدت العمال في خيالي . سنرتبط معا بعمل ونأكل الطعام ذاته ونرتدي الملابس ذاتها التي لي .

بعودتي من روسيا كنت أيضا راغبا أن أجري هذه المحاولة المصغرة للخروج من برجي العاجي والعمل مع البشر .

وعندها تماما - وكأنما كان القدر راغبا في اللعب - تعرفت على عامل مناجم عجوز اسمه الكسيس زوربا .

٢٩ ـ زوربـا

لقد كانت احلامي واسفاري هي اهم الامور المفيدة في حياتي ٠ لم يساعدني في كفاحي الا القلة من الناس (الاحياء والاموات) ٠ ولو انني حاولت أن احدد الناس الذين تركوا آثارا عميقة في نفسي ، لحددت هوميروس وبوذا ونيتشه وبيرغسون وزوربا ٠ فالاول ، بالنسبة لي ، هو العين الاخاذة ، مثل قرص الشمس الذي ينير الكون ببهائه الشافي ، وبوذا هو العين القاتمة عميقة الغور التي غرق العالم فيها ثم نجا ٠ وساعدني بيرغسون على الخلاص من العديد من الاشكالات الفلسفية التي حيرتني والتي كانت تقض مضجعي في ايام الشباب ٠ اما نيتشه فقد اغناني بعذابات جديدة ، وعلمني كيف احول الفشل والمرارة والشك الى كبرياء ٠ اما زوربا فهو الذي علمني ان احب الحياة وان لا اخاف من الموت ٠

ولو ان سؤال العمر كان مطروحا امامي حول اختيار دليل روحي ، او غورو GURU كما يسميه الهندوس ، او اب كما يسميه كهنة جبل آثوس ، فلا شك انني كنت سأختار زوربا ٠ لانه كان يتمتع بكل ما يحتاج اليه الموجه للخلاص : النظرة الاولية التي تصل الى هدفها كالسهم من عل ، والانعدام المبدع للفنية ، والتجدد كل صباح ، الامر الذي كان يساعده على ان يرى كل شيء باستمرار وكأنه يراه للمرة الاولى وان يمنح العذرية الى العناصر اليومية والابدية : الهواء والبحر والنار والمرأة والخبز ، كما كان يتمتع بيد واثقة وبقلب طازج وعذب ، والتصدي الجريء الذي يمكنه من اثارة نفسه

وكأنما هو في اعماقه يملك قوة اكبر من نفسه ، واخيرا تلك الضحكة الهمجية المفرقعة التي تنبع من الاعماق الغائرةالىماهو اعمق من اعماق الانسان : ضحكة كانت تنفجر منعشة في اللحظات الحرجة من صدر زوربا العجوز ، تنفجر وهي تملك القدرة (وتحققها) على تحطيم الحواجز كلها : الاخلاق والدين والوطن ، تلك الحواجز التي نصبها الانسان الجبان التعيس حول نفسه لكي تحيطه بالامان الكامل عبر حياته البائسة ٠

وحين اتذكر أي غذاء قدمه المعلمون والكتب ، عبر سنوات طويلة ، لنفسي الجائعة ، ثم اتذكر أي عقل أسدي صلب منحني زوربا خلال عدة أشهر فقط ، عندها أجد صعوبة فائقة في تحمل المرارة والغضب اللذين احس بهما ٠

كيف استطيع تجنب الاثارة التي تفعم القلب كلما تذكرت الكلمات التي قالها لي ، او الرقصات التي رقصها امامي ، أو (السانتير) الذي كان يعزف لي عليه ونحن على شواطيء (كريت) حيث قضينا ستة اشهر ونحن نحفر ، مع مجموعة من العمال مدعين اننا سوف نجد الغرانيت ؟ كنا وحدنا ، ندرك ان هذا الهدف الشكلي ليس الا غبارا وظيفته ان يضلل اعين الناس ٠ كنا ننتظر بفارغ الصبر ان تغرب الشمس وان يتوقف العمال عن العمل لكي نستطيع، انا وزوربا ، ان نذهب معا فنضع طعامنا على الشاطيء ونلتهم وجبتنا الريفية اللذيذة ونحتسي خمرتنا الكريتية ٠٠ ثم نبدأ الحديث ٠

نادرا ما كنت افتح فمي للحديث ٠ اذ ما الذي يستطيع ان يقوله « مثقف » لغول ؟ كنت اصغي اليه وهو يحدثني عن قريته الواقعة الى جانب جبل الأولمب ، عن الثلج والذئاب والقديسة صوفيا والفحم والنساء والله والوطنية والموت ٠ وحين تضيق الكلمات عليه ويقترب من الاختناق ، كان يقفز على قدميه ويبدأ الرقص على حصى الشاطيء ، ممشوقا بجسد طويل ، قويا منتصبا بعينين مدورتين كعيني الطائر ، كان يرقص برأس محني ثم يرتعش ويضرب قدمه الغليظة على الماء فيبللّ وجهي بمياه البحر ٠

ولو انني استمعت الى صوته (لم يكن صوتا بل نداء) لاكتسبت حياتي قيمة فعلية • لكنت تعرفت بدمي ولحمي وعظمي على ما أتخيله الآن كالحشاش ثم أسكبه حبرا على ورق • لكنني لم اجرؤ • كنت ارقب زوربا يرقص ويصهل في اعماق الليل ، اسمعه يدعوني ان اقفز بدوري خارجا من ملاجيء التعقل والتعود وان ارحل معه عبر سفر عظيم لا عودة منه ••• لكنني كنت أبقى في مكاني جالسا مرتجفا •

كم احسست بالخجل فيما بعد لانني منعت نفسي فلم اجرؤ على القيام بما كان يدعوني اليه الضعف السامي (جوهر الحياة) • الا انني لم يسبق لي أن شعرت بالخزي الذي كنت اشعر به وأنا أمام زوربا •

لقد ذهب مشروع الغرانيت الى الجحيم • بالضحك واللعب والحكي قمت ، وزوربا ، بأقصى ما نستطيع لكي نصل الى الفجيعة• لم نكن نحفر لكي نجد الغرانيت • كان هذا قناعا لخداع السذج والمتعقلين • « لكي نمنعهم من اعاقتنا بجذوع الليمون » كما كان يقول زوربا دائما وهو ينفجر ضاحكا • « اما بالنسبة لنا يا ريس – اعتاد ان يدعوني هكذا وهو يضحك – فان لدينا اهدافا اخرى : اهدافا عظيمة » •

– وما هي هذه الاهداف يا زوربا ؟

– يبدو اننا نحفر لكي نكتشف اية شياطين تختبىء في اعماقنا •

في اقل ما يمكن من الوقت استطعنا تبديد ما زودني به عمي لكي افتح به مكتبا (كما كان مفترضا) • طردْنا العمال وشوينا خروفا ثم عبأنا برميلا صغيرا من النبيذ ، وبعد ذلك مددنا مائدتنا قرب الماء • وامام موقع المقلع بدأنا نأكل ونشرب • وتناول زوربا (السانتير) ، وبحنجرته العجوز التي اعطاها مداها بدأ بـ « أمانيه » • اكلنا وشربنا • لم يسبق ان كانت معنوياتي عالية مثلما كانت في ذلك الحين •

وهتفنا معا : « غفر الله للاعزاء الراحلين • غفر الله لمشروعنا المرحوم • ولتعش انفسنا وليذهب الغرانيت الى الشيطان » •

وافترقنا عند الفجر •

عدت الى الورق والحبر مرة اخرى وفي اعماقي ندبة لا تشفى ، في مكان لا أعرف اين هو فأسميه الروح •

اتجه زوربا شمالا واستقر في الصرب قرب (سكوبجي) حيث يبدو انه استطاع اكتشاف عرق من المنغنيز • جمع حول اصبعه الصغيرة عددا من الاثرياء ، فاشترى أدوات عمل واستأجر عمالا ثم بدأ يفتح انفاقا جديدة في الارض • نسف الصخور بالديناميت وشق طرقا ونقل الماء وبنى بيتا • وبما انـه كـان عجوزا مليئا بالحيوية فقد تزوج أرملة جميلة تحب المرح اسمها « ليوبا » ورزق منها بطفل •

وذات يوم تلقيت برقية : « وجدت حجرا اخضر على غاية من الجمال • تعال فورا • زوربا » •

كان هذا في الفترة التي بدأت ضوضاء الحرب العالمية الثانية تصل الى الاسماع ، منذرة بعاصفة هوجاء ستجتاح الارض كلها • وكان ملايين من الناس يرتعدون وهم يرقبون نذر المجاعات والمذابح والجنون • لقد استفاقت في الناس شياطينهم كلها • وكلها كانت متعطشة للدماء •

في تلك الايام العصيبة تلقيت برقية زوربا • وقد اغضبتني البرقية في البدء • العالم على ابواب الفناء • الشرف وروح الانسان والحياة ذاتها في خطر • ومن هذا كله امامي برقية تطلب مني ان انطلق في رحلة الف ميل للتفرج على حجر اخضر جميل • اللعنة على الجمال (قلت لنفسي) هذا أمر لا يدل على وجود قلب متعاطف مع الآخرين ولا يدل الا على استهتار بآلام البشر •

لكنني ، بغتة ، احسست بالخوف • لقد تلاشى غضبي • وتبقى لدي ذلك الاحساس الرهيب بأن نداء زوربا اللاانساني هذا يتواصل

مع نداء آخر لا انساني في اعماقي • وبدأ صقـر متوحش يضرب بجانحيه في اعماقي ويدفع بي الى الرحيل •

لكنني لم افعل • مرة اخرى لم اجرؤ • لم أقم بالرحلة ولم الب النداء الداخلي المتوحش القدسي : لم انجز ذلك العمل العفوي المجيد ، بل استمعت للصوت الانساني البارد النابع من العقل • فتناولت قلمي وكتبت أشرح لزوربا •••

واجابني كما يلي : « سامحني لاقتراحي يا ريس • انت لست اكثر من حامل قلم • كانت امامك فرصة العمر لكي ترى حجرا اخضر جميلا • لكنك لم تره •

اقسم بالله انني احيانا ، حين لا يكون لدي ما افعله ، اجلس واسأل نفسي : أهناك جهنم أم لا ؟ لكنني البارحة ، حين استلمت رسالتك ، قلت لنفسي لا بـد مـن وجـود جهنـم لاستقبال حملة الاقـلام » •

ومرت السنوات طويلة • سنوات رهيبـة جمـع فيها الزمن طاقاته وجن جنونه • تلك السنوات التـي تتـراقص فيها الحدود الجغرافية وتتمدد فيها الدول وتتصادم مثل الاوكورديون •

انقطع الاتصال بيني وبين زوربا في هذه العاصفة • لكنني بين حين وآخر كنت اتلقى بطاقة موجزة منه : « لم ازل حيا • البـرد قارس هنا بشكل جنوني ولذا تزوجت • اقلب البطاقة لترى وجهها الصغير • قطعة ممتازة أليس كذلك ؟ أن بطنها منتفخ قليلا لانها تعد لي فيه زوربا داكي صغيرا • اسمها ليوبا • والمعطف المصنوع من جلد الثعالب الذي ارتديـه هـو مـن مهـر زوجتـي • سلالة غريبة هـؤلاء النساء • لقـد اعطتنـي ، ايضـا ، سلسلـة فيهـا سبعة خنازيـر • حبـي وقبـلاتي •• الكسي زوربا : الارمل سابقا » •

ومرة اخرى أرسل لي قبعة مزركشـة كانـت تحتوي علـى جرس في رأسها • « البسها يا ريس حين تكتب الهراء الذي تكتبه • انني البس قبعة مشابهة حين اعمل • والناس يضحكـون منـي

ويسألونني : هل انت مجنون يا زوربا ؟ لماذا تحمل هذا الجرس ؟ لكنني ارفض ان اجيبهم ٠ نحن ، كلانا ، فقط ، نعرف لماذا نلبس الجرس يا ريس » ٠

في ذلك الحين كنت قد قيدت نفسي ، مرة اخرى ، الى الورق والحبر ٠ لقد جاء لقائي بزوربا متأخرا ٠ ففي مسألة كهذه لم يكن لي أي خلاص ٠ لقد انحدرت الى حامل قلم لا شفاء له ٠

بدأت اكتب ٠ ومهما كان الشيء الذي اكتبه ـ قصائد ام مسرحيات ام روايات ـ فقد كان العمل يتطلب دائما ، دون جهد واع من قبلي ، حمية واندفاعا ممتلئين بالقوى المتنازعة وبالكفاح والغضب والثورة والبحث عن التوازن المفقود : ممتلئين بالنذر وبالشرارات التي تأتي من العاصفة المقبلة ٠ ومهما كان كفاحي للوصول الى شكل لما أكتبه فقد كان يأخذ ايقاعا متوازنا وقويا ٠ ورغم نواياي فان الصوت المسالم الذي كنت أرغب في اطلاقه كان يتحول الى نداء صارخ ٠ ولهذا كنت استمر في انجاز عمل ما وانا اكتشف انه لا يخفف عني العبء ، ثم انتقل الى عمل آخر آملا باستمرار انني سوف اكون قادرا على تحقيق التوافق بين القوى القاتمة والقوى المضيئة التي كانت في ذلك الحين في حالة صراع وكانت تتخذ الشكل الذي يلائمها لتحقيق التوازن فيما بينها ٠

فالشكل الدرامي يجعل من الممكن للادب المبدع ان يؤطر القوى الجامحة في عصرنا وفي انفسنا ، وذلك بتجسيدها من خلال ابطال العمل الادبي ٠ ولقد حاولت بقدر ما استطعت من اخلاص ودقة ان اقدم خبرتي بهذا العصر الهام الذي صدف انني ولدت فيه ٠

لدى الصينيين شتيمة غريبة : « العنك ، وادعو ان تولد في عصر هام » ٠ ولقد ولدنا في عصر هام مليء بالتجارب المتكررة والمخاطرات والاصطدامات : ليس فقط بين الفضائل والرذائل كما كان الامر في الماضي ، بل ـ وهذا هو الجانب المأساوي ـ بين الفضائل ذاتها ٠ فالفضائل القديمة المعترف بها اخذت تفقد سلطتها ، منذ ان عجزت عن تلبية المتطلبات الدينية والخلقية والثقافية والاجتماعية التي تطمح اليها النفس المعاصرة ٠ يبدو ان نفس الانسان قد كبرت ٠ ولم تعد قادرة على التواؤم مع الانماط القديمة ٠

ان حربا اهلية ضارية قد نشبت بين مقومات عصرنا · وقد نشبت ، بوعي او بلا وعي ، بين مقومات كل انسان في مواجهة عصره : حرب اهلية بين الاسطورة القديمة التي كان لها السلطة المطلقة بعد ان تلاشت قواها ، الا انها تقاتل بضراوة للاحتفاظ بسيطرتها على حياتنا وبدورها في تنظيم هذه الحياة ، وبين الاسطورة الجديدة التي تكافح ، وما تزال تكافح بعفوية ودون تنظيم ، للتحكم بنا · وهذا ما يجعل كل انسان حي انسانا معذبا بفعل هذا المصير الدرامي لزمانه · والفنان المبدع قبل ذلك كله ·

هناك بعض الشفاه او رؤوس الاصابع التي تحس بوخز خاص عند إقتراب العاصفة ، كما لو انها تتعرض لوخز آلاف الابر · ان شفتي المبدع ورؤوس اصابعه من هذا النوع · وحين يتحدث المبدع بهذا الوثوق عن العاصفة التي تندفع نحونا فان الذي يتحدث ليس خياله ، بل شفتاه وأصابعه التي بدأت تتلقى الشرارات الاولى من العاصفة ·

ان علينا ان نتواءم ، ببطولة ، مع فكرة ان السلام والفرح وما يسمى بالسعادة ، أمور تعود الى عصور أخرى : في الماضي أو في المستقبل ولكنها ليست في عصرنا · لقد دخل عصرنا ، منذ أمد طويل ، مدار العذاب ·

وبوضع صيغة لهذا العذاب كنت اكافح بجهد واضح لتجاوزه ولايجاد (او خلق) شكل للخلاص · وفي كل ما كتبت كنت أفرش الارضية من الاساطير أو العصور القديمة الا ان المادة كانت حديثة وحية تعاني من مشاكل معاصرة ومن عذابات أيامنا ·

لكن هذه العذابات لم تقلقني او تشغلني بالقدر الذي كانت تؤرقني فيه تلك الآمال المتذبذبة وغير المحددة بعد ، والتي كنت احاول ان اثبت ملامحها · انها الامال العظيمة التي تمكننا من الوقوف بثبات ومن التحديق بثقة الى الامام عبر العاصفة ، الى مصير الانسان ·

وليس انسان العصر الحالي ، بحالته المنفلشة ، هو ما كان

يثير اهتمامي وقلقي ، بل ـ وهذا قبل أي شيء آخر ـ انسان المستقبل في حالة التكون المنظم والواعد ٠

وكنت أرى ، دائما ، ان فنان اليوم المبدع اذا قام بالتعبير عن أعمق توجساته الداخلية تعبيرا صادقا ومتكاملا فانه ، بعمله هذا ، يساعد انسان المستقبل على ان يولد قبل ساعة من موعده وان يكون هذا الانسان اكثر قربا من الكمال ٠

لهذا ظللت ، بوضوح متزايد ، اقدس مسؤولية الفنان المبدع ٠ وكنت اقول لنفسي ان الحقيقة لا توجد مستقلة عن الانسان كاملة وجاهزة ، بل هي تأتي بالتعاون مع الانسان وبفضل مشاركته ٠ وهذه الحقيقة نسبية حسب قيمة الانسان ٠

وحين تفتح ، بالكتابة او بالعمل ، مجرى نهر ، فان الحقيقة تجري فيه وتتخذ مسارا لم تكن لتتخذه لولا تدخلنا ومساهمتنا ٠ ونحن بالطبع لا نتحمل المسؤولية كاملة ٠ الا اننا ، بالتأكيد نتحمل قسطا كبيرا من هذه المسؤولية ٠

ربما كانت الكتابة لعبا في عصور اخرى : أيام التوازن والانسجام ٠ لكنها اليوم مهمة جسيمة ٠ لم يعد الغرض منها تسلية العقول بالقصص الخرافية أو مساعدة هذه العقول على النسيان ٠ بل الغرض منها تحقيق حالة من التوحد بين كافة القوى الوضاءة التي ما تزال قادرة على الحياة حتى ايامنا الانتقالية هذه ٠ والغرض ، ايضا ، تحريض الانسان على بذل قصارى جهوده ، لتجاوز الوحش الكامن في اعماقه ٠

ان ابطال المآسي اليونانية القديمة لم يكونوا اكثر من اعضاء ادونيس المبعثرة وهي تصطدم فيما بينها ٠ وكان اصطدامها يحدث لانها اجزاء ٠ لا يعبر كل منها الا عن جزء من الالوهية ٠ بمعنى ان ايا منها لم يكن الها متكاملا ٠ وكان ادونيس ، الاله المتكامل ، يقف غير مرئي في جوهر المأساة متحكما في ميلاد القصة وتطورها ولحظة الذروة والتطهير (الكاثارسيس) فيها ٠ وكانت اعضاء الاله المبعثرة ، بالنسبة للمتفرج البدائي ، على الرغم من انها تتصارع

فيما بينها ، الا انها كانت ، في السر ، متوحدة ومتصالحة في اعماق هذا المتفرج • فهو يعرف ان هذه الاعضاء تشكل جسد الاله المتكامل ، وانها ، فيما بينها ، منسجمة انسجاما حقيقيا •

وهكذا كنت ارى دائما الطريقة الوحيدة التي يظهر من خلالها توافق المستقبل وانسجامه من خلال مأساة الحاضر ، هذا التوافق الذي يرتفع على عداء اليوم وصدامه ، متكاملا وسط الابطال المجزئين المتعادين •

انها مهمة صعبة جدا • بل ربما كانت غير ممكنة التحقيق بعد • اننا نرى انفسنا في لحظة من الانهيار الكوني والخلق الكوني• وفي لحظة من هذا النوع لا يقدر لاعظم الجهود الفردية الا الاجهاض والاحباط • لكن هذه الاجهاضات ذاتها تحمل خصبها ، ان لم يكن لنا فللآتين بالتأكيد • انها تفتح الطريق وتعين المستقبل على ان يسلك هذا الطريق •

هذه المسؤولية الرهيبة لم تكن تبارح ذهني وانا اكتب محاطا بسلام العائلة وغارقا في حميتي للكتابة • في البدء كانت الكلمة فعلا • قبل العمل • الابن • الابن فقط ، ابن الله • الكلمة المنوية الجوهرية التي تخلق العالم المرئي والعالم اللامرئي معا •

بالتدريج ، وبمزيد من الحماس ، وجدت نفسي غارقا في الحبر • وراحت ظلال كبيرة تحوم حول قلبي بلجاجة عن فرصة لشرب الدم الحار الذي كان سيعيدها الى الحياة - جوليان الخائن ، تيسيفروس فوكاس ، كونستانتين باليولوغوس وبروميثيوس • نفوس عظيمة معذبة واجهت العناء والحب في حياتها ووقفت ضد الله والقدر بصلابة • ولقد كافحت طويلا لكي اقتلع هذه الارواح من العالم الآخر من اجل تمجيد معاناتها ونضالها - معاناة الانسان ونضاله - وتبريرها أمام الاحياء •• من اجل أن استمد ، لنفسي ، الشجاعة •

كنت اعرف أن ما اكتبه لن يكون كاملا من الوجهة الفنية ذلك لانني كنت اتعمد تخطي حدود الفن وبهذا فان الهارموني - جوهر الجمال - قد تحطم •

وكلما كتبت اكثر ، تعمق احساسي انني بالكتابة كنت اكافح ليس من اجل الجمال ، بل من اجل الخلاص · وعلى عكس الكاتب الحقيقي لم استطع ان اتمتع من خلال ابتكار عبارة جميلة او قافية ذات ايقاع · كنت انسانا يكافح متألما ، انسانا يبحث عن الخلاص · كنت اريد الخلاص من عتمتي الداخلية العميقة ، وتحويلها الى نور . كنت اريد الخلاص من الاسلاف الذين يزأرون في اعماقي وتحويلهم الى كائنات حية · وهذا هو السبب الذي كان يدعوني الى اثارة العظماء الذي نجحوا في عبور اقسى الامتحانات واصعبها · وكنت اطمح الى استقاء الشجاعة من خلال رؤية قدرة النفس الانسانية على الانتصار على أي شيء · كان هذا ما رأيته وما عرفته : المعركة الابدية ذاتها التي نشبت امام عيني منذ ان كنت طفلا ما تزال مضطرمة دون انقطاع في اعماقي ومضطرمة ايضا في العالم الخارجي · كانت المعركة تشكل الدافع الذي لا يهدأ لحياتي كلها · وهذا ما يجعل ذينك المتصارعين ، وهما وحدهما ، طرفي الصراع في كافة اعمالي · واذا كنت اكتب ، فلان كتابتي ، للاسف ، كانت سندي الوحيد في كفاحي · كريت وتركيا ، الخير والشر ، النور والعتمة ، كان بين كل منهما والآخر صراع لا ينقطع في اعماقي · وكان غرضي من الكتابة ، الغرض الذي لم أكن أعيه في البدء ثم صرت اعيه ، هو ان اقدم العون الى كريت والخير والنور لكسب المعركة · لم يكن هدفي من الكتابة الوصول الى الجمال بل الى الخلاص ·

لقد صدف انني ولدت في عصر كان فيه هذا الصراع حادا وكانت الحاجة لتقديم العون ملحاحة الى درجة انني سرعان ما استطعت أن أرى العلاقة الوثيقة بين كفاحي الشخصي ، والكفاح في العالم المعاصر · كنا متشابهين في معركتينا نحو الخلاص ، خلاصي من اسلافي المعتمين ، وخلاص العالم من العالم القديم الغاشم ، خلاصنا من العتم ·

اعلنت الحرب العالمية الثانية ، وجن جنون الارض بأسرها · انني أرى الآن ان لكل عصر شيطانه · وهذا الشيطان هو الذي يحكم وليس نحن · وشيطان عصرنا من ذلك النوع المتعطش للدماء ، كما هو الحال دائما حين يتعفن العالم ويصبح من الواجب ان يزول ·

يبدو ان هناك عقلا لا انسانيا ، عقلا علويا ، يساعد الروح على تخليص نفسها من الانسان المتفسخ ثم الانطلاق صاعدة ، وحين ترى الروح ان العالم يمشي أمامها ويسد عليها الطريق فانها تطلق ذلك انشيطان المتعطش للدم لكي يفني هذا العالم ويفتح لها الطريق ، الطريق الدموي ، بحيث تستطيع ان تمر بسلام ·

ولقد كنت ارى العالم من حولي واسمعه وهو يفنى · وكان كل انسان يراه وهو يفنى · ولقد حاولت النفوس النقية ان تقاوم لكن الشيطان نفخ عليها وافقدها اجنحتها ·

مضيت ، مرة اخرى ، الى جبال كريت حين اعلنت الحرب ، مضيت وانا اعرف انني هناك فقط استطيع ان التقي ، ليس بالسلام او بالعزاء ، بل بالكبرياء التي يحتاج اليها المرء في اللحظات العصيبة لكي تبقيه ذاقيمة وشأن · ورأيت ذات مرة داعية عجوزا يجلس امام الكنيسة في يوم احد بعد الصلاة وهو يعظ الشباب ليبث فيهم الشجاعة : « حدقوا في الخوف ، في عينيه تماما اذا استطعتم وعندها فان الخوف سوف يخاف ويولــي هاربا » هيأت امتعتي وحملت حقيبتي على كتفي وتوجهت نحو الجبال · كان ذلك في الوقت الذي كان الالمان يقتحمون فيه النروج ويحاولون اخضاعها ·

وذات يوم عند الظهيرة سمعت صوتا فظا يناديني بينما كنت اجتاز سفوح بسيلوريتي · « هيه · يا جار · انتظر لحظة · أريد أن أسألك عن امر » ·

رفعت رأسي فرأيت رجلا يخرج من تحت صخرة ويتجه هابطا · كان ينزل بخطوات عملاقة من صخرة الى صخرة · وكانت الحجارة تتدحرج تحت قدميه · وصدر عن ذلك هدير عظيم فبدا كأن الجبل كله يتحرك وينزل معه · واستطعت ان ارى انه كان راعيا عجوزا عملاقا · وقفت انتظره · ما الذي يمكن ان يريده مني ؟ سألت نفسي : وفيم هذه اللهفة كلها ؟

اقترب مني ووقف على صخرة · كــان صــدره العاري يلهث ويتعرق ·

« يا جار • كيف تسير الامو رفي النروج ؟ » سألني بنفس يقطعهُ اللهاث •

لقد سمع ان بلادا ما تعيش في خطر الاستعباد • ولا شك انه لا يعرف ما هي النروج او اين تقع او اي نوع من البشر يعيش فيها • الشيء الوحيد الذي كان يفهمه بوضوح هو ان الحرية في خطر •

اجبته : « يا جدي • الامور تتحسن • لا داعي لان تقلق » •
ـ « الحمد لله » • زأر الراعي العجوز وهو يرسم علامة الصليب•
سألته : أتريد سيجارة ؟

ـ « لا • ماذا أريد من السيجارة ؟ أنا لا أريد شيئا • طالما ان النروج على ما يرام فهذا يكفيني » •

وما ان انهى كلامه حتى لوح بعصاه وقفل صاعدا للبحث عن قطيعه •

لا شك ان الهواء اليوناني مقدس • لا شك ان الحرية قد ولدت هنا • هكذا رحت أقول لنفسي • ولا أعرف ان كان هناك امتحان لأية أرض مجهولة وبعيدة تكافح من أجل حريتها يمكن أن يؤثر بهذا الحجم من العذاب والقلق على أي فلاح أو راع آخر في العالم • لقد أصبح نضال النروج هو نضال هذا الراعي اليوناني ذاته ذلك ان الحرية بالنسبة اليه مثل ابنته •

ولهذا رحت اجري هذا التحول الجريء في واجبي فيما كنت اكتب في هدوء البيت ، محاولا أن أساهم بدوري في هذه المعركة الخالدة • لكنني بين حين وآخر كنت اهجر القلم والورق لأتجول في الطريق المحاط بالزيتون والكرمة والذي يؤدي الى كتوسوس • وحين تبدت هذه المعجزة الكريتية المفاجئة كما يتفجر الربيع من الارض ، وحين طالعتني الطرق الصخرية المتدرجة والاعمدة والباحات واللوحات سيطر علي سرور وأسى ، يعجز التعبير عنهما ، لهذا العالم الاستثنائي المتلاشي ، ولمصير كل مأثرة انسانية : ان تشق لنفسها مكانا في النور لثانية واحدة ثم تنغمر بالفناء الى الابد • الى درجة انني اعدت في خيالي بناء القصر الملكي وهو يستحم

مرة اخرى بنور الشمس ، وصراع الثيران والنساء ذوات النهود البارزة العارية والشفاه المزينة والجدائل المجعدة ·· كلها عادت الى الحياة مرة اخرى على بقايا الجدران المتهدمة ، الى درجة ان يوم القيامة ذاته تبدي لي ، ونهض من التراب اسلاف مجهولون من أعماق العصور · رجال صامتون ومرحون ودهاة ، ونساء يرتدين تنورات تزينها نجوم السماء ونجوم البحر وزهور من الارض ، وافاعي الله السامة تتلوى على اذرعهن ·

الا انني ، ذات يوم ، وبينما كنت أسير على ذلك الطريق المظلل بالخضرة ، ووصلت الى هضبة القيامة ورحت اتمشى ساعات بين المعجزات المتناثرة ·· يومها لوحة محددة بينها كلها هزتني اكثر من البقية · وكأنني كنت اراها للمرة الاولى · لا شك ان هذه اللوحة قد تواصلت مع الاهتمامات والامال الحالية التي كانت تشغلني · وكان ذلك هو السبب الذي مكنني من فهم معناها المخبوء في ذلك اليوم للمرة الاولى · اسماك متعددة تبرعط في الماء بذيولها المشرعة بينما سمكة طائرة من بينها نشرت زعانفها بغتة وقفزت خارجة من ماء البحر لكي تتنفس الهواء · كانت بطبيعتها السمكية اكبر بكثير من ان تعيش عمرها كله في الماء · بغتة تاقت لان تتخطى قدرها وان تتنفس الهواء النقي وان تصبح عصفورا ولو لوهلة وبقدر ما تستطيع الاحتمال · لكن هذا كان كافيا · هذه الوهلة هي الابدية : وذلك هو معنى الابدية ·

لقد شعرت بعناء عظيم ومشاعر اخرى وانا احدق الى هذه السمكة الطائرة كما لو انني كنت أرى روحي على هذه اللوحة الجدارية التي ترجع الى آلاف السنين · وتمتمت هامسا لنفسي : « هذه سمكة كريت المقدسة · السمكة التي تقفز لكي تتجاوز الضرورة وتتنفس الحرية » · ألم يبحث المسيح عن الشيء ذاته ؟ ألم يحاول أن يتخطى قدر الانسان ويوحّد نفسه بالله او بالحرية المطلقة ؟ الا تبحث نفسي مكافحة عن الشيء ذاته : تحطيم الحواجز والحدود ؟ يا للحظ السعيد ان تكون كريت ، ربما ، أول مكان على الارض يرى ميلاد هذا الرمز المتعلق بالنفس التي تكافح وتموت من اجل الحرية · السمكة الطائرة ـ تطلع الى الروح المكافحة ايها الانسان المستعصي !

راقبت السمكة الطائرة وهي تغامر بقفزتها المصيرية خارج الماء وراقبت المرأة والرجل النحيلين ، ضيقي الخصرين وهما يلعبان سعيدين مع الثور على الحلبات المرصوفة بالحجارة ، راقبت اللبوة التي تنام بسلام بين ازهار الليلك وجاهدت لكشف معانيها الغامضة · ما مصدر هذه الغبطة وهذه الفروسية ؟ أية صلاة كانت تؤديها المرأة بذراعيها ؟ ولمن ؟ بذراعيها المزدوجتين مع الافاعي ؟ هذا الظمأ اللامتناهي للحياة وهذه البسمة الجسور في البطولة مواجهة الخطر والموت· هذا كله ايقظ في التحدي المتلائم مع أرواح الاجداد لمواجهة طالما تقت اليها مع الموت · الثور والرجل ، الموت والروح ·· كل منهما صار صديق الآخر · كل منهما عار · كل منهما كالرياضي ، مدهون بزيت فواح ·· يلعبان ساعة او ساعتين حتى تغيب الشمس · ولأنني كنت مثارا ومضطربا خطر لي انه هنا ، في لحظة المواجهة هذه بين كريت والهاوية ، يكمن سر كريت · علي ان اكشف عن هذا السر ·

وشحب المسيح وبوذا ولينين في اعماقي · لقد جرفتني تربة كريت · ودون ان التفت ، رفعت عيني للتحديق بتوق ورهبة الى قمة لامرئية ، ما تزال تحف بها الغيوم ، قمة سيناء التي تجلى فوقها الله وحيث حقق الله مشيئته وهو مسلح بالصواعق والوصايا (كما يقول لي قلبي) ·

احسست بقوة جديدة وبمسؤولية جديدة تملآن عروقي · وبدا ان روحي تغتني بالتراب الكريتي ، وبدا انها عجينة مؤلفة من دموع وضحكات عمرها عصور · ومرة اخرى ادركت الحدة والثقة الداخلية التي تتواصل بها التربة الكريتية مع النفس · ولا شك ان لدى الزهرة ، بالطريقة ذاتها ، ذلك الوعي الداخلي بالطين الذي يبدأ من جذورها ثم يتحول الى عبير وألوان ·

رأيت روحي تتمدد في دمي كتميمة كريتية · وكان لها شكل شراع مثلث الحواف ، كانت تعيش العصور ذاتها ، المخاوف والافراح ذاتها وهي تمر بين القارات الثلاث - والرياح العنيفة الخصبة الثلاث - لآسيا القدسية وافريقيا اللاهبة واوروبا العاقلة · وتيقظ

التوق الواعي ـ أو اللاواعي ـ الذي كنت أكنه منذ سنين واصبح اكثر تحكما في اعماقي ، التوق للتوفيق بين هذه الرغبات الثلاث للوصول الى المأثرة العظمى ـ التركيب : المونادا المقدسة المثلثة العناصر ٠

وفي أعماقي تحول الثالوث المقدس ، الرمز الديني المعروف عالمياءالى مستوى اخر أقل رمزية ٠ لقد أصبح واقعا محرقا مهيبا وواجبا علويا حتميا ٠ وفي لحظة من النشوة أقسمت بيني وبين نفسي « هذا أو لا شيء » ٠ وهذا الثالوث لم يأتني جاهزا بأمر علوي ٠ لقد خلقته بنفسي ٠ هذا واجبي ٠ هذا ولا شيء غيره ٠ وقلت لنفسي ان كريت لم تكن عبثا واقعة في وسط هذه الانفاس الثلاثة ، وليس عبثا ان روحي اخذت شكل كريت ومصيرها ٠ كان واجبي ان اتلقى نداء كريت عبر العصور بشعبها وبجبالها وبالبحار المحيطة بها ، بجسدها وروحها وبساعات نومها ويقظتها ٠

ان أتلقى ذلك كله وأحوله الى رسالة واحدة ٠ ألم أكن ابنها ؟ الست من ترابها ؟ أليست هي التي وجهتني لاكتشاف المعاني الكامنة في كفاحها ، والسبب الذي كان وراء ندائها المتواصل عبر العصور ، والامر الذي كانت تريد ان توصله الى الجنس البشري ؟

عدت الى بيتي ٠ متى أجتاز غابات الزيتون وكروم العنب ، متى أدخل ميغالو كاسترو وأصل الى البيت ؟ لم أر شيئا ٠ ظلت السمكة الطائرة تقفز أمام عيني ٠ وخطر لي : كم بودي لو أصور نفسا قادرة على أن تقفز وتحطم الحدود البشرية ولو لثانية ، قادرة على التخلص من الضرورة ولو لثانية ، ان تهجر المتع والاحزان والافكار والالهة ، وان تتنفس الهواء النقي الذي لم يمس ارضا ولم يمسسه بشر ٠

كانت هناك رسالة وعليها اشارة عزاء تنتظرني ٠ كانت تحمل ختم الصرب ٠ وفهمت ٠ امسكت بها بين يدي المرتعشتين ٠ لم افتحها ؟ لقد أدركت النبأ الأليم فورا ٠ « لقد مات ٠ لقد مات » تمتمت لنفسي بهذه الكلمات ، وأظلم العالم ٠

رحت احدق فترة طويلة عبر النافذة وانا أراقب هبوط الليل ٠

كان يجب ان اسقي أصص الحديقة هذا المساء فالتربة مشققة . وأظهر نجم المساء نفسه من بين الاغصان الشائكة لشجرة الاكاسيا كقطرة من الندى . كان المساء لطيفا وبدت الحياة حلوة . ونسيت ، لوهلة ، الرسالة المؤلمة التي أمسك بها بين يدي .

وادركت ، بغتة ، انني في محاولتي لتأمل جمال العالم كنت احاول أن انسى الموت . أحسست بالخجل . فتحت المظروف بحركة عنيفة . وتراقصت الحروف امام عيني .. ثم تركزت تدريجيا حتى اصبحت قادرا على القراءة :

« انا استاذ القرية . وانني اكتب لاخبرك بالنبأ المؤسف وهو ان الكسي زوربا ، الذي كان يدير منجم منغنيز هنا،قد توفي يوم الاحد الماضي في الساعة السادسة مساء . دعاني في نزعه الاخير وقال لي : « تعال قربي يا استاذ . لدي صديق في اليونان . حين اموت اكتب اليه واخبره بموتي . وبأنني ظللت مالكا لقواي العقلية حتى النهاية وانني كنت افكر فيه . وانني مهما كان ما فعلته فانني لست آسفا على شيء . قل له انني ارجو له الخير وانه قد آن الاوان له ان يضع عقله في رأسه ... واذا جاء أي قس ليستمع الى اعترافي ويمنحني الغفران قل لذاك القس انه يستطيع ان يكون فريد زمانه وانه يستطيع ان يمنحني لعنته ! لقد فعلت هذا الشيء أو ذاك واشياء اخرى في حياتي لكنني لم أفعل الا القليل . الناس الذين يشبهونني يجب ان يعيشوا الف سنة . عمت مساء » .

اغمضت عيني واحسست بالدموع تتدحرج بطيئة ودافئة على خدي . «مات . مات ... » ورحت اتمتم لنفسي . « راح زوربا . راح الى الابد . ماتت الضحكة . وانقطعت الاغنية . وتحطم السانتير . وتوقفت الرقصة على حصى الشاطيء . والفم الذي كان لا يهدأ عن طرح الاسئلة اصبح الان مليئا بالتراب .. ولن توجد أبدا بعد اليوم يد تلاطف الحجارة والبحر والخبز والنساء ... »

واستطردت بعيدا . لا بفعل الحزن بل بتأثير الغضب « ظلم . ظلم » ورحت اصرخ : « أرواح كهذه يجب ان لا تموت . هل في وسع الارض والماء والنار والحظ ان تعيد تشكيل زوربا آخر ؟ »

وعلى الرغم من انني لم اكن قد تلقيت منه أخبارا منذ أشهر عديدة • فانني لم أكن أقلق • كما لو انني كنت اعتقد انه خالد • وسألت نفسي : كيف يمكن لنبع كهذا ان ينضب ؟ وكيف يستطيع كارون ان يجبر روحا مشاكسة كهذه على إن تعض التراب ؟ ألم يجد في آخر لحظة ضحكة ما او رقصة ما أو أية مناورة يخدع بها كارون ويهرب منه ؟

لم استطع أن أغمض عيني طوال الليل • وراحت الذكريات تتلاحق كل منها تزحم الاخرى فيتصاعد القلق والاعياء الى رأسي كانما في محاولة لتجميع زوربا من جديد من الهواء والتراب والحفاظ عليه من الضياع • حتى أصغر الحوادث المتعلقة به بدأت تتوهج وتتسارع وتزداد مكانتها في الذاكرة مثل سمكة ملونة في محيط شفاف تخترقه أضواء الصيف • لم يمت منه شيء في اعماقي • وبدا كما لو ان كل شيء لمسه زوربا قد اصبح خالدا •

طوال الليل ظللت افكر • ماذا استطيع ان افعل لكي أطرد الموت ـ موته مني ؟

وانفتح الباب في أعماقي وتقافزت منه الذكريات تدفع احداها الاخرى مسرعة لكي تغف على قلبي • وبدأت تحرك شفاهها لتدعوني ان اجمع زوربا من التراب والبحر والهواء وان اعيده للحياة • الم يكن هذا واجب القلب ؟ الم يخلق الله القلب لهذا الغرض بالذات : ان يبعث الاعزاء ويعيد اليهم الحياة ؟

ابعثه !

لا شك ان قلب الانسان عميق ومغلق ومليء بالدم • لكنه حين ينفتح تهجم عليه الظلال التي لم تجد عزاءها وكل ظمأ في النفس لكي يشرب وينتعش ويبعث من جديد • وتزداد كثافتها حولنا حتى يسودّ الهواء • لماذا تتراكض للشرب من دماء القلوب ؟ لأنها تدرك ان هذا هو بعثها الوحيد ولا قيامة الا فيه • في ذلك اليوم كان زوروبا يركض أمام الجميع بخطواته المديدة وهو يدفع الظلال الاخرى ويبعدها لانه كان يعرف تماما انني احبه اكثر من اولئك الذين احببتهم كلهم •

عند الصباح كنت قد صممت على رأي · وهكذا استعدت هدوئي · كأنما القيامة قد بدأت في اعماقي وكأن المجدلية كانت تسرع الخطا الى القبر لكي ترى القيامة ·

ظللت في الفراش حتى ساعة متأخرة ودخلت شمس الربيع الحارة المرحة الى غرفتي ونورت المنحوتة النافرة المعلقة فوق رأسي · تلك المنحوتة كان والدي قد وجدها وعلقها فوق سريري منذ ان كنت صغيرا · انني لا اؤمن بالحظ لكنني اؤمن بالقدر والمصير · وهذه المنحوتة قد كشفت لي سر حياتي ببساطة مدهشة وربما انها كشفت لي سر زوربا ايضا · كانت نسخة من حجر منحوت على قبر تحتوي على محارب عار لم يتخل عن خوذته حتى وهو يموت · وكان المحارب راكعا على ركبته اليمنى وهو يعتصر صدره بكفيه بينما ترفرف بسمة هادئة على شفتيه المطبقتين · كانت الحركة البهية لهذا الجسد المتين من نوع يجعلك تحار فيما اذا كانت الحركة حركة استسلام للموت ام حركة في رقصة · ام لعلها رقصة وموت معا ؟

حتى لو كان الموت يجب ان نحوله الى رقصة ، وقد شجعتني الشمس المشعة على المحارب أن اتمسك بهذا الرأي وأنا أراه يتحول تحتها الى انسان حي · انا وانت ، أيها القلب ، دعنا نعطه دما لعله يعود الى الحياة دعنا نبذل قصارى جهودنا لكي نجعل هذا الآكل ، الشارب ، الشغيل ، مطارد النساء ، المتشرد يعيش لحظة اخرى زيادة - يا لهذا الراقص المحارب ذي النفس العظيمة والجسد المتمكن والنداء المنطلق الذي لم أر ولم أعرف له شبيها في حياتي كلها ·

٣٠ ـ حين أثمرت في داخلي بذرة الأوديسة

بدأت أسطورة زوربا تتبلور في داخلي • كانت في البداية اثارة موسيقية ، ايقاعا جديدا ، وكأنما الدم قد صار يدور بسرعة أكبر في وتيني • أحسست بالحمى والدوار ، بمزيج من الغبطة والغيظ يصعب فصلهما ، وكأن جسما غريبا غير مرغوب فيه قد دخل دورتي الدموية • واستثيرت عضويتي كلها من أجل أن تهجم وتطرده لكن الجسم الغريب كان يقاوم ويستعطف ويمد الجذور وهو يتمسك بعضو ثم بآخر غير راغب في الرحيل • لقد صار بذرة ، حبة قاسية من القمح ، بدت وكأنها تحس بأن السنابل والارغفة المسجونة فيها في خطر ولذا فهي تكافح كفاحا يائسا لكي تحافظ على نفسها ـ وعليها ـ من الفناء •

خرجت وتمشيت ساعات في الحقول • سبحت في البحر وعدت الى كنوسوس مرة بعد أخرى • ومثل الحصان الذي يهز نفسه ويجاهد للتخلص من نعرة ★ نهمة حطت عليه ، كذلك رحت أهز نفسي وأرفس • ولكن عبثا • كانت البذرة مستمرة في مد جذورها الجديدة والتحكم •

في هذه الآونة بدأت عملية سرية ثانية في داخلي • بتغذية هذه البذرة وسقايتها من دمي سأجعلها جزءا من أحشائي ، وبذلك

★ نبابة تعض الخيل .

اخضعها من خلال تمثلها • كان هذا أملي الوحيد في التخلص * البذرة التي اقتحمتني كالفاتح يجب أن تتوحد بي بحيث يصبح كل منا منتصرا ومغلوبا •

وبدأت الكلمات والايقاعات والتشبيهات فورا بالدوران حول البذرة الدخيلة للاحاطة بها وتغذيتها مثل جنين • انبعثت ذكريات خافتة وتصاعدت أفراح وأحزان وضحكات ومحادثات متفجرة دفينة • عبرت أمامي أيامنا المشتركة الطويلة مثل حمامات بيضاء جميلة مليئة بالهديل • وتصاعدت الذكريات قصة أسمى من الحقيقة ، قصتين أسمى من الكذب • لقد مسخ زوربا بالتدريج وتحول الى خرافة •

في الليل لم أكن أجد الشجاعة للتوجه الى السرير ، كنت أحس أن البذرة تواصل عملها في نومي • وفي هدأة الليل المهيبة كنت أصغي اليها باهتمام وهي تقرض وتقرض أوراق سويداء قلبي ، مثل دودة الحرير ، آملة أن تحولها الى حرير •

كنت أتجول في شوارع كاسترو الضيقة ليلا • وراحت الذكريات القديمة تقفز من كل ركن • قابلت نفسي طفلا يسير وحده ولا يرغب في اللعب مع بقية الاطفال ، ثم يافعا يتنزه مع أصدقائه على الاسوار الفينيسية المطلة على البحر - كانت ساعة الغسق وكان هناك نسيم لطيف مثقل بملح البحر ، والياسمين من حدائق الجوار الصغيرة ، والعطر من الفتيات اللواتي يتنزهن وهن يضحكن ويلمننا لأنهن كن يرغبن في ان نلتفت ونتطلع اليهن فيما كنا نناقش موضوع الله وما اذا كانت الروح خالدة أم لا ••• وكلما اكتمل القمر وصفا كانت تهيمن علي حالة ثمل ساحرة عميقة •• وكانت الابواب وقرميدات أسطحة البيوت تتمثل هي الاخرى • وكانت الحجارة والغابات والينابيع وأبراج الاجراس تخلع عنها أجسادها الكثيفة لتريح نفسها من العبء الذي كان يرهقها اثناء النهار • وها هي ارواحها الآن تتلألأ عارية في ضوء القمر •

جاءت أول أمطار الخريف • نزلت السماء الى الارض ورفعت البذور رؤوسها من الاخاديد وراحت تتطلع فرحة الى الاعالي • ولما

وجدت بيت أسرتي ضيقا جدا علي الآن ، هربت وحيدا الى بيت صغير مهجور يخص واحدا من أصدقائي • كان يقوم على حافة الماء خارج المدينة : دار مغلقة مربعة بجدران عالية فيها شجرتا ليمون وسروة وعدة أصص من الحبق والعترة ، وباب دار ثقيل مصنوع من ثلاثة ألواح خشبية على ثلاث طبقات وكأنه باب حصن ، وتاج هائل ثقيل تحتاج من أجل سحبه لاستخدام يديك معا وقوتك كلها • كم كانت سعادتي عميقة حين سحبته وأرتجت الباب وبقيت وحيدا لا يستطيع أحد أن يدخل الى معتزلي • قلت للرتاج « سأمسك بك جيدا تحت ذراعي حين أدخل السماء وستدخلها معي » • وكنت أتطلع اليه بامتنان • سيمسك بعض الناس بالأدوات التي كانوا يعملون بها ليكسبوا عيشهم وآخرون سيمسكون بالرماح التي قاتلوا بها وآخرون الأقلام التي كتبوا بها وآخرون يمسكون بحبيباتهم • أما أنا فسأمسك بهذا الرتاج •

ما أجمل أن تكون وحيدا وأن تسمع البحر يتنهد وراء عتبتك وأن تنزل القطرات الأولى من المطر على شجرات الليمون والسرو في دارك ، وأنت تحس ببذرة تنهشك في أعمق أعماق أحشائك •

استوطن زوربا في داخلي مثل خادرة ★ ملفوفة في صدفة قاسية شفافة • لم يكن يتحرك • لكنني كنت أحس بعملية مبهمة غامضة رهيبة مستمرة ليلا ونهارا بسر وبصمت داخل تلك الخادرة الخرساء• كانت عروقها الواهنة تمتلىء بالتدريج ولحمها الجاف ينعم – كانت الصدفة على وشك أن تنشق في أية لحظة عند الكتفين وكان الجناحان الطريان الأجعدان العاجزان على وشك ان يظهرا ، كانت دويدة ممددة داخل الخادرة ، وكانت قد انجرفت بفعل جنون قدسي مباغت ورغبت في أن تتحول الى فراشة • وحين سمعت أول الأمطار سمعت الأرض تتشقق وتتلقى الهطول وسمعت بذار القمح يشرب وينتفخ في الارض ، وسمعته يمد كلابات خضراء قوية لكي يتمسك بالتراب ثم ليرفع الارض بعدها ويظهر الى الضوء من أجل أن يصبح قمحا وخبزا يأكله الناس لكي يظلوا أحياء ويمنعوا الرب من الموت •

★ الحشرة في الطور الذي يعقب اليرقة — المورد •

وأنا أصغي باهتمام كنت أسمع الروح التي تقف على كل وريقة عشب لتساعدها على النمو وأداء واجبها على الارض . وهنا في عزلتي المحصنة أحسست أنه حتى أحط مخلوقات الله - حبة قمح أو دودة أو نملة - تتذكر بغتة أصلها ويتملكها مس منزل من الله فترغب في الارتقاء درجة بعد درجة من أجل أن تلمس المولى ، ترغب الحبة أو النملة أو الدودة في ان تلمسه وان تقف الى جانبه مع الملائكة والملائكة المقربين ، وأن تكون هي أيضا ملاكا أو ملاكا مقربا .

حين التقيت بزوربا ، وكان ما يزال يلقي بظله على الارض ، وحين عرفت انه لا جسده ولا أغنيته ولا حتى رقصته كانت قادرة على استيعابه تساءلت بتوقع كبير عن أي نوع من وحوش البرية سيتفجر حين تأتي ساعته ويقطع القيود الشفافة المحيطة به والتي تكبله ساكنا في أحشائي . أي وحش وأي خراب نهم وأي لهب متأجج لا يعرف الخمود ؟ وقلت لنفسي ان كانت الدودة ، الدودة التافهة ، ترغب في أن تصبح فراشة فما الذي كان زوربا يرغب ان يكونه ؟

كانت تلك أياما لا تنسى من التأمل القدسي . الأمطار تهطل والغيوم تذوب وتظهر الشمس مستحمة . كانت زهور الليمون قد تشكلت ثمرا وراحت الليمونات الخضراء المقدسة تتلامع على الاشجار . كانت النجوم تظهر ليلا وتدور فرق رأسي ثم تسقط غربا . وكان الزمن يمر مثل مياه خالدة وأحسست برأسي يبحر فوق الزمن والفيضان بثقة وشجاعة ، مثل الفلك ★ ، محملا بكل نوع من البذار ، الحيوانات والبشر والآلهة . حشدت ذكرياتي كلها ، وسافرت من جديد في رحلاتي كلها معيدا الى الذهن الأرواح العظيمة كلها التي سبق أن أشعلت لها الشموع في حياتي وأنا أقدم موجة بعد موجة من دمي لتغذية البذرة التي في داخلي ورحت أنتظر . أطعمت هذه البذرة عسلا غاليا جنيته في عمر من التنقيب بين أطيب الزهور شذى وأقتلها سما . للمرة الاولى أحسست بطعم الحب الأبوي وعرفت أي منبع للخلود هو الابن . تماما كما ان اللؤلؤ مرض وهو في الوقت ذاته الانجاز الاسمى للمحار ، كذلك فقد بدأت

★ المقصود فلك نوح .

احس بالاضطراب والحمى في دمي ، وفي الوقت ذاته كنت أحس برسالة نابعة من المصادر العميقة التي وصلت اليها - أو كنت على وشك أن أصل - في أهم لحظة من حياتي · على أساس هذه البذرة ، هذا الابن ، سيتقرر مصيري ·

★ ★ ★

مضى الخريف وجاء الشتاء · كنت أتمشى في الحقول المحروثة حول مخبئي ، وأنا مندهش كيف تستعيد الارض الخالية من العشب بذورها وتنتظر بصبر مجيء الربيع · أنا الآخر رحت أنتظر بصبر مع التراب · واحسست انني بدلت جنسي ، كأنني تحولت الى امرأة ، مثل الارض ، وانني أغذي بذرتي ، الكلمة ، وأنتظر · قلت لنفسي : آه لو انني أستطيع أن أجسد آلامي وآمالي كلها في هذه الكلمة لأخلي هذا الابن من بعدي حين أفتح باب الارض لأغادرها ·

تذكرت ناسكا التقيت به ذات يوم على جبل آثوس · كان يمسك بورقة حور يعرضها للنور ويتطلع اليها والدموع تنهمر من عينيه · توقفت عنده مندهشا وسألته « ما الذي تراه في هذه الورقة يا أبانا المحترم بحيث يجعلك تبكي ؟ »

اجابني : « أرى المسيح مصلوبا » · ثم قلب الورقة وقد أشرق وجهه غبطة · وسألته هذه المرة : « وما الذي تراه الآن فيجعلك سعيدا ؟ »

- أرى المسيح مبعوثا يا بني ·

لو ان المبدع يستطيع بالطريقة ذاتها ان يرى آلامه وآماله كلها حتى في أحط التفصيلات من العالم ، في حشرة أو صدفة أو قطرة ماء ، وليس فقط أن يرى آلامه وآماله هو بل أن يرى آمال الكون كله وآلامه · لو انه فقط يستطيع ان يرى الانسان مصلوبا والانسان مبعوثا في كل خفقة قلب وأن يحس بأن النمال والنجوم والاشباح والافكار تخرج كلها من الام ذاتها مثلما نخرج نحن وبأننا نقاسي

كلنا ونأمل كلنا أن ياتي اليوم الذي ستتفتح فيه عيوننا فنرى اننا كلنا واحد ـ ونصل الى الخلاص ٠

لن أنسى ما حييت شهور الانتظار الباطنية هذه ٠ حفيف أوراق الليمون ، طيران نحلة ، البحر الذي لا يهدأ بل يظل يتنهد ويدق بابي ، غراب يمر فوق سطح البيت ـ كل شيء كان يؤذيني ويجعلني أبكي ٠ كأنما قام الله ما بسلخ جسدي فلم أعد أستطيع تحمل حتى هبوب النسيم عليه ٠

الى أن كان ، أخيرا ، ذات يوم لم أعد أستطيع المقاومة ٠ لقد عرفت جيدا ومنذ سنوات ان الطريقة الوحيدة لتخليصي من الألم الشديد أو الغبطة الشديدة ولاستعادتي حريتي هي أن أسحر هذا الألم أو هذا الفرح بفتنة الكلمات السحرية ٠ في البلدان المدارية تخترق حشرة دقيقة كالخيط جلد الانسان وتأكله ٠ ثم يأتي طارد الارواح فيعزف بمزماره السحري الطويل ٠ وتظهر الدودة المسحورة٠ تسترخي شيئا فشيئا وتخرج ٠ وهكذا هو مزمار الفن ٠

جاءت أيام كانون الثاني الهادئة المغتسلة بأشعة الشمس ، الأيام التي ربما كان الله بفضله العميم قد حشرها في قلب الشتاء لكي تستطيع طيور البحر البائسة المسكينة ان تضع بيوضها واثقة فوق الصخور ٠ وفي يوم من تلك الايام الهادئة ذهبت الى البحر وسبحت ثم حمّيت نفسي وخرجت ثم جففت نفسي في الشمس٠ لم يسبق لي أن أحسست في حياتي بهذه الراحة الجسدية وبهذه السعادة الروحية ٠ عدت الى البيت وأمسكت بريشتي (هذا هو مزماري) وبارتعاشة خفيفة انكببت على الورق ٠

صرت أكتب وأشطب ٠ لم أكن أستطيع أن أجد الكلمات الملائمة٠ أحيانا كانت سخيفة بلا روح وأحيانا مبهرجة بشكل غير لائق وأحيانا أخرى مجردة ومليئة بالهواء ينقصها الجسد الحار ٠ كنت أعرف ما كنت قد خططت لقوله حين ابتدأت غير ان الكلمات الكسول الطليقة نقلتني الى مكان آخر ٠ وازهر مخططي بوفرة كبيرة فوسع الهيكل الذي كنت وضعته فيه وصار بوقاحة يغزو المزيد من المكان والزمان ٠ كان يتغير ثم يتغير من جديد ٠ لم أكن أستطيع أن أحدد

ملامحه · وكانت روحي تتغير معه ثم تتغير من جديد ولم أكن أستطيع أن أحدد ملامحها هي الاخرى ·

عبثا كنت أجهد لأعثر على مصطلح بسيط دون رقعة تزيينية ، المصطلح الذي لا يثقل على عواطفي بغناه فيحطمها · من كان ذلك المتصوف المسلم العطشان الذي أنزل الوعاء في بئر لكي يسحب الماء ويشرب ؟ رفع الوعاء فرآه مليئا بالذهب · أفرغه وأنزله من جديد ثم سحبه فكان مليئا بالفضة · أفرغه وقال : « أعرف أنك مليء بالكنوز يا مولاي · ولكن أعطني فقط بعض الماء لأشرب · أنا عطشان » أنزل الوعاء ثانية وسحب الماء ثم شرب · هكذا يجب ان تكون الكلمة : دون زينات ·

ولادراكي بأن الوقت لم يحن بعد ، وان التحول السري داخل البذرة لم يكتمل بعد ، توقفت ·

أتذكر ذات مرة أنني أخذت خادرة من جذع شجرة زيتون ووضعتها في راحتي · وداخل الغلاف الشفاف ميزت شيئا حيا · كان يتحرك · لا بد ان العملية السرية قد وصلت الى نهايتها · وكانت فراشة المستقبل ، التي ما تزال سجينة ، تنتظر بارتعاشات صامتة مجيء الساعة المقدسة التي تخرج فيها الى ضوء الشمس · لم تكن على عجلة، كانت تنتظر وهي واثقة بالضوء وبالهواء الدافيء وبقانونه الأزلي ·

لكنني كنت على عجلة · كنت أريد أن أرى المعجزة تحدث أمامي بأسرع ما يمكن ، كنت أريد أن أرى كيف ينبعث الجسد من قبره وكفنه ليصبح روحا · انحنيت وبدأت أنفخ أنفاسي الحارة على الخادرة واذا بشق يرتسم على ظهر الخادرة وانشق الغلاف كله تدريجيا من أعلاه الى أسفله وظهرت الفراشة الخضراء الزاهية غير المكتملة وهي ما تزال منطبقة على نفسها قليلا وأجنحتها ملتوية وأرجلها ملتصقة الى بطنها · تلوت بهدوء وراحت تتقدم نحو الحياة شيئا فشيئا تحت نفسي الحار المستمر · أحد أجنحتها ، أصفر مثل ورقة حور متبرعمة ، أبعد نفسه عن الجسد وبدأ يتخبط محاولا ان يتمدد بطوله الكامل · ولكن عبثا · ظل واهنا نصف مفتوح ·

وسرعان ما تحرك الجناح الآخر مثله وصار يجهد بدوره لكي يتمدد وعجز عن ذلك وظل مرتعشا ونصف مفتوح • وأنا ثابرت ، بوقاحتي البشرية ، على الانحناء والنفخ بنفسي الحار على الاجنحة المشوهة لكنها توقفت عن الحركة الآن وسقطت جامدة لا حياة فيها مثل حجـر •

امتلأ قلبي غما • فبسبب تسرعي ، ولأنني تجرأت على تخطي قانون أزلي قتلت الفراشة • كنت أمسك في يدي جثة • لقد مـرت سنوات وسنوات وظلت جثة هذه الفراشة تثقل على ضميري منذ ذلك الحين •

يتسرع الانسان أما الله فلا يتسرع • ولهذا تكون أعمال الانسان مشوهة وملتبسة ، بينما أعمال الله راسخة ومتماسكة • امتلأت عيناي بالدموع وأنا أقسم على أن لا أتخطى بعدها هذا القانون الأزلي • كالشجرة ستهب علي الريح ويسقط علي المطر والشمس وسأظل انتظر بثقة ، فساعة الازدهار والاثمار التي يطول انتظارها لا بد أن تأتي •

ولكن هأنذا في اللحظة ذاتها أحنث بقسمي • فعلى الرغم من ان خادرة زوربا لم تنضج بعد فلقد كنت على عجلة من أمـري لفتح كفنها ، ولخجلي من نفسي مزقت كل ما خربشته على الورق وخرجت لكي أتمدد قرب البحر •

تذكرت شيئا قاله لي زوربا ذات مرة : « انني أتصرف دائما وكأنني خالد » • ذاك هو أسلوب الله ، الا ان علينا ، نحن الفانين ، ان نحذو حذوه وليس من خلال جنون العظمة والصفاقة بل من خلال توق الروح الخفي الى ما هو أسمى • ان محاولة تقليد الله هـي وسيلتنا الوحيدة لتجاوز الحدود الانسانية حتى ولو تم التجـاوز بشعرة ، وحتى لو تم للحظة (تذكر السمكة الطائرة) • فطالمـا أننا مسجونون في أجسادنا وطالما اننا خادرات فان أهم الاوامر التي تلقى علينا من قبل الله هي : اصبر ، تأمل ، ثق •

راقبت الشمس وهي تغرب ، والتمعت الجزيرة المهجورة المقابلة

لي وردية وسعيدة مثل خد بعد قبلة · وسمعت الطيـور الغريدة الصغيرة تعود نعسانة الى النوم ، متعبة بعد يوم كامل من الصيد والغناء · سرعان ما ستظهر النجوم لتحتل أمكنتها واحـدة بعـد الأخرى وستبدأ عجلة الليل بالدوران · سيأتي منتصف الليل ، وسيأتي الفجر ولا بـد أن تشـرق الشمس وستبـدأ عجلـة النهار دورتها ·

ايقاع قدسي ، بذور في الأرض ، وطيور ونجوم ـ كلها تطيع ، الانسان وحده يرفع يده احتجاجا ويرغب في تخطي القانون ويحول الخضوع الى حرية · ولهذا فهو وحده بين مخلوقات الله كلها قـادر على اقتراف الخطيئة· الخطيئة ـ ما معنى هذا ؟ معناه تدمير التوافق والانسجام (هارموني) ·

★ ★ ★

ولاحساسي بأن رحلة ما ستمنحني القدرة على الصبر ركبت متن قارب كان متجها الى الجـزر الايجيـة البهية ، سانتورين ، وناكسوس وباروس وميكونوس · لقد قلت ذلك وانني أقوله مـن جديد : ان من أعظم المتع التي يمكن ان يمنحها الانسان في هـذا العالم هي الابحار في بحر ايجة ربيعا حين يكون النسيم العليـل موجودا · لم أستطع ، ابدا ، أن اتصور كيف يمكن أن تختلف الجنة عن ذلك بأي شكل كان · أية غبطة سماوية أو أرضيـة يمكن أن تكون أكثر اكتمالا في تواؤمها مـع جسـد الانسـان وروحه ؟ هذه الغبطة تصل حد الثمالة لكنها لا تتجاوزه ـ والحمد لله ـ ولهذا لا يتلاشى العالم المرئي · بل على العكس من ذلك يصبح اللامرئـي مرئيا · وما نسميه الله والخلود والنعمى يستقل قاربنا ويبحر معنا· أغمض عينيك في ساعة الموت الرهيبة ، فان رأيت سانتورين وناكسوس وباروس وميكونوس فانك ستدخل الجنة فورا ودون تدخل التراب · وما هو حضن ابراهيم والأشباح اللامادية في الجنة المسيحية بالمقارنة مع هذا الأزل اليوناني المؤلف من الماء والصخور والريح الشمالية المنعشة ؟

فرحت لأنني انسان ، انسان ويوناني · بهـذا أستطيع أن

احس بان بحر ايجة لي ، وارثي الشخصي من أسلافي - غريزيا ودون أي تدخل مشوه من قبل الفكر المجرد - وانني أستطيع الابحار بين الجزر متنقلا من سعادة الى أخرى دون تجاوز حدود روحي • كانت تلك الجزر المقدسة تتلامع مثل الصدر الأملس لحجل ، كانت تتماوج وتغير الوانها كل لحظة في الظل وتحت الشمس احيانا ، رمادية قاتمة وملتمعة بغبار ذهبي أحيانا أخرى ، محتشدة بالزهور صباحا وبالليالك النقية ظهرا وبالبنفسج الدافىء في الساعة التي تقرر فيها الشمس ان تغرب •

دامت هذه الرحلة الشبيهة بشهر العسل أسبوعين • وحين رجعت الى المنزل الصغير على الشاطىء كان عقلي قد عاد الى مكانه وقلبي صار يخفق بهدوء • ولم يختف المسيح وبوذا ولينين،القراصنة العظام المحببون ، بل تفسفروا ★ على غسق الذاكرة مثل رموز هيروغليفية تزيينية ببهاء صاف تم تجاوزه •

لم يلهني أي اهتمام ذهني خلال مجريات رحلتي كلها ، ولم يجىء حلم واحد الى نومي ليذكرني بأن لدي اشكالات ابداعية علي أن احلها ولم أستطع • كنت أرى العالم وأسمعه واشمه ببساطة بهيجة وكأن روحي قد تحولت هي الأخرى الى جسد ، وكأنما هي أيضا كانت ترى العالم وتسمعه وتشمه في حالة من الراحة والدعة •

من كان الرسامان ، في العصور القديمة ، اللذان تباريا ليريا من منهما يستطيع ان يرسم العالم المرئي بدقة أكبر ؟ قال الأول : « سأثبت لك الآن أنني الأفضل » وهو يريه ستارة كان قد رسمها • وقال الخصم : « طيب • افتح الستارة ودعنا نر اللوحة » وأجاب الأول ضاحكا : « الستارة هي اللوحة » •

خلال رحلتي هذه كلها في بحر ايجة أحسست بعمق أن الستارة هي اللوحة فعلا • ومسكين ذلك الذي يفتح الستارة لكي يرى اللوحة • لن يرى الا العدم •

★ تلامعوا كالفسفور •

ظللت غارقا في صمت عزلتي الصارم عدة أيام أخرى • كان الوقت ربيعا • وكنت أجلس تحت شجرة الليمون المزهرة في الدار وانا أقلب في ذاكرتي مستمتعا قصيدة كنت قد سمعتها في جبل آثوس : « حدثيني عن الله يا أختي يا شجرة اللوز • فأزهرت شجرة اللوز » •

ان الستارة مطرزة فعلا بالأزهار والعصافير والبشر – ولا بد انها الله • وهذا العالم ليس رداءه ، كما كنت أعتقد ذات مرة ، انه هو ذاته • الشكل والجوهر متطابقان • لقد عدت من حجي الايجي وأنا أمسك بهذا اليقين ، هذه الغنيمة الثمينة • كان زوربا يعرف ذلك لكنه لم يستطع ان يقوله • كان يرقصه ، وفكرت بيني وبين نفسي ، آه لو انني أستطيع تحويل هذه الرقصة الى كلمات •

وبينما أنا أفكر في ذلك توضح ذهني • وأدركت أنني كنت أبحث عن الله طوال هذه السنوات دون ان انتبه الى انه يقف أمامي مباشرة ، تماما مثل الخطيب الذي يظن أنه قد ضيع خاتم الخطبة ، ثم يبحث عنه قلقا في كل مكان ولا يجده لأنه يلبسه في اصبعه • كانت العزلة والصمت وايجة تتعاون معي سريا وبعطف • وكان الزمن يمر من فوقي ، هو الآخر أحد أعواني ، وينضج البذرة في أحشائي • وجنبا الى جنب مع النجوم والطيور ربطت نفسي الى العجلة الأبدية وللمرة الأولى في حياتي ، كما أعتقد ، أحسست ما هي الحرية : أن يضع المرء نفسه تحت نير الله – أي تحت نير الهارموني •

الابداع ، مثل الحب ، متابعة اغوائية مليئة بعدم الثقة وبالخفقات المرتبكة • وكل صباح حين كنت أخرج الى هذه المتابعة الباطنية كان قلبي يخفق كربا وفضولا مع غطرسة شيطانية غريبة (لا أعرف كيف ولا لماذا) تشبه مذلة عميقة لا توصف • ذلك لأنني دون أن تكون لدي أية فكرة مسبقة ، ومنذ الأيام الاولى كنت أدرك خائفا ما هو الطير اللامرئي – وربما اللاموجود – الذي كنت أطارده لاصطياده • كانت الجبال مليئة بالحجال ، والشعاب مليئة بالقمري والبحيرات بالبط البري • ولكنني ، وأنا أعبر متجاوزا باحتقار هذا

اللحم اللذيذ كله ، كنت أطارد الطائر الذي لا يمسك والذي كنت أسمعه بين حين وآخر يصفق بجناحيه في سويداء قلبي ، الطائر المصنوع ، حتى الآن ، من جانحين وحسب • كنت أجاهد لمنح هذا الطائر جسما صلبا لكي أتمكن من الامساك به •

في البدء لم اكن أستطيع أن أطلق على هذا الطائر اسما ، وربما لم اكن أريد ذلك ، لأنني كنت أعرف تماما ان الاسم يسجن الروح ويقيدها لكي تتلاءم مع كلمة ، ويجبرها على التخلي عن أي شيء لديها مما لا يعبر عنه ، كل المواصفات الغالية التي لا يمكن ايجاد بديل لها ، والقائها خارج حدود الاسم •

ولكنني سرعان ما فهمت أن غفلية ★ كهذه تجعل الصيد أكثر صعوبة • لم اكن قادرا على تحديد مكان فريستي في أي مكان لنصب فخ لها • كان الحضور اللامرئي يحوم في الجو في كل مكان ، في كل مكان وفي لا مكان • لا يستطيع الانسان ان يعتمد الحرية المطلقة ، حرية كهذه تؤدي به الى الفوضى • فاذا كان من الممكن لانسان أن يولد مع حرية كاملة فان واجبه الأول ، ان كان يرغب في ان يكون ذا نفع على هذه الأرض ، هو ان يعين حدودا لهذه الحرية • الانسان لا يستطيع أن يتحمل العمل الا في حلبة ثابتة محددة • وعلي أن اخضع لهذا العجز الانساني ان كنت أرغب في تجاوزه • وهكذا بادراك كامل ومرير بأنني أضيق حدود رغبتي صرت أحتاج الى أن أطلق اسما على الطائر الغامض الذي انطلقت لاصطياده ، اسما ذا حدود مرنة قدر الامكان ، ذا أطر شفافة قدر الامكان بحيث أستطيع أن أرى ، حتى بشكل غبر واضح ، ما الذي يجري وراءه وحوله •

كانت هذه الحاجة تعتمل فيّ سرا ليلا ونهارا • ولحسن الحظ ان عقلي لم يكن مدركا لذلك ، كان هذا كله يجري من وراء ظهره • وذات صباح نهضت واسم الطائر يلمع مفاجئا ورهيبا في الهواء • لم يكن طائرا بل صرخة من أفواه لا تحصى • أدركت ذلك مباغتة•

★ ترك الشيء غفلا بلا اســـم •

هذه الصرخة هي ما كنت أطارد لأصطاد - صرخة المستقبل · لقد كنت أعذب نفسي وأشن حربي من أجلها بل لقد ولدت من أجلها · وما تبقى كله - افراحي وأحزاني ورحلاتي وفضائلي ورذائلي - لم يكن الا تقدمي نحو هذه الصرخة · وكان المسيح وبوذا ولينين محطات في الطريق · كان علي أن أمرّ بهم ، فهم الذين كانوا دلائل على مرور الطائر السري ، هـم الذين كانت مهمتهم ان يثيروا الطريدة لكي أتمكن من تجفيلها ·

ألم يضع أي شيء هباء اذن ؟ بالنظر الى توهاناتي الفكرية والى تعرجاتي الجانبية كل واحدة منها على حدة فستبدو وقتا مبددا ، ونتيجة عقل غير متبلور وغير منظم · ولكنني كنت أرى الآن أنها ، بالنظر اليها كلها مجتمعة ، تشكل خطـا مستقيما سديدا كـان يعرف معرفة تـامة انه بالتعرجات الجانبية فقط يستطيع أن يتقدم فوق هذه الارض الفانية · وخياناتي للافكار العظيمة - لقد تخليت عنها بعد ان كانت تذهلني ثم تفقد ايهامها بالتتالي - اذا أخذت خياناتي هذه معا فانها تشكل ايمانا راسخا بالجوهر · كان يبدو أن الحظ (كيف نسميه ؟ ليس الحظ بـل القدر) له عينان وعطف ، لقد أخذني من يدي وأرشدني · والآن فقط أدركت الى أين يرشدني وماذا يتوقع مني ان أفعل · كان ينتظر مني أن أسمع صرخة المستقبل وأن أبذل كل جهد ممكن للتنبؤ بما كانت الصرخة تريده ولماذا تنادي والى أين تدعونا أن نذهـب ·

تصاعد دمي الى راسي وهو يخرخر فرحا · أخذت قلمـي وكتبت في أعلى الصفحة الموضوع البهيج للعمل النهائي المحدد الذي كنت أبدأه :

« تحياتي أيها الانسان ، أيها الديك الصغـير المنتوف ذو الساقين ! انه صحيح فعلا - ولا تستمع لما يقوله الآخرون - انك ان لم تَصِحْ في الصباح فان الشمس لا تشرق ! »

حط لهب بارد لعوب في راسي ، واحسست به يتماوج مثل ريشة حمراء في الريح · كان طائرا غامضا مسقسقا ، خوذة نارية ذات

قدرة سحرية على زيادة بسالة المحارب وأمله · كان قلبي وهو يخفق بنفاذ صبر على وشك ان يستجمع قواه ، ولكنه حين رأى الهاوية أمامه (الهاوية ؟ أم الله ؟) جبن · اللحم التعيس ليست لديه أية قابلية للمغامرة · باقامته المريحة في ذلك المنزل الصغير الهادىء مع شجرتي الليمون والبحر والرتاج القوي ظل يتراجع الى الوراء ويتقلص خائفا · ولكن سموا غير مرئي أعلى وأكثر حقيقية من جسدي الحقيقي ، راح يحوم فوق رأسي ويتحكم بي · لقد أصبحت سفينة وكنت أستعد للابحار · وعلى قيدومي سمرت حورية بحر واحدى يديها مرخية على صدرها بينما الاخرى ممدودة بصيغة آمرة ! الى الامام · لم تكن نايكي ★ بل كانت صرخة عظيمة وكانت تشير الى طريقي بين السماء والبحر ·

الكلمات والحكايات والطرف التي كنت أعرفها كلها دخلت الى السفينة · لقد أدخلت اليها أعز أصدقائي ، وأكثر الانصار الشجعان تناقضا ممن كان خيالي يتملكهم ، واحتياطات وافرة ، وأكياسا من جلد الماعز مليئة بالخمر وعدداً لا بأس به من الآلهة القدامى المنحوتة في الخشب دون عناية لمساعدتي على تمضية الوقت · انتفخت الأشرعة وانطلقنا الى البحر ·

الى أين نتوجه ؟ لم يكن هناك شيء في ذهني ، كان صدغاي مفتوحين والرياح من الجهات الأربع كلها كانت تهب علي بقوة متشابهة ، بين أصابعي كنت أمسك بقطعة قاسية من الطين ، المستقبل · رحت أعجنها وأعطيها شكلا ـ انسانا ، الها ، شيطانا ـ ثم أخربها وأصوغ منها آخر · وكانت الاشكال تفر من رؤوس أصابعي وتتجمد في الهواء لوهلة ثم تقوم عائدة الى العدم · لا تقل انني كنت ألعب · لم أكن ألعب · كنت أناضل ـ أجاهد أن أنقل ملامح روحي الى الطين ·

وبما انني لم أكن أعرف ما هي ملامح روحي ولا كيف تبدو فقد كان الكفاح صعبا ومستميتا ، وكنت أصارع للعثور على هذه الملامح

★ الهة النصر عند الاغريق .

بتشكيل الطين . لم تكن لدي ثقة في العقل لأنه لا يستطيع ان يميز الا الجسد ، والخطوط الأولية للجسد . انه لا يرى اللهب الذي يومض حول الجسد ويقفز من فروة الرأس والذي يرفرف في الريح مثل الراية . هذه هي الروح بالتحديد . ولذلك لم أكن أسمح الا لقوى غامضة بأن ترشد أصابعي .

بالتركيز ثلاثة أيام صامتا ودون حركة مثل الفقير الهندي عشت حياتي مرة أخرى ، لم يضع منها شيء حتى أقل التفاصيل أهمية - شجرة رمان مزهرة قرب كالاماتا ، بطيخة سانترودية ذات رائحة قوية ، كبيرة الى درجة انني لم أستطع أن أحيطها بذراعي الا بصعوبة ، فتاة صغيرة شعثاء تبيع الياسمين في نابلس ، جلبة مرحة بهيجة تصدر عن قبقاب خشبي لأرملة ترقص في عرس في دارها ، قوسان عظيمان يشكلهما حاجبا امرأة شركسية في موسكو ، كلها ، كلها خرجت من باب الذاكرة المسحور وملأتني بالسعادة . وحين كنت أنزل في فراشي ليلا كنت أتابع رحلاتي في نومي ، مع فارق وحيد هو ان هذه الرحلات ذاتها كانت تحوم في الهواء ليلا متحررة من ثقل الحقيقة ومؤلفة من مادة أكثر بهجة وأثمن فقط .

أهناك ما هو حقيقي أكثر من الحقيقة ؟ نعم . الاسطورة . هي التي تعطي معنى أزليا للحقيقة العابرة . تجوالاتي كلها كانت تتجمع في توافق وانسجام الآن مضغوطة في رحلة واحدة قيمة كانت تعرف بدقة متى بدأت ولماذا والى أين هي ذاهبة . ولم تكن كل نقطة توقف نزوة تافهة من الحظ بل كانت تنفيذا لمخطط القدر ، صارت رحلاتي كلها خطا أحمر يبدأ من الانسان ويصعد لكي يصل الى الله ، أي أعلى ذرى الأمل .

في اليوم الرابع كنت أجاهد لرؤية المدى الذي وصل اليه الخط الأحمر لصعودي حتى الآن وهيمن عليّ غم قدسي مفاجىء . لم يكن هذا الخط الأحمر مرسوما بدمي ، كان هناك شخص آخر يصعد ، ودم شخص آخر ينزف من جروحه راسما مضمارا أحمر على الارض والبحر - شخص أسمى مني بما لا يقاس ، سلف عملاق ، مقاتل بحري ومتسلق جبال . ولم أكن أكثر من ظل له ، الظل الأمين الذي

يتبعه . لم أستطع تبينه بل كنت أسمع نهدته فقط أو أسمع ضحكته المدوية بين حين وآخر . وكنت أتلفت حولي ولا أرى أحدا . غير انني كنت أحس بالنفس القوي معلقا فوقي .

وعيناي مليئتان بحضوره (ليستا عيني" الطينيتين بل الاخريين) انكببت على أوراقي غير ان الورقة البيضاء لم تكن مرآة تعكس وجهي كما كانت سابقا . رأيت وجها آخر لأول مرة ، وجه الرحالة العظيم وتعرفت اليه فورا . كان يعتمر قبعة بحار مدببة ، وله نظرة الصقر النافذة ولحية قصيرة مجعدة وعينان صغيرتان سريعتا التحرك ومغويتان كعيني أفعى وحاجبان مغضنان قليلا وكأنه يزن بعينيه خروفا ينوي ان يسرقه أو يتأمل غيمة محمولة على الريح ظهرت من البحر بغتة ، أو انه يوازن بين قوته وقوى الخالدين قبل أن يقرر ما اذا كانت فرصته المثلى ان يظهر شجاعته أم أن يظهر مكره .

كانت القوة تكمن منتظرة على وجهه ، صامتة وساكنة ، ومتهيئة للانقضاض . انه مصارع يحترم الموت ويتصارع معه بمهارة وحذر دون صراخ أو شتائم بل وهو ينظر اليه في عينيه . كان كل منهما مدهونا بالزيت وكل منهما عاريا تماما وكانا يتصارعان في الضوء مراعيين قواعد النزال الدقيقة . وعلى الرغم من ان الرحالة العظيم يعرف من هو خصمه الا انه لا يسقط فريسة للألم . يرفع عينيه ويتطلع الى وجه الموت وهو يتموج ويتخذ أشكال وجوه عديدة - مرة امرأة على الشاطىء الرملي تمسك بثديها وتغني ، ومرة وجه اله يثير العواصف ويرغب في اغراقه ، ومرة شكل عمود رفيع من الدخان فوق سقف بيته . يلعق شفتيه ويستمتع بوجوه الموت كلها ويتصارع معها كلها ويعانقها كلها باشتهاء .

لقد كان أنت - أنت ! كيف يمكن أن أفعل شيئا قبل ان أتعرف اليك فورا ، يا قبطان سفينة اليونان - أيها الجد والسلف الحبيب ! أنت بقبعتك المدببة وعقلك النهم الماكر أبدا الذي يخلق الأساطير ويطلق الأكاذيب مثل أعمال فنية ، المغتصب العنيد ، المزيج المتميز

من الحصافة البشرية والحماقة الالهية انت الواقف منتصبا بكبرياء على سفينة اليونان ودون أن تخلع الخوذة آلافا متعددة من السنوات وكم من الآلاف التي ستأتي !

أراك في كل اتجاه ويدور عقلي · تبدو ، أحيانا ، مثل أب و صل عمره مئة عام ، وأحيانا قويا وطويلا بشعر أزرق مجعد مرشوش بملح البحر ، وأحيانا طفلا متمسكا بثديي الأرض والبحر ترضع · أراك في كل اتجاه وأجاهد لكي أضغطك في كلمة ، ولكي أجمد ملامحك وأعلن « لقد أمسكت بك ! ولن تفلت ! » لكنك تسحق الكلمة (كيف يمكن لك أن تنسجم داخلها !) وتنزلق من قبضتي وأسمعك تضحك في الهواء من فوقي ·

أية أسماء لم أطلقها كالأفخاخ للامساك بك ! ناديتك خادع الإله ، ومقاتل الاله وماحق الاله ومراوغ الاله · الحيوات السبع ، العقل المركب ، عقل الثعلب العقل المتشعب ، العقل ذا القمم العديدة ، العقل اليميني اليساري ، خداع القلب ، مقاتل القلب ، عارف القلب ، مغلق البيت ، خاطف الروح ، دليل الروح ، الأكرايت ★ ، جواب العالم ، وجاني العالم ، وعقل القوس ، وباني الحصون ، ومدمر الحصون ، مقاتل البحر ، وصدر المحيط ، والدلفين ، والانسان ذا العقول الخمسة ، والارادة السداسية ، القائد ، الوحيد ، صياد الظيور ، سكونة ★★ الأمل ذات الصواري الثلاثة ·

وذات مرة في البدايات الاولى حين لم أكن أعرفك ، ولكي أمنعك من الابتعاد ، ألقيت في طريقك ما كنت أظن أنه أكثر المصائد حذقا ـ ايثاكا · لكنك انفجرت ضاحكا ثم أخذت نفسا عميقا فاستحالت ايثاكا الى ألف قطعة · وعندها فهمت ـ بفضلك يا مدمر الوطن ـ أن ايثاكا غير موجودة · الشيء الموجود الوحيد هو البحر ،

★ في العصر البيزنطي كان الاكرايت يحرسون الحدود من غارات البرابرة ، ثم اصبحوا رموز البطولة والتفاني في سبيل الوطن وقد خلدت مآثرهم ، التي ضخمت كثيرا ، في الملاحم والاغاني .

★★ نوع من القوارب ذات الاشرعة المتعددة .

ومركب صغير بحجم جسم الانسان والعقل قبطانه • يقف هذا القبطان في حجرته العظيمة • يبذر الذكر والأنثى ويولدهما ، يولد أحزان العالم وأفراحه ، محاسنه وفضائله ومغامراته وكل سلاسل أشباحه الدموية الحبيبة • يقف دون حراك وعيناه مثبتتان باتجاه شلال الموت الذي يجتذب قاربه الصغير اليه وهو يلقي بنهم مجساته الخمسة الجائعة على البر والبحر • ويصرخ : « كل ما ظل لدينا وقت من أجله ، سواء كان كأسا من الماء البارد ، أو نسمة على أصداغنا أو نفس امرأة دافيء أو فكرة ، كل ما يقع في طريقنا ، دعونا نعمل بسرعة أيها الفتيان ـ فنحن لا نستطيع ان نفقده ! » •

لقد جاهدت طوال عمري لكي أوسع عقلي،الى أن تشقق عند حد التمزق،من أجل أن أستحضر فكرة عظيمة قادرة على اعطاء معنى جديد للموت وراحة للبشر •

وهأنذا الآن • بمعونة الوقت والعزلة وشجرة الليمون المزهرة تحولت لدي الفكرة الى حكاية • يا للفرحة ! لقد حلت الساعة المباركة وتحولت الدويدة الى فراشة •

علمني حاخام من الأيام القديمة ، الحاخام نعمان ، قبل سنوات كيف أعرف بحلول الساعة التي أستطيع فيها أن أفتح فمي وأتكلم وأن آخذ قلمي وأكتب • كان رجلا ورعا بسيطا ومرحا اعتاد أن يعظ تلامذته ويعلمهم كيف يستطيعون هم أيضا أن يصبحوا بسيطين ومرحين وورعين • ولكنهم وقعوا ذات يوم على قدميه وهم يشكون « يا حاخامنا العزيز ، لم لا تتحدث مثل الحاخام صادق ؟ لم لا تجمع أفكارا عظيمة وتؤلف نظريات عظيمة بحيث يستمع اليك الناس بنشوة وأفواههم فاغرة ؟ ألا تستطيع أن تفعل شيئا آخر غير التحدث بكلمات بسيطة وسرد الحكايات مثل الجدة العجوز ؟ »

وابتسم الحاخام الطيب • مر وقت لا بأس به قبل أن يجيب وأخيرا فتح فمه : « ذات يوم سألت نبتات القراص ★ شجيرة

★ نبات شوكي •

الورد : ألا تعلميننا سرك يا مدام شجرة الورد ؟ كيف تصنعين الوردة ؟ وأجابت شجيرة الورد « سري بسيط يا أخواتي القراصات . انني أعمل طوال الشتاء في التراب بصبر وثقة وحب وشيء واحد يستولي على ذهني : الوردة . يلسعني المطر وتعريني الريح من أوراقي ويسحقني الثلج ولكن شيئا واحدا يظل مستوليا على ذهني : الوردة . هذا هو سري يا أخواتي ! »

وقال التلاميذ : اننا لا نفهم يا سيدنا !

وضحك الحاخام : أنا نفسي لا أفهم جيدا .

ـ فاذن يا سيدنا ؟

ـ أظن أنني كنت أريد أن أقول شيئا ما مثل : حين تستولي علي فكرة فانني أعمل فيها وقتا طويلا بصمت وصبر وثقة وحب . وحين أفتح فمي (ما هذا السر يا أبنائي ؟) حين أفتح فمي تخرج الفكرة كحكاية .

وضحك مرة أخرى وقال : نحن البشر نسميها حكاية وشجيرة الورد تسميها وردة .

★ ★ ★

لم يسبق لي أن واجهت أبي بمودة . فالخوف الذي كان يبعثه فيّ كان كبيرا الى درجة ان البقية كلها ـ الحب والاحترام والالفة ـ تتلاشى . كانت كلماته قاسية وصمته أكثر قسوة . نادرا ما كان يتحدث وحين يفعل كان يفتح فمه وكلماته محسوبة وموزونة بدقة فلا تستطيع ان تجد أساسا لمعارضته . كان محقا دائما . مما كان يبدو انه يجعله حصينا . ولقد تعودت أن أقول لنفسي : آه كم أتمنى أن يخطيء مرة واحدة فلربما غافلت قلبي عندها وعارضته . الا انه لم يمنحني فرصة كهذه أبدا . وهذا شيء لا يسامحه عليه المرء أبدا . كان شجرة سنديان ، بجذع صلب ، وأوراق خشنة وثمر مر وبلا أزهار . كان دائما يلتهم القوة المحيطة به وكانت كل شجرة تذبل في ظله . وأنا الآخر كنت أذبل في ظله . لم أكن أحب أن أعيش تحت

انفاسه . حين كنت شابا كانت تتفجر في أعماقي ثورات مسعورة : وكنت مستعدا لالقاء نفسي في مغامرات خطرة لكنني ، في كل مرة ، كنت أفكر في والدي فيجبن قلبي . ولهذا كنت مجبرا على كتابة كل ما كنت أرغب في فعله وذلك بدلا من أن أصبح مكافحا عظيما في مملكة الفعل - بسبب خوفي من والدي . لقد كان هو الذي حول دمي الى حبر .

□

حين رجعت الى البيت الصغير على شاطيء البحر بعد ثلاثة أيام كنت أحس احساسا عميقا لا يوصف بالراحة . لقد أزيح عن كاهلي ثقل أو ظل . وانقطع الخيط الغامض اللامرئي الذي كان يربطني الى الخضوع والخوف . أستطيع الآن أن أقول وأكتب وأفعل ما أشاء ، لم أعد ملزما بتقديم الحساب لأحد . لقد ذهب الحارس ، وأغمضت العين التي كانت ترى ولا تغفر ، وانشطر صك العبودية الى نصفين . لقد أصبحت الآن حرا طليقا .

فات الأوان على أية حال . فلقد سلكت طريقا . لم أختره بل هو الذي اختارني . وسدّت الطرق كلها التي ورائي والتي أمامي . لقد قر قراري في عادات ثابتة وتعاطفات وكراهيات ثابتة ، فات الأوان الآن على القيام بتغيير مفاجيء وبتبديل في الجبهات . علي أن أكمل شوطي في الطريق الذي سلكته وأصل الى النهاية . هذا ولا شيء غيره . الا ان لدي الآن فرصة عظيمة . لقد تخففت . وها أنا ذا قادر أخيرا على السير بارتياح وبالطريقة التي اخترتها بنفسي : مغنيا ، ضاحكا ، متوقفا ولاعبا . لم أعد أشعر بالخجل أو بالخوف من أي انسان . كنت أخاف من شخص واحد فقط طوال حياتي : وهو أبي . فممن أخاف الآن ؟ حين كنت أرفع نظري اليه وأنا طفل كنت أراه عملاقا . وعندما كبرت تقلص كل شيء من حولي : البشر والبيوت والاشجار . وظل هو وحده كما كنت أراه في طفولتي : عملاقا . كان ينتصب أمامي ويحجب عني نصيبي من الشمس ، وعبثا كنت أحاول أن لا أمكث في بيت أبي ، في عرين الأسد . وعلى الرغم من أنني صرت كسولا ، وسافرت وألقيت

بنفسي في مغامرات ذهنية صعبة فقد بقي ظله بيني وبين الشمس دائما . وكنت أسافر في كسوف شمسي لا ينتهي .

ان في عتما كثيرا ، الكثير من أبي ، وطوال حياتي كنت أجاهد لاستبدال هذه العتمة وتحويلها الى ضوء ، قطرة واحدة صغيرة من الضوء . وكان صراعا قاسيا لا رحمة فيه ولا راحة ، ولو انني حاولت لوهلة وسمحت لانقطاع صغير في العداء لفنيت . واذا كنت أبدو منتصرا أحيانا فكم من الجراح كان يورثني ذلك وكم من الآلام ! لم أولد نقيا لكنني كنت أجاهد لكي أصبح كذلك . وليست الفضيلة بالنسبة لي من ثمار طبيعتي بل هي من ثمار كفاحي . لم يمنحني اياها الله بل كان علي أن أسعى لقهرها بالسيف . زهرة الفضيلة بالنسبة لي كومة من الروث المصنع .

ولم تنته هذه الحرب أبدا . ولم أهزم حتى الآن كما انني لم انتصر تماما . في أية لحظة قد أتلاشى كلية وفي أية لحظة قد أنجو كلية . ما أزال أسير على الصراط ★ الذي يهتز فوق الهاوية .

تعريت والقيت نفسي في البحر وسبحت . وأحسست بالسر المقدس للعماد ببساطته الخالدة في ذلك اليوم ، وفهمت لماذا تعتبر الكثير من الأديان الماء والاستحمام ، بمعنى آخر العماد ، الشرط المسبق والحتمي للطقوس التي يبدأ بها المهتدي حياته الجديدة . ان برودة الماء تتغلغل الى نقي عظامه ، الى أعمق أعماقه ، تلتقي بالروح ، وحين ترى الروح الماء تخفق بأجنحتها سعيدة مثل نورس بحري صغير فتغتسل وتغتبط وتنتعش . وهكذا يتحول الماء اليومي البسيط ، يصبح ماء الحياة الخالدة ويجدد الانسان . وحين يخرج المهتدي من الماء يبدو له العالم وقد تغير ، ان العالم لم يتغير فهو دائما مدهش ورهيب ، ظالم ومليء بالجمال . أما الآن ، وبعد التعميد ، فلقد تغيرت العيون التي ترى العالم .

حين خرجت من البحر كانت الشمس تغرب . وتوردت الجزيرتان المهجورتان في مواجهتي كما لو ان النهار يطلع . كانت المويجات

★ الجسر ـ الشعرة: Hair Bridge .

اللطيفة تتمتم بمودة فوق الحصى البيضاء وكان الشاطىء القديم كله يبتسم راضيا · ومر مركب صعيد صغير بمجاذيف لامعة كانت تثير موجات من الذهب السائل حيثما كانت تضرب وتجرح الماء · في داخل المركب كان الصياد يتنهد بقوة وكانت نهدته تتجاوب في صمت المساء مليئة بالشكوى وبالعاطفة الشهوانية · فلأنه شاب وبلا رفقة كما يجب أن يكون وجد جمال البحر غير محتمل بحيث أن « الآه » فقط يمكن أن تحتويه ·

صارت الجزيرتان الصغيرتان ، الآن ، بنفسجيتين وزادت عتمة البحر وفتحت طيور الليل عيونها وهي تحس بالعذوبة الليلية على أجفانها ، فقد كانت جائعة · ورفرف خفاشان فوقي بصمت ، بمنقارين مفتوحين يطاردان فريسة · لقد كانا ذات يوم فارتين (الخبراء لم يعرفوا بذلك لكن الفلاحين يعرفون) ولكنهما دخلتا كنيسة وقضمتا جسد المسيح في خبز الوقف فصارت لهما أجنحة · وفيما أنا أرقب جسديهما الفأريين في الغسق هيمن علي ، مرة أخرى ، الاعجاب بتوازن العالم · فالناس والحيوانات محكومون بالقوانين البسيطة ذاتها · ومغامرات الروح البشرية والاخت الخفاش متشابهة · الروح البشرية كانت ايضا فأرة ذات يوم · ولقد قضمت جسد المسيح وشاركت الله على العشاء الرباني وصارت لها أجنحة ·

لا أعرف حيوانا أكثر اثارة للقرف من الفأرة ، أو طائرا أكثر اثارة للقرف من الخفاش ، ولا أعرف هيكلا من اللحم والشعر والعظام أكثر اثارة للقرف من الجسم البشري · ولكن فكر في كيفية تحوّل هذا السماد كله وتألهه حين احتوى الله في داخله ـ البذرة التي تحولت الى أجنحة ·

عدت الى البيت · لقد أراحتني هذه الفكرة طوال الليل · وعند الفجر جاءني والدي في نومي ووجهه الساكن متلامع ومليء باللطف · وقف أمامي وسط مرج أخضر ، عاليا جدا وشفافا جدا وكأنه مصنوع من الغيم · وفيما كنت أحدق اليه وبدأت أفتح فمي فرحا للفظ الكلمة اللطيفة التي لم أنطق بها حين كان حيا هبت نسمة لطيفة (أكانت نسمة أم أنها كانت أنفاسي أنا ؟) فتحركت الغيمة ورقت وفقدت

شلكها الانساني السابق وتبددت في كل اتجاه فوق العشب مثل صقيع الصباح ٠

حينما استيقظت وجدت الشمس في غرفتي تملأ سريري ٠ استندت على ذراعيّ لأتطلع من النافذة ٠ فرأيت البحر يضحك وتبرز أثداؤه الصغيرة لكي تتمكن الأشعة الدافئة من مداعبتها ٠ هذا يوم جميل الهي آخر ٠ كل صباح يكتشف العالم عذريته ، ويبدو كأنه خرج طازجا من بين يدي الله في تلك اللحظة ٠ لا ذاكرة له ولهذا فان التجاعيد لا تظهر على وجهه ٠ انه لا يتذكر ما فعله في اليوم السابق ولا يقلق لما سيقوم به في اليوم اللاحق ٠ يتعامل مع اللحظة الحاضرة وكأنها الأبد ٠ لا لحظة أخرى موجودة ٠ قبل هذه اللحظة وبعدها لا شيء ٠

جلست أمام النافذة لأستقبل الشمس على صدري مباشرة وانكببت على الصفحة البيضاء ٠ لم تكن صفحة بيضاء بل كانت مرآة رأيت فيها وجهي ٠ وعرفت أن كل ما سأكتبه ، مهما يكن ، سيكون اعترافا ٠ الآن هي اللحظة الحاسمة في القيامة ٠ تقف أمام الحاكم غير المرئي ويبدأ قلبك في الاعلان عن خطاياه دون خجل ، اقد سرقت وقتلت وكذبت واشتهيت زوجة جاري وصنعت مجموعة كاملة من الآلهة وعبدتها ثم حطمتها وصنعت غيرها ٠ كانت لدي وقاحة الرغبة في تجاوز الكائن البشري للقيام بما لم تستطع أنت أن تفعله أو لم تكن ترغب في أن تفعله ٠ لقد تآمرت مع القوى النيرة والمعتمة كلها التي كانت تحت تصرفي لازاحتك عن عرشك ، والجلوس عليه بنفسي لاقامة نظام جديد في العالم ـ نظام أقل جورا وجوعا ، وفضيلة ألطف نبرة وحب أكثر كفاحية ٠

أحسست بقلبي يصرخ في داخلي ٠ كانت لديه شكاوى كثيرة اذ انه لم يكن على وفاق مع الله ولقد آن الآوان لكي يهيء تقريرا ، دون ان يلفظ كلمة الآن ، ليخبره بألمه وسخطه ٠ كانت السنون تترى وأنا معها وعلى الطين ان لا يغلق فمي قبل أن أدلي بكلامي ٠ ان لكل انسان صرخة ، صرخته الخاصة ، ترتفع في الجو قبل ان يموت ٠ لذا علينا ان لا نضيع وقتا لئلا يفوتنا الأوان ٠ صحيح ان هذه الصرخة لا بد ان تتعثر دون جدوى في الهواء وانه لا أذن تسمعها هنا ، تحت ، على الأرض أو هناك ، فوق ، في السماء ٠ ولكن لا

يهم ، • أنت لست غنمة • أنت انسان • وهذا يعني انك شيء قلق وصارخ • فلتصرخ اذن •

لا تجبن ! هكذا قلت لنفسي • ولا يخطر ببالك أنه بما انـك حيـوان فـان فانـك لا تستطيـع ان تتـدخـل في ادارة الكـون • يا للأسف ! آه لو انك فقط عرفت قوتك لكنت الآن قد تخلبت الحدود البشرية !!

□

جاء الربيع ووجدني ما أزال أصارع وأكدح لترويض هـذه الجياد الجامحة : الكلمات • على الرغم من مرو آلاف ، بل ملايين ، السنوات منذ الظهور الأول للانسان فان تكنيك اغراء اللامرئي قد ظل على حاله منذ الأزل ولم تتغر قوانين المطاردة • ما نزال نستخدم الحيلة ذاتها ، الصلوات المهتمة بالنفس ذاتها ـ فللروح المثقلة بالجسد لا تستطيع ان تفرد أجنحتها لكنها تجبر على سلوك طرق اللحم ، على قدميها •

كان البدائيون في الكهوف يكافحون لرسم الوحوش البرية التي يتمنون الامساك بها • كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا جائعين • ولم يكن لديهم أي قصد في انتاج الفن أو الجمال الفريد • وكانت الخطوط العريضة للوحش التي يرسمونها بالألوان أو بالخطوط على الصخرة فتنة آسرة بالنسبة لهم ، وقصيدة غامضة ستجتذب اليها الوحش الذي سيدخل اليها ويمسك • لهذا كان من الضروري جدا ان يكـون الشكل دقيقا قدر الامكان وذلك لكي يتم خداع الوحش المطلوب بسهولة أكبر •

بالطريقة ذاتها كنت أضع الكلمات مثل المصائد ، أرتبها بكل الدهاء الذي لدي ، لكي أقبض على الصرخة المعجزة التي تظل تتقدم أمامي •

وبغتة تهدم بصمت جدار الاستطلاع والجهد المشروخ • وكما يتمكن المتوحشون عند اكتشـاف اسـم الالـه أو الشيطان الذي يعذبهم ، من وضع شكيمة بين فكيه اعتلائه وتهيئة المهاميز لجعله يحملهم الى حيث يرغبون ، كذلك فانني باطلاقي على بطلي اسما

احسست بقوته تخترقني مثلما تخترق قوة الجواد فارسه وبدأت اتقحم بتهور الى الامام ٠

تكشف كل شيء أمام عيني ـ ظلال خاوية تتعلق بي لاعطائها دمي لكي تستطيع أن تتشكل أجسادا ، رحلات البطل ومغامراته ، الحروب والمذابح والحرائق شؤون الحب والمواجهات الغامضة مع الأرواح العظيمة وأخيرا عند نهاية الرحلة مركب صغير كالتابوت وداخله بحاران مسنان ، محاربان عجوزان ، بطلي وكارون ٠ وأمواج أواسط البحر الكريتي العالية تتلامع وتصطخب تحت الشمس وهي تتدحرج واحدة بعد الأخرى وتندفع كالقطعان لتتكسر بهمهمة فوق حصى الشاطيء ، هذه الأمواج صارت أبياتا ثمانية التفعيلات ، وكانت حواف عقلي المغتسلة بالشمس تتلقاها وتضحك مثل شاطيء كريتي ٠

مع مرور الأيام والأسابيع تزايد توقي لقدوم الفجر من أجل أن أتمكن من الانكباب على الورقة البيضاء من جديد لأرى ما سيفعله بطلي اليوم وأين سيذهب وكيف سيتصارع مع القوى النيرة والحالكة التي تهب من قوس الأفق الشامل وتملأ أشرعته ٠ حتى أنا لم أكن أعرف المخبوء ٠ كنت أنتظر وأنا أنشر الاسطورة من داخلي لكي أتعلم ٠ كنت أكتب دون مخطط عقلاني ٠ قوى أخرى تتحكم بي، قوى ليست متمركزة في الرأس بل حول العانة ٠ هذه هي التي كانت تهدي يدي وتجبر العقل على المتابعة والتنظيم ٠

لم يسبق لي ان جربت ألم دودة الحرير وارتياحها الصامتين بهذا الاحساس بالتشابه ٠ عندما تتحول أوراق التوت التي أكلتها كلها في داخلها الى حرير تبدأ عندها عملية الخلق ٠ تهز رأسها من جانب الى جانب فتنتزع أحشاءها برعشة تشنجية ، وتستخرج الحرير ، خيطا رفيعا بعد خيط رفيع وتغزل بصبر وبحكمة غامضة كفنها أبيض ذهبيا وكله من المادة الثمينة ٠

ليس هناك أحلى من هذا الألم على ما أعتقد ، ولا من واجب ملح أكثر من واجب أن تتحول الدودة كلها الى حرير ، واللحم كله الى روح ٠ ولا التزام أكبر من العمل طبقا للقوانين السائدة في مشغل الله ٠

النظـرة الكريتيـة

طوال الوقت الذي يبدع فيه الانسان يستولي عليه المـرض الصباحي الذي يستولي على امرأة تغذي ابنها بأحشائها • وجدت من المستحيل علي أن ألتقي بأحد • كانت أقل ضجة تجعل جسدي كله يرتعد ، وكنت كما لو أن ابولو قد سلخ جلدي وصارت أعصابي العارية تنجرح بمجرد ملامسة الهواء لها •

كانت الأبيات الثمانية تتدفق صاخبة بيتا بعد الآخر وتنتشر على الورق انتشار البحر • وأنا على كرسي كنت أعيش تجربة مآثر أوليس ومحنه • لقد رفع المرساة استعدادا للرحلة العظمى التي لا عودة منها • وكانت جزيرته الصغـيرة وزوجته الصغيرة التافهة وابنه الساذج طيب القلب خانقين له الآن • انتزع نفسه قرفا ورحل • توقف في اسبارطة واختطف هيلين التي كانت تختنق من حقها في الحياة الوادعة • نزل الى كريت وانضم الى البرابرة واحرق القصر المتهاوي• الا انه كان يختنق• حتى هذه الجزيرة الهامة كانت ضيقة عليه فاتخذ طريقه جنوباً من جديد • أنا نفسي صعدت الى سفينته وكنت اتجول معه تمثال حورية بحرية على مقـدم السفينة • صار عقلي كونا متكاملا ، كرة أرضيـة كنت أرسم عليها ، بالحبر الأحمر ، الموانـىء المتبقية ـ حتى نهاية الارض • كنت أعرف كل شيء ، كل شيء تماما • وكنت أرى كل شيء وأدل علـى الطريق • كان الطريق الرهيب يلتمع ولمضحا وضوحا تاما في

داخلي . ولكن ما أصعب الكفاح للاقفال على هذه الرؤيا الشاملة داخل كلمات دون السماح بهدر نقطة واحدة منها .

ان المبدع يتصارع مع مادة قاسية غير مرئية ، مادة أسمى منه بكثير . وحتى أعظم المنتصرين يظهر مهزوما ، ذلك لأن أعمق أسرارنا ، السر الوحيد الذي يستحق ان يعبر عنه يظل دون افصاح . ولا يخضع هذا السر للاطار المادي للفن . اننا نختنق داخل كلمة . وعند رؤية شجرة مزهرة أو بطل أو امرأة أو نجمة الصبح نطلق « آه ! » . لا شيء غيرها يمكن ان يتلاءم مع غبطتنا . وعند تحليل هذه الآه نتمنى لو نعيدها الى فكر وفن لكي نمنحها للبشر وننقذها من فنائنا الشخصي . فكم ترخص عندها وتصبح كلمات صفيقة متبرجة مليئة بالهواء والخيال .

ولكن ، للأسف ، ليست هناك طريقة أخرى لنقل هذه الآه - الجزء الوحيد من الخلود فينا - الى البشر . الكلمات ! الكلمات ! لم يكن لدي ، وأسفاه ، خلاص آخر . اذ لا سلطة لي على شيء الا على ستة وعشرين جنديا مقداما ، على الحروف الستة والعشرين في الابجدية . قلت لنفسي سأعلن نفيرا عاما وأعد جيشا وأقاتل ضد المـوت .

أعرف تمام المعرفة أن الموت لا مرئي . الا ان قيمة الانسان لا تكمن في النصر بل في الكفاح من أجل النصر . وأعرف كذلك هذا الامر الذي هو أكثر صعوبة : انها لا تكمن حتى في الكفاح من أجل النصر . ان قيمة الانسان كامنة في شيء واحد فقط وهو : ان يعيش ويموت بشجاعة دون التنازل بقبول أي جزاء . وأعرف كذلك هذا الشرط الثالث ، والذي هو أكثرها صعوبة : ان التيقن من عدم وجود جزاء يجب أن لا يفزعنا بل يجب أن يملأنا بالغبطة والكبرياء والشجاعة الرجولية .

وفيما كنت أكتب رأيت كلمتين تلحان على الظهور وترفضان الابتعاد على الرغم من انني لم أكن أريد ذلك بل الحقيقة انني حاولت تجنبه . والكلمتان هما (الله) و (الارتقاء) . ما هـو الله ؟ أهو الوهم الاعظم ؟ أم الامل الاعظم ؟ أم اليقين الاعظم ؟

أم لعله الشك الأعظم ؟ على الرغم من انني كنت أكافح منذ سنين فانني ما زلت لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال الفاجع بشكل محدد • ظل الجواب يتغير في أعماقي طبقا للشجاعة أو الثقة أو الجبن الذي كانت روحي تحس به خلال تأملاتها حول الله • ولم أكن متيقظا تماما عند أي من هذه السيرانات ★ ـ أهـو الوهم ★★ أم الأمل ام اليقين ـ يجب أن أتوقف وأسلم روحي • كانت الأغنيات الثلاث الصادرة عنها تفتنني بالمقدار ذاته • وكلما ازداد سماعي لأي من هذه الأغنيات قلّت رغبتي في التقدم للغناء أكثر من ذلك •

الا انني طوال حياتي كنت واثقا من أمر واحد هو ان هناك طريقا واحدا، طريقا واحدا فقط ، يؤدي الى الله ـ هو الارتقاء • لا النزول ولا الطريق الأفقي بل الارتقاء فقط • ولقد جعلني عجزي عن تمييز مضامين كلمة (الله) تلك بوضوح ، تلك الكلمة التي مرغت وبولغ في استعمالها من قبل البشر ، أتردد كثيرا ، الا انني لم أتردد أبدا في ما يتعلق بالطريق المؤدي الى الله ، بمعنى آخر الى الذروة السامية لرغبة الانسان •

وهناك أيضا هذا الامر : كنت مفتونا بثلاثة من مخلوقات الله ـ الدودة التي تصير فراشة ، والسمكة الطائرة التي تقفز من الماء محاولة تجاوز طبيعتها ، ودوة الحرير التـي تحول أحشاءها الى حرير • وكنت أحس دائما بتوحد غامض معها ، لأنني كنت أتخيلها دائما رموزا ترمز الى طريق روحي • ومن المستحيل علي أن أعبر عن الغبطة التي اعترتني حين رأيت لأول مرة يرقة محفورة في كفة الميزان الذهبي الدقيق المكتشف في قبور مسينا وفراشة فـي الكفة الأخرى ـ انهما رمزان مأخوذان حتما من كريت • ان توق اليرقة ، بالنسبة لي ، للتحول الى فراشة هو رمز لواجبها ـ وواجب الانسان ـ الأكثر الزاما والأكثر شرعية في الوقت نفسه • ان الله يصنعنا يرقات ونحن ، بجهودنا ذاتها ، يجب ان نصير فراشات •

★ السيرانة : كائن اسطوري له راس امراة وجسم طائـر كانت تغوي البحارة بغنائها فتقودهم الى الهلاك .

★★ الكلمة المستخدمة تفيد الوهم وتفيد « الكمير » وهو كائن اسطوري له راس اسد وجسم شاة وذنب افعى .

وقد اعترتني غبطة واثارة مشابهتان عند رؤية السمكة الطائرة على اللوحات الجصية في كنوسوس ، وهي تحلق فوق البحر بأجنحتها التي صنعتها . أحسست بتماثلي مع أسلافي القصيين . الآن ، بعد آلاف السنوات ، أسير بأمانة على خطاهم : أنا أيضا كنت أحول الأرض الكريتية الى أجنحة .

وذات يوم في قرية صغيرة على جزيرة يونانية رأيت (أرأيت ؟ أم انني حلمت بأنني رأيت ؟) أيقونة للعذراء أحاطها المؤمنون باطار من الشوك . ونثروا بيوض دود الحرير على الاطار . كانت البيوض قد فقست وصارت الدودات الصغيرة ، صانعة المعجزات ، التي ظهرت منها تغذى يوميا بورق التوت . كانت الدودات قد أنجزت مهمتها يوم رأيت الأيقونة . لقد حولت ورق التوت الى حرير . وصارت العذراء مؤطرة بالشرانق البيضاء . وقلت لنفسي : آه لو انني أستطيع البقاء أمامها حتى الربيع لأرى الشرانق تتفتح والفراشات البيضاء المتجعدة - الأرواح كما يسميها الفلاحون - تطوق ام الله بعيونها اللامعة الصغيرة .

وكان مسيحي مؤمن سيقول لي : « لم يكن ما رأيته حلما . انك لم تر الدودات ★ بل رأيتنا - نحن البشر . فحالما ننجز مهمتنا على الأرض سندخل القبر ثم نخرج منه أرواحا لنخفق بأجنحتنا حول أم الله الى الأبد . لقد منحنا الله عيونا وبهذه العيون نرى انه قد أرسل لنا دودة الحرير لتدلنا على طريقنا . ان الرموز المقدسة النبوية تربك قلوبنا لوهلة الا اننا لا نجرؤ على اتخاذ الخطوة التالية : ان نؤمن ونحول الأمل الى يقين » .

□

عند الصباح كان العالم متألقا والبخار يتصاعد منه . كانت قد هبت عاصفة هوجاء أثناء الليل وتلقت الأرض الظمأى المياه

★ في هذا المقطع كله فضلت جمع دودة على دودات لتمييزها عن غيره من الديدان .

السماوية فانتعشت • حين توجهت الى نافذتي وجدت البحر والأرض أرجين بحلاوة والسماء حديثة الاستحمام ولامعة ، وبيضاء ناصعة من أشعة الشمس • وكان صدري منتعشا كقطعة أرض أيضا • وكتراب ظامىء تلقى عاصفة الليل كلها • كانت الغبطة التي شعرت بها عظيمة الى درجة انني رأيت من المستحيل علي أن أنكب على أوراقي في ذلك اليوم لأحول العالم الى أبيات ثمانية التفعيلات • فتحت الباب وخرجت •

كان شهر آب ، أسخى الشهور وأحبها ، مثل رب أسرة نشيط يتجول في حقول البطيخ والكروم وقبضتاه مليئتان بالثمار الريانة ، وهو ملوث بالتفالة من التعريق (صنع العرق) ـ ساتير مقدس ذو ذقنين وثلاثة كروش وذنب منتصب • جلت قدرته ! ذلك الذي يتمتع بكرمه ، اليونان ، وبخمره •

تلك هي آلهتنا المحلية ، الآلهة الحقيقية ، الخالدة • تحت شمس كهذه وأمام بحر كهذا وبين جبال كهذه كيف لآلهة أخرى ـ دون كروش ودون متعة ودون أوراق دوالي على أصداغها ـ أن تولد ؟ وكيف لها ان تنمو قوية ؟ وكيف كان لأبناء اليونان وبناتها أن يؤمنوا بجنة تختلف عن هذه الجنة الأرضية ؟

دخلت الكروم • كانت الصبايا يقطفن العنب ووجوههن ملفوفة باحكام بمناديل بيضاء لترد عنهن أشعة الشمس المحرقة • يرفعن رؤوسهن حين يمر بهن شخص فلا ترى منهن الا العيون الفاحمة المتلامعة في ضوء الشمس والمليئة بأطياف الرجال •

سمحت لجسدي أن يختار الطريق الذي يشاء • ولقد سرتني فكرة انه هو الذي يقودني وليس أنا الذي أقوده • ان الجسد لا يكون مادة عمياء صماء حين يستحم بالنور اليوناني ، انه يمتلىء بروح هائلة تجعله فوسفوريا ، فاذا ترك لحريته يستطيع أن يتوصل الى قراراته وان يجد الطريق الصحيح دون تدخل من قبل العقل • وعلى العكس من ذلك ليست الروح شبحا هوائيا غير مرئي • انها تستخدم بعضا من يقين الجسد ودفئه بطريقتها الخاصة ، وتتذوق العالم

باستمتاع سهواني ، وكأنما لها فم ومنخران ويدان تداعب بهما العالم • كثيرا ما ينقص الانسان الصبر اللازم للحفاظ على انسانيته كلها • فيشوه نفسه • يرغب ، أحيانا ، في التحرر من روحه وأحيانا من جسده • ويبدو ان استمتاعهما معا حكم قاس • ولكن هذين العنصرين المجيدين الخالدين ، هنا في اليونان ، يستطيعان ان يتمازجا تمازج الماء الحار بالماء البارد ، فتأخذ الروح شيئا من الجسد ويأخذ الجسد شيئا من الروح • يصبحان صديقين وبهذا يتمكن الانسان ، على الأرضية اليونانية المدروسة المقدسة ، من العيش والتطواف وهو سليم ودون تشوه •

توقفت حين عثرت على مشرب عام • كان هناك قدح من النحاس مربوطا الى سلسلة دقيقة • كنت ظمآنا • أنعشني الماء كلية حتى أسفل قدمي ، فطقطقت عظامي.وقفت قليلا تحت شجرة زيتون • كانت الجنادب قد ألصقت بطونها الى جذعها وراحت تغني • صمتت بغتة وقد أخافتها رؤية هذا الجندب الجبار • ومر بي فلاحان وقد حملا حماريهما الصغيرين بالعنب • وحيياني قائلين : « لك طول العمر » وهما يضعان كفيهما على صدريهما • وكانت سويقات العناقيد تتدلى من لحيتيهما • كان الطريق كله عابقا برائحة الخمر • وبمواجهتي رأيت أشجار سرو وصلبانا سوداء بارزة من فوق سياج ناصع البياض • كان هذا هو المعتزل الهادئ الذي يرتاح فيه الموتى وبينهم والدي • قطفت ورقة زيتون ووضعتها بين أسناني وعضضت عليها فامتلأ فمي بالمرارة •

غادرت ظل الزيتونة وانطلقت من جديد وأنا أغذ الخطى • عندها عرفت الى أين يأخذني جسدي ، الى الاسلاف القدامى بعيونهم اللوزية وشفاههم الشهوانية وخصورهم الدقيقة كالخواتم، الاسلاف الذين كانوا ، قبل آلاف السنوات ، يلعبون مع الاله القوي القادر ، الثور •

لا يمكن للانسان ، على ما أعتقد ، أن يحس برهبة أعمق وأكثر جذرية من الرهبة التي يحس بها وهو يمشي على الأرض التي يتمدد فيها اسلافه ـ جذوره • ان قدميك تمدان جذورا تنزل في

أعماق الأرض ثم تفتش من أجل أن تختلط بجذور الموتى الخالدة العظيمة · ويملأ عبير التراب والبابونج الواخز أحشاءك بالاسترخاء وبالرغبة في الخضوع الحر للقوانين الأزلية · أما اذا كانت ثمرة الموت الحلوة لم تنضج في أعماقك بعد فانك تستثار وتتمرد رافضا حرمانك من النور والكفاح ومشكلات الحياة العظيمة في هذا الوقت المبكر · في حالة كهذه تسير بسرعة فائقة على هذا التراب المؤلف من عظام الأسلاف وأدمغتهم ولا تترك لقدميك فرصة مد جذورهما ، وتطير من جديد الى الملعب ذي الهالة ، الى النور ·

كانت العاطفة التي شعرت بها وأنا أسير على الأرض القديمة في كنوسوس غنية الى درجة الترف ، ومعبأة بالموت والحياة ، الى درجة أنني أحسست بالعجز عن فهمها بوضوح · بدلا من الحزن والموت وبدلا من الاسترخاء ، انطلقت من الأفواه البالية وصايا صارمة · أحسست بالموتى يتعلقون بقدمي بشكل سلاسل طويلة ، ليس لانزالي الى عتمتهم الباردة بل من أجل التمسك بشيء ما والخروج معي الى النور لتجديد المعركة ·

غبطة لا تكبح وظمأ لا يروى ، اضافة الى الثيران التي تخور في مروج العالم العلوي مع ملح البحر ورائحة العشب ، كلها ، تغلغلت عبر قشرة الأرض منذ آلاف السنين ومنعت الموتى من الموت·

تطلعت الى صراع الثيران المرسوم على الجدران : رشاقة المرأة وبهاؤها وقوة الرجل التي لا تخطىء ، كيف كانت تلعب مع الثور الهائج وتواجهه بنظرات جريئة · لم يقتلاه حبا به ولكن لكي يتوحدا به ، كما في الأديان الشرقية ، أو لأنهما قد استولى عليهما الخوف منه فلم يجرؤا على التطلع اليه · بدلا من ذلك كانا يلعبان معه ، باصرار وباحترام ودون كراهية وربما حتى بامتنان · وذلك لان هذه المعركة المقدسة مع الثور كانت تشحذ قوة الكريتي وتنمي لياقته البدنية وجماله الجسدي ، والدقة النارية والباردة ــ معا ــ في الحركة وقوة الارادة والشجاعة ــ التي يصعب الحصول عليها ــ لطرح قوته أمام قوة الوحش المخيفة دون أن يسيطر عليه الذعر · وهكذا حوّل الكريتيون الخوف وصنعوا منه لعبة مثيرة تتعرض فيها فضيلة الانسان ، عند احتكاكها المباشر بالقوة التي لا عقل لها ،

الى التحريض فتنتصر ـ تنتصر على الثور دون أن تقضي عليه لأنها لا تعتبره عدوا بل زميل عمل · فمن دونه ما كان للجسد ان يكون بهذه المرونة والقوة وما كانت الروح ستكون بهذه البسالة ·

لا شك ان الانسان يحتاج الى تدريب كبير لكل من جسده وروحه ان كان عليه أن يتحمل رؤية الوحش واللعب معه في هذه اللعبة الخطرة · ولكنه ما ان ينهي تدريبه ويتملك الاحساس باللعبة حتى تصبح كل حركة من حركاته بسيطة وواثقة وتلقائية فيتطلع الى الخوف بجسارة ·

وبينما كنت أتفرج على المعركة المحفورة على الجدران ، المعركة المغرقة في القدم بين الانسان والثور (الذي نسميه اليوم الاله) قلت لنفسي : هكذا كانت النظرة الكريتية ·

وبغتة استولى الجواب على عقلي ، وليس على عقلي فقط بل على قلبي وأحشائي أيضا · هذا ما كنت أبحث عنه وما كنت أريده · علي أن أملأ عيني أوليسي الخاص بي بهذه النظرة الكريتية · لقد كان عصرنا ضاريا · والثور ـ القوى المظلمة الخفية ـ قد أفلت من عقاله · وكانت قشرة الارض تتفتت وتطقطق · الكياسة والانسجام والتوازن والسعادة وحلاوة الحياة ، هذه كلها فضائل ومتع علينا أن نتحلى بالشجاعة الكافية لتوديعها · انها من عصور أخرى في الماضي أو في المستقبل · لكل عصر ملامحه الخاصة به · وملامح عصرنا شرسة ولذا فان الأرواح الدقيقة لم تجرؤ على النظر الى عينيه مباشرة ·

ولا بد لأوليس ، الذي كان يبحر على الأبيات الشعرية التي اكتبها ، من ان تتاح له فرصة النظر الى الهاوية بنظرة يونانية كهذه ـ دون أمل أو خوف ولكن دون صفاقة أيضا ـ وهو يقف شامخا على شفاه الجرف ·

لقد تغيرت حياتي ابتداء من ذلك اليوم ، يوم النظرة الكريتية، كما كنت أسميه · واكتشفت روحي المكان الذي تقف فيه وأين تلقي بنظرتها · هدأت المشكلات الرهيبة التي كانت تعذبني ، وابتسمت

وكان الربيع قد جاء ، وتغطت الارباكات الهمجية ، مثل الاشواك النضرة ، بالزهور • كانت عودة متأخرة للشباب وغير متوقعة • ومثل الحكيم الصيني القديم بدوت وكأنني ولدت أشيب ، عجوزا مقعدا بلحية بيضاء كالثلج • ومع مرور السنين صارت اللحية شهباء ثم راحت تسود تدريجيا ثم تساقطت ، وفي سنوات شيخوختي انتشر زغب ناعم دقيق على خدي •

لم يكن شبابي الا مجموعة من المقلقات والكوابيس والتساؤلات ، وسنوات نضجي لم تكن الا اجابات متعثرة • كنت اتطلع الى النجوم والى البشر والى الافكار - اية فوضى ! وأي كرب أن تلاحق الله ، ذلك الطائر الأزرق ذا المخالب الحمراء ، في وسطها • سلكت طريقا ووصلت الى نهايته - هاوية • عدت مذعورا وسلكت طريقا آخر ولكن الهاوية كانت مرة أخرى في نهايته • انسحاب جديد ورحلة جديدة وبغتة الهاوية ذاتها تفغر فاها أمامي من جديد • طرق العقل كلها كانت تؤدي الى الهاوية • كان شبابي ورجولتي يدوران حول قطبي الألم والأمل ، ولكنني الآن في شيخوختي أقف أمام الهاوية هادئا ودون خوف • لم أعد أهرب ولم أعد أذل نفسي ، لا • ليس أنا • بل أوليس الذي كنت أكونه • خلقته لكي يواجه الهاوية بهدوء ، وخلال خلقه كنت أجاهد لكي اتشبه به • أنا نفسي كنت أخلق • لقد وهبت أشواقي كلها لهذا الأوليس ، لقد كان هو القالب الذي أحفره لكي يتمكن انسان المستقبل من الانسكاب فيه • كل ما كنت أتوق اليه وأعجز عن تحقيقه ، سيحققه هو • انه الفتنة التي ستسحر القوى النيرة والمظلمة التي تخلق المستقبل • الايمان يحرك الجبال • آمن به وسيأتي • من الذي سيأتي ؟ الأوليس الذي خلقته انه الاركيتيب (النموذج الاصلي) •

مسؤولية الخالق جسيمة ، انه يفتح طريقا يمكن ان يحث المستقبل ويجبره على اتخاذ قراره •

تطلعت الى البحر الكريتي ، الى الأمواج التي كانت ترتفع شامخة ، فتلتمع للحظة تحت الشمس ثم تسرع لالقاء الشبح على حصى الشاطىء بهسهسة • أحسست بدمي يجري على منوالها

وهو يغادر قلبي وينتشر حتى أطراف أصابعي وجذور شعري · كنت أتحول الى بحر ، الى رحلة لا نهاية لها مليئة بالمغامرات القصية ، الى قصيدة فخورة ميئسة مبحرة باشرعة حمراء وسوداء فوق الهاوية وفي ذروة القصيدة قبعة بحار وتحت القبعة جبين قاس لوحته الشمس وعينان سوداوان وفم مبقع برذاذ الملح ، وتحته كفان ضخمتان متصلبتان كالبراثن تمسكان بالخوذة ·

لم يعد يستطيع ـ أي لم نعد نستطيع ـ التلاؤم أكثر من ذلك داخل أرض الوطن الضيقة · اخترنا أكثر الأرواح رفضا للخضوع في الجزيرة وحملنا ما استطعنا من بيوتنا واعتلينا سفينة وارتحلنا · الى أين ؟ ستهب الريح وترينا طريقنا · جنوبا ! الى هيلين التي كانت مسمرة على ضفتي يوروتاس ، ضيقة مثلنا بالحياة الآمنة الفاضلة المريحة ، والى جزيرة كريت الأصلية العظيمة التي كانت تذوي ، لأن القدرة قد فارقت أصلاب حكامها ، كانت ترفع ذراعيها وسط البحر وتنادي البرابرة لعلها تنجب منهم أطفالا · الى أفريقيا ، الى نهايات الأرض ، الى الثلوج الأزلية ، والى الموت !

في البدء كان الطائر الازرق ذو المخالب الحمراء يسير في المقدمة لكنه سرعان ما تعب فخلفناه وراءنا ، وظللنا متحررين في الهواء الخاوي دون دليل طائر · بين حين وآخر كانت أرواح عظيمة خالدة تنشب مخالبها في حبال أشرعة سفينتنا وتغني بغية اغوائنا ولكننا كنا ننفجر ضاحكين فتخاف وتهرب · وكنا أحيانا نسمع صرخة رهيبة تنطلق من أعماق البحر : « توقفوا ! أين تذهبون ؟ يكفي ! » وكنا نتكىء على شفير السفينة ونرد صارخين : « لا · لا يكفي · لا يكفي · اهدأوا ! » وذات مساء جاء الموت والتف على القيدوم · كان يلبس مثلنا ، جلد ثعلب ، وقبعة زرقاء مدببة تتوجها بمبونة ★ حمراء ، كانت له لحية بيضاء كالثلج وكان وجهه وصدره وذراعاه وفخذاه مددة بندوب جراح · ابتسم لنا بلطف · وفهمنا · لقد وصلنا أخيرا الى نهاية رحلتنا ·

★ البمبونة : كتلة أو كرة من ريش أو حرير للزينة .

استلقينا باسترخاء على أرض السفينة وأغمضنا أعيننا فرأينا : فوق القارات والبحار التي عبرناها وفوق الرجال الذين اصطدمنا بهم والنساء اللواتي قبلناهن فوق الأرض والماء والنار واللحم، كانت هناك رحلة أخرى قا بها مصنوع من الغيوم والقارات والبحور.والناس فيها مصنوعون من خيوط حريرية مسحوبة من أحشائنا . وفوقها ، في أعلى مستوى بينها كلها ، تحطم قاربنا الغيمي وتقطعت خيوطنا الحريرية . تلاشت مظاهر العالم كلها ولم يتبق على ذلك السطح السامق الا شمس خرساء عمياء ساكنة أكثر سوادا من السواد . قلنا لأنفسنا لعلها الله . من يدري ؟ لعلها الله ... حاولنا أن نرفع أيدينا لتحيته لكننا لم نستطع .

□

بينما كنت أكتب هذه (الأوديسة) على شاطئي الكريتي كانت القوى الشيطانية تستعد للحرب العظمى الثانية . هبت ريح من الجنون على الجنس البشري وتشققت أسس الأرض ، وأنا منكب على أوراقي أصغي الى الضجيج الصادر عن الأمواج والبشر والقوى الشيطانية مبقيا لروحي حياة غالية لئلا يهيمن علي الذعر. جاهدت للتكهن بالانسان ، ولاغرائه بكلمات منظمة ومنغمة ، ذلك الانسان الواقع وراء المذابح والدموع ، وراء انسان اليوم القرد . وعلى الرغم من انه ظل شبحا معلقا وسط الهواء فانني كنت أحس انني ، حين أنكب وأكتب ، أنقل اليه دمي . لقد أفرغت وهو امتلأ وبدأ جسده يصلب شيئا فشيئا ويتحرك ويأتي .

دخلت حلما عميقا . لقد فني أعمق مستويات الحقيقة ، المستوى الصلب الذي ترتكز مساحته كلها على الأرض ، وتصاعد عاليا في الجو ، مثل نار تهب عليها ريح قوية ، أسمى مستويات الحقيقة ، روح الانسان .

كنت أشتغل طوال النهار وأنام الليل كله . في حياتي كلها لم يسبق لي أن اشتغلت ليلا . أنا مثل الساعة الشمسية ، من دون شمس أصمت Sine Sole Sileo . فالليل ، بأحلامه وصحته وبالأبواب المعتمة التي يفتحها فيّ ، يهيء لي عملي لليوم التالي .

الفائدة الأسمى في هذا الموضوع هي الوقت • حين أرى الناس خارجين للنزهة أو يتمشون دون هدف أو يبددون الوقت في مناقشات لا طائل منها ، أحس بالرغبة في الذهاب الى ناصية الشارع لمد يدي مثل شحاذ وأطلب منهم : « صدقة ! ، أيها المسيحيون الطيبون امنحوني القليل من الوقت الذي تضيعونه ، ساعة ، ساعتين ، اي شيء تحبون » •

□

بدأ النهار يأفل • عقدت ذراعي واسندت رأسي الى الوراء على الجدار ورحت أراقب الشمس الغاربة • لم أكن أحس بفرح أو بحزن أو بتعب • احساس بالراحة فقط وكأن أحشائي قد أفرغت ، وكأنني قد نزفت دمي كله ، وكأنني قشرة شفافة قاسية تركها الجندب على جذع شجرة الزيتون حين فقس • كان مركب شراعي صغير بشراع احمر عائدا من الصيد وكنت أستطيع تمييز السمك المتلامع في قاعه • جزيرة صغيرة في مواجهتي مليئة بالبنفسج • وكنيسة المصلوب المهجورة الصغيرة تلمع بيضاء على قمة الجبل مثل بيضة • والضوء متشبثا بجدرانها البيضاء الناصعة ولا يرغب في مغادرتها •

كنت أستمع الى خشخشة الحصى عن يميني ، وكان شخص يسير مسرعا على الحصى ويقترب • التفت • فلمعت قبعة مدببة في الغسق الأرجواني وعبقت في الهواء الرائحة الواخزة للعرق البشري • انتقلت الى طرف المقعد الحجري الذي كنت أجلس عليه فافسحت له مجالا ليجلس قريبا مني • قلت : « أهلا • كنت أنتظرك » •

انحنى والتقط بعضا من أعشاب البحر التي قذفت بها الأمواج ووضعها بين شفتيه وقال : « هأنذا • انني مسرور لرؤيتك » •

كان الليل الأزرق الرقيق يهبط من السماء ويصعد من البحر • وعلى اليابسة وراءنا كانت طيور الليل تطير بين أشجار الزيتون ، وكانت صرختا الحب والجوع الخالدتان العظيمتان تتجاوبان في الصمت

الأسود • الحيوانات الصغيرة المختبئة بين الشجيرات القصيرة جائعة هي الأخرى ، وهي في حاجة الى الحب أيضا • وتصاعدت نغمة حزينة من الأرض •

ظللنا صامتين • وكان في وسع كل منا أن يسمع قلبه يخفق بهدوء • كان يبدو ان هذه الأشواق الليلية كلها • وأن هذه الأصوات المتصادمة كلها كانت تتناغم بمرورها في أحشائنا •

كانت العذوبة والغبطة عظيمتين الى درجة ان الدموع بدأت تنسكب من عينيّ ، وانبعثت من أعماقي كلمات قديمة غامضة وتوقفت على شفتي :

يتساوى الموت والميلاد أيها الفتيان
ويتساوى وجع القلب والغبطة
ويتساوى ان تبحر وأن ترسو
كما تتساوى المرحبا والتوديع •

التفت الى الرفيق الصامت الى يميني وسألته : « هل نتحرك يا كابتن أوليس ؟ هل وصلنا ؟ يبدو ان الزمن قد توقف وكأنه قد تحول الى أزل • والخواء في كفي مثل مخطوطة رسمت عليها البحار والأراضي • والفرج ـ ما نسميه فرجا ونمد أيدينا بلهفة نحو السماء لكي نصل اليه ـ قد صار قطفة حبق وراء أذني • ألا تشم رائحة عبيره في الهواء ؟

تنشق رفيقي بعمق وابتسم •

قال : « لقد أفرج عنك من الفرج » • كانت رياح البحر قد جعلت صوته قاسيا وأجش • « لقد أفرج عنك من الفرج ، وهذه أسمى مآثر الانسان • وشرطك في خدمة الأمل والخوف قد انتهى • لقد انحنيت فوق الهاوية ورأيت ظهورات العالم تنقلب رأسا على عقب ولم تخف • انحنينا معا فوق الهاوية يا رفيقي الغالي ولم نخف • هل تتذكر ؟ »

وقفزت الى ذهني الرحلة الرهيبة وراح البحر يرعد من صدغ

الى صدغ ، واتسعت ذاكرتي فرأيت وعاودت الرؤيــة واستعدت الاستمتاع بالطريقة التي اقتلعنا أنفسنا بها من الابــن والزوجة وأرض الآباء والحياة الوادعة وكيف خلفنا وراءنا الفضيلة والحقيقة وكيف مررنا بين سيلا وكاربديس ★ الله دون ان نخسر سفينتنا وكيف انطلقنا الى اتساع البحر بأشرعة مملوءة وشققنا طريقنا ببسالة نحو الهاوية ٠

ـ كانت رحلة جميلة ٠ قلت ذلك وأنا ألمس ركبة رفيقي بمحبة حقيقية ٠ ولقد وصلنا الآن ٠

ـ وصلنا ؟ سألني مندهشا ٠ ما الذي يعنيه هذا ؟
ـ أعرف ٠ يعني اننا نرحل الآن ٠
ـ نعم ٠ اننا نرحل الآن ٠ دون قارب ودون بحر ودون جسد ٠
ـ أحــرار ٠
ـ لا ٠ أحرار من الحرية ٠ ما بعد ٠
ـ ما بعد الحرية يا رفيقي ٠ تشجع ٠
ـ ما بعد ؟ أين ؟ عقلي عاجز عن استيعاب ذلك ٠
ـ أخاف من اللحاق بك ٠ ان قوتي لا تصل الا الى هنا ٠ لا أستطيع الذهاب أبعد من ذلك ٠
ـ لا يهم يا أبي ٠ لقد أديت واجبك ٠ ولقد أنجبت ولدا أسمى منك ٠ أنت تبقى هنا كالطافية ★ أما أنا فسأذهب الى ما هــو أبعــد » ٠

نهض وشد حزامه ونظر بعيدا عبر الظلمة ٠ وسقط نجم مثل دمعة على خد الليل ٠ وهبت ريح من الأرض فصهلت الأمواج في الصمت مثل جياد تستيقظ ٠ مد لي يده ٠ فصرخت ، وكأن روحــي تفارقني ، « أأنت راحل ؟ » ٠

★ سيلا صخرة جنوبي الشاطىء الايطالي وكاربديس تيار خطر في مضيق مسينا . ومن الاسمين جاء الاسمان الاسطوريان عن غولتين تشكلان خطرا على البحارة . والمرور بين سيلا وكاربديس ،عبير يعني الخيار بين خطرين .

★ عوامة لارشاد السفن .

انحنى علي وقبل كتفي اليمنى ثم كتفي اليسرى ثم عيني الاثنتين • وغطتني شفتاه بمياه مالحة • ابتسم وخرج صوته لعوبا وعطوفا •

« من كان ذلك الزاهد الذي بحث عن الله أربعين عاما ولم يستطع أن يجده ؟ كان شيء معتم يلوح في الوسط ويعيقه • الا انه ذات صباح رأى : كان ثوبا من الفرو يحبه كثيرا ولم يكن قلبه يطاوعه للتخلي عنه • ألقاه بعيدا وبغتة رأى الله أمامه ••• أنت فروتي القديمة يا رفيقي العزيز • وداعا » •

ارتعبت • كانت كلماته الأخيرة تبدو وكأنها قادمة من البعيد البعيد من الضفة الأخرى • قفزت واقفا وفتشت في الظلمة •

لا أحد •

خاتمة

اقبل يدك يا جدي ★ الحبيب · اقبل كتفك اليمنى واقبل كتفك اليسرى · لقد انتهى اعترافي وعليك أن تحكم الآن · انني لم أسرد تفاصيل الحياة اليومية · فلقد كانت قشورا · كنت تلقيها في لجة الهاوية ولقد فعلت مثلك · كانت الحياة ، بأحزانها الكبيرة والصغيرة ، وبأفراحها الكبيرة والصغيرة ، تجرحني أحيانا وتلاطفني أحيانا · لقد هجرتنا تلك الشؤون اليومية الاعتيادية وهجرناها · لم تكن جديرة بعناء الالتفات الى الوراء وانتشالها من الهاوية · لن يخسر العالم شيئا اذا ما ظل الناس الذين عرفتهم غارقين في النسيان · فالاتصال مع معاصري لم يؤثر على حياتي كثيرا · لم احب أناسا كثيرين ، اما لأنني فشلت في أن أفهمهم واما لأنني كنت أنظر اليهم باحتقار · وربما أيضا لأني لم يصدف لي أن التقيت بالكثيرين ممن يستحقون أن يحبوا : الا انني لم أكن أكره أحدا وذلك على الرغم من أنني قد آذيت العديد من الناس دون أن أكون راغبا في ذلك · لقد كانوا عصافير دوري وأنا كنت أرغب في تحويلهم الى نسور · انطلقت بغية تخليصهم من الاعتدال ومن التكرار فدفعت بهم دون أن آخذ قدرتهم على الاحتمال بعين الاعتبار فتحطموا على الأرض · لم يكن يثيرني الا الموتى الخالدون ، السيرينات العظيمة : المسيح وبوذا ولينين · منذ سنوات عمري الأولى كنت أجلس عند أقدامهم وأصغي باهتمام الى أغنيتهم المغوية المليئة بالحب · ولقد كافحت طوال حياتي لأنقذ نفسي من كل من هذه السيرينات دون

★ سيتضح في هذا الفصل ان الجد الذي يكلمه ويتخذه رمزا هو الفنان الاسباني الكريتي الاصل الى غريكو (١٥٤١ — ١٦١٤) .

التنكر لأي منها ، كافحت لتوحيد هذه الأصوات المتصارعة الثلاثة وتحويلها الى نغم منسجم ٠

ولقد أحببت نساء ٠ كنت محظوظا في الالتقاء بنساء فذات في طريقي ، لم يسبق لأي رجل ان قدم لي معروفا أو عونا في كفاحي بالقدر العظيم الذي فعلته هذه النساء ، وواحدة منهن أكثر من الجميع : الأخيرة ٠ ولكنني ألقي على هذا الجسد المبتلى بالحب الوشاح الذي ألقاه أبناء نوح على أبيهم السكران ٠ انني أحب أسطورة أسلافنا عن ايروس وبسيشه ★ ولا بد أنك قد أحببتها أيضا ٠ يا جدي ٠ انه لمن المخجل والخطر معا أن تشعل قنديلا فتبدد الظلمة وترى جسدين مشتبكين في عناق ٠ كنت تعرف ذلك ، انت الذي خبأت زوجتك الحبيبة جيرونيما دولاس كويفاس في غموض الحب القدسي ٠ انني أفعل الشيء ذاته مع جيرونيماي ٠ رياضية رفيقة وجسور ، نبع بارد في وحشتنا اللاانسانية ، وراحة عظيمة ! الفقر والعري ـ نعم لقد كان الكريتيون على حق حين قالوا ان الفقر والعري لا أهمية لهما اذا قيضت لك زوجة صالحة ٠ ان لدينا زوجتين صالحتين : زوجتك جيرونيما وزوجتي هيلن ٠ أي حظ عظيم هذا يا جدي ! كم من المرات لم نقل فيها لأنفسنا ونحن ننظر اليهما : بورك اليوم الذي ولدنا فيه !

الا اننا لم نكن نسمح للنساء ، وحتى لأعزهن ، بأن يضللننا ٠ لم نسلك طريقهن المفروش بالزهور بل أخذناهن معنا ٠ لا ٠ لم نأخذهن بل ان هاته الرفيقات الباسلات تابعننا في ارتقائنا بملء ارادتهن ٠

شيء واحد كنا نلاحقه طوال حياتنا : رؤيا قاسية لاحمة صامدة ـ الجوهر ٠ ومن أجله كم من السموم قدمها لنا الآلهة والبشر لكي نشربها وكم من الدموع ذرفنا ٠ وكم من الدماء وكم من العرق

★ تزوج ايروس من بسيشه وصار يزورها كل ليلة ويرحل نجرا وقد اوصاها ان لا تحاول رؤية وجهه . ولكنها ذات يوم اشعلت شمعة وقربتها من وجهه فسقطت عليه قطرة ايقظته واختفى .

الغزير ! طوال حياتنا كان هناك شيطان (أشيطان أم ملاك ؟) يرفض ان يدعنا في سلام • كان ينحني فوقنا ويلتصق بنا ويهمس في آذاننا : « عبثا • عبثا • عبثا » كان يظن انه سيجعلنا نتجمد في دروبنا • الا اننا صددناه بهزة من رؤوسنا ، وصررنا على أسناننا وأجبنا : « هذا ما نريده بالضبط • اننا لا نعمل لقاء أجر ولا رغبة بأجرة يومية • اننا نقاتل في الجو الخالي ما وراء الأمل ووراء الفردوس ! » •

كان للجوهر أسماء عدة : كان يظل يغير أقنعته طالما نحن نتابعه • أحيانا كنا نسميه الأمل الأسمى وأحيانا اليأس الاسمى ، أحيانا ذروة الروح البشرية وأحيانا سراب صحراء ، أحيانا الطائر الأزرق والحرية وأحيانا ، أخيرا ، كان يبدو لنا مثل دائرة مغلقة ، القلب البشري مركزها والخلود محيطها ، دائرة أطلقنا عليها اعتباطا اسما ثقيلا محملا بآمال العالم ودموعه كلها : « الله » •

في داخل كل رجل متكامل ، في سويداء قلبه ، مركز غامض يدور حوله كل شيء آخر وهذا الدوران الغامض يوحد بين أفكاره وأفعاله ، ويساعده على العثور على الانسجام الكوني أو اختراعه • هذا المركز بالنسبة للبعض هو الحب ولآخرين اللطف أو الجمال ولغيرهم التعطش للمعرفة أو التوق للذهب وللسلطة • انهم يتفحصون القيمة النسبية لكل شيء آخر ويلحقونها بهذه العاطفة المركزية • ويا لتعاسة الانسان الذي لا يحس بنفسه محكوما في داخله من قبل سلطان مطلق • فحياته غير المحكومة والمشوشة تبعثرها الرياح الأربع •

ومركزنا ، يا جدي ، المركز الذي اجتاح العالم المرئي في عصفه والذي كافح للسمو به الى أعلى درجات البسالة والمسؤولية كان المعركة مع الله • أي اله ؟ الذروة القاسية لروح الانسان ، الذروة التي نحن دائما على وشك الوصول اليها والتي تقفز دائما على قدميها وتصعد أعلى فأعلى • « وهل يتقاتل الانسان مع الله ؟ » سألني بعض المعارف ساخرين ذات يوم • وأجبتهم : « ومع من غيره تتوقعون من الانسان ان يتقاتل ؟ » فعلا • مع من غيره ؟

لهذا ، يا جدي ، كانت حياتنا كلها ارتقاء ، ارتقاء وجرفا وعزلة · لقد انطلقنا مع العديد من رفاق الكفاح والعديد من الأفكار في موكب عظيم · ولكن فيما كنا نصعد وفيما كانت الذروة تنتقل وتصبح أبعد فأبعد كان رفاق الكفاح والأفكار والآمال مواظبين على توديعنا ،تتقطع أنفاسهم فلا يعودون راغبين أو قادرين على الصعود أعلى من ذلك · وظللنا وحيدين وعيوننا مثبتة على (الجوهر المتحرك) ★ ، الذروة المتنقلة · ولم يتسلط علينا الصلف ولا اليقين الساذج بأن تقف الذروة ذات يوم وتثبت وبأننا سنصلها، ولا حتى الاعتقاد بأننا اذا ما وصلناها سنجد هناك في الأعالي السعادة والخلاص والفردوس · كنا نرتقي لأن فعل الارتقاء ذاته بالنسبة لنا هو السعادة والخلاص والفردوس ·

انني أعجب للروح البشرية : ما من قوة في السماء أو الأرض لها عظمتها · دون وعي بالأمر نحمل في داخلنا هذه الطاقة الجبارة · الا اننا نرهق أرواحنا بأثقال من اللحم والشحم ونموت دون ان نعلم ما نحن وما نستطيع انجازه · أهناك قوة أخرى على الأرض تستطيع أن تنظر الى بدء العالم ونهايته مباشرة دون ان يصيبها العمى ؟ في البدء لم تكن الكلمة (كما تعظنا الأرواح الرازحة تحت الشحم واللحم) ولم يكن الفعل ولا يد الخالق المليئة بالطين المتلقي للحياة · في البدء كانت النار · وفي الختام ليس هناك خلود ولا جزاء ، لا نعيم ولا جحيم · في الختام النار · وبين هاتين النارين ، يا جدي العزيز ، نحن نرحل ، ولقد كافحنا ، بأمرة النار وبالعمل معها ، من أجل ان نحول اللحم الى لهب والفكر الى لهب ، والأمل واليأس والشرف والعار والمجد الى لهب · كنت تسير في المقدمة وانا أتبعك · ولقد علمتني ان لهبنا الداخلي ، المتناقض مع طبيعة اللحم ، قادر على التأجج بحدة تتزايد أبدا مع مر السنين · لهذا كنت تزداد قسوة باستمرار وأنت تشيخ (كنت أرى ذلك فيك وأعجب بك لأجله) وتزداد شجاعة كلما اقتربت من الهاوية ·ألقيت بأجساد القديسين والحاكمين والرهبان في بوتقة نظرتك وذوبتها كما تذوب المعادن فازلت عنها صدأها وصفيت منها الذهب الخالص : روحها · أية

★ Moving Monad

روح ؟ اللهب • ووحدت ذلك بالحريق الذي ولدنا وبالحريق الـذي سيلتهمنا •

كان المتعقلون يتهموننا بأننا نكبر الأجنحة الملائكية كثيرا وبأن لدينا صفاقة الرغبة في اطلاق السهم الى ما وراء الحدود البشريـة ، ان شيطانا في داخلنا ـ ولنسمه لوسيفر لأنه يجلب النور ـ هو الذي يظل يحثنا على ذلك • فهو الذي كان يرغب في تخطي الحدود لكي يذهب الى حيث لا ندري • كل ما نعرفه أنه يذهب أعلى • ومثل القديس جورج ، الذي كان يحمل على كفل جواده الأميرة الشابـة التي كان التنين يرغب في التهامها ، كان الشيطان يحمل الحياة ، الحياة التي كانت تختفي وتتعرض للخطر داخل كل شيء حي ، والتي كانت ترغب في الهرب لانقاذ نفسها ، لا بد ان القرود قد أحست بزخم الكون فيها ، بالطريقة ذاتها ، يحرضها على ان تقف على أرجلها الخلفية ، وعلى الرغم من ان الألم كان يجعلها تعول ، وعلى ان تحك عودين معا لتوليد شرارة على الرغم من ان القرود الأخرى كانت تسخر منها • وهكذا ولد الانسان القرد وولد الانسان • وهكذا ، يا جدي ، كانت القوة التي لا تفنى ولا ترحم ترفس صدورنا أيضا : لكي تنقذ نفسها من الانسان وان تتابع طريقها بعده • لم تظن اننا كنا نذوي ونقاسي بين البشر ؟ كانوا يصرخون : « نرفض الذهاب أبعد من ذلك • أطبقا أجنحتكما ولا تطلقا السهم الى هذا القـدر من العلو • أنكمـا لا تخافـان اللـه ولا تستمعـان لصـوت العقل • اجلسا ! » الا اننا لم نكن نتكلم بل كنا نعمل • كنا نعمل بأجنحتنا ونشد قوسنا • فتحنا أحشاءنا لنسمح للشيطان بالخروج •

لقد وبخك المفتش العام في توليدو ★ ذات يوم قائلا : « لا أحب الملائكة التي ترسمها ولا القديسين • فبدل من أن تجعـل الناس يصلون انها تجعلهم يندهشون • الجمال يزج نفسه عائقا بـين أرواحنا والله » •

وضحكت وأنت تفكر بصمت : انني لا أريد أن أجعل الناس

★ هي طليطلة .

يصلون · من قال لك انني كنت أريد أن أجعل الناس يصلون ؟··· الا انك لم تتكلم ·

وشخص آخر ، هذه المرة رسام وصديق شخصي ، هز رأسه حين رأى « توليدو في العاصفة » وأعلن : « انك تدوس القواعد · هذا ليس فنا · لقد تخطيت حدود العقل ودخلت مملكة الجنون » ·

وابتسمت (كيف حدث انك لم تنفجر غضبا ؟) وأجبته : « من قال لك انني أنتج فنا ؟ أنا لا أنتج فنا ولا أهتم للجمال · العقل مقيد خانق لي وكذلك القواعد · أنا ، مثل السمك الطائر ، اقفز خارجا من المياه الآمنة المطمئنة وأدخل جوا أكثر أثيرية مليئا بالجنون » ·

صمتّ لحظة وتطلعت الى توليدو التي رسمتها : ملفعة بغيوم سوداء ومهدمة بالصواعق ، وأبراجها وكنائسها وقصورها التي تحررت من أجسادها الحجرية لتظهر من وسط السواد مثل أشباح ملفعة ببهاء مقلق · تطلعت اليها وبدأ منخراك يرتعشان وأنت تتنشق رائحة الكبريت · وبعد التأمل لحظة في صمت هتفت متألما وأنت تنشب أظافرك في صدرك : « أي شيطان في داخلي ؟ من أضرم النار في توليدو ؟ انني ، فعلا ، أستنشق ريحا مليئة بالجنون والموت ، أعني انها مليئة بالحرية » ·

الوحيد الذي كان قادرا على فهم السعار القدسي كان شاعرا (ولا أهمية لكونه راهبا أيضا) ، الأب هورتنسيو فيلكس بارافيسينو · رأى الظلمة المخيفة ، والصواعق الوحشية والاجنحة الكبيرة والقديسين الذين ذابت أجسادهم عنهم وتحولوا الى شموع ملتهبة وأمسك يدك الملطخة بالألوان ذات يوم وقبلها · قال : « لقد جعلت الثلج ذاته يتفجر باللهب · لقد تخطيت الطبيعة · وان الروح لتبقى متشككة في دهشتها : أي من الاثنين ـ مخلوق الله أم مخلوقك ـ يستحق ان يحيا » · وعند نهاية هذه الكلمات بدأ صوته يرتجف ·

كنت تسمع باسما هادئا للاهانات وللمدائح · واذا حدث بين

حين وآخر ان تظاهرت بالغضب ، فان الغضب يكون عندها عاصفة سطحية على وجهك بينما تبقى الأعماق التحتية ساكنة . ولأنك كنت تعي السر العظيم فانك لم تكن تحمل أملا أو خوفا أو خداعا عبثيا للنفس . ان البشر يتصارعون مع هذين الشبحين العظيمين الخير والشر (من يدري ربما كانا وجهين لله) . ويقول الأكثر جهلا انّ الخير والشر عدوان . ويصعد آخرون خطوة أخرى أعلى من ذلك ويقولون ان الخير والشر حليفان . بينما آخرون غـيرهم ، وهـم يشملون لعبة الحياة والموت على هذه القشرة الارضيـة بنظـرة شاملة ، فيفرحون للانسجام ويقولون : الخير والشر (واحد) .

الا أننا ، يا جدي ، واعيان للسر العظيم . اننا نكشفه ومـن يهتم ان لم يصدقنا أحد . الأفضل أن لا يصدقونا . الانسان عاجز وهو في حاجة الى العزاءات . واذا صدق فان دمه سيجمد رعبا . أي سر ؟ ان هذا الـ (واحد) غير موجود .

ذهبت ذات يوم الى بيتك في توليدو ، يا جدي ، لكي أستطيع أنا أيضا أن أرى القديسيين والحواريين والنبلاء الذين رسمتهم . كم خففت عنهم من عبء اللحم وجعلتهم على وشك ان يتحولوا الى لهب . لم يسبق لي في حياتي كلها أن رأيت لهبا أكثر اضطراما . قلت لنفسي : هكذا يهزم اللحم وهكذا يتم الحفاظ على الجوهر الثمين من التفسخ ، ليس أقدامنا أو أيدينا المصنوعة من الطين ولا شعرنا الأشقر أو الاسود ، بل الجوهر الثمين الذي يكافح داخل هذا الكيس الجلدي والذي يسميه بعضهم روحا ويسميه آخرون لهبا .

لو كنت ، يا جدي ، ما تزال مكتسيا لحمك لجلبت لك بعض العسل والميزاثيرا ★ والبرتقال هدية من كريت ولجلبت لك أيضا هاريديموس ، عازف الربابة الظريف الذي يضع قطفة الحبق وراء أذنه ، لكي يغني لك المانتينادات التي كنت مولعا بها :

★ نوع من الجبنة شبيه بالجبنة الحلوم .

أدر الدفة وعانق عهدك وليأت ما يمكن أن يأتي
من يهتم اذا نجح المشروع أم مات ٠

□

امامك عمل ، أبحر ولا تخف
وادفع شبابك من أجله دون أن تذرف دمعة ٠

□

أنا ابن البرق وحفيد هزيم الرعد
على راحتي أبرق وأرعد ، وعلى راحتي أسقط البَرَد ٠

الا انك قد تحولت الى لهب ٠ أين أستطيع أن أجدك ؟ وكيف أستطيع أن أراك ؟ وأية هدية أستطيع أن أجلبها لك لأجعلك تتذكر كريت وتنهض من القبر ؟ للهب وحده قيمة في نظرك ٠ آه لو انني أستطيع أن أتحول الى لهب وأنضم اليك !

منذ سبعة وثلاثين عاما كنت تجثم على هذا المطل الذي اسمه توليدو ٠ ومنذ سبعة وثلاثين عاما لا بد انك قد خطوت على هذه الشرفة التي أقف عليها الآن ورحت ترقب نهر تاغوس الموحل وهو يجري تحت جسر القنطرة Alcantara ذي القوسين ، ترقبه يجري ويتقدم ليصب في المحيط ويتلاشى ٠ وكان عقلك يجري معه وحياتك كانت تجري أيضا ، وتتقدم لتصب في الموت وتتلاشى ٠ وخرجت من أعماقك صرخات مريرة متمردة ٠ لم أفعل شيئا حتى الآن ، لا شيء ، هكذا رحت تفكر بينك وبين نفسك وأنت تشد قبضتيك (لم تتنهد بل غضبت) ٠ لم أفعل شيئا ٠ ما الذي تستطيع الروح ان تحققه بالالوان والقماش ؟ أنا لا يلائمني ان أمكث هنا في نهاية الدنيا لأمزج الألوان وأتلهى بفرشاة وأرسم القديسين والمسيحيين المصلوبين ٠ هذا النقل للصور لا يخفف عن روحي ٠ العالم ضيق والحياة ضيقة وضيق هو الله ٠ كان علي أن التقط النار ـ النار والبحر والرياح والحجارة ـ كي أبني العالم كما كنت أريده : ندا لمكانتي ٠

بدأت الشمس تغرب ، وصارت الأسطحة ذهبية وأعتم النهر وأطل نجم المساء من الجبل · أشعلت المصابيح في بيتك وراحت خادمتك المخلصة العجوز ماريا غوميز تعد المائدة · وخطت جيرونيما، الرفيقة العزيزة لساعات نومك وصحوك ، الى الشرفة ولمست يدك برفق لئلا تخيفك · قالت : « حل الظلام الآن · لقد اشتغلت طوال النهار ولم تأكل شيئا · الا تشفق على جسدك ؟ هيا ··· »

لكنك كنت قد أوقفت خلقك للعالم والتفتّ الى كريت · كنت تخطو فوق الجبال الكريتية فلم تسمع الصوت اللطيف ولم تحس باليد البيضاء · لم تكن قد بلغت العشرين من عمرك · وكان الجو عابقا بالزعتر · كنت تغني المانتينادات الثلاث التي أنت مغرم بها ، ومنديل ذو أطراف طويلة يطوق شعرك الفاحم وقطيفة وراء أذنك وكنت ذاهبا الى دير فرونديسي الشهير لترسم العرس في قانا ★ الذي طلبه منك رئيس الدير ·

كان عقلك فائضا بالألوان الزرقاء والقرمزية والخضراء · كان العروسان متربعين على مقعدين مرتفعين مزينين بنقوش نسرين مزدوجي الرؤوس · موائد العرس معدة والضيوف يأكلون ويشربون· وكان عازف الربابة يجلس في وسطهم يعزف على آلته ويغني أغاني الزفاف المرحة · كان المسيح يقوم ـ لقد سكر وتوردت وجنتاه ـ ويضع فلورينا فضيا على جبين العازف ···

وبغتة جاءك الصوت الحبيب وكأنه قادم من بعد · سمعته وأجبت : « انني قادم » · وتبعت المرأة باسما ، تلك المرأة التي أعادتك بلطف الى الأرض · لكن عرس قانا يتوالد في ذهنك ، وكانت الربابة الكريتية المرنان ترن وتعول في داخلك · وبغتة بدت الوجبة اليومية مثل وليمة عرس · كنت تحتفظ بعازفين في خدمتك · واستدعيتهما ، أيها العريس ، ليعزفا على المزمار والغيتار وأنت تأكل لكي يستطيع طعامك المتواضع ان يصبح مأدبة عرس قانا · وحين انتهيت من الأكل نهضت انت الآخر (تذكرت الصورة التي رسمتها في خيالك) وبكرم نبيل وضعت دوقتين ذهبيتين على جبيني العازفين ·

★ قانا قرية في الجليل ، قيل ان المسيح حضر عرسا فيها وهناك قام بمعجزة تحويل الماء الى خمر ·

لقد كنت تعيش مثل لورد • وبما أنـك لم تكن تملـك الا الاحتقار للاقتصاد فلقد بددت كل ما كنت تكسبه من فنك • كان الأصدقاء والاعداء يعيبون عليك ذلك ويعنفونك • وكانوا يسألونك : « ما الذي تفعله ببيت مؤلف من أربع وعشرين غرفة ؟ وماذا تفعل بالعازفين ؟ لم لا تتنازل بحمل ايقوناتك على ظهرك مثل الآخرين والتجول على الكنائس والأديرة لبيعها ؟ » •

كانوا يسمونك صاحب النزوات شامخ الأنف المتعجرف • وكنت تشتعل غضبا اذا ما قيلت في حقك كلمة واحدة ، وكنـت تتفجر غيظا اذا ما سئلت كم دوقية تتوقع ثمنا للوحاتك • كنت تجيب : « لوحاتي ليست للبيع • انها لا يمكن ان تشترى • ان أعمالا فنية مثل أعمالي هي خارج منال أية محفظة نقود • انني ، ببساطة ، اتركها لديك رهينة • وحينما أشاء سأعيد دوقياتـك وأستعيد لوحاتي » •

سألك القضاة : « من أين أنت ؟ ولماذا جئت الى توليدو ؟ ومن أنت ؟ » لكنك قاطعتهم وقلت : « لسـت ملزما بالاجابـة • ولن أجيب » الا أنك حين لم يجبروك نقشت اسمك كبيرا وعريضا على لوحاتك وفي أسفلها بكبرياء جليل « كريتي » •

وحين ذعر الملك فيليب ذو الأنف الثعباني لرؤيـة القـديس موريس الذي رسمته له عضضت على شفتيك ولم تتنازل بالتوسل او بتخفيف حدة ألوانك • وبدلا من ذلك حملت ، وأنت ملفع باللهب ، غضبك وكبرياءك وفنك العصي معك وانطلقت هاربا الى توليدو •

كانت لحظة عظيمة • ضمير نقي شريف يقف على كفة ميزان وامبراطورية على الكفة الأخرى • وكنت أنت ، ضمير الانسان ، الذي أرجح الكفة • سيكون هذا الضمير قادرا على أن يقف أمام الله يوم القيامة دون ان يحكم عليه ، بل هو الذي سيحكم لأن الكرامة الانسانية والنقاء والبسالة تملأ حتى الله بالرعب •

اعذرني يا جدي لعجزي عن ضبط نفسي • لقد أحسست باعجاب كبير باللحظة المفعمة بالنبل التي اجتزت فيها العتبة الملكية ورحلت

رافع الرأس متخليا عن مكاسب العالم الكبيرة والصغيرة ومخلفا اياها وراءك باحتقار الى درجة انني تجرأت على تثبيت تلك اللحظة في الشعر والوزن لكي أمنعها من الفرار · لقد كتبت ثنائي بحبر أسود وبحبر أحمر وعلقته في الهواء :

ملتفا على رف صخري تحت اللهب المتأجج
كان الملك ـ الدودة ـ يرقب ،
بنظرته المديدة ، البنائين
يعلون ضريحه المعزول المربع
حولهم من كل الجهات ·
حجرة وقصر وقبر ،
كان الغرانيت القاسي ذو الألوان الفجة
يجأر فظا وعاريا
على الصخر الأجرد ·
كان فمه المزبد يتشقق
وكان الوجه الشمعي الأبيض للقاضي الآثم
والجسد الذاوي يتفسخان ببطء ـ
حينما ، بغتة ، من قمة الجبل
انقض بزعقة مغتبطة
عقاب جائع على الهيكل المخدر :
قبل ثلاثين عاما ، كان يفوح نتنا ·
ويحس الشاب الوسيم ، الكريتي ،
بالطائر الصياد ينطلق
من ذهنه لينقض على السلطان ·
ما تزال تتردد في صيوان أذنه
لسعة الجلدة المهسهسة المليئة بالنقمة
والتي أخرجته من هيكل أحلامه :
« الملك يرفض القديس موريس ! »
اهتز الهواء ورن ـ
تعالى اللهب من كل صوب ،
أسلحة وملائكة ،
وتمتد النار الى الصور

مستغرقة فــي اللــه ،
الرماح ليالك مشرعة مغتسلة بالشمس ،
والزهور تنبثق من الحجارة المحماة ،
والتروس مصقولة زمردية ياقوتية ،
والضوء يجوس ، كالأسد ، ويلتهم ،
في السماء كان المحاربون الشجعان ،
بهياكلهم الضبابية ، يزحفون أرتالا
مثل أعمدة العصف الباكر ٠
ويعجن الشاب ، بأصابع قوية متشنجة ،
كتلة من البطم الكريتي الحار
فتتعطر كفه الــى الأبــد ٠
الوقت ظهر ٠ والشمس تسطع على الحجارة ٠
ويرى حامي الثغور النحيل خلقا جديدا
يومض في الضوء غير واضح -
يظهر شكله ساميا وعاريا ٠
وكجناح مستقيم ينتشر بقوة محطمة
فيهز ، وهو سجين ، الدير
ومعقل البشر الثقيل ، الجسد الواهي
وتنفتح على السماء نافذة لازوردية ٠
الطيور الملائكة ، هابطة الى كير العقل ،
وكالتفاحات الذهبية
تتدلى أنباء الملك السوداء ،
ومن أعالي السماء الطاهرة
يندفع عقاب العقل ،
هابطا بصمت الى دماغ الكريتي ،
ملاكا عظيما فمه مليء بالنار ٠
يعبر الأطفال ، مثل الجمر بعد مطر المساء ،
ويعبر الرهبان والعذراوات
واللوردات بخدود غائــرة ،
والأمهات مكرسات لأبنائهن : آلهتهن ٠
تتحرق كفاه للبــدء
رغبات مبهمة تخنقه ،

وبعضات نهمة كبيرة
يعاين قماش اللوحة الأثيري في الهواء ٠
تسيل الألوان كثيفة وتجيش مرحة
في دماغه قبل ان تتمكن اليد من الامساك بها ٠
تندفع الملائكة الباسلة
وأعشاش من النيازك تتفجر على الرؤوس ٠
وكرايات حربية تعود مزقا ،
تشتعل الرايات في عقله ،
تمسك مفاتيح ونيرانا ، تلك المحبوبة ،
الكأس الكبيرة المزخرفة بأفعى ٠
ويحس الشاب بالله منحنيا فوقه
وينزل مثل كتل من النار ، يزعق
وجسده مضحى به على الصليب ٠
أرض مهتاجة ٠ ومثل لسان أسد
تلعق الرحمة الالهية الحجارة بنهم ٠
ويلتف الجمهور الذي لم يولد حول خاصرتيه
في رقصة مرحة رجاجة ٠
تشتعل أصابعه
وواحدة بعد أخرى يشعل الذرى ،
رؤوس لهب خافت
على شموع حجمها ضعف حجم الانسان ٠
وببهاء غير دنيوي ،
مثل هالة القمر اللؤلؤية ،
تومىء اليه قشرة الأرض العليا :
« سأسحب الجسد : دعه يتكسر !
فالله ، المغناطيس العالي بين الغيوم ،
يجذبني الى قاعة الرقص الأثيرية الثلاثية ٠
الا ان الملك ذلك العشب الخنزيري السام ،
يطردني من خمّ دجاجه الموحش ،
انه يرى الضوء والمخاوف ٠
عليك اللعنة ! وداعا ، ولكن اعلم
ايها المنخل اللحمي ، ان الفن

ليس خضوعا وقواعد
بل هو شيطان يحطم القوالب .
انني أتركك لتزيل شعر العانة
برساميك الخصيان الأرذال » .
هكـذا تكلـم .
وبمواجهة الشمس ، نحو مخرطة الغرانيت
ثبت عينيه ، تينك الجوهرتين الثمينتين القاسيتين ،
على المنحدرات العمودية .
تشمم البطـم
فتسللت النمرة المدللة ، كريت ،
وراحت تجوب ظلمة أعماقه الحالكة .
هموم ثقيلة ، ورغبات طموح ورجولية ،
تتجاوب في صدره كالطبول
كطنين النحل في الزعتر المزهر
وتدخل فروديسي الحبيبة الى عقله .
ويتصاعد البخار من بسيلوريتي ملتهبا .
وتسحق المياه الجليدية النبع المرمري ،
انتصب الجسر عاليا .
وتعول الربابة المرنان برقصتها الرشيقة .
تنتقع شفتاه بالبحر ، انه ما يزال قادرا على ان يسمع
ـ أيها الكنز المخبوء ـ
الشماس الزاهد في ميناء كاسترو
قبل ان يبحر
والتحذير المبالغ به من مولاه العجوز :
« يا كيرياكوس
لقد كنت ملفعا بلهب النبوة
فلا تسقط في شرك الدعة ،
لاعق قدور في بلاط ملكي
اضطرم في دروب لم تسلك وتقدم ! »
أيها القلب النزوي ،
حين كان الأمل الخداع
يقدم أحلاما عذبة وخانعة

لمــاذا اختبأت
ولم تهمزني بكعبك الغاضب
لتجعلنا نرحــل ؟
فلنعد يا قلب ! لنعد الى البيت ٠
هكــذا قــال ٠
وكانت روحه تثب كالفهد
نهضت الوحشة ـ حصنا ٠
واضطرم الله كالنجم على حاجبيه ،
وهو يتبعه ، التفت يريد الهرب ٠
وجاءت مانتينادا منغمة
لتقلب موازين ارادته :
[أمامك عمل ، أبحر ولا تخف
وادفع شبابك من أجله دون أن تذرف دمعة]
أنا ذرفت دموعا من أجل شبابي ؟ لا ٠ ليس أنا
ان الصبر يعيقني ٠ كفاني ٠
لقد خلقنا ، أيها القلب ،
لننشر جناحي الحرية الأصيلين بعنف
ونهلك في دروب سامية ٠
اننا نحمل في يدنا سيفا ! هو النور ٠
واجه الشمس متجها نحو كريت ،
لكي تجد الحريــة
والعزلة المقــدسة !
وبسرعة ينحرف الى اليمين
نحو منزل والده في المرفأ البعيد ،
ولوحت قمة بسيلوريتي الشامخة
مثل منديل فوق عقله ،
وتمدد سهل ميسارا واسعا ومخضوضرا
بحدائقــه الغنــاء ٠
الا انه يقف علــى قدميه بغتة
فقد أمسكت به يدان مخيفتان ٠
أجنحــة ،
سمع خفق الأجنحة و ـ

آه يا الالق الساطع ـ
أترعت عيناه بالنجوم ٠
وراح لهب روحي ، أخضر وذهبي ،
يلفح بسرعة جلدة رأسه
ومعه لفحات كبريتية مبرقة لاذعة ٠
ويقفز عليه ملاك العرش ، الريح الجنوبية الدافئة ،
وجناحاه مضمخان بالبطم ، يضم الشاب الى صدره الضخم
ثم يرفس الأرض وينطلق عاليا
وهو مندفع عبر الأعماق اللازوردية ،
يشحب الشاب في الضوء الهتون القاسي ٠
يشد منديله الكريتي بقوة
وعيناه السوداوان مفتوحتان
وشفتاه مزمومتان بقوة
ثم ينظر الى الشمس المتقدة
التي ذوبت أعمق طبقات الارض ٠
جثة تنوّر الضريح
والنمال ، البناة ، تصقله ٠
تصفر الهضاب ، وتتلوى الدروب
ينحني على القيدوم الملائكي
ويحصد الضوء ، ذروة الرغبة ٠
نهضت قامة الأرض اللامرئية
لقد ألقاه صدر ملاكه الداخلي
على القمم العذراء ،
على الأمل الوحيد للحرية الوحشية ،
أسمى ما في هذا العالم
كريت العليا ، الوطن السري ٠

ظللت طوال النهار أتجول في أزقة توليدو الضيقة ٠ كنت أتنشق رائحة الكبريت في الهواء وكأن صاعقة قد نزلت ٠ كانت الريح ما تزال لها رائحة الوحش البري بعد أكثر من ثلاثة قرون مرت على عبورك ، وكأن أسدا قد سار على هذا الطريق ٠ كم هو مخيف ومفرح أن تسير وانت تحس بروح عظيمة تخفق بجناحيها فوقك مهتاجة !

حينما ذهبت الى فراشي ليلا وأحشائي مليئة بأنفاسك يا هدي جاء النوم وحملني بعيدا • أكان نوما ؟ أم كان قاربا ذا ثلاثة صوار بأشرعة مرتفعة ؟ اعتليته ، وفي اللحظة التي التفت فيها لأسأل القبطان أين نحن ذاهبون كنا قد ألقينا المرساة في ميغالو كاسترو ، في كريت • كانت حجر الأسود الفينيسية المجنحة قد توردت تحت شمس الأصيل ، وكانت راية القديس مارك تلوّح فوق البرج العظيم • وكان الرصيف عابقا بروائح الخمر وزيت الزيتون والليمون والبرتقال والى جانب بوابة المرفأ كانت خمارة جيرونيمو تعج مليئة بالفينيسيين السكارى وبالبحارة الجنوبيين وبنساء صفيقات يترددن على الواجهة المائية • جلسنا ، نحن الأثنين ، خلف برميل مائل على جنبه • وجلبت لنا محارات وسرطعانات مشوية كمازه ، ورحنا نفرغ كؤوسنا ونملأها مرة بعد اخرى دون أن نتكلم وكل منا يحدق في عيني الآخر •

كنا شابين • أنت في العشرين وأنا في السابعة عشرة ، وعلى الرغم من اننا كنا نحب الفتاة ذاتها فاننا لم نتشاجر لأننا كنا صديقين لا مثيل لهما • في الليل كان كل منا يغني تحت نافذتها الموصدة مهدئين قلبينا بالمواويل ، أنت تحمل مزمارا وأنا أحمل غيتارا • كان صوتانا يمتزجان • صوتك عميق ورجولي ، وصوتي ما يزال غير ناضج • ثم تركنا للفتاة حرية ان تختار من وراء نافذتها الموصدة • افترقنا عند الفجر • أنت لكي تأخذ فرشاتك دون أن تنام ولكي ترسم ملائكة كبارا مجنحين تميل خارجة من أطرها كما هي عادتك ، بينما أنا المرهق اتجهت الى البيت لكي أنام وأحلم بأن النافذة قد فتحت وان تفاحة حمراء قد سقطت في راحتي •

والآن كان كل منا يحدق في الآخر وسط الحانة دون ان نتكلم لأنك سترحل فجر اليوم التالي • ورحنا نشرب لننسى ألم الفراق •

كان الوقت قبيل منتصف الليل حين نهضنا لنغادر الحانة • كنا نشرب خمرة مالفيزية لاذعة وقد تفتح عقلانا وتفرعا فشملا العالم كله • قلت لك : « العالم لنا يا أخ مينيغي • دعنا نذهب » •

تخاصرنا لكي نتساند فلا نتعثر • وأحسست بأنفاسك على خدي • سألت نفسي حتى متى ؟ حتى متى ؟ سيأتي الفجر في

غضون ساعات قليلة وسيغادرني النَفَس الحبيب ولن يقع علي بعدها أبدا ! الا أنني كنت شابا فتحملت الألم ولم تمتلىء عيناي بالدمـوع ٠

عبرنا بوابة المرفأ وانعطفنـا يمينـا ثـم تسلقنـا الجدران الفينيسية التي تحيط بالمدينة ٠ كان البدر بحـزن معلقا فوقنا ومكتملا ٠ وأكبر النجوم وحدها التي كانـت قـادرة علـى مقاومة اضاءته ، وكانت تلك تشع في السماء الحليبية الساكنة بينما كان البحر الكريتي يجأر على يميننا ٠

توقفت أيها الرفيق الحبيب ومددت ذراعك ٠ ثم قلت لي : « انظر ٠ انظر الى الماء ٠ انه يهجم لكي يلتهم الجدران ويطرد الفينيسيين ٠ ألا تستطيع أن ترى ؟ أنظر جيدا ـ هذه ليست أمواجا يا مينغاكي ـ كان هذا هو اللقب المغيظ الذي لقبتني به ، انها خيول ، فرقة فرسان رهيبة ! » ٠

وضحكت : « انها أمواج يا مينيغي ٠ وليست خيولا » ٠

هززت كتفي : « أنك ترى بعينين طينيتين ٠ أما انا فارى بغيرهما ٠ انت ترى الجسد أما أنا فارى الروح » ٠

ـ « ربما فسر لنا ذلك لماذا نحن صديقان عزيزان وغير راغبين في الافتراق ٠ هل تود الروح ان تغادر الجسد ؟ » ٠

ذكرنا هذا بالفراق فأحسسنا بالارهاق ٠

قلت لي وأنت تشد على ذراعي : « تعال ٠ لا تتحدث عـن الفراق » ٠

ومشينا بعضا من الوقت تحت القمر الا ان ذهنينا تركزا على الفراق ٠ كنا معا نجهد من أجل أن نحول تفكيرنا لئلا نقع فريسة للدموع ٠ كنا نخجل من البكاء ٠ لقد قرأ كل منا الاساطير المقدسة وحسد صمود القديسين أمام الألم ـ وعيونهم التي كانت تظل جافة على الرغم من انهم كانوا يفارقون ، والى الأبد ، أعز أحبائهم ـ ولقد نذرنا أنفسنا لتقليدهم ٠

ـ « ما الذي تفكر به ؟ » سألتني وأنت تحاول ان تبدد الصمت ٠

ـ « لا شيء » أجبتك وأنا أحاول اخفاء مشاعري ٠ « صحيح كم هو هائج هذا البحر الكريتي ٠ هذا ما كنت أفكر به ٠ أما وقد ذكرته الآن أحس بالرغبة في النزول الى الشاطىء لقتال الأمواج حتى لو غرقت » ٠

وأجبتني : « يظن الشباب نفسه خالدا ولهذا فهو يتحدى الموت » ٠ وأمسكت بكفي وكأنك كنت تريد ان تمنعني من النزول الى الشاطىء ٠

سررت ، بدا لي ضغطك على يدي ودودا جدا ٠ وعلى الرغم من أن ألمي لفقدانك قد تزايد تظاهرت بعدم الاكتراث واقترحت ان نحول حديثنا الى المسائل اليومية لكي ننسى للحظة اننا مفترقان ٠

وسألتك : « كيف ستعيش بعيدا في أراض غريبة يا مينيغي ؟ انك لا تعرف أحدا ٠ لا أحد تعرفه ونجمك لم يتألق بعد ٠ والدوقات التي أعطاك اياها أخوك مانوزوس ليست كثيرة وأنا أعرف مبلغ يتمك وحرمانك ٠ ستنفقها في لمح البصر ٠ وماذا بعد ذلك ؟ ألست خائفا ؟ » ٠

وأجبتني : « لا تزعج نفسك من أجلي ٠ لا يهم كم ان ما لدي قليل ٠ فهو كاف ٠ و لاأهمية ان كان كثيرا ، فهو ليس كافيا ٠ أتفهم ما أقول ؟ »

ـ لا ٠

وضحكت مثل طفل : « ولا انا ٠ المهم ٠ تلك هي المسألة » ٠

الا انك لاحظت قلقي ٠ وضعت يدك على كتفي وقلت لي لتريحني : « لا تهتم يا مينيغاكي لن أغرق ٠ ان في ذهني أهدافا عظيمة وفي يدي قوة عظيمة ٠ ولسوف أتنافس مع أرهب القوى هناك في أوربا حيث أنا ذاهب لكي أجبر روحي اما على أن تفوز أو أن تفنى ٠ سترى ٠ سترى ، سترى ٠ وقبل كل شيء سأحسم المسألة ـ لا تنصعق ـ مع ميكيل أنجلو ، منذ أيام رأيت نسخة من (يوم القيامة) التي رسمها في روما ٠ وأنا لا أحبها » ٠

كانت عيناك في ضوء القمر تطلقان شررا ، وصار صوتك أجش . انحنيت والتقطت حجرا وقذفت به الى البحر وكأنك كنت تريد ان تدلل على قوتك بمحاجرة الامواج .

ـ لم تنظر الي هكذا ؟ هل يخيل اليك انني قد شربت الكثير من الخمرة فسكرت ؟ أنا لست سكرانا . لا . أنا لا أحب أن أسكر . هو (الله) يبعث اللحم ويمتلىء العالم بالأجساد من جديد . أنا لا أهتم بأي منها . سأرسم قيامة أخرى . سأفعل ذلك . وعلى مستويين . المستوى الأدنى : القبور ، انها مفتوحة والديدان بحجم جسم الانسان تخرج منها قلقة برؤوس مشرعة وكأنها تتنشق الهواء . والمستوى الاسمى : المسيح . المسيح وحيدا تماما . انه يطل وينفخ على الديدان فيمتلىء الجو بالفراشات . هذا هو معنى البعث . يجب ان تتحول الديدان الى فراشات وليس فقط ان تعود الينا وتتحول الى ديدان فانية » .

رفعت نظري وتطلعت اليك في ضوء القمر السحري . كان الهواء حول رأسك الملتهب معبأ بالفراشات .

كنت أفتح فمي لأتكلم (لقد بدت لي القيامة على غاية من الهرطقة) لكنك كنت قد استفززت وكنت تواقا لان تبوح لي بأسرارك في الوقت الملائم ، كان الفجر يدهمنا وكنا مجبرين على الافتراق بعد قليل . لم أصدق أنك كنت تخاطبني بعد ذلك ، كنت تتداعى كما تشاء :

« انهم يرسمون الروح القدس هابطا على رؤوس الحواريين بشكل حمامة . يا للعار ! ألم يحسوا ، أبدا ، بالروح القدس يحـ... ؟ أين وجدوا ذلك الطير البريء الصالح للأكل ؟ كيف يقدمون لنـ... الطائر روحا ؟ لا . الروح القدس ليس حمامة ، بل هو نار نار تنهم البشر ، وتنشب مخالبها في أقحاف القديسين والشهداء والمناضلين العظماء وتحيلهم رمادا . الأرواح الخانعة هي التي تعتبر الروح القدس حمامة . يتخيلون أنهم يستطيعون أن يقتلوها ويأكلوها » .

ثم ضحكت . « ذات يوم ـ اذا شاء الله ـ سأرسم الروح القدس فوق رؤ... الحواريين وعندها سترى » .

غرقت في الصمت ، ثم حركت يدك بسرعة الى الأعلى والى الأسفل وكأنك ترسم العنصرة (عيد الخمسين) في الهواء ٠

وسألتك : « ألا تستطيع تحويل النار الى نور ؟ » ثم أسفت على كلماتي فورا لأن وجهك تجهم ٠ « عليك وعلى هوسك بالنور ! » أجبتني وأنت تقطب حاجبيك ، الطريقة التي تطلعت بها الي جعلتني أظن انك غاضب ٠ « فيم عجلتك ؟٠هذا ليس من شأنك ٠ هذه أرض وليست غيمة ٠ والأرض مصنوعة من أجساد ذات لحم وشحم وعظام ٠ دعنا نحولها الى لهب ٠ هذا ما نستطيع أن نفعله ولا نستطيع ان نفعل أكثر من ذلك ٠ هذا يكفي ! ان النار تنام حتى في الجذل ★ وفي ورقة الشجرة وفي أبهى وأنعم الحلل الملكية ، تنام وتنتظر من يوقظها ٠ أيقظ النار ! هذا واجب الانسان ٠ ان اللهب يخترق الحجارة والبشر والملائكة ، هذا اللهب هو ما أريد أن أرسمه ٠ أنا لا أريد أن أرسم الرماد ٠ آه لو انني أصل في الوقت المناسب ، أنا لا أطلب أكثر من أن أصل في الوقت المناسب٠لهذا تراني ألهث وأنا مسرع ٠ أريد أن أصل قبل أن تترمد » ٠

وهتفت : « اهدأ ! » ٠ احسست بجسدك متلفعا باللهيب ٠ « اهدأ يا رفيقي انني خائف » :

ـ لا تخف يا مينيغاكي ٠ النار هي الأم العذراء ٠ انها تحمل الابن الخالد ٠ أي ابن ؟ النور ٠ الحياة مطهر ٠ ونحن نحترق ٠ ان مهمة الجنة ان تتلقى اللهب الذي هيأناه وأن تحوله الى نور ٠ فلندع الجنة تفعل ذلك ٠

وصمت ثانية ولكن للحظة ٠ ثم قلت : « أريدك ان تعرف ان البشر ، بهذه الطريقة ، يتعاونون مع الله ٠ ان بعض الناس يقولون عني انني مهرطق ، دعهم ٠ ان لدي كتابي المقدس الخاص بي وهو يقول ما نسيته الكتب الأخرى أو ما لم تجرؤ على قوله ٠ انني أفتحه وأقرأ في سفر التكوين : خلق الله العالم وارتاح في اليوم

★ اصل الشجرة ــ الباقي في الارض بعد قطعها .

السابع • وفي هذه المرحلة دعا مخلوقه الأخير ، الانسان ، وقال له : استمع الي يا بني ان كنت تريد بركتي • لقد خلقت العالم لكنني أهملت انهاءه • تركته في نصف اكتماله • انت تتابع الخلق • أحرق العالم ، حوله الى نار وأعده الي وأنا سأحوله الى نور » •

مع الهواء النقي والحديث الخطير بدأنا نحس بالصحو • جلسنا على صخرة ورحنا نحدق الى البحر • من جهة الشمس كانت السماء قد بدأت تبيضّ عند حد الأفق • أما تحتنا فكان البحر ما يزال معتما وصاخبا ، وبدا لي حين التفت للحظة ، يا مينيغي ، أنك ملفع باللهيب •

قلت : انك محقق لا يرحم • تعذب وتقتل الجسد من أجل أن تخلص الروح •

وأجبتني : انت تسميها روحا وأنا أسميه لهبا •

ـ انني أحب الجسد • يبدو لي ان اللحم مقدس فهو أيضا من الله • ولا تغضب اذا ما قلت لك شيئا آخر : ان في اللحم بريقا من الروح وفي الروح زغب لحمي • وهما يعيشان معا في توازن منسجم مثل صبيتين صديقتين وجارتين • وأنت تحطم التوازن المقدس •

التوازن يعني الركود • والركود يعني الموت •

ـ ولكن الحياة ، في هذه الحالة ، رفض دائم • انك ترفض ما نجح في مقاومة التحلل وفي اقامة التوازن • أنت تحطم ذلك الشيء وتبحث عما هو منشكوك فيه •

ـ بل أنا ابحث عما هو مؤكد • انني أمزق الأقنعة واكشط طبقات اللحم • انني أقول لنفسي ان شيئا ما خالدا موجود تحت اللحم ولا يستطيع ان يكون من نوع آخر • هذا ما أبحث عنه وهذا ما سأرسمه • وما تبقى كله ـ اللحم والأقنعة والجمال ـ أقدمه بسرور الى تيتيان وتنتوريتو ★ وأرجو أن يستمتعا به •

★ رساماں ايطاليان •

ـ تريد أن تتجاوز تيتيان وتنتوريتـو ؟ لا تنس المانتينادا الكريتية : اذا بنيت عشك عاليا جدا سينكسر الغصن ٠

وهززت راسك : لا ٠ أنا لا أريد أن أتجاوز أحدا ٠ أنا وحيد ومهجـور ٠

ـ انك معتز جدا بنفسك يا مينيغي ٠ مثل لوسيفر ٠

ـ بل أنا وحيد جدا ٠

ـ انتبه يا صديقي العزيز فالله يعاقب الصلف والاعتزال ٠

ودون أن تجيب ألقيت نظرة على البحر الصاخب ثم نقلت نظرك الى المدينة التي ما تزال نائمة ٠ كانت أول الديوك تصيح ، فنهضت ٠ قلت : « تعال ٠ انه الفجر » ٠

خاصرتني من جديد وتابعنا سيرنا ٠ كنت تغمغم ببعض الكلمات وتفتح فمك ثم تغلقه ٠ من الواضح انك كنت ترغب في الكشف عن شيء ما الا انك كنت مترددا ٠ وأخيرا لم تعد قادرا على السيطرة على نفسك ٠

ـ مينيغاكي ٠ ان ما سأقوله لك محزن ٠ اعذرني ٠ تستطيـع أن تقول انني سكـران ٠

ضحكت : « بما انك سكران فانها فرصتك الكاملة لأن تقول ما تمتنع عن قوله حين تكون صاحيا ٠ انها الخمرة الماليغيزية وليس أنت ٠٠٠ حسن ؟ » ٠

وتجاوب صوتك غاية في العمق والمرارة في ذلك الفجر الشاحب ٠

ـ « ذات يوم سألت الله : متى ستغفر للوسيفر يا مولاي ؟ وأجابني الله : حين يغفر لي ٠ هل تفهم يا صديقي الشاب ؟ اذا سئلت يوما من هو أعظم معاوني الله عليك ان تقول انه لوسيفر ٠ واذا سئلت من هو أكثر مخلوقات الله حزنا ؟ فقل انه لوسيفر ٠ وأخيرا اذا سئلت من هو الابن الضال الذي ينتظره أبوه بذراعـين مفتوحين والذي قتل العجل المعلوف السمين فقل انه لوسيفر ٠

« انني أكشف لك عن أسراري الخبيثة لأنني أريدك ان تعرف انني اذا تأخرت أو عجزت عن انجاز كل ما أنوي انجازه فان عليك ان تتابع النضال ٠ تابعه دون خوف ولا تنس الوصية الوحشية التي يوصي بها الكريتي للكريتي : اسفح شبابك من أجله ولا تذرف دمعة ٠ هذا هو ما يعنيه أن تكون رجلا : ان تكون شجاعا بحق : باليكاري (قبضاي) ٠ وتلك هي الرغبة القصوى للهب المقدس ٠

« هل تعدني ؟ أتستطيع القيام بذلك ؟ ألن تهن شجاعتك ؟ ألن تتطلع وراءك لتقول : ان الرفاه أمر جميل وكذلك عناق امرأة وكذلك المجد ؟ ٠٠٠ لم لا تتكلم ؟

ـ المهمة التي تعهد بها الي ثقيلة يا مينيغي ٠ ألم يكن من الممكن جعل واجب الانسان اقل مرارة بقليل ؟

ـ نعم ٠ ولكن ليس لك أولي ٠ هناك ثلاثة أنواع من الأرواح ، ثلاثة أنواع من الصلوات : الأولى : أنا قوس في يديك يا مولاي ، شدني لئلا أتفسخ ، والثانية لا تشدني كثيرا يا مولاي لئلا أتحطم ٠ والثالثة : شدني كثيرا فمن سيهتم ان تحطمت ٠ فاختر بينها !

□

استيقظت ٠ كانت أجراس الكنيسة المجاورة ، سانتو تومي ، تقرع لصلاة الصبح ٠ لقد بدأ النهار ٠ وتجاوبت أصداء الصرخات في الشارع وفرقعت كعوب النساء على حجارة الشارع وصاح ديك فتي بصوت أجش في صحن الدار ٠ كانت توليدو تستيقظ ٠ وكان حلمي ما يزال معلقا على أجفاني ٠ كنت ما أزال قادرا على سماع الكلمة الأخيرة التي لا ترحم تلك التي ملأتني رعبا وهزتني فأيقظتني من نومي : اختــر !

كم من الوقت يا جدي الحبيب ـ ومضة أم ثلاثة قرون ـ قد مر منذ تلك الليلة التي نمت فيها في توليدو ، وأنت ، حين أحسست بوصول كريتي الى جوارك ، نهضت من قبرك وتحولت الى حلم وجئت تبحث عني ؟ ومن الذي يستطيع ان يميز في جو الحب بين

اللحظة والأزل ؟ لقد انسلت حياة منذئذ ٠ ابيضّ الشعر الاسود وغارت الأصداغ ووهنت العيون ٠ ولم أستطع ، أبدا ، أن أقرر بين يدي من ، الله أم الشيطان ، كان القوس يطقطق ٠ لكنني فرحت لاحساسي بقوة ، أعظم وأنقى من قوتي بكثير ، تثابر على تزويدي بالسهام ومساعدتي على الاطلاق ٠ ان الخشب كله من الصليب الحقيقي لأن الخشب كله يمكن ان يصنع صليبا ٠ وكذلك فان الأجساد كلها مقدسة لأن الاجساد كلها يمكن أن تصنع قوسا ٠ لقد كنت طوال حياتي قوسا بين يدين قاسيتين نهمتين ٠ وكم من المرات شدتني بها هاتان اليدان الخفيتان وبالغت في شدي حتى سمعت الطقطقة التي تنذر بالانكسار ٠ وفي كل مرة كنت أصرخ « فليتكسر ! » ٠ ففي النهاية أنت الذي أمرتني أن أختار يا جدي ولقد اخترت ٠

اخترت ٠ الشفق يلقي بسديمه على رؤوس التلال ٠ والظلال قد استطالت. وامتلأ الهواء بالموتى ٠ ان المعركة توشك على الانتهاء ٠ هل انتصرت أم هزمت ؟ الشيء الوحيد الذي أعرفه هو : انني مثخن بالجراح وأنا ما أزال واقفا على قدمي ٠

مثخن بالجراح وكلها في صدري ٠ لقد فعلت ما استطعت يا جدي ٠ وأكثر مما كنت أستطيع ٠ تماما كما أمرتني ٠ لم أكن أريد لك أن تخجل بي ٠ أما وقد انتهت المعركة الآن فانني آتي لأضطجع الى جانبك ، ولأصبح ترابا الى جانبك ، لكي ننتظر معا يوم الدينونة ٠

أقبل يدك يا جدي ٠ أقبل كتفك اليمنى وأقبل كتفك اليسرى ٠

جــدي !

مــرحبا !

الفهرس

فهرس كتاب كازنتزاكي